
كريس هارمان
تاريخ شعبى
للعالم
كما صنعه الجنس البشرى
من العصر الحجرى إلى الألفية الجديدة
الجزء الثانى
ترجمة
طلعت الشايب
تقديم
أسامة الغزولى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 3198
- تاريخ شعبى للعالم: كما صنعه الجنس البشرى (من العصر الحجرى إلى الألفية الجديدة (ج١)
- كريس هارمان
- طلعت الشايب
- أسامة الغزولى
- الطبعة الأولى 2019

هذه ترجمة كتاب:
A People's History of the World
By: Chris Harman

First Published 1999

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ شعبى للعالم

كما صنعه الجنس البشرى
من العصر الحجرى إلى الألفية الجديدة

(الجزء الأول)

تـأليف : كـريس هارمـان

ترجمـة : طلعـت الـشايب

تقـديم : أسـامة الغـزولى



2019


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية
مكتبة سور الأزبكية

المحتويات

تقديم

المترجم والكتاب والمؤلف

تُعنَى مقدمة الترجمة، أولا، بالنص فى صورتيه: صورته الأولى باعتباره النص المنبع **source text** الذى يسمى أيضا النص الأصلى **original text**، ثم صورته الثانية باعتباره النص المُستَهْدَف **target text**، ثم بالمؤلف، لتصل فى النهاية إلى المترجم وإلى أدائه، كما تجسد فى نصه المستهدف. فلماذا نبدأ هنا بالمترجم؟

المترجم

نبدأ هنا من حيث ينتهى الآخرون، لأن الزميل والصديق الأستاذ محمد طلعت الشايب ترجم جزءا كبيرا من هذا الكتاب، ورحل عنا قبل أن ينتهى منه. وتعين علىّ أن أواصل الترجمة من حيث تركها. وبقى هو مترجم النص، لأنه اختاره، وحدد فى الجزء الأول من الكتاب مسار نقله إلى العربية، وتعين علىّ أن ألتزم مساره، قدر استطاعتى.

نستفتح وقفتنا القصيرة أمام موروث طلعت الشايب بالصفة المميزة الأولى له كمترجم، بناء على ما تبين لنا عبر عشرات الأعوام من معرفة شخصية ومهنية، وبناء على ما قاله هو فى ورقته البحثية " المترجم طليقا – عن التجربة وصاحبها" قدمها لمؤتمر "الترجمة وإشكاليات المثاقفة" الذى نظمه منتدى العلاقات العربية والدولية بالدوحة ٢٦ – ٢٧ فبراير ٢٠١٤". وهذه الصفة الأولى هى "**الالتزام**".

هو **مترجم ملتزم**. يبدأ التزامه بحقيقة أنه اختار كل نص من النصوص التى ترجمها، فى المرحلة المدنية من حياته. وهذا يختلف، تماما، عن موقفى من الترجمة. فأنا لم أختر، أبدا، نصا من النصوص التى ترجمتها، لا عندما كنت مترجما عسكريا، ولا بعد أن أصبحت مترجما مدنيا. مثل طلعت الشايب، نقلنى الجيش من الترجمة عن الإنكليزية إلى الترجمة عن الروسية. وإذا كان طلعت الشايب، بعد الانتهاء من خدمته العسكرية، صار هو من يقرر لنفسه ما يترجمه، فأنا بقيت، حتى هذه اللحظة، آخذ ما يقرره لى "سوق الترجمة" ومن يديرونه، وبينهم طلعت الشايب نفسه، الذى كلفنى، من موقعه فى المكتب الفنى لمركز القومى للترجمة، بترجمة بعض أفضل ما ترجمت فى حياتى.

وأستثنى من قانون السوق قصائد أختارها للترجمة، كنت أنشر بعضها عندما كان ذلك متاحا.

الصفة الثانية لطلعت الشايب أنه **مهنى**، حتى وإن ظن، كما قال فى الورقة البحثية المشار إليها أنه "يقوم بعمل إبداعى". وهذا الذى يقوله قد يوحى لقارئه، وربما كان تعبيرا عن فكرة آمن بها هو نفسه، مؤداها أنه يمارس الترجمة كفنان. لكنى أرى أنه مارس الترجمة كمهنى. فهل المترجم المهنى أقل أهمية من المترجم الذى يمارس عمله بروح الفنان؟

لن أدخل فى طروحات معقدة، لكنى أقول: إن أهم ترجمة فى تاريخ الإنسانية قد تكون ترجمة التوراة من العبرية إلى الإنكليزية فى عام ١٦١١، بأوامر من الملك جيمس. هذه الترجمة التى تركت لنا نسخة من الكتاب المقدس تعرف باسم "توراة الملك جيمس" بيع منها حتى عام ٢٠١٠ مليار نسخة، كما قال المحرر الأدبى للأبزيرفر البريطانية، ومؤلف كتاب "قصة اللغة الإنكليزية" **The Story of English** روبرت ماكرام (الغارديان ٢١ نوفمبر ٢٠١٠).

عرفنا التأثير الهائل لتلك الترجمة على اللغة الإنكليزية، أيام الطلب، مما قاله لنا أساتذتنا، وأهمهم مجدى وهبة وفاطمة موسى. لكن ما كرس لدى احترام تلك

الترجمة، التي خلفت لنا ما يعد أعظم نص نثرى باللغة الإنكليزية، هـو مـا قالـه برنارد شو، فى مسرحيته "بيغماليون" (١٩١٣)، على لسان بروفيسور هيغنز الذى حرض بائعة الزهور المُعْوَجَّة اللسان "إليزا" على تحسين معرفتها بلغتها قائلا لهـا "لغتك الأم هى لغة شيكسبير، وميلتون، والتوراة". وهو يتحدث هنا عـن الترجمـة الإنكليزية للكتاب المقدس، ويقصد، على الأرجح النسخة المعتمدة (**AV**) من تلـك الترجمة، نسخة الملك جيمس.

ولا أدل على عظمة تلك الترجمة من أنها أثَّرت فى اللغة الإنكليزية بـأكثر مما أثَّرت فيها أعمال شيكسبير، على رغم أن معجمها لا يتألف من ١٢ ألف كلمة، فى حين يتألف معجم شيكسبير (مسرحياته وقصائده) من ٣١ ألف كلمة، كما يقول روبرت ماكرم. وقد يبدو من النص الذى أشرنا إليه أن برنارد شو يـضع تـأثير شيكسبير وميلتون على اللغة الإنكليزية، من حيث الأهمية، قبـل تـأثير الترجمـة الإنكليزية للتوراة، لكن ترتيب الأسماء فى أى عبارة يصبح له تأثير عكسى عندما ينطق به الممثل على الخشبة، إذ يصبح آخر اسم ينطق به هو الأكثر تـأثيرا لـدى السامعين. ومن ثم فقد يكون تأخير التوراة فى تراتبيـة مـن أثـروا فـى اللغـة الإنكليزية، على النحو الذى نجده فى عبارة شو على لسان هيغنز، قد تعنى أن لـه التأثير الأقوى. وعلى أية حال، فالخيال الشعبى الإنكليزى، يدرج شيكسبير ضـمن من ساهموا فى ترجمة النص المقدس إلى الإنكليزية، وفق رواية غريبة لحد بعيـد، تقول: إن شيكسبير انضم إلى فريق ترجمة النص المؤلف مـن ٤٧ مـن أسـاتذة أكسفورد، وكيمبريدج، ولندن، عندما كان فى السادسة والأربعين من عمره. ولهـذا فإن الكلمة السادسة والأربعين، فى المزمور السادس والأربعين، عنـدما تحـصى الكلمات من بداية المزمور، نزولا نحو نهايته، هي **shake**، وهذا هو النصف الأول من اسم الشاعر، والكلمة السادسة والأربعون، عندما تحصى الكلمات مـن نهايـة المزمور صعودا نحو بدايته، هى **spear** النصف الثانى من اسمه. ولعلك لاحظـت أن عدد الأساتذة الذين انضم إليهم شيكسبير كان ستة وأربعين!

هكذا يضم الوجدان الشعبى الإنكليزى شاعره الأعظم (أحد أهم صانعى ذلك الوجدان) إلى مترجمى النص المقدس، إلى من يُسمَّوْن "سكرتارية الرب" (٢٠٠٣) بحسب العنوان الذى حملته الطبعة الأمريكية من كتاب آدم نيكلسون، الذى ظهر فى إنجلترا بعنوان "القوة والمجد" (١٩٤٠). وقد ظهر عنوان ثالث لهذه الترجمة، يلقى مزيدا من الضوء على قيمتها الاستثنائية، وهو "عندما تحدث الـــرب بالإنكليزيـــة" (٢٠١١).

سردية نقل التوراة للانكليزية مهمة، أولا، لفهم القيمة العليا لعمـــل أنجـــزه مهنيون. وثانيا، لفهم ما يحدث عندما تمتزج المهنية برهبة تنبع من **شعور بقداســـة المهمة**، وثالثا، لأن هذه الـــ**سردية** تضع المهنية والقداسة، معا، في خدمـــة **هـــدف قومى للعمل**. لقد لعبت الترجمة الإنكليزية للتوراة دورا مهما فى توثيق اللحمة بين إنجلترا واسكتلندا، وكان هذا هو الهدف القومى الذى سعى لتحقيقه الملـــك جـــيمس عندما كلف لجان الترجمة بنقل النص المقدس من العبرية إلى الإنكليزية..

تجد اثنين من هذه الأبعاد فى عبارة طلعت الشايب التى وردت في ورقتـــه البحثية التى جسدت رؤيته لمهنة المترجم، عندما قال: "أدعو الله أن يحلل عقدة من لساني لكى تفهموا قولى ... ترجمتى". لا تجد هنا مجرد شعور بالمـــسؤولية، بـــل وشعورا بقداسة المهمة.

وربما صور الشعور بقداسة المهمة لطلعت الشايب أنه يمارس عملا إبـــداعيا، كما نفهم من قوله في ورقته البحثية المشار إليها إن "المترجم يقوم بعمل إبداعى فـــى لغة جديدة وإن كان بوحى من عمل آخر". لكنى أُغلِّب الجانب المهنى على غيره، فى كل ما يفعله طلعت الشايب، وأزعم أن شعوره بقداسة مهمته، منبعه الحـــرص علـــى أداء واجبه نحو من يخاطبهم، نحو الجمهور المستهدف. ويعبر طلعت الـــشايب عـــن شعوره بالمسؤولية إزاء قرائه – وهذا لا يستبعد الشعور بالمسؤولية إزاء النص وإن كان يعلو عليه– بإعادة صياغة لما قاله نبى الله موسى وهو يدعو الله أن يطلق لسانه بالحق، حتى يفهم عنه قومه الرسالة التى حملته إياهـــا الـــسماء. وبفهمـــى لطلعـــت

الشايب، فأن يفهم عنه قارئه، وأن يستفيد ذلك القارئ، أمران بالغا الأهمية. يبدو لـي طلعت الشايب رجلا يضع النص المنبع وراءه، ويتقدم إلى الأمام بـنص مـستهدف. إلى أين؟ هذا سؤال مهم. لكن يسبقه سؤال: من أين؟

ليس من النص المنبع، بل من أسباب اختياره لهـذا الـنص ولغيـره مـن النصوص التي ترجمها، وقبل ذلك أسباب اختياره لمهنة المترجم. هو **يختار** نـصا ما لأنه، بتعبيره هو" صادف هوى في نفسي ثقافيا وفكريا، وأنني أستطيع أن أكون موصلا جيدا لأفكاره". هنا ميل شخصي واستعداد مهني. لكنه يضع نشاطه المهني في أفق وطني، ويؤطره بإطار عربي عام، عندما يقول "الترجمة مشروع للتنميـة الثقافية، وترجماتي هي مشروعي الشخصي الذي أطمح في الوقت نفـسه إلـى أن يكون **جزءا من مشروع مؤسسي في مصر**، كما أن الترجمة بشكل عام لن تكـون **مشروعا عربيا للتنمية الثقافية** إلا إذا كانت مشروعا **مؤسـسيا فـي** كـل دولـة عربية". وهنا تكتمل الأبعاد الثلاثة التي تحدثنا عنها، ويصبح واضحا لنـا مـسار المترجم- في تصور مترجم مهم مثل طلعت الشايب، على الأقل- من أين يـأتي، وإلى أين يمضي.

وككل مهني فهو يأخذ أصول المهنة عمن سبقوه، وكما قال هو، من "يوحنـا ابن البطريق وابن ناعمة الحمصي وحنين بن إسحق والجوهري وغيرهم"، مرورا بــ"أعمال مترجمة لأعلام مثل محمد مندور وحسن عثمان وإبراهيم زكي خورشيد ومحمد غنيمي هلال وعبد العزيز جاويد ومحمد بدران وسامي الدروبي وغيـرهم" ومستعينا بــ"أساتذة مثل عبد الله عبد الحافظ ونظمي لوقا ومحمد علـي العريـان وسعد الجبلاوي" وصولا إلى مترجمين لم يسمهم لكني واثق أنه تأثر بهم، مثل علي الراعي، ولويس عوض، ومحمد عناني، وابن عمه (الذي قد يكون مثله الأعلـى) زهير الشايب (١٩٣٥-١٩٨٢)، الصحفي والأديب البارز الذي ترجم تـسعة مـن عشرين مجلدا تألف منها السفر الخطير"وصف مصر"، وأكملت عائلته وآخرون ما بدأه قبل أن يرحل عنا.

انتمى زهير الشايب إلى جيل من المثقفين الذين تواصلوا مع الثقافة العالمية عبر إجادتهم للفرنسية. ولا بد لمن ينظر فى تاريخ الثقافة المصرية من النظر فى الصراع بين اللغتين الفرنسية والإنكليزية، للهيمنة عليها. تاريخ مصر، كتاريخ كل بلد آخر، يستحيل فهمه إلا من خلال تتبع آثار التشابك بين العوامل الدولية والمحلية فى تحديد مساراته. وإذا كانت الثقافة الفرنسية قد طرقت أبواب العالم العثمانى من خمسينيات القرن السادس عشر، فقد صارت اللغة الفرنسية لغة التواصل مع العالم، منذ أنشأ محمد على الدولة الحديثة، بعد مارس ١٨١١.

وسواء صدقنا أو لم نصدق ما رواه على باشا مبارك عن طفولته، فهو يرسم لنا – ولو من خياله – صورة تنسجم مع واقع الحال فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، توحى بنفور كثير من المسلمين من التعليم غير الدينى ومن وظائف الحكومة. ونحن نميل لاعتبار ما سرده على باشا مبارك عن حياته الأولى، قبل ارتباطه بمؤسسات الدولة حكاية تعليمية، مثل "علم الدين" لأن على باشا هو المصدر الوحيد لما نعرفه عن تلك الفترة من حياته، وقد نبهنا باحثون كثيرون إلى أن ما نعرفه عن المراحل الأولى من حياة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ليس له من مصدر سوى الأفغانى وعبده. وفوق ذلك فما يرويه على باشا عن طفولته وعن موقفه من التعلم وعلاقته مع الشيخ أبو خضر، يكاد يتطابق مع ما رواه الشيخ محمد عبده عن تلك المرحلة من حياته. وهكذا فأنا أقرأ تاريخ حياته الأولى كما أقرأ تاريخ الحياة الأولى عند محمد عبده، كمرموزة تريد أن تعلمنا شيئا ما.

والشاهد أنه، كان من نتائج نفور المسلمين من المدارس العصرية التى أسسها محمد على وأبناؤه، وإصرارهم على أن يكون "العلم عندهم والتعليم فى الأزهر وحده"، بعبارة محمد عمارة فى "على مبارك: مؤرخ ومهندس العمران" (١٩٨٨)، أن نشأ الموقف الذى لخصه المؤرخ يعقوب حنا روفيلة عندما نقل، فى "تاريخ الأمة القبطية" (١٨٩٨)، عن مصدر إنجليزى لم يُسَمِّه أن "القلم للقبطى مثل المحراث للمسلم" فى مصر. لكن سلالة محمد على، فى سعيها لأن تمصر دولتها،

بتمصير البيروقراطية، كما يقول روبرت هنتر في "مصر الخديوية: نشأة البيروقراطية الحديثة" (الطبعة الثانية ١٩٩٩) الذى ترجمه بدر الرفاعى (٢٠٠٥)، وكما يوضح فى الفصل الذى ساهم به فى "تاريخ مصر من كيمبريدج" تحت العنوان" مصر في عهد خلفاء محمد على"، اجتذبت المسلمين والمسيحيين معا إلى العلم والتعليم، وإلى الوظائف المدنية والعسكرية. ومن كتابات هنتر نفهم كيف أن البيروقراطية فى ظل خلفاء محمد على صارت قلعة الدفاع عن الوطنية المصرية.

وإضافة إلى أن "التعليم المدنى الحديث" بتعبير محمد عمارة فى كتابه "على مبارك: مؤرخ ومهندس العمران" هو السبيل للالتحاق بالسلك الحكومين فقد أصبح، منذ ١٨١١ أيضا، كما يقول عمارة "سبيلا من أهم السبل التى استطاعت هذه الأمة بواسطتها أن تعيش قضايا عصرها". وهكذا أصبح التعليم "واجبا وطنيا" بتعبير الشاعر محمد نجيب شهاب الدين فى مقالته "فى رثاء طلعت الشايب" (الفجر ٢٦ مايو ٢٠١٧).

أدركت أهمية هذا الواجب وانخرطت فيه من البتانون شخصيات نوه على باشا مبارك، فى الخطط التوفيقية، ببعضها، وأشار إلى بعض العائلات المهمة فى القرية، ثم حصر مشهدها الاقتصادى فى أربعة مجالات: تجارة الأقمشة، وتجارة الحبوب الغذائية، ومعامل تفريخ الدواجن، والمصابغ. وعاصرت أنا فى الخمسينيات والستينيات، قبل أن انقطع عن البتانون، ثلاثة من هذه الأنشطة بعد اختفاء تجارة الحبوب.

وأبرز من ذكرهم على باشا مبارك من أهل البتانون، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، البكباشى أحمد أفندى خليل البتانونى، الذى قال عنه: إنه "العالم الماهر" الذى احتل مركزا مهما، فى عهدى سعيد وإسماعيل، داخل جهاز البيروقراطية الوطنية، قبل أن يبدأ الاجتياح الأوروبى لمواقعها، فى سياق الانحسار التدريجى لسلطة إسماعيل باشا، ابتداء من إنشاء صندوق الدين **Caisse de la Dette** فى ١٨٧٦. وبعد البكباشى أحمد خليل، بفترة طويلة، لمع من أبناء البتانون

الجغرافي محمد لبيب البتانونى بك الذى صحب الخديوى عباس حلمى الثانى فى رحلته التى سجل وقائعها فى كتابه "الرحلة الحجازية لولى النعم الحاج عباس حلمى الثانى خديوى مصر" (١٩١٠). وقد ترجم لبيب البتانونى كتابا عن الفرنسية، بعنوان "تاريخ كلوت بك".

بقيت اللغة الفرنسية ذات مكانة متميزة فى المشهد المصرى، حتى بعد الاحتلال البريطانى للبلاد. وعزز مكانة اللغة الفرنسية الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا فى ١٩٠٤. ولم تختف الفرنسية من المشهد إلا بفعل عوامل عدة، منها سقوط الملكية المصرية، فقد كان فاروق يأمر بترجمة ما يراه مهما من الأوراق المعروضة عليه، من العربية إلى الفرنسية، حتى يطمئن إلى استيعابه لمحتواها، وفقا لما رواه عنه كريم ثابت فى "فاروق كما عرفته: ملك النهاية" (٢٠٠٠)؛ واختفاء طبقة السياسيين القدامى، بعد صدور القانون ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ لتنظيم الأحزاب السياسية؛ وتأميم قناة السويس فى ١٩٥٦؛ وصدور قوانين التمصير بعد حرب السويس الأولى (العدوان الثلاثى؛ ثم قوانين التأميم فى ١٩٦١).

وفى العقود الأخيرة من هيمنة اللغة الفرنسية، عرفت الثقافة الإنكليزية طريقها إلى مصر، ومنها البتانون، مع الأربعينيات عبر رجال مثل ابن البتانون الأشهر فى ذلك الزمان بهجت بك القاضى (اشتهر باسم بهجت بك البتانونى)، الوثيق الصلة بالقصر الملكى، والذى حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد فى إحدى الجامعات البريطانية وعاد منها ليؤسس مكتب رطوبة القطن(وقد يكون هو الصورة الابتدائية للإدارة المركزية لاختبارات رطوبة القطن) فى الإسكندرية، ووظف فيه عددا من أبناء البتانون. وقد تكون أخطر مساهمة لبهجت بك القاضى فى تاريخ مصر هى أنه – فيما يقال – من توسط لإدخال ابن الحاج عبد الغنى الجمسى الكلية الحربية، ليصبح بعد ذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع المشير محمد عبد الغنى الجمسى، الذى أنسى الناس بهجت بك، كما أنستهم جمهورية يوليو، بكل أحداثها وسير رجالاتها العهود الملكية بما كان فيها ومن كان فيها. وبين من وظفهم بهجت بك فى مكتب رطوبة القطن عبد السلام أفندى الشايب، والد الوزير فى حكومة عاطف عبيد، الراحل المهندس حمدى الشايب.

وقبل الوزير حمدى الشايب وبعده كانت عائلة الشايب عائلة المتعلمين، فى قرية كان معظم أهلها من الفلاحين. أطلق على العائلة اسم "عائلة الطرابيش" تمييزا لهم عن لابسى "اللبدة"، وهى "غطاء للرأس يتخذ من الصوف المتلبد"، يلبسه المزارعون الصغار، وعن لابسى "الطاقية" وهى غطاء للرأس من قماش رقيق أبيض، يلبسه صغار التجار والحرفيين، وعن لابسى العمة من المشايخ ومن كبار المزارعين والتجار. ويفسر الشاعر شهاب الدين، صديق طلعت الشايب وابن قريته، إطلاق هذا الاسم على عائلة الشايب بأنه إشارة إلى كونها"عائلة مدنية". وقد كانت هذه الصفة (وإن لم يستخدم المصطلح صراحة) محور معركة الانتخابات البرلمانية، فى ١٩٥٧، التى خسرها عبد السلام "أفندى" الشايب، والد الوزير حمدى الشايب، لصالح "الشيخ" محمد عيسى، الذى كان أقرب إلى النموذج التقليدى للمتدين، كما يفهم من لقبه، لكنه لم ينتم لجماعة دينية سياسية من أى نوع كان. وهذه الخلفية "**المدنية**"، بتعبير شهاب الدين، فى حوار معى، مكون أساسى فى مصريته العروبية التى تؤطر مشروعه كمترجم.

لكنى، رغم هذا كله، أجد فى الصورة التى كونتها عن طلعت الشايب، عبر عقود طويلة، أنه جندى – مترجم، أو مترجم يتعامل مع مهام الترجمة كأنه جندى. فى آخر لقاء لى معه قال لى: إنه ترجم للرئيس جمال عبد الناصر. شعرت بقدر من الغيرة المهنية وأنا أستمع له وهو يحكى كيف ترجم لعبد الناصر، أيام حرب الاستنزاف، وأين؟ على خط الجبهة. أعتز بأنى ترجمت للرئيس حسنى مبارك وهو قائد للقوات الجوية، وبأنى شاركت فى حوار صحفى معه وهو رئيس للدولة. وحاورت عددا من رؤساء الدول، وترجمت لشخصيات عالمية كان أهمها جورج بوش الأب (بعد خروجه من منصبه، وكان ذلك أسوأ أداء لى كمترجم، طوال نصف قرن من الممارسة!).

لكن كل هؤلاء لا تساوى الترجمة لأحدهم، أو محاورته لصالح مطبوعة ما، أى شىء إذا قورنت بالترجمة لعبد الناصر، إبان حرب الاستنزاف،

وعلى الخط الأمامي. وقد سعدت في ١٩٧٩ بلقاء رئيسة وزراء الهند إنديرا غاندي، ومحاورتها في مكتبها، في المربع الجنوبي المطل على راشبراتي بهافان، في نيودلهي، لمجرد أنها ابنة نهرو الذي تقاطع تاريخه مع تاريخ عبد الناصر، ولأني أردت أن أحدثها، وأن أسمعها تتحدث، عن عبد الناصر. وقد فعل طلعت الشايب أمرا مشابها عندما سعى للقاء الصحفي الهندي رستم خورشيدي كارانجيا الذي يحفظ له التاريخ لقاءاته الصحفية مع عبد الناصر ونهرو. أرى عبد الناصر ونهرو اليوم بغير ما كنت أراهما به قبل عشرات السنين، لكنهما يبقيان عندي من أهم شخصيات القرن العشرين.

تاريخ شعبي للعالم: الكتاب ومؤلفه

كما لاحظ معلقون كثيرون، فهذا الكتاب يغطي مساحة زمنية واسعة، تزيد عن خمسة آلاف عام، تبدأ بقيام النظام الطبقي، مع ظهور مصر الفرعونية، مما يجعل من الضروري أن يمر المؤلف بكثير من الأحداث المهمة مرورا سريعا. ومؤلف الكتاب كريس هارمان الذي توفي في القاهرة في العام ٢٠٠٩ تروتسكي شهير، هو من صاغ شعارا تبناه الاشتراكيون الثوريون المصريون، قبل أحداث ٢٥ يناير بعامين، على الأقل. يقول الشعار "أحيانا مع الإسلاميين، أبدا مع الدولة". المكون الفوضوي في الشعار واضح. ويبدو لي مبررا للنظر إلى رؤى هارمان الثورية بكثير من الارتياب.

كاتب هذه السطور لا ينظر نظرة احترام لثورة سوى الثورات الثلاث: الإنكليزية، التي لا تقتصر على ما يسمى الثورة المجيدة في ١٦٨٨، بل وتغطي كل الاضطرابات والصراعات والإرهاصات الممتدة من ١٦٤٢، بداية الحرب الأهلية، وحتى تكريس البرلمان كقوة حاكمة للبلاد في١٦٨٨ ؛ والأمريكية بين١٧٦٥ و١٧٨٣؛ والفرنسية من ١٧٨٩ وحتى تتويج نابليون في ١٨٠٤. ويبدو لي، أحيانا أن الثورة الإنكليزية هي الأصل في الثورات الثلاث العظمى،

التى تستحق وحدها أن تسمى ثورات، وأن الأمريكية والفرنسية مجـرد نـسختين منها؛ وأميل فى أحيان أخرى إلى رأى له وجاهته، صدر عن المؤرخ البريطـانى اليهودى، السكندرى المولد الذى ألمح إدوار سعيد إلى أنه كان عنصريا مثل بقيـة الأوروبيين الذين كانوا يعيشون فى عاصمتنا الثانية، وهو إيريك هوبزبوم المـؤرخ الماركسى القدير الذى اعتبر أن الحداثة صنعتها الثورة الـصناعية فـى إنكلتـرا والثورة الاجتماعية – السياسية فى فرنسا. وأكثر الثورات إثارة للقرف عندى هـى الثورة الروسية منذ أن اختطفها من الديمقراطيين الاجتماعيين، زعمائها الطبيعيين، المتآمرون البلاشفة، الذين يحملون اسما مضللا (البلاشفة من بلشونستفو بالروسية، وتعنى الأغلبية، وهم أقلية الأقلية)، فنزلوا بروسيا من موقعها كخامس قوة صناعية فى العالم، وكانت تصعد بسرعة أخافت القوى الأربعة الأخرى (بريطانيا وألمانيـا وأمريكا وفرنسا)، إلى بلد للمجاعات، والحروب الأهليـة، والرعـب البوليـسى، والمغامرات الخارجية التى لا تنتهى.

وإذا كان هارمان قد ساهم بما بذل من جهـد، وبكتابـه المعنـون "النبـى والبروليتاريا" فى ضم فصيل اشتراكى للإخوان المسلمين، لتقوية ساعد الإخوان فى المواجهة مع الدولة المصرية، منسجما بذلك مع توجهات قوية وقديمة فى المؤسسة البريطانية، **establishment** فكتابه الذى نقدمه هنا "تاريخ شـعبى للعـالم" معنـى بتبسيط الرؤية الماركسية للتاريخ الإنسانى، لدرجة تجعله سهل الهضم لدى القـارئ العادى. ويمكننى أن أقول: إن المؤلف أوغل فى التبسيط حتى صار منطلقه شعبويا أكثر مما هو ماركسى. وقد يكون هذا مستفزا لغلاة الماركسيين، لكنه بالنسبة لـى المبرر الوحيد لقراءة كتاب اختار أن يعالج موضوعا بهذا الاتساع فى مجلد واحـد وإن قاربت صفحاته السبعمائة، خاصة وأن المعالجة انطلقت من طروحات لا تبدو اليوم جديرة بالاحترام الذى كان لها قبل عقود. التبسيط والسلاسة والتركيز علـى دور القوى الشعبية فى صنع التاريخ، هى عوامل جعلت الكتاب جـديرا بـالقراءة، بعد أن ابتعدت به عن جمود النصوص المثقلة بمواقف عقائدية متحجرة.

والقسم الأكثر أهمية فى الكتاب، والأجدر بالقراءة، هـو الـذى يبـدأ مـن الصفحة ٤٠٥ فى الفصل الثانى من الجزء الـسابع: "الحـرب العالميـة والثـورة

العالمية" وينتهى بنهاية الكتاب فى الصفحة ٦٩٣، أى قرابة الثلاثمائة صفحة. وهذا هو القسم الذى يغطى القرن الأمريكى، ذلك القرن الذى قد تكـــون بدايتـــه دخـــول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا فى ربيع العام ١٩١٤؛ وقد تكون بدايته مؤتمر فرساى فى ١٩١٩، عندما اقتسمت القوى الكولونيالية العالم بهدى من التوجيهـــات الأمريكية، وعلى نحو مهد لانتقال السيطرة على العالم مـــن أيـــديها إلـــى أيـــدى الأمريكيين. ولا بد لمن يريد أن يفهم المزيد حول هذا الموضوع (الحرب العظمـــى وكيف صنعت عالمنا المعاصر) من قراءة كتب أخرى بينها "سلام أنهى كل سلام" **A Peace to End All Peace** (١٩٨٩) لديفيد فرومكين **David Fromkin**. ومـــن الكتب التى يمكن أن تضيف للصورة التى رسمها كريس هارمان لعصرنا، الكتابان المهمان جدا: "تشيرشل، وهتلر، وحرب لا لزوم لهـــا" **Churchill, Hitler and the Unnecessary War** (٢٠٠٨) لباتريك بوكانان **Patrick Buchanan**، و"الإمبراطوريـــة" **Empire** الذى كتبه منتصف التسعينيات اثنان من فلاسفة ما بعد الماركـــسية همـــا مايكل هارت **Michael Hardt** وأنطونيو نيغرى **Antonio Negri**، ونـــشراه فـــى العام ٢٠٠٠.

ويرى كاتب هذه السطور، بكل تواضع، أن الفصل الراهن من تاريخ العالم، الفصل الأمريكى، هو فصل تفكيـــك إمبراطوريـــات ثـــلاث هـــى الهابـــسبورغ، والعثمانية، والروسية. وإن كان إفشال المشروع الألمانى طفا على السطح وكأنـــه الهدف الأسمى للحلفاء حتى ١٩٤٥، لكن الحقيقة أن تعطيل صعود ألمانيا لم يكـــن، كهدف، على مستوى من الخطورة يماثل تفكيك الإمبراطوريات الـــثلاث المـــشار إليها. تفكيك هذه الإمبراطوريات الثلاث الواقعة خارج إقليم "سادة العالم" فى أوروبا الغربية وامتدادها وراء المحيط، والتى اختلط فيها الدم الأوروبى بدماء من وســـط آسيا ربما كان هو الأهم، لأسباب ليست كلها جغرافيـــة وعرقيـــة، لكـــن البعـــدين الجغرافى والعرقى واضحان فيها.

عملية التفكيك هذه لم تكتمل؛ وقد لا تكتمل أبدا. ومن غرائـــب التـــاريخ أن القوة التى قادت عملية التفكيك، وهى الإمبراطورية الأمريكية، بدأت، قبـــل ثلاثـــة

عقود، مشروعا غامض الأهداف، على نحو غير مسبوق، يدعى العثمانية الجديدة، دشنه انقلاب كنعان إيفرين فى ١٩٨٠، تحت إشراف الداعية العالمى لخلط الـدين بالسياسة الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة جيمى كارتر، وقد لا ينتهى إلا بتفكيك تركيا كدولة وطنية، وإن توهم الترك، منذ أيام إيفرين أن مشروع العثمانية الجديدة سيعيد لهم السيطرة على بعض "أملاكهم" القديمة، لا بوصفهم إمبراطوريـة كونية كما كانوا بين القرنين الثالث عشر والعشرين، ولا من خلال أستاذية العـالم، كقوة سياسية – دينية إقليمية وفقا لدعايات لا علاقة لها بمنطـق ولا تقـوم علـى طروحات قابلة للمناقشة الجادة من جانب الإخوان المسلمين، ولكـن باعتبـارهم امبريالية فرعية **sub-imperialism**، أى قوة إمبراطورية فى الشرق الأوسط تخدم الإمبراطورية الكونية الأمريكية، على النحو الذى تطمح إليه إسرائيل.

ولأن قراءة الثلاثمائة صفحة تعالج تحولات العالم فى ظل هيمنـة أمريكيـة لا تزال تتصاعد، فأنا أتصور أنه لو قيض لطلعت الشايب أن يكتب هذه المقدمـة، لكتبها فى ضوء ما أشار إليه، فى تقديمه لكتاب "الاستـشراق الأمريكـى" تـأليف دوغلاس ليتل، الذى ترجمه هو. فى تقديمه لذلك الكتاب أشار طلعت الشايب إلـى أن أمريكا تنفذ سياساتها فى المنطقة بهدف "قيادة العالم نحو المدينة الفاضلة عبـر "أمركة العالم" وفق تعبير الرئيس تيودور روزفلت فـى ١٨٩٨. وهـذا يعنـى أن الأمريكيين (البريطانيين الجدد) يستعدون منذ ذلك التاريخ لوراثـة دور بريطانيـا الذى حدده وليم كوبيت **William Cobbett** فى الصحيفة التى ظل يصدرها لثلاثين عاما، باسم "السجل السياسى" **Political Register**، عندما قال فى ١٨٠٣: "تجتـذب بريطانيا الآن عيون البشر وقلوبهم؛ تتطلع الأمم إليها وهى تـئن طالبـة منهـا أن تنقذها؛ العدالة، والحرية والدين هى الكلمات المنقوشة على أعلامها".

لكن طلعت الشايب يرصد فى تلك المقدمة أيضا الأسس الواقعية التى تقـوم عليها السياسة الأمريكية فى منطقتنا، ويحددها هو بأمرين: الـنفط والعلاقـة مـع إسرائيل. واستنادا إلى هذين الأساسيين رصد طلعت الشايب تحول الاستراتيجيات

الأمريكية فى منطقتنا من حرب على الشيوعية ومواجهة مع الاتحاد السوفيتى، أيام الحرب الباردة إلى مواجهة للإرهاب الأصولى بعد ٢٠٠١، وإن حدث تحول لفظى فى تلك المرحلة الأخيرة، جسده الاختلاف بين خطاب الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين جورج بوش الابن، وبين خطاب سلفه باراك أوباما. ويصف طلعت الشايب الاختلاف بين خطابى بوش الابن وأوباما، وصفا دقيقا، بأنه "خمر قديمة فى إناء جديد".

أسامة الغزولى

القاهرة ٢٠١٧

تمهيد

من بنى طيبة ذات البوابات السبع؟
فى الكتب، ستجد أسماء الملوك.
فهل حمل الملوك كتل الأحجار؟
وبابل، التى دُمرت مرات عديدة،
من شيدها كل هذه المرات؟
فى أى من منازل ليما المتلألئة بالذهب،
كان يعيش البناة ليلة اكتمال سور الصين؟
روما العظيمة، مليئة بأقواس النصر، فمن أقامها؟
على من انتصر القياصرة؟
ألم يكن فى بيزنطة، التى لهجت بثنائها الأغنيات
سوى القصور لسكانها؟
حتى فى أطلنطس الأسطورية... ليلة أن ابتلعها المحيط،
كان الغارقون ما زالوا ينادون عبيدهم.
الإسكندر الشاب غزا الهند،
هل كان وحده؟
وقيصر هزم الغال،
ألم يكن بصحبته ولو طباخ؟
فيليب ملك إسبانيا بكى حين غرقت الأرامادا،
فهل كان الوحيد الذى بكى؟
فردريك الثانى كسب حرب السنوات السبع،
فمن كسبها معه؟

كل صفحة انتصار،
فمن طبخ وليمة المنتصرين؟
كل عشر سنوات رجل عظيم،
من دفع مرتبه؟
تقارير كثيرة..
وأسئلة كثيرة.

(أسئلة عامل يقرأ)
شعـــر: برتولد بريخت
ترجمة: أحمد حسان(*)

*   *   *

الأسئلة التى تطرحها قصيدة **بريخت - Brecht**، تبحث عن إجابة، والإجابة ينبغى أن تكون مهمة التاريخ، كما ينبغى ألا تكون حكرا على جماعة صغيرة من المتخصصين ولا ترفا لمن يستطيعون تقديمها؛ كذلك فإن التاريخ ليس "هراء" كما يدعى "**هنرى فورد – Henry Ford**"، أحد رواد الإنتاج الكبير للسيارات، والعدو اللدود للحركة النقابية، وأحد المعجبين الأوائل بـ"**أدولف هتلر – Adolf Hitler**".

التاريخ معنى بتسلسل الأحداث التى أوصلتنا إلى الحياة التى نعيشها اليوم، وهو قصة تروى كيف أصبحنا على ما نحن عليه، وفهمه هو المفتاح لمعرفة ما إذا كنا نستطيع أن نغير العالم الذى نعيش فيه وكيف يكون ذلك. "من يتحكم فى الماضى، يتحكم فى المستقبل"، كان ذلك أحد شعارات المستبدين المتحكمين فى الدولة فى رواية "**1984**" للكاتب "**چورچ أورويل – George Orwell**"، وهو ذات الشعار الذى يأخذه على محمل الجد من يعيشون فى القصور وينعمون بالموائد التى يصفها "**بريخت**" فى قصيدته.

(*) **قصيدة "بريخت"**- أسئلة عامل يقرأ – التى تتصدر التمهيد من ترجمة "**أحمد حسان**" نقلا عن عمله الجميل "قصائد برتولد بريخت" (دار الفارابى– ١٩٨٦).

قبل نحو اثنين وعشرين قرنا، سن أحد أباطرة الصين قانونا يقضى بإعدام "من يستخدمون الماضى لانتقاد الحاضر". "**الأزتيك– The Aztecs**" حاولوا تدمير سجلات الدولة السابقة عندما فتحوا وأخضعوا وادى المكسيك فى القرن الخامس عشر، كما حاول الإسبان تدمير كل سجلات "**الأزتيك**" عندما فتحوا وأخضعوا المنطقة بدورهم فى عشرينيات القرن السابع عشر.

لم تختلف الأمور كثيرا فى القرن الأخير تقريبا، فقد كان تحدى المؤرخين الرسميين لـــ"**ستالين– Stalin**" و"**هتلر – Hitler**" يعنى السجن أو الموت؛ وقبل ثلاثين عاما فحسب، لم يكن مسموحا للمؤرخين الإسبان بالتنقيب عن معلومات تخص قصف مدينة "جيرنيكا – **Guernica**" فى "الباسك – **Basque**"، ولا للمؤرخين المجريين بتقصى أحداث **1956**، ومؤخرا كان أصدقاء لى يحاكمون فى اليونان لاعتراضهم على رواية الدولة الرسمية عن ضم معظم "مقدونيا" قبل الحرب العالمية الأولى.

قد لا يبدو قمع الدولة الصريح أمرا معتادا فى الدول الصناعية الغربية، إلا أن أساليب السيطرة والتحكم الأكثر دهاء موجودة دائما؛ وبينما أكتب الآن هناك حكومة عمالية جديدة مصرة على قيام المدارس بتأكيد أهمية التاريخ البريطانى والإنجازات البريطانية، وضرورة أن يدرس التلاميذ أسماء وتواريخ البريطانيين "العظام"، وفى التعليم العالى ما زال المؤرخون – ومعظمهم من المتوافقين مع آراء وأفكار المؤسسة – يحظون بالتكريم، بينما المختلفون مع تلك الأفكار والآراء مستبعدون من المناصب الجامعية الرئيسية، وتظل المواءمة هى سبيل الترقى.

منذ الفراعنة الأوائل (قبل **5000** سنة)، كان الحكام يقدمون التاريخ باعتباره قائمة "**إنجازات**" من صنعهم ومن صنع أجدادهم، ومن المفترض أن يكون مثل أولئك "**الرجال العظام**" هم الذين شيدوا المدن والصروح الباقية وجاؤوا بالرفاهية، وأنهم المسؤولون عن الأعمال العظيمـــة أو الانتصارات السياسية، على عكس "الرجال الأشرار" الذين يفترض أنهم مسؤولـــون عن كل ما هو سيئ فى العالم.

كانت الأعمال التاريخية الأولى عبارة عن قوائم ملوك أو أسر سلالية حاكمة تعرف بـــ"قائمة الملك"؛ وقد بقيت دراسة قوائم من هذا القبيل جزءا رئيسيا من مادة التاريخ فى مدارس بريطانيا إلى ما قبل **40** سنة تقريبا؛ ويبدو أن حزب العمال الجديد ومعارضه حزب "تورى – **Tory**" حريصان على إعادة فرض ذلك.

المعرفة بالنسبة لهذه الصيغة من التاريخ، لا تعنى أكثر من القدرة على ضغط مثل تلك القوائم عن ظهر قلب، وهى صيغة لا يمكن أن تساعد على فهم الماضى أو الحاضر.

هناك أسلوب آخر للنظر إلى التاريخ يتعارض مع نهج "الرجل العظيم" هذا، وهو تناول أحداث معينة ورواية قصتها، وأحيانا يكون ذلك من وجهة نظر المشاركين العاديين، وهو أسلوب قد يلقى إعجابا شديدا من الناس، كما يوجد جمهور عريض للبرامج التليفزيونية، بل وقنوات كاملة – تستخدم مثل تلك المادة؛ أما تلاميذ المدارس المقدمة لهم فيبدون اهتماما كبيرا بها، نادرا ما تحظى به طريقة "**الملوك والتواريخ والأحداث**" القديمة.

إلا أن هذا الشكل من "**التاريخ من أسفل**"، يمكن أن يغفل أمرا بالغ الأهمية وهو ترابط الأحداث.

إن مجرد تقمص الناس فى حدث ما، أو التماهى معهم، لا يكفى لكى يجعلك تفهم القوى الأعرض التى شكلت حياتهم وما زالت؛ فأنت لا تستطيع على سبيل المثال أن تفهم المسيحية دون أن تفهم صعود وسقوط الإمبراطورية الرومانية، ولا تستطيع أن تفهم ازدهار فنون "**عصر النهضة – The Renaissance**" دون أن تفهم الأزمات الكبرى للإقطاع الأوروبى وتقدم الحضارة فى قارات أخرى خارج أوروبا، ولا تستطيع أن تفهم الحركات العمالية فى القرن التاسع عشر دون أن تفهم "**الثورة الصناعية**"، ولن تستطيع أن تبدأ استيعاب كيف وصلت البشرية إلى وضعها الحالى دون أن تفهم العلاقة بين تلك الأحداث وغيرها.

هدف هذا الكتاب هو محاولة تقديم مثل هذه النظرة العامة.

لا أدعى أننى أقدم هنا رواية كاملة للتاريخ البشرى؛ إذ إن هناك شخصيات أو أحداث كثيرة غائبة وهى ضرورية لأى تأريخ تفصيلى لأى مرحلة؛ إلا أنك لست فى حاجة إلى أن تعرف كل تفاصيل ماضى الجنس البشرى لكى تفهم النسق العام الذى أوصلنا إلى الحاضر.

"**كارل ماركس– Karl Marx**" هو الذى قدم رؤية نافذة لهذا النسق العام، فهو الذى لفت النظـــر إلى أن البشر لم يستطيعوا البقاء على هذا الكوكب إلا من خلال جهد تعاونى لتدبير سبل العيش، وأن كل أسلوب جديد لتدبير ذلك استلزم تغيرات فى علاقاتهم الأوسع ببعضهم. التغيرات فيما أطلق عليه "**قوى الإنتاج – The Forces of Production**"، مرتبطة بالتغيرات فى "**علاقات الإنتاج– The Relations of Production**"، وهى فى آخر الأمر تعيد تشكيل العلاقات الأوسع فى المجتمع بصفة عامة.

بيد أن مثل تلك التغيرات لا يتم على نحو ميكانيكى؛ إذ إن البشر، عند كل نقطة، يختارون ما إذا كان عليهم مواصلة مسار واحد أو غيره، ويحسمون هذه الاختيارات عبر صراعات اجتماعية كبيرة، وعند تجاوز نقطة تاريخية معينة تصبح كيفية اختيارات الناس مرتبطة بوضعهم الطبقى، فمن المرجح أن يكون اختيار العبد مختلفا بالنسبة لمالك العبيد، والحرفى الإقطاعى بالنسبة للسيد الإقطاعى؛ كذلك فإن الصراعات الكبرى حول مستقبل الجنس البشرى كانت تتضمن دائما عنصرا من **الصراع الطبقى**. تتابع تلك الصراعات هو الذى يوفر الهيكل العظمى الذى يتشكل حوله باقية التاريخ.

هذا الاستشراف لا ينكر دور الأفراد ولا الأفكار التى ينشرونها، وما يفعله هو أنه يؤكد أن الفرد أو الفكرة يمكن أن يقوم، أو تقوم، بدور معين فحسب، بسبب **التطور المادى** السابق فى المجتمع، والأسلوب الذى يدبر به الناس معيشتهم وبنية الطبقات والدول. الهيكل العظمى ليس مثل الجسد الحى، ولكن بدونه لن يكون للجسد صلابته ولن يستطيع البقاء؛ كما أن فهم "الأساس" المادى للتاريخ شرط سابق ضرورى ولكنه لا يكفى لفهم كل شىء آخر.

هذا الكتاب إذن، محاولة لتقديم فكرة تمهيدية عامة عن تاريخ العالم وليس أكثر، إلا أنها فكرة أتمنى أن تساعد البعض على تفهم الماضى والحاضر؛ وقد كنت على وعى أثناء الكتابة بأن علىّ أن أواجه شكلين من الهوى أو التحيز. الأول هو فكرة أن الملامح الرئيسية للمجتمعات المتعاقبة وللتاريخ البشرى هــى "**نتيجة**" لطبيعة بشرية "**ثابتة**" لا تتغير، وهذا تحامل متغلغل، سواء فى الكتابة الأكاديمية أو الصحافة السيارة أو الثقافة العامة. يقال لنا: إن البشر كانوا دائما جشعين ومتناصرين وعدوانيين، وهذا ما يفسر الكثير من الأهوال مثل الحروب والاستغلال والعبودية واضطهاد النساء. المقصود بصورة "إنسان الكهف" هذه، تعليل إراقة الدماء على "الجبهة الغربية" فى إحدى الحروب العالمية، و"**الهولوكوست– The Holocaust**" فى الأخرى. رأيى مختلف تماما؛ حيث إن "**الطبيعة البشرية**" كما نعرفها اليوم، هى "**نتاج**" تاريخنا وليست سببا له. تاريخنا يتضمن قولبة طبائع بشرية مختلفة، كل منها أزاحت السابقة عليها عبر صراعات اقتصادية وسياسية وأيديولوجية كبيرة.

لقد حظى "**فرانسيس فوكوياما – Francis Fukuyama**" – أحد مستشارى الخارجية الأمريكية – بقدر كبير من التقريظ العالمى عندما أوضح هذه الرسالة دون لبس فى **1990**، ففى مقال له، أعيد نشره بلغات مختلفة فى الكثر من صحف العالم، كان "فوكوياما" يعلن "إننا نشهد ما لا يقل عن أن يكون "**نهاية التاريخ – The End of History**"، وأن الصراعات الاجتماعية والأيديولوجية الكبيرة أصبحت أمورا تنتمى إلى الماضى، وكنا هناك الألوف من محررى الصحف ومقدمى البرامج التلفزيونية المتفقين معه فى الرأى.

"**أنتونى جيدنز– Anthony Giddens**" مدير مدرسة لندن للاقتصاد، عالم الاقتصاد ومستشار رئيس الوزراء فى حزب العمال البريطانى الجديد، كرر الرسالة نفسها فى **1998** فى كتابه "**الموجة الثالثة– The Third Wave**" الذى أثار ضجة كبيرة دون أن يحظى بقراءة واسعة. كتب "جيدنز" يقول: إننا نعيش فى عالم "لا بدائل فيه للرأسمالية"، كان يقبل ويكرر افتراضا شائعا، وهو افتراض لا يمكن أن يصمد طويلا.

الرأسمالية، كأسلوب لتنظيم مجمل إنتاج دولة ما، عمرها لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة قرون، وكأسلوب لتنظيم مجمل إنتاج العالم عمرها **150** سنة على أكثر تقدير. الرأسمالية الصناعية بإسهاماتها الهائلة، والتعليم المنتشر، والاعتماد الكامل على الأسواق، هذه الرأسمالية لم تنطلق فى مناطق واسعة من العالم سوى فى الخمسين سنة الأخيرة، بينما الجنس البشرى بمختلف مراحل تطوره له أكثر من مليون سنة على الأرض، والبشر الحديثون لهم أكثر من **100000** سنة.

كل كتابات "**فوكوياما**" و"**جيدنز**" تؤكد أن "**ماركس**" كان محقا فى شيء واحد على الأقل، فى إشارته إلى أن "البرجوازية كان لها تاريخ... ولم يعد".

لم يكن طريق التقدم سهلا أمام الماضى الحديث لنوعنا البشرى. كانت هناك اضطرابات متكررة وحروب طاحنة وحروب أهلية دموية وثورات وثورات مضادة عنيفة؛ ومرة تلو الأخـــرى عندما كانت تلوح فى الأفق بادرة تحســـن فى ظروف البشر، سرعان ما كانت تتلاشى، لتحل عقود أخرى، وربما قرون، من الإفقار والدمار.

صحيح أنه كانت هناك فيما بين كل تلك الأهوال خطوات مهمة إلى الأمام فى قدرة البشر على السيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها، كما أننا اليوم أكثر قدرة مما كنا قبل ألف سنة، فنحن نعيش فى عالم ينبغى ألا تكون قوى الطبيعة فيه قادرة على تجويع الناس أو تجميدهم لدرجة الموت، عالم ينبغى أن يكون قد تم القضاء فيه على الأمراض التى طالما كانت تصيبهم.

إلا أن هذا فى حد ذاته لم يقض على التدمير الدورى لمئات الملايين من البشر نتيجة للجوع وسوء التغذية والحروب. إن سجل القرن العشرين حافل بنا يدل على ذلك، فهو القرن الذى استولت فيه الرأسمالية الصناعية، فى آخر الأمر، على العالم بكامله، لدرجة أن أصبح أصغر مزارع أو راع يعتمد الآن بدرجة ما على السوق. كما كان قرن حروب ومذابح وحرمان وبربرية غير مسبوقة، ما جعل الفيلسوف الليبرالى "**أشعيا برلين – Isaiah Berlin**" يصفه بأنه "أكثر القرون فظائع

فى التاريخ الغربى". لم يكن هناك فى العقود الأخيرة من القرن العشرين ما يوحى بأن شيئا قد تغير إلى الأفضل بالنسبة للبشرية ككل؛ إذ شهدت تلك العقود إفقارا شاملا للكتلة الشرقية السابقة، ومجاعات متكررة، وحروبا أهلية لا نهاية لها فى مناطق مختلفة من أفريقيا، كما أن نصف شعب أمريكا اللاتينية تقريبا يعيش تحت خط الفقر، كما شهدت حربا استمرت ثماني سنوات بين إيران والعراق، وهجمات عسكرية من إيلافات من أقوى دول العالم على كل من العراق وصربيا.

لم ينته التاريخ، والحاجة إلى دراسة ملامحه الرئيسية ما زالت ماسة كما كانت دائما؛ وقد كتبت هذا الكتاب على أمل أن يساعد البعض على فهم ذلك، وعند قيامى بذلك كان لا بد من أن أعتمد على جهود سابقة عديدة، فلم يكن بإمكانى مثلا إنجاز الجزء الخاص بنشأة المجتمع الطبقى دون الاعتماد على كتابات عالم الأركيولوجيا الاسترالى الفذ "**جوردون تشايلد – Gordon Childe**" الذى يستحق كتابه "ماذا حدث فى التاريخ – **What Happened in History**" القراءة أكثر من مرة، حتى وإن كان الزمن قد تجاوز بعض تفاصيله، وكذلك فإن الجزء الخاص بعالم العصور الوسطى يحمل دينا كبيرا لعمل "**مارك بلوخ– Marc Bloch**" الكلاسيكـــى، وإنتاج مدرسة مؤرخـــى **الحوليات الفرنسية – French Annales**، والجزء الخاص بأوائل القرن العشرين لأعمال "**ليون تروتسكى– Leon Trotsky**"، ونهايات القرن لتحليلات "**تونى كليف – Tony Cliff**"؛ أما القراء الذين لديهم فكرة عن مادة الكتاب فسوف يلحظون الكثير من المؤثرات الأخرى، بعضها مقتبس بشكل مباشر كما هو مذكور فى النص أو فى الهوامش، والبعض الآخر لم تذكر مصادرة، وإن كان ليس أقل أهمية؛ إذ سوف ترد إلى الذهن على الفور أسماء مثل "**كريستوفر هل– Christopher Hill**" و"**چيوفرى دو سانت كروا– Geoffrey de Ste Crois**" و"**جى بوا– Guy Bois**" و"**ألبرت سوبول– Albert Soboul**" و"**إدوارد طومسون– Edward Thompson**" و"**چيمس مكفرسون– James McPherson**" و"**د.د. كوسامبى– D.D.Kosambi**"، وكلى أمل أن يشجع كتابى هذا

على قراءة أعمالهم. أما بالنسبة لمن يريدون تتبع مراحل معينة، فقد أوردت قائمة موجزة في آخر الكتاب بعناوين أعمال يمكن الرجوع إليها للمزيد.

التواريخ (dates) ليست العنصر الأساسي في التاريخ (History)، ولكن **تسلسل الأحداث** يكون في بعض الأحيان بالغ الأهمية، وفي أحيان أخرى يكون من الصعب على القراء (وحتى الكتاب) تتبعه، ولذا يوجد في بداية كل فصل **مسرد زمني**- Chronology للأحداث الرئيسية في فترة ما، ولنفس السبب هناك فهارس للأعلام والمواقع والأماكن والمصطلحات الغير المألوفة. صحيح أنها ليست شاملة ولكنها تساعد قارئ كل فصل في فهم الإشارات والإحالات إلى الأشخاص والأحداث والمواقع الجغرافية التي يتم تناولها على نحو أكمل في مصادر أخرى.

وأخيرا، فإنني مدين بالشكر للكثيرين ممن ساعدوني في تحويل مخطوطة "خام" إلى كتاب منجز، مدين لكل من "إيان بركال- **Ian Birchall**" و"كريس بامبري- **Chris Bambery**" و"ألكس كالينيكوس- **Alex Callinicos**" و"تشارلي هول- **Charlie Hore**" و"تشارلي كمبر- **Charlie Kimber**" و"لندسي چيرمان- **Lindsey German**" و"طلعت أحمد- **Talaat Ahmed**" و"حسن محمد علي- **Hassan Mahamd allie**" و"سيث هارمان- **Seth Harman**" و"بول ماجار- **Paul McGarr**" و"مايك هاينز- **Mike Haynes**" و"تيثي باتاكاريا- **Tithi Bhattacharya**" و"باري بافير- **Barry Pavier**" و"چون مولينيكس- **John Molyneux**" و"چون ريز- **Hohn Rees**" و"كيڤن أوفندن- **Keven Ovensen**" و"سام آشمان- **Sam Ashman**"، لقيامهم بقراءة المخطوطة أو أجزاء منها وأبدوا ملاحظات عن بعض الهنـات وإجباري أحيانا على إعادة النظر وتقييـم ما كتبت. غني عن القول أن لا أحد منهم مسؤول سواء عن الأحكام التاريخية التي أوردتها في مواضع مختلفة، ولا عن أخطاء واقعية تكون قد بقيت. شكر خاص لـ"إيان تيلور- **Ian Taylor**" للقيام بتحرير المخطوطة ولـ"روب هوڤمان- **Rob Hoveman**" للإشراف على إنتاج الكتاب في صورته النهائية.

الفصل الأول

نشأة المجتمعات الطبقية



مسرد زمنى

- **قبل 4 مليون سنة**

أول قردة عليا تمشي على رجلين- (القردة العليـــا الجنوبيـــة (Australopithecus

- **قبل 1.5 مليون: 0.5 مليون سنة**

نوع بشرى واضح، الإنسان المنتصب القامة (Homo erectus)، أدوات من الحجر والخشب والبرونز، العصر الحجرى القديم الباكر.

- **قبل 400.000 : 30.000 سنة**

الإنسان النياندرتالى (Humans- Neaderthal) فـــى أوروبـــا والشرق الأوسط دلائل ثقافة واحتمالات استخدام لغة.

- **قبل 150.000 سنة**

أول بشر حديثين (Homo sapines sapines) يحتمل أن يكون منشأهم أفريقيا. العيش بأسلوب البحــث عــن الطعــام (فـــى جماعات صغيرة مترحلة بدون طبقــات أو دول أو اضـــطهاد جنسى (العصر الحجرى القديم الوسيط)

- **قبل 80.000 : 14.000 سنة**

البشر الحديثون يصلون إلى الشرق الأوســط (قبــل 80.000 سنة)، يعبرون إلى إستراليا (قبل 40.000 سنة)، يصلون إلـــى أوروبا (قبل 30.000 سنة)، ينشئون الأمريكتين (قبــل 14.000 سنة)، العصر الحجرى القديم المتأخر.

- **قبل 13.000 سنة**

المناخ يمكن بعض البشر من الاستقرار فى قرى، ويواصلون العيش بأسلوب البحث عن الطعام. العصر الحجرى الوسيط **(Mesolithic)**

- **قبل 10.000 سنة**

أول ثورة زراعية. استئناس النباتات والحيوانات. العصر الحجرى الحديث **(Neolithic)**. أدوات أكثر تطورا. استخدام الفخار. اتساع حياة القرى. أول حرب منظمة بين الجماعات. لا انقسامات إلى طبقات أو دول بعد.

- **قبل 7000 سنة**

بدء استخدام المحراث فى أوراسيا وأفريقيا. الزراعة تصل شمال غرب أوروبا.

زعامات بين بعض الجماعات ولكن لا طبقات ولا دول بعد.

- **قبل 6000 : 5.000 سنة**

"ثورة حضرية" في وديان أنهار الشرق الأوسط ووادى النيل. بعض استخدامات للنحاس.

- **قبل 5.000 سنة (3000 ق.م)**

نشأة دول فى بلاد ما بين النهرين **(Mesopotamia)** والمملكة القديمة في مصر. الأبجديات الأولى. اكتشاف البرونز. انقسام واضح إلى طبقات اجتماعية. هيراركيات دينية ومعابد. الأهرام الأولى نحو **2800** ق.م. العصر البرونزى. بداية نزعة اعتبار النساء أقل شأنا من الرجال.

■ **قبل 4.500 : 4000 سنة (2500-2000 ق.م)**

نشأة الدول – المدن فى وادة الإندوس. "سـرجون– **Sargon**" يؤسس أول إمبراطورية لتوحيد الشرق الأوسط. بناء الـدوائر الحجرية فى أوروبا الغربية. احتمال وجود حضارة نوبية فى جنوب مصر.

■ **قبل 4.000 سنة (نحو 2000 ق.م)**

"عصر الظلام" انهيار إمبراطورية ما بين النهرين والمملكـة القديمة فى مصر. صهر الحديد فى آسيا الصغرى،

■ **قبل 4.000 : 3.6000 سنة (2000 : 1600 ق.م)**

قيام الحضارة المينوية فى كريت. نهضة مصر مع "المملكـة الوسطى"، ومملكة ما بين النهرين تحت "حامورابى". الثـورة الحضرية تنطلق فى شمال الصين. الحضارة الميـسينية فـى اليونان.

■ **قبل 3.600 سنة (1600 ق.م)**

أزمة فى مصر مع انهيار "المملكة الوسـطى" إلـى "مرحلـة وسطة ثانية". "عصر ظلام" مع انهيـار حـضارات كريـت والإندوس ثم ميسينيا. اختفاء القراءة والكتابة من تلك المناطق. العصر البرونزى فى شمال الصين مع إمبراطورية "شانج".

■ **قبل 3.000 سنة (1000 ق.م)**

حضارة أكسوم فى الحبشة. نشأة الدول – المدن الفينيقيـة حـول البحر الأبيض المتوسط. "الثورة الحضرية" فى أمريكا الوسـطى مع الثقافة "الأولية"، وفى المنطقة الأنديانية مع "الشافين".

- **قبل 2.800 : 2.500 (800 : 500 ق.م)**

قيام حضارات جديدة فى الهند واليونان وإيطاليا. "الميـــروى" فى النوبة.

- **قبل 2.500 : 2000 سنة (400 : 1 ق.م)**

الحضارة الأولية فى أمريكا الوسطة تخترع طريقتها الخاصـــة فى الكتابة.

- **قبل 2.000 سنة (القرن الأول الميلادى)**

نشأة تيوتيهواكان – **Teatihuacan** فى وادى المكسيك (ربمـــا كانت أكبر مدينة فى العالم) برغم عدم اســتخدام أى معـــادن صلبة. المدينة تهجر بعد **400** سنة. قيام حــضارات "مونـــت آلبان" و"المايا" فى جنوب المكسيك وجواتيمالا فيما بعد.

توطئة

ما قبل الطبقة

العالم ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين عالم جشع وتفاوت كبير بين الأغنياء والفقراء، وتحيزات شوفينية عرقية وقومية، وممارسات بربرية، وحروب مروعة؛ ومن السهل أن نعتقد أن الأمور كانت دائما على هذا النحو، ومن ثم لا يمكن أن تكون مختلفة. تلك هى الرسالة التى يقدمها عدد كبير من الكتاب والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والصحفيين؛ إذ إنهم يصورون كلهم الهيراركية والخضوع والجشع والوحشية باعتبارها خصائص طبيعية للسلوك البشرى، وهناك بالفعل من قد يرون ذلك من سمات المملكة الحيوانية، وحقيقة "بيولوجية- اجتماعية" فرضتها قوانين الوراثة المزعومة[1]. كما أن هناك الكثير من الكتب الرائجة - والمفترض أنها علمية - التى تروج لمثل تلك الفكرة - بكلام عن بشر مثل "القرد العارى" (**ديزموند - موريس - Desmond Morris**)[2]، و"واجب القتل" (**روبرت آردرى - Robert Ardrey**)[3]، وعلى نحو أكثر تعقيدا باعتبار ذلك برمجة بواسطة "الچين الأنانى" (**ريتشارد دوكنز - Richard Dawkins**)[4]. غير أن مثل هذه الصور المبالغ فيها للسلوك البشرى، ليست فى الواقع من نتاج ما نعرفه الآن عن الحياة التى عاشها أسلافنا على مدى أجيال عدة قبل التاريخ المسجل، إذ يكشف ذلك الكم الكبير من الأدلة العلمية عن أن مجتمعاتهم لم تكن تتصف بالمنافسة واللامساواة والاضطهاد، فتلك كلها صفات وملامح من نتاج التاريخ أو التاريخ الحديث بالأحرى، والدليل يأتى من الاكتشافات الأركيولوچية عن أنماط السلوك البشرى عبر العالم إلى ما قبل **5000** سنة تقريبا، ومن الدراسات

الأنثروبولوچية للمجتمعات فى مناطق مختلفة من العالم، والتى ظلت منظمة على امتداد خطوط مماثلة حتى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وقد لخص عالم الأنثروبولوجيا "**ريتشارد لى – Richard Lee**" الاكتشافات ليقول:

> **قبل نشأة الدولة وترسخ التفاوت الاجتماعى، عاش الناس على مدى ألف سنة فى جماعات صغيرة الحجم كانت تعتمد على صلة القرابة، كما كانت المؤسسات الأساسية للحياة الاقتصادية فى تلك الجماعات تتضمن ملكية جماعية أو مشتركة للأرض وتشاركا عاما فى توزيع الطعام والعلاقات السياسية التى تتصف بدرجة نسبية من المساواة(٥).**

أى إن الناس، بعبارة أخرى، كانوا يتشاركون كل شىء ويساعدون بعضهم البعض، لا حكام ومحكومين، لا أغنياء وفقراء، وهنا يردد "**لى– Lee**" العبارة التى استخدمها "**فردريك إنجلز – Frederick Engels**" فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ليصف ذلك الوضع "**الشيوعية البدائية – Primitive Communism**"، وهى نقطة بالغة الأهمية. عمر نوعنا البشـــرى (البشر الحديثون أو الإنسان العاقـــل العاقل – **Homo sapiens sapiens**) أكثر من **100.000** سنة. قرابة **95%** من هذه الفترة، لم تكن تتصف بكثير من أنماط السلوك التى تعزى اليوم لــ"**الطبيعة البشرية**". ليس هناك فى صميم بنيتنا البيولوچية ما يمكن أن يجعل من مجتمعات اليوم ما هى عليه الآن، ولا يمكن أن يكون ذلك هو سبب مأزقنا ونحن نواجه ألفية جديدة.

أصول نوعنا البشرى تعود إلى ما هو أبعد من ذلك فى سدين الزمن بأكثر من **100.000** سنة. أسلافنا البعيدون كانوا تطوروا عن نوع من القردة عاش قبل **4** أو **5** مليون سنة فى مناطق من أفريقيا، ولأسباب مجهولة ترك ذلك النوع الحياة فى الأشجار، كما يفعل أقرب أقاربنا من الحيوانات، الشيمپانزى المعروف والبونوبو (**bonobo**) – أو الشيمپانزى القزمة – ولجأ إلى المشى منتصب القامة. استطاع أسلافنا البقاء فى بيئتهم الجديدة بالتعاون أكثر من أى نوع من الثدييات. يعملون معا لصنع أدوات بدائية (مثلما يفعل الشيمپانزى أحيانا) للبحث عن جذور

النباتات والوصول إلى التوت البرى البعيد وجمع النمل الأبيض والحشرات وقتل الحيوانات الصغيرة وإخافة الضوارى. كان الاعتماد الرئيسى على العون المتبادل وليس المنافسة. من لم يستطيعوا تعلم مثل تلك الأنمـــاط من العمل التعـــاونى وما يصاحبها من سلوك ذهنى جديد، انقرضوا، ومن استطاع بقى وتناسل.

على مدى ملايين السنين، نتج عن ذلك نوع من الثدييات، ميراثه الجينى مختلف تماما عن غيره من الثدييـــات، كانت تنقصها لمقومات البدنية الأكثـــر خصوصية التى تمكن الثدييات الأخرى من الدفاع عن نفسها (الأسنان الكبيرة أو المخالب)، أو تجعلها تشعر بالدفء (الفراء والشعر الكثيف)، أو تساعدها على الفرار. (السيقان الطويلة). بدل ذلك، كان البشر الأوائل "مبرمجين" جينيا من أجل مرونة فائقة استجابة للعالم من حولهم – بقدرتهم على استخدام أيديهم للإمساك بالأشياء وتشكيلها، والقدرة على استخدام أصواتهم للتواصل معا، والقدرة على التقصى والبحث والاستقراء والدرس والإحاطة بالعالم من حولهم، وقدرتهم، التى اكتسبوها على مدى سنوات طويلة من تربية الأطفال، على نقل مهاراتهم ومعارفهم على غيرهم. كل ذلك كان يتطلب نمو عقول كبيرة ومقدرة ورغبة فى المخالطة الاجتماعية، كما أنه أدى كذلك على تطور وسيلة للتواصل معا (لغة) مختلفة نوعيا عن تلك لدى أى حيوانات أخرى، ومعها القدرة على تشكيل مفاهيم وتصورات عن أشياء لم تكن موجودة بشكل مباشر، أى أن يصبحوا على وعى بالعالم من حولهم وبأنفسهم باعتبـــارهم كائنات تعيش فيـــه[٦]. كان ظهور **البشر الحديثون – Modern Humans** أوج هذه العملية، والمحتمل أن يكون ذلك قد حدث فى أفريقيا قبل نحو **150.000** سنة[٧].

على مدى الـــ **90.000** سنة التالية انتشرت جماعات من أسلافنا خارج أفريقيا لتستقر فى مناطق أخرى من الكرة الأرضية، مزيحة فى هذه العملية نوعا آخر هم **النياندرتال – The Neanderthals**[٨]؛ وقبل نحو **60.000** سنة تقريبا كانوا قد وصلوا إلى الشرق الأوسط؛ وقبل نحـــو **40.000** سنة تقريبا كانوا قد شقـــوا طريقهم نحو غرب أوروبا واستطاعوا، على نحو ما، أن يعبروا طوق البحر الذى

يفصل جزر جنوب شرق آسيا عن استراليا؛ وقبل نحو **12.000** سنة، على الأقل، كانوا قد عبروا مضائق بيرنج – **Bering Straits** المتجمدة ليصلوا إلى الأمريكتين؛ ثم انتشروا فى كل القارات باستثناء "أنتاركتيكا – **Antarctica**". كانت الجماعات الصغيرة التى استقرت فى كل موقع منعزلة كليا تقريبا عن بعضها بعضا على مدى آلاف السنين (جعل الثلج عبور مضائق "بيرنج" مستحيلا، كما رفع مستوى البحر ليصبح العبور من جنوب شرق آسيا إلى أستراليا أمرا بالغ الصعوبة). تطورت لغاتهم لتصبح شديدة الاختلاف، وراكمت كل منها منظومتها المعرفية الخاصة، كما طورت أنماطا مميزة من التنظيم الاجتماعى والثقافة. كانت هناك خواص وراثية ثانوية معينة) أصبحت أكثر وضوحا بين البعض دون غيرهم (لون العيون، كثافة وطول الشعر، درجة لون البشرة،...) بيد أن الميراث الچينى للجماعات المختلفة ظل متشابها بدرجة كبيرة، وكانت التنوعات داخل كل جماعة أكبر منها دائما بين الجماعات المختلفة. كانت الجماعات كلها تستطيع أن تتعلم لغة الآخر، وكان لديها كلها القابلية والاستعداد للتعلم. انقسم النوع البشرى إلى تجمعات متفرقة إلا أنه ظل نوعا متفردا، ولم يكن تطور أى تجمع منها يعتمد على عنصر محدد من عناصر تكوينه الچينى، وإنما على تكييف مهاراته اليدوية وأساليب تعاونه للوفاء باحتياجاته المعيشية فى بيئته الخاصة. كان شكل وأسلوب هذا التكيف هو أساس المجتمعات المختلفة التى نشأت، كل بعاداته واتجاهاته وأساطيره وطقوسه.

كانت هناك خواص وسمات أساسية عامة مشتركة بين المجتمعات المختلفة إلى ما قبل **10.000** سنة تقريبا، ذلك لأنها كانت كلها تحصل على طعامها ومأواها وملبسها بالأسلوب نفسه تقريبا، وهو الحصول على المنتجات الطبيعية (فاكهة، جوز، جذور، حيوانات برية، سمك، محار...) وتجهيزها للاستخدام. كانت كل تلك المجتمعات هى ما يطلق عليه **مجتمعات الصيد – الجمع (Hunting and gathering socities)** أو بالأحرى **مجتمعات البحث عن الكلأ والطعام (Foraging Societies)**[٩].

بقى الكثير من تلك المجتمعات فى مناطق كثيرة من العالم إلى ما قبل مئات قليلة من السنين، وما زالت هناك آثار لبعضها، وعن طريق دراسة هذه الآثار

والمخلفات استطاع بعض علماء الأنثروبولوجيا، مثل "**ريتشارد لي**– **Richard Lee**" التوصل إلى استنتاجات عن نمط حياة نوعنا البشرى كله على مدى **90%** من تاريخه على الأقل.

كان واقع تلك المجتمعات مختلفا عن الصورة الغربية التقليدية عن أولئك الناس، التى تعتبرهم "همجا" غير متحضرين(١٠)، يعيشون حالة بائسة "جزءا من الطبيعة"، مع صراعات مريرة دامية لانتزاع لقمة العيش، وفى حالة أشبه بحالة "حرب الكل ضد الكل"، ما جعل الحياة "بغيضة ووحشية وقصيرة"(١١).

عاش الناس فى جماعات فضفاضة ومرنة، تتكون الواحدة منها من **30 : 40** فردا، قد تنضم دوريا لجماعات أخرى فى تجمعات أوسع ربما يصل أحدها إلى مائتى فرد؛ إلا أن الحياة فى "مجتمعات الزمر" تلك لم تكن أصعب، بالتأكيد، من حياة ملايين الناس الذين كانوا يعيشــون فى مجتمعات زراعية أو صناعيـــة "متحضرة"، لدرجة أن أحد علماء الأنثروبولوجيا البارزين يطلق عليها "مجتمع الوفرة الأصلى"(١٢).

لم يكن فى تلك المجتمعات حكام ولا رؤساء ولا انقسامات طبقية؛ وكما كتب "**تيرنبول – Turnbull**" عن أقزام "مبوتى – **Mbuti**" فى الكونغو "لم يكن هناك رؤساء، لا مجالس رسمية، فى كل جانب من جوانب.... الحياة، كان يمكن أن يكون هناك رجل أو رجلان، امرأة أو امرأتان أكثر بروزا من سواهم، ولكن غالبا لأسباب عملية معقولة... كان الحفاظ على القانون عاما وتعاونيا"(١٣).

كان الناس يتعاونون معا لإنتاج احتياجاتهم المعيشية دون الاضطرار للانحناء أمام قائد عظيم، أو الدخول من بعضهم فى صراعات لا تنتهى؛ وتقول "**إرنستين فريـــدل – Ernestine Friedl**" فى دراستها إن "الرجال والنســاء على السواء كان لديهم الحرية فى أن يقرروا كيف سيقضون كل يوم، سواء أكان للخروج للصيد أو الجمع، ومع من"(١٤)؛ أما "**إليانور لى كوك**– **Eleanor Leacock**" فتقول فى نتائج دراستها "لم تكن هناك ملكية خاصة للأراضى، ولا تخصصا فى العمل

أبعد مما هو بالنسبة للجنس.... كان الناس يتخذون القرارات بشأن الأنشطة المسئولين عنها، وكان يتم التوصل إلى توافق في إطار أي جماعة تقوم بأي نشاط جمعي"[١٥].

كان السلوك يتسم بالكرم وليس الأنانية، كما كان الأفراد يساعدون بعضهم البعض ويقدمون ما جمعوه من طعام لأعضاء الزمر الأخرى قبل أن يأخذوه لأنفسهم؛ ويعلق "لي– **Lee**": "لن تجد أسرة تستهلك الطعام بمفردها: دائما تتقاسمه مع أعضاء جماعة أو زمرة، مبدأ المشاركة العامة هذا، تؤكده التقارير التي كتبت عن الصيادين – الجامعين في كل القارات والبيئات"[١٦].

ويضيف "لي– **Lee**" أن الجماعة التي قام بدراستها وهم شعب "!كونج[١٧]– **!Kung**" في كالاهاري– **Kalahari** (قبائل البشمن – **Bushmen**) "شعب يتصف بالمساواة بدرجة كبيرة، وأنهم عرفوا وطوروا مجموعة من الممارسات الثقافية المهمة للحفاظ على هذه الخصيصة، أولا بالحد من الغطرسة والتفاخر، ثم بمساعدة أولئك الذين لم يحالفهم الحظ ليعودوا إلى حالتهم المعهودة"[١٨]. وكان مبشر يسوعي قد فطن قبل فترة طويلة إلى أن شعبا آخر من شعوب الصيد والجمع، وهو شعب المونتاجن– **The Montagnais** – في كندا، كان يتحلى بأخلاقيات معينة "الطاغيتان اللذان يذيقان الكثير من إخوتنا الأوروبيين الجحيم والعذاب، أقصد الطموح والجشع، لا سيادة لهما في غاباتهما الضخمة.... لم يبع أي منهم نفسه للشيطان لكي يحصل على ثروة"[١٩]، وكما تشير "**فريدل– Friedl**":

> **"لم تكن الصراعات على الأراضي بين رجال جماعات البحث عن الطعام المتجاورة غالبة، ... ولكن بشكل عام فإن كمية الجهد الذي يكرسه الناس للتدريب على القتال، أو الوقت المبذول في حملات للحرب بين الصيادين والجامعين ليس كبيرا... الصراعات داخل الزمر يتم تسويتها عادة برحيل أحد أطراف النزاع"[٢٠].**

هذا الدليل يدحض تماما مزاعم البعض، مثل "آردري– **Ardrey**" بأن كل ما قبل تاريخ الجنس البشري منــذ "**الأوسترالوبيثيكوس**" (**Australopithecus**– أول

حيوان شبيه بالقرد يسير على ساقين) إلى ظهور القراءة والكتابة، كان يقوم على مبدأ "**واجب القتل** – **The Killing imperative**"، وأن زمر الصيد والجمع كانت تتقاتل على آبار الماء التى كانت تنحو فى الغالب إلى النضوب تحت شمس أفريقيا الحارقة"، وأننا كلنا "أبناء قابيل"، وأن "التاريخ البشرى ظل يدول حول تطور الأسلحة المتفوقة.... بحكم ضرورة جينية"، وعليه فإن مظهرا براقا – فحسب – للحضارة "يحجب ابتهاجـــا "غريزيا" بالمجزرة والعبودية والخصـــاء وأكل لحوم البشر"(٢١).

تلك كلها أمور بالغة الأهمية فى أى جدال حول "الطبيعة البشرية"؛ إذ لو أن مثل هذه الطبيعة موجودة فإنها تكون قد تشكلت عن طريق الانتخاب الطبيعى على مدى حقبة الصيد والجمع الطويلة، كما أن "**ريتشارد لى**– **Richard Lee**" فى إصراره على أن:

> "**التجربة الطويلة للتشارك القائم على المساواة هى التى شكلت ماضينا، وبالرغم من تكيفنا الظاهر مع الحياة فى مجتمعات هيراركية، وبالرغم من سجل المسار الكئيب لحقوق الإنسان فى أجزاء كثيرة من لاعالم، تظل هناك علامات على أن البشرية ما زالت تحتفظ بإحساس راسخ بالمساواتية وبالتزام عميق بمعيار العون بالمتبادل... إحساس بالجماعة الاجتماعية**"(٢٢).

من منظور مختلف تماما، كان **فردريك فون هايك**– **Friedrich von Hayek**، عالم الاقتصاد المفضل لدى "**مارجريت تاتشر**– **Margaret Thatcher**" من أن لدى البشر "غرائز فطرية دفينة"، و"مشاعر متأصلة" قائمة على "عواطف كانت تصلح للزمرة الصغيرة"، تجعلهم يريدون "فعل الخير لأناس يعرفونهم"(٢٣).

الطبيعة البشرية فى الواقع شديدة المرونة وهى تمكن، على الأقل، بعض الناس من الانغماس فى الجشع والمنافسة اللذين تحمس لهما "**هايك**"، كما أتاحت فى المجتمعات الطبقية أكثر الأعمال البربرية فظاعة – التعذيب، الاغتصاب الواسع،

إحراق الأحياء، القتل المتعمد...إلخ. كان السلوك مختلفا فى مجتمعات البحث عن الطعام، ذلك لأن احتياجات العيش كانت تتطلب المساواتية والإيثار.

كان الصيادون والجامعون يعتمدون إلى حد كبير على بعضهم البعض، فكان الجامعون يقدمون مصادر الطعام الجديرة بالاعتماد عليها، والصيادون يقدمون المصادر الأكثر قيمة؛ وهكذا كان المختصون بالصيد يعتمدون فى حياتهم اليومية على كرم من يقومون بالجمع، بينما المختصون بالجمع ومن لم يحالفهم الحظ أحيانا فى الصيد، يعتمدون على من يستطيعون قتل الحيوانات للحصول على إضافات قيمة لغذائهم اليومى. لم يكن الصيد نفسه، عادة، يتألف من بطل أو ذكر فرد يخرج للصيد، بل كان بالأحرى يتكون من مجموعة من الرجال (مع مساعدة إضافية من نساء وأطفال فى بعض الأحيان)، يعملون معا لمطاردة فريسة واصطيادها. فى كل نقطة، كان الاعتماد الرئيسى على التعاون والقيم الجمعية، وبدونها لم تكن تستطيع أى زمرة من الباحثين عن الطعام البقاء على قيد الحياة أكثر من أيام قليلة.

كذلك، كان لعدم وجود هيمنة ذكورية على النساء علاقة بهذا الأمر، إذ كان هناك تقسيم للعمل بين الجنسين، فالرجال يقومون بمعظم الصيد والنساء بمعظم الجمع، والمرأة الحامل أو التى ترضع طفلا يمكن أن تعرض حياته للخطر إن هى شاركت فى أعمال الصيد، وهذا يشكل بدوره خطرا على تكاثر الزمرة؛ إلا أن تقسيم العمل هذا لم يكن يصل إلى درجة الهيمنة الذكورية كما نعرفها اليوم. كان الرجال والنساء شركاء فى اتخاذ القرارات الرئيسية، مثل موعد نقل الخيم أو ترك الزمرة والالتحاق بأخرى. كانت الرابطة الزوجية نفسها فضفاضة، إذ كان الزوجان يستطيعان الانفصال دون أن يعرض ذلك سبل العيش أو حياة أطفالهم لخطر مفاجئ. لم يكن هناك وجود للهيمنة الذكورية التى كثيرا جدا ما يفترض أنها جزء من "**الطبيعة البشرية**"[٢٤].

وأخيرا، ما كان يمكن أن يوجد هاجس الملكية الخاصة التى نعتبرها اليوم أمرا مسلما به. كان الحجم العادى لزمرة الصيد – الجمع مقيدا بالحاجة لإيجاد

طعام كل يوم فى منطقة المخيم، وفى إطار تلك المنطقة كان أعضاء الزمرة يتحركون – فرادى – باستمرار بين مصادر الطعام النباتى، أو لمطاردة الحيوانات، بينما كانت الزمرة تتحرك كمجموعة عند نفاد مؤونة الطعام فى موقع ما. مثل هذه الحركة المستمرة كان يحول دون أى مراكمة للثروة من قبل أفراد الزمرة، إذ كان ينبغى أن يكون كل شىء سهل الحمل، وفى معظم الأحيان كان يمكن أن يكون لدى فرد ما رمح، أو قوس وسهم، أو حقيبة حمل، أو بعض الحلى الصغيرة. لن يكون هناك إذن أى تصور لمراكمة ثروة شخصية. الظروف المادية التى كان يعيش فيها البشر تضافرت لإنتاج مجتمعات وأفكار مختلفة تماما عن تلك المسلم بها اليوم.

تاريخ البشرية على مدى الألفيات القليلة الأخيرة، هو – قبل كل شىء – تاريخ كيفية تطور تلك المجتمعات ومنظومات أفكارها المختلفة. التاريخ نسيج وناتج عمل بشر لا حصر لهم من الرجال والنساء، كلهم يحاولون أن يصنعوا لأنفسهم ولرفاقهم ولمن يحبون حياة كريمة، أحيانا بقبول العالم كما هو، وأحيانا مستقتلين لتغييره، كثيرا ما يفشلون وأحيانا ينجحون؛ وبالرغم من ذلك يبرز عبر هذه القصص المترابطة اللامتناهية أمران مهمان، فهناك من ناحية، الزيادة المتراكمة فى قدرة البشر على استخلاص سبل العيش من الطبيعة والتغلب على الظروف المادية البدائية التى كانت جزءا من "الشيوعية البدائية"، وهناك من ناحية أخرى صعود تلك الأنماط المتوالية من تنظيم المجتمع التى تضطهد وتستغل أغلبية الناس لصالح أقلية صغيرة متميزة.

إذا تتبعنا منظومات التغير المتوازية هذه، سنكون قادرين فى آخر الأمر على أن نرى كيف نشأ هذا العالم الذى نواجهه فى بداية القرن الواحد والعشرين. إنه عالم يمكن إنتاج الثروة فيه بحجم لم يسبق أن حلم به حتى أجدادنا، بيد أنه كذلك عالم تبدو فيه بنية الحكم الطبقى والاضطهاد والعنف أكثر رسوخا منها فى أى وقت مضى. هناك بليون شخص يعيشون فى فقر مدقع، وبلايين أخرى من البشر تتهددهم مشاعر عدم الأمان وأخطاء الحروب والحروب الأهلية المستوطنة.

الحياة البشرية عرضة للخطر من التطور التكنولوجى الخارج عن السيطرة؛ والسؤال الملح الذى ينبغى أن يكون مطروحا بالنسبة للكل، هو ما إذا كان بالإمكان استخدام الثروة لسد الاحتياجات الإنسانية الأساسية، بالتخلص من البنى الاستبدادية وإخضاعها لمجتمع يقوم على القيم التى كانت تتصف بها حياة أسلافنا على مدى مئات الأجيال من الشيوعية البدائية.

ولكن، بداية، علينا أن ننظر فى **نشأة حكم الطبقة والدولة.**

الهوامش

(١) من المستحيل أن تكون مثل هذه المجادلات في الحقيقة مبنية على دراسة علمية حقيقية للجينات. انظر، على سبيل المثال:

S. Rose "Lifelines" (London, 1997); R.Hubbard, "The Politics of Women's Biology" (New Jersy, 1990), R.Lewontin "The Doctrine of DNA" (London, 1993).

(2) D. Morris, "The Naked Ape (London, 1967).

(3) A. Ardrey, 'African Genesis (London, 1969)

(4) R.Dawkins, "The Selfish Gene" (Oxford, 1976).

(5) R. Lee "Reflections on Primitive communism", in T.Ingold, D.Riches and J.Woodburn (eds), "Hunters and Gatherers, vol.1 (Oxford, 1988).

(٦) القدرة على استخدام اللغة، بحسب نظرية "نعوم تشومسكي" المقبولة، ملمح محدد جينيا في كل البشر المحدثين، والصلة بين اللغة والتجريد والوعي الإنساني موضحة في كتب "ڤولوشينوڤ" الماركسي الروسي في عشرينيات القرن العشرين، وفي الجزء الثاني من أنطولوچيا الماركسي المجري "چورج لوكاتش" "**Labour**".

(٧) ما أقدمه هنـــا موجز لنقاش طويل. للمزيد من التفصيل، انظر الأجزاء الأولى من مقالي المنشور في:

Initernational Socialism 65 (Winter 1994), "Engels and the Origins of Human Society".

(٨) كان هناك جدال علمي طويل استمر على مدى قرن حول العلاقة الدقيقة بين "النايندرتال" والبشر الحديثين – حول أمور مثل إمكانية تهجينهم، ولا يتسع المجال هنا لمناقشة ذلك. يكفي أن نقول: إن إزاحة "النايندرتال" لم يستلزم قيام البشر المحدثين بقتلهم قتلا وحشيا كما تحاول بعض الروايات "الدموية" عن أصولنا مثل روايات "آردري" أن تجعلنا نعتقد. للمزيد عن هذه النقطة، انظر مقالي:

Engels and The Origins of Human Society.

(٩) "الصيد والجمع" مصطلح مضلل نوعا ما، حيث إن جمع الطعام النباتي كان له الدور الأكبر عادة في تزويد الناس بمادة للتغذية أكثر من صيد الحيوانات.

(١٠) ومن هنا الاستخدام القديم لكلمة "savagery" – الوحشية – لوصف تلك المجتمعات – وهو مصطلح استخدمه حتى أمثال "لويس مورجان" و"فردريك أنجلز" و"سى. جوردون تشايلد"، الذين حاولوا تقديم وصف علمى لتطور تلك المجتمعات.

(١١) العبارة نقلا عن الفيلسوف الإنجليزى "توماس هوبز" (القرن السابع عشر) إلا أنها تلخص "التوجه العام" الحصيف الغالب على معظم الروايات عن تلك المجتمعات حتى ستينيات القرن العشرين، وما زال موجودا فى الكتب العامة مثل كتاب **African Genesis** لـ"آردرى".

(12) M. Sahlins, "Stone Age Economics", (London, 1974).

(13) C. Turnbull, "The Forest People", (New York, 1962), p.107, 110, 124-125.

(14) E. Friedl, "Women and Men: The Anthropologist's View (New York, 1975) p.28.

(15) E. Leacock, "Myths of Male Dominance", (New York, 1981) pp. 139-140.

(16) R. Lee "The !Kung San, (Cambridge, 1979), p.118.

(١٧) علامة (!) الموجـــودة فى بداية **Kund!** ترمز إلى صوت "تكتكة" لا وجود له فى اللغـــات الإندولوروبية.

(18) R. Lee, "The !Kun San", p.244.

(19) Le p.p. LeJeune (1635),

نقلا عن: **M.Sahlins "Stone Age Economics" p.14**

(20) E. Friedl, 'Women and Men: The Anthropologist's Wiew", (New York, 1975) pp.15, 28.

(٢١) جميع الاقتباسات عن:

R. Ardrey, "African Genesis" pp.300, 399.

(22) R. Lee, "Reflections on Primitive Communism".

(٢٣) نقلا عن: **E. Gellner, "Plough, Sword and Book", (London, 1991)**

(٢٤) كان أنجلز محقا فى إصراره على وجود هيمنة منظمة للنساء فى هذه المجتمعات، إلا أنه كان مخطئا فى تفصيلة مهمة – فقد بالغ فى تقدير أهمية الدور الذى كانت تلعبه البدنات فى معظم مجتمعات الصيد والجمع. للمزيد، انظر مقالى:

"Engels and the Origins of Human Society".

- ١ -

الثورة النيوليثية

لم تبدأ أولى التحولات الكبرى فى حياة الناس وأفكارهم، سوى قبل نحو **10.000** سنة، حيث كانوا قــد عرفوا سبلا جديدة للعيش فى أجــزاء معينــة من العالم، وبخاصة منطقة **الهلال الخصيب** فى الشرق الأوسط[١]. كان الناس قد تعلموا أن يزرعوا المحاصيل بدل الاعتماد على الطبيعة مصدرا للخضروات كمواد غذائية، كما عرفوا استئناس الحيوانات بدلا من مجرد القيام بصيدها... وكانت تلك كلها ابتكارات وطرائق جديدة غيرت مجمل أسلوب حياتهم. لم يؤد التحول الذى حدث إلى حياة أكثر سهولة من تلك التى كانت لأسلافهم، بيد أن التغيرات المناخية لم تترك سوى خيارات محدودة أمام بعضهم[٢]. كان الناس قد اعتادوا، على مدى ألفيتين أو ثلاث، الحياة فى مناطق توفر لهم فيها الظروف كميات كبيرة من الطعام النباتى والحيوانات التى يقومون بصيدها؛ ففى إحدى مناطق جنوب شرق تركيا على سبيل المثال، كانت جماعة أسرية تستطيع أن تجمع فى غضون ثلاثة أسابيع، و"دون جهد كبير" ما يكفيها من الحبوب البرية لمدة عام كامل.

لم يكونوا فى حاجة إلى الترحل المستمر مثل غيرهم من الشعوب[٣]، بل كانوا يستطيعون العيش فى الأماكن نفسها عاما بعد عام، ويحولون مخيماتهم إلى مستوطنات قروية تضم المئات، وليس العشرات، من الناس، كما كانوا يستطيعون القيام بتخزين المواد الغذائية فى أوانى من الحجر أو الطين المجفف، وتجميع أصناف مختلفة من الأدوات المتطورة المصنوعة من الحجر؛ وعلى مدى فترة من الزمن أطول من تلك بين تأسيس روما القديمة والآن، استطاعوا أن يجمعوا بين كمية العمل البسيطة التى تتصف بها **مجتمعات البحث عن الطعام** ومزايا حياة القرية المستقرة.

ثم كان أن حرمت التغيرات المناخية العامة الناس من تدبير ما يكفى من احتياجاتهم المعيشية على هذا النحو؛ وعندما أصبحت الظروف فى منطقة **الهلال الخصيب** أكثر جفافا وبرودة حدث نقص فى الحبوب البرية التى كانت تنمو بفعل الطبيعة، كما تضاءلت أحجام قطعان الظباء والوعول التى يصطادونها، فكان أن واجهت القرى التى تعتمد على الصيد والجمع أزمة حادة، ولم يعد الناس يعيشون كما كانوا من قبل، ولكى ينجوا من الموت جوعا، كان عليهم إما أن ينقسموا إلى زمر صغيرة ويعودون إلى حياة الترحل والبداوة القديمة، أو أن يجدوا وسيلة ما عن طريق عملهم لتعويض قصور الطبيعة.

هذا المسلك أدى إلى الزراعة. كان الناس قد راكموا معرفة واسعة بحياة النبات على مدى مئات الأجيال من العيش على الحياة النباتية البرية، كما كانت بعض الزمر قد بدأت فى استخدام تلك المعرفة لتأمين إمدادات من الطعام بزراعة بذور نباتات معينة أكثر إثمارا من غيرها؛ وباختيار تلك البذور بدأوا إنتاج سلالات جديدة مدجنة من النباتات البرية أكثر نفعا لهم، كما مكنتهم المحاصيل التى كانوا يجنونها بشكل منتظم من ربط الدواب فى أماكن ثابتة وتغذية الأنواع الأكثر دجنة من الضأن البرى والماعز والماشية والحمير، واستيلاد حيوانات أكثر ألفة.

كان الشكل الأول الزراعة (ويطلق عليه، عادة، **البستنة**)، يتضمن القيام بتنظيف الأرض وإزالة الأحراج باستخدام الفؤوس، وإحراق الباقى منها، ثم زرع وحصاد البذور باستخدام المعازق أو عصى الحفر. بعد عامين تقريبا كان يمكن أن تستنفد التربة ويصيب الجدب الأرض ومن ثم تكون العودة إلى البرية وتنظيف مساحات جديدة للزراعة.

كان تأمين سبل العيش على هذا النحو يتضمن تغيرات جوهرية فى أساليب العمل والعيش معا، وأصبح الناس أكثر ارتباطا بمستوطناتهم القروية من ذى قبل. كان عليهم الاعتناء بالمحاصيل بين زراعتها وحصادها أو جمعها، وعليه لم يكونوا يستطيعون الترحل لفترات قد تمتد إلى اشهر فى المرة الواحدة، كما كان عليهم

كذلك أن يجدوا أساليب جديدة للتعاون معا فى تنظيف الأرض والعناية المنتظمة بالمزروعات (مثل إزالة الأعشاب الضارة والرى)، وتخزين المحاصيل، وتشارك المخزون، وتربية الأطفال؛ وهكذا ظهرت أنماط كاملة من الحياة الإجتماعية ومعها أساليب جديدة لرؤية العالم، يتم التعبير عنها فى أساطير ومراسم وطقوس مختلفة.

هذا التحول يعرف بـــ"**الثورة النيوليثية– Neolithic Revolution**"[٤]، نسبة إلى الأدوات النيوليثية (الحجرية) المتطورة المرتبطة بها. (**العصر النيوليثى يعنى العصر الحجرى الحديث**) كان التحـــول يتضمن إعادة تنظيم شامل لأســـلوب عمل وحياة الناس، حتى وإن أخذت تلك العملية أمدا طويلا.

وتدلنا الآثار الأرليوكوچية الباقية من الهلال الخصيب على أناس عاشوا فى قرى صغيرة كأسر حيازية (**Households**) منفردة، رغم أنها لا تكشف شيئا عن أساس تلك الأسر (ما إذا كانت على سبيل المثال من زوجين وأطفالهما، أو من أم وابنتها وأزواجهما، أم من أب وابنائه وزوجاتهم)[٥]. لم يكن هناك ما يشبه سلطة الطبقة والدولة على مدى ألفيات كثيرة بعد التحول الأول إلى الزراعة؛ وفى **الفترة الأوربيدية المتأخرة (4000 ق.م) The Late Urbaid Period** لم يكن هناك وجود على الإطلاق لأى "تمييز واضح فى الثروة"، وحتى فى فترة بديات معرفة القراءة والكتابة لم يكن هناك ما يشير إلى أى "تقدم نحو الانقسام الطبقى الاجتماعى بأى درجة"[٦]، لم يكن هناك ما يدل على سيادة **أو هيمنة ذكورية**، بل إن بعض علمخاء الأركيولوچيا يرى أن وجود تماثيل صغيرة من الطين لنساء، يوحى بأن المرأة كانت تحظى بمكانة اجتماعية كبيرة، لدرجة أن الرجال كانوا يعتبرون الصلاة لها أمرا طبيعيا[٧]. إلا أن أحد التطورات المهمة كان انتشار الأسلحة اللازمة للقتال والصيد.

ويبدو هذا النمط شبيها بما كان فى المجتمعات التى قامت على البستنة والتى بقيت حتى فترات أحدث (فى بعض الحالات حتى القرن العشرين) فى مناطق شتى من العالم؛ ورغم اختلاف هذه المجتمعات، كانت هناك بعض الملامح المشتركة

بينها[٨]. كانت الأسر فى الغالب مرتبطة بزراعة قطع صغيرة من الأرض، إلا أن **الملكية الخاصة** للأرض كما نعرفها اليوم لم يكن لها وجود، ولا كان الدافع لتكديس ممتلكات شخصية على حساب الآخرين موجودا لدى الأفراد أو الأسر، وبدل ذلك كانت الأسر الحيازية مندمجة فى تجمعات اجتماعية أو "**بدنات- lineages**" تضع الأفراد والأسر أمام حقوق والتزامات واضحة تجاه أقاربهم أو المرتبطين بهم من خلال الزواج، أو فى إطار "الجماعة العمرية". كان المتوقع من كل منهم أن يشارك الآخرين الطعام بحيث لا تعانى أى أسرة نتيجة إخفاق محصـــول، أو لأنها تعول عددا من الأطفال أكثر من غيرها، ويحتاجون إلى الرعاية. لم تكن المكانة الاجتماعية مستمدة من حجم الاستهلاك الفردى، وإنما من القدرة على المساعدة وإقالة عثرات الآخرين.

ظل كثير من القيم الأساسية أقرب إلى قيم مجتمعات الصيد والجمع، منه إلى تلك المسلم بها فى المجتمعات الطبقية؛ وهكذا نجد أحد المراقبين لمجتمعات البستنة لدى قبائل "**الإيروكوا- The Iroquois**" فى القرن الثامن عشر يقول: "إذا قابل كوخ من "**الإيروكوا**" يعانى الجوع كوخا آخر فى طريقه لم تنفد مؤونته من المواد الغذائية تماما، فإن الأخير، ودون أن يطلب منه، يتقاسم القليل المتبقى لديه مع القادمين الجدد، رغم أن ذلك قد يعرضهم لخطر الهلاك مثل من يساعدونهم"[٩]، كما نقرأ فى دراسة رصينة عن "**شعب النوير- The Nuer**"، "يمكن القول بشكل عام أن لا أحد فى أى من قرى "النوير" يمكن أن يموت جوعا، إلا إذا كان الكل يموت جوعا"[١٠].

نعود فنقول إن تفسير مثل هذا "الإيثار" يكمن فى متطلبات الحصول على وسائل العيش، ومما يؤكد ذلك مثلا أن "الأسرة الحيازية التى لديها قدر كبير من العمل وعدد قليل من الأفواه، تقدم العون لمن لديها أفواه كثيرة وقليل من العمل وبخاصة الأسرة التى يكون لها عدد كبير من الأطفال الصغار"[١١]. كان الأطفال يمثلون قوة العمل المستقبلية للقرية ككل. كانت آليات "**إعادة التوزيع**" هذه تجاه الأسر الأكبر حجما ضرورية، حيث كان لابد من حماية الجماعة من الانقراض.

في ظروف الصيد والجمع، أدت الحاجة إلى حمل الأطفال أثناء التجوال اليومي والانتقالات الدورية للمخيم بكامله، إلى تقييد معدلات المواليد بدرجة كبيرة، فلم تكن النساء تستطعن أن يكون لدى الواحدة منهن أكثر من طفل يحتاج إلى الحمل في وقت واحد، ولذلك كانت الولادات متباعدة - كل ثلاث أو أربع سنوات تقريبا - (وكان ذلك يتم عن طريق الامتناع عن الجنس أو الإجهاض، وربما وأد الأطفال إذا لزم الأمر). أما بالنسبة لحياة القرية المستقرة التي تعتمد على الزراعة، فلم يكن الطفل في حاجة إلى الحمل بعد أن يبلغ بضعة أشهر، وكلما زاد عدد الأطفال كانت تزيد مساحة الأرض التي يمكن تنظيفها وزراعتها في المستقبل. كان العبء الرئيسي على الأسر الأكبر حجما؛ أما التغير الذي حدث في أسلوب الإنتاج فكان له كذلك أثره البالغ على الإنجاب، فبدأ عدد السكان يتزايد؛ ورغم أن معدل الزيادة كان منخفضا بمقاييس الحاضر[١٢] (**0.1%** سنويا)، فإنه تضاعف أربع مرات على مدى ألفيتين، لتبدأ القفزة الذي نقلته من **10** ملايين تقريبا في فترة **الثورة النيوليثية**، إلى نحو **200** مليون عند بداية **الرأسمالية**.

كانت هناك تغيرات أخرى كثيرة في **مجتمعات البستنة**، مقارنة بتلك في **مجتمعات الصيد والجمع**، فالنزاع الكبير في زمرة من زمر الصيد والجمع، كان يمكن حله بمجرد انشقاق الزمرة أو رحيل بعض الأفراد، ولكن هذا الخيار كان من الصعب أن يكون متاحا لجماعة من الفلاحين تكون قد قامت بتنظيف وزراعة أرضها. كانت القرية أكبر حجما، وتقوم على تفاعل أكثر تعقيدا وتنظيما بين أهلها منه في زمر الصيد والجمع؛ وفي الوقت نفسه كانت القرية تواجه مشكلة لم تكن تواجه زمر الصيد والجمع- كان قد أصبح لديها مخزون من الطعام والمنتوجات اليدوية، ما يجعلها هدفا لإغارات مسلحة من الخارج؛ وهكذا فإن الحرب التي لم تكن معروفة بالفعل بين الصيادين والجامعين، كانت متوطنة بين كثير من شعوب البستنة، ما أعطى دافعا أبعد لآليات اتخاذ القرار الرسمية بهدف ممارسة السيطرة الاجتماعية - لمجالس تتكون من شخصيات رئيسية في كل "**بدنة**"(*) على سبيل المثال.

(*) البدنات- **lineages** (جمع بدنة) وهي جماعة قرابة متحدرة من سلف مشترك. (المترجم)

انتقل الناس من الصيد والجمع إلى الزراعة فى مناطق عدة من العالم بشكل مستقل عن بعضهم البعض – فى الألفيات العشر منذ ذلك الحين – فى أمريكا الوسطى (المكسيك وجواتيمالا الحالية)، وفى المنطقة الأنديانية فى أمريكا الجنوبية، وفى ثلاث مناطق مختلفة، على الأقل، من أفريقيا، وفى الهند الصينية، فى وديان الهضاب فى بابوا غينيا الجديدة الوسطى، وفى الصين[١٣]. فى كل حالة، كانت التغيرات مشابهة لتلك فى **بلاد ما بين النهرين (ميسوبوتاميا – Mesopotamia)**، بالرغم من أن النباتات والحيوانات المختلفة التى كانت موجودة للاستئناس، كان لها تأثيرها الكبير فى أسلوب ودرجة التغير. الدليل يدحض أى ادعاء بأن جنسا أو ثقافة ما، كانت تتميز بعبقرية خاصة هى التى قادت باقى الجنس البشرى إلى التقدم. ما حدث، بالأحرى، هو أن الجماعات البشرية المختلفة، فى أجزاء مختلفة من العالم عندما كانت تواجهها تغيرات مناخية وبيئية، كانت تجد لزاما عليها التحول إلى تقنيات جديدة للإبقاء على أى شيء مثل أسلوب حياتهم القديم، ووجدت أساليب حياتها قد بدأت فى التغير على نحو لم يكن متوقعا. فى كل حالة، تراجعت الزمرة الفضفاضة لتحل محلها حياة القرى المنظمة من خلال جماعات قرابة وثيقة ومعايير صارمة للسلوك الاجتماعى وطقوس دينية وأساطير واسعة[١٤].

ما حدث فى هضبة پاپواغينيا الجديدة أحد الأمثلة الدالة على ذلك، فهنا كان الناس قد بدأوا فى تدجين وزراعة أنواع مختلفة من المحاصيل فى **7.000** ق.م– قصب السكر، أنواع مختلفة من الموز، قلقاس الأراضى السبخة، سيقان الأعشاب الصالحة للأكل، الخضروات – ومع الزراعة تحولوا، كما حدث فى أى مكان آخر، من حياة ترحل بدوية أو شبه بدوية للصيد والجمع إلى الحياة القروية. كان تنظيمهم الاجتماعى يقوم على جماعات قرابة مساواتية ولم يكن هناك **ملكية خاصة** للأراضى. استمرت حياة الناس على هذا النحو فى أودية منعزلة، لا يمكن النفاذ إليها من الساحل تقريبا، لا يتهددهم أى اقتحام من الخارج، وبقول كذلك إلى أن "**اكتشفهم**" الغربيون فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين.

لم يتحول الكثير من المجتمعات القديمة إلى الزراعة؛ إذ قاوم بعضها ما كان يراه عملا شاقا وغير ضرورى، بينما يمكن تأمين حياة مريحة عن طريق الصيد والجمع؛ وهناك مجتمعات أخرى كانت تعيش فى بيئات لم تكن توفر نباتات أو حيوانــات يسهــل استئناسهــا وتدجينها، مثل كاليفورنيا وأستراليــا وجنــوب أفريقيا(١٥). فلم يكن أمام الجماعات التى عاشت فى تلك الأماكن على مدى آلاف السنين من خيار، سوى أن تعتمد على الصيد والجمع، إلى أن وفر لها الاتصال بالخارج أنواعا مدجنة من أماكن أخرى(١٦).

بمجرد أن كانت الزراعة تقوم فى أى جزء من العالم كانت تنتشر، كما كان نجاح شعب ما فى الاعتماد عليها يشجع آخرين على تقليدهم، وهكذا يبدو أن وصول أنواع محاصيل مختلفة من منطقة الهلال الخصيب لعب دورا مهما فى نشأة الزراعة فى **وادى النيل** ووادى **الإندوس** و**غرب أوروبا**، كما كان انتشار الزراعة أحيانا نتيجة حتمية لانتشار الشعوب التى كانت قد مارستها بالفعل مع زيادة عددها وانتشار البعض لإقامة قرى جديدة على الأراضى التى كان قد سبق زراعتها. بهذا الأسلوب انتشر الناطقون بالـ"**بانتو – Bantu**" من غرب أفريقيا إلى قلب القارة ومن ثم إلى جنوبها، كما انتشر "**البولينيز– The Polynesians**" من جنوب شرق آسيا عبر المحيطات إلى "مدغشقر" بالقرب من الساحل الأفريقى، وإلى "جزيرة إيستر– **Easter Island**" (التى لا تبعد أكثر من **1500** ميل عن ساحل أمريكا الجنوبية) وإلى نيوزيلندا.

كان وجود مجتمع زراعى فقير يغير دائما حياة شعوب الصيد والجمع التى يكون لها صلة به، عندما تجد أن بإمكانها تحسين سبل معيشتها بتبادل المنتجات مع المزارعين القريبين، (مثل السمك وجلود الحيوانات والطرائد من أجل الحبوب، والملبوسات المنسوجة والمشروبات المخمرة.... إلخ)، وهو ما شجع البعض على التحول إلى جانب من جوانب الزراعة مثل تربية أو رعى الحيوانات بدون زراعة المحاصيل؛ وكان أن ظهــرت بسرعة مثل هذه الشعوب الرعوية فــى أوراسيا

وأفريقيا والأنديز الجنوبية فى أمريكا الجنوبية، تجذب الأراضى بين المستوطنات الزراعية – أحيانا تغير عليها وأحيانا أخرى تتاجر معها – وتطور أنماطا مميزة من الحياة الاجتماعية الخاصة بها.

كان انتشار العناية بالمحاصيل والرعى يؤدى أحيانا إلى تغير نهائى مهم فى الحياة الاجتماعية – أقصد أول تمايز فى المكانة الاجتماعية. ما يطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا "**رئاسة القبائل** أو العشائر – **Chieftainships**" أو "**الرجال الكبار – Bigmen**"، ظهر مع بعض الأفراد أو **البدنات– lineages**، التى كانت تتمتع بمنزلـــة اجتماعيـــة أعلى من سواها، وكان يمكن أن ينتهى ذلك ببروز **رؤســـاء** أو "**شيوخ**"– **Chiefs** – وبدنات وراثية.

غير أن ذلك لم يكن يشبه **التمايزات الطبقية** المعروفة عندما يكون هناك جزء من المجتمع يستهلك الفائض الذى يكدح آخرون لإنتاجه.

ظلت المساواتية والتقاسم هى الصفات المشتركة؛ إذ كان على ذوى المكانة الاجتماعية أن يخدموا باقى الجماعة ولا يكونوا عالة عليهم؛ وكما يشير "**ريتشارد لى– Richard Lee**"، كانت هناك "مفاهيم الملكية المشاعية نفسها مثلما كانت فى مجتمعات الصيد والجمع: "كان يعاد توزيع الكثير مما يتلقاه الحكام أو الشيوخ من جزية على الرعايا، كما كانت سلطة الحكام تخضع لقيود وتوازنات قوى الرأى العام والمؤسسات"[١٧]. وهكذا كان "الكرم صفة أساسية ملازمة للسلطة بين شعب "**نامبيكوارا– Nambikwara**" فى أمريكا الجنوبية، وكان على "الرئيس" أو "الشيخ" أن يكون على استعداد لاستخدام "الفائض من كميات الطعام والأدوات والأسلحة والحلى" الموجودة فى حوزته للاستجابة "استغاثات أى فرد أو أسرة أو الزمرة كلها، ولأى شىء يحتاجونه"[١٨]. كان ذلك يمكن أن يعرض "الزعيم" نفسه لأوقات عصيبة من الناحية المادية أكثر ممن يحكمهم؛ وهكذا كان على زعيم المنتدى فى "غينيا بوساما الجديدة" أن "يكدح أكثر من غيره لكى يحافظ على مخزونه من الطعام".... ومن المسلم به أن عليه أن يعمل طوال اليوم "يداه لا تفرغان أبدا من العمل فى الأرض، وجبينه يتصبب عرقا باستمرار"[١٩].

التحول الذى تم فى العصر الحجرى الحديث إلى الزراعة، حول حياة الناس، ونشر حياة القرية والقتال لدرجة أنه كان بالفعل شكلاً من "**الثورة**"، غير أن المجتمع كان ما ولا يزال ينقصه معظم العناصر المسلم بها اليوم: الانقسام الطبقى، وأجهزة دولة بيروقراطية تعمل طوال الوقت، وكيانات مسلحة، وإخضاع النساء. لم يكن أى شىء من ذلك قد ظهر، ولن يحدث إلا بعد سلسلة أخرى من التغيرات فى أساليب تدبير الناس لمعيشتهم، وبعد أن فرضت ما يطلق عليها "**جوردون تشايلد- Gordon Childe**" **الثورة الحضرية- Urban Revolution**" نفسها على "الثورة النيوليثية"، أو ثورة العصر الحجرى الحديث.

الهوامش

(1) Palestine, Syria, Lebanon, Southern Turkey and Iraq.

(٢) للمزيد عما حدث على امتداد الخطوط نفسها انظر:

- D.O. Henry "From Foraging to Agriculture", (Philadelphia, 1989);
- J.V.S. Megaw (ed), "Hunters, Gatherers and the First Farmers Beyond Europe", (Leicester, 1977);
- The essays by P.M. Dolukhanov and G.W.W. Barker in C.Renfrew (ed), "Explaining Cultural Change (London, 1973);
- C.K. Maisels, "The Emergence of Civilization", (London, 1993), chs 3 and 4.

(3) J. Harlan, "A Wild Wheat Harvest in Turkey", Archaeology 20 (1967) pp. 197-201.

نقلا عن: C.K. Maisels "The Emergence of Civilization", p.125

(٤) مصطلح "جوردون تشايلد".

(٥) تقديرات وحسابات مختلفة كما جاء في:

C.K. Maisels, "The Emergence of Civilization, p.125.

(6) R. M. Adams, "The Evolution of urban Society, (London, 1966) p.96.

(٧) رغــم أن هناك من يرون أن التماثيل الصـغيــرة مرتبطة بطقوس الخصوبة لا أكثـر، وأنها لا تزيد عن التقديس الكاثوليكي للسيدة العذراء.

(٨) نقطة يؤكدها علماء الأنثربولوچيا الغربيون الذين قدموا دراسات مائدة عنهم في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. انظر على سبيل المثال:

R. Benedicts, "Patterus of Culture", (London, 1935).

(٩) كما ورد في: J-F. Lafitan,

R. Lee, "Reflections on Primitive Communism, p.252.

(10) E. Evans Pritchard.

R. Lee 'Reflections on Prmitive Communism", p.252.

(١١) إحدى الحجج الرئيسية في "M. Sahlins "Stone Age Economics

(12) R. M. Adams, "The Evolution of Urban Society" p.96.

(١٣) انظر: J.V.S. Megaw (ed), "Hunters, Gatherers and the First Farmers Beyond Europe,

وكذلك مقالات:

- P.M. Dolukhanov, G.W.W. Barker, C.M. Nelson, D.R. Harris and M.Tosi in C.Renfrew (ed), Explaining Cultural change.

(14) F. Katz, "Ancient American Civilization", (London, 1989);

- W.M. Bray, F.H. Swanson and I.S. Farrington, "The Ancient Americas", (Oxford, 1989), p.14.

(١٥) وكما يشير عالم البيولوجيا "چاريد دياموند – Jared Diamond" فإن أحدا لم ينجح بعد في استئناس الحيوانات أو النباتات في تلك المناطق كما يجب. انظر:

J.Diamond, "Guns, Germs and Stell", (London, 1997), pp. 163-175.

(١٦) هذه النقطة مشروحة جيدا في:

J.Diamond, "Guns, Germs and Stell", (London, 1997) p.139.

(17) R. Lee, "Reflections on Primitive Communism", p.262.

(18) C. Levis Strauss.

كما نقل عنه "M. Sahlins" في "Stone Age Economics" p. 132

(١٩) كما نقل عنه "Sahlins" في المصدر السابق ص/ ١٣٥ "H.I. Hogbin"

-٢-

الحضارات الأولى

تعود كلمة "مدينة أو حضارة- **Civilization**" بمعناها المحدد عن أناس يعيشون في مــدن، إلى نحو **5000** سنة، أما الدلالات الأولى عليها فهي تــلك الصروح العظيمة في مناطق مختلفة من العالم – أهرام الجيزة وأمريكا الوسطى، و**زقورات**[*] "**Ziggorats**" العراق، وقصر "**كنوسوس- Knossos**"[**] في "كريت" وقلعة "ميسينيا" في بر اليونان الرئيسي، والمدن الشبكية مثل "**هارابا- Harappa**" و"**موهنجو ديرو – Mohenjodero**" في وادي الإندوس، التي تعود إلى ما يقرب من **4000** سنة، ولهذا السبب أطلق عالم الجيولوجيا "**جوردون تشايلد- Gordon Childe**" على التغير الذي حدث اسم "**الثورة الحضرية**[١]- **The Urban Revolution**" هذه الآثار، في حد ذاتها بالغة الروعة بدرجة مذهلة، ولعل الأكثر إثارة للدهشة والإعجاب هو أن الشعوب التي شيدتها، لم تكن قد عرفت شيئا قبل أجيال قليلة أكثر من الحياة الريفية البسيطة التي تعتمد على الزراعة البدائية إلى حد ما. عندما شيدوا تلك الصروح، كانت قد أصبحت لديهم مهارات تمكنهم من استخراج ونقل وتقطيع ونحت كتل الأحجار الهائلة وتزيينها بأعمال فنية، وفي بعض الحالات (كما حدث في بلاد ما بين النهرين ومصر والحبشة والصين وأمريكا الوسطى) كانوا يتركون عليها نقوشا تصف أعمالهم ومشاعرهم. في تلك المرحلة أيضا، عرف

(*) "زقورات"، جمع زقورة، وهي الأهرام الرافدية في بلاد ما بين النهرين، عبارة عن معابد مدرجة. كانت الزقورات تبنى في سوريا والعراق، ثم في إيران. توجد زقورة أور التراثية في جنوب العراق بالقرب من مدينة "الناصرية" الحالية – بمحافظة ذي قار. (المترجم)

(**) قصر كنوسوس، قصر الملك "مينوس" في "كنوسوس"- كريت وهو أكبر موقع أثري من العصر البرونزي (بدايات الألفية الثانية ق.م). (المترجم)

الناس كيف يستخرجون النحاس والقصدير من أكاسيد الصخور، ثم عرفوا فيما بعد كيف يستخدمونها فى معدن أكثـر صلابة هو البـرونز لصناعة أدوات الزينة والأسلحة. من هنا، كانت المصطلحات التى توصف بها تلك المرحلة مثل "عصر النحاس" و"عصر البرونز".

لم يكن ليحدث شيء من ذلك دون تغير مسبق فى أسلوب تدبير وسائل العيش، وهو تغير كان يرتكز فى البداية على الزراعة. هذه الأساليب الأولية فى الزراعة، والتى كان يتم فيها استخدام وسائل بدائية نوعا ما، وتتضمن أنواعا من النباتات والحيوانات موجودة في الطبيعة، هذه الأساليب أدت على مدى أجيال إلى زيادة بطيئة في الإنتاجية الزراعية، ومكنت بعض الشعوب من تأمين ما يكفى من الاحتياجات المعيشية، مع توفر وقت فراغ كبير[٢]. إلا أن الظروف لم تكن دائما هادئة وناعمة مثلما قد توحى بعض القصص عن حياة الشعوب البدائية البسيطة وعن "الوحش النبيل". فى حالات كثيرة كانت الزيادة فى الناتج الغذائى لا تتماشى مع الزيادة السكانية، وكان الناس يتعرضون لمجاعات مفاجئة نتيجة لأحداث طبيعية خارجة عن سيطرتهم مثل موجات الجفاف أو الفيضان أو العواصف أو الصقيع أو الآفات[٣]؛ فتاريخ الشعوب ما قبل الإسبانية فى أمريكا الوسطى مثلا، وهو تاريخ سنوات كان من السهل أن يجدوا طعامهم فيها، هو فى ذات الوقت تاريخ سنوات عرفت المجاعات المدمرة والمفاجئة[٤].

كان أمام مثل تلك الجماعات خياران، فحسب، للإبقاء على حياتهم المستقرة، أحدهما الإغارة على جيرانهم من الزراعيين للحصول على الطعام، وعليه أصبح القتال ملمحا راح يتزايد في تلك المجتمعات، وشاع استخدام فؤوس القتال الحجرية وخناجر الصوان، على سبيل المثال، في المراحل المتأخرة من "الثورة النيوليثية" فى أوروبا؛ أما الخيار الثانى أمامهم، فكان أن يقوموا بتطوير أساليب فى الزراعة، أوسـع وأكثر إنتاجية، وهنا كان التعويل على الابتكـارات التكنولوجية. من لجأ إلى ذلك من الجماعات الزراعية تمكن من تفادى أخطار المجاعات، ومن لم يتمكن من ذلك مات أو اندثر فى آخر الأمر.

كان الابتكار يمكن أن يعنى – ببساطة – تحسين أنواع المحاصيل الموجودة أو معرفة كيفية تسمين الحيوانات المستأنسة على نحو أفضل، كما كان يعنى كذلك تغيرات أخرى كثيرة أبعد من ذلك. كان أحد تلك التغيرات اكتشاف، فى أوراسيا وأفريقيا، أن الثدييات الكبيرة المستأنسة (الثيران أولا ثم الخيول بعد فترة طويلة) عندما تقوم بجر قطعة من الخشب ذات شكل معين (**المحراث**) خلال التربة، فإن ذلك يكون أكثر فعالية فى تقليب الأرض للزراعة وبذر الحب. كما كان بناء السدود والحفر اكتشافا آخر لحماية المحاصيل من الفيضان وتوجيه الماء إلى المناطق المعرضة للجفاف والجدب. بعد ذلك كان جمع روث الحيوانات واستخدامه سمادا لحماية التربة من الإجهاد والاضطرار إلى تنظيف مساحات جديدة من الأرض من حين لآخر؛ ومن بين التقنيات الأخرى التى اكتشفوها فى مناطق متفرقة: تجفيف المستنقعات وحفر الآبار وتدريج سفوح التلال وغرس شتلات الأرز (شمالى الصين).

كان لتلك التقنيات، مثلما هو لأى جهد بشرى آخر، وجهان؛ فمن ناحية كان أن زودت الناس بوسائل إضافية لكسب العيش، فبدأت الجماعات التى كانت بالكاد تنتج ما يسد الرمق، تجد لديها ما يفيض عن حاجتها؛ ومن ناحية أخرى حدثت تغيرات فى العلاقات الاجتماعية بين الناس.

كانت التقنيات الجديدة تعتمد على صور مختلفة للتعاون بين الناس، فاستخدام **المحراث**، مثلا، شجع على المزيد من "**تقسيم العمل– Division of Labour**" بين الجنسين، حيث كان من الأعمال المجهدة التى لا تقوى عليها النساء الحوامل أو المرضعات، كما كان بناء وصيانة قنوات الرى بشكل منتظم يتطلب تعاونا بين عشرات وربما مئات الأسر الحيازية، وقد شجع ذلك أيضا الانقسام بين من يقومون بالعمل والمشرفين عليهم. تخزين الطعام أدى إلى ظهور مجموعات تكون مسؤولة عن العناية بالمخازن والإشراف عليها، كما أن وجود فائض لأول مرة، جعل البعض يتخفف من أعباء الزراعة والتركيز على الأعمال الحرفية والاستعداد للقتال أو تبادل المنتجات المحلية مع شعوب وجماعات أخرى.

وصف "**جوردون تشايلد**– **Gordon Childe**" التحول الذى حدث فى بلاد ما بين النهرين (**Mesopotamia**) قبل **6000:5000** سنة عندما استقر الناس فى وديان دجلة والفرات، عندما وجدوا أرضا شديدة الخصوبة لا يمكن زراعتها إلا عن طريق القيام بأعمال "رى وصرف" تعتمد على "جهد تعاونى"[٥]، وفي مرحلة أحدث نسبيا أشار "**ميسلز**– **Maisles**" إلى اكتشاف الناس أن بإمكانهم رى مساحات أكبر من الأراضى وزيادة الإنتاج بنسبة كبيرة فى حال قيامهم بشق فتحات صغيرة فى شواطئ القنوات، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون استهلاك كل المحصول الزائد على الفور، ومن ثم كان لا بد من ادخار أو تجنيب جزء منه تحسبا لمفاجآت ضعفه أو نقصانه لأى سبب[٦].

كان يتم تخزين الغلال فى مبان ضخمة تبدو بارزة خارج الأرض المحيطة بها رمزا على استمرارية الحياة الاجتماعية وحمايتها؛ وأصبح المشرفون على المخازن الأكثر هيبة والأعلى مكانة فى المجتمع، يشرفون على حياة باقي السكان وهم يجمعون ويخزنون ويقومون بتوزيع الفائض. هكذا أصبحت المخازن والمتحكمون فيها بمثابة سلطة فوق المجتمع ومفتاح نجاحه، تستوجب الطاعة والعرفان من عامة الناس، واتخذت مظهر السلطــة الخارقة تقريبا. كانت المخازن أول معابـــد، والمشرفون عليها أول كهنة[٧]. تجمعت حول المعابد جماعات اجتماعى أخرى تقوم بأعمال البناء والحروف اليدوية والطبخ وكساء العاملين فى المعابد ونقل الطعام وتنظيم تبادل المنتجات مع المناطق البعيدة، وعلى مدى مئات السنين كبرت القرى الزراعية لتصبح بلدات، والبلدات لتصبح مدنا مثل "**أوروك**– **Uruk**" و"**لاجاش**– **Lagash**" و"**نيبور**– **Nippur**" و"**كيش**– **Kish**" و"**أور**– **Ur**" (**التى يفترض أن أبراهام"، أحد الآباء الأولين في التوراة، قد جاء منها**).

بعد نحو **2500** سنة تقريبا، كانت هناك عملية مشابهة بدرجة ما فى أمريكا الوسطى، ولكن لا يبدو أن كان للرى فيها دور رئيسى فى البداية على الأقل، حيث كانت الذرة تغل محصولا وفيرا يحقق فائضا بدونه فى السنوات الجيدة[٨]،

إلا أن احتمالات تعرض المحصول للخطر شجع على تخزين الفائض وحفز على أنماط من التنسيق بين الأماكن ذات المناخات المختلفة؛ كما كانت هناك ميزة كبيرة للسكان ككل فى حال قيام مجموعة متخصصة بتنسيق الإنتاج وتدوين حسابات الفصول والاعتناء بالمخازن؛ وهنا أيضا تحولت المخازن إلى معابد، والمشرفون عليها إلى كهنة، ما أدى إلى نهوض الثقافات المتوالية لـ"**الأولمك**– **Olmecs**" والـ"**تيوتيهواكان**– **Teotihuacan**" و"**الزابوتيك**– **Zapotecs**" و"**المايا**– **Mayas**"، كما يتحلى فى منحوتاتهم الضخمة، وأهرامهم الرائعة، ومعابدهم ومدنهم المخططة جيدا. (زاد عدد سكان تيوتيهوا كان إلى نحو **100.000** نسمة فى القرون الأولى بعد الميلاد).

حدث شيء آخر ذو أهمية تاريخية حدث فى الشرق الأوسط وأمريـكا الوسطى؛ وهو أن جماعات الإشراف الكهنوتية التى كانت تقوم بجمع وتوزيع مخزون المعابد، بدأت تضع علامات على الحجر أو الطين لتسجيل الوارد إلى المخازن والمنصرف منها؛ وبمرور الوقت تم الاستقرار على صور ذهنية لأشياء معينة مرسومة، تعبر أحيانا عن صوت الكلمة التى تدل على الشيء المصور، واستمرت الأمور على هذا النحو إلى أن تم إيجاد طريقة للتعبير على نحو بصرى دائم عن عبارات وأفكار الناس؛ وهكذا تم **اختراع الكتابة**. كان لدى الأوصياء على المعابد، كذلك، ما يكفى من الوقت لمراقبة السماء والربط بين حركة القمر والكواكب والنجوم وحركة الشمس، كما أعطتهم قدرتهم على التنبؤ بالحركات والأحداث المستقبلية مثل الخسوف والكسوف مكانة أقرب ما تكون إلى السحر؛ ولكنهم عرفوا كذلك وضع جداول تقويم بناء على حركة الشمس والقمر، مكنت الناس من تحديد أفضل أوقات السنة لزراعة المحاصيل، وأدى مثل هذه الاجتهادات إلى ترسخ الرياضيات والفلك فى المعابد وإن فى إطار التنجيم؛ وكما وصف "**جوردون تشايلد**– **Gordon Childe**" الوضع بشكل عام، فإن "تراكم فائض اجتماعى كبير فى خزائن المعابد – أو بالأحرى فى مخازن الغلال – كان فى الواقع سبب التقدم الذى نعتبره معيار الحضارة"[٩].

وما أن طورت الحضارات القديمة فى بلاد ما بين النهرين وأمريكا الوسطى الكتابة، تبناها الكثير من الشعوب التى كانت على صلة بهم مستخدمة أساليبها المختلفة للكتابة بلغاتها؛ ثم انتشرت الكتابة بسرعة فائقة عبر الشرق الأوسط قبل نحو **5.000** سنة، ثم فى وسط وشرق جنوب آسيا وشمال شرق أفريقيا وفى أوروبا البحر الأبيض المتوسط؛ واستخدامها كل حضارات أمريكا الوسطى بدءا من "**الأولمك – The Olmecs**"؛ إلا أنه كانت هناك حضارات استطاعت أن تتطور بدرجة كبيرة بدون الكتابة – لعل أبرزها تلك فى أمريكا الجنوبية، التى كانت تستخدم علامات كوسائل معينة على التذكر، دون الانتقال إلى كتابة الملفوظ.

ربما لا يتسع المجال هنا سوى لأمثلة قليلة على التحول إلى الزراعة الكثيفة والحياة الحضرية. حدث ذلك فى أماكن كثيرة مختلفة من العالم مع لجوء الناس إلى أساليب جديدة للعيش، وهناك كذلك أمثلة كثيرة على مجتمعات زراعية قطعت على الأقل جزءا من الشوط فى هذا الاتجاه، ووصلت إلى مستوى كان يمكنها من حشد المئات وربما الألوف من البشر لبناء صروح حجرية مهيبة، مثل المعابد الحجرية فى الألفيتين الثالثة والرابعة ق.م فى مالطا، والدوائر الحجرية فى أوروبا الغربية (وأشهرها ستون هنج – **Stonehenge**)، والتماثيل الضخمة فى جزيرة إيستر– **Easter Island**، ومنصات "تاهيتى – **Tahiti**" المدرجة[١٠]. أحيانا يكون التحرك نحو "الحضارة" متأثرا إلى حد ما بتطورات فى أماكن أخرى[١١]، ولكن هذا لا يغير من حقيقة أن العملية المؤدية إلى تشكل بلدات ومدن، وفى الغالب إلى اختراع الكتابة، بدأت بشكل مستقل فى مواقع كثيرة مختلفة بسبب الدينامية الداخلية – **Internal Dynamic** للمجتمع، بمجرد أن كانت الزراعة تتقدم متجاوزة نقطة بعينها؛ وهذا كفيل بإبطال أى ادعاء بأن تكون جماعة واحدة من شعوب العالم "متفرقة" نوعا ما عن سواها، لأنها وصلت إلى "الحضارة" أولا.

الهوامش

(١) كتب قبله عالم الأنثروبولوجيا "Morgan" (القرن التاسع عشر) عن انتقال من "البربرية- barbarism" (ويعنـــى بها أسلوب حياة زراعى محـــض) إلى "الحضـــارة- Civilization" (التمركز فى مدن). استخدم "فردريك إنجلز- F.Engels" المصطلحات، ثم التخلى عنها بعد أن بات من الواضح - بشكل متزايد - أن المجتمعات "المتحضرة- Civilised" بالمعنى الذى يقصده "مورجان" يمكن أن تكون أكثر بربرية من المجتمعات الزراعية الأولى.

(٢) انظر المثال الذى يقدمه M.Sahlins في كتابه: "Stone Age Economics".

(3) v. Gordon Childe, "What Happened in History", (Harmondsworth, 1948) pp. 59-62.

(٤) انظر على سبيل المثال:

F.Katz, "Ancient American Civilisations, pp. 78-79, 81, 102, 113, 128.

(5) V. Goedon Childe, "What Happened in History", pp. 80-81.

(6) C.K. Maisles, "The Emergence of Civilisation: From Hunting and Gathering to Agriculture, Cities and the State in the Near East", (London, 1993). P.297.

(7) C.K. Maisels, "The Emergence of Civilisation", p.297.

٨ - حسب ما ذكره "F.Katz" في كتابه: "Ancient American Civilisation", p.29.

(9) V. Gordon Childe, "Social Evolution", (London, 1963), pp.155, 156.

(١٠) للمزيد عن هذه الإنشاءات الحجرية ما قبل الحضرية، انظر:

C.Renfrew, "Before Civilisation" (Harmondswort 1976).

(١١) وهكذا يكون من المؤكد أن التطورات التى حدثت فى منطقة بحر "إيجه"، كان قد شجع عليها ما حدث فى البر الأسيوى الرئيسى فى الجنوب الشرقى، والبر الأفريقى الرئيسى فى الجنوب؛ ومن المحتمل أن تكون بعض التطورات فى مصر (أنواع الحبوب التى كانوا يزرعونها وبعض الحرف اليدوية) كانت قد تأثرت بدرجة محدودة نتيجة الاتصال بحضارة بلاد ما بين النهرين القديمة، ويمكن أن تكون حضارات أمريكا اللاتينية كانت على صلة ما بحضارات شرق وجنوب شرق آسيا.

-٣-

الانقسامات الطبقية الأولى

كان لتطور الحضارة ثمنه، وفى روايته عن نشأة المجتمع الحضرى، يكتب "آدمز- **Adams**": "الألواح التى تحمل علامة "أمة" (**slave girl**) نجدها فى نهاية الفترة التى بدأت فيها القراءة والكتابة، **3000** سنة ق.م تقريبا؛ أما علامة "عبد" (**male slave**) فكانت بعد ذلك بفترة قصيرة؛ ثم كان أن ظهرت مصطلحات مختلفة للتفرقة بين "المواطن الكامل الحرية" و"الفرد من عامة الناس" أو الشخص التابع[١]. فى ذلك الوقت كان هناك "ما يدل بوضوح على وجود التمييز الطبقى"، ففى "**إشنونه- Eshnunna القديمة**"، كانت المنازل الكبيرة على امتداد الطرق الرئيسية... تشغل مساحة تقترب من **200**م٢ أو أكثــر. العدد الأكبر من المنازل، من ناحية أخرى كانت أصغر... لا يمكن الوصول منها إلى الطرق الرئيسية سوى عبر أزقة ضيقة وملتوية، ولم تكن مساحة المنزل منها تزيد عن خمسين مترا تقريبا فى مجملها[٢]؛ ويضيف "آدمز- **Adams**":

> **"فى قاع السلم الاجتماعى، كان العبيد... وهم أفراد يمكن بيعهم وشراؤهم... على لوح واحد فقط كانت قائمة من 250 أمة وطفل، يحتمل أنهم كانوا مستخدمين للعمل فى منشأة مركزية ما للنسج... نساء أخريات كن يعملن فى طحن الحبوب وصنع الجعة والطبخ... كان يشار إلى العبيد "الذكور" بشكل عام بـــ"العميان"، وكانوا فى الغالب يعملون فى فلاحة البساتين والحدائق"[٣].**

يعتبر ظهور الحضارة عادة إحدى الخطوات الكبرى فى تقديم التاريخ البشرى، بل لعلها الخطوة الفاصلة بين التاريخ وما قبل التاريخ، إلا أنها كانت

مصحوبة، أينما حدثت، بتغيرات أخرى سلبية: بتطور الانقسامات الطبقية لأول مرة، بقلة متميزة تعيش على كدح الآخرين، بإنشاء كيانات مسلحة من رجال وجنود وشرطة سرية – بعبارة أخرى، كانت مصحوبة بـــ"**آلة الدولة**" – لكى تفرض حكم تلك القلة على باقى المجتمع. وجود **العبودية**، وتملك بعض الناس لآخرين ملكية مادية، دليل ملموس على هذا التطور، ليس فى بلاد ما بين النهرين فحسب، بل وفى كثير من الحضارات القديمة الأخرى، كما يكشف عن مدى ما وصل إليه **التمييز الاجتماعى** منذ المجتمعات التى كانت تقوم على علاقات القرابة والنسب، والجماعات القروية. إلا أن **العبودية** كانت قليلة الأهمية نسبيا كمصدر لسدة احتياجات الطبقة الحاكمة القديمة فى بلاد ما بين النهرين. كان استغلال المزارعين وغيرهم من العمال الذين يجبرون على العمل لخدمة المعابد والطبقات العليا، أكثر أهمية؛ وكانت هناك جماعات مثل الـــ"**Shub-lugals**"(*) (جماعات من المهمشين الذين لا يتمتعون بدرجة كبيرة من الحرية) الذين يعملون فى الأراضى المملوكة لمعبد "**بو – Bau**"، ويستخدمون لجر السفن وحفر قنوات الرى وكانوا بمثابة نواة لميليشيا المدينة. كانوا يحصلون على حصص تموينية على مدار أربعة أشهر فى السنة مقابل عملهم... كما كانت تخصص لهم قطع صغيرة الأرض المملوكة للمعبد أو تحت حوزة الطبقة"(٤). هذه الجماعات كانت ذات يوم أسر فلاحية حيازية ولكنها أجبرت على التبعية لجماعات أقوى وبخاصة المعبد.

ويلخص "**جوردون تشايلد – Gordon Childe**" مرسوما من مدينة "**لاجاش – Lagash**"، نحو **2500** ق.م، يصف كيف كان "الكهنة المتميزون يمارسون مختلف صور الابتزاز (مثل فرض أثمان باهظة للمدافن)، وكيف كانوا يعتبرون أرض الله (أى أرض الجماعة) والماشية ملكية خاصة بهم والخدم عبيدا شخصيين لهم. "دخل

(*) The Shub-lugals. يترجم هذا المصطلح إلى الإنجليزية عادة بـــ"رعايا الملك" أو "رعايا سيد ما"– Subjects of the king, or Subjects of a master. وهم جماعات اجتماعية أقل مكانة. "Lugal" كلمة سومرية وكانت لقبا لحاكم الدولة – المدينة – ثم أصبحت تعنى "ملك" بصفة عامة. (المترجم)

كبير الكهنة حديقة الفقراء وأخذ ما كان بها من خشب... وإذا كان منزل رجل عظيم مجاورا لمنزل أحد العامة، فإن الأول كان يستطيع الاستيلاء على المسكن المتواضع، ولا يدفع لصاحبه أى تعويض مناسب"، ويخلص "**تشايلد**" إلى أن "هذا النص القديم يعطينا لمحة لا تدع مجالا للشك عن **صراع طبقى** حقيقى... كان الفائض الناتج عن الاقتصاد الجديد يتركز، فى الحقيقة، فى أيدى طبقة صغيرة نسبيا"(٥).

زاد حجم الاستغلال إلى أن أصبح هائلا، ويروى "**ت.ب. جونز** – **T.B.Jones**" كيف كانت "دزينة لا أكثر من المعابد" فى **لاجاش** نحو **2100** ق.م "مسؤولة عن زراعة معظم الأرض الصالحة للزراعة، ... كان النصف (نصف المحصول) يذهب لتغطية تكلفة الإنتاج (أجور العمال، تغذية حيوانات الجر، ...إلخ)، والربع يذهب إلى الملك، والربع الباقى للكهنة"(٦).

ويشير "**سى. چيه. جاد** – **C.J. Gad**" إلى صورة البطل فى ملحمة "**جلجامش** – **Gilgamesh**" البابلية الشهيرة... وهو ينظر إلى سور "**أوروك**"، الذى كان قد فرغ من بنائه للتو، ويشاهد الجثث الطافية على سطح النهر، ربما كانت تلك بالفعل نهاية أفقر الفقراء من المواطنين(٧).

كان هذا النموذج نفسه موجودا فى أمريكا الوسطى؛ ويلاحظ "**كاتز** – **Catz**"، "درجات واضحة من التمايز الاجتماعى" حتى فى الحضارة الأولى، حضارة **الأولمك** – **The Olmecs**، "مدافن مزودة بالهبات الثرية" و"تصوير.... لرجل جاث، راكعا أمام رجل آخر أنيق الملبس... نبيل مهيب وتابع خاضع"(٨)؛ كما تدل "مبانى المايا المتعددة الحجرات أو القصور" على أن المجتمع كان "منقسما بحدة إلى نخبة وعامة"(٩).

ترى، لماذا فجأة بدأ أناس لم يسبق لهم استغلال أو اضطهاد غيرهم يفعلون ذلك؟ ولماذا احتمل بقية المجتمع هذا الاستغلال والاضطهاد الجديد. إن سجل مئات وربما آلاف السنين فى مجتمعات الصيد والجمع، وسجلات آلاف السنين فى

المجتمع الزراعى القديم تدل كلها على أن **الطبيعة البشرية** لا تؤدى تلقائيا إلى مثل هذا السلوك(١٠).

الوصف الوحيد للمجتمع البشرى، الذى يتفق مع هذا التغير هو ما أوجزه "**كارل ماركس – Karl Marx**" فى أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، وفصّله "فردريك انجلز – **Fredeerick Engels**". كان تركيز "ماركس" على التفاعل بين تطور "علاقات الإنتاج – **Relations of Production**" و"قوى الإنتاج– **Forces of Production**". البشر يجدون أساليب جديدة لإنتاج ضرورات الحياة، أساليب تبدو مخففة من وطأة المشكلات المادية، إلا أن أساليب الإنتاج الجديدة هذه تبدأ فى خلق علاقات جديدة بين أعضاء الجماعة؛ وعند مرحلة معينة سيكون عليهم إما أن يتقبلوا الأساليب الجديدة فى علاقاتهم معا، أو أن يرفضوا الأساليب الجديدة فى تأمين سبل العيش.

بدأت نشأة الطبقات نتيجة لبعض ما حدث من تلك التغيرات فى وسائل تأمين سبل العيش. كانت أساليب الإنتاج مفتوحة أمام الجماعة التى استطاعت إنتاج وتخزين فائض أكثر بكثير مما هو مطلوب للعيش، إلا أن هذه الأساليب الجديدة كانت تستلزم تحرر بعض الناس من العبء المباشر للعمل فى الحقول، لكى يقوموا بتنسيق أنشطة الجماعة وضمان عدم استهلاك كل الفائض والاحتفاظ بجزء منه فى المخازن للاستخدام فى المستقبل.

كانت ظروف الإنتاج وما زالت غير مستقرة وغير مضمونة؛ إذ إن موجة جفاف، أو عاصفة عاتية، أو وباء جراد، كان يمكن أن تقضى على المحاصيل وتحول الفائض إلى عجظ وتهدد بمجاعة عامة، ما يدفع الناس إلى الرغبة فى استهلاك المخزون؛ وفى مثل تلك الظروف فإن من أعفوا من العمل اليدوى للإشراف على الإنتاج وجدوا أن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هى الاستئساد على كل من سواهم وجعلهم يستمرون فى العمل وهم متعبون وجوعى، وإجبارهم على ادخار مخزون غذائـــى وهم يتضورون جوعا. هكذا كان يمكن أن يبدأ "القادة" فى

التحول إلى "حكام"، إلى أناس يرون أن تحكمهم فى الموارد والسيطرة عليها، فى صالح المجتمع كله، وسوف يدافعون عن هذه السيطرة حتى وإن كان ذلك يعنى معاناة الآخرين، وسوف يرون أن التقدم الاجتماعى يعتمد على بقائهم دائما لائقين وبحالة جيدة ومحصنين ضد المجاعات والفقر وكل ما كان يصيب السكان عامة من كوارث. باختصار، سوف ينتقلون من العمل بأسلوب ما لصالح المجتمع الأوسع، إلى العمل كما لو كانت مصالحهم الفئوية هى مصالح المجتمع بأسره دائما؛ بعبارة أخرى، لأول مرة شجع التطور الاجتماعى على تطور الدافع لاستغلال الآخرين واضطهادهم.

كانت الانقسامات الطبقية هى الوجه الآخر لعملة إدخال أساليب الإنتاج التى خلقت الفائض؛ وكانت المجتمعات الزراعية الأولى قد توطدت دون تقسيم طبقى فى مواقع ذات أراض خصبة، إلا أنها عندما اتسعت أصبح البقاء فيها يتوقف على التعايش مع ظروف أكثر صعوبة، الأمر الذى كان يتطلب إعادة تنظيم للعلاقات الاجتماعية[١١].

كانت الجماعات التى تتمتع بمكانة اجتماعية عالية فى المجتمعات اللاطبقية السابقة، تقوم بالأعمال المطلوبة لزيادة الإنتاج الزراعى، مثل أعمال الرى وتنظيف مساحات أكبر من الأرض، ما جعلها تعتبر سيطرتها على الفائض واستخدام جزء منه لحماية نفسها من تقلبات الطبيعة، أمرا يستهدف الصالح العام، ومثلها كانت الجماعـات التى كانت تستغل التجارة الكبيـرة لزيادة نوعيات السلع المتوفـرة لاستهـلاك المجتمع، وتلك الجماعـات الأكثر كفاءة فى انتزاع الفوائـض من المجتمعات الأخرى بالحرب. كل تلك الجماعات كانت مقتنعة بأنها تعمل لصالح المجتمع كله.

كانت الكوارث الطبيعية وإجهاد الأرض والحروب، تصنع كلها ظروفا لأزمات حادة فى مجتمع زراعى لا طبقى، جاعلة من الصعب على النظام القديم أن يستمر، وكان ذلك يمكن أن يشجع الاعتماد على تقنيات إنتاجية جديدة؛ ولكن

تلك التقنيات كان يمكن استخدامها على نطاق واسع فى حال وجود أسر حيازية أو بدنات غنية، تستطيع أن تتحلل من التزاماتها القديمة. ما كان ثروة يتم التنازل عنها طواعية لآخرين مقابل المكانة والهيبة، أصبح ثروة للاستهلاك، بينما كان الآخرون يعانون: "فى الأنماط المتقدمة من الرئاسة أو الزعامة... ما كان يبدأ بشخص يود أن يكون رئيسا أو زعيما فيعطى إنتاجه لصالح الآخرين كان ينتهى بصورة ما، بغيره ممن يعطون إنتاجهم لصالح الرئيس أو الزعيم"[١٢].

لم يكن هناك شيء تلقائى أو لا إرادى فى هذه العملية، ففى أماكن كثيرة من العالم كانت المجتمعات مزدهرة حتى الأزمنة الحديثة دون اللجوء إلى أساليب مكثفة للعمل، مثل استخدام المحاريث الثقيلة أو الأعمال الهيدروليكية الواسعة، وهو ما يمكن أن يفسر لنا نسبيا بقاء ما يسمى بالمجتمعات "البدائية" فى "بابواغينيا الجديدة- **Papua New Guinea**"، وجزر المحيط الهادى، وأجزاء من أفريقيا، والأمريكتين، وجنوب شرق آسيا، حتى أزمنة قريبة نسبيا؛ ولكن فى ظروف أخرى كان البقاء يعتمد على تبنى تقنيات جديدة. نشأت **الطبقات الحاكمة** نتيجة تنظيم مثل تلك الأنشطة، ونشأت معها المدن والدول، وما نطلق عليه عادة "**حضارة**"؛ ومن هذه النقطة فصاعدا كان تاريخ المجتمع، بكل تأميد، هو تاريخ **الصراع الطبقى**. زادت البشرية من سيطرتها على الطبيعة، ولكن ذلك كان على حساب معظم الناس، الذين أصبحوا عرضة للسيطرة والاستغلال من قبل جماعات قلة متميزة[١٣].

مثل هذه الجماعات لم تستطع أن تحتفظ بالفائض فى أيديها بينما كان باقى المجتمع يعانى صعابا شديدة، إلا عندما وجدت الوسائل التى تمكنها من فرض إرادتها على باقى المجتمع، بتأسيس الدول... أى هياكل القهر. وفرت لهم السيطرة على الفائض بالوسائل التى مكنتها من ذلك: استئجار مسلحين، الاستثمار فى تقنيات باهظة مثل صنع الأدوات المعدنية، ما جعلها تحتكر أكثر وسائل القتل كفاءة.

المعروف أن القوة المسلحة تكون أكثر كفاءة عندما تدعمها مدونات قانونية وأيديولوجيات تدعم سلطة الطبقة الحاكمة وتجعلها تبدو وكأنها مصدر سبل معيشة الناس؛ ففى بلاد ما بين النهرين على سبيل المثال "كان الملوك القدامى يتباهون

بأنشطتهم الاقتصادية وشق القنوات وبناء المعابد، وجلب الأخشاب من سوريا، والنحاس والجرانيت من عُمَان، وكانوا يصورون أحيانا على الصروح والمبانى الأثرية فى زى عمال الأجر والبنائين والمعماريين وهم يتسلمون مخططات المعابد من الآلهة"[١٤].

لم يكن الحكام يرون أنفسهم تجسيدا لقيم المجتمع العليا فحسب، بل كذلك كان من يستغلونهم، فى بعض الأحيان. باستنزافهم فائض المجتمع وبسيطرتهم على وسائله لإعادة إنتاج نفسه، كان الحكام يرمزون إلى سلطة المجتمع لمن تحتهم – أن ينظر إليهم كآلهة، أو على الأقل كوسطاء ضروريين بين كتلة المجتمع وآلهته؛ ومن هنا كانت الصفات الإلهية المميزة لفراعنة مصر أو الصفات الكهنوتية للطبقات الحاكمة الأولى فى بلاد ما بين النهرين وأمريكا الوسطى.

كانت هناك أفكار دينية غائمة في المجتمعات ما قبل الطبقية، وكان الناس يعزون السيطرة على ظواهر تبدو غامضة، مثل إزهار بعض النباتات دون غيرها، وسنوات الصيد الوفير، وسنوات الجدب والجوع، وحالات الموت المفاجئة وغير المتوقعة، كانوا يعزون السيطرة على مثل تلك الظواهر لكائنات سحرية؛ ومع نشأة الطبقات والدول كان على الناس أن يتفهموا وجود قوى اجتماعية خارجة عن سيطرتهم؛ وعند هذه المرحلة كان أن نشأت المؤسسات الدينية المنظمة. أصبحت عبادة الآلهة طريقا إلى عبادة المجتمع سلطته، وعزز هذا بدوره سيطرة أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم المسؤولون عن تلك الإنجازات التى حققتها الناس، أولئك الذين استبدوا بجماهير المنتجين، ومن احتكروا الفائض فى أيديهم، واستخدموا القوة المسلحة ضد كل من يرفض مزاعمهم.

بمجرد أن أصبحت هياكل وأيديولوچيات الدولة قائمة، كان لا بد من تعمل على الإبقاء على سيطرة جماعة معينة على الفائض، حتى وإن لم يعد يخدم أهداف تقدم الإنتاج. الطبقة التى نشأت كمحفز على تقدم الإنتاج سوف تبقى حتى وإن لم تعد كذلك.

طبيعة المجتمعات الطبقية الأولى

نعتقد دائما أن المجتمعات الطبقية تقوم على الملكية الخاصة، ولكن الملكية الخاصة ليست ملمحا عاما فى كل المجتمعات المنقسمة إلى طبقات؛ فقد أشار "كارل ماركس- **Karl Marx**" إلى شكل آسيوى من المجتمعات الطبقية لم يعرف الملكية الخاصة، ويجادل بأن الحكام كانوا يستطيعون من خلال سيطرتهم الجمعية على آلة الدولة أن يستغلوا مجتمعات فلاحية كاملة، كانت تقوم بزراعة الأرض مشاركة دون وجود ملكية خاصة؛ وكان يعتقد أن تلك كانت صورة المجتمع الهندى وقت الغزو البريطانى فى القرن الثامن عشر. معظم الأبحاث الحديثة ترى أنه كان مخطئا إلى حد ما، على الأقل[١٥]، ولكن التاريخ القديم لحضارات بلاد ما بين النهرين ومصر والصين والهند وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية لا يبدو مطابقا لنموذجه.

كان الفائض الاجتماعى فى أيدة الكهنة الذين كانوا يديرون المعابد، أو فى أيدى مديرى العصور تحت قيادة الملك. كانوا يسيطرون عليه من خلال إدارتهم جوانب معينة من الإنتاج مثل أعمال الرى والتحكم فى الفيضان، وعمل المزارعين فى أراضى المعبد أو القصر، والتجارة؛ ولكن لا الكهنة ولا مديرى القصور كانوا يمارسون سيطرة أو ملكية خاصة. كانوا يفيدون من الاستغلال الطبقى فحسب، بقدر ما كانوا جزءا من جماعة حاكمة مشتركة.

يبدو كذلك أن إنتاج المزارعين فى قاع المجتمع لم يكن يقوم على الملكية الخاصة للأرض، كما يبدو أن الأنماط الجماعية لتنظيم الحياة الاقتصادية، التى كانت تميز المجتمعات الزراعية ما قبل الطبقية، يبدو أنها بقيت وإن بشكل مشوه بعد أن فقدت الأغلبية السيطرة على الفائض. ظل الناس يقومون بعملهم على اساس نظام الالتزام المتبادل فيما بينهم الذى يعتمد على بقايا علاقات القرابة والنسب القديمة؛ وهكذا نجد أن الزمر البطريركية - **patriarchal clans** (جماعات القرابة التى يدير شؤونها رجل كبير يكون بمثابة أب لها)، فى بلاد ما بين النهرين كانت

تتحكم فى الأرض التى ليست تحت سيطرة المعابد، بينما بقيت الكتلة الأكبر من المزارعين المنتجين فى المكسيك حتى فترة "**الأزتيك**– **The Aztecs**"، (القرن الخامس عشر) منظمة من خلال بالــ"**كالسپوللى**[*] – **Calpulli**" – وهى جماعات قرابة "ذات تنظيم طبقى داخلى دقيق[١٦]، يفرض من على رأسها مطالب الطبقة الحاكمة على الآخرين – كما كانت منظمة بين "**الإنكا** – **The Incas**" من خلال تنظيم مشابه هم الــ"**أيلوللى**[**] – **Aylulli**"[١٧]، ويستخدم علماء الأركيولوچيا والأنثروپولوچيا عادة مصطلح "الزمر المخروطية– **Conical Clans**" لوصف مثل تلك الجماعات؛ وهكذا أبقوا على المظهر الشكلى لبدنات وسلاسل قرابة المجتمع ما قبل الطبقى، بنسبة مجموعات من الأســر النووية بسلف أسطورى مشترك[١٨]، ولكنها نظمت الآن عمل الطبقة المستَغَلة لصالح الطبقة المستَغِلة، وتعمل كوحدات إنتاج وسيطرة اجتماعية فى الوقت نفسه.

فى جزء كبير من أوراسيا وأفريقيا كان أن تطورت الملكية الخاصة بين كل من الطبقة الحاكمة والفلاحين، ولكن ذلك تم على مدى قرون عدة، مع انشقاقات عميقة داخل الطبقات الحاكمة وحروب دامية وصراعات حادة بين الطبقات المستَغَلة والمستَغِلة.

(*) Calpulli تعنى "كالپوللى"– بلغة الناهواتل (Nahuatl) البيت الكبير المكون من عدة أسر كلها مسؤولة بشكل جمعى عن مهام دينية وتنظيمية تحت إشراف "ألتيپتل– Altepetl" مسؤول أكبر لفرض مطالــب الطبقة الحاكمة. (المترجم)

(**) Aylulli – أيلوللى تنظيم اجتماعى لدى "الإنكا" مشابه لتنظيم الكالپوللى لدى "الأزتيك". (المترجم)

الهوامش

(1) R.M. Adams, "The Evolution of Urban Society", pp. 95-96.

(2) R.M. Adams, "The Evolution of Urban Society", p.98.

(3) R.M. Adams, "The Evolution of Urban Society", p.103.

(4) R.M. Adams, "The Evolution of Urban Society", p.104.

(5) V. Gordon Childe, "What Happened in History", p.88.

(6) T.B. Jones, quoted in C.K. Maisels, 'The Emergence of Civilisation", p.184.

(7) C.J. Gadd, "Cities in Babylon", in J.E.S. Wdward; C.J. Gadd and N.G.L. Hammond (eds), Cambridge Ancient History", vol 1, part 2 (Cambridge, 1971).

(8) F.Katz, "Ancient American Civilisation".

(9) G.R. Willey and D.B. Shimkin, "The Maya Collapse" A Summary View" in T.P. Culbert (ed), "The Classic Maya Collapse (Albuquerque, 1973) p.459.

(١٠) لم يكونوا على استعداد لزيادة قواهم الجمعية بسبب القوى التوزيعية المستخدمة، كما جاء عند Michael Mann. M.Mann, "The Sources of Social Power", vol.1 (Cambridge, 1986), p.39.

(١١) للاطلاع على وصف لمثل هذه التغيرات انظر:

D.R. Harris, "The Prehistory of Tropical Agricultur in C.R. Renfrew (ed), "Explaining Cultural chang pp. 398-399.

(12) M. Sahlins, "Stone Age Economics", p.140.

(١٣) انظر وصف Christene Ward Galley لمحاولات الجماعات من ذوى المكانة الرفيعة فى "تونجا- Tonga" بين 1100 و1400م للتحلل من التزاماتها إزاء الناس الأقل مكانة فى محاولة لأن تصبح طبقة حاكمة، وذلك فى:

C.W. Gailey, "Kinship to Kingship", (Texas, 1987).

(14) V. Gordone Childe, "Man Makes Himself", (London, 1956), p.155.

(١٥) انظر على سبيل المثال:

R.Tharper, "Ancient Indian School History" (Gyderabad, 1984).

(16) R.M. Adams, "The Evolution of Urban Society", (London, 1966), p.114.

(١٧) انظر وصف "الإنكا" في:

J. Pla, Modo de Production Asiatico y las Formacions Econimico Sociales Inca y Azteca (Mexico, 1982), p.151.

(18) R. M. Adams, "The Evolution of Urban Society", p.90.

- ٤ -

اضطهاد النســـاء

خسر النساء فى كل مكان مع استقطاب المجتمع إلى طبقات ونشأة الدولة، وحدث تحول كبير فى وضعهن الاجتماعى وصفه "فردريك أنجلز" قبل قرن بـ"الهزيمة التاريخية العالمية لجنس النساء"؛ فبعد أن كن مشاركات للرجال فى صنع القرار، أكرهن على وضع التبعية والخضوع، مع تنوع كبير فى الطبيعة الدقيقة لذلك من مجتمع طبقى لآخر، ومن طبقة لأخرى فى كل مجتمع، وأصبحت عامة لدرجة أن ذلك ما زال يعتبر إلى اليوم نتاجا ثابتا للطبيعة البشرية.

ترسخ هذا التغير فى العلاقة الجديدة التى نشأت بين الناس مع إنتاج فائض، عندما اتجهت أساليب الإنتاج المكثفة الجديدة إلى إعطاء أولوية، لأول مرة، لعمل الرجال على عمل النساء. كانت أساليب جمع المصادر الرئيسية للطعام فى مجتمعات الجمع والصيد متسقة تماما مع الحمل والرضاعة مثلما كانت أشكال الزراعة البدائية التى تعتمد على استخدام المعزق؛ ولكن أعمال الحرث الثقيلة ورعى الماشية والخيول لم تكن كذلك، فكان لا بد من أن يتناقص معدل المواليد فى المجتمعات التى كانت تقوم فيها النساء بذلك، ويتوقف نموها السكانى وتتخلف مقارنة بالمجتمعات التى استبعدت معظم النساء من تلك الأدوار؛ وقد أشار "جوردون تشايلد" قبل فترة طويلة إلى أن بين "البربريين - **Barbarians**" - وهم شعوب زراعية تعتمد على الزراعة تماما "بينما تقوم النساء عادة بأعمال العزق، فإن الرجال هم الذين يقومون بالحرث، وحتى فى أقدم الوثائق السومرية والمصرية، كان الحراثون بالفعل من الذكور"[١]؛ ويرى أن "المحراث أراح النساء من العمل الأكثر إرهاقا، ولكنه حرمهن من احتكار الحبوب الغذائية، وما كان يسبغه ذلك عليهن من مكانة

اجتماعية"[٢]. أصبحت القرارات الرئيسية حول مستقبل الأسرة الحيازية أو البدنة قرارات ذكورية، ما دام الذكور هم الذين سيقومون بتنفيذها؛ كما كان للتغيرات الأخرى التى صاحبت زيادة الفائض تأثير مماثل، فأصبح النساء يعملن فى التجارة المحلية، كما كن يقمن بأدوار فى الحرب فى بعض الحالات. إلا أن تجارة المسافات البعيدة وأعمال المجهود الحربـى كانت حكـرا على الرجـال، وكان المحاربون والتجار فى الغالب الأعم من الذكور؛ وحيث إنهم كانوا يمارسون السيطرة على الفائض بشكل متزايد، كانت الملكية والسلطة تميل إلى كفتهم لتصبح حقوقا مقصورة عليهم. كسر خطوط النسب والقرابة القديمة دعم ظهور هذا التوجه، فلم تعد المرأة الفرد الراشدة جزءا من شبكة علاقات اجتماعية أوسع، تجعل لها رأيا أو كلمة بخصوص استخدام وسائل الإنتاج أو بعض الحماية ضد المعاملة الاستبدادية، وأصبحت بدلا من ذلك مجرد "زوجة"، وكيانا تابعا فى أسرة حيازية غريبة[٣]. كان نساء الطبقة الحاكمة يعاملن، على نحو متزايد، باعتبارهن ضمن ممتلكات أخرى لذكر يملك الفائض، يقدرن لكونهن زينة ومصدر متعة جنسية أو باعتبارهن منجبات لورثة، تتم حمايتهن من المشاق والأخطار الخارجية، كأنهن فى شرنقة تحجبهن عن أى تفاعل مع الحياة الاجتماعية الأوسع. كانت الحياة فى الأسر الحيازية الزراعية أو الحرفية مختلفة تماما بالنسبة للنساء، حيث كان ما زال لهن دور إنتاجى ويقمن بأعمال كثيرة، غير أن الأزواج كانوا هم المسيطرين على العلاقات بين الأسرة وباقى المجتمع، ويفرضون على النساء والأطفال المعايير اللازمة التى تضمن بقاء الأسرة (بما فى ذلك مرات الحمل)[٤]. كانت هناك داخل كل من الطبقات المستغِلة والمستغَلة على السواء علاقات "بطريركية" بالمعنى الحرفى – أى حـكم الأب على بقية أفراد الأسرة، وسرعان ما سنجد بصمة هذه السيادة فى كل الأيديولوجيات والأديان. لعبت الإلهات والكاهنـات دورًا ثانويا راح يتزايد، كرموز أمومية أو جمالية، أكثر منهم مشاركات فاعلات فى خلق العالم وتنظيمه.

لم تكن أدوار النساء ثابتة أو متساوقة فـــي كـــل الطبقـــات والمجتمعـــات، فى اضطهاد النساء بين المزارعين كان يتخذ شـــكلا مختلفـــا تمامـــا عنـــه بـــين الأرستقراطيات – ثم شكلا مختلفا تماما مرة أخرى بين العبيـــد، الـــذين لـــم يكـــن مسموحا لهم سواء أكانوا رجالا أو نساء، بالعيش فى أسر حيازية خاصة بهم؛ أمـــا الأرامل فكان هناك الكثير منهن فى كل مكان بسبب معدلات الوفـــاة التـــى كانـــت مرتفعة نسبيا بين الشباب، وكانت حياتهن تنتهى غالبا بـــإدارة أســـرة فلاحيـــة أو حرفية، وربما مملكة، مثلما كان يمكن أن يفعل الرجل. فى بعض المجتمعـــات لـــم يكن للنساء أى حقوق، وفى بعضها الآخر كان يمكن أن يتملكن ويـــرثن وأن يكـــن البادئات بمفاوضات الانفصال. لا تعنى حقيقة أن النساء كن مضطهدات فـــى كـــل مكان أن الاضطهاد كان واحدا، كما كانت تزعم نظريات "البطريركية" التى شاعت بين أكاديمى النسوية فى ثمانينيات القرن العشرين، إلا أن ذلك يعنى أن وضـــعهن كان أقل مما كان تحت الشيوعية البدائية.

نمو الطبقات المستغلة الأولى كان له تأثير أبعد مدى على تطور المجتمع بعامة، كما أن الأساليب التى استخدمها المستغلون لتدعيم حكمهم بدأت فى التهام واستنفاد قدر كبير من موارد المجتمع الرئيسية؛ فالإنفاق على الخدم، وعلى الشرطة الاحترافية والقوات المسلحة، وعلى بناء المعابد الضخمة والقصور والمقابر للإعلان عن سلطتهم، كل ذلك كان يستلزم المزيد من استغلال واضطهاد الجماهير، كما عزز تبرير الاستغلال والاضطهاد باعتبارهما الوسيلة الوحيدة لاستمرار المجتمع. كان هناك كذلك حافز إضافى على الحروب الخارجية كوسيلة لنهب موارد مجتمعات أخرى، كما كانت الحروب المتوطنة سببا آخر للمزيد من معاناة الجماهير، وشجعت ظهور طبقات حاكمة ودول بين الشعوب المجاورة. عندما أصبحوا مقتنعين بأن تركيز الفائض فى أيدى قلة، هو وحده الذى يمكن أن يوفر لهم وسائل الدفاع[٥]؛ وإجمالا، حتى وإن كان قيام جماعة حاكمة أمرا عمليا بالنسبة للمجتمع، إلا أنه يصبح عبئا عليه عند نقطة معينة، وهذا ما كشفت عنه على نحو درامى أحداث فى الشرق الأوسط ووادى الإندوس وشرق البحر الأبيض المتوسط بين **1000** و**1500** سنة من قيام الحضارات الأولى.

الهوامش

(1) V. Gordon Childe, "What Happened in History", p.72.

(2) V. Gordon Childe, "What Happened in History", p. 72.

(3) K. Sachs, "Sisters and Wives", (London, 1979), pp. 117, 12.

(٤) للمزيد عن نشأة اضطهاد المرأة وما أقدمه من حجج، انظر كتابى:

"Engels and the Origins of Human Society", pp. 129-142.

(5) I.M. Diakhanov, "The Structure if Near Eastern Society Before the Middle of the 2nd Millennium BC", Oikumene 3:1 (Budapest, 1982).

- ٥ -

عصور الظلام الأولى

لا يشاهد أحد أهرام أو معابد أو قصور أو تماثيل الحضارات الأولى الكبرى، إلا وتتملكه حالة من الإعجاب والانبهار. لم تكن تلك المبانى التذكارية الخالدة هى كل ما هناك، إذ كان هناك أيضا منازل حجرية – التى كانت مزودة حتى بالمياه وأنظمة الصرف؛ بل إن من قاموا ببناء تلك المعالم لم يكونوا يعرفون المعادن المصلدة، وإنما كانوا يستخدمون أدوات صنعوها بأيديهم من الحجر أو الخشب، وفى بعض الأحيان من النحاس أو البرونز.

لا بد أن تأثير ذلك كان أكثر عمقا على الناس الذين كانوا يعيشون فى تلك المدن وحولها؛ فأهرام الجيزة أو "تيوتيهواكان– **Teotihaucan**"، وزقورات "أور– **Ur**" أو "أوروك– **Uruk**" التى كانت تبدو مسيطرة على الأفق ربما أكثر من مبنى "الإمبايرستيت– **Empire State Building**" أو "برج إيفل– **Eiffel Tower**"، ربما كانت رموزا باقية على قوة ودوام واستقرار الدولة، وتجعل الطبقة الحاكمة تعتقد أن سلطتها خالدة ولا يرقى إليها الشك مثل حركة الشمس والنجوم، بينما ترسخ مشاعر الضعف والضآلة بين العامة.

ولكن إذا كانت الأهرام والتماثيل وبعض المبانى قد بقيت، فإن المجتمعات التى أنتجتها دخلت عاجلا أو آجلا فى أزمات شديدة. دخلت الدول – المدن فى بلاد ما بين النهرين فى حروب متواصلة ضد بعضها البعض قبل أن تستسلم فى **2300** ق.م لفاتح جاء من الشمال، هو "**سارجون– Sargon**"، الذى "لحم" الهلال الخصيب كله فى إمبراطورية عظيمة، سقطت فريسة لفاتحين آخرين بعد وفاته. "المملكة القديمة" فى مصر، صاحبة أهرام الجيزة وسقارة[1]، تداعت على مدى قرن ونصف

القرن من الحرب الأهلية والتمزق الاجتماعى الواسع (ما يسمى بـ"الفترة الوسطى الأولى" من **2181: 2040** ق.م). مدن وادى الإندوس، "هارابا- **Harappa**" و"موهنجو- ديرو: **Mohenjo-dero**"، هجرها سكانها بعد أكثر من ألف سنة، فى **1500** ق.م تقريبا؛ وبعد مائة عام كان الدور على حضارة "**كريت- Crete**"، ممثلة بالقصر المهيب فى "**كنوسوس- Knossos**" لكى تتداعى هى الأخرى، ولتتبعها بعد فترة قصيرة "**الحضارة الميسينية- Mycenean Civilisation**" فى بر اليونان الرئيسى. ومثلما تكرر قيام الحضارة فى أمريكا الوسطى، كذلك كان سجل السقوط المفاجئ. هجر الناس، على التوالى، "تيوتيهواكان" و"مونت ألبان – **Monte Alban**" ومراكز "مايا- **Maya**" الجنوبية، تاركين مدنا كاملة أثرا بعد عين، لكى تبهر، على التوالى كذلك، "الأزتيك- **The Aztecs**"، والفاتحين الإسبان، كما تبهرنا.

هناك تضارب تاريخى كثير حول سباب أزمات كل من تلك الحضارات، بيد أن هناك عوامل بعينها وراء كل محاولة لتفسير ذلك.

هناك أولا سجل الإنفاق الباهظ للموارد، الذى كانت تقوم به الطبقات الحاكمة، على نفسها وعلى النصف التذكارية؛ فقد كان عدد القصور والمقابر يتزايد على مر القرون، وأكثر منه كانت رفاهية أسلوب حياة الطبقة العليا، والجهد المبذول فى انتزاع الفائض من المزارعين، وشبكات التجارة التى كانت تجلب المنتجات النادرة من مناطق بعيدة.

وتكشف النصوص الباقية فى مصر كيف كانت إدارة الدولة "معنية بالأساس بتسهيل نقل الناتج" إلى المراكز المختلفة التى كانت تكون "البلاط"، وبالإشراف على أعمال البناء، أكثر منها بصيانة النظام الزراعى، وبذلك كانت "تشكل ضغطا هائلا على الفائض الزراعى"[٢]، وتبدو الصورة فى بلاد ما بين النهرين مشابهة تماما، مع الضغط الإضافى للحرب بين الدول المدن المختلفة وكذلك مع الشعوب الرعوية على حدود حضارتها.

زيادة قوة الطبقة الحاكمة وثروتها أدت إلى انخفاض مستوى معيشة أغلبية الناس إلى الحد الأدنى الضرورى للبقاء، وأحيانا إلى ما دون ذلك؛ وهكذا بالرغم

من أن الحرفيين الذين كانوا يعملون فى إنشاءات المعابد والقصور طوروا أساليب جديدة وخاصة فيما يتعلق باستخدام النحاس والبرونز، فإن "جماهير المزارعين الذين كان يتم جمع الفائض منهم، لم يكونوا يستطيعون تدبير المعدات الجديدة. كان على المزارعين وعمال المحاجر فى مصر أن يكتفوا بأدوات العصر الحجرى؛ وفى "**سومر- Sumer**" كانوا لا يزالون ينتفون الصوف، ولم يكونوا قد عرفوا جزه بعد؛ وحتى فى مدن الإندوس نجد أنه سكاكين الصوان (المصنوعة من الحجر) كانت منتشرة، ما يدل على أنه كان هناك نقص فى الأدوات المعدنية"[٣].

كان الاستنزاف المتزايد للموارد من قِبَل الطبقة الحاكمة مصحوبا ببطء شديد فى نمو قدرة البشر على السيطرة على العالم الطبيعى وفهمه؛ ويقابل "**جوردون تشايلد- Gordon Childe**" بين الخطوات المتقدمة التى كانت المجتمعات الأمية والفقيرة نسبيا قد حققتها فى الفترة التى أدت إلى "الثورة الحضرية"، وما جاء بعد إنشاء الدول الكبرى:

> **"كانت الألفيتان الرابعة والخامسة قد شهدتا اكتشافـات فى العلم التطبيقى، أثرت على رفاهية الملايين بشكل مباشر أو غير مباشر، كما عمقـت على نحو واضح الرخاء البيولوچى لنوعنا، ...الرى الصناعى باستخدام القنوات والمصارف، المحراث، استئناس القوة المحركة للحيوانات، القارب الشراعى، المركبات ذات العجل، فلاحة البسـاتين، التخميـر، إنتاج واستخدام النحاس، القرميد، القنطرة، التزجيج، الختم... - وفى المراحل الأولـى للثورة - تقويم شمس، الكتابـة، التدوين الرقمى، البـرونز.... الألفيتان بعد الثورة أنتجنا إسهامات قليلة يمكن أن يكون لها نفس الدرجة من الأهمية، بالنسبة للتقدم الإنسانى"[٤].**

الخطوات المتقدمة التى تحققت (الحديد، سواقى المـاء، الكتابـة الأبجديـة، الرياضيات البحتة) لم تتم داخل "الحضارات العظيمة" وإنما بين "شهوب بربريـة"، على حواف تلك الحضارات"[٥].

ويقابل "**بروس تريجر– Bruce Trigger**" بين فترة الأسرات القديمة في مصر (**3000-2800** ق.م)، التي "يبدو أنها كانت فترة إبداع وابتكار"، والفترة التي جاءت بعدها عندما كانت "سيطرة الكتبة والبيروقراط عقبة أمام التغيير في أساليب الإنتاج، وبذلك توقف التقدم"[٦].

الاستغلال الكبير الذي كانت تتعرض له الجماهير، وكان حجمه يتزايد مع زيادة فخامة المعابد والقصور والمقابر وارتفاع مستوى معيشة الطبقة الحاكمة، هذا الاستغلال كان كفيلا بركود وسائل تدبير معيشة المجتمع ككل.

ذلك القطاع من المجتمع، الذي كان قد تحرر من الكدح اليومي في الحقول، لم يعد لديه أي رغبة أو مصلحة تعزيز سيطرة البشر على الطبيعة. "كان الكثير من الخطوات الثورية الجارية – مثل استئناس القوة المحركة للحيوانات، والشراع، والأدوات المعدنية – قد ظهر في الأساس "كأساليب موفرة للجهد"، ولكن الحكام الجدد كانوا الآن يتحكمون في مصادر غير محدودة للعمل... ولا يجدون ضرورة لشغل أنفسهم باختراعات توفر الجهد"[٧]. الحكام الذين عززوا سلطتهم على الجماهير بتشجيع الخرافة – كان ملوك "**سومر**" وفراعنة مصر يدعون لأنفسهم سلطات شبه إلهية – لم يكن لديهم أي اهتمام بتشجيع الاجتهاد العلمي بين الأقلية القليلة من المتعلمين في المجتمع من بين الكهنة وموظفي الإدارة المتفرغين. كان الاجتهاد قد توقف عند المعرفة التي تطورت من قبل في الثورة الحضرية، يتعامل معها باحترام ديني، مكتفيا بمحاكاة النصوص ونقل الأفكار الراسخة. لم تكن هناك أي محاولة للتحقق أو الاستفهام. لم يكن لآخر مرة في التاريخ أن ينحط العلم إلى جمود وتزمت، والجمود والتزمت إلى شعوذة على مدى قرون[٨]. انتهى الأمر بالنخبة المتعلمة تعوق سيطرة الإنسان على الطبيعة بدلا من تعزيزها.

الآن، كانت طبقة حاكمة، نشأت نتيجة لما حدث من تقدم في القوى البشرية المنتجة، هي التي تعوق المزيد من التقدم، ولكن بدون مثل هذا التقدم كان لابد من أن يستنفد جشعها موارد المجتمع إلى أن أصبحت سبل العيش لا تفي باحتياجات

الناس؛ وعند هذه النقطة كان تغير طفيف فى الطقس كفيلا بتعريض الناس لمجاعة والمجتمع للتصدع. حدث ذلك فى مصر فى أواخر "المملكة القديمة"، عندما تسبب انخفاض فى مستوى فيضان النيل فى مشكلات بالنسبة للرى؛ كما يرى "**ويلى شيمكن- Willey Shimkin**" أن "استغلالا مفرطا" مماثلا من قبل الطبقة الحاكمة، أدى إلى انهيار حضارة المايا الكلاسيكية فى أمريكا الوسطى قبل **1200** سنة تقريبا.

> **"طبقة عليا نامية مع أتباعها المختلفين، وأعضاء آخرون من "الطبقة الوسطى" الناشئة، كانوا سببا فى إجهاد اقتصاد المجتمع كله... زادت أعباء سوء التغذية والمرض بين العامة فتناقصت القدرة على العمل أكثر مما كانت.... وبالرغم من كل هذه الضغوط الداخلية، من الواضح أن "المايا" فى الفترة الكلاسيكية المتأخرة لم يأتوا بأى ابتكار تكنولوجى أو اجتماعى ملائم". ما حدث هو أن نخبة "المايا" استمرت فى طريقها التقليدى حتى نقطة الإنهيار"[٩].**

الصراعات الطبقية فى الحضارات الأولى

كان لابد أن يؤدى إفقار الطبقات المستغَلة المسؤولة عن إطعام بقية المجتمع إلى صدام مصالح بين مختلف الطبقات.

كان الانقسام الطبقى الرئيسى هو ذلك الذى حدث بين الأقلية الحاكمة وكتلة المزارعين الخاضعة، وكان لا بد من أن تؤدى الأعباء المتزايدة على المزارعين وابتزاز الأقلية الحاكمة لهم إلى صدامات بين الجانبين، إلا أننا، للأمانة لا نعرف الكثير عن ذلك، أكثر مما تصوره رسوم المقابر أو نقوش المعابد، التى يظهر فيها أشخاص من العامة يقومون بخدمة "سادتهم"، والغريب أن تكون تلك هى الطريقة المفضلة لتصوير العامة بالنسبة للطبقات الحاكمة عبر التاريخ.

إلا أن بعض علماء الأركيولوجيا والمؤرخين يرون أن انهيار المملكة القديمة فى مصر كان ينطوى فى جزء منه على "ثورة اجتماعية"، مستشهدين بنص

قديم يعرف بـــ"وصايا أيبوور- **Admonitions of the Ipuwer**"، يتصور موقفا يمكن أن "تغتصب فيه الخادمات أماكن سيداتهن، والمسؤولون يجبرون على تنفيذ مطالب السوقة، وأبناء الأمراء يضرب بهم عرض الحائط"[١٠]. على نحو مشابه تقريبا، يعزى انهيار حضارات "تيوتيهواكان" و"مونت آلبان" و"المايا الجنوبية" في أمريكا الوسطى لثورات فلاحية[١١].

إلا أن التوترات التى نشأت لم تكن بين الحكام والفلاحين المستغَلين فحسب، حيث هناك أدلة باقية من كل الحضارات القديمة يشير إلى انشقاقات كانت تتزايد داخل الطبقة الحاكمة.

كانت الطبقات الحاكمة الأولى فى بلاد ما بين النهرين وأمريكا الوسطى، على ما يبدو، كهنة المعابد، إلا أن الملوك بدأوا في الظهور فى بلاد ما بين النهرين جنبا إلى جنب الكهنة عندما أصبحت الإدارة العلمانية والحروب مهمة، وظهور أرستقراطية غير كهنوتية لها ضِياعها الخاصة (ومزارعوها التابعون لها)، إلى جوار أرستقراطية المعابد والقصر الملكى؛ وبالمثل كانت نخبة المحاربين فى أمريكا الوسطى تحظى بسلطة متنامية[١٢].

كان الملوك في مصر يعتمدون على كهنة وحكام إقليميين لإدارة الخمسمائة ميل من وادى النيل، وتأمين التدفق المستمر للطعام والمواد وقوة العمل على العاصمة؛ كما تمكنوا على مر القرون من شراء ولاء مثل تلك الجماعات (من الكهنة وحكام الأقاليم) بمنحهم قطعا من الأراضى، فكانوا "يمتصون" جزءا كبيرا من الفائض لأنفسهم ويمارسوا درجة من السلطة بعيدا عن الحكم المركزى؛ ومما يدل على ذلك قيامهم ببناء مقابر باهظة لأنفسهم محاكاة للفراعنة، حتى وإن كانت أصغر حجما.

كان لنشأة جماعات مستغِلة جديدة، إلى جانب القديمة، تأثير مضاعف، إذ كان ذلك يعنى من ناحية تضخم الشريحة التى تعيش على الفائض وتضع عبئا متزايدا على كاهل الفلاحين، كما كان يعنى من ناحية أخرى إمكانية ظهور تحديات

أمام سلطة الحكام الأصليين الشمولية، من أناس يتحكمون فى الموارد ويسيطرون على القوة المسلحة أو نشر الأفكار؛ وعليه يبدو من الواضح أن الانهيار الذى أصاب "المملكة القديمة" فى مصر وبلغ حد الأزمة، كان فى جزء منه على الأقل من جراء تقديم رؤساء الكهنة وحكام الأقاليم مصالحهم الخاصة على مصالح الدولة المركزية، ما أدى كما يقول **"كمپ– Kemp"** إلى "حرب أهلية... بين أناس كانت تطلعاتهم ذات طبيعة تقليدية تماما"(١٣).

كانت الانشقاقات داخل الطبقة الحاكمة مصحوبة بنشأة طبقات جديدة، إذ كانت الإنتاجية الزراعية المتزايدة قد مكنت بعض الناس من التحرر من العمل فى الحقول، فظهرت جماعات متخصصة من الحرفيين وعمال النسج والنجارين وعمال الجلود والمعادن والبناء؛ ثم إن تركيز فائض غضافى فى أيدى الطبقات الحاكمة خلق حافزا إضافيا، فكان الكهنة والملوك يطلبون المزيد من السلع الترفيهية لأنفسهم ولأتباعهم، بالإضافة إلى المزيد من المعابد والقصور والمقابر الأكثر فخامة وأبهة، وكان ذلك يعنى زيادة تجمع العمالة الماهرة فى المناطق المحيطة بالقصور والمعابد والمقابر، فكان أن نشأت طبقة جديدة كاملة من الحرفيين بين سكان المدن الجديدة.

العمال والفنيون الذين بنوا أهرام الجيزة ونحتوا مقابر "وادى الملوك" فى مصر، نموذج لتلك الطبقة، وهذه الإنشاءات "على عكس الاعتقاد السائد، لم يشيدها عبيد ولا رجال كانوا فيما بعد يقتلون لحماية الكنوز الملكية المخبأة"(١٤). ربما كان يستخدم العمل القسرى لإجبار أعداد كبيرة من المزارعين لتحريك أو نقل كتل كبيرة من الصخور، إلا أن الكتابات الباقية من منتصف الألفية الثانية ق.م فى "طيبة" – الأقصر اليوم – تبين أن حرفيين مهرة هم الذين كانوا يقومون بتقطيع ونحت ونقش الأحجار، وبأعمال النجارة. كان أولئك الحرفيون يعيشون فى قرية خاصة من بيوت حجرية ويحصلون على أجور كافية (فى صورة حبوب وزيت وسمك) تكفى لإعالة أسرة من عشرة أفراد، وكان هذا الدخل يعادل ثلاثة أمثال دخل العامل الزراعى المتوسط. عملهم لمدة ثمانى ساعات فى اليوم كان يترك

للكثيرين منهم فرصة من الوقت للقيام بأعمال أخرى ومن ثم تحسين مستوى معيشتهم، وكان بعضهم مهرة بالفعل من بين قلة تستطيع القراءة والكتابة. لم يكونوا أحرارا تماما. كانوا عرضة لاستبداد واضطهاد الكتبة والملاحظين الذين يقومون بالإشراف عليهم، ومن كان يعتبر منهم "فائضا" عن حاجة وزير الفرعون، كان يجبر على القيام بأعمال قسرية[١٥]، إلا أنهم هبوا فى **1170** ق.م، مدعومين من زوجاتهم، للمشاركة فى أول إضرابات سجلها التاريخ، عندما تأخر صرف مخصصاتهم وواجهت أسرهم الجوع[١٦].

لم يكن أولئك عمال أجرا بالمعنى الحديث، وحيث لم يكن لديهم الحرية لاختيار من يعملون لديه، كانوا يحصلون على سلع وليس على مقابل نقدى، كما كانوا يعتمدون فى معيشتهم على توزيع السلع الذى تقوم به الدولة على نحو مركزى، الأمر الذى كان يحد من قدرتهم على العمل مستقلين عن الدولة أو الكشف عن أفكار وآراء معارضة لها. كانوا يعبدون آلهة الطبقة الحاكمة وملوكا مؤلهين، بالإضافة إلى آلهتهم الخاصة المفضلة؛ وبالرغم من ذلك فإن التركيز الجغرافى ومعرفة القراءة والكتابة كانا قد منحا الثقة لطبقة مضطهدة ومستغلة، لكى تتحدى حكام مملكة عمرها ألف وخمسمائة عام، وكان ذلك إيذانا بمستقبل بعيد يمكن أن تكون فيه طبقة كتلك أقوى بمراحل.

بدأت طبقة تجارية فى النمو جنبا إلى جنب طبقة الحرفيين فى معظم الحضارات القديمة، وكانت المجتمعات ما قبل الطبقية قد عرفت التجارة بالفعل: أحجار الصوان المستخرجة من منجم فى مكان ما، كنت تجدها مستخدمة فى أماكن أخرى تبعد مئات الأميال، على سبيل المثال والآن، كانت أهمية التجارة قد زادت مع زيادة سعى الطبقة الحاكمة الناشئة إلى الترف والحصول على الخامات اللازمة لبناء المعابد والقصور، ولم يكن بالإمكان الحصول على الكثير من هذه المواد، إلا إذا كان هناك أفراد وجماعات مستعدة للقيام برحلات طويلة وشاقة، وخطرة فى معظم الأحيان، ونادرا ما كان مثل أولئك الناس من الفئات المشمولة برعاية الطبقة الحاكمة نفسها. كانوا إما من بين طبقة المزارعين المستغَلة، أو من خارج المدن،

وخاصة من بين الجماعات الرعوية المترحلة فى الأراضى البراح بين المراكز الحضرية. مع زيادة أهمية التجارة زادت أهمية التجار، وبدأوا يكدسون ما يكفى من الثروة لممارسة ضغوطهم على الطبقة الحاكمة؛ وهنا نكون قد وصلنا إلى نقطة فارقة، عندما بدأت البلدات والمدن فى النمو والتطور تحت إدارة الطبقات التجارية، مثل مدينة "سيبار– **Sippar**" فى الهلال الخصيب. إلا أن الطبقة التجارية كانت موجودة، فى معظم الأحوال، على هامش المجتمع الأعرض، حتى مع اتساع هذا الهامش بمرور الوقت؛ ومثلما الأمر بالنسبة للحرفيين، ليس هناك أدلة كثيرة على أن التجار كان لديهم رؤية خاصة عن كيفية إدارة المجتمع.

كانت نتيجة تخلف طبقات الحرفيين والتجار، أن المجتمع عندما دخل فى أزمة كبيرة، لم تكن هناك جماعة اجتماعية لديها القوة أو البرنامج التى تمكنها من إعادة تنظيمه. كانت الطبقة الحاكمة القائمة لم تعد قادرة على تطوير السيطرة البشرية على الطبيعة بما يكفى لصد موجة البؤس والجوع العاتية، وفى الوقت نفسه لم يكن هناك أى جماعة أخرى تستطيع القيام بذلك. كان يمكن أن تنتفض جماهير الفلاحين ضد مستغليهم، ولكن استجابتهم للجماعة كان أن يستهلكوا كل المحصول ولا يتركون شيئا للإبقاء على هياكل الحضارة – البلدات، الفئات المتعلمة، الجماعات المعنية بالقنوات والسدود.

النتيجة يمكن أن نراها على أوضح ما تكون فى حالة الحضارات المنهارة – حضارات "كريت" و"مسينيا" و"هارسابا" و"مونچو – ديرو" و"تيوتيهواكان" و"مونت آلبان" و"المايا". المدن هجرت، والثقافات المزدهرة نسيت، وعاد الناس إلى حياة زراعية تماما مثل تلك التى كان يعيشها اسلافهم قبل خمسمائة عام أو أكثر.

كتب "**كارل ماركس– Karl Marx**" فى مقدمته الشهيرة لكتابه "إسهام فى نقد الاقتصاد السياسى– **Contribution to the Critique of Political Economy**" فى وقت كان المعروف فيه قليلا عن أى من الحضارات السابق ذكرها:

> **يدخل الناس أثناء الإنتاج الاجتماعى لحياتهم فى علاقات معينة ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، علاقات إنتاج مطابقة لدرجة**

معينة من تطور قوى الإنتاج المادية لديهم. إجمالى علاقات الإنتاج هذه، يكون البنية الاقتصادية للمجتمع، الأساس الفعلى الذى تقوم عليه بنية فوقية قانونية وسياسية مطابقة لأشكال محددة من الوعى الاجتماعى.... عند مرحلة معينة من تطورها، تدخل قوى الإنتاج المادية فى المجتمع فى صراع مع علاقات الإنتاج القائمة – أو ما ليس سوى تعبير قانونى عن الشىء نفسه– مع علاقات الملكية التى تكون ما زالت فاعلة. من أشكال تطور قوى الإنتاج، تتحول هذه العلاقات لتصبح أغلالا مقيدة لها، وآنذاك تبدأ حقبة ثورة اجتماعية"[١٧].

ولكن مثل هذه الحقبة قد يكون لها أكثر من نتيجة، وكما أشار "**ماركس**" فى "**البيان الشيوعى– Communist Manifesto**"، فإن **الصراعات الطبقية**، قد تنتهى تاريخيا إما بعملية إعادة تنظيم وبناء ثورية للمجتمع بعامة، أو بالدمار للطبقات المتنافسة"[١٨].

هذه الحالات تؤكد ما يقوله "**ماركس**"، فقد أصبحت بالفعل طبقة حاكمة، كانت قد لعبت دورا فى مرحلة ما فى تطوير "**قوى الإنتاج**"، أصبحت قيدا على نموها التالى، مقتادة المجتمع بعامة إلى فترة من الفوران الاجتماعى؛ ولكن لعدم نشأة طبقة مرتبطة بأساليب جديدة أكثر تقدما لخدمة الإنتاج، وقادرة على فرض إرادتها على المجتمع برمته بإزاحة الطبقة الحاكمة القديمة، لم تؤد الأزمة إلى نمو أبعد لقوى الإنتاج. ما حدث، أن كان هناك بدل ذلك "دمار متبادل للطبقات المتنافسة" وردة، بالمعنى الحرفى، إلى "البربرية"، إلى مجتمعات بلا مدن، بلا قراءة أو كتابة، بلا تقنيات متقدمة.

الفتح والتغيير

تواريخ مصر وبلاد ما بين النهرين ليست مطابقة لنموذج "**ماركس**" تماما، ففى تلك الحالات، فإعادة النظام والتوازنات الداخلية للحياة الاجتماعية جاءت بعد فترة من الفوضى والحرب الأهلية والمجاعة، امتدت على مدى قرن أو أكثر. كانت تحولات القوة داخل الطبقة الحاكمة (من الكهنة إلى المحاربين فى بلاد ما بين

النهرين، ومن "ممفيس" إلى "طيبة" فى حالة مصر) مصحوبة بتدفق للثـروة مـن الفتح الأجنبى فى حالة بلاد ما بين النهرين، وتحسين فى مستوى النيل فـى حالـة مصر، وكانت كافية للتغلب على الأزمة الاقتصادية العاجلة، وجعل المجتمع يتقـدم على امتداد خطوطه القديمة بشكل أساسى مئات أخرى من السنين؛ إلا أن الأسباب الرئيسية للأزمة لم يتم القضاء عليها. كانت المجتمعات ما زالت تفتقر لمثـل تلـك الدفعة الابتكارية التى ميزت السنوات الأولى من الثورة الحـضرية، ومـا زالـت عاجزة عن تطوير أساليب جديدة لكسب العيش سوى بمعدل شديد البطء، كما كانت لا تزال عرضة لأزمات كارثية. فى بلاد ما بين النهرين ظهر الغزاة الفاتحون (إما من المدن القائمة أو من بين القبائل الرعوية حول أطراف المنطقة) الذين أسـسوا إمبراطوريات مركزية كبيرة ووحدوها بزحف جيوشهم من مركز حـضرى إلـى آخر لسحق أى مقاومة لحكمهم، إلا أن ذلك كان يزيد المجتمع إرهاقـا ويـستنزف الخزائن الإمبراطورية إلى الحد الـذى كـان يجعـل الحـاكم المركـزى يـسمح للأرستقراطيات المحلية أن تقوم بحفظ "النظـام" فـى المنـاطق الـصغيرة التـى يسيطرون عليها وبأن يستهلكوا معظم الفائض. كانت النتيجة أن ضعفت دفاعـات الإمبراطورية بكاملها وأصبحت عرضة، إما للاستيلاء عليها من قِبَل قائد عسكرى متمرد فى الداخل، أو من "فاتح" من الخارج.

من هنا كان زحف الغزاة الفاتحين عبر تاريخ الهلال الخصيب، الذى نجد تفصيلا له فى "العهد القديم": العموريون- **The Amorites**، والكاسيتيون- **The Kassites** والآشوريون- **The Assyrians**، والحيثيون- **The Hittites**، والميديون- **The Medes**، والفرس- **The Persians**.

على مدى سنوات عدة، كانت الصحراء تحمى مصر من أى غزو خارجى، ولكن ذلك لم يمنع كارثة أخرى، وهى "الفترة الوسطى الثانية، نحو **1700-1600** ق.م. الآن كانت المؤثـرات الأجنبية قد نشطت بعنف فى الشمـال، حيث كان "الهكسوس- **Hyksos**"- من فلسطين تقريبا – قد اعتبروا أنفسهم فراعنة، بينما كانت **مملكة "كوش- Kush النوبية"** تمارس هيمنتها فى الجنوب. كلتاهما، فلسطين والنوبة كانتا مواقع مجتمعات سريعة التطور، فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى حالة

ركود. كان "**الهكسوس**" قد أفادوا بدرجة كبيرة من ابتكارات تقنية لم يسبق أن كانت مستخدمة فى مصر، وبخاصة العجلة. لم يستطع الحكام المصريون الذين طردوا "**الهكسوس**" وأسسوا "المملكة الجديدة" فى **1582** ق.م أن يقوموا بذلك، إلا بتبنى تلك الابتكارات وإفساح مجال أوسع، فيما يبدو، لتطور جماعات الصناع والتجار.

يرى "**تشايلد- Childe**" أن كلتا الحضارتين اللتين تجددتا فى بلاد ما بين النهرين ومصر كانتا مختلفتين اختلافا بينا عن السابقتين لهما، كما تدل عليه الأهمية الكبيرة للطبقة المتوسطة من التجار، والجنود المحترفين والموظفين والكهنة والصناع والحرفيين المهرة، الذين لم يعودوا ضمن الأسر الحيازية الكبيرة، وإنما يعيشون، على نحو مستقل، إلى جوارها"[١٩].

المؤكد أن هناك تناقضا حادا بين الركود الذى يميز "المملكة القديمة" المتأخرة، و"المملكة الوسطى" من ناحية، وديناميية القرون الأولى للمملكة الجديدة من ناحية أخرى. كانت تلك فترة فتوحات وغزوات أجنبية بواسطة الفراعنة فى فلسطين وسوريا، وجنوبا فى أفريقيا. جاءت الفتوحات والغزوات بتدفق لخامات وسلع ترفيه جديدة، وفى الوقت نفسه كان الفائض الآن قد أصبح كبيرا بما يكفى لبناء المقابر والقصور الفاخرة، ليس للفراعنة فحسب، بل ولكبار الكهنة والمسؤولين فى الأقاليم، والواضح أنه كان وراء ذلك تعاظم مفاجئ فى تطور الإنتاج. حل البرونز، بصلابته المعروفة محل النحاس، كانت المركبات ذات العجل التى تجرها الخيول مستخدمة بشكل رئيسى فى الحرب، ولكن استخدامها العام أدى إلى سرعة الاتصالات الداخلية، وبالنسبة للفلاح أصبح الرى أسهل باستخدام الشادوف"[٢٠].

لقد هز الغزو الأجنبى البنية الاجتماعية المصرية بما يكفى لتحسين سبل العيش، بعد نحو ألف عام من الركود تقريبا، بما يوحى بأن فى ظروف معينة، حتى عندما تكون طبقة اجتماعية ناشئة تقوم على علاقات إنتاج، ليست قوية، فإن قوة خارجية يمكن أن تتغلب، مؤقتا على الأقل، على الاختناق الذى تسببه البنية الفوقية القديمة للحياة الاجتماعية.

الهوامش

(١) كلاهما في ضواحي القاهرة الحديثة.

(2) B.J. Kemp, "Old Kingdom, Middle Kingdom and second Intermediate Period", in B.G. Trigger B.J. Kemp, D.o'connor and A.B. Lloyd, 'Ancient Egypt: A Social History (Cambridge 1983), p.176.

(3) V. Gordon Childe, "What Happened in History p.117.

(4) V. Gordon Childe, "Man Makes Himself", p.227.

(5) V.Gordon Childe, "The Pre-History of European Society", (London, 1958) p.7.

الفكرة الرئيسية لهذا العمل هي أن "البربربين"، كانوا أكثر ابتكارا لأنهم كانوا أقل تعرضا لاستبداد بنية الدولة القوية، ولكن "تشايلد" يميل إلى رؤية البربريين كما يراهم كل الأوروبيين تقريبا، ولا يضع في اعتباره أن آخرين في دول أخرى خارج الإمبراطوريات – في آسيا وأفريقيا والأمريكتين – حققوا كذلك خطوات متقدمة (على سبيل المثال، الابتكارات الكثيرة في آسيا الوسطى في الألفية الأولى بعد الميلاد، والتي، كما سنرى لاحقا، تم تبينها في الصين قبل انتشارها في أوروبا، أو التطور المستقل لتكنولوجيا الحديد في أجزاء من أفريقيا).

(6) B.G. Trigger, "The Rise of Egyptian Civilisation in B.Trigger and Others, "Ancient Egypt", p.27.

(7) V.Gordon Childe, 'Man Makes Himself', pp. 230-23.

(8) V.Gordon Childe, "What Happened in History", pp. 1.

(9) G.R. Willey and D.B. Shimkin, "The Maya Collapse", in T.P. Culbert (ed), "The Classic Maya Collapse".

(١٠) كما جاء في:

M. Rich, "Egypt's Making", (London, 1991), p.226

للاطلاع على نقد الرأي الذي يقول: إن هذا النص يشير إلى أحداث حقيقية، انظر:

B.J. Kemp, im B.G. Trigger and Others (eds), 'Ancient Egypt", pp. 74-75, 115.

(١١) انظر على سبيل المثال:

F.Katz, "Ancient American Civilisation" pp. 78-79, and Introduction to T.P. Culbert (ed), "The Classic Maya Collapse", p.19.

(١٢) انظر على سبيل المثال:

F.Katz, 'Ancient American Civilisations". P.78.

(13) B.J. Kemp, in B.G. Trigger and Others (ed), Ancient Egypt, p.115.

(14) B.S. Lesko, "Rank, Roles and Rights" in L.H. Lesko (ed), "Pharoah's Workers", (Ithaka, 1994) p.15.

(15) B.S. Lesco, "Rank, Roles and Rights", p.39.

(16) B.S. Lesco, "Rank, Roles and Rights", p.38.

(17) K.Marx, Preface to the 'Contribution to the Critique of Political Economy", in K.Marx and Engels, "Selected Works, vol.1 (London, 1996), p.3.

(18) K. Marx and F.Engels, "The Communist Manifesto", (London, 1996) p.3.

(19) V.Gordon Childe, "What Happened in History", p.137.

(20) K.W. Butzer, "Early Hydraulic Civilisation in Egypt", (Chicago, 1976). P.46.

مصادر للمزيد من الاطلاع

* **Eleanor Leacocke, "Mythes of Male Dominance**

فيما يتعلق بمجتمعات الصيد والجمع.

* **Richard Lee, "The !kung san,**

ويتناول بتعمق أحد تلك المجتمعات مثلما جاء فى كتاب:

"The Forest People", by Richard Turnbull.

* **Marshal Sahlins, 'Stone Age Economics",**

ويتناول مجتمع الوفرة الأصلى والتحول من المجتمعات التى تقوم على المساواة إلـــى الزعامـــات والقيادات القبلية.

* **V.Gordon Childe, "What Happened in History",**

ويعد هذا العمل لأفضل مصدر متاح عن الثورات النيوليثية والحضرية فى أوراسيا، بـــالرغم مـــن تجاوز الزمن لمادته وتسلسله الزمنى.

* **Colin Renfrew, 'Before Civilization".**

حيث نجد تسلسلا زمنيا منقحا.

* **Bruce Trigger and others, "Ancient Egypt,**

للمزيد عن مصر القديمة. **A Social History.**

* **Frederick Katz, "Ancient American Civilisation**

للمزيد عن الأمريكتين.

الفصل الثانى

العالم القديم

مسرد زمنى

■ **من 1000 : 500 ق.م.**

- انتشار صناعة الحديد والأسلحة والأدوات فى آسيا وأوروبا وغرب ووسط أفريقيا. نقوش بخط اليد (على أساس لفظى) فى الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط.

- تنظيف وزراعة وادى الجانج في الهند، حضارة جديدة، نشأة نظام من أربع طوائف، الديانة الفيدية. الدول – المدن الفينيقية واليونانية والإيطالية. توحيد الشرق الأوسط فى إمبراطوريات متنافسة في بلاد ما بين النهرين أو النيل. ظهور عدد قليل من "الدول المتحاربة" فى الصين.

■ **من 600 : 300 ق.م.**

- ازدهار الحضارات الكلاسيكية. "كونفوشيوس" و"مينشيوس". "بودا" فى الهند. "أيسخيلوس" و"أفلاطون" و"أرسطو" و"ديموقريطوس" فى اليونان. صراعات طبقية فى اليونان.

- غزو الشرق الأوسط من قبل جيوش مقدونية، بقيادة الإسكندر، ومعظم شبه القارة الهندية بواسطة الإمبراطورية "الماورية" فى "أشوكا".

- الصراعات بين العامة والنبلاء فى روما. "سيتى– City" يغزو معظم إيطاليا.

■ من 300 : 1 ق.م.

- تفكك الإمبراطورية "الماورية" فى الهند، مع نمو مستمر فى التجارة والمصنوعات اليدوية. البراهمانيون الهندوس ضد ذبح البقر.
- أول إمبراطور "شين– Ch'in" يقوم بتوحيد شمال الصين. زيادة هائلة فى أشغال الحديد والمصنوعات الحرفية والتجارة. بناء السور العظيم وشبكات القنوات والطرق. ثورة فلاحية تحمل أسرة "هان– Han" إلى السلطة.
- روما تغزو كل منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأوروبا جنوب الراين. انتشار العبودية وإفقار الفلاحين فى إيطاليا. الفلاحون يدعمون الأخوين "جراكوس– Graccus" اللذين يتم قتلهما فى 133 و121. ثورات العبيد فى صقلية (130's)، وفى إيطاليا بقيادة "سبارتاكوس" (70's). حروب أهلية. "يوليوس قيصر" يستولى على السلطة. "أوجسطس" يصبح إمبراطورا (27).

■ من 1 : 200 م.

- الإمبراطورية الرومانية فى أوجها. الإمبراطورية تسحق ثورة فى فلسطين (70م). "بول الطرسوسى" يشق طائفة جديدة من "المسيحيين" عن اليهودية.
- اكتشاف صناعة الصلب فى الصين. تمدد إمبراطورية "هان– Han" إلى كوريا وآسيا الوسطى وجنوب الصين والهند الصينية.
- الكونفوشيوسية أيديولوجية الدولة.

انتشار الزراعة، وانتشار الهندوسية جنوبى الهند، ثم فى شبه جزيرة الملايو وكمبوديا.
التجار الهنود يمولون المعابد البودية الكبرى وينقلون الدين إلى التبت وسيلان.

■ **من 200 : 500 م.**

- تفكك إمبراطورية "هان" الصينية. انهيار الاقتصاد الحضرى. تسشظى المناطق الريفية إلى ولايات أرستقراطية، فقدان الاهتمام بالأدب "الكلاسيكى". البودية تنتشر بين بعض الجماعات.
- إمبراطورية "جوبتا- **Gupta**" توحد معظم الهند فى القرن الخامس. ازدهار الفنون والعلوم.
  أزمات متنامية فى الإمبراطورية الرومانية. ركود تكنولوجى واقتصادى. التجارة تتدهور. العبودية تتراجع أمام الضرائب والإيجارات من الفلاحين المقيدين بالعمل فى الأرض.
  ثورات فلاحية فى فرنسا وإسبانيا. مشكلات متزايدة فى الدفاع عن حدود الإمبراطورية. نشأة ديانات أوزيريس والثرائية – **Mithraism** والمسيحية.
- قسطنطين- **Constantine** ينقل العاصمة إلى مدينة بيزنطة اليونانية (**330**)، ويجعل المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية. اضطهاد الديانات الوثنية، والعقائد المسيحية الأخرى واليهود. نشأة الرهبنة. انقسام الإمبراطورية. استسلام إنجلترا للإمبراطورية (**407**). قوط "ألاريك" ينهبون روما (**410**).

■ **من 500 م وبعدها.**

- "عصور الظلام" فى أوروبا الغربية.

عدد السكان يهبط إلى النصف. انهيار التجارة وحياة المدينة وزيادة نسبة الأمية.

- بقاء الإمبراطورية الشرقية لتصل إلى ذروتها تحت "جستنيان– **Justinian**" **(530s-550s)**، مع بناء كاتدرائية سانت صوفيا، ثم انهيارها بعد ذلك.
- انهيار إمبراطورية "جوبتا– **Gupta**" فى الهند. تدهور التجارة والمدن واستخدام النقود والديانة البودية.

الزراعة والمصنوعات الحرفية تتم فى قرى شبه مستقلة لحساب حكام إقطاعيين. هيمنة أيديولوچية للكهنة البراهمانيين.

تراتبيات كاملة لكثير من الطوائف. تدهور العلوم والفنون والآداب.

- استمرار تمزق الصين حتى ظهور "أسرة سوى – **Sui Dynasty**" **(581)**، ثم "أسرة تانج – **Tang Dynasty**" **(618)**، لكى تشهد إعادة إحياء للاقتصاد والتجارة.

- ١ -

الحديد والإمبراطوريات

بدأت المرحلة الكبرى الثانية فى تاريخ الحضارة بين الفلاحين والرعويين الذين كانوا يعيشون فى الأراضى المحيطة بالإمبراطوريات العظيمة، وليس فى الدول التى كان يهيمن عليها الكهنة والفراعنة. هذه المرحلة كانت تعتمد على جهود الناس الذين استطاعوا أن يتعلموا من إنجازات الثورة الحضرية (استعمال النحاس والبرونز واستخدام العجلة، بل وتكييف الحروف الأجنبية لكى يكتبوا لغاتهم الخاصة)، ولم يستنزفهم الابتزاز أو يغسل أدمغتهم التقليد.

كانت هناك مجتمعات فى المناطق المعشبة الواسعة فى أوراسيا وأفريقيا، بدأت فى استخدام المنجزات التكنولوچية للثورة الحضرية؛ وكان بعضها قد تم تطويره إلى محاكاة للإمبراطوريات العظمى، وإن بدرجة أقل، مثلما كان الوضع تقريبا فى "مملكة سليمان" فى فلسطين، كما يصفها "العهد القديم"؛ وبعضها الآخر كان تحت ضغط أقل من بنى فوقية باهظة ومربكة، فكانت هناك حرية أكبر للناس لكى يبتكروا وحوافز أكثر لكى يقوموا بذلك.

كان تبنى هذه التقنيات مصحوبا بتركز الفائض فى أيدى الطبقات الحاكمة، مثلما كان الحال من قبل فى الثورات الحضرية الأصلية. ولكن تلك كانت طبقات حاكمة جديدة، من أراض ذات خصوبة طبيعية أقل منها فى الحضارات القديمة. كان بإمكانهم الحصول على مستوى فائض يمكن مقارنته بذلك فى تلك الحضارات، بتشجيع التقنيات الجديدة فحسب.

استطاعوا آنذاك أن يستغلوا أزمات الحضارات القديمة التى كانت تحاول تمزيقها من الخارج، مثلما كانت التوترات الطبقية تعمل على إضعافها من الداخل.

آريون– **Aryans** من منطقة القزوين هجموا على حضارة الإندوس– **Indus** التى كانت فى حالة اضمحلال؛ قوم من جنوب شرق أوروبا، يتحدثون لغة قريبة من اللغة "الهندو– أوروبية" هاجموا **اليونان الميسينية– Mycenaean**؛ جماعة شبه مجهولة "**ناس البحر– Sea People**" هجموا على مصر؛ **الحيثيون– The Hittites** استولوا على بلاد ما بين النهرين، وأسرة "شو– **Chou**" جديدة أزاحت الـ"شانج– **Shang**" من الصين.

لم تتأثر عناصر استمرارية الحضارة فى بلاد ما بين النهرين ومصر والصين، وسرعان ما ظهرت إمبراطوريات مرة أخرى نشطة متجددة بتقنيات جديدة. أدى غزو حضارات "الإندوس" و"ميسينيا" إلى الاختفاء التام لكل من الحياة الحضرية والقراءة والكتابة، إلا أن هذا الاعتداء الخارجى لم يكن سلبيا تماما حتى فى تلك الحالات، إذ يمكن القول: إنه لعب دورا متناقضا فى كثير من الأحيان؛ فالغزاة، من ناحية، دمروا جزءا من جهاز الإنتاج القديم – أشغال الرى مثل القنوات والجسور والأحواض التى أفادت مدن الإندوس فى إطعام نفسها مثلا، ومن ناحية أخرى جاء الغزاة معهم بتقنيات جديدة مثل المحراث الذى تجره الثيران، والذى جعل بالإمكان زراعة الأراضى الصعبة فى سهول الهند الشمالية. كانت هناك زيادة فى إنتاج الفلاحين، ومن ثم زاد الفائض فى المنطقة بدرجة أكبر كثيرا من ذى قبل.

ظهرت التقنية الأكثر أهمية نحو سنة **2000** ق.م فى الجبال الأمريكية، ثم بعد عدة قرون فى غرب أفريقيا(*). المقصود بذلك تقنية صهر الحديد، الذى غير انتشاره البطيء الإنتاج وأعمال القتال.

(*) يرى بعض المؤرخين أن معرفة صناعة الحديد لا بد من أن تكون قد انتقلت إلى أفريقيا. انظر مثلا:
R. Mauny, "Trans-Saharan Contacts in the Iron Age", in J.D. Gage(ed), Cambridge History of Africa", vol 2, p.318.

إلا أن "جاريد ديموند– Jared Diamond" يرى أن التقنيات المستخدمة فى أفريقيا – جنوب الصحراء كانت مختلفة عن غيرها فى أماكن أخرى، مشيرا بذلك إلى اكتشاف مستقل. انظر:
J.Diamond. "Gyns, Germs and Steel", (London, 1977). P.394.

كان النحاس وسبيكته "البرونز" مستخدمين فى المراحل الأولى من الثـورة الحضرية، إلا أن إنتاجهما كان مكلفا، ويتوقف على الحصول على خامات نـادرة نسبيا من مواقع بعيدة؛ يضاف إلى ذلك أن حدة حوافها المـستخدمة فـى القطـع سرعان ما تتثلم؛ والنتيجة أنها كانت نموذجية كأسلحة أو أدوات زينة للقلة المتحكة فى الثروة، وأقل فائدة كأدوات لاستخدام الناس العاديين؛ ولذلك فإنه حتى عمال بناء الأهرام والمقابر والمعابد كانوا كثيرا ما يـستخدمون أدوات حجريـة بعـد ألـف وخمسمائة عام من الثورة الحضرية، وقليلا ما كان الفلاحـون يـستخدمون أدوات مصنوعة من النحاس والبرونز.

كان خام الحديد أكثر وفرة من النحاس، وكان تحويله إلـى معـدن يتطلـب عمليات أكثر تقدما، ولكن بمجرد أن عـرف الحـدادون كيـف يقومـون بـذلك، استطاعوا أن يصنعوا سكاكين وفؤوسا ورؤوس سهام وأسلات محاريث ومـسامير يستخدمها الناس. كان أثر ذلك على الزراعة هائلا، فالفأس الحديدية مكنت الفلاحين من تنظيف أراضى الغابات الكثيفة، وأسلة المحراث سـهلت تكـسير الأراضـى الثقيلة، والرخص النسبي للرماح والحراب والسيوف المصنوعة من الحديد أضعف سيطرة الطبقة الأرستقراطية العسكرية، بعد أن أصبح بمقدور مشاة الفلاحين قتـل الفرسان المرتدين دروعا برونزية.

بحلول القرن السابع ق.م، كانت الحضارات الجديدة التى تعتمد على التقنيات الجديدة فى صعود. اتسعت **الإمبراطورية الأشورية– The Assyrian Empire**، وامتدت من النيل إلى شرق بلاد ما بين النهرين، لتضم عددا غير مسبوق وتنوعا من الشعوب فى حضارة واحدة، بأبجدية واحدة للغات المختلفة؛ كما بدأت حضارة جديدة تنمو وتتطور فى شمال الهند، مع عودة التجارة للنمو، وبناء المدن بعد فترة ركود امتدت نحو ألف سنة. بدأ كذلك عدد قليل من الممالك فى الظهور فى شمال الصين بعد حرب عبثية بين ما يقرب من **170** دويلة متنافسة، كما نشأت "دول – مدن" حول حوض البحر الأبيض المتوسط – فى فلسطين ولبنان وآسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وشمال أفريقيا – بعيدا عن المركزية السياسية والأيديولوجية المفرطة للإمبراطوريات القديمة فى مصر وبلاد ما بين النهرين.

كانت تقنيات الإنتاج الجديدة مواكبة لتقدم علمي واختمار أيديولوچي؛ إذ كان هناك تقدم فى بعض المجالات العلمية مثل الرياضيات والفلك فى العصر البرونزى فى بلاد ما بين النهرين ومصر، إلا أن تلك الخطوات المتقدمة تعتمد على مثابرة ودأب جماعات الكهنة، الذين كانوا على مدى أكثر من ألفى عام منقطعين عن الحياة المادية، واكتشافاتهم مستكنة فى أنظمة دينية مستغلقة. كان التقدم المستجد يتوقف على مفارقة هذا القالب، وهو ما حدث فى المدن الجديدة فى شمال الهند وشمال الصين وساحل البحر الأبيض المتوسط، وليس فى مراكز الحضارات القديمة (سواء فى آشور وبابل فى بلاد ما بين النهرين، أو فى ممفيس أو طيبة فى مصر).

كانت هناك ملامح مشتركة بين الحضارات الجديدة التى عادت إلى الانتعاش، بالإضافة إلى استخدام الحديد. شهدت كلها انتشار حرف جديدة، ونموا فى تجارة المسافات البعيدة، وزيادة فى أهمية التجار باعتبارهم طبقة اجتماعية، واستخدام العملة لكى يكون من السهل على صغار الفلاحين والحرفيين التجارة مع بعضهم بعضا، تبنى (باستثناء الصين) أبجديات جديدة، تعتمد بدرجة أكبر أو أقل على النطق، الأمر الذى جعل القراءة والكتابة أمرا سهلا بالنسبة لأعداد كبيرة من الناس، ونشأت أديان "شمولية" تقوم على التقيد بإله مهيمن، أو مبدأ حياة، أو قانون أخلاقى. على نحو حاسم، كل الحضارات الجديدة، كانت مثل القديمة، تقوم على انقسامات طبقية. لم تكن هناك طريقة أخرى لانتزاع فائض من الفلاحين الذين كانوا جياعا فى الغالب؛ بيد أنه كانت هناك فوارق هائلة بين الحضارات. كانت العوامل المادية – البيئة، المناخ، الموقع الجغرافى، الحيوانات والنباتات المستأنسة والمدجنة... إلخ- لها أثرها فى أساليب كسب العيش وسيطرة الحكام على الفائض، وهذه بدورها كان لها تأثيرها على كل ما حدث.

- ٢ -

الهند القديمة

كان الغـزاة **الآريون** الذين دمروا حضارة الإندوس فى **1500** ق.م تقريبا، قبائل رعوية مترحلـة، تعيش على اللبن واللحم، يقودهم شيوخ قبائل محاربـون. لم يفيدوا من المدن التى سلبوها ونهبوها ثم هجروها. لم يستخدموا الكلمة المكتوبة، ومن ثم اندثرت الأبجديات التى كانت الحضارات القديمة قد نقشها[١].

فى تلك المرحلة، كانوا يمارسون ديانة "**ڤيدية- Vedic**"، تعكـس أسـلوب حياتهم، كما كانت طقوسها تتمحور حول التضحية بالحيوانات بما فى ذلك الماشية، وتنتقل ميثولوچياتها فى قصص طويلة يحفظها كهنة "**براهمانيون**" عن مآثر الآلهة المحاربين؛ كما كانت الميثولوچيا كذلك تجسد عقيدة تبرر ذهاب معظم العائد إلـى الحكام المحاربين على أساس أنهم جماعات "مولودة مرتين" وأرفع منزلة، بالنظرة، من غيرهم من الناس؛ إلا أن النظام المكتمل لـ"**الهندوسية**" الكلاسيكية بطوائفهـا الوراثية الأربع لم يتبلور، إلا بعد أن حدث تغير فى أسلوب تـدبير النـاس سـبل معيشتهم، ومعه تحول من الديانة **الڤيدية** إلـى مجموعـة أخـرى مختلفـة مـن الممارسات والمعتقدات.

الانتشار البطيء لتكنولوچيا الحديد من **1000** ق.م هو الذى بدأ التغيير فـى أسلوب المعيشة. الفأس الحديدية جعلت بالإمكان البدء فى تنظيف وزراعة منطقـة "الجانج" المليئة بالغابات، مزودة الحكام المحاربين ومساعديهم من الكهنـة بنـسبة أكبر من الفائض. هذه الجماعات شجعت على انتشار الزراعة ولكنها كانت تـصر على أن يقوم الفلاحون بتسليمهم حصة كانت تصل إلى ثلث وربما نصف محصول كل قرية. هذه الحصة كانت بمثابة "جزية" إجبارية. كان الامتثـال لمطـالبهم يـتم

بالقوة، ويدعم التصنيف الدينى للآريين العـــاديين باعتبـــارهم طائفـــة دنيـــا مـــن المزارعين (vaisyas)، والشعوب المفتوحة باعتبارهم طائفة القاع مـــن الكـــادحين (sudras). الطائفة نشأت عن تنظيم طبقى للإنتاج فى القرى (رغم أنهـــا لا تقـــوم على الملكية الخاصة)، كما أن بقاءها واستمرارها على مدى آلاف السنين مرتكـــز على ذلك.

ولكن حتى إذا كانت الطبقة فى الريف تؤدى إلى فكرة تقسيم بسيط للجنس البشرى إلى أربع طوائف، فإن التغيرات الأبعد فى سبل تدبير الناس لمعيشتهم كانت تعقد المسألة. نجاح الأساليب الزراعية الجديدة فى تزويد الحكام بفائض متزايد، أدى كذلك إلى نشأة جماعات اجتماعية غير قروية. كان الحكام يريدون سلعا ترفية جديدة وتسليحا أفضل، كما أنهم شجعوا حرفا مثل النجارة وصهر المعادن والغزل والنسج والصبغ. كان هناك اتساع للتجارة على امتداد شبه القارة وخارجها، ومثلما حدث إبان الثورة الحضرية، بدأت جماعات من الحرفيين والتجار تستقر حول المعابد والمعسكرات وعلى امتداد طرق التجارة، إلى أن تطور بعض القرى إلى بلدات، وبعض البلدات إلى مدن. بعض القادة المحاربين استطاعوا أن يقتطعوا مناطق وأن يقيموا ممالك لأنفسهم؛ وبحلول القرن السادس ق.م، كان هناك **16** دولة كبيرة فى شمال الهند؛ وفى **321** ق.م ابتلعت إحداها، وهى دولة "**ماجادا**- **Magadha**"[٢] باقى تلك الدول وتقيم إمبراطورية على معظم شمال الهند شرق نهر "الإندوس" (متاخمة للإمبراطورية اليونانية التى أقامها **الإسكندر الأكبر**، وكانت تحكم الأراضى غربى النهر).

قيام هذه الإمبراطورية الهندية "الماورية- **Maurya**"، أعطى دفعة قوية للتطور الحضرى. أمنت طرق التجارة البرية إلى إيران وبلاد ما بينا لنهرية فى اتجـــاه، وإلى ممالك شمال الصين فى اتجاه آخر، أما الطرق البحرية فربطتهـــا بالجزيرة العربية ومصر وشرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا. كانت حلقة وصل رئيسيـــة فى نظام عالمى ناشئ (أو على الأقل "العالم القديـــم". كانت "پاليپوترا-

Paliputra" عاصمة "ماجادا" أجمل مدينة فى العالم المعروف كما وصفها مبعوث يونانى، كان يقدر الجيش "الماجادى" مكونا من 6000 فيل و80000 جندى خيالة و200000 جندي مشاة[٣]، ولا شك أن الأرقام تنطوى على مبالغة، ولكن كونه كان يرى ذلك يعطى فكرة عن حجم وعظمة الإمبراطورية. كان الحكم "الماورى" يحصل على الفائض الهائل الذى يتطلبه ذلك عن طريق "توسع غير مسبوق فى نشاط الدولة الاقتصادى" مع "سيطرة الدولة على الزراعة والصناعة والتجارة" و"احتكار التعدين وتجارة الملح والشراب والمعادن". كان النظام يستطيع أن يجهز الجنود بالأسلحة المعدنية وأن يوفر الأدوات والآلات اللازمة للزراعة والصناعة. كانت الضرائب التى يجمعها تمول جيشا عاملا كبيرا و"جهازا بيروقراطيا ضخما"، يصل إلى مستوى القرية، مع مجموعات تتكون كل منها من عدة قرى، لها "محاسب ينفق على صيانة الحدود ويسجل الأراضى.... ويقوم بإحصاء السكان ولديه سجل بالمال الحى من مواش ودواب ودواجن"، و"محصل ضرائب معنى بكل أشكال الإيراد والريع.... مع منظومة كاملة من الجواسيس لتقديم المزيد من العون للبنية الهيكلية كلها"[٤].

لم تكن الدولة "الماورية" طفيلية تماما فى سنواتها الأولى، واتخذت بعض التدابير التى كانت إيجابية بالنسبة للمجتمع ككل. كانت تستخدم جزءا كبيرا من الفائض الهائل "لتنمية الاقتصاد الريفى" – بإنشاء مستوطنات جديدة، وتشجيع "السودرا– Sudras" (الطبقة الدنيا من الكادحين) على الاستقرار كمزارعين يعملون فى أراض ممنوحة من الدولة[٥]، وتنظيم مشروعات للرى والسيطرة على توزيع المياه. كانت تعوق ظهور الملكية الخاصة فى الأراضى وحظرت بيعها، فى محاولة لمنع الأعيان المحليين من الاستيلاء على الفائض المنتج فى تلك المستوطنات.

كان لانتشار الزراعة المستقرة والتوسع فى التجارة والمدن، وظهور دول قوية، كان لذلك كله أثره فى إحداث تغيرات فى حياة الناس، وبالضرورة، فى توجهاتهم إزاء العالم من حولهم، والحاجة إلى بعضهم البعض. كان الآلهة

القدامى قد عظموا، بعبارات روحانية فضائل رعى القطعان والحرب، أما الآلهة الجدد الذين بدأوا فى الظهور فكانوا يؤكدون فضائل الزراعة. كان هناك كذلك تغير فى الموقف من مصدر رئيسى لكسب العيش قديما وحديثا، وهو الماشية.

فى السابق، كان الناس يثمنون الماشية باعتبارها مصدرا للحم، الآن كانت الماشية هى القوة المحركة الوحيدة لحرث الأراضى الصعبة، فكان لا بد من حمايتها. حتى وإن كانت أسرة الفلاح تتضور جوعا، كان لا بد من منعها من ذبح الوسيلة الوحيدة لزراعة محصول العام القادم، وتزويد المحاربين والكهنة بما يكفى من الدخل. بدافع من هذه الضرورة وبعد فترة من اهتياج دينى كبير، انبثق ذلك الإجـــلال، الذى يبدو غيـــر منطقى، للبقرة، وحظـــر ذبح الماشية، الذى يميـــز الهندوسية الحديثة.

أضاف تطور الحياة الحضرية إلى الاندفاعة الدينية. كانت الجماعات الجديدة من الحرفيين والتجار جماعات وراثية فى الغالب، ربما لأن أسهل طريقة لتعلم الأساليب المهنية المعقدة، كان يمكن أن يتم فقط فى بيت الأسرة ومن سن مبكرة. كانت معرفة كل صنعة أو تجارة متجسدة فى أعراف وتقاليد مرتبطة بطقوسها ولها أربابها. كانت ديانة البراهمانيين يمكن أن تسيطر على ميول وتوجهات جماعات الحرفيين والتجار، إذا وجدت مكانا لأولئك الأرباب، وتلاءمت بالمثل مع ممارسى المهارات الجديدة، فى ذلك النظام الوراثى الذى كان يزداد صرامة، نظام الطوائف الأربع، للمحاربين والكهنة والمزارعين والكادحين.

كانت الثورة فى السلوك الاجتماعى تتطلب ثورة فى العقيدة والممارسات الدينية، وحيث إن الناس من مختلف الجماعات الاجتماعية كانوا يحاولون التوفيق بين الواقع الجديد والمعتقدات القديمة، كانوا يفعلون ذلك بطرق مختلفة. نشأت عشرات الطوائف والفرق فى القرن السادس فى شمال الهند، وكان كل منها يعيد ترتيب عناصر من العقائد القديمة بأسلوبها الخاص، وكانت كلها تتصادم بحدة مع بعضها بعضا، ومع الكهنة البراهمانيين الرسميين؛ ومن هذه الصدامات ظهرت أديان باقية إلى اليوم.

كـــان من أشهر هذه الطـــوائف: **اليـــان- The Jains**، أتباع "**ماهافيـــرا- Mahavira**" و**البوديون- Buddhists**، أتباع "**جوتاما- Gautama**"، وكانت بينهما بعض النقاط المشتركة. كلتاهما كانت ضد التضحية بالدم وذبح الحيوانات. كلتاهما تنتهج "**اللاعنف- Ahimsa**" مبدءا ضد الحرب والقتل. كلتاهما رفضت التمييز الطائفى - مؤسسا الطائفتين ليسا براهمانيين. كانت الطائفتان تميلان إلـــى تأكيد الحاجة إلى فهم عقلانى للأحداث والعمليات، والتغاضى فى بعض الأحيان عن قصص المغامرات والمآثر الإلهية القديمة لدرجة الاقتراب من حدود المادية والإلحاد.

هذه المبادئ كانت ملائمة للمجتمع الناشئ، فقد حمت ذخيرته من حيوانات الجر، وعبرت عن كره الفلاحين والحرفيين والتجار لما تحدثه الحروب من دمار. كانت متسقة مع استياء أعضاء تلك الجماعات الاجتماعية المنتعشين اقتصاديا من التمييز ضدهم بواسطة "البراهمانيين" وقواعدهم الطبقية التى كانت تزداد جورا؛ كما كانت تروق كذلك لبعض الحكام (فالإمبراطور "**أشوكا- Ashoka**، **264-227**، تحول حتى إلى "**البودية**"، على ما يبدو، ندما على ما أحدثه انتصاره العسكرى الكبير من مجازر). نجح رفض التمايزات الطائفية فى مساعدة الحكام فى صراعهم لإيقاف الطوائف العليا فى كل موقع عن تحويل الفائض إلى جيوبها. حتى مبدأ اللاعنف، ساعد فاتحا منتصرا فى أن يحافظ على سلام داخلى ضد منافسين ومتحدين محتملين. كانت منظومة معتقدات "شاملة" ملائمة لنظام حكم "شامل".

لم تستمر الإمبراطورية طويلا، إذ سرعان ما تداعت بعد موت "**أشوكا- Ashoka**". كان الجيش الهائل والجهـــاز البيروقراطى الكبير عبئا ضخما على موارد الإمبراطورية، كما كانت وسائـــل الاتصال ما زالت بدائية ولا تمكن أى إمبراطور من لجم سلطة الأعيان المحليين بشكل نهائى؛ غير أن تفكك وتداعى الإمبراطورية لم يؤد هذه المرة إلى انهيار الحضارة. استمرت الزراعة والتجارة فى الاتساع. كانت العملة الرومانية متداولة فى جنوب الهند والسفن تحمل البضائع من وإلى العالم الرومانى والحبشة والملايو وجنوب شرق آسيا. كان التجار الهنود

"هم الذين يديرون حركة التجارة لإمداد العالم اليونانى – الرومانى بالمواد الغذائية الترفية"[٦]. انتعشت المصنوعات الحرفية. "ويبدو أنه كان هناك تقدما فى صناعة القماش ونسج الحرير وصناعة الأسلحة والمواد الترفية" و"ربما لم يحدث فى أى مرحلة أخرى أن تغلغل اقتصاد نقدى بمثل هذا العمق فى حياة الناس العاديين فى البلـــدات والضواحى"[٧] مثـــل هذا الاتســـاع الاقتصادى جعل من الممكـــن تكوين إمبراطورية أخرى وإن أقل مركزية، وهى إمبراطورية "**الجوبتا**– **The Guptas**" بعد خمسمائة سنة من انهيار الأولى.

الآن، أصبحت رعاية الفنون والآداب تأتى من التجار وطوائفهم، مثلما هى من الطبقة الحاكمة، وأصبحت منحهم وتبرعاتهم تمول الصروح الدينية الرائعة ونقوش الكهـــوف المتقنة والمعابد البودية. لم يكن التبـــادل فى البضائع والسلـــع فحسب، بل امتد إلى الأفكار مع العالم اليونانى – الرومانى. كان لدى الفلاسفة على نهر "الجانج" قدرا من الإلمام بما يدور فى أثينا والإسكندرية من مناقشات ومناظرات؛ وقد لاحظ كثير من المعلقين المفاهيم الدينية "**البودية**" على المسيحية الباكرة، بينما كان هناك علم محدود بالمسيحية فى بعض البلدات.

"ازدهر التساؤل العلمى إلى جوار التأمل الدينى، وكانت الرياضيات هى ذروة الإنجاز الفكرى فى شبه القارة"[٨]. وبحلول عام **200** ق.م. كان قد أصبح بالإمكان، وبفضل "الهندسة التفصيلية" حساب الأقواس وقطاعات أوتار الدائرة. كان تأثير العلم الرومانى – اليونانى واضحا فى جنوب الهند، إلا أن علماء الرياضيات "طريقة بطليموس فى حساب أوتار الدائرة"، إلى "حساب جيب الزاوية" وهكذا وضعوا مبادئ علم المثلثات"[٩]. ثم تبع ذلك إتقان النظام العشرى وحل بعض المعادلات غير النهائية، ثم استخدام الصفر فى القرن السابع الميلادى على أقل تقدير، وهو شيء لم يكن معروفا لليونانيين والرومان.

ومثلما كانت هناك بدايات نظام عالمى للتجارة، كانت هناك كذلك بدايات نظام عالمى فى الأفكار. انتشرت الديانة الهندوسية مع إزالة الغابات، إلى جنوب

الهند، ثم إلى شبه جزيرة الملايو وكمبوديا. حمل التجار "بوديتهم" معهم إلى جزيرة سيلان، وعبر الملايو إلى التبت، وعلى امتداد طرق التجارة إلى الصين، وأخيرا إلى كوريا واليابان. في الوقت نفسه أصبح التقدم الذي حدث في الرياضيات في الهند جزءا من أساس العلم العربي، الذي كان بدوره عنصرا أساسيا لـ"**النهضة الأوروبية– European Renaissance**" بعد ألف سنة.

بالرغم من ذلك، كان الزخم الثقافة غائبا في الهند نفسها بدءا من القرن السادس. تمزقت شبه القارة إلى دول متحاربة، بينما كان غزاة متوالون يعيثون خرابا ودمارا في الشمال الغربي. لم تكن القاعدة المادية، وهي وسيلة الناس لكسب معيشتهـــم، لم تكن متقدمة بما يكفي للحفاظ على بنى فوقية إمبراطورية هائلة وباهظة التكلفة. كان الحكام المتوالون يجدون صعوبات متزايدة في الحفاظ على ممالكهم، وعلى السلام الداخلي، وصيانة الطرق، وتوفير الأمان للتجار. كان هناك تدهور كبير في مستوى التجارة، وفي ثروة التجار وفي التأثير البودي. صحيح أن بعض الأديرة الكبيرة قد بقي، ولكن القطيعة كانت تتزايد بينها وبين المجتمع الأعرض الذي كان سبب نشأتها، إلى أن أصبح أثرها في الصين البعيدة أكبر منه في مختلف الممالك الهندية.

كان هناك ما يمكن أن نطلق عليه "عملية تحويل للمجتمع إلى الإقطاع" – **Feudulisation** – وتشظيه إلى اقتصادات قروية مستقلة. حدث ذلك عندما لم يجد الملوك وسيلة لدفع أجور الموظفين سوى بحصة من الفائض المنتزع اغتصابا من المزارعين المحليين، ومنح قطع من الأراضي لمن يشرفون على تنظيف مناطق الغالبات وفلاحتها، وكان أولئك عادة من البراهمانيين. كان معظم الحرفيين يجدون أن الوسيلة الوحيدة للعيش هي القيام بالعمل في القرى لقاء نصيب من الناتج المحلي؛ وعلى نحو متزايد كان الإنتاج بهدف الاستخدام المحلي، يحل محل الإنتاج من أجل السوق.

كان وما زال هناك بعض النمو فى الإنتاج مع امتداد الزراعة إلى مناطق جديدة، كما كان هناك تقدم ملحوظ، وإن كان بطيئا، فى أساليب الزراعة؛ ولكن ذلك كان يتم فى إطار يتزايد فيه نفوذ البراهمانيين، حيث كانوا وحدهم من لديهم شبكة من الناس فى كل قرية. كانت الثقافة ثقافتهم، وكانت تنتشر باضطراد، الأمر الذى أدى كما سجل "**روميلا تاپار – Romila Thapar**"، "إلى تقلص فكرى" حيث أصبح "التعليم الرسمى مدرسيا متزمتا"(١٠).

أخذ "**البراهمانيــون**" بعض العناصــر عن "**البودية**"، فقد اتخذوا "النباتيــة– **vegetarianism**" علامة على قدسيتهم وحرموا أكل اللحم تماما، ولكنهم عززوا تأليدهم القديم على التمايزات الطائفية، بوضع كل جماعة مهنية وقبلية فى مكانها ضمن تراتبية محددة بدقة، يفترض أنها ثابتة. القبليون من خارج المجتمعات الزراعية أصبحوا "منبوذين" – جماعات مجبــرة على العيش فى ظروف بائسة مهينة على أطراف القرى، عملهم مقصور على أشغال قذرة، مجرد لمسهم يعد مصدر تلوث للطوائف العليا.

ما كان ذات يوم منطقة تغير سريعى واختمار فكرى، على مدى قرون، أصبح على مدى ألف سنة تقريبا عبارة عن قرى منكفئة على نفسها، أصبح مكانا للخرافات الدينية وممالك طفيلية ممزقة ومتحاربة. كان أحد المنتجات، النظام المحكم المتعدد الطوائف الذى واجه غزاة مسلمين وأوروبيين فى الألفية التالية.

الهوامش

(1) Some historians assume that knowledge of iron making must have been been transmitted into Africa. See, for instance, R Mauny, 'Trans-Saharan Contacts in the Iron Age', in J D Gage (ed), *Cambridge History of Africa*, vol 2, p318. But Jared Diamond argues that the techniques used in sub-Saharan Africa were rather different to those elsewhere, pointing to independent discovery. See J Diamond, *Guns, Germs and Steel*, (London, 1977), p394.

(٢) الموقع الذى توجد به "بيهار – Bihar" الآن.

(٣) نقلا عن:

D.D. Kosambi, "An Introduction to the Study of Indian History", Bombay, 1996), p.190.

(4) R. Thapar, 'History of India", vol.1 (Harmondsworth), p.84.

(5) R.S. Sharma, "Light on an Early Indian Society and Economy, (Bombay, 1996), p.66.

(6) R. Thapar "Asoka India and the Gupta Age" in A.L. Basham, "A Cultural History of India", (Oxford 1975), p.44.

(7) R.S. Sharma, "Light", p.78.

(8) H.J.J. Winer, "Scoence" in A.L. Basham, "A Cultural History" p.154.

(9) H.J.J Winer, 'Science", p.154.

(10) R. Thapar, "Asoka", p.49.

-٣-

الإمبراطوريات الصينية الأولى

يرى المؤرخون الأوروبيون – تقليديا – أن تاريخ العالم بدأ في الشرق الأوسط، ثم انتقل عن طريق اليونان وروما إلى أوروبا الغربية؛ ولكن هناك حضارة نشأت في شمال الصين، فاقت أي حضارة أخرى في أوروبا، وعاشت في شكل أو آخر على مدى **2000** سنة، وكانت هي المسؤولة عن البعض من أهم الإنجازات الفنية في تاريخ البشرية.

"إمبراطورية تشين – **Ch'in**"، التي تأسست في **221** ق.م، حكمت شعبا أكبر مما فعل الرومان في تاريخهم. كان يوجد بها **6,800** كم من الطرق (مقارنة بـــ**5,984** كم في الإمبراطورية الرومانية)، وكانت كلها مصممة بما يلائم المركبات والعجلات الحربية ذات المحاور القياسية، وكانت تستطيع أن تحشد نحو **300,000** شخص لبناء الـــ**3,000** من السور العظيم الأول(١)، ونحو **700,000** شخص لبناء مقبرة أول إمبراطور، "بجيشها" من جنود **التيراكوتا**(*) بالحجم الطبيعي. كانت القنوات تربط بين الأنهار الكبرى صانعة بذلك منظومة طرق مائية داخلية لا مثيل لها في العالم.

كانت الإمبراطورية ذروة قرون من التغير الاقتصادي والاجتماعي، وكان الناس قد تحولوا إلى الزراعة في نفس الوقت الذي حدث فيه ذلك في بلاد ما بين النهرين، يزرعون الدخن ويربون الخنازير والكلاب في الشمال، ويتعلمون الأساليب

(*) "جيش الطين" أو "جيش التيراكوتا" (التيراكوتا) تعني الطين المحروق. (المترجم)

المختلفة تماما المطلوبة لزراعة الأرز وتدجين الجاموس فى وادى نهر "**اليانج تسى- Yangtze**"(*) فى أقصى الجنوب.

نشأت المدن والدول بعد سنة **2000** ق.م، وبناها أناس كانوا يستخدمون تقنيات نيوليثية، وبنهاية القرن السابع عشر ق.م، كان عمال المعادن قد عرفوا كيف يمزجون القصدير والرصاص بالنحاس لإنتاج سبيكة البرونز، كما كان المقاتلون الأرستقراطيون يستخدمون أسلحة مصنوعة منه، لكى يقيموا مملكة لـ"**أسرة شانج- Shang Dynasty**" على النهر الأصفر فى شمال الصين، ويبدو أنها كانت تحت سيادة أرستقراطية جمعت بين أدوار عسكرية وكهنوتية وإدارية. كانت مجتمعا طبقيا يمارس التضحية بالخدم فى الجنازات الملكية، ولكن يبدو أن الملكية الخاصة لم تكن قد تطورت فى تلك المرحلة[٢]. تحت "**أسرة تشو- Chou Dynasty**"، من القرن الحادى عشر ق.م، كان الملوك يفوضون نحو مائة حاكم محلى وينقلون سلطاتهم إليهم فى نظام يوصف عادة باعتباره إقطاعا (فى موازاة ذلك فى أوروبا العصور الوسطى)[٣]، بالرغم من زعم بعض المؤرخين بأن الوضع القائم كان شكلا من "المجتمع الأسيوى" الذى يقول به "**ماركس- Marx**" ولم يكن إقطاعا، حيث تفيد النصوص أن تنظيم الزراعة لم يكن يعتمد على قطع من الأراضى الزراعية الفردية، بل إن التوجيه الإدارى كان ينظم "الحياة اليومية للفلاحين"، وليس عملهم فحسب، بل إن ذلك كان يمتد ليشمل "زواجهم وأعيادهم وتجمعاتهم"[٤]. كان يتم إبلاغ الفلاح كلعام ماذا يزرع ومتى يبذر ومتى يحصد. كان يمكن أن يؤمر بترك بيته الشتوى والذهاب إلى الحقول أو بترك الحقول وأن يحبس نفسه فى البيت[٥]. كان تاريخ "**أسرة تشو**"، على أية حال، تاريخ حروب متواصلة بين أمراء متنافسين.

على مر العصور، اندمج ذلك العدد الكبير من الدويلات فى عدد قليل أكبر نسبيا بعد أن جعلت التغيرات التقنية الحرب أكثر كفاءة وحسما. زاد عدد العجلات

(*) نهر اليانج تسى- Yangtze River أعظم أنهار الصين. خامس أنهار العالم طولا. ثانى أطول أنهار آسيا، ينبع من غرب مقاطعة شانغهاى ويصب فى بحر الصين بالمحيط الهندى. (المترجم)

الحربية، وظهرت أساليب جديدة في حروب الحصار، ومكنت السيوف والنشابيات المشاة المجندين من بين الفلاحين من التصدى والثبات لأول مرة أمام العجلات الحربية. هذه الحروب بدورها حفزت الحكام لمواصلة التقدم التقنى؛ وخلال القرنين الرابع والثالث ق.م (وهى الفترة المعروفة بعصر الدول المتحاربة) بدأ أولئك الحكام تنظيف السهل الشمالي ووديان الأنهار وتجفيف المستنقعات، ونشر عمليات الرى على نطـــاق واسع. نشأت كذلك صناعة حديد منظمة على مستـــوى غير مسبوق، مع إنتاج على نطاق واسع من أدوات مصنوعة من الحديد الزهر إلى الأسلحة التى لم تكن مقصورة على السيوف والسكاكين، وإنما شملت "المجارف والمعازق والمناجل والمحاريث والفؤوس والأزاميل"[٦].

أدت الأساليب الزراعية الجديدة إلى زيادة الإنتاج: زراعة واسعة تعتمد على الحرث العميق باستخدام الثيران، استخدام روث الحيوانات والغائط البشرى سمادا، زراعة القمح وفول الصويا بالإضافة إلى الدخن، زراعة محاصيل بقولية لاستعادة خصوبة الأرض، معرفة أكثر بأفضل مواسم البذار[٧]. زاد الفائض كذلك بنسبة كبيرة.

يسجل "**جاك جيرنيه- Jack Gernet**": "يعرف عصر الدول المتحاربة بأنه واحد من أغنى العصور فى التاريخ بالابتكارات التقنية، "مع تطور تجارة هائلة فى السلع الاستهلاكية العادية (مثل القماش والحبوب والملح) والمعادن والخشب والجلود المدبوغة وغير المدبوغة. كان التجار الأكثر ثراء يجمعون بين مثل هذه الأنواع من التجارة وأعمال صناعية كبيرة (وبخاصة مسابك الحديد)، ويستخدمون أعدادا متزايدة من العمال والوكلاء التجاريين، ويسيطرون على أساطيل كاملة من القوارب النهرية وأعدادا كبيرة من المركبات.... كان كبار التجار هم الجماعة الاجتماعية التى قدمت أنشطتها أكبر الاسهامات فى إثراء الدولة... كانت عواصم الممالك تتجه لأن تصبح مراكز تجارية وصناعية كبرى... كان هدف حروب القرن الثالث عادة، غزو تلك المراكز التجارية والاستيلاء عليها"[٨].

على أن الحكام لم يكونوا يستطيعون تبنى الأساليب الجديدة بنجـــاح ســـوى بكسر شوكة الأرستقراطية القديمة، و"بـــالتوازى مـــع التغيـــر التكنولـــوجى فـــى

الزراعة... كانت هناك تغيرات اجتماعية – اقتصادية" و"إصلاحات سياسية في دول عدة"[٩].

استطاعت دولة "**شين– Ch'in**" إخضاع الآخرين في آخر الأمر لأنها استخدمت هذه التغيرات بشكل منظم. اعتمدت على طبقة إدارية مركزية جديدة من المحاربين والموظفين لسحق الأرستقراطية القديمة، وأعطى هؤلاء الدور الرئيسي في الزراعة للأسرة الفلاحية النووية الفردية والسماح لها بملكية الأرض ودفع الضرائب ويكون عملها تابعا للدولة مباشرة وليس للمقطع أو النبيل المحلي، "كانت القوة الإنتاجية الجديدة لصغار الفلاحين هي التي دعمت النظام الجديد"[١٠].

كانت تلك **ثورة اجتماعية**، طبقة مستغلة من فوق تحل محل طبقة أخرى. كانت ثورة حققتها جيوش وكان ثمنها باهظا، ففي تقدير لإحدى الدراسات التاريخية (ولعل هناك مبالغة في ذلك) أنه كان هناك **1,489,000** حالة وفاة خلال **150** سنة من الحرب في الفترة من **364-234** ق.م[١١]. كانت السنوات القليلة الأخيرة للصين ما قبل الإمبراطورية "قصة مملة لحملات وانتصارات عسكرية"، من بينها انتصار يُدّعى أنه قطعت فيه رؤوس مائة ألف شخص[١٢]. كان ترسيخ الإمبراطورية مصحوبا بترحيل ما لا يقل عن **120,000** أسرة من الأسر القديمة الغنية والقوية[١٣].

لم يكن التحول مجرد نتيجة لمبادرة عدد قليل من الحكام يستخدمون جيوشا قوية، إذ كانت التطورات في التكنولوجيا والزراعة قد أطلقت قوى لم يكن الحكام يستطيعون السيطرة عليها... وغالبا لم يكونوا يريدون.

مع زيادة ونمو الفائض الذي ينتجه الفلاحون، كان بالمثل يتزايد طلب الحكام، القدامى والجدد، على السلع الترفية والأسلحة المعدنية والخيول والعجلات الحربية والسهام والدروع وكل ما يلزم جيوشهم، أما الفلاحون فكانوا في حاجة إلى المزيد من الأدوات. كل هذه السلع لم يكن يستطيع أن يوفرها سوى أعداد متزايدة من الصناع والحرفيين الذين يستخدمون تقنيات جديدة خاصة بهم، وتجار يعملون داخل وبين الدول؛ وبعد تداول الأوزان المعدنية القياسية والعملة زاد إقبال الناس على التجارة.

بدا نفوذ التجار بشكل واضح عندما أصبح أكثرهم غنيًا ومستشارا وكاتم أسرار لإمبراطور المستقبل فى 250 ق.م، ومُنح أرضا يوجد عليها **100,000** أسرة حيازية، وأحاط نفسه بحاشية من **3,000** عالم(١٤).

يقول "**تشو- ين هسو: Cho-yun Hsu**" إن "فى سنوات الاضطراب من القرن الخامس إلى القرن الثالث ق.م، كانت هناك إمكانية كبيرة لتطور حياة اجتماعية حضرية المركز فى معظمها، أكثر منها لتطور نظام اقتصادى ريفى. انتعشت المراكز التجارية والأسواق الكبيرة.... وسادت التوجهات الحضرية فى تحقيق الربح"(١٥).

ويجادل "**كارل ويتفوجل- Karl Wittfogel**"، المؤرخ الألمانى - الأمريكى للصين، عندما كان ما زال ماركسيا فى ثلاثينيات القرن العشرين، يجادل بأنه كانت هناك أوجه شبه بين الصين فى تلك الفترة وأوروبا أثناء المراحل الأخيرة من الإقطاع بعد **2,000** سنة تقريبا(١٦). كان يمكن أن تحول البورجوازية التجارية الصين إلى مجتمع جديد يقوم بشكل كامل على الإنتاج بواسطة عمال بالأجر من أجل السوق. ما حدث أنها وقعت، بدل ذلك، تحت سيطرة بيروقراطية الدولة التى نجحت فى تحويل مسار الفائض عن كل من التجار والأرستقراطية القديمة وتركيزه فى يدها، وهكذا يدعم التجار الدولة فى صراعها ضد الأرستقراطية، ليجدوا بيروقراطية الدولة نفسها فى النهاية تسلبهم ثمار الانتصار.

من المؤكد أن الدولة هاجمت التجار مرارا وتكرارا تحت حكم "**أسرة شين- Ch'in Dynasty**" و"**أسرة هان- Han Dynasty**" التى خلفتها (من **206** ق.م إلى **220**م)، فأول أباطرة الأخيرة على سبيل المثال، "خطر على التجار لبس الحرير وركوب العربات.... كما لم يكن مسموحا للتجار أو أولادهم أو أحفادهم العمل فى الحكومة"(١٧). كانت الدولة تسيطر على صناعتين رئيسيتين هما الملح والحديد لتضمن - كما تقول وثيقة تعود إلى "**أسرة هان**" - "احتكار أرباح الملح والحديد وكبح جماح التجار الأغنياء"(١٨). كانت هناك ضرائب باهظة على أرباح التجارة

أكثر منها على الزراعة، كما كان يتم مصادرة ثروات التجار الذين يحاولون التهرب منها؛ وأثناء فترة حكم "**الإمبراطور وو– Wu**" **(114 إلى 87 ق.م)** "كانت السلطة الإمبراطورية تستولى بالقوة على ممتلكات التجار؛ وللنجاة من ذلك، كان التجار غالبا ما يضطرون إلى عقد صلات وروابط مع موظفى الحكومة وربما مع موظفى البلاط نفسه[١٩].

كانت حماية الفلاحين هى الذريعة الكاذبة دائما لمثل تلك الهجمات، وهناك أكثر من وثيقة تعود إلى تلك الفترة تحمل الشكوى من أن التجارة والصناعة كانتا تدمران الزراعة، بما يؤدى إلى مجاعات واضطرابات فى المناطق الريفية، ويوفر فى الوقت نفسه للتجار وسائل لتهديد الدولة، وقد خلق كل ذلك بدوره أخطارا من قبل طبقة كان يتم إفقارها؛ وحسبما يقول الإمبراطور "**وانج مانج – Wang Mang**" فى سنة 9م: "الأغنياء لأنهم متغطرسون، كانوا يتصرفون على نحو شرير، والفقراء لأنهم مسحوقون، كانوا يتصرفون على نحو خبيث ماكر"[٢٠].

كانت تلك القرون التى كانت تتصارع فيها تلك الطبقات المستغلة المختلفة مع بعضها على النفوذ، كانت كذلك بالضرورة قرون اختمار فكرى. كان أعضاء الطبقات المختلفة يميلون إلى رؤية العالم بطرق مختلفة. ظهرت المدارس الفلسفية والدينية المتنافسة مع محاولات الجماعات الاجتماعية المختلفة تفهم التغيرات التى تحدث من حولهم.

دعا "**كونفوشيوس– Conducius**" (المولود فى القرن السادس ق.م) وتابعه "**منشيوس– Mencius**" (القرن الرابع ق.م) إلى احترام التراث والطقوس مع الأمانة وضبط النفس، وفى القرون التالية كان ذلك ليصبح الأيديولوچية المحافظة لمن يفترض أنهم المديرون المستنيرون لحركة المجتمع على خطوط تقليدية، بينما يعيشون حياة مريحة؛ وفى زمن "**منشيوس**" كان ذلك يتضمن نبذ أساليب الأمراء الجشعين هذا النبذ، ذهب إلى ما هو أبعد فى حالة "**موتسو– Motzu**"، الذى عاش نحو ستين عاما بعد "**كونفوشيوس**". أنشأ "موتسو" طائفة كانت تسعى بوسائل

سلطوية أن ترسخ مبدأ مساواة – **egalitarianism** – يقوم على القناعة العامة والاقتصاد فى الإنفاق فى مقابل الأنانية والترف والحرب. على النقيض من ذلك، فإن التيار الذى سيعرف فيها بعد بـ"**الطاوية– Taoism**" "يعظ" بأن الخلاص الفردى ليس فى فعل جمعى أو عام وإنما فى تعلم أساليب تساعد الفرد على الانسحـــاب من العالم ويسيطر عليه. كانت صيغًا مختلفة من "**الكونفوشيوسيـــة– Confucianism**" و"**الطاويـــة– Taoism**" تتنافس مـــع "**البوذية– Buddhism**" للاستيلاء على عقول الناس على مدى فترة طويلة من التاريخ الصينى، بينما كانت الطوائف المساواتية– **egalitarian** تظهر على نحو متكرر للتعبير عن معاناة الفقراء المريرة.

لكن المنتصر الفورى فى المعارك الأيديولوجية فى القرون الأخيرة ق.م، كان تيارا مختلفا يطلق عليه عادة "القانونية– **Legalism**"، وهذا أكد بشكل رئيسى قوة الدولة نفسها وإدارتها البيروقراطية، وأن موظفى الدولة لا بد من أن يكونوا معنيين، فحسب، بتنفيذ قوانينها دون أن ينحرفوا إلى مسارات جانبية والانشغال بفضائل شخصية يدعو إليها اتباع "**كونفوشيوس**" و"**منشيوس**".

القانونية بررت دور المدراء كتجسيد للصالح العام، كما جاءت متوافقة مع تأكيد التجار التروى العقلانى وخشية القرارات السياسية الاعتباطية التى يمكن أن تفسد سعيهم لجمع المال؛ وكان يتم نشر مبادئ وقواعد هذا التيار – القانونية – والترويج لها، على سبيل المثال، فى ترانيم للجماهير تصوير المدير وقرارات الدولة باعتبارها الضمان الأكيد للمجتمع ككل.

لم يكن الحكام يعتمدون، فحسب، على الإقناع الفكرى لكى تصبح رؤيتهم الشمولية للعالم مقبولة لدى الناس، بل كانوا يبذلون قصارى جهدهم لكى لا يكون لدى الناس بديل من أى نوع. أول أمبراطور أصدر مرسوما بإحراق كل الكتب التى كانت تشير إلى التقاليد القديمة:

"هناك بعض الكتاب الذين لا يأخذون نماذجهم من الحاضر، وإنما يدرسون الماضى لكى ينتقدوا العصر الحالى. إنهم يربكون الناس ويستثيرونهم.... من الملائم منعهم"، أما من كانوا يجرؤن على مناقشة الكتب المحظورة "فلا بد من أن ينالوا عقابهم وهو الإعدام مع عرض جثثهم على الملأ؛ ومن يستخدمون الماضى لانتقاد الحاضر فجزاؤهم الموت مع أقاربهم"[٢١].

فى البداية، لم تمنع قوة الدولة وسلطتها المتنامية التقدم المستمر فى التجارة والإنتاج الحرفى – بل إنهما أفادا فى الواقع من أعمال وتدابير الحكومة مثل بناء الطرق وشق القنوات، وتمدد الإمبراطورية فى جنوب الصين وآسيا الوسطى، والهند الصينية وشبه الجزيرة الكورية. كان هناك تقدم تكنولوجى مهم كذلك فى كثيـــر من المجالات: بحلول القرن الثانى الميلادى كان يتم إنتاج الصلب (قبـــل ظهوره فى أوروبا بألف وخمسمائة عام)؛ كانت السواقى المائية الأولى فى العالم مستخدمة؛ بحلول القرن الثالث الميلادى كانت العربة اليدوية ذات العجلة الواحدة، التى مكنت الناس من تحريك أكثر من ضعف أوزانهم، كانت مستخدمة (قبل ألف سنة من وصولها إلى أوروبا الغربية).

إلا أن استقلال التجار – المقاولين كطبقة كان منقوصا، لم يكونوا يستطيعون أن يرسخوا أنفسهم باعتبارهم قوة بمراكزهم الخاصة كما كانوا فى مدن أوروبا فى أواخر العصور الوسطى، وبدل ذلك كانوا يعتمدون أكثر فأكثر على بيروقراطية الدولة.

تحسنت ظروف الفلاحين تحسنا طفيفا بعد الإجراءات التى اتخذت ضد طبقة التجار، وكانت الضرائب التى تدفع للدولة تضمن أن يعيشوا بالكاد فوق "خط الخبز" عندما تكون المحاصيل جيدة، وتحته فى وقت المجاعات عندما لا تكون كذلك. فى كل الأوقات كانت الحياة عبئا ثقيلا ومعاناة لا تنتهى. كانت تربة سهل الصين الشمالى تتطلب عناية مستمرة بين الزراعة والحصاد حتى لا يصيبها الجفاف أو تمتلئ بالأعشاب الضارة وتغزوها الحشرات والآفات[٢٢]، ومع ذلك كان ما بين الثالث والنصف من المحصول يذهب مباشرة إلى أياد أخرى.

ينبغي ألا ننسى أن كل "عجائب" الإمبراطورية – السور العظيم، القنوات، مقابر الأباطرة، القصور – استلزمت ملايين الساعات من العمل وكانت ذات فائدة تتناقص بالنسبة للمجتمع ككل؛ وبعد أن سمع الإمبراطور الأول من أحد السحرة أنه يمكن أن يحقق الخلود إن هو عزل نفسه بعيدا عن الناس "أمر بتجهيز **270** قصرا بالرايـــات والأجراس والطبول والنساء الجميلات، وأن تكون القصور متصلـــة ببعضها بطرق مسورة أو مسقوفة... وأى شخص يكشف عن وجوده يقتل"[٢٣]. وعندما عن له ذات مرة أن يكون أحد من أفراد حاشيته قد وشى به، أمر بقتل **460** شخصا[٢٤].

مثل هذا البذخ والسفه كان لا بد له من ثمن باستمرار الضغط على الفلاحين. كانت هناك ثورات فلاحية بشكل مستمر؛ وبينما نادرا ما نجد ذكرا لانتفاضات الطبقات الدنيا ضد الحكام في سجلات بلاد ما بين النهرين ومصر والهند أو روما القديمة، نجد أنها متكررة في حالة الصين.

إحدى هذه الانتفاضات عجلت بانهيار "**أسرة شين– Ch'in Dynasty**"، تقول القصة أن الانتفاضة بدأها "**شن شنج– Chen Sh'eng**"، وهو عامل أجير سابق، كان يقود **900** متهما إلى سجن في مستوطنة وعندما فكر في العقاب الذي يمكن أن يتعرض له لتأخره؛ واقتنع بأن "الهرب يعني الموت، وأن التآمر كذلك يعني الموت... الموت لمحاولة إقامة دولة أفضل". التمرد "أدى إلى عملية قتل واسعة"[٢٥]، وأحدث موجة من الذعر في القصر الإمبراطوري، وإعدام المستشار الرئيسي السابق للإمبراطور، ثم اغتيال الإمبراطور في آخر الأمر. بعد أربع سنوات من الاضطراب زحف أحد قادة التمرد على العاصمة واستولى على العرش وثبت أسرة جديدة هي "**أسرة هان– Han Dynasty**".

لعبت الجماهير دورا رئيسيا في الانتفاضة ولكنهم لم يفيدوا من نتائجها. لم يكن الإمبراطور الجديد يختلف كثيرا عن السابق، وبدوره كان في مواجهة انتفاضات بعد وقت قصير. في سنة **17**م، هب الفلاحون الذين ضربتهم الفيضانات

فى الوادى الأدنى للنهر الأصفر خلف زعماء، مثل امرأة بارعة فى أعمال السحر تسمى "الأم لو– **Mother Lu**". كانوا يعرفون بـــ"الحواجب الحمر" لأنهم كانوا يصبغون وجوههم، واقاموا ممالك مستقلة تحت زعمائهم فى منطقتين.

كانت تلك التمردات نموذجا تكرر كثيرا. كان ابتزاز نظام الضرائب الإمبراطـــورى وملاط الأراضــــى يدفعـــان الفلاحين إلى الثـــورة، وكان الثوار يستطيعون الاستيلاء على أقاليم كاملة بعواصمها ويهددون العاصمة الإمبراطورية، إلى أن ينضم إليهم قادة عسكريون من الجيش الإمبراطورى، ومسئولون كبار من الحكومة من المختلفين مع البلاط، وبعض ملاك الأراضى، وهكذا كانت تأتى الثورات والانتفاضات الناجحة بأباطرة أو أسر جديدة، لا تقل معاملتهم لجماهير الفلاحين سوءا عن سابقيهم.

لم يكن الأمر مجرد قابلية للفساد من قبل زعماء أفراد، كان الفلاحون عاجزون عن إقامة تنظيم مركزى دائم قادر على فرض أهدافهم على المجتمع. كانت فلاحة قطع الأرض الفردية الصغيرة هى مصدر معيشتهم ولم يكونوا يستطيعون تركها لأوقات طويلة؛ ومن فعلوا ذلك لم يعودوا فلاحين وأصبحوا يعتمدون فى حياتهم على السلب والنهب أو الرشوة، كما أصبحوا عرضة لتأثير من قد يدفع لهم، أيا كان. من بقى منهم فى أرضه كان يحلم بحياة أفضل، أو صعاب أو مجاعة؛ ولكنهم كانوا يعتمدون على إدارة الدولة فيما يتعلق بالرى، والسيطرة على الفيضان، وتزويدهم بالأدوات الحديدية، والحصول على السلع التى لم يكونوا يستطيعون زراعتها. كانوا يتصورون عالما تتصرف فيه الإدارة على نحو أفضل، عالما لا مكان فيه لابتزاز ملاك الأراضى؛ ولكنهم كانوا عاجزين عن تصور مجتمع مختلف تماما يريدونه بأنفسهم.

إلا أن الانتفاضات وعمليات التمرد كان لها أثرها التراكمى فى إضعاف "إمبراطورية هان"، التى استمرت على مدى كل الحقبة الحديثة فى أوروبا الغربية، إلا أنها كانت تواجه صعوبات متزايدة فى السيطرة على كبار ملاك الأراضى فى

كل منطقة. لم يكن لدى الإدارة الإمبراطورية من وسيلة لجمع الموارد للإبقاء على نفسها وعلى إمبراطوريتها سوى ابتزاز الفلاحين. لم تكن قادرة على منع الانتفاضات والتمردات الدورية. فى **184**م، قامت حركة مسيحانية – **messianic** – يطلق عليها "العمائم الصفراء– **Yellow Turbans**" بقيادة طائفة طاوية، قامت بتنظيم نحو **360,000** مؤيد مسلح لها. القادة العسكريون الذين ذهبوا لإخماد التمرد، سرعان ما انخرطوا فى قتال بعضهم البعض، ما زاد من الفوضى والدمار.

فى خضم إحراق العاصمة وسلب ونهب مناطق كاملة من البلاد، وتخريب طرق التجارة، كان هناك تدهور حاد فى المراكز الحضرية، ما أدى إلى المزيد من دمار الحياة فى المناطق الريفية؛ وسرعان ما كان ملاك الأراضى المتنافسون يسيطرون في كل موقع محلى ممسكين بزمام السلطة السياسية والاقتصادية وهم يديرون الزارع ويتولون تنظيم طاقة عمل الفلاحين لصيانة القنوات والجسور وأعمال الرى، وبدأوا يجمعون الضرائب التى كانت تذهب قبل ذلك، على الأقل نظريا، إلى الدولة[٢٦]. استمر المزارعون فى إنتاج المحاصيل تحت الترتيبات الاقتصادية الجديدة، كما استمر الكثير من الحرف والصناعات التى كانت منتعشة إلى حد ما رغم أنها كانت موجهة لسد الاحتياجات المحلية. انتهت فترة طويلة من التقدم التكنولوجى، وهكذا أيضا على مدى القرون الثلاثة التالية، كان الأمر بالنسبة للإمبراطورية الصينية التى حل محلها تكاثر سريع لممالك متنافسة.

هناك أوجه شبه فى بعض الجوانب بين هذه المرحلة وما حدث فى الهند فى القرن الخامس الميلادى وانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية فى نفس الوقت تقريبا، بيد أنه كان هناك فارق لهم. جوهر الاستمرارية الصينية لم ينكسر، وكانت الأرضية اللازمة قد وضعت من أجل انبعاثة فى الاقتصاد والحياة الحضرية، أكثر سرعة بدرجة كبيرة مما كان ليحدث فى الهند أو روما.

إلا أن الهياكل السياسية نفسها التى كانت قد قامت فى مرحلة ما بدور كبير لدفع التقدم التكنولوجى والتوسع الاقتصادى، لم تعد قادرة على ذلك، ما أدى إلى

انهيار جزئى للمجتمع القديم. لم تستطع الطبقة البيروقراطية الحاكمة القديمة الإبقاء على المجتمع بنظامه القديم. لم تكن الأرستقراطية المكونة من ملاك الأراضى سوى أن تراقب انهياره وتفتته. لم يكن التجار على استعداد للانفصال عن الطبقات المتميزة الأخرى، وأن يقدموا برنامجا للتغيير الاجتماعى يستطيع أن يجتذب وراءه الفلاحين الثائرين، يتبنى بدل ذلك الديانة البودية السكونية من الهند. لم يكن هناك دمار متبادل للطبقات المتنافسة، ولكن المؤكد أنه كان هناك شلل متبادل.

الهوامش

(١) لم تبدأ بناء السور من الصفر، كما يقال أحيانا، وإنما قامت بوصل عدد من الأسوار التى كانت موجودة بالفعل. السور العظيم الحالى تم ترميمه وتجديده وتمديده بواسطة "أسرة منج- Ming Dynasty" فى القرن السابع عشر الميلادى.

(٢) حسب النصوص المعاد صياغتها فى:

H. Maspero, "China in Antitiquity"

الصادر لأول مرة بالإنجليزية فى العشرينيات من القرن الماضى

(Folkestone, 1978), p.26.

(٣) انظر على سبيل المثال:

D.Bodde, "The State and Empire of Ch'in", in D.Twitchett and M.Loewe (eds), "Cambridge History of China", vol.1 (Cambridge, 1986), p.21.

(4) H. Maspero, "China", p.45.

وللمزيد من طبيعة المجتمع الصينى القديم فى نظر الباحثين الصينيين انظر إسهامات:

W. Daken, Ke Changyi and Zhao Lusheng, in T.Brook (ed), "The Asiatic Mode of Production in China", (New York, 1989).

(5) H. Maspero, "China", p.70.

(6) Cho-yun Hsu, "Han Agriculture" (Washington, 1980), p.4.

وانظر كذلك:

J.Gernet, "A History of Chinese Civilisation", (Cambrigde, 1982), pp. 67-69, and D.Bodde, "The State", p.22-23.

(7) Cho-yun Hsu, "Han", p.6.

(8) J. Gernet, "History", p.72.

(9) Cho-yun Hsu, "Han", p.12.

(10) Cho-yun Hsu, "Han", p.13.

(11) Shih-chi, quoted in D.Boode, "The State", p.40.

(١٢) التفاصيل فى كتاب **D.Bodde, "The State", p.54**.

(13) J.Gernet, "History", p.109, and D.Bodde, "The State", p.52.

(١٤) كما جاء في كتاب: J. Gernet, "History"، p.109.

(15) Cho-yun Hsu, "Han", p.3.

(16) K. Wittfogel, "The Fundamental Stages of Chinese Economic History", in "Zeitschrift für Sozial Forschung, no.4 (1935).

(17) Cho-yun Hsu, "Han" p.39.

(18) "Discourses on Iron and Salt" 81 BC.,

مقتطفات مترجمة في: Cho-yun Hsu, "Han", p.191

(19) Cho-yun Hsu, "Han", p. 53.

(20) Cho-yun Hsu, "Han", p.165.

(٢١) انظر المرسوم في كتاب D. Bodde: "The State"، P.69.

(22) Cho-yun Hsu, "Han", p. 6-7.

(23) D. Bodde, "The State", pp. 71-72.

(24) D. Bodde, "The State", pp. 71-72.

(٢٥) كما نقله D. Bodde في كتابه "The State" p.83.

(26) Cho-yun Hsu, "Han", p.153.

- ٤ -

الدول - المدن اليونانية

كانت حضارة اليونان القديمة هى الحضارة الثالثة التى ازدهرت قبل **2500** عام، وكان "**الإسكندر الأكبر - Alexander the Great**" قد أقام إمبراطورية امتدت فى وقت قصير من البلقان والنيل إلى الإندوس فى أواخر القرن الرابع ق.م، فى نفس الوقت الذى كان قد بدأ فيه حكام "**ماجادا - Magadha**" سيطرتهم على شبه القارة الهندية و"**الشين - Ch'in's**" يبنون إمبراطورية جديدة فى الصين. كانت المفاهيم التى نشأت فى "أثينا" وتطورت فى الإسكندرية اليونانية لها نفس التأثير على التفكير المتوسطى والأوروبى على مدى الألفيتين التاليتين باعتبارها أفكارا تطورت فى "**ماجادا - Magadha**" فى الهند، وبواسطة "**كونفوشيوس**" - و"**منشيوس**" فى الصين.

على أنه كان هناك ما يميز قليلا الشعوب التى كانت تعيش فى الجزر والقرى الساحلية اليونانية فى القرن التاسع ق.م، عن الشعوب الزراعية فى أى مكان آخر فى أوراسيا أو أفريقيا. كان الماضى الميسينى - **Mycenaean** قد أصبح نسيا منسيا، ربما باستثناء بعض الأساطير، كما كانت قصوره الأشبه بالقلاع قد تداعت. كانت القرى معزولة عن بعضها بعضا وحضارات البر الرئيسى فى آسيا ومصر. كان الناس أميون، والتخصص الحرفى بدائى، والفن التصويرى لا وجود له تقريبا، والحياة القاسية، والمجاعات متكررة[(١)].

كانت القوى المحركة التى تصهر أولئك الناس فى حضارة جديدة، أشبه بتلك فى شمال الهند وشمال الصين - الانتشار البطيء والمضطرد فى معرفة استخدامات الحديد، واكتشاف تقنيات جديدة فى الزراعة، نمو التجارة، وإعادة اكتشاف المهارات

الحرفية القديمة واكتساب مهارات جديدة، واستكمال الأبجديات وتطويرها. منذ القرن السابع ق.م، كان هناك "نمو اقتصادى مضطرد" و"ارتباع ملحوظ فى مستوى معيشة كل القطاعات السكانية تقريبا"(٢). بحلول القرن السادس ق.م، كانت هذه التطورات قد أدت إلى نشأة "دول-مدن: **city States**" تستطيع أن تشيد صروحا مثل "الأكروبوليس- **Acropolis**" في "أثينا"، كما كانت قادرة بفضل جهودها المشتركة على هزيمة محاولات الغزو من قبل جيش "فارس" الكبير؛ إلا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تمت فيها تلك التطورات كانت مختلفة من ناحيتين عنها فى الصين، وعنها في الهند وإن بدرجة أقل.

سرعان ما كان للمستوطنات اليونانية الساحلية اتصالا مباشرا أقوى بالحضارات الأخرى، منه فى حالة الصين والهند. كان البحارة **الفينيقيون** يتاجرون على امتداد سواحل البحر الأبيض على مدى قرون، حاملين معهم معرفة بالتقدم التكنولوجى المتحقق فى إمبراطوريات بلاد ما بين النهرين ومصر؛ ثم كان هناك بدءا من القرن السادس ق.م تعاملا مباشرا ومتواصلا بين المدن اليونانية والإمبراطوريات المتوالية في الشرق الأوسط من خلال التجارة واستخدام المرتزقة اليونانيين فى الجيوش الإمبراطورية واستقرار المنفيين اليونانيين فى المدن الإمبراطورية، وقد أعطى مثل هذه الصلات والعلاقات دفعة قوية لتقدم الحضارة اليونانية، فالأبجدية اليونانية على سبيل المثال تطورت مباشرة من الحروف السامية التى كان يستخدمها **الفينيقيون**.

ازدهرت الحضارتان الصينية والهندية فى وديان أنهار خصبة، وعلى سهول متسعة، حيث كانت الزراعة يمكن أن تكون أكثر إنتاجية بمجرد إزالة الغابات، أما الزراعة اليونانية فكانت، على العكس من ذلك، محدودة بسبب الأراضى الجبلية، وكان يمكن الحصول على فائض باستخدام التقنيات الجديدة منذ أوائل القرن الثامن ق.م، ولكن ذلك كان يمكن أن يتوقف فى حال ما لم يتم الإفادة مما تحقق فى الهند والصين.

نقص مساحة الأرض القابلة للزراعة، شجع المزارعين على الخروج إلى البحار واحتلال مناطق ساحلية خصبة فى أماكن بعيدة على امتداد البحر الأبيض المتوسط – على الجزر الأيچية والإيونية، حول البحر الأسود وآسيا الصغرى. فى جنوب إيطاليا وصقلية، وحتى على امتداد سواحل إسپانيا وجنوب فرنسا؛ وبدوره، شجع اتساع التجارة الذى صحب هذا الاحتلال على تطور الحرف فى الداخل – لدرجة أن الفخار الأثينى، على سبيل المثال، كان يمكن أن نجده فى كل منطقة البحر الأبيض. ما كان قد بدأ كمجتمعات منفصلة من المزارعين وصيادى الأسماك، انتهى به الأمر ليصبح بحلول القرن السادس ق.م، شبكة من "الدول-المدن" المتحاربة، إلا أنها كانت مرتبطة ببعضها أيضا بواسطة التجارة، ومعها أبجدية مشتركة، ولهجات مفهومة للجميع، وممارسات دينية متشابهة ومهرجانات واحتفاليات مشتركة، لعل أشهرها الألعاب الأوليمپية.

كان للعقم النسبى للأرض أثر جانبى آخر بالغ الأهمية. كان فائض الإنتاج المتبقى بعد إطعام أسرة فلاحية وأطفالها قليلا جدا، ولكن كان يمكن زيادته بنسبة كبيرة باستغلال الأرض – ثم المناجم والمنشآت الحرفية الكبيرة فيما بعد – بقوة عمل من الكبار الذين ليس لديهم أطفال، وكان استعباد أسرى الحرب تحديدا، هو مصدر قوة العمل تلك[٣]، وكانت تلك طريقة غير مكلفة لتملك بشر آخرين واستغلالهم – كانت تكلفة عبد واحد فى أثينا أواخر القرن الخامس ق.م، أقل من نصف أجر حرفى حر عن عمل سنة كاملة[٤].

كانت العبودية موجودة لفترة طويلة جدا فى الحضارات القديمة، ولكنها كانت هامشية فيما يتعلق بإنتاج الفائض حيث كان عمل العبيد مركزا فى تقديم خدمات خاصة للحكام، بينما كانت الزراعة والصناعات الحرفية متروكة للمواطنين شبه الأحرار. فى ذلك الوقت، كانت العبودية قد أصبحت مصدرا رئيسيا للفائض فى اليونان، ثم فى روما على نطاق أوسع كثيرا.

كانت **أسبرطة – Sparta** بخاصة، هى الدولة – المدنية اليونانية الرئيسية التى تعتمد على طبقى فلاحية أشبه بالرقيـق، وكانت تتوسط منطقة داخليـة

خصبة[٥]، وهنا كانت طبقة حاكمة من مواطنين كاملين، لا يشاركون فى الزراعة أو العمل الحرفى، تعيش على الجزية التى يدفعها لهم المزارعون الأقنان (**الهلوت- The Helot**)[*]؛ ولكن كانت هناك أيضا طبقة حاكمة تتباهى بأسلوب حياتها المتقشف، بما يدل على وعى بحدود أسلوبها فى الحصول على الفائض[٦]، ويبدو هنا الاستثناء إثباتا للقاعدة بالنسبة لدول اليونانية الأخرى.

يقال أحيانا إن العبودية كان يمكن ألا تكون أمرا رئيسيا بالنسبة لتلك الدول، لأن العبيد لم يكونوا يمثلون أغلبية سكانية[٧]، ولكن نسبتهم وحتى إسهامهم كقوة عمل بالنسبة للناتج الاجتماعى الإجمالى، ليست هى القضية، كما بين "**جى. إى. دوسانت كروا- G.E. De Ste Croix**" فى دراسته الرائعة: "الصراع الطبقى فى العالم اليونانى القديم- **Class Struggle in the Ancient Greek World**". ما يعنينا هو أهمية دورهم فى إنتاج الفائض، حيث إن بدون ذلك ما كانت لتوجد حياة تبطل للطبقة الحاكمة، ولا تحرر للكتاب والشعراء من عبء العمل البدنى ولا موارد لعجائب مثل "**الأكروبوليس- The Acropolis**". كانت الطبقة الحاكمة مدينة بوضعها للتحكم فى الأرض التى يفلحها العبيد بشكل رئيسى، لدرجة أن كتاب وفلاسفة اليونان الكبار كانوا يعتبرون أن تملك العبيد أمر ضرورى بالنسبة لحياة متحضرة، وهكذا كان "**أرسطو- Aristotle**" يستطيع أن يجمع دون تمييز بين السيد والعبد، باعتبارهما العناصر الأساسية فى الحياة الأسرية إلى جانب الزوج والزوجة، والأب والأبناء، بينما يتحدث "**بوليبوس- Polybus**" عن العبيد والماشية باعتبارهم متطلبات الحياة الأساسية[٨].

ثورات العبيد وانتفاضاتهم لا وجود متكررا لها فى تاريخ اليونان، مثلما كانت ثورات وانتفاضات الفلاحين فى تاريخ الصين، وذلك لأن طبيعة العبودية

(*) الهلوت The Holots: المقصود أقنان الأرض، والاسم نسبة إلى سكان مدينة هيلوس Helos فى لاكونيا، الأرض التى كانت تابعة لأسبرطة حسب الجغرافى اليونانى "بوسانياس - Pausanias". لم يكن "الهلوت" مواطنين أحرارا ولا عبيدا، ولم يكن السيد صاحب الأرض يستطيع أن يبيع أو يحرر الواحد منهم. الأصل اليونانى للكلمة "Heilotes". (المترجم)

اليونانية، والرومانية فيما بعد، كانت تجعل من الصعب على العبيد تنظيم أنفسهم ضد مستغليهم. كانوا فى الغالب الأعم أسرى حروب قامت عبر البحر الأبيض المتوسط والبلقان وآسيا الصغرى، وحتى جنوب روسيا(١٠). كان يتم مزجهم معا، عمدا، فى أسواق الرقيق لدرجة أن من كانوا يعملون متجاورين، القادمين من ثقافات مختلفة ويتحدثون لغات مختلفة، كانوا يجدون صعوبة في التواصل معا عن طريق اللهجة اليونانية لسادتهـم، وكان السيد يعتمد عادة على يونانيين آخرين لمعاقبة المتمردين واصطياد الهاربين؛ وهكذا بينما كان أقنان اسبرطة من "الهيلوت" فى "ميسينيا– **Messenia**" يستطيعون تنظيم أنفسهم ويثورون ويحررون أنفسهم، لم يكن العبيد الأصليون يستطيعون ذلك. معظم الوقت كان الاعتراض على استغلالهم يأخذ شكل الاستياء السلبى لا أكثر، إلا أن هذا الاستياء كان فى حد ذاته عاملا مهما فى التاريخ اليونانى، ثم الرومانى فيما بعد. كان يعنى أن المنتجين المباشرين لم يكونوا مهتمين كثيرا أو راغبين فى تحسين تقنياتهم ولا نوعية إنتاجهم، كما أنه كان معوقا أمام تحسين إنتاجية العمل، يضاف إلى ذلك أن الحاجة إلى الاحتفاظ بالعبيد فى أماكنهم، كان يشكل الأساس لأى قرارات أخرى قد يتخذها السياسيون أو الحكام؛ ولكن العبيد نادرا ما كانوا فى وضع يمكنهم من التدخل فى العملية التاريخية بالأصالة عن أنفسهم.

إلا أن صراعا طبقيا آخر كان أن لعب دورا رئيسيا فى تاريخ اليونان القديمة، وكان ذلك هو الصراع بين ملاك الأراضى الأغنياء، الذين كانوا يستخدمون أعدادا كبيرة نسبيا من العبيد لزراعة أراضيهم، بينما هم بعيدون كل البعد عن أى شيء له علاقة بالعمل اليدوى، وبين الكتلة الكبيرة من المزارعين والحرفيين الأصغر، وكان الواحد من هؤلاء يمكن أن يمتلك عبدا أو اثنين وربما يعمل إلى جوارهم فى الأرض أو المشغل.

عندما نشأت الدول – المدن اليونانية فى البداية، كانت ما زالت تحمل بصمات ماضيها. كان الملوك ينحدرون من نسل الزعماء القدامى، وكانت خطوط النسب والقرابة تلعب دورا مهما فى تحديد التزامات وسلوك الناس تجاه بعضهم

بعضا. كان المجتمع وما زال متماسكا من خلال الأعراف والمفاهيم المستقرة عن الحقوق والواجبات أكثر مما هو من خلال القوانين الرسمية. ملاك الأراضي الذين أثروا نتيجة اتساع التجارة وزيادة العبودية وأصبحوا على نحو متزايد يخرجون على تلك الأنماط من السلوك ويستهجنون امتيازات الأسر الحاكمة القديمة من ناحية، وواجباتهم والتزاماتهم التقليدية تجاه الفقراء من ناحية أخرى. كان "عالم صراعات حادة بين النخبة... تظهر في كل فرصة... على الحدود... على الميراث... حتى في التباهي والتنافس في الجنازات"[١٠].

كانت النتيجة في كثير من الدول الإطاحة بالملوك وإقامة "**أوليجاركسيات– Oligarchies**"– جمهوريات يحكمها الأثرياء، وفي هذه الأوليجاركسيات كان الأغنياء الجدد يستخدمون وضعهم، ليس لكي يحلوا محل الحكام القدامى فحسب، بل ولكي يغتصبوا أكبر قدر ممكن من الفائض ممن تحتهم.

كانوا يفرضون الضرائب على أصحاب الملكيات الزراعية الأصغر لتغطية إنفاق الدولة – على البحرية مثلا – الذي كان دائما لصالحهم. كان عجز المحاصيل المتكرر نسبيا يعني أن الكثير من المزارعين لن يستطيعوا دفع تلك الضرائب وإعالة أنفسهم، سوى بالاستدانة من الأغنياء الذين سوف يستخدمون ذلك في آخر الأمر، مبررا للاستيلاء على أراضيهم، بل و"عليهم شخصيا" باعتبارهم "رقيقا" ملزمين بالعمل بلا أجر؛ أما المحاكم المدججة بأعضاء من القلة الغنية الحاكمة، فكان يسعدها إصدار أحكام ضد الفقراء.

سرعان ما اهتزت الجمهوريات الأوليجاركية نتيجة المعاناة المريرة لقطاعات كبيرة من المواطنين، واستطاع الطموحون في الكثير من تلك القطاعات، الذين كانوا غالبا من الطبقة العليا، أن يستغلوا مرارات الناس لامتلاك زمام السلطة السياسية كمغتصبين للحكم. آنذاك، كان بإمكانهم إزعاج الأغنياء بالقيام بعدة إصلاحات لمساعدة الكتلة الكبيرة من الناس، ولكنهم لم يستطيعوا أن يضعوا نهاية للانقسام الطبقي، ولم يكونوا يريدون.

في بعض الدول، وبخاصة أثينا، أدى الضغط من أسفل إلى تغيرات أكثر راديكالية – إحلال "الديمقراطية" محل الأوليجاركية والاستبداد. المعنى الحرفي لكلمة "ديمقراطية" يعني "حكم الشعب"، والحقيقة أنها لم تشر قط إلى كل الشعب، حيث إنها كانت تستبعد العبيد والنساء والمواطنين المقيمين **(resident non-citizens)** أو ما يطلق عليهم "**الميتيك– the metics**"(*) الذين كانوا يمثلون نسبة كبيرة من التجار والحرفيين. الكلمة – الديمقراطية – لم تعترض كذلك على تركز الملكية – والعبيد – في أيدي الأغنياء. لم يكن ذلك أمرا مثيرا للدهشة إلى حد ما، حيث إن قيادة القوى "الديمقراطية" كانت غالبا في أيدي ملاك أراض أغنياء منشقين عززوا مواقعهم السياسية الخاصة بتبني بعض مطالب الجماهير؛ ولكنها أعطت، بالفعل، القوة للمواطنين الفقراء لحماية أنفسهم من اغتصاب الأغنياء وابتزازهم.

وعليه تم حظر **عبودية الدين– Debt-slavery** – في أثينا منذ أيام "**سولون– Solon**" (594 ق.م) وأصبحت سلطة التشريع في يد مجلس مفتوح أمام كل المواطنين، وأصبح القضاة والمسؤولون يختارون بالقرعة.

أثارت مثل تلك القيود على سلطة الطبقة العليا استياء شديدا في صفوفها، كان له صداه في بعض الدوائر الأدبية والفلسفية، فكان الزعم بأن الديمقراطية هي حكم الغوغاء وأن أعضاء الطبقة المترفة الذين تنازلوا عن حقوق للطبقات الدنيا كانوا منعدمي الضمير ويعملون لخدمة مصالحهم الشخصية (ومن هنا جاءت كلمة "**demagogue**" أي الدهماوي المهيج الذي يستغل الاستياء الاجتماعي لاكتساب نفوذ)، وأن الأمل الوحيد من أجل المستقبل يكمن في تحطيم أغلال الرقابة الشعبية.

(*) الميتيك THE METICS وتعني الأجانب الذين كانوا يقيمون في معظم الدول اليونانية، بمن فيهم العبيد المحررون، عدا إسبرطة، وكان هناك عدد كبير منهم في أثينا وكانوا يعملون بالتجارة والصناعات الحرفية، يمكن أن نقول: إنهم كانوا في وضع اجتماعي متوسط بين المواطنة والعبودية. "metics" مأخوذة عن الكلمة اليونانية Metoikos (المكونة من مقطعين meta وتفيد التغير و pikos بمعنى السكن أو الإقامة). (المترجم)

كان ذلك روح مسرحيات "**أريستوفان- Aristophanes**" وكتابات "**أفلاطون- Plato**" السياسية، وربما كان القاعدة بين "**سقراط- Socrates**" وتلاميذه[11].

لمت كن الطبقات العليا تعبر عن استيائها بالقول فحسب، بل كانوا يحاولون الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح عندما يستطيعون ذلك، والقيام بثورة مضادة كاملة وأن يقتلوا، إذا لزم الأمر، كل من يقف فى طريقهم. كانوا يستطيعون محاولة مثل تلك الأفعال لأن ثرواتهم كانت توفر لهم الوسائل العسكرية التى ليست متاحة للمواطنين العاديين. كان "**الهوبليت**(*)- **Hoplite**" وهم قسم من جنود المشاة يضم أولئك المواطنين من ملاك المساحات الكبيرة من الأراضى، بما يكفى لتحمل نفقات الدروع والأسلحة؛ وعليه فإن تاريخ عدد كبير من الدول اليونانية كان تاريـــخ صراعات مستمرة، ناجحة غالبا، بين ملاك الأراضى الأكثر ثراء ضد الديمقراطية. كانت أثينا الاستثناء الجزئى، حيث صمدت الديمقراطية نحو **200** عام، وذلك لأن اعتماد المدينة على التجارة أعطى دورا حيويا لأسطولها الذى كان يقوم عليه مواطنون أكثر فقرا. حتى الأغنياء الذين كانوا رافضين للديمقراطية كانوا يشعرون عادة بأنهم مضطرون إلى استرضاء المواطنين الأكثر فقرا. كانت هناك محاولتان، عمرهما قصير، لفرض **حكم أوليجاركى** بعد الهزيمة فى **الحرب البيلوبونيزية – Peloponnesian War** – مع **أسبرطة**.

هذه الحرب التى استمرت ثلاثين عاما فى أواخر القرن الخامس ق.م، كانت قد تشابكت مع المعركة الطبقية على الديمقراطية فى داخل الكثير من الدول-المدن. كانت الحرب قد نشبت نتيجة صراع بين أسبرطة وأثينا للسيطرة على دول – مدن أخرى؛ وكانت أسبرطة قد بنت تحالف دول حول "البيلوبونيز"- البر الرئيسى اليونانى الجنوبى – لحماية حدودها وإخضاعها الـــ"**هلوت- The Helots**". كانت

(*) الهوبليت – The Hoplites المواطنون – الجنود المسلحون بالحراب والدروع.
"Hoplite" عن اليونانية hoplites (والجمع hoplitai)، وتعنى hoplon (والجمع hoopla).
العدة الأساسية لجندى المشاة فى اليونان القديمة. (المترجم).

أثينا تعتمد على طرقها البحرية فى التجارة، وكان لها تحالف بحرى مع مدن ساحلية وجزر، وتحصل جزية منتظمة من حلفائها كانت تستخدمها لتمويل إنفاق الدولة وبخاصة على الأسطول البحرى. ولكن الحرب كانت على أكثر من هيمنة طرف على آخر، كما كانت تتضمن كذلك مفاهيم متنافسة على أسلوب تنظيم المجتمع. فى أثينا والدول الحليفة لها، كان هناك الكثيرون فى الطبقات العليا من المرجين بفتور بنجاحات اسبرطة فى الحرب كعذر للإطاحة بالديمقراطية؛ وبالنسبة للبعض أصبحت أسبرطة بؤرة طموحاتهم المضادة للثورة، ونموذجا لقيام قلة مرفهة بحرمان الآخرين من أى حقوق لهم(١٢)، ما يشبه إلى حد كبير ما فعلته إيطاليا الفاشية وألمانية النازية بالنسبة لقطاعات من الطبقة الحاكمة عبر أوروبا فى ثلاثينيات القرن العشرين.

الفورات الاجتماعية والتوترات الطبقية التى اتسم بها صعود الحضارة اليونانية خلال هذين القرنين أو الثلاثة، هى خلفية الإنجازات العظيمة للآداب والفنون والعلوم والفلسفة اليونانية. كانت مرحلة وجد الناس فيها أنفسهم مدفوعين دفعا لمساءلة الثـوابت القديمة. الطاقة الشعريــة التى تنسب لــ"**هومر** – **Homer**" (وهى فـــى الحقيقة قصص شفاهية دونت لأول مرة فى سنة **700** ق.م) جاءت من تصوير بشر يصارعــون أقدارهم فى فترة فوران اجتماعى. التوترات التراچيديـــة فى مسرحيات "**أيسخيلوس**" جاءت من عدم قدرة الشخصيات على حل الصراع بين مبادئ أخلاقية متنافسة، عاكسة الأساليب القديمة والجديدة فى تنظيم المجتمع. المدارس المتنافسة فى الفلسفة اليونانية القديمة نشأت عندما سعى المفكرون لإيجاد أساس موضوعى جديد للوصول إلى الحقيقة، وأهداف الحياة الإنسانية وقواعد السلوك البشرى. "**السوفسطائيون**– **Sophists**" و"**الشكوكيون**– **Sceptics**" توصلوا إلى نتيجـــة مفادها أن كل ما كان بالإمكان هو هـــدم كل حجة على التعاقـــب. "**أفلاطون**" قال بأن هدم كل حجة بأخرى تعقبها (وهى عملية تعرف بـــ"**الجدل**– **Dialectic**" يؤدى إلى الاستنتاج أن الحقيقة لا بد من أن تعتمد على عالم خارج

التجربة الإنسانية المباشرة لا يصل إليه إلا نخبة فلسفية ينبغى أن تدير المجتمع بأسلــوب ديكتاتورى. "**أرسطو**"، بعــد أن درس على "**أفلاطون**"، قاوم ذلك بتأكيده المعرفة التجريبية الإيجابية للعالم المادى والاجتماعى القائم، الذى رآه يتكون من أربعة "عناصر" أساسية (الماء والنار والهواء والتراب). "**ديموقرايطوس- Dimocritus**" فى القرن الخامس ق.م و"**إبتلوروس- Epicurus**" (أبيقور) فى نهاية القرن الرابع ق.م، قاما بتطوير رؤية مادية للعالم باعتباره مكونا من ذرات غير قابلة للتجزئة. الدول – المدن اليونانية، غير متقلة أو مكبلة ببيروقراطيات إمبراطوريات بلاد ما بين النهرين وآشور وفارس، كانت قادرة على إبراز دينامية أكبر وأن تستدعى المولاة النشطة لنسبة أكبر من شعوبها عندما كان عليها أن تحارب، الأمر الذى يفسر لنا قدرة الدول اليونانية المتضامة على أن تكبح جماح الجيوش الغازية باكرا فى القرن الخامس ق.م. وبعد **150** سنة كان أن مكنت جيشا بنته مملكة مقدونيا التى كانت تحت النفوذ اليونانى، فى الشمال، من أن ترسخ سلطتها لفترة قصيرة، ليس على الدول – المدن اليونانية فحسب، ولكن أيضا تحت "**الإسكندر الأكبــر- Alexander the Great**" على الإمبراطوريتين التاريخيتين فى مصر والشرق الأوسط. إمبراطورية "**الإسكندر**" تداعت بعد موته، إلا أن أسرا ناطقة باليونانية ظلت تحكم فى الإمبراطوريات الشرق أوسطية والمصرية المنافسة. الخطوات المتقدمة فى العلوم والفلسفة اليونانية، التى كانت قد نتجت عن إنجازات الحضارات القديمة فى هذه المناطق، كانت تحقق المزيد من التقدم بداخلها؛ وكان فى الإسكندرية، المدينة اليونانية – المصرية، أن وصلت المدرسة اليونانية فى العلوم والرياضيات والفلسفة إلى ذروتها الثانية؛ وفى **300** ق.م تقريبا، صاغ "**إيوقليد- Euclid**" (إقليدس) النظريات الرياضية الأساسية للهندسة؛ ولم يمر وقت طويل حتى كان "**إراتوسثينيس- Eratosthenes**" قد حسب قطر الأرض بأنه **24,000** ميل. وفى **150** ق.م تقريبا، بدأ "**هيفاركوس- Hypharcus**" فى التوصل إلى وسائل تعتمد على حساب المثلثات لحساب المسافات، وتوصل إلى نتيجة دقيقة نسبيا

للمسافة بين القمر والأرض؛ وبنى "**كلوديوس بطليموس**– **Claudius Ptolemy**" على أفكار "**هيفاركوس**" بعد **300** سنة، وطور نموذجا لحركة الكواكب والنجوم؛ وبالرغم من أنه أظهرها على أنها تتحرك حول الأرض، فقد مكن ذلك من عمل حسابات دقيقة إلى حد مقبول لمساراتها. إجمالا، فإن العلوم والرياضيات السكندرية أسهمت إسهاما بالغ الأهمية لتقدم أبعد في الهند والصين، ومن القرن السابع إلى القرن الثانى عشر الميلاديين فى العالم العربى، ومهما يكن من الأمر فإن نتائجها المتحققة كانت مجهولة بالفعل فى أوروبا لأكثر من ألف عام.

فى الوقت نفسه، سرعان ما تم استيعاب آثار إمبراطورية "**الإسكندر**" حول البحر الأبيض المتوسط، فى إمبراطورية جديدة، تلك التى بناها حكام روما.

الهوامش

(١) للمزيد عن تلك الظروف انظر:

R. Osborne, "Greece in the Makong", (London, 1996), pp. 17-37.

(2) G.E.M. De ste Croix, "Class Struggle in the Ancient Greek World", (London, 1983), p.293.

(٣) فى كتابه "Greece"، p.67 يفسر R.Osborne نمو العبودية بهذه العبارات، رغم أنه لا يستخدم مصطلح "الفائض- Surplus"، ويجادل D.Ste Croix بأن العبودية كانت أكثر فائدة للطبقة الحاكمة منها بالنسبة للأقنان تحت الظروف اليونانية؛ انظر:

G.E.M.D. ste Croix, "Class Struggle", p.226-231.

وعلى العكس من ذلك فإن Ellen Meiksind Wood لا تناقش حتى الظروف المادية للزراعة، ومن هنا الظروف التى ترسخت فيها العبودية، فى E.M.Wood

"Peasant, Citiz. n and Slave", (London, 1988)

(٤) انظر: G.E.M. De ste Croix, "Class Struggle", p.227

(٥) حسب ما يذكر G.E.M. De ste Croix

كان هناك كذلك أقنان بدلا من العبيد فى: Thessaly the Penastai

ويحتمل أن كانت هناك قنانة كذلك فى "كريت"، انظر:

G.E.M. De ste Croix, "Class Struggle", p.150

(٦) الفصل الخاص عن Lycurgus فى Plutarch's :ives (انظر على سبيل المثال):

E.C. Lindeman (ed), "Life Studies of Man Who Shaped History, Plutarch's Lives (New York, 1950),

حيث يرد تقرير عما كان يزعم الإسبارطيون أنه كان أسلوب حياتهم؛ ولعل أسلوب الحياة المتقشف كان فى حقيقة الأمر أسطورة أيديولوجية أكثر منه حقيقة، وبخاصة فى إسبرطة المتأخرة. انظر: A.H.M. Jones "Sparta", (Oxford, 1967)

(٧) الحجة الواردة فى:

A.H.M. Jones, "The Athenian Democracy, (Oxford, 1957).

(٨) اقتباس فى:

G.E.M. De ste Croix, "Class Struggle), pp. 140-141.

(٩) يشير De ste Croix إلى دليل مفاده أن 13% فقط من العبيد كانوا من مواليد الدخل- Home bred- بحسب مدونات السنوات من 201 إلى 153 ق.م.

(10) R. Osborne, "Greece", p.233.

(١١) انظر التعليقات في: "G.E.M. De ste Croix, "Class Struggles

وفي: The Origins of the Peloponnesian war", (London, 1972)

وللمزيد عن الاتهامات الموجهة لسقراط انظر:

I.F. Stone, "The Trial of Socrates", (London, 1997).

(١٢) يوجد تفصيل لذلك في:

G.E.M De ste Croix, "Origins".

- ٥ -

صعود روما وسقوطها

"المجد الذى كان روما"، لازمة متكررة يتردد صداها فى معظم الروايات الغربية عن تاريخ العالم، كما يتم تصوير صعود روما باعتباره ذروة الحضارات القديمة وسقوطها باعتباره مأساة تاريخية؛ وهكذا يبدأ أحد الأعمال الكبرى فى حركة التنوير الأوروبيــة، وهو كتــاب "**إدوارد جيبون- Edward Gibbon**" "**اضمحلال وســقوط الإمبراطورية الرومانية- The Decline and Fall of the Roman Empire**"، على هذا النحو: "فى القرن الثانـــى من العهد المسيحى كانت إمبراطورية روما تشمل أكبر جزء من الأرض... كان تأثير القوانين وأساليب الحياة، الهادئ والقوى فى ذات الوقت، قد عزز شيئا فشيئا وحدة الأقاليم، وكان أهلها المسالمون ينعمون بمزايا الثروة والترف ويسيئون استخدامها[1].

كانت الحضارة الرومانية مثيرة للإعجاب من ناحية ما، فقد قامت مدينة صغيرة فى إيطاليا لتحكم كل منطقة البحر الأبيض المتوسط- مصر شمالى أسوان، وأوروبا جنوبى "الدانوب" و"الراين"، وآسيا الصغرى وسوريا، وأفريقيا شمال الصحراء. استمر الجزء الغربى من إمبراطوريتها نحو **600** عام، والشرقى نحو **1600** عام، وفى كل مكان كان حكامها يرعون إنشاء المبانى العامة والمعابد والاستادات والقنوات والحمامات العمومية والطرق المرصوفة، مخلفين تراثا يبهر الأجيال التالية.

إلا أن حضارة مثل تلك الإمبراطورية لم تضف سوى القليل إلى قدرة الجنس البشرى على توفير سبل معيشته، أو إلـــى مخزوننا المتراكم من المعرفة العلميـــة والمسعى الثقافى. لم تكن حضارة تتصف بالابتكار مثل حضارات بلاد ما بين

النهريـــن ومصر القديمة، أو اليونان أو النصف الثانـــى من الألفية الأولـــى ق.م فى الهند والصين؛ بل إن "**سانت كروا**– **Ste Croix**" يؤكد أن باستثناء "إسهامين أو ثلاثة فى مجال التكنولوچيا" لم يتفوق الرومان على أسلافهم اليونانيين ســوى فى مجالين: الأول ممارســة الحكم وابتكار هياكل كفيلة بتماســك إمبراطورية ضخمة؛ والثانى فى نظرية "القانون المدنى" المتعلق بتنظيم الملكية والميراث (على عكس القانون الجنائى الرومانى الذى ظل استبداديا وجائرا)[٢]. لا شك أن ذلك ينطوى على مبالغة، فالمؤكد أن الهندسة والعمارة الرومانية مثيرة للإعجاب بما فيها من جسور مقامة على سلاسل من العقود والأعمدة وملاعب مدرجة ومعابد وطرق؛ ولكن التأثير الرئيسى للإمبراطورية الرومانية فى معظم المجالات كان فى قيامها بنشر الإنجازات المتقدمة التى كان قد سبق التوصل إليها فى مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان، فى وسط غرب أوروبا. لم تضف الإمبراطورية الرومانية إلى تلك الإنجازات سوى القليل، يضاف إلى ذلك أن الأساس ذاته الذى قامت عليه الإمبراطورية كان كفيلا بسقوطها اللاحق، دون أن تترك أى شىء وراءها فى الغرب سوى ذكرى الإنجازات التى كانت قد اقتبستها من أماكن أخرى.

تشبه الفترة الباكرة فى روما، من جوانب عدة، نظيرتها فى الدول – المدن اليونانيـــة، التى كانت قد أخذت عنها أبجديتها وطورتها. فى البداية كانت على الأرجح مجتمع زراعيين منظما على أساس قبلى أكثر منه دولة (حتى فى الأزمنة التاريخية كان سكانه مجموعات من العشائر) تطورت عنه طبقة حاكمة وراثية (**النظام الأبوى**– **The Patrician Order**)[*]. كانت روما تحتل موقعا استراتيچيا

(*) Patrician الكلمة من اللاتينية "pater" بمعنى "أب" والتى أصبحت "father" فى الإنجليزية، وpater familias هو أكبر الذكور الأحياء فى الأسرة، ويقال: إن "رومولوس" (753-716) ق.م، أول ملوك روما جمع حوله أول مائة من كبار الأسر وعينهم "سيناتورز" (أعضاء فى مجلس للشيوخ– أو كبار أو الأعيان أو علية القوم أو الآباء المؤسسين. أصبح يطلق على أولئك ونسلهم طبقة الپاترشيان Patricii، فى مقابل "العامة– plebeians". (plebs). (المترجم)

على المعبر الأخير على نهر "التيبر" قبل البحر، الذى كانت تمر عبره طرق التجارة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب؛ وكان الدخل المتحقق من التجارة (ربما من الرسوم على التجار المارة) يضيف كثير إلى فائض الزراعة ليمكن قرية من الأكواخ الخشب، لكى تصبح فى أواخر القرن السادس ق.م بلدة مزدهرة "بمنازل مبنية من الآجر والخشب، ومعابد ضخمة، ونظام صرف صحى جيد، وواردات من أفخر المزهريات الإغريقية القديمة"[٣]. كانت روما، لفترة ما، تحت سيادة **الدولة الإتروسكية- Etruscan State** الواقعة إلى الشمال منها، والتى كانت مجتمعا متعلما (غير أمى)، ربما تكون لغته، وهى ليست هندو-أوروبية، قد نشأت فى مكان ما شمالى البحر الأسود. كان الرومان قد طردوا **الإتروسكيين- The Etruscans** فى أواخر القرن السادس (فى **509** ق.م بالنظام الرومانى)، وأسسوا جمهورية وبدأوا عملية طويلة من التوسع العسكرى. مر ذلك بمراحل مختلفة على مدى الأربعمائة سنة التالية: رابطة مع دول أخرى كثيرة ناطقة باللاتينية، دمج تلك الدول فى الجمهورية الإيطالية، غزو باقى وسط إيطاليا، سلسلة من الحروب مع "**قرطاج- Carthage**" للسيطرة على الجنوب الإيطالى والمستعمرة الفينيقية السابقة فى شمال أفريقيا، غزو الشمال الإيطالى واليونان، وأخيرا احتلال كل أوروبا شمال "الراين" و"الدانوب" وضم الإمبراطوريات اليونانية السابقة فى آسيا الصغرى وسوريا ومصر.

كل مرحلة من مراحل التوسع تلك كان يتقدمها، كرأس حربة، مشاة مجندون إجباريا من الفلاحين المستقلين ممن لديهم أراضى يزرعونها - فى البداية من بين من يزرعون داخل حدود مدينة روما، ثم من بين من لديهم أراضى فى المدن الإيطالية الأخرى وكانوا قد منحوا الجنسية الرومانية. ولكن إذا كان الفلاحون قد تحملوا وطأة القتال، لم يكن لهم سيطرة على الجيش، ولم يفيدوا شيئا من الانتصارات، ذلك لأن روما على خلاف أثينا، لم تكن ديمقراطية بأى معنى من المعانى.

الجمهورية والحروب الطبقية

أعطى دستور الدمهوريـة الباكرة لحتكار السلطة لنخبة وراثية من الأسر "الأبوية- **Patrician**" مجلس الشيوخ **(The Senate)**، القناصل الذين يتم اختيارهم سنويا لتطبيق السياسة، القضاة، رجال الإدارة المالية **(Quaestor administrator)** ومنظمو التقاضي **(Prators)** المسئولين عن تطبيق القانون والنظام، كلهم كانوا من تلك النخبة "الأبوية"؛ وكان هناك مجلس له الحق الصوري في انتخاب قضاة- **Magistrates** ويفصل في أمور الحرب والسلم، ولكن **98** من أصواته البالغ عددها **193** صوتا كان يذهب للطبقة العليا، ولم يكن لممثلي العامة- **Plebians** من صغار الفـلاحين في حال إجمـاع هؤلاء، بينما كان للرومان المعدميـن المعـروفين بـ"**البروليتاريا**- **Proletarii**" صوت واحد فحسب بينهم.

كانت الأسر القيادية تستخدم سيطرتها السياسية لزيادة ملكياتهم الزراعية، التي كانت كبيرة بالفعل، على حساب الفلاحين فيضطرونهم إلى الاستدانة، ثم يستولون على أراضيهم معتمدين على أحكام القضاة التي ستكون بالقطع لصالح أعضاء الأسـر "الأبوية" **علية القوم**؛ بل إنهم باعتبارهم قادة عـسكريين، كانوا يضمنون الحصول على نصيب الأسد من الأراضي المفتوحة بعد كل انتصار عسكري؛ وقد تفاقمت المعاناة الشديدة الناجمة عن مثل هذا السلوك لتفجر موجتين شديدتين من الصراع الطبقي.

بدأت الانفجارة الأولى بعد **15** سنة من تأسيس الجمهورية، وهذا هو المؤرخ الروماني "**سالست**- **Sallust**" يقدم لنا وصفا حيا عن دفع الانقسام الطبقي للفئات الدنيا من الشعب إلى الثورة.

> **"كان الأبويون- The Patricians، يعاملون الناس كأنهم عبيد، يصدرون الأوامر بإعدامهم وجلدهم وطردهم من أراضيهم؛ وتحت ضغط هذه الممارسات الوحشية، وقبل كل شيء عبء الديون عن ضرورة مشاركتهم بالأموال والخدمة العسكرية الإجبارية في**

حروب مستمرة، حمل العامة السلاح واعتصموا على تلال "مونز ساكر- Mons Sacer" و"الأفنتين- The Aventine" وانتزعوا لأنفسهم حق انتخاب مجالس شعبية (Tribunes) من العامة وبعض الحقوق القانونية"(٤).

كان "**سالست- Sallust**" بعد أكثر من **400** سنة من الحرث، ويشكك بعض المؤرخين المحدثين في دقة كلامه، ولكن المؤكد أن كانت هناك صراعات دائرة على مدى أكثر من قرن ضد المعاملة الاستبدادية من قبل المسئولين "الأبويين"، ويبدو أن الاعتصام والإضراب الجماعي ورفض الخدمة في الجيش كان هو الأسلوب الذى فضل العامة اللجوء إليه ومكنهم من أن يكون لهم ممثلون منتخبون (**Tribunes**) لحمايتهم من اضطهاد القائمين على التقاضي(٥). كان أولئك الممثلون المنتخبون يوفرون لهم تلك الحماية بأن يحولوا بالفعل بين أولئك المسئولين وضحاياهم المستهدفين(٦)، لأنهم كانوا على علم بالقسم الجمعي للعامة على إعدام كل من تسول له نفسه الاعتداء على أى نائب من المدافعين عنهم(٧). كانوا "يقفون لمسئولي الإدارة القانونية بالمرصاد كما يقف المحاسبون الماليون لمديري الشركات، كما يقول "**سانت كروا- Ste Croix**"(٨). ومع الوقت أصبح ذلك جزءا لا يتجزأ من الدستور، مع سلطة القبض على المسئولين الرسميين وسجنهم. صراع كبير أخير في **287** ق.م، من جراء تراكم الديون على نصف عدد السكان تقريبا، أنهى السلطات الرسمية المخولة للطبقة العليا (طبقة الأبويين) وفتح فرص الوظائف والمناصب أمام العامة(٩).

بعد ذلك، كان كتاب مثل "**ديونيسوس- Dionysus**" و"**هاليكارناسوس- Halicarnassus**" يثنون على "ذلك الاعتدال في صراع المراتب الاجتماعية، والذى كان على النقيض من سفك الدماء الثوري الذى عرفته المدن اليونانية"(١٠). إلا أن العامة لم يفيدوا من الانتصار بنفس الدرجة التي كان يفيد بها الطبقات الدنيا في اليونان أحيانا، ولم تصبح روما ديمقراطية على غرار أثينا؛ وكما يشير "**برنت-**

Brunt" فإن طبقة رقيقة فحسب من أغنياء العامة هى التى خرجت بشىء مهم، مع رفع الحظر الذى كان مفروضا على شغلهم المناصب الحكومية[١١]. "النصيب الأكبر من الرقابة الديمقراطية" الذى كان يفترض أنه منح لجماهير العامة، "اتضح أنه كان وهما".

> **"سمح للعامة بتولى المناصب، إلا أن الطبقة العليا من الأبويين، مع تخليها عن احتكار السلطة، احتفظت لنفسها بنصيب منها. نشأت طبقة نبلاء جديدة، سمح لقلة من العامة بأن يكونوا جزءا منها، وسرعان ما أصبحت متنفذة مثلما كانت طبقة الأبويين... ثم كان أن ظهرت مجددا الصراعات الاجتماعية القديمة، ولكن بات من الأكثر صعوبة أن يجد الفقراء مدافعين عنهم بعد أن حقق أغنياء العامة طموحاتهم السياسية[١٢].**

لم تكن تلك المرة الأخيرة فى التاريخ التى يتضح فيها أن مصالح قادة وزعماء صراع ما، مختلفة تماما عن مصالح أتباعهم.

كان أحد العوامل التى أقنعت الفقراء بالإذعان فى هذا السياق، قيام الجمهورية بغزو أراض جديدة. بعض العامة من الأكثر فقرا استقروا فى تلك المناطق لتخف محنتهم لفترة. إلا إن حروب الفتح سرعان ما أدت إلى المزيد من التدهور فى أحوال الفلاحين. معظم غنائم كانت تذهب للأغنياء: "مبالغة طائلة كانت تتدفق من الخارج على قلة من الأيدى فى إيطاليا... الجزء الأكبر كان من نصيب الطبقات العليا والمتوسطة[١٣]. معظمه كان ينفق على الاستهلاك الترفى، ولكن بعضه كان يذهب لزيادة ملكيات الأغنياء الزراعية، ما كان يؤدى إلى ارتفاع سعر الأرض ويشجع المقرضين على الاستيلاء على أراضى الفلاحين المدنيين. فى الوقت نفسه كانت أعداد متزايدة من الفلاحين مجبرة على الاستدانة، حيث كانت تمنعهم فترات التجنيد الإجبارى الطويلة من زراعة أراضيهم لكى يدفعوا القيمة الإيجارية ويسددوا الضرائب.

كتب "سالست– Sallust" عن القرن الأول ق.م يقول:

كان عدد قليل من الرجال يتحكم في كل شيء في السلم والحرب، كانوا يتصرفون في كل شيء: الخزانة، الأقاليم، دوائر القضاء، الأوسمة؛ كان الناس بين سندان الخدمة العسكرية ومطرقة الاحتياج، مغانم الحروب تذهب إلى أيدى القادة العسكريين وقلة أخرى، فى الوقت نفسه كان آباء أو أطفال الجنودة يطردون من منازلهم بواسطة جيرانهم الأغنياء"(١٤).

ولكن، لم يكن ذلك كل شيء، فقد أفرزت الحروب كذلك قوة عمل جديدة هائلة لكى يستغلها الأغنياء، حيث كان يتم استعباد أسرى الحرب؛ فبعد الحرب المقدونية الثالثة، مثلا، بيع نحو **150,000** أسير رقيق(١٥). كان كبار ملاك الأراضى يستطيعون شراء العبيد بأثمان زهيدة ويستخدمونهم لزراعة ضياعهم الكبيرة دون أن يكلفهم ذلك الشيء الكثير، "**عبيد كاتو– Cato**(*)" على سبيل المثال كان يتسلم الواحد منهم سترة قصيرة وبطانية كل سنة، ولم يكونوا يذوقون اللحم"(١٦). كان استخدام فلاح رومانى من المعدمين لديه أسرة يعولها أكثر تكلفة، ولذلك كان من فقدوا أراضيهم يصعب عليهم أن يجدوا شيئا غير العمل الرسمي المؤقت.

زاد عدد السكان من العبيد زيادة كبيرة، ففى القرن الأول ق.م كان هناك نحو مليونين منهم مقارنة بالسكان الأحرار البالغ عددهم نحو **3,25** مليونا، ولكن الأرقام المجردة لا تعبر بدقة عن أهمية العبيد بالنسبة للاقتصاد، حيث إن معظمهم كان من البالغين، بينما يتضمن عدد الأحرار الكثير من الأطفال، كما أن واحدا من كل ثمانية من البالغين كان يمكن أن يكون فى القوات المسلحة فى أى وقت(١٧).

(*) كاتو ماركوس بورسيوس، يعرف بـ"كاتو الأرشد". عسكرى، ورجل دولة رومانى مرموق، وخطيب، وأول كاتب كبير من كتاب النثر اللاتينى. كان لديه عدد كبير من العبيد الذين كان يشتريهم بأبخس الأثمان ويدربهم على بعض الأعمال ثم يبيعهم بأثمان باهظة. كان ينصح من يريد أن يبيع أو يشترى العبيد بأن "كبار السن منهم ينبغى أن يباعوا قبل أن يصبحوا مصدر خسارة لسادتهم". (المترجم)

وإذا كان العبيد قد أصبحوا يمثلون قوة عمل رئيسية أو بالأحرى القوة الرئيسية فى الجمهورية، فإن ذلك لا يعنى أن الكتلة الرئيسية من المواطنين قد أفادت من وجودها. عمل العبيد أدى إلى إفقار العمالة الحرة، كما يدل عليه ركود أعداد السكان الأحرار وربما تناقصها عندما كانت الدولة الرومانية تنتقل من قوة إلى أخرى؛ ويلاحظ "برنت- **Brunt**" كيف "كان الفقراء لا يستطيعون الزواج، وإن تزوجوا لم يكونوا يستطيعون إعالة أبنائهم"، ولذلك كانت الأسرة صغيرة العدد نتيجة الإجهاض ووأد الأطفال، إن لم يكن نتيجة منع الحمل"[١٨]. عدد كبير من الأطفال الذين كان يتخلى عنهم آباؤهم الفقراء، كان ينتهى بهم الأمر فى أسواق الرقيق: "كان إفقار عدد كبير من الإيطاليين نفسه أحد عوامل زيادة استيراد الرقيق"[١٩]، وقد توصل "**إيه. ام. اتش. جونز- A.M.H. Jones**" إلى الاستنتاج نفسه، إذ يقول: "زاد التوسع فى استيراد العبيد من عوز الفلاحين الإيطاليين"[٢٠]. أدى هذا الاستقطاب الطبقى إلى موجة جديدة من الصراعات الأهلية، موجة أكثر دموية من الصدامات السابقة بين العامة – **The Plebians**، والطبقة "الأبوية" الغنية- **The Patricians**.

فاز "**تيبيريوس جراكوس- Tiberius Gracchus**" بعضوية المجلس الشعبى وأصبح تريبونا – **Tribune** فى **133** ق.م. كان "**تيبيريوس**" أرستقراطيا مهموما بفقر جماهير الفلاحين المتزايد، كما كان يشغله بدرجة ما أمن الجمهوريـــة العسكرى. أدرك أن العمود الفقرى الفلاحى للجيش الرومانى كان يتم تدميره ببطء بسبب تدفق العبيد، بينما كانت ثورة عبيد هائلة فى صقلية تلفت الانتباه إلى الأخطار على هذا الطريق لتنظيم الزراعة: "وبالرغم من أنه كان يتحدث بحماسة شديدة وشعور صادق عن محنة الفقراء الذين حاربوا من أجل بلادهم، كانت مصلحة الدولة هى أول ما يشغل تفكيره، وعليه، كان أن قدمها على مصلحة طبقته الخاصة"[٢١].

ومع ذلك أثار برنامجه حماسة الفلاحين الفقراء، وأثار حنق القطاع الرئيسى من الطبقة السيناتورية الغنية. كان هذا البرنامج يتضمن توزيع مساحات كبيرة من

الأراضى العامة التى يزرعها كبار الملاك على الفقراء. تدفق فقراء المناطق الريفية على روما لتأييد هذا الاقتراح وغطوا جدران المدينة باللافتات لضمان تمريره في مجلس الجمهورية، الذى أصاب أعضاءه الفزع. انتظروا إلى أن غادر الفلاحون روما من أجل الحصاد ثم اتخذوا إجراءاتهم. أصر عددا من الأعضاء – السيناتورز – على أن **تيبيريوس** كان بذلك "يخون الدستور" وضربون بالهراوات حتى الموت وأعدموا أتباعه(٢٢).

لم يوقف القمع مشاعر السخط والغضب بين الفلاحين الفقراء، ثم كان أن كرر التاريخ نفسه بعد عشر سنوات. انتخب "**جايوس–Gaius** " شقيق "**تيبيريوس**" تربيونا، وهيمن على السياسة الرومانية على مدى السنوات الثلاث التالية، بدعم من الفلاحين وبعض المؤازرة من أحد المحامين من الأغنياء الجدد **(The equites)**. قام القنصل (كبير القضاة) "**أوبتيموس– Optimus**" بتوزيع السلاح على مؤيدى المجلس **(The Senate)** واستخدم **3000** من المرتزقة من كريت لقتل "**جايوس**" وإعدام نحو **3000** من مؤيديه(٢٣). هكذا كانت التقاليد المجيدة "المتحضرة" لمجلس الشيوخ الروماني.

كان "**الأخوان جراكوس**" محل توقير وإجـــلال من الفقراء الرومـــان الذين اعتبروهما شهداء، وكانوا يقدمون القرابين عند مقابرهما كل يوم، وهكذا يبدو أن الأخوين كانت تدفعهما مشاعر حقيقية تجاه معاناة الجماهير(٢٤). إلا أن برنامجهما كان يستهدف فى صميمه تقوية الدولة الرومانية وتعزيز قدرتها لاستغلال بقية الإمبراطورية؛ كما يبدو أنهما لم يدركا جيدا أن العبودية كانت تضعف قاعدة الاقتصاد فى الوقت الذى تثرى فيه كبار ملاك الأراضى. لم يكن موقفهما على أية حال دعوة للعبيد لكى يحرروا أنفسهم، وقصرت دور الفلاحين الفقراء على أن يكونوا جماعة ضغط فى داخل البنية الدستورية القائمة، كما أن البرنامج لم يتضمن أشياء كثيرة يمكن أن يفيد منها فقراء روما، وكانت النتيجة أن المجلس– **The Senate**– كان عليه أن ينتظر إلى أن يتمكن من التخلص من الأخوين بأكثر الأساليب دموية.

قمع مقتل "**جايوس**" الفقراء، ولكنه لم يمس معاناتهم الطبقية التى لعبت دورا رئيسيا فى تشكيل تاريخ القرن الأول ق.م وتحويل "الجمهورية الرومانية" لتصبح "الإمبراطورية الرومانية"، وكانت تلك المرحلة التى انخرطت فيها زمر مختلفة من داخل الطبقة الحاكمة فى مناورات دموية للسيطرة على النفوذ السياسى والثروة فى المناطق المفتوحة، كما أن استياء وسخط الفقراء من ناحية، والتجاوزات الطبقية للنخبة السيناتورية من ناحية أخرى، كانا يمدونهم بالأسلحة التى يستخدمونها ضد بعضهم البعض؛ ويصف "**سالست– Sallust**" تلك المرحلة التى عاشها بأنها كانت فترة "اضطرابات متكررة ونزاع حزبى ثم حرب أهلية فى آخر الأمر.... كان عدد قليل من الرجال الأقوياء يحاول خلالها أن يحكم تحت قناع المدافعين عن المجلس أو الشعب"[٢٥].

فى **108 ق.م**، أصبح "**ماريوس– Marius**" قنصلا بدعم من الأغنياء الجدد (**The Equites**)، وكان كما يقول "**سالست– Sallust**" "الشخصية المحبوبة والأثيرة لدى كل الحرفيين والصناع البسطاء الذين كانت أيديهم هى كل ثرواتهم[٢٦]. أدت محاولة للدفع بقانون لتوزيع الأراضى إلى صراع حاد: "تصاعد العنف إلى مستوى جديد... كل عناصر المجتمع المحترمة حملت السلاح مع أنصارها"[٢٧]، وأعدم "**ساتورنينوس– Saturninus**" شنقا دون محاكمة، وكان أحد الحلفاء الذين تخلى عنهم "ماريوس". بعد عقدين كان قد جاء دور "**سلبيكوس– Sulpicus**"، وهو حليف آخر لـ"**ماريوس**" لكى يسيطر على روما فترة قصيرة، ليقتل هو الآخر بعد ذلك، عندما احتل المدنية جيش بقيادة "**سولا– Sulla**" بالأصالة عن الأسر السيناتورية الكبيرة، وبعد انسحاب الجيش استعاد المدينة حليف آخر لـ"**ماريوس**" هو "**سينا– Cinna**" ليحكم إيطاليا عامين. كانت السيادة للعنف والدم حيث حاول أن يطوع المجلس لمشيئته؛ وبالرغم من كل وعوده "لم يهتم كثيرا بالحقوق العامة"، ولم يفعل شيئا بخصوص فقر الجماهير المتزايد[٢٨]. عاد "**سولا**" بدعم من طبقة النبلاء، "**سينا**" قتله جنوده، وبدأ عهد من الإرهاب ضد كل من كان قد شارك فى

المقاومة. حتى المنشقين من بين الأغنياء كانوا يتعرضون لمعاناة شديدة عندما أعلن "**سولا**" قوائم بأسماء أشخاص مهدرة دماؤهم، محرومين من حماية القانون، مع مكافآت مالية لمن يقتل أيا منهم. كان من بينهم **40** نائبا **(senators)** و**1600** من الأغنياء الجدد **(equites)**(٢٩). وأخيرا، قام "**كاتالين– Cataline**"، أحد أنصار "**سولا**" السابقين وكان يواجه افلاس، قام فى **64** ق.م بمحاولة لاستعادة ثروته برفع مستوى الثورة الشعبية وتأجيجها، وفى استعراض للقوة ظهر علنا مع حشد من الفلاحين وقدامى المحاربين مع "**سولا**". هذه المرة، كان القنصل (والكاتب) "**شيشرو– Cicero**" [شيشرون] هو الذى اتخـــذ إجراء دمويا حاسما للإبقاء على النظام، وقام مع زمرة من الشباب الأغنياء لإلقاء القبض على زعماء مؤيدى "**كاتالين**" وإعدامهم.

كان تمرد "كاتالين" هو الأخير الذى يقوم على دعوة الفلاحين لحمل السلاح، ولكن السخط على الأغنياء ظل كما هو، والحقيقة أن العدوى بدأت تنتقل إلى فقراء المدينة. كانت أحوالهم المادية متردية وظروفهم المعيشية غير آمنة ويعيشون مضغوطين فى مساكنة بائسة ضيقة معرضة دائما للانهيار أو الحرائق، دون ماء صالح للشرب أو صرف صحى. كان الكثير منهم يسعى للحصول على عمل موسمى مؤقت فى أحواض السفـن فى الصيف، وفى الشتاء كانوا دائما نهبــا للجوع(٣٠). كان بؤس أحوالهم هو الذى منعهم من الانضمام إلى الفلاحين الساخطين فى الماضى، وكانوا فى الغالب يعتمدون على الرشوة التى يقدمها إليهم النواب الأغنياء ولذلك كانوا دائما إلى جانب المجلس فى الاضطرابات؛ أما الآن فقد بدأوا يؤيدون السياسيين أو الطموحين من العسكريين الذين كانوا يعدونهم بالقمح والذرة. أصبح العنف ظاهرة على مدى العقد التالى لهزيمة "كاتالين". أحرق الدهماء مقر مجلس الشيوخ وكانوا يقتلون الأغنياء فى الشوارع فى **52** ق.م، بعد مقتل "كلوديوس– **Clodius**"، السياسى الذى كان يعطى الفقراء الحبوب مجانا.

كانت تلك هى الظروف السياسية والاجتماعية عندما زحف "جوليوس سيزار– **Julius Caesar**" (يوليوس قيصر) بجيشه عبر الحدود الإيطالية ليستولى

على السلطة فى 49 ق.م. فشل الأغنياء السياتوريون فى إدارة الإمبراطورية ولم يتركوها للفقراء وإنما إلى قائد عسكرى غنى ينتمى إلى أسرة أرستقراطية، كان قد قتل أو استعبد مليونا من الناس فى غزوه لـ"الغال- **Gaul**".

شهدت كذلك سنوات الصراعات الاجتماعية بين المواطنين الرومان أكبر ثورات العبيد فى كل العالم القديم، تلك الانتفاضة التى قادها "سبارتاكوس- **Spartacus**".

كانت روما قد عرفت ثورات للعبيد أكثر مما عرفت اليونان، ربما لأن تجمع العبيد كان على نطاق أكبر هناك، كما أن صقلية، مثلا، قد اجتاحتها ثورة للعبيد فى **138-132**، وكانت تضم عشرات الألوف منهم – بعضهم من عبيد الرعى والبعض الآخر من عبيد للزراعة – ولكنهم "وجدوا بعض الدعم من السكان المحليين الأحرار الذين كان يروق لهم أن يشهدوا معاناة الأغنياء"(٣١). والحقيقة أنه بينما كان العبيد يحاولون حفظ النظام على المزارع وأن يزرعوا لأنفسهم، كان الأهالى الأحرار منخرطين فى للسلب والنهب. هذا النموذج تكرر فى **104-101** ق.م.

كانت ثورة "سپارتاكوس" على نطاق أمبر من كل ذلك، وهددت قلب الإمبراطورية الرومانية نفسه. بدأت فى **73** ق.م بهروب **74** من المجالدين. بمرور الوقت انضم إليهم نحو **70,000** من العبيد الذين قهروا الجيوش الرومانية المتوالية وزحفوا على شبه الجزيرة الإيطالية من كل حدب وصوب؛ وفى لحظة ما كانوا يهددون روما، كما هزموا جيشا كان يقوده بعض القناصل. ولكن بدلا من أن يحاول "سپارتاكوس" الاستيلاء على المدينة، زحف إلى أقصى نقطة فى الجنوب الإيطالى على أمل العبور إلى صقلية. تعرضت قواته لخيانة من قراصنة كانوا قد وعدوه بسفن، فحاصر جيش رومانى قواته ومنوه تحركاتهم شمالا مرة أخرى. نجح جزء من جيش العبيد فى الهرب من الفخ الذى نصب لهم ولكنهم لقوا هزيمة مدمـــرة. قـــتل "**سپارتاكـــوس**"، ولم يعثر على جثته(٣٢)، وتم صلـــب **6,000** من أتباعه(٣٣)، وفى رواية لبعض الكتاب الرومان أن مائة ألف من العبيد لقوا حتفهم فى سحق الثورة(٣٤).

ظلت ثورات روما القديمة إلهاما للمدافعين عن المضطهدين على مدى ألفي سنة. احتفى اليسار المتطرف في الثورة الفرنسية (**1789-94**) بالأخوين "**جراكوس**" باعتبارهما نموذجا يحتذى. "**كارل ماركس**" وصف "**سبارتاكوس**" بالشخصية التاريخية المفضلة لديه، كما كان الثوريون الألمان بقيادة "روزا **لوكسمبورج – Rosa Luxemburg**" يطلقون على أنفسهم "**سبارتاكوس بوند – Spartakusbond**" (رابطة سبارتاكوس).

ولكن لا ثورات الفلاحين ولا انتفاضات العبيد نجحت في كسر قبضة كبار ملاك الأراضي على الإمبراطورية الرومانية، أما السبب فكان في طبيعة الطبقات الثائرة نفسها.

كان الفلاحون يستطيعون أن يحتجوا، وربما أن ينتفضوا ضد ابتزاز الأغنياء، كان يمكن أن يتجمعوا حول قادة أغنياء ممكن كان يبدو أن لديهم برامج لإصلاح الدولة، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون أن ينتهوا إلى برنامج سياسي خاص بهم أبعد من الدعوة إلى إعادة توزيع الأرض وإسقاط الديون بهدف إعادة تنظيم المجتمع ككل. كان الفائض الذي ينتجونه أقل مما يمكن أن يحافظ على حضارة على نطاق روما. كان الفائض لا بد من أن يأتي إما من نظام العبودية أو من سلب الإمبراطورية ونهبها. كان الحلم بعودة إلى ماض يعتمد على الفلاحين أمرا طبيعيا، ولكنه لم يكن قابلا للتحقيق.

كانت الجماهير الحضرية، بالمثل، غير قادرة على الإمساك بزمام القيادة في عملية إعادة تنظيم للمجتمع، بل إنهم كانوا حتى أقل أهمية من صغار الفلاحين بالنسبة للإنتاج. كان الأكثر فقرا يعتمدون على العمل العرضي والمؤقت، أما الحرفيون وصناع المواد الترفية فكانوا يعتمدون في حياتهم على إنتاج احتياجات الأغنياء. كان هناك عدد كبير من العبيد في روما، ولكن ظروفهم كانت في الغالب أفضل من ظروف العاملين بالزراعة، وكان كثيرون منهم يأملون أن يلحقوا بالنسبة الكبيرة من سكان العاصمة الذين يحررهم ملاكهم عند تأكدهم من حرصهم على مصالحهم.

وأخيرا، بالرغم من أن عبيد الحضر كانوا مهمين بالنسبة للإنتاج، كانوا يجدون من المستحيل القيام بما هو أكثر من التمرد لصياغة أفكار عن مجتمع مختلف. كانوا يأتون من كل بقاع منطقة البحر الأبيض المتوسط ويتكلمون لغات مختلفة؛ ولأنهم كانوا محرومين من فرصة تكوين أسر، كانت فرصتهم قليلة كذلك فى نقل تقاليد المقاومة من جيل إلى جيل. أسلوب استخدامهم مجمعين فى الإنتاج – مصفدين تحت سوط سيد عليهم – لم يترك نموذجا لإعادة تنظيم المجتمع على أسس مختلفة. بدل ذلك كانت أحلامهم كانت محصورة فى إقامة ممالك جديدة، أو فى الهرب من الإمبراطورية الرومانية إلى الحرية فى أى مكان آخر، كما كان الأمر مع "**سبارتاكوس**". أما لماذا ضيع "**سبارتاكوس**" فرصة محاولة الاستيلاء على روما، فسيظل أحد أسرار التاريخ الكبرى. ربما يكون جزءا من التفسير هو أنه لم يكن قادرا على تصور إعادة تنظيم المجتمع الرومانى، ولم يكن يريد أن ينتهى به الأمر مديرا للنظام القديم لا غير.

الإمبراطورية: الركود والاضمحلال

لم تؤد الاضطرابات والانتفاضات والثورات والحروب الأهلية إلى إعادة تنظيم ثورية للمجتمع، ولكنهـــا غيرت جذريا البنية الفوقية السياسيـــة، التى كان يسيطر من خلالها الأغنياء ملاك الأراضى على باقى المجتمع. أصبح **مجلس الشيوخ– The Senate**– يعتمد على قادة عسكريين وجيوشهم لكى يظل الفقراء مكانهم، إلا أن القائد الأقوى كان هو الذى يستطيع أن يسيطر على المجلس. انتهت الحروب الأهلية على المسائل الاجتماعية لكى تحل محلها حروب أهلية بين قادة عسكـــريين: "**ماريـــوس– Marius**" و"**سينـــا– Cinna**" ضـــد "**سولا– Sulla**"، "**پومپـــى– Pompey**" ضد "**يوليوس قيصـــر– Julius Caesar**"؛ وبعد مـــوت "**قيصر**": "**بروتس– Brutus**" و"**كاسيوس– Cassius**" ضد "**مارك أنتونى– Mark Antony**" و"**أوكتاڤيان– Octavian**" (ابن شقيق **قيصر**)، وأخيرا "**أوكتاڤيان**" ضد "**مارك أنتونى**".

في آخر الأمر، وجد الأغنياء – القدامى والجدد على السواء – أن إفساح المجال لـــ"**أوكتافيان**" (كان قد أصبح اسمه **أوجسطس– Augustus**) لإقامة ملكية أمر واقع، كان السبيل الوحيد لاستعادة الاستقرار السياسي. استطاع "**أوجسطس**" أن يستخدم ذكرى عقود الصراع الاجتماعي لصالحه. وفر الأمان للأغنياء بينما كان يظهر في نفس الوقت في ثوب الصديق لفقراء الحضر في روما بتزويدهم بالذرة بأسعار زهيدة وربما بالمجان – وهو ماكن يمثل نسبة قليلة من الجزية التي كانت تتدفق على روما من الأراضي المفتوحة.

الأباطرة، في حرصهم على عدم إثارة الاضطرابات والتمرد في الأقاليم، شددوا القيود على أبشع صور الاستغلال والتربح الشخصي التي كانت تمارسها النخبة السيناتورية، كما كانوا يلجؤون أحيانا إلى إجراءات غرهابية ضد بعض أبناء الأسر القديمة من ذوي الأفكار المستقلة، بينما يغدقون الثروة والجاه على أبناء بطانتهم.

كانت الأسر القديمة ترى في ذلك اعتداء غاشما على القيم التقليدية؛ كما أن أسماء "**نيرو– Nero**" (نيرون) و"**كاليجولا– Caligula**" مرتبطة منذ ذلك الحين بالإرهاب الجـــزافي والعنـــف غير المبرر، وهنـــاك تراث طويل لخصـــوم الحكـــم الاستبدادي الدكتاتوري، الذين يرون النواب – senators – الذين عارضوا "**قيصـــر**" و"**أوخسطس**" باعتبارهم مدافعين عظاما عن الحرية الإنسانية ضد الاستبداد. كان الزعماء الأوائل للثورة الفرنسية يرتدون "التوجة– Toga" (الثـــوب الرومـــاني الفضفاض) ويعتبـــرون أنفسهم حملـــة إرث "**بروتس– Brutus**". ومع ذلك فإن السلطة الإمبراطورية لم تفعل أكثر من أن تطلق العنان لأعمال همجية ضد قلة من الطبقة الأرستقراطية، وهي نفس الأعمال والإجراءات التي كانت تستخدمها ضد شعـــوب البلاد المفتوحة والعبيد وثوار الطبقـــات الرومانية الدنيـــا؛ أما الحديث الأرستقراطي عن "حريات– libertas"، فكما يشير "**سايم– Syme**": "فلم تكن أكثر من دفاع بعض الأفراد عن النظام القائم... والتمتع بالثروة والنفوذ"[٣٥].

المؤكد أن الفقراء لم يكونوا يعتبرون النواب- **The Senators** مدافعين عن الحرية. يقول "**يوسيفوس- Josephus**"، الذى كان يكتب فى منتصف القرن الأول الميلادى، إنه بينما كان الأغنياء شديدى الاستياء من الأباطرة باعتبارهم "طغاة"، ومن حكمهم باعتباره "قهرا وإذلالا"، كان الفقراء يرون أنهم يكبحون جماح "جشع" **مجلس الشيوخ- The Senate**"[٣٦]. ربما تكون ديماجوجية "قيصر" وخلفائه والقمح أو الذرة الرخيصة قد ضللت الفقراء، إلا أنهم كان لديهم من الأسباب السليمة ما يجعلهم يكرهون الطبقة السيناتورية؛ فقد كانت تلك الطبقة، هى التى سفكت دم كل من قام مطالبا بحقوقه. "**شيشرو- Cicero**" (شيشرون)، الذى يعتبر عادة نموذجا للفضائل المدنية للطبقة السيناتورية، كان قد نظم مثل تلك الجرائم الوحشية، وكان يشير إلى فقراء روما بــ"القذر والروث" وبــ"الغوغاء الجياع" وبــ"حثالة المدينة"، وبــ"الأشرار" عندما كانوا يبدون أى ميول راديكالية[٣٧].

برغم كل رطانتهم عن "الحرية" لم يكن الأغنياء يستطيعون المضى بدون إمبراطور يحافظ على بقاء الإمبراطورية متماسكة، وعلى الفقراء فى مكانهم. بعد "**أوجسطس**"، سوف يتواطأ الأغنياء أحيانا للإطاحة بإمبراطور أو آخر، غير أن البديل لم يكن جمهورية جديدة... كان البديل إمبراطورا آخر... وليس أكثر[٣٨]. ما حدث هو أن الأغنياء انتعشوا اقتصاديا على مدى القرنين الأولين من حكم الأباطرة، وربما أكثر مما كان فى الماضى. هذه الفترة (التى يطلق عليها المؤرخون أحيانا "**The Principate**"- تمييزا لها عن "الإمبراطورية الرومانية" فيما بعد)، شهدت تدفقا كبيرا للسلع الترفية من الشرق مثل الحرير والتوابل والأحجار الكريمة، وانتشار الضياع الكبيرة فى كل إيطاليا وفى بعض الأقاليم، كما شهدت تدفقات إيجارية هائلة على الطبقة السيناتورية[٣٩].

لم تكن الثروة مقصورة على الأغنياء الرومان، إذ كان لأغنياء الأقاليم كذلك نصيب فيها، الأمر الذى كان يؤدى إلى اندماجهم جميعا ليكونوا معا طبقة: حاكمة متميزة: "كانت المجتمعات الإقليمية منتعشة أكثر مما كانت فى ظل الجمهورية"[٤٠]، حيث كانوا يدفعون الضرائب بنفس المعدل مثل ملاك الأراضى الأغنياء[٤١].

ونتيجة للأمان الذى ساد والثروة التى زادت لدى أغنياء الأقاليم، ظهرت هناك ثقافة باتساع الإمبراطورية تقوم على نحل دينية مشتركة (بما فى ذلك عبادة الإمبراطور)، وألعاب احتفالية، ولغات (اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق) والأدب. كانت تلك الفترة التى أعيد فيها بناء المدن ببذخ شديد فى أرجاء الإمبراطورية، "مع معابد لعبادة الآلهة ومسارح وملاعب وساحات مدرجة وصالات للألعاب وحمامات وأسواق وقنوات مائية ونافورات، بالإضافة إلى قاعات للعدالة ومجالس ومكاتب للقضاة. كانت المدن تباهى بمبانيها وتتنافس فيما بينها فى جماليات العمارة وتمد الطرق المعبدة المزينة بالأعمدة وأقواس النصر"(٤٢).

فى قادم القرون سيعرف الناس ذلك كله بـــ"العصر الذهبى" للإمبراطورية، ويكتب "**جيبون**– **Gibbon**":

> **"لو طلب من امرئ أن يعين تلك الفترة فى تاريخ العالم التى كانت فيها ظروف الجنس البشرى أسعد ما تكون وأكثرها رغدا، فلن يتردد فى تحديدها بتلك التى كانت بين موت "دوميتيان– Domitian" وتولى "كومودوس– Commodus" السلطة (من 98:180)"(٤٣).**

غير أن ذلك الاستقرار المفروض مـــن أعلى كان، مثل الجمهورية التى سبقته، يعتمد على سلب ونهب الفلاحين وإخضاع العبيد. ربما تكون الإمبراطورية قد نظمت تلك الممارسات، ولكنها لم تستأصلها. صورة الحياة فى الإمبراطورية التى ترسمها رواية القرن الثانى الساخرة "**الجحش الذهبى**– **The Golden Ass**"، التى كتبهـــا "**أبوليوس**– **Apuleius**" مختلفة تماما عن رواية "**جيبون**". "**الجحش الذهبى**" تصف ظروف العبيد الذين كانوا يعملون لدى أحد الخبازين على النحـــو التالى:

> **"كانت بشرتهم كلها مخططة بندوب مزرقة من أثر السياط، وعلى ظهورهم آثار الجلد المكسوة بقشور أكثر مما هى بأسمال ورقع، بعضها لم يكن عليه غطاء أكثر من قطعة من مئزر، والقمصان خرق بالية ممزقة تظهر أجسادهم من خلالها، وكان للأصفاد**

الحديدية في أقدامهم صليل تسمعه الأذن، أما الوجوه فكانت شاحبة ومروعة"(٤٤).

يروى "**أبوليوس**" كيف أن "مالك الأرض الغنى... القوى... لم يكن يستدعى لكى يحاسب" قانونيا على اعتداءاته المتكررة على جار فقير – بقتل ماشيته وسرقة ثيرانه وتخريب زرعه واستخدام عصابة من قطاع الطرق لطرده عنوة من أرضه"(٤٥).

لم يكن ذلك العالم الذى يتهكم عليه "**أبوليوس**" عالم رخاء أو سعادة، وإنما كان عالم ظلم لا يشعر فيه أحد بالأمان، عالم تعقيب وسرقة وقتل.

ربما كانت تبدو الإمبراطورية مستقرة، ولكن مشكلات قاع المجتمع كانت بلا حل، كان الاقتصاد ريفيا فى معظمه، وكانت الطبقة الحاكمة وحضارتها مركزة فى المدن: "كان للتجارة والصناعات دور محدود فى الاقتصاد. كانت الزراعة هى النشاط الرئيسى وكان أغلبية السكان المزارعين، كما كان ريع الإيجار هو المصدر الرئيسى لثروة الطبقات العليا". كان عائد الزراعة أكثر عشرين مرة من عائد التجارة والصناعة(٤٦).

كان هناك عدد قليل من المدن التى لعبت فيها التجارة أو الصناعات دورا بالغ الأهمية، ويصدق ذلك على الإسكندرية التى كان يمر عن طريقها القمح المصرى متجها إلى إيطاليا والسلع الترفية من الجزيرة العربية، ومن الهند بحرا. هنا كان أن قامت صناعات بشكل كبير – صناعة الزجاج، نسج وتصنيع البردى – كما حقق بعض التجار ثروة طائلة(٤٧). ولكن معظم المدن كانت مراكز لإدارة واستهلاك الطبقة الحاكمة وليس للتجارة والصناعة. الطرق التى أنشئت لأهداف عسكرية لم تكن مناسبة لنقل الحمولات الثقيلة – على خلاف القنوات والطرق التى كان يتم إنشاؤها فى الصين آنذاك – ولذلك كان نقل البضائع برا بطيئا جدا ومكلفا، إذ كانت رحلة طولها **300** ميل، على سبيل المثال يمكن أن تضاعف ثمن القمح. كانت تجارة المسافات الطويلة مقصورة على السلع الترفية الغالية، كما كانت المدن الداخلية – غير الساحلية – تعتمد على المناطق المحيطة وصناعها لإمدادها بجزء كبير من احتياجاتها التموينية.

كانت المدن عالة على الاقتصاد الريفى أكثر منها مصدرا للابتكار الذى يمكن أن يضاعف الإنتاجية، وكان كبار ملاك الأراضى المقيمون فى المدن يعملون على زيادة دخولهم عن طريق الضغط على الفلاحين وابتزازهم، وليس عن طريق الاستثمار فى أدوات جديدة وتحسين الأراضى. لم يكن لدى جماعات العبيد الذين يزرعون معظم الأراضى فى بعض المناطق، وبخاصة فى إيطاليا، أى دافع لاستخدام أساليب أكثر إنتاجية، كما كانت الفرصة لذلك قليلة، بالرغم من أنهم كانوا يستطيعون أحيانا الإفادة من أساليب أكثر تقدما مستخدمة فى منطقة أو أخرى من الإمبراطورية. كما لم يكن حافز اصحاب الأراضى التى يعملون فيها قويا، حيث إن أى زيادة فى الإنتاج كان من المرجح أن تؤخذ منهم كقيمة إيجارية للمالك الكبير أو كضرائب للدولة، وعليه فإن تقدم أساليب الإنتاج كان محدودا. كان استخدام الابتكارات الموفرة للجهد بطيئا جدا، فالساقية التى عرفت لأول مرة فى 25 ق.م، ظل استخدامها نادرا لمدة قرنين، وذلك لأن الطواحين التى تستخدم فيها الحمير، أو حتى البشر، كانت مناسبة لعمل العبيد(٤٨)– على عكس الانتشار الكبير لطواحين الماء فى الصين فى الفترة نفسها.

طوال الوقت، كان ما يضعف القوة الاقتصادية للإمبراطورية، هو العامل نفسه الذى كان بالغ الأهمية فى البداية – العبيد. بدأ تدفق العبيد يقل مع انتهاء حروب الغزو التى كانت سببا فى ظهور الإمبراطورية، وأصبحت تكلفة العبيد باهظة، وكان لا بد من أن يصبح ملاك الأراضى أكثر قلقا على حياة "ممتلكاتهم". البعض اتجه إلى "استيلاد" جيل جديد من العبيد، ولكن ذلك كان يعنى القلق أيضا بشأن إحالة أمهات "غير منتجات" وأطفال، وهو ما يقلل الميزة التى كانت لاستخدام العبيد بدلا من قوة العمل الحر، وهى قلة التكلفة. آخرون وجدوا أن الأرخص والأسهل هو تأجير أراضيهم بمبالغ كبيرة، كملكيات صغيرة لمستأجرين لن يكونوا فى حاجة للإشراف عليهم ويتحملون تكلفة إعالة أسرهم؛ وهكذا بدأت تقل أهمية العبودية.

كانت النتيجة كالتالى: بينما بقيت تكلفة الإبقاء على الاستهلاك الترفى للأغنياء والحفاظ على الإمبراطورية كبيرة كما كانت دائما، لم يعد الفائض الزائد

الذى كانت توفره العبودية فى ظل الجمهورية موجودا؛ وكانت الطبقة الحاكمة لا تستطيع الاستمرار مثلما كانت فى السابق إلا بالمزيد من الضغط على الفلاحين، ومضاعفة الاستغلال الذى كان بالفعل قد در حياة الفلاحين. الضرائب التى كانت تمثل نحو **10%** من إنتاج أسرة الفلاح فى عهد الجمهورية وصلت إلى الثلث بحلول القرن السادس(٤٩)، وفوق ذلك كان على الفلاحين أن يدفعوا القيمة الإيجارية لملاك الأراضى.

ويلفت "**سانت كروا– Ste Crois**" الانتباه إلى أن السجلات الرومانية من أواخر القرن الثانى الميلادى وبعده، تشير إلى "اضطرابات وقلاقل" فى أقاليم مختلفة من الجمهورية – كانت تصل أحيانا إلى انتفاضات فلاحية شاملة، وأحيانا كانت عبارة عن عمليات قطع الطرق متزايدة، كان يقوم بها فارون من الجيش وفقراء ضربهم الفقر وعبيد هاربون؛ ومن **284**م إلى منتصف القرن الخامس، كانت هناك تقارير متكررة ثورات وأعمال تمرد فلاحية فى "الغال– **Gaul**" وإسبانيا.

لا نعرف كما كانت تلك الثورات والأعمال مهمة أو مؤثرة، ولكن المؤكد أنهـا كانت أعراض لانتشـار الفقر والسخط وعدم الشعـور بالأمان، وبخاصة فى المناطق الحدودية للإمبراطورية؛ كما كانت هناك مؤشرات أخرى فى غيرها مثل هجر الفلاحين لأراضيهم التى كان العمل فيها لا يكفى لتسديد القيمة الإيجارية والضرائب؛ ثم كان أن أصدرت الدولة تشريعا يربط المزارعين بالأرض أو بملاك بعينهم فيما يشبه القنانة، إلا أن مثل هذا الإخضاع القانونى لم يكن سببا كافيا يجعلهم يساندون الإمبراطورية ضد الاعتداءات والإغارات "البربرية".

أصبحت تلك الاعتداءات والإغارات متكررة وبات التصدى لها مكلفا، وأصبح الأباطرة أكثر اعتمادا على جيوش من المرتزقة، ضخمة وباهظة التكلفة – وصلت إلى **650,000** جنديل فى القرن الرابع الميلادى(٥٠). كانت هذه التكلفة عبئا جديدا على الفلاحين، ما أدى إلى المزيد من السخط وهجرة الأرض؛ وفى الوقت نفسه أصبح القادة العسكريون أكثر تطلعا ورغبة فى الاستيلاء على الحكم باستخدام

تلك الجيوش؛ وبينما أضعفت الحروب الأهلية الإمبراطورية، كانت القوات المتمردة تنهب روما نفسها.

دخلت الإمبراطورية دورة من الاضمحلال فى الغرب. تعددت عمليات الاستيلاء على السلطة بالقوة المسلحة، وأصبحت الاعتداءات والإغارات البربرية أكثر جسارة. فى **330** م. انتقل مركز الإمبراطورية من إيطاليا إلى مدينة بيزنطة التى كانت تتكلم اليونانية، حيث وجد الحكام أن من الصعب عليهم السيطرة على الغرب من هناك، وسرعان ما كان أباطرة متنافسون يحكمون كل جزء. فى نفس الوقت خرجت أطراف الإمبراطورية، مثل بريطانيا، من تحت السيطرة الرومانية، وسعى الأباطرة للاحتفاظ بالباقى برشوة الشعوب البربرية – **Barbarian** – (كانوا عادة من الجرمان) الذين كانوا مستقرين على الحدود؛ ولكن قادة "البرابرة" عندما أصبحوا رومانيين، كانوا بدورهم يتطلعون إلى سلطة الحكام الرومان، ولجأوا إلى الغزو – الأسلوب الرومانى التقليدى ذاته – لتحقيق ذلك. زحف القوطى "**الاريك– Alarick**" بقواته لينهب روما بعد الاستيلاء عليها. استولى الفرنجى "**كلوفيس– Clovis**" على "الغال". أعلن **القوطى الشرقى "تيودوريك– Theodoric**" نفسه إمبراطورا على روما، وأسس القوط الغربيون مملكة ذات طابع رومانى فى إسبانيا.

امتدت دائرة الاضمحلال المفرغة لتشمل سبل معيشة الناس. جرت الحروب والحروب الأهلية الخراب على الزراعة وتدهورت التجارة عندما أصبح التجار يخشون المجازفة بالاتجار مع المدن البعيدة. أصبحت الضرائب والقيم الإيجارية تؤدى سلعا أكثر منها نقدا بعد أن أصبحت تعتمد على الجباية المباشرة لتأمين احتياجاتها واحتياجات مستخدميها، ما أدى إلى المزيد من تدهور التجارة وأوضاع التجار والصناع، كما بدأت المدن تواجه مشكلات تأمين احتياجاتها عندما ارتدت البلدات والقرى للاعتماد على مواردها. لم يكن هناك أى حماية للمنتجين الزراعيين ضد ملاك الأراضى الأغنياء الذين بدأوا يمارسون سلطة سياسية وعسكرية مباشرة عليهم؛ وكان دفع الإتاوات لأى متنمر مأجور بغرض الحماية هو الوسيلة الوحيدة

غالبا لصد إغارات السلب والنهب من الغرباء، وكان ذلك أسلوبا متبعا بين الشعوب القبلية من الشمال والغرب، التى استقرت ضمن الإمبراطورية.

باختصار، أفسح اقتصاد الإمبراطورية المتكامل فى الغرب، والذى كان قائما على **العبودية**، أفسح المجال لاقتصاد وحدات ريفية محلية مستقلة تقريبا، يقوم على **القنانة– Serfdom**. لم تختف العبودية تماما. بقى استخدام العبيد كقوة عمل حتى العام **1000**م، وذلك فى بعض الملكيات الزراعية الكبيرة[٥١]، حيث كان الملاك مضطرين للعيش فى مزارعهم الكبيرة. نتيجة تدهور الحياة فى البلدات والمدن، فرصة أكبر للاستيلاء على أكبر قدر من الفائض من الفلاحين؛ ولكن ذلك لم يكن كافيا للحفاظ على حضارة إمبراطورية، كما كان الأمر فى السابق. سرعان ما أخفقت كل المحاولات لتحقيق ذلك، بإعادة توحيد الإمبراطوريتين الشرقية والغربية لفترة قصيرة تحت "**جستنيان– Justinian**" فى منتصف القرن السادس وتأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة **The Holy Roman Empire...** بواسطة "**شارلمان– Charlemagne**" بعد نحو **250** سنة تقريبا. لم تكن القاعدة المادية قوية بما يكفى، لحمل مثل تلك البنية الفوقية القوية.

الهوامش

(1) E. Gibbon, 'The Decline and Fall of the Roman Empire", London, 1920), p.1.

(2) G.E.M. De Ste Croix, "Class Struggle", p.328.

(3) P.A. Brunt, "Social Conflicts in the Roman Republic", (London, 1971) p.28.

(4) Sallust, "The Histories", vol.1 (Oxford, 1992), p.24.

(5) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.51.

(6) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.51.

(7) G.E.M. De Ste Croix, "Class Struggle", p.334.

(8) G.E.M. De Ste Croix, "Class Struggles", p.335.

(٩) كما ورد في P.A.Brunt في: "Social Conflicts", p.87

(10) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.58.

(11) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.58.

(12) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.58.

(13) A.H.M. Jones "The Roman Republic", (London, 1974) p.116.

(١٤) اقتباس لـــ "P.A.Brunt" في: "Social Conflicts", p.15

(15) A.H.M. Jones "The Roman Republic", p.122.

(16) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.33.

(17) P.A. Brunt, "Italian Manpower, 225 BC-AD 14 (Oxford, 1971).

(18) P.A. Brunt, "Italian Manpower", p.9.

(19) P.A. Brunt, "Italian Manpower", p.9.

(20) A.H.M. Jones "The Roman Economy", p.123.

(21) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.78.

(٢٢) للتفاصيل في:

- P.A. Brunt, "Social Conflicts".
- A. Lintott, "Political History".
- J.A. Cook, A.Lintott and Gawson (eAs) 'Cambridge Ancient History", vol.IX, (Cambridge, 1986), p.69.

(٢٣) مرة أخرى، يمكن أن تجد بعض التفاصيل عما حدث في:

- P.A.Brunt, "Social Conflicts", pp.83-92;
- A.Lintott, "Political History", p.77-84.

(٢٤) حسب ما جاء في: P.A.Brunt, "Social Conflicts", p.92

(25) Sallust, "The Histories", vol.1, p.25.

(٢٦) كما جاء في : P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.96

(27) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.98.

(28) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.104.

(29) P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.197.

(٣٠) انظر تقريرا عن ظروفهم في:

- P.A. Brunt, "Social Conflicts", p.128.

(31) A.Lintott, "The Roman Empire", in J.A. Cook, A.Lintott and G.Eawson (eds), "Cambrigde Ancient History", vol.IX, pp.25-26.

(٣٢) فيلم "سپارتاكوس" الرائع، بطولة "كيرك دوجلاس" يعطى مسحة شعرية للحدث بتصويره مصلوبا.

(٣٣) تفاصيل من: A.Lintott, "Political History", pp.221-223

(٣٤) الرقم الذى نقله G.E.M. De ste Croix –عن ليفى Livy– "Class Struggles" p.230.

(35) G.E.M. De ste Croix, "Class Stuggles" p.368.

(٣٦) المصدر السابق – صفحة 368.

(٣٧) المصدر السابق – صفحة – 355.

(٣٨) لم يستغرق الأمر أكثر من ساعتين للتخلى عن محاولتهم إعادة تأسيس الجمهورية قبل صعود "كلوديوس".

(٣٩) كما جاء في:

A.H.M. Jones "The Roman Republic", p.124.

(٤٠) المصدر السابق – صفحة – 127.

(٤١) المصدر السابق – صفحة – 127.

(٤٢) المصدر السابق – صفحة – 24.

(43) E. Gibbon, 'Decline and Fall", vol.1 p.89.

(44) Apuleius, "The Golden Ass"- Translated by Jack Lindsay (London 1960), p.192.

(٤٥) المصدر السابق – ص: 206-208.

(46) A.H.M. Jones "The Roman Economy", p.36.

(٤٧) المصدر السابق– ص: 39.

(٤٨) انظر للمزيد:

L.A. Moritz, "Grain Mills and Flour in Classical Antiquity", (Oxford, 1958).

وعلى نحو خاص الصفحات: 131, 136, 138 and 143

(٤٩) تقديرات A.H.M. Jones في: "The Roman Economy", p.83

(50) A.M. Jones, "The Roman Economy", p.129.

(٥١) انظر

G.Bois, 'The Transformation of the Year 1000", (Manchester, 1992).

-٦-

قيـــام الـمسيـحيـة

لم ينج من أزمة الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد سنة **400**، سوى شيء واحد كبير، وهو "الدين" الذى كان قد نشأ من بدايات صغيرة على مدى القرون السابقة، ليصبح الأيديولوچية الرسمية للإمبراطورية، ونعنى به "**المسيحية– Christianity**". وقت الغزوات "البربرية"، كان لكل بلدة من بلدان الإمبراطورية كنيستها وكهنتها، ولكل مقاطعة أسقفها، وكانت كلها منظمة فى تراتبية مركزها فى روما وبيزنطة، حيث كانت تتداخل سلطة الكنيسة وسلطة الإمبراطورية، فى وجود أباطرة يحددون النقاط الدقيقة فى عقيدة الكنيسة.

لم تكن "**المسيحية**" قد بدأت باعتبارها أيديولوچية لإمبراطورية، ونحن لا نعــرف شيئا، تقريبا، عن "**يسوع الناصرى– Jesus of Nazareth**"، مؤسسهـا المفترض، كما لا يوجد دليل محدد على ما إذا كان شخصية تاريخية أكثر منهـا أسطورية؛ والدليل، بالتأكيد، لن يكون فى "**العهد الجديد**" المسيحى، الذى يدعى أن ميلاده كان فى "بيت لحم– **Bethlehem**" فى إقليم "يهودا– **Judaea**" الــرومانى، حيث كانت عائلته من بين إحصاء للسكان تم فى عهد "**أوجسطس– Augustus**"؛ والحقيقة أنه لم يكن هناك أى إحصاء سكانى فى الفترة المذكورة، كما لم تكن "يهودا" إقليما رومانيا فى ذلك الوقت؛ وعندما أجرى إحصاء فى العام السابع الميلادى، لم يكن مطلوبا ألا ينتقل أحد من مكان إقامته. "**العهد الجديد**" بالمثل، يحدد ميلاد "**يسوع**" بأنه كان فى زمن "**الملك هيرود– King Herod**"، الذى مات العام الرابع ق.م. ليس هناك أى ذكر لــ"يسوع" عند كتاب تلك الفترة من الرومان واليونانيين، والمؤكد أن الإشارة المفترضة إليه، بواسطة الكاتب الرومانــى –

اليهودى "**يوسيفوس**- **Josephus**" ليست سوى من وحى خيال رهبان العصور الوسطى[١]. حتى أول إشارة موثقة إلى "مسيحيين"، فى كتابة "**تاكيتوس**- **Tacitus**" فى سنة **100**م تقريبا، لا تذكر "**يسوع**" بالاسم، بل يستخدم الكلمة اليونانية "**كريستوس**- **Christos**" التى كانت مستخدمة لأى "**مسيح**- **messiah**" مفترض.

معرفتنا كذلك قليلة عن معتقدات المسيحين الأول، مثلما هى عن حياة المؤسس المفترض للمسيحية. أناجيل "**العهد الجديد**" مليئة بالروايات المتناقضة؛ فى بعض المواضع، وفى "إنجيل لوقا" بخاصة نجد تعبيرات قوية عن الكره الكبقى، فالرجل الغنى على سبيل المثال، يذهب مباشرة إلى النار، بينما يذهب "**لازاروس**- **Lazarus**"، الرجل الفقير، إلى "حضن **أبراهام**"[٢]. "**يسوع**" يعظ: "فمرور الجمل فى ثقب الإبرة أسهل من دخول الغنى إلى ملكوت الله"[٣]، وتقول صيغة "**لوقا**" لموعظة الجبل "هنيئا لكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله. هنيئا لكم أيها الجياع لأنكم ستشبعون.... لكن الويل لكم أيها الأغنياء لأنكم نلتم عزاءكم، الويل لكم أيها الذين يشبعون الآن لأنكم ستجوعون"[٤]. على النقيض من ذلك، نجد الرسالة فى مكان آخر، رسالة تصالح بين الأغنياء والفقراء، ففى "**إنجيل متى**" يعظ "**يسوع**": "هنيئا للمساكين **فى الروح** لأن لهم ملكوت السماوات... هنيئا للجياع والعطاش **إلى الحق** لأنهم يشبعون"[٥]. مَثَ وزنات الفضة يوحى بأن الرجل الغنى يستحق المديح لمكافأته خادما يُعْطَى ثلاث وزنات ويستثمرها للربح، بينما يعاقب خادما ليس لديه سوى وزنة واحدة، ولا يستطيع أن يجنى فائدة بإقراضها صرافا. المَثَل يحذر: "ومن لا شىء له، يؤخذ منه حتى الذى له"[٦].

وهناك كذلك فقرات تبدو محرضة على مقاومة الحكام الموجودين، وفقرات أخرى تشجع على الإذعان والخضوع لهم – مثلما نجد فى دعوة "**يسوع**" الناس لدفع الضرائب للرومان: "قال لهم: لمن هذه الصورة وهذا الاسم؟ قالوا: للقيصر، فقال لهم: "ادفعوا إذا إلى القيصر ما للقيصر وإلى الله ما لله"[٧]. وهناك، أخيرا، مقاطع تدعو لطاعة أحكام العقيدة اليهودية "الشريعة"، ومقاطع أخرى تحث على خرقها.

في عمله الماركسي الكلاسيكي "أسس المسيحية- Foundations of Christianity"، الصادر قبل **90** عاما تقريبا، كان "**كارل كاوتسكي**- **Karl Kautsky**" يــرى أن التناقض نشأ عن محاولات كتاب مسيحيين متأخرين التقليل من أهمية ما وصفه بالأفكار "الشيوعية" لجماعة "بروليتارية"، إلا أن بعض حجج "كاوتسكي" بهذا الصدد محل شك(٨). ومع ذلك، فإن "روح" الكثير من الأجزاء في الأناجيل الأولى "**متى ولوقا**"، هي "روح" تمرد ضد الإمبراطورية التي تبنت الدين فيما بعد.

كانت "أورشليم- **Jerusalem**" واحدة من أكبر مدن الإمبراطورية الرومانية في النصف الأول من القرن الأول - يصفها "**بليني الأكبر**- **Pliny The Elder**" بأنها كانت "أجمل مدن الشرق قاطبة". إلا أنها كانت كذلك من أكثرها اضطرابا. كانت عظمتها راجعة لقربها من خطوط التجارة المهمة، ثم فيما بعد، باعتبارها مركزا دينيــا يجذب الثروة من أرجاء الإمبراطورية، أما المناطق المحيطة بهــا - يهودا، والسامرة- **Samaria**، والجليل- **Galilee**، فكانت أبعد ما تكون عن الثراء. كانت، مثل سائر الأقاليم الرومانية، تعاني من الضرائب الباهظة المطلوبة لدفع الجزية لروما، ولكي تضيف إلى ثروات الحكام الرومان. كانت هناك دلائل... كثيرة على الفقر"(٩).

أدى كل ذلك إلى ضغائن وأحقاد ضد الرومان وضد طبقة عليا يهودية متعاونة معهم، وكان الملوك اليهود بالرغم من ذلك، هم الذين جاؤوا بالرومان (في **139** ق.م)، ومنذ ذلك الحين كانوا يعتمدون على مساعدتهم لهم في حروبهم المدمرة ضد بعضهم بعضا(١٠).

كانت هناك اضطرابات وأعمال شغب متكررة في أورشليم، وعمليات قطع طرق تترى في المناطق الريفية وبخاصة "الجليل"، وكانت تلك الأعمال تتخذ أحيانا شكلا دينيا؛ من ذلك أنه كانت هناك فتنة إبان احتضار الملك "**هيرود**"، ويقال: إن **3000** يهودي لقوا حتفهم عندما تصدى ابنه "**أركيلوس**- **Archelaus**" لإخماد انتفاضة، مع صلب ألفين آخرين؛ كما كانت هناك حرب عصابات في ريف الجليل

بزعامة شخص اسمه "**يهوذا**– **Judas**"، أطلق على نفسه اسم "ملك اليهود"؛ وفى وقت إحصاء السكان الرومانى سنة 7م، قام شخصان "بتحريض الناس على الثورة... وكان ذلك إيذانا بسفط دماء واسع"، كما يقول "**يوسيفوس**"[١١]. ثم بعد 40 عاما، أعلن النبى "**تيودوس**– **Theudus**" نفسه مسيحا (**كريستوس Christos** باليونانية) فقطعوا رأسه. بالأسلوب نفسه، تعامل الحكام الرومان مع "زمرة من الأشرار من ذوى الأفكار الكافرة الذين أثاروا القلق والشعور بعدم الأمان فى المدينة" وكانوا "يحرضون الناس على العصيان... بذريعة وحى إلهى". بعد ذلك بوقت قصير "بنى كاذب من مصر.... نجح فى أن يجعل نفسه مقبولا باعتباره نبيا بسبب سحره. قاد **30,000** شخص... من الصحراء إلى ما يسمى "جبل الزيتون"، لكى ينفذ إلى أورشليم، وحاول الإطاحة بالحامية الرومانية"[١٢]، وبمجرد إخماد هذا التمرد، اتحد عدد قليل من السحرة والقتلة وجمعوا عددا كبيرا من الأنصار.... طافوا كل الأراضى اليهودية يسرقون وينهبون بيوت الأغنياء، يقتلون من فيها، يشعلون الحرائق فى القرى ويغيرون على الأراضى"[١٣]. فى كل تلك الصدامات، كان الحقد الطبقى بين فقراء اليهود فى الطبقة العليا اليهودية، يندمج مع الحقد على قوات الاحتلال الرومانى.

كانت الفوارق الطبقية تجد تعبيرا لها فى التفسيرات المختلفة للدين اليهودى. الأغنياء الذين كانوا يتكلمون اليونانية ويتعاونون مع الرومان كانوا يميلون إلى الانحياز للمدرسة "**الصدوقية**"– **Sadducee School**– المرتبطة بالكهنة الوراثيين – **Heridatary Priests** – الذين يقول عنهم "**يوسيفوس**": "ينكرون خلود الأرواح ووجود أى ثواب أو عقاب بعد الموت" وأن يكونوا "غلاظا وقساة مع أقرانهم من المواطنين مثلما هم مع الغرباء". على النقيض من ذلك، فإن علماء الدين غير الوراثيين، الذين جاؤوا من أرضية اجتماعية مختلفة[١٤]، كانوا يميلون إلى الانحياز للمدرسة "**الفريسية**"– **Pharisee School**، وكان أولئك متمسكين بالالتزام الصارم بالشريعة اليهودية – **The Jewish Law** – (**طقوس وقواعد العهد القديم الوراثية**)،

ويعترضون على تعاون الطبقة العليا مع الرومان، ويرون أن "الروح... خالدة... وأن أرواح الخيرين ستحل فى أجساد جديدة، بينما أرواح الأشرار سوف تعذب بمعاناة أبدية"[١٥]. أما المدرسة الثالثة، وهى مدرسة "**الإسينيين**"- **The Essenes School**- فحاولت الهرب مما كانت تعتبره "شرور المجتمع"، بإنشاء مجتمعات لها طابع الأديرة، فى المناطق الريفية حيث يعيشون دون ملكيات خاصة. كانوا، كذلك، يرفضـــون العبودية باعتبارهـــا ظلما - وهو موقف أكثـــر راديكالية من مـــوقف المسيحيين. وأخيرا، كان هناك "**الزيلوت- The Zealots**" (المتشددون المتعصبون)، الذين جمعوا بين العقيدة اليهودية والتهييج السياسى ضد الوجود الرومانى.

كانت أورشليم إذا مرجلا لأفكار ومفاهيم دينية تعبر عن مشاعر وتوجهات مختلفة تجاه الحكم الرومانى خلال الفترة التى يقال: إن "يسوع كان يبشر فيها، إلا أن ذلك لم يكن كل شيء. كان لدينه مناصرون فى كل مدينة كبيرة من مدن الإمبراطورية، وعليه فقد كان للحجج الذهبية أصداء فى كل مكان، حيث كان اليهود منذ وقت طويل لم يعودوا مجرد شعب يعيش فى بقعة صغيرة. كان الغزاة "الأشوريون- **Assirian**" و"البابليون"- **Babylonian**- قد رحلوا الطبقات الحاكمة للدول اليهودية فى إسرائيل ويهودا إلى بلاد ما بين النهرين قبل خمسمائة عام، ولم يكن كثيرون منهم قد عادوا عندما استعاد الإمبراطور الفارسى "**أحشويرش- Xerxes**" أورشليم لهم، ولكنهم كانوا سعداء بحياتهم الاقتصادية المنتعشة فى مواطنهم الجديدة. كانت أعداد كبيرة من اليهود الآخرين قد غادرت فلسطين للاستقرار فى أماكن أخرى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، للسبب نفسه الذى جعل الكثير من اليونانيين يستقرون فى ما وراء البحار- سعيا وراء حياة أفضل مما كان يمكن أن توفرها لهم أرض قليلة الخصوبة كانت وطنا لهم ذات يوم. كان هناك آخرون من القيمين رغما عنهم - وهم أسرى الحروب التى اكتنفت المنطقة، وانتهى بهم الأمر إلى حيث أخذهم سادتهم.

مع بداية القرن الأول الميلادى كان قد أصبح هناك تجمعات سكانية يهودية كبيـــرة فى كل مدينة رومانية تقريبا، "تتراوح مـــا بين **15:10%** من إجمالـــى

سكانها"[١٦]. كان اليهود يمثلون نسبة كبيرة من أهل الإسكندرية، وهكذا كانت تلك المدينة الرومانية فى مصر، مدينة يهودية في الوقت نفسه. كان لهم، كذلك، وجود لافت للنظر في روما، للدرجة التى تجعل "**يوليوس قيصر**- **Julius Caesar**" يخطب ودهم.

احتفظ يهود ذلك الشتات- **diaspora** - بهوية، باعتبارهم جماعة اجتماعية مختلفة من خلال إيمانهم الدينى بإله واحد "لا يتجزأ" وقواعدهم الخاصة بالطعام، والتقيد بيوم للراحة، وقد منعتهم تلك العادات من الانصهار مع غيرهم ممن حولهم. كان المنتظر منهم أيضا أن يدفعوا مبالغ منتظمة "لصيانة" أورشليم - وكان ذلك يصل إلى معظم الثروة- وأن يقوموا بزيارة المدينة، كلما كان ذلك ممكنا، للاحتفال بعيد الفصح. ربما كانت القواعد الخاصة بالطعام و"السبت" معوقة بدرجة ما أمام المخالطة الاجتماعية والعمل مع السكان من غير اليهود، إلا أن مجتمعاتهم بقيت وكان التركيز على أماكن لقاءات المعابد - وربما لنفس الأسباب التى تجعل الجماعات المهاجرة تركز على لقاءات الكنائس أو المساجد. روابط الدين، التى جمعت بين الناس فى قواعد الطعام والسلوك وليس فى الصلاة فحسب، كانت كبيرة الفائدة لأناس يريدون أن يبقوا موجودين فى عالم المدينة المتشظى، حيث تكون الحياة حتى بالنسبة للتاجر أو الصانع المقتدر اقتصاديا غير مستقرة، ومحبطة بالنسبة لغيرهم.

المجتمعات اليهودية لم تبق فحسب، بل كانت تجذب إليها آخرين، وفى تلك الفترة كان **المتحولون** المهتدون إلى اليهودية **(Proselytes)** كثيرين. يقول اليهودى السكندرى "**فيلو**- **Philo**": "اليهودية تفتن الكل... البرابرة... الهيلينيين... أمم الشرق والغرب، الأوروبيين، الأسيويين"[١٧]. كانت اليهودية شديدة الجاذبية فى المدن اليونانية والرومانية لدرجة أن ظهرت فئة خاصة من المؤمنين تدعى "**الخائفون الله**- **God Fearers**" - وهم ليسوا يهودا كانوا يذهبون إلى المعبد إلا أنهم لم يكونوا على استعداد لأن يتم ختانهم، أو أن يلتزموا كل التعاليم التوراتية.

لم يكن مجرد الشعور بروح الجماعة هو ما يجذبهم إلى اليهودية. كانت الفكرة الدينية المركزية لليهودية، وهى **التوحيد- monotheism** (الإيمان بإله واحد كامل متكامل) مناسبة لوضع سكان الحضر. كانت الأديان الوثنية المتعددة الآلهة، التى كان كل إله منها مرتبط بموقع محلى أو بقوة معينة من قوى الطبيعة، كانت تلك الأديان ذات معنى بالنسبة لسكان المناطق الريفية، حيث كانت القرية أو القبيلة مركز وجودهم الاجتماعى. ولكن تجار الحضر والحرفيين والشحاذين كان لهم اتصالات متكررة مع أعداد كبيرة من الناس من مناطق ومهن مختلفة؛ وفى مثل هذه المواجهات المتعددة يمكن أن توفر ألوهية جامعة مجهولة الدعم والحماية، وقد كان ذلك سبب وجود نزوع نحو **التوحيد** فى كل الحضارات القديمة – نشأة **البودية- Buddhism** – فى الهند والصين، وعبادة إله واحد "خيِّر" (منخرط فى صراع أبدى مع الشر) فى فارس(١٨). حتى الوثنية الرومانية اتجهت إلى عبادة ط إلـــه شمس" أقـــوى من الآخرين؛ بل إن اليهودية فى صيغتـــها **الفريسيـــة – Pharisaical** – جمعت بين التوحيد ووعد اتباعها بأن هناك ما يتطلعون إليه فى الحياة الآخرة، مهما كانت معاناتهم فى الحياة الدنيا.

هكذا كانت شعبية اليهودية وإقبال الناس عليها، لدرجة أنها جمعت ملايين المؤمنين بها فى كل المراكز التجارية للإمبراطورية الرومانية، مكونة شبكة تواصل واتصالات ممتدة عبر آلاف الأميال(١٩). كل الخلافات المدينية والتأملات المسيحانية – **messianic** الناجمة عن الوضع فى أورشليم، كانت تنتقل عبر تلك الشبكة؛ وبالنسبة لناس فى كل مدينة رومانية لم تكن تبدو مجادلات بعيدة عن الوضع فى فلسطين، حيث إن معاناة فلسطين كانت مجرد مثال لمعاناة الطبقات الدنيا والأقاليم المفتوحة عبر الإمبراطورية.

هكذا كانت اليهودية في طريقها لتصبح الدين العام لجماهير الحضر فى الإمبراطورية، إلا أنها واجهت عقبتين. كانت العقبة الأولى قواعدها بخصوص الطعـــام والختـــان، كذلك فإن ظاهرة "**الخائفون الله**" تبيـــن لنا أن الكثيـــرين من

المنجذبين إلى الدين لم يكونوا على استعداد للمضى إلى آخر الشوط فى تبنى أحكامه. أما العقبة الثانية فكانت وعد اليهودية للمؤمنين بها بأنهم "**الشعب المختار- The Chosen People**"، وكان ذلك يصطدم صراحة مع واقع الهيمنة الرومانية. كان لا بد من أن يخطط اليهود فى فلسطين لانتفاضة كبيرة للإطاحة بالحكم الرومانى، ولكن يهود الشتات، وكانوا أقلية فى كل مكان، لم يكن بمقدورهم أن يثوروا ولم يفعلوا شيئا تقريبا عندما هب يهود فلسطين بالفعل عام **70**م. دحر هذه الانتفاضة، جعل حتى من الأكثر صعوبة على الناس أن يأخذوا وعد اليهودية بمعناه الحرفى، وهو أن المؤمنين بها سوف يملكون العالم. كان الدين قد استطاع أن ينجح بقدر ما استطاع أن يحل الوعود بما يمكن أن يحدث فى العالم الآخر محل الوعود بما يحدث فى هذا العالم.

ظهرت المسيحية كصيغة معدلة من اليهودية. فقرات كثيرة فى الأناجيل توحى بأنها، فى البداية، لم تكن تختلف كثيرا عن النحل النبوئية الأخرى فى ذلك الوقت. فى مواضع معينة تردد الأناجيل دعوة "**الفرنسيين**" إلى الامتثال "للشريعة"، وتردد ما يقوله "**الزيلوت**" فى دعوتهم إلى "رفع السيف"، وتردد دعوة "**الإيسينيين**" للتخلى عن الأسرة فى سبيل أسلوب حياة أرقى؛ ففى فقرة نادرا ما يستشهد بها مسيحيو اليوم من أنصار الأسرة، ينقل "**لوقا**" عن "**يسوع**" قوله: "من جاء إلىّ وما أحبنى أكثر من حبه لأبيه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، بل أكثر من حبه لنفسه، لا يقدر أن يكون تلميذا لى"[٢٠]. الروايات عن "**يسوع**" وهو يدخل أورشليم وسط التهليل باعتباره "ملكا لليهود" أو وهو يطرد مقرضى الأموال من الهيكل، هذه الروايات تشبه إلى حد بعيد رواية "**يوسيفوس**" عن أعمال أنبياء آخرين[٢١].

إلا أنه لم يكن هناك سبب خاص يجعل المسيحية تبرز باعتبارها نحلة يهودية من بين نحل أو مذاهب أخرى. أدرك "**شاول الطرسوسى- Saul of Tarsus**"، الذى كان متحولا عن "**الفريسية**"، يعيش خارج فلسطين ويتحدث اليونانية، أدرك أنه كان هنـــاك أنصار كثيرون لأفكار دينية جديدة فى مدن الإمبراطورية. انطلـــق "**شاول**"

متقصدا أناسا كانوا شبه منجذبين لليهودية، إلا أن قواعدها المتزمتة كانت تصدهم عنها. كان عند تحوله قد غير اسمه العبرى "**شاول**" إلى اسم رومانى هو "**بول**- **Paul**". فى وجه مقاومة من "المسيحيين- اليهود" فى أورشليم، كان "بول" يرى، ويلح على أن الدين الجديد لم يكن يستلزم الختان القديم ولا قواعد الطعام، بينما كان التأكيد المتزايد على أن قيامة الموتى كانت يعنى أن الخلاص لم يعد متوقفا على انتصار يهود أورشليم المقهورين.

فى النهاية، دمجت المسيحية فيها عناصر عاطفية من عقائد دينية أخرى كانت رائجة فى تلك الفترة. كانت فكرة افتداء العالم بالموت والولادة الثانية لإله، موجودة فى كثير من الديانات الشائعة مثل عقائد "**أدونيس**" و"**أوزيريس**" وغيرها من مذاهب الخصوبة (كانت الولادة الثانية لميت وإله مدفون تعنى مقدم الربيع، مثلما أصبح الفصح [easter] يرمز إليه عند المسيحيين). قصة ميلاد العذراء الموجودة فى إنجيلى "**لوقا**" و"**متى**" (التى تتناقض مع رواية "**متى**" لتتبع نسب **يسوع** بالعودة إلى يوسف، أبيه، إلى الملك اليهودى **داود**). هذه القصة جاءت إلى المسيحية بعنصر من عقيدة "**أوزيريس**" المصرية، التى يفترض أنها مولودة من بقرة "عذراء". الصورة الذهنية عن "مريم البتول" تحمل شبها كبيرا بالدور الذى تلعبه "إيزيس" فى الديانة المصرية، المخاطبة باعتبارها "المخلص الأقدس والأبدى للجنس البشرى... أم بلايانا"[٢٢]. لن يحتاج الأمر إلى إعادة كتابة كثيرة لتصبح العبارة صلاة مسيحية لأم الرب.

أخذ المسيحيون الأوائل إذاء العناصر التى تقود اليهودية لكسب متحولين، أسقطوا القواعد الصارمة التى كانت تروع الناس، وأضافوا موتيفات رائجة من الأديان الغامضة. كان دمجا موفقا، ولكن ذلك لا يعنى بأى حال أن المسيحيين الأوائل كانوا مناورين لامبالين برموز عاطفية لم يكونوا يؤمنون بها. الأمر بعيد كل البعد عن ذلك. كانوا مدفوعين إلى الحياة الدينية بحساسية أكبر من العادية تجاه الظلم وعدم الشعور بالأمان فى مدن الإمبراطورية؛ ولهذا السبب تحديدا استطاعوا

أن يدركوا العناصر الموجودة فى الأديان الأخرى، التى يمكن أن تتوافق مع بقايا يهوديتهم، لإعطاء معنى ما لكروب ومعاناة من حولهم. "**العهد الجديد**" ينعم على **الرسل** بالتقدير بأن اختصهم بألسنة تلهج بأحاديث بهيجة تعبر عن مشاعرهم الداخلية، وبهذا الأسلوب تحديدا كانوا يستطيعون استنباط رؤية دينية جديدة من عناصر الرؤى القديمة.

من كان يا ترى جمهور هذا الدين الجديد؟ لم يكن العنصر الرئيسى فيه الأكثر فقرا فى الإمبراطورية ولا العبيد الزراعيين؛ حيث إن المسيحية الأولى – على خلاف "**الإيسنيين**"– لم تكن ضد العبودية من حيث المبدأ. كان "**القديس بول– Saint Paul**" يستطيع أن يكتب: إن العبد لا بد من أن يبقى مع سيده، حتى وإن كانوا إخوة فى يسوع"، ولا كان الجمهور مكونا من الفلاحين، حيث إن الدين كان قد انتشر خارج فلسطين عن طريق البلدات– وهذا ما نعرفه بالتأكيد من "**أعمال الرسل– Acts of the Apostles**".

كان جمهور الدين الجديد كما يبدو كتلة سكان البلدات. كانت تلك طبقة أدنى من أسر الطبقة الحاكمة، ولم يكونوا يمثلون أكثر من **0,2%** من السكان[٢٣]. كانت المدينة القديمة، مثل مدن العالم الثالث اليوم، تضم كتلة كبيرة من صغار التجار والحرفيين وصغار الموظفين – وطبقة عريضة من الدهماء والمتسولين والبغايا واللصوص المحترفين فى القاع، وشريحة صغيرة من التجار الأغنياء وكبار المسؤولين فى القمة. هذه الطبقة كلها كانت تشعر بالظلم بدرجة أو أخرى من الإمبراطورية، ولكنها كانت تشعر بالضعف دائما لكى تتحداها بشكل واضح. قدمت المسيحية رسالة خلاص، رسالة عالم جديد يأتى من أعلى، لا ينطوى على مثل ذلك التحدى المكشوف؛ وفى الوقت نفسه كانت تبشر بأن رسالتها حتى وإن أدت إلى معاناة فردية – الشهادة – فإن ذلك كان يعجل بالخلاص.

بالقطع، كان لا بد من أن ينجذب الأكثر فقرا من الصناع والتجار – وخاصة لأنها، مثل المعبد اليهودى، كانت تدخلهم وسطا اجتماعيا يساعدهم فى التعايش مع

بعض اللايقين المادى لهذا العالم، دون الاضطرار إلى انتظار العالم الآخر. كان هناك كذلك بعض الأغنياء الذين جذبهم الدين الجديد، وتحدد إحدى الدراسات "40 شخصية" كانت ترعى "أنشطة بول"، "كانوا كلهم من المقتدرين، وأعضاء نخبة راقية"[٢٤] كان مثل أولئك القوم يستطيعون تمويل تبشير الرسول وتوفير أماكن للقاءات الجماعات المسيحية الأولى فى منازلهم[٢٥]. حاد "**بول**" عن نهجه وراح يخطب ودهم: "من اللافت أن "**بول**" رغم أنه كان يعرف أن معظم المتحولين كانوا من بين الفقراء، لم يكن يعتمد سوى أبناء الطبقة العليا"[٢٦]. ربما كانت المسيحية دينا رسالته موجهة إلى الفقراء، إلا أنه حاول منذ وقت مبكر أن يضيف إلى ذلك توجها إلى من كانوا أكثر ثراء؛ وبمرور الوقت أصبحت المسيحية تجتذب البعض من أصحاب الثروة والنفوذ الحقيقى، الذين كانوا يشعرون بوجود تمييز ضدهم من النخبة "السيناتورية"- تجار أثرياء، نساء ثريات، رجال محررون (كانوا عبيدا أو أبناء عبيد من قبل) أصبحوا متنفذين اقتصاديا، ومسئولون يعملون لدى أسرة الإمبراطور، وكانوا فى الأصل من خلفية متواضعة[٢٧].

تم تصنيف "**العهد الجديد**" فى القرنين الثانى والثالث، وذلك بالاعتماد على الكتابات السابقة التى كانت تعبر عن المعتقدات المتغيرة للمسيحية مع انتشار الدين، وهو ما يفسر لنا ما نراه من تناقضات فى كل صفحة تقريبا، بيد أن تلك التناقضات هى ما ساعد على قبوله عبر الخطوط الطبقية. كـــان هناك شعور بالضرورة الثورية، بالتحول الوشيك الناتج عن تجربة الثوار اليهود فى فلسطين قبل تدمير أورشليم. الاستياء الأكثر مرارة كان يمكن أن يجد مخرجا فى الرؤيا النبوئية التى يمكن أن تشهد دمار "**عاهرة بابل**" (من السهل أن نعرف أن **روما** هى المقصودة)، وعهد "القديسين"، مع اسقاط الكبار والأقوياء، والفقراء والمتواضعون يحكمون بدلا منهم. علاوة على ذلك، فإن اسقاط التحول على المستقبل وعلى عالم مختلف وخالد، خفت حدة الرسالة الثورية بالدرجة التى تجعلها تروق لمن كانت معاناتهم مصحوبة بخوف شديد من ثورة حقيقية، فالتاجر أو صاحب الدكان الذى لديه اثنان

من العبيد، لم يكن هناك ما يخفيه من رسالة تبشر بالحرية فى معية المسيح، أكثر مما هى مع الأشياء المادية، كما أن التاجر الغنى يمكن أن يطمئن إلى أن "ثقب الإبرة" كان بوابة فى أورشليم يمكن أن يمر منها الجمل[٢٨]. الأرملة الغنية أو الزوجة المستقلة لرجل غنى من الرومان سوف تجذبها فقرات إنجيلية يؤكد فيها "**بول**" أن النساء والرجال "واحد" فى نظر الله، بينما الزوج المسيحى يمكن أن يطمئن إلى أن واجب زوجته هو خدمته فى هذه الدنيا، "... والرجل رأس المرأة"[٢٩].

قدمت الرسالة المسيحية السلوى للفقراء، ولمن هم أفضل حالا الشعور بقيمتهم بعد أن كانوا محتقرين لأصولهم المتواضعة، وقدمت للقلة الغنية وسيلة للتخلص من ذنوبهم مع الاحتفاظ بثرواتهم.

مثل اليهودية، وفرت المسيحية شبكة تواصل لأى صانع أو تاجر كان يقوم بزيارة مدينة التجمعات الأسبوعية حققت للفقراء شعورا بالاحترام نتيجة اختلاطهم بمن هم أغنى منهم، وللأكثر ثراء بفرصة لتبادل أخبار التجارة. بانتشارها فى إطار طرق التجارة والمراكز الإدارية التى كانت تربط الإمبراطورية الرومانية، أصبحت المسيحية مع الوقت ظلا للإمبراطورية، فوصلت إلى مناطق نادرا ما كانت للإمبراطورية صلة بها، أو ربما لم تكن لها صلة بها قط (أرمينيا، بلاد ما بين النهرين الفارسية، الحبشة، جنوب الجزيرة العربية، حتى جنوب الهند).

كان انتشار الدين مصحوبا بجوانبه البيروقراطية. كان الرسل الأوائل يبشرون دون رقابة من أحد على ما يقولون، كما كانوا يعتمدون على استعداد مساعدين محليين لتزويدهم بالطعام وتوفير مكان للإقامة وهم يتنقلون من مدينة لأخرى؛ ولكن مع زيادة أعداد المبشرين والمساعدين أصبح جمع التبرعات وإدارة شؤون المجموعة هما رئيسيا، وكذلك كان خطر "**الأنبياء الكذبة**" الذين كانوا يستغلون كرم ضيافة الناس.

كان الحل بالنسبة للجماعات المحلية تركيز جمع التبرعات والإدارة فى أيدى شمامسة- **Deacons** – يشرف عليهم "كهنة" وأساقفة. فى كتابه عن تاريخ الكنيسة

يكتب "**شادويك**– **Chadwick**" أن "في مدى جيلين". كان قد نشأ نظام تراتبى "فى قمته أساقفة وكهنة وشمامسة" بدلا من الرسل والأنبياء[٣٠]. فى البداية، كان انتخاب الأساقفة فى أيدى المسيحيين العاديين، ولكن لم يمر وقت طويل قبل أن يصبح للمبشرين كلمة فى المسألة. فى الوقت نفسه، كانت اجتماعات الأساقفة قد بدأت تحدد العقيدة الصحيحة والمخول لهم التبشير بها.

عجل بهذه العملية جدل كبير حول العقيدة المسيحية – ونقصد به قضية "**الغنوسطية**– **Gnosticism**"، التى كانت قد نشأت عن مسألة تفسير، لا بد من أن تبدو مبهمة لأى شخص ليس لديه إيمان دينى – وهى من أين يأتى الشر. ولكن كان لها نتائج عملية عميقة. اللاهوت المسيحى يؤمن بإله واحد هو الذى خلق كل شىء، ما يعنى أنه هو الذى خلق الشر كما خلق الخير – وهذا استنتاج مقلق بالنسبة للمؤمنين الذين يقرنون بين "الله" و"الخير". دائما. كان جواب المسيحية الأرثوذوكسية دائما محاولة اختبار وحلحلة المشكلة لوضع الكثير من الوسطاء بين "الله" وفعل الشر (ملائكة ساقطون، شياطين، بشر عصاة). وعندما لا يكون ذلك مقنعا، يعلن أن كون الله يعرف حل تلك المشكلة بينما نحن لا نعرف، دليل على عظمة فهمه أكثر منا.

إلا أنه كانت هناك إجابة أكثر منطقية، وهو القول بأن هناك صراعا متواصلا فى الكون بين عنصرين: الخير والشر؛ وكان ذلك هو الجواب الذى قدمه **الغنوسطيون**، بشكل جزئى على الأقل. قالوا بأن الروح خيرة، أما العالم المادى والجسد البشرى فهما شر. المسيحيون يمكن أن يكونوا أطهارا أنقياء إن هم حرروا أرواحهم من كل ما يتعلق بالجسد. لم يكن ذلك استنتاجا أصيلا تماما – فهناك إلماع إليه فى أجزاء كثيرة من "**العهد الجديد**"، على أن له متضمنات كانت مقلقة لسلطات الكنيسة؛ فإذا كان العقل وحده هو الطاهر النقى، فلا بد من أن يكون إذا المسيحيون الأخيار الوحيدون هم من أداروا ظهورهم للعالم المادى – الزهاد الذين حرموا أنفسهم وعاشوا فى أسمال بالية. كانت تلك هى الصيغة لكسب كل الجنس البشرى

إلى الرسالة أو لجمع التبرعات من الأغنياء للكنيسة المحلية. الأسوأ، مع ذلك، أن بعض الغنوسطيين توصلوا إلى استنتاج أكثر راديكالية. إذا كان العقل نقيا طاهرا فلا يهم ما يفعله الجسد طالما كان كل ما يفعله غير طاهر. أصبح شعارهم "للخيِّر، كل شيء خير"، وهذا سمح لهم بأن يعيشوا في ترف كما يريدون، وأن ينهبوا بضائع الآخرين (وبخاصة الأغنياء)، أما الأكثر فداحة فهو السماح لكبار رجال الكنيسة أن ينخرطوا في المتع الجنسية غير الشرعية.

الصراع حول المسألة احتدم بين الرعايا المسيحيين على مدى عقود ولم يحسمه سوى الأساقفة، مؤكدين أنهم وحدهم، باعتبارهم خلفاء الرسل، هم الذين يحكمون في أمور العقيدة[٣١]. ثم كان أن تفجر الجدل مرة أخرى في القرن الثالث، عندما بدأ سوري يدعى "**ماني– Mani**" تأسيس دين ("**المانوية– Manicheism**") من عناصر من **المسيحية الغنوسطية**، و**البوذية**، و**الزراداشتية الفارسية– Persian Zoroastrianism**. لفترة ما، تفوق على "**أوغسطين هيبو– Augustine of Hippo**" الشخصية الأكثر بروزا في التيار الرئيسي للفكر المسيحي فيما بعد.

في الصراع ضد مثل هذه "الهرطقات"، انتقلت بيروقراطية الكنيسة من السيطرة على الإدارة، إلى السيطرة على العقيدة التي كان مسموحا للكنائس المنظمة باتباعها، وبذلك جعلت من الأكثر صعوبة على التناقضات الموجودة في **الكتاب المقدس (The Bible)** أن تقدم بؤرة للعواطف الثورية التي يمكن أن تزعج العناصر الغنية المتعاونة مع المسيحية.

إذا كانت المسيحية هي الظل المنشق قليلا عن الإمبراطورية الرومانية، فإن التراتبية الكنسية كانت تتحول إلى بيروقراطية ظل – إلى كيان إداري آخر باتساع الإمبراطورية، يقف على امتداد الأول. إلا كانت بيروقراطية ظل تستطيع أن تقدم خدمات لأهالي المدن، لا تستطيع الإمبراطورية أن تقدمها. "وعيها العميق بالجماعة الدينية" مكنها من أن تبقى راسخة في كل بلدة خلال أزمة أواخر القرن الثالث[٣٢]، "وخلال الظروف العامة الطارئة مثل الأوبئة أو الاضطرابات، كان الإكليروس

(رجال الدين المسيحى) هم الجماعة المترابطة الوحيدة فى البلدة، القادرة على تعهد دفن الموتى وتنظيم إمدادات الغذاء.... أن تكون مسيحيا فى سنة **250**، كان يعنى أنك ستحصل على رعاية وحماية من أقرانك، أكثر من أن تكون مواطنا رومانيا"(٣٣).

فى ذلك الوقت كان هناك أمران يمكن أن يعطلا تأثير الكنيسة ويحدا من اتباعها – القمع من قبل الدولة أو الانشقاق الداخلى.

كثيرا ما يبالغ المدافعون عن المسيحية فى صمودها ضد الاضطهاد والقمع، فالشهداء الذين قضوا فى سبيل العقيدة قديسون، مثل من يفترض أنهم صنعوا معجزات. إلا أن قمع الكنيسة كان فى السنوات الأولى كان متقطعا. القلة المسيحية المفترضة فى تلك الفترة قاست تحت "**نيرو – Nero**" **(نيرون)** باعتبارهم كباش فداء لحريق روما، إلا أن موجة الاضطهاد تلك لم تستمر بعد سقوطه الذى لم يتأخر كثيرا، ومن وقت لآخر كان مسيحيون آخرون يسجنون أو يتم اضطهادهم قبل حكام أقاليم معادين، وكان ذلك عادة لرفضهم المشاركة فى طقوس العبادة الإمبراطورية، إلا أن السلطات كانت كثيرا ما تتسامح مع النظام الموازى الذى كان يتنامى تحت عباءتها، مع أباطرة القرن الثالث مثل "**ألكساندر سيفيروس– Alexander Severus**" و"**فيليب العربى– Philip the Arab**" الذين كانـــوا حتى مؤيدين للكنيسة.

فى أواخر القرن الثالث، كانت الكنيسة قد وصلت إلى مستوى من التأثير، بما يعنى أنه لم يكن بالإمكان تجاهلها مثلما كان الأمر فى السابق. كان الأباطرة أمام خيـــارين، إما القضـــاء على هذا النظـــام الموازى أو التعاون معـــه. شعر "**ماكسيموس– Maximus**" بأن الوقت كان قد حان للضغط بشدة على شبكة نفوذ كانت قد امتدت إلى قلب البيروقراطية الإمبراطورية وتقييد نشاطها، أما "**ديوقليتيان– Diocletian**"، الإمبراطور الذى جاء بعد **284**، فمضى إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد تم إقناعه المسيحية كانت خطرا على وحدة القوات المسلحة، وكان أن استجاب بهدم الكاتدرائية المواجهة لقصره فى "نيقوديميا– **Nicodemia**"، وإصدار مرسوم بهدم

كل الكنائس، وأمر بالقبض على كل الكهنة، وهدد بتنفيذ عقوبة الإعدام على أى شخص لا يقدم الأضحيات للآلهة كانت هناك موجة اضطهاد فى الإمبراطورية الشرقية.

إلا أن الوقت كان قد تأخر كثيرا لكى يكون مثل هذه الإجراءات مؤثرة. لم يتخذ حاكم الغرب "**كونستانتيوس**- **Constantius**" سوى إجراءين شكليين لتنفيذ مراسيم "**ديوقليتيان**"، وفضل ابنه "**كونستانتين**- **Constantine**" أن يكتب الكنيسة إلى صفه في معركته للهيمنة على الإمبراطورية الغربية فى **312**. بدأ يعتبر نفسه مسيحيا – كان من عبدة الشمس – كما بدأ المسيحيون، بالطبع، يعتبرونه واحدا منهم. لم يكن سلوك "**كونستانتين**" الخاص يقلقهم،رغم أنه كان قد أمر بإغراق ابن له فى الحمام، وأعدم زوجته، وأجل تعميده إلى أن كان على فراش الموت، وذلك لكى "يخطئ" على راحته. بانتهاء الاضطهاد، كان المسيحيون فى وضع يمكنهم من اضطهاد غير المؤمنين والجماعات المنشقة داخل عقيدتهم الخاصة.

كانت سنوات الاستمالة الأخيرة للإمبراطورية، فى الوقت نفسه سنوات أثرت فيها هرطقات جديدة على قطاعات كاملة من الكنيسة؛ ولكن بمجرد أن كانت الإدارة الإمبراطورية قد تركت كل أوراقها فى يد بيروقراطية الكنيسة، كان أى خطر على تلك البيرقراطية يمثل خطرا عليها نفسها. بعد اعتناقه المسيحية، سارع "**كونستانتين**" لخلع ونفى الأساقفة الذين لا يلتزمون بأحكامه[٣٤]، وسار خلفاؤه على النهج نفسه، محدثين فوضى بدعم جانب ثم غيره، لدرجة أن الأسقف المصرى "**أثناسيوس**- **Athanasius**" أزيح عن منصبه وأعيد إليه خمس مرات. كان الإمبراطور "**جوليان**- **Julian**" هو الوحيد الذى أمسك عن هذا الخلاف. سمح بكل أشكال العبادة المسيحية على أمل أن تدمر الجماعات المتنافسة بعضها البعض. بينما شرع هو فى إحياء الوثنية.

شهدت كذلك المرحلة الأخيرة لاستيلاء الكنيسة على الإمبراطورية ظاهرة "**اللجوء إلى المدير**- **Monasticism**". أدى نجاح الكنيسة ذاته إلى انشقاقات

مستمرة من أناس كانوا يرون أنها تخلت عن رسالتها الأصلية، رسالة الطهارة والفقر. كان الأساقفة قد أصبحوا شخصيات قوية، يعيشون في قصور، أكثر اختلاطا بمن يديرون الإمبراطورية منهم بالبسطاء الذين يملؤون الكنائس. بدأت حركة، في مصر أولا، من أناس كانوا يشعرون بأن خلاصهم في اتباع طريق بعيد عن النجاح الدنيوي للأسقف. سيتركون المدن ويخرجون إلى الصحراء ويعيشون على الخبز والماء من المتعاطفين معهم، سيرتدون الأسمال وينبذون أي فعل جنسي. كان أولئك النساك الذين يعرفون بـ"**الرهبان**– **Anchorites**" يعتقدون أنهم بدخولهم طواعية حياة معاناة، إنما كانوا يعصمون أنفسهم من الخطيئة، على نحو ما فعل "يسوع" من أجل خلاص العالم. هذا السلوك أكسبهم احترام المؤمنين الآخرين الذين كانوا يرونهم أقرب إلى رسالة الإنجيل، منهم إلى الساقفة من ذوي المساكن الفخمة.

كان من المحتمل أن تكون حركة هدامة. كانت تهدد بالقضاء على الهرطقات التي يمكن أن يستخدم فيها الأنبياء كلمات الإنجيل والرسل للإطلاق الأحقاد والكراهية ضد الإمبراطورية والأغنياء، إلا أنه لم يمر وقت طويل حتى اندمجت في النظام القائم. بدأ بعض الرهبان يقتربون من بعضهم البعض، وكان ذلك خطوة نحو قبول فكرة أن تكون تضحيتهم مشتركة وتحت نظام صارم. حول "بازل القيصري– **Basil of Caesarea**" ذلك إلى نظام للأفكار والعمل، مخضعا التضحية الفردية بالنفس لسلطة أعلى. ولم يمر وقت طويل حتى كان خلفاؤه يحولون حماستهم إلى قوة مادية ضد ذوي الأفكار المسيحية المختلفة[٣٥].

كان للرهبنة نتيجة أبعد مدى، فمن خلال قوة العمل الهائلة لديهم، المدفوعة بحماسة دينية، أصبح للأديرة درجة من الحماية من الفوضى والاضطرابات التي صحبت اضمحلال الإمبراطورية في الغرب. أصبحت الأديرة ملاذات آمنة لطلاب العلم بينما كانت الإمبراطورية تتداعى من حولهم. بينما احترقت المكتبات العلمانية، بقي البعض من مكتبات الأديرة، التي كان يرى القائمون عليها أن نسخ نصوصها

المقدسة – والتجديفية أحيانا – باليد صفحة صفحة، كان واجبا دينيا. فى الوقت نفسه، أصبحت الأديرة كذلك أماكن يجد فيها مفتقدى الحماسة الدينية الحماية لبعض الوقت من فوضى العالم، مع مزارعين من عامة الناس يقومون بالعمل تاركين الرهبان للصلاة والدرس أو حتى للتبطل. على أية حال، فإن ما كان قد بدأ كجزر للعبـادة والورع، ورفضـا لمجتمع فاسد، أصبح قوة كبيرة فى الغرب ما بعد الإمبراطورى، وذلك فى غضون قرنين. شبكة المؤسسات الدينية، التى تم الإبقاء عليها من خلال فائض استغلال قوة العمل لديها، بالتعاون مع تراتبية الأساقفة وعلى رأسها البابا، هذه الشبكة أصبحت مشاركا قويا فى التكالب على الثروة والامتيازات فى ربوع أوروبا الغربية، على مدى الألف سنة التالية.

الهوامش

(١) لا يوجد أى سند لذلك فى الصيغ المختلفة المتبقية لهذا النص. انظر ترجمة لذلك فى كتاب "يوسيفوس": "The Jewish War", (London, 1981)

هناك سند فى ترجمة سلافية لنص مفقود من العصور الوسطى، بيد أن هناك شكًا فى أن تكون تلك الإشارة "مقحمة" من قبل بعض الكهان الذين ساءهم عدم وجود أى إشارة لـ"يسوع" فى مخطوطة كانوا يقومون بنسخها؛ والمؤكد أن هذا لا يبرر الأسلوب الذى يستخدم به الكتاب المسيحيون كتابات "يوسيفوس" لدعم صياغتهم الخاصة للتاريخ.

(٢) إنجيل لوقا، 26 -18.19.

(٣) إنجيل متى، 24 .16.

(٤) إنجيل لوقا، 25 -20 -6.

(٥) إنجيل متى، 5.1, 5.6.

(٦) إنجيل متى، 25.14-30.

(٧) إنجيل متى، 20 .21.

(٨) استخدامه كلمة "بروليتاريا" لوصف جماهير "يهودا" فى القرن الأول، مربك فى حد ذاته. كانوا مختلفين عن أى طبقة عاملة حديثة بالرغم من أنهم كانوا فقراء. كثيرون منهم كانوا صناعا يعملون لحسابهم (حرفيون) وباعة فى محلات، وكان هناك شحاذون وعدد قليل ممن يعملون لقاء أجر. بل إننا نعرف من الأناجيل أن "يسوع" كان يعظ "جباة الضرائب" الذين كانوا جماعة محتقرة ولم يكونوا فقراء بالضرورة. ويقتبس "كاوتسكى" مقطعا، لصالحه، من رسالة "بول" الأولى للكورنثيين التى يقول فيها: أن لا دعوة لكثيرين من "الأقوياء أو الوجهاء"؛ ويقول كاوتسكى: إن هذا يعنى أن الملكية – property – لم تكن ممثلة فى الكنيسة الأولى، والحقيقة أن هذا الجزء يقى أنه كان هناك بالفعل قلة من "الأقوياء" وقلة من "الوجهاء" ولكن الأغلبية لم تكن تنتمى لأى من الفئتين؛ وهو ما يدل على أن الدين لم يكن "بروليتاريا" محضا حتى فى تلك المرحلة.

(9) M. Goodman, "Judea", in J.A. Cook and others (eds), "Cambridge Ancient History", vol.XI, p.768.

(١٠) للاطلاع على تفاصيل ذلك انظر الفصول الأولى من:

Josephus, "The Jewish War".

(11) Josephus, "Antiquities" quoted in K.Kautsky, "Foundations of Christianity", (New York, no date), p.300.

(12) Josephus, "The Jewish war",

الترجمة موجودة هنا تجدها في كتاب "Kautsky": "Foundations" ولكنها مختلفة قليلاً عنها في طبعة penguin من كتاب "The Jewish War" – (London, 1981), pp.126.

(13) Josephus, "The Jewish War", (London, 1981), p.148.

(14) M. Goodman, "Judea", p.771.

(15) Josephus, "The Jewish War".

(16) W.A. Meeks, "The First Urban Christians", (New Haven, 1983), p.34.

(17) K.Kautsky, "Foundations", p.261.

وللمزيد عن درجة "الهداية– proselytization"– انظر كذلك:

M. Goodman, "Judea", p.779.

(١٨) بشكل قاطع، البوذية ليست دينا توحيديا لأنها لم تتضمن في صورها الأولى الإيمان بإله شخصي من أي نوع، ولكنها تؤكد مبدأ وحيدا وراء كل الحقيقة مثلها مثل كل الأديان.

(١٩) يقول W.A.Meeks إن العدد كان نحو ستة ملايين يهودي في الشتات، في القرن الأول. انظر:

W.A.Meeks, "The First Urban Christians (New Haven, 1983), p.34.

وتبدو هنا مبالغة في التقدير بما أن العدد الكلي لسكان الإمبراطورية في ذلك الوقت لم يكن أكثر من خمسين مليون نسمة تقريبا، ونسبة قليلة منهم كانوا يعيشون في المدن.

(٢٠) إنجيل لوقا، 26-14.

(٢١) في الحقيقة هناك شك كبير في أن تكون الأناجيل حكايات تتردد وأنها كتبت بعد ذلك بسنوات بإجمال بعض الأحداث المختلفة، بما في ذلك تلك التي ذكرها "يوسيفوس" وإذا كان ذلك كذلك، فلا بد من أن تكون شخصية ما تدعى "يسوع– Jesus" (الصيغة اللغوية اليونانية من "Joshua" الذي كان اسما يهوديا شائعا في ذلك الوقت) كانت مرتبطة بتلك الأحداث من بين كثيرين – ثم جاءت الروايات فيما بعد لكي تضخم من دورها. أي إنسان استمع لمشاركين في أحداث يتذكرونها بعد عقد، مثل الاحتجاجات على ضريبة الرؤوس في مارس 1990، أو إضرابات عمال المناجم قبل ذلك بست سنوات، سيجد تباينا كبيرا في الروايات عن من فعل وماذا فعل.

(٢٢) انظر: Apuleius, "The Golden Ass".

(٢٣) تقدير A.J. Malherbe في:

'Social Aspects of Early Christianity", (Baton Rouge, 1977), p.86.

(٢٤) الدراسة لـــ"Judge" ولكن الاقتباس عن:

A.J. Malharbe, "Social Aspects", p.46.

(٢٥) انظر: A.J. Malharbe, "Social Aspects", p.61

(26) A.J. Malharbe, "Social Aspects", p.77.

(27) W.A. Meeks, "The First Urban Christians", p.70-71, 191.

(٢٨) كان ذلك بالتأكيد، التفسير الذى قدمته لى "مدرسة الأحد".

(29) 1 Cornithians 11.2.

(30) H. Chadwick, "The Early Church", (London, 1993), p.46.

(٣١) تتناول رسائل "بول" إلى الكورنثيين – Corinthians و"الكولوسيين– Colossians، المسائل التى يتناولها الغنوسطيون– Gnostics.

(32) P. Brown, 'The World of Late Antiquity", (London, 1971), p.99.

(33) P.Brown, "The World", p.67.

(٣٤) للاطلاع على التفاصيل، انظر:

H.C hadwick, "Early", pp. 135-136.

Gibbon, "Decline and Fall of the Roman Empire.

وتجد فى الكتاب الثانى تفاصيل مثيرة عن التدخلات الإمبراطورية وحجم الاضطهاد فى تلك الفترة.

(٣٥) انظر: H.Chadwick, 'Early...", p.179

مصادر للمزيد من الاطلاع

مرة أخرى "جوردون تشايلد" مصدر لا غنى عنه.

* Jean Garnet, "A History of Chinese Civilization.

* Romila Thapar, "Penguin History of India", vol.1.

* Geoffrey de ste Croix, 'Class Struggles in the Ancient Greek World.

حيث تجد تحليلا مفصلا للعبودية اليونانية واضمحلال الإمبراطورية الرومانية.

* P.A. Brunt, "Social Conflicts in the Roman Republic".

وذلك للمزيد عن التاريخ الباكر لروما.

* Karl Kautsky, "The Foundations of Christianity".

رغم اختلافي مع بعض ما يطرحه هذا الكتاب وعلى الكثير من آراء "كاوتسكي"، فإن هذا الكتاب جدير بالقراءة.

* Henry Chadwick, "The Early Church",

مرجع مفيد للاطلاع على مأسسة المسيحية.

الفصل الثالث

العصور الوسطى

مسرد زمنى

■ من 600 : 900 م.

- "عصــور الظلام" فى أوروربا. تدهور التجارة. فــشل محاولات الفرنجة فى إعادة تأسيس إمبراطورية على النمط الرومانى (شارلمان فى 800:814). غزو النورسيين (900:800) Norsemsn –
- الإقطـــاع فى الهند. تدهور التجارة. هيمنـــة البراهمانيين ونظام الطائفى فى القرى.
- أزمة الإمبراطورية البيزنطية، فقدان مصر وسوريا وبلاد ما بينا لنهرين والبلقان. ركود تقنى واقتصادى.
- "محمد" يستولى على مكة (630). جيوش عربية إسلامية تغزو معظم الشرق الأوسط (منتصف أربعينيات القرن الســادس)، وتصل إلى كابول (604)، وإسپانيـــا (711)، ثورة العباسيين فى 750 تعطى التجار بعض النفوذ السياسى. نمو التجارة والصناعات الحرفية. أوج الثقافة الإسلامية، ترجمة النصوص اليونانية، تقدم العلوم والرياضيات، فلاسفة إسلاميون عظام.
- مــركز الحضارة الصينية يتحرك نحو مناطق زراعــة الأرز فى اليانج تسى– Yangize. إحياء الصناعة والتجارة، ازدهار البودية، تقدم تكنولوچى.
- نشوء حضارات فى الساحل الغربى والشرقى لأفريقيا.

■ **القرنان العاشر والحادى عشر**

- نهـوض الزراعة والتجارة فى أوروبا. استخدام تقنيات أكثر تقدما. القنانة تحل محل العبودية.
- الإمبراطورية العباسية الإسلامية تفقد الزخم الاقتصادى وتتمزق. ظهور أشكال باطنية وغامضة من الإسلام. الأسرة الفاطمية فى مصر.
- بيزنطة تغزو جزءا من البلقـان، ولكن الركود التقنـى ما زال كما هو.
- حضارات غرب أفريقيا تتبنى الإسلام وتستخدم الحروف العربية.
- أوج الحضارة الصينية تحت أسرة سونج- **Sung Dynasty (960-1279)**. اختراع الورق والطباعة والبارود والساعات الميكانيكية والبوصلة وتزايد نفوذ التجار.

■ **القرنان الثانى عشر والثالث عشر.**

- أزمة بلاد ما بين النهرين الإسلامية.
- الإمبراطورية الصينية تنشق (سونج **Sung** وتشين **Chin**).
- القبائل الرعوية المغولية تنهب آسيا من بولندا إلى كوريا. تدمر وتنهب بغداد (**1258**)، وتغزو الصين (**1279**).
- "صليبيو" أوروبا الغربية يهاجمون الإمبراطورية الإسلامية من الغرب. الاستيلاء على أورشليم (**1099-1187**)، ونهب بيزنطة (**1204**).
- شعوب إسلامية من وسط آسيا تغزو شمال الهند. نمو جديد للتجارة. استخدام النقود.
- نمو الناتـج الزراعى والسكان والتجـارة والصناعات الحرفية فى أوروبا. انتشار طواحين الماء وبناء للكاتدرائيات،

إعـادة اكتشاف نصـــوص يونانية ولاتينية عبــر إسبانيا الإسلامية، أول جامعات أوروبية. استخدام التقنيات المكتشفة فى الصين. قيام الدول – المدن الإيطالية. "دانتى– **Dante**" (مولود فى **1265**) يكتب بالإيطالية.

- المماليك (جنود عبيد) يستولون على السلطة فى مصر.
- قيام مملكة مالى فى غرب أفريقيا. "تمبكتو" مركزا للعلم الإسلامى.

■ **القرن الرابع عشر.**

- أزمة كبيرة للإقطاع الأوروبى. مجاعة. الطاعون الأسود (**Black Death**). ثورات فى الفلاندرز وفرنسا وإنجلترا وويلز والشمال الإيطالى. باباوات متنافسون. حرب مائة عام بين إنجلترا وفرنسا.
- جوع ووباء فى الصين. ثورة "العمائم الحمراء" على المغول فى الصين، تأسيس أسرة "منج– **Ming**" الصينية. إحياء الزراعة.
- الأتراك العثمانيون يشرعون فى غزو آسيا الصغرى.
- بناء زيمبابوى الكبرى.
- "الأزتيك" يشيدون تينوكتيتلاند– **Tenocktitland**".

■ **القرن الخامس عشر.**

- نمو اقتصادى فى الصين مجددا. الأسطول يقطع آلاف الأميال إلى الساحل الشرقى لأفريقيا.
- إمبراطورية "الأزتيك" فى المكسيك. "الإنكا" يغزون كل المنطقة الأندينية بعد **1438**.

- نشأة "بنين- **Benin**" فى غرب أفريقيا.
- نمو اقتصادى وسكانى بطيء فى أوروبا الغربية. انخفاض فى ظاهــرة القنانة. انتشار علاقات السوق. الطباعـــة. نهضة فى الشمال الإيطالى. تحسن فى تقنيات بناء السفن والملاحة. البرتغاليون يبحرون نحو ساحل أفريقيا الغربى ويصلون كيب- **Cape**. الملوك الإسبان يغـــزون "جرانادا- **Granada**" (غرناطـــة) الموريسكية **(1492)**. كولمبـــس- **Columbus** يعبر الأطلنطى **(1493)**.

- ١ -

قرون الفوضى

كان القرن الخامس فترة تفكك وفوضى بالنسبة لثلاث إمبراطوريات كانت قد هيمنت على أوراسيا الجنوبية، كما كان هناك شعور مماثل بالأزمة في كل منها: ارتباك وذهول لتقوض حضارات عمرها ألف عام، برابرة يزحفون عبر الحدود، عسكريون يقتطعون لأنفسهم ممالك جديدة، مجاعات وأوبئة تنتشر، تجارة تنهار، مدن يهجرها سكانها. كانت هناك كذلك محاولات فى الإمبراطوريات الثلاث لترسيخ حقائق أيديولوچية جديدة لمواجهة الشعور الجديد بعدم الأمان؛ ففى شمال أفريقيا الرومانى، كتب "**أوغسطين- Augustine**" أحد أهم الأعمال المؤثرة فى العقيدة المسيحية "**مدينة الله- City of God**"، فى محاولة لمواجهة نهب مدينة روما الدنيوية؛ وفى الصين بدأت التعاليم **البودية- Buddhist**، التى كانت قد تطورت فى الهند قبل نحو ألف عام، بدأت تكتسب جماهير كبيرة من الأتباع، وخاصة بين الطبقات التجارية المستقرة، وفى الهند رسخت عقائد جديدة، مثل الهندوسية، نفسها.

أوجه الشبه بين الأزمات التى واجهت الحضارات جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أنها كانت من جراء تغيرات مناخية كونية، إلا أن إرجاع ذلك إلى الطقس وحده ينطوى على تجاهل للمشكلة الكبيرة التى كانت قد طوقت كل من تلك الحضارات على مدى قرون. كانت المشكلة تكمن فى الأساليب الأساسية التى كان من يفلحون الأرض يؤمنون بها سبل العيش لأنفسهم ولغيرهم. لم يكن بالإمكان مقارنة ما حدث من تقدم فى الإنتاجية الزراعية فى أى مكان قريب، بما حدث قبل ألف سنة انتشر استخدام الحديد؛ وبالرغم من ذلك فإن استهلاك الأغنياء كان أكثر بذخا، كمـــا كانت البنية الفوقية للدولة أكثر اتساعا منها فى أى وقت مضـــى. كان لا بد من الوصول إلى نقطة لا تتجاوزها الأمور كما حدث بالنسبة لحضارات العصر البرونزى الأول.

كانت أزمة العالم الرومانى هى الأخطر والأعمق. كان ازدهار حضارته يعتمد على إمداد مستمر بالعبيد، والنتيجة أن السلطات الإمبراطورية وكبار ملاك الأراضى لم تكن تعنيهم كثيرا أساليب تحسين الإنتاجية الزراعية مثل أقرانهم فى الهند أو الصين، وعليه، فقد كان التدهور أكثر حجما وحدة.

تعرف الفترة التى تلت ذلك فى أوروبا. عن حق، بـ"**العصور المظلمة- The Dark Ages**". كانت فترة الاضمحلال المتسارع للحضارة - حياة المدن، التعليم، الفنون والآداب، غير أن ذلك لم يكن كل شيء؛ فالناس العاديون الذين كانوا قد دفعوا ثمن أمجاد روما، دفعوا مرة أخرى ثمنا أعظم مع زوالها. أنهكت المجاعات والأوبئة أراضى الإمبراطورية السابقة، كما يقدر أن عدد السكان هبط إلى النصف فى أواخر القرن السادس وفى القرن السابع[1]. الموجة الأولى من المحـــاربين **الجرمـــان** الذين زحفوا واكتسحوا الحدود السابقـــة - **القوط والفرانك** (Goths and Franks)، **القوط الغربيون والشرقيون** (Visigoths and Ostrogoths)، **الآنجلز** (Angles) **والسكسون** (Saxons) **والجوت** (Jutes)- كل هؤلاء بدأوا يستقرون فى الأراضى الرومانية، وسرعان ما تبنوا الكثير من العادات الرومانية واعتنقوا المسيحية، وأصبحوا يتحدثون فى الغالب بلهجات لاتينية؛ ثم كان أن جاءت بعدهم موجات متلاحقة من الغزاة الذين لم يكونوا قد تأثروا بالنفوذ الرومانى فى السابق، ولكنهم جاؤوا للسلب والنهب والإحراق، أكثر مما هم بهدف الاستقرار والزراعة. اندفع "**الهون**- The Huns" و"**النورسيون**- Norsemen" يعيثون سلبا ونهبا فى الممالك التى كان قد شيدها الفرانك والقوط والأنجلوساكسون، ناشرين الخوف والخطر، فى القرنين التاسع والعاشر مثلما كانا فى القرنين الخامس والسادس.

فى آخر الأمر، استقر كل الغزاة. كانت الأغلبية ممن كانوا مزارعين فى بلادهم الأصلية، وكانوا قد بدأوا يستخدمون الحديد فى صنع الأدوات والأسلحة التى مكنتهم من هزيمة جيوش "متحضرة" فى المعارك. كانت مجتمعاتهم قد بدأت التحول بالفعل من الشيوعية البدائية نحو الانقسام الطبقى، مع وجود "زعامات- Chieftains" تتطلع لأن يصبحوا ملوكا أو طبقة أرستقراطية تحكم المزارعين

ومن يعملون بالرعى، الذين كان قد بقى لديهم بعض تقاليد الزراعة الجماعية؛ ولو كانت الزراعة الرومانية أكثر تقدما وتعتمد على شيء آخر غير المزارع الكبيرة التى تعتمد على العبيد، والملكيات الزراعية الصغيرة لفلاحين فقراء، لو كان الأمر غير ذلك لكان الغزاة قد تبنوا أساليبهم واستقروا بالضرورة مع أنماط حياة رومانية، وسنرى أن ذلك هو ما حدث مع الموجات المتوالية لـــ"البرابرة" الذين أقاموا إمبراطوريات فى الصين وعلى تخومها. إلا أن المجتمع الرومانى كان بالفعل فى حالة تفكك عندما زحف عليها الغزاة، وكل ما حدث هو أنهم أضافوا مزيدا من التفكك. حاول بعض الغزاة بالفعل تبنى أسلوب الزراعة الرومانية، أى زراعة مساحات واسعة باستخدام أسرى الحرب، كما حاول آخرون إعادة الهياكل المركزية للإمبراطورية القديمة. فى أواخر القرن الخامس أعلن القوطى الشرقة "**تيودوريك– Theodoric**" نفسه إمبراطور على الغرب، وفى أواخر القرن الثامن أسس "**شارلمان– Charlemagne**" إمبراطورية جديدة على معظم ما هو الآن فرنسا، وقطالونيا، وإيطاليا، وألمانيا؛ إلا أن إمبراطوريتهما تداعتا بموتهما ولنفس السبب الذى كان قد أدى إلى تداعى الإمبراطورية الرومانية. لم تكن هناك القاعدة المادية فى الإنتاج، الكفيلة بالحفاظ على مثل تلك المشروعات الكبرى.

سرعان ما هجر السكان المدن وتركوها لتصبح أثرا بعد عين، سرعان ما تدهورت التجارة، حتى إن العملة الذهبية لم تعد متداولة[٢]. أصبحت القراءة والكتابة مقصورة على الكهنة الذين كانوا يستخدمون لغة – اللاتينية الأدبية – لم تكن قد بقيت مستخدمة فى الحياة العادية. التعليم الكلاسيكى لم يعد له وجود خارج عدد قليل من الأديرة، وفى فترة ما كان تركيزه على الطرف الأيرلندى لأوروبا. أصبح الرهبان الجوالون هم الصلة الوحيدة بين الجزر الصغيرة من الثقافة[٣]. كانت الكتب التى تحتوى الكثير من معارف العالم اليونانى – الرومانى قد دمرت بأيدى الغزاة المتوالين، الذين كانوا يحرقون مكتبات الأديرة.

هكذا كان حال معظم غرب أوروبا فى الجزء الأكبر من **600** عام، إلا أن نظاما جديدا كان أن ظهر من بين ركام كل تلك الفوضى. بدأ تنظيم الزراعة فى

كل أوروبا بأساليب كانت تدين بشيء ما لكل من المزارع المتكاملة فى أواخر الإمبراطورية الرومانية وللمجتمعات القروية لدى الشعوب الغازية. بمرور الوقت بدأ الناس يتبنون أساليب جديدة لزراعة النباتات الغذائية التى كانت أكثر إنتاجية منها فى الإمبراطورية القديمة. كان نجاح غزاة مثل "**الڤايكنج**– **Vikings**" كان شهادة على تقدم أساليبهم الزراعية والملاحية، رغم عدم وجود حضارة أو حياة حضرية لديهم؛ ومع الأساليب الزراعية المتغيرة كانت هناك كذلك أشكال جديدة من التنظيم الاجتماعى. فى كل مكان، بدأ أمراء إقطاعيون مسلحون من المقيمين فى قلاع حصينة، بدأوا فى الوقت نفسه استغلال وحماية قرى فلاحين يعتمدون على أنفسهم، ويفرضون عليهم جزية فى شكل عمل مجانى أو مدفوعات عينية، إلا أنه كان لا بد من أن يمر وقت طويل، قبل أن يرسى ذلك أساس حضارة جديدة.

الهوامش

(١) انظر:

J.C. Russell. "Population in Europe 500-1500", in C.M. Cipolla (ed), "Fontana Economic History of Europe: The Middle Ages", p.25.

(٢) حسب ما ورد في:

P. Anderson, "Passages from Antiquity to Feudalism", (London, 1978), p.126.

(٣) انظر عرضا ممتازا لثقافة المرحلة في:

H.Waddell, "The Wandering Scholars", (Harmondsworth, 1954).

- ٢ -

الصين: الإمبراطورية تولد من جديد

مثل الإمبراطورية الرومانية، تداعت الإمبراطورية الصينية أمام تفكك اقتصادى ومجاعة بالداخل، وغزوات من "البرابرة" من الخارج. كان القرن الرابع يتسم بالقحط، ووباء الجراد، والمجاعات والحروب الأهلية، والتفتت فى إمبراطوريات متنافسة، وفوضى سياسية واقتصادية وإدارية. قرابة المليون من البشر تركوا منازلهم وهجروا حقولهم وفروا جنوبا من شمال الصين إلى منطقة اليانج تسى- **Yangtze** وما وراءها، مخلفين وراءهم منطقة خراب وفراغ من السكان، حيث كانت مساحات كبيرة من الأراضى قد أقفرت، وارتدت الحياة الإنتاجية لكى تفى بالكاد بالاحتياجات الذاتية، مع قليل من التجارة وتدهور فى استخدام النقود[1].

إلا أن مصطلح "**العصور المظلمة**" لن يكون مناسبا لوصف ما جاء بعد ذلك. كانت حياة الكتلة الرئيسية من الفلاحين شديدة الصعوبة، فمات عدد لا يحصى من الناس نتيجة الجوع والمرض، بيد أن الحضارة لم تضمحل أو تنهار؛ إذ سرعان ما تم استعواض الخراب الزراعى فى الشمال بفضل التوسع الكبير والقوى فى زراعة الأرز فى منطقة "اليانج تسى"، وهو ما سد النقص فى الفائض المطلوب للإبقاء على المدن المزدهرة ومعها نخبة متعلمة؛ وبينما انكفأت الإمبراطورية الغربية على نفسها، كان جنوب الصين يفتح طرقا للتجارة مع جنوب شرق آسيا، وشبه القارة الهندية وإيران؛ وفى الشمال كانت الأسر "البربرية" المتنافسة تتصارع على السيادة والسيطرة، ولكنها كانت تدرك فائدة الحضارة الصينية وتتبنى ثقافتها.

يضاف إلى ذلك أن "البرابرة" لم يتعلموا من الصين فحسب، بل كان لديهم كذلك ما يقدمونه لكى تتعلمه الحضارة القديمة. كان صناعهم والمشتغلون بالرعى

لديهم قد استطاعوا تطوير تقنيات جديدة، وذلك، تحديدا، لأن إمبراطورياتهم لم تكن مثقلة بتكلفة وإرث الإمبراطورية. هذه التقنيات كانت تتدفق الآن على الصين "طرق ترويض الخيل، استخدام السرج والركاب، أساليب بناء الجسور والطرق الجبلية، علم النباتات الطبية والسموم، ركوب البحر... إلخ"[٢].

فتح مثل هذه الابتكارات الطريق لمزيد من الثروة ومزيد من الفائض؛ فالحصان على سبيل المثال كان يستخدم فى السابق فى الحرب والاتصالات السريعة، إلا أن طرق الترويض القديمة كانت مقيدة إلى حد ما، تجعله شبه مخنوق، وغير مفيد من الناحية العملية فى جر الأحمال الثقيلة أو المحاريث، وهى الأعمال التى كانت متروكة للثيران الأكثر بطئا. بدأت الأساليب الجديدة القادمة من السهول الجنوبية تغير ذلك كله.

كذلك، لم يكن سقوط الإمبراطورية المركزية كله سلبيا، من ناحية التطور الفكرى. صحيح إن الحروب كانت قد دمرت مكتبات ومخطوطات لا تعوض، إلا أن إضعاف التقاليد الفكرية القديمة أفسح المجال لتقاليد غيرها، جديدة. بدأ تأثير **البووية– Buddhism** – يقوى وينتشر، وكانت قد جاءت إلى الصين مع التجار الذين قطعوا طريق التجارة الطويل عبر "التبت"، مرورا بـ"سمرقند" إلى إيران، أو الذين أبحروا من جنوب الصين إلى جنوب الهند. بدأت المؤثرات الهندية والإيرانية واليونانية تظهر فى الفن الصينى، حتى إن بعض التماثيل البودية يظهر عليها الأسلوب "الهيلينى"؛ بل إن "**جرنيه – Gernet**" يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ليتحدث عن "عصر ذهبى لحضارة من العصور الوسطى"، عن "عالم أرستقراطى مفعم بحماسة دينية، اخترقته التيارات التجارية الكبرى التى تدفقت عبر دروب آسيا الوسطى والطرق البحرية إلى المحيط الهندى"[٣]؛ والمؤكد أن ذلك كله كان شيئا مختلفا عن عصور الظلام الأوروبية.

فى أواخر القرن السادس، أعيد توحيد الإمبراطورية. حدث ذلك أولا تحت أسرة "**سوى– Sui**"، ثم تحت أسرة "**تانج– T'ang**". انتصار الأباطرة الجدد العسكرى

على أعدائهم، مكنهم من استخلاص فائض من الكتلة السكانية، يكفى للقيام بأعمال عامة واسعة. ثم بناء عاصمتين جديدتين: "لو يانج: **Loyang**" و"تشانج آن: **Ch'ang-an**". كانت أسوار "لو يانج" تمتد على مسافة "**9**" كيلومترات من الشرق إلى الغرب، و"**8**" كيلومترات من الشمال إلى الجنوب، تسيج مدينة مستطيلة الشكل بها **25** طريقا متقاطعة، عرض كل منها "**70**" مترا. كما شقوا قنوات مائية عرض كل منها "**40**" مترا، ممتدة مئات الكيلومترات تربط الأنهار "الأصفر" و"الـوى- **Wei**" و"اليانج تسى"، ما جعل زراعة الأرز فى الجنوب تغذى مدن الشمال؛ كما تم إعادة بناء مئات الكيلومترات من الأسوار العظيمة "**Great Walls**" على امتداد الحدود الشمالية الغربية، وبسطت الحملات العسكرية نفوذ الإمبراطورية، شرقا إلى كوريا، وغربا حتى حدود الهند وفارس، وجنوبا إلى الهند الصينية.

كما كان هناك هيكل إدارى يديره موظفون رسميون متفرغون للعمل كل الوقت، كان يتم اختيارهم عن طريق نظام للامتحان. هذا الهيكل الإدارى بدأ يعمل باعتباره ثقلا موازنا للطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى، كما حاول تقسيم الأراضى إلى ملكيات فلاحية صغيرة لضمان ذهاب الفائض إلى الدولة فى صورة ضرائب، وليس للطبقة الأرستقراطية كقيمة إيجارية[٤]، كذلك فإن احتكار الدولة الملح والكحول والشاى أضاف كثيرا إلى عائداتها.

كانت الدولة قوية، تراقب الحياة فى المدن عن كثب؛ وكانت "**الكونفوشيوسية- Confucianism**"، بتأكيدها الامتثال والطاعة، كانت هى السائدة فى إطار بيروقراطية الدولة، إلا أن التجارة المتنامية، جاءت كذلك بمؤثرات أيديولوجية من كل ربوع آسيا. زادت أهمية "البوذية" كثيرا. **المسيحية النسطورية- Nestorian Christianity-** (وكانت تعتبر هرطقة فى روما وبيزنطة) كان لها بعض التأثير. المانوية- **Manicheism** والزرادشتية- **Zoroastrianism** وجدتا أتباعا لهما. كانت المدن التجارية الساحلية تضم أعدادا كبيرة من التجار الأجانب – هنود وملايويون وإيرانيون وفيتناميون وخمير وسومطريون، وفى "كانتون" كان يمكن أن تجد

مساجد شيعية وسنية لتجارها المسلمين. كانت المؤثرات الصينية كذلك تشع فى كل الاتجاهــات – مع البودية واللغة الصينيــة والأدب المنتشر إلى كوريا واليابان، ومعرفة صناعة الورق، مــرورا عبر "سمرقند" إلى إيران والعالم العربى ثم بعد قرون إلى أوروبا فى آخر الأمر.

استمرت أسرة "**تانج– T'ang**" ثلاثة قرون ثم دخلت فى أزمة. كانت هناك صراعات متكررة فى القمة بين البيروقراط ودوائر البلاط. كان بعض الحكام يرعى **البودية** بينما كان آخرون يحاولون القضاء عليها. زادت كثيرا تكلفة الحفاظ على أسلوب الحياة المترفة للطبقة العليا، والإنفاق على الأشغال العامة، وعلى إمبراطورية هائلة. كانت عائدات الدولة تتراجع، بعد أن تدهورت أحوال صغار الفلاحين مع ظهور المزارع الكبيرة التى يعمل فيها فلاحون وعمال أجراء، وفى الوقت نفسه كانت مخنة الكتلة الفلاحية تمضى من سيئ إلى أسوأ، ففى إحدى المناطق كان **90%** من الفلاحين "يعيشون فى فقر مدقع"، كما تورد بعض التقارير[٥]. كان هناك زيادة فى السرقات وأعمال اللصوصية وقطع الطرق و"الاضطرابات الريفية التى كان يشارك فيها الفلاحون"[٦]؛ وفى سبعينيات القرن الثامن هبت موجة قوية من الاضطرابات، كانت تهدد كل الإمبراطورية، عندما قام جيش متمرد بمسيرة طويلة من الشمال إلى الجنوب والعودة مرة أخرى ليستولى على العاصمة الإمبراطورية "شانج–آن: **Ch'ang-an**" فى **880** م[٧].

إلا أن ذلك الجيش لم يحقق انتصارا لصالح الفلاحين المسحوقين، فمعظم أفراده لم يكونوا من أولئك الناس، الذين يستطيعون ترك أرضهم لفترة من الزمن، ولكنهم كانوا من بين أولئك الذين هجروا الأرض، بينما كان بعض زعمائهم من الأرستقراطية الريفية والبعض الآخر من الطبقات التى ضربها الفقر". كان قائد هذه الحركة "**هونج تشاو– Hung Ch'ao**" قد تم اختياره مرشحا لامتحان "الخدمة العامة". فى غضون أيام قليلة، كان الجيش وقادته يسلكون مسالك مختلفة. اشترك الجنود المحاربون مع الفقراء المحليين فى نهب "أكثر مدن العالم ازدهارا"... "اشتعلت النيران فى الأسواق، وذبح كثيرون، وكان يتم سحب المسئولين المكروهين

وقتلهم". على الجانب الآخر، كان "هونج" يطمح إلى إقامة نظام مستقر يكون هو إمبراطوره. أعاد إحياء النظام الإمبراطورى، لم يزح من إدارة الدولة سوى كبار المسئولين، ترك الأرستقراطية القديمة فى المواقع الرئيسية، متخذا أقسى الإجراءات ضد كل معترض من أتباعه. عندما كتب شخص مجهول قصيرة ضد النظام وعلقها على بوابة أحد المقار الرسمية، قام نائب "هونج" بقتل موظفى المقر، واقتلع أعينهم، وعلق جثثهم، وأعدم حراس البوابة، وأمر بقتل كل من كان يستطيع أن يكتب شعرا فى المدينة، ونقل كل المتعلمين الآخرين للعمل فى وظائف متدنية. بلغ عدد من قتلوا فى هذه العملية نحو **3000** شخص.

بعد انقــلابه على أتباعه وأعوانه لم يستطع "هونج" الاحتفاظ بالعــرش. بعد عام، تمكن قائد عسكرى إمبراطورى من استعادة المدينة من بقايا القوات المتمردة المحبطة؛ إلا أن هذا العصيان المسلح كتب النهاية الفعلية لــ"**أسرة تانج– T'ang**" التى فقدت كل سلطة حقيقية، حيث راح عسكريون كثيرون يتصارعون للاستيــلاء على الإمبراطورية، التـــى تمزقت إلى خـــمس دول متنافسة (**الأســـر الخمسة**) لمدة نصف قرن، إلى أن أعيد توحيدها تحت أسرة جديدة هى "**أسرة سونج– The Sung Dynasty**".

كان هذا التمرد الكبير يشبه فى جوانب كثيرة منه ما حدث فى إسقاط "**أسرة تشين– Ch'in Dynasty**" فى **206** ق.م وساعد فى تفكك إمبراطورية هان **– Han Empire** بعد **184**م. ستكون هناك حركات تمرد وعصيان كثيرة على مدى التاريخ الصينى بنفس الأسلوب. توطد أسرة موقعها وتعكف على خطط طموحة لتشييد قصور وشق قنوات مائية وإنشاء طرق، تحاول درء أخطار القبائل الرعوية على امتداد حدودها الشمالية والغربية بتحصينات قوية وحروب خارجية تبسط نفوذها، إلا أنها كانت تدفع بجماهير الريف إلى مستويات من الفقر غير مسبوقة، ما يؤدى إلى تفجر الانتفاضات لكى تمزق القوة الإمبراطورية، ثم يقوم ثائر جديد أو قائد عسكرى إمبراطورى ليؤسس أسرة جديدة... وهكذا.

لم يجن فقراء الريف ثمرات أى انتصار. كانوا مبعثرين فى أرجاء البلاد مقيدين بمساحاتهم الزراعية الفردية، أميون، لا يعرفون شيئا تقريبا عن العالم الخارجى، صحيح أنهم كانوا ينتفضون ضد مظالم الدولة القائمة ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يقيموا، جماعيا، دولة جديدة في مواجهتها يحكمون فيها كطبقة، كانوا بدل ذلك، يتطلون إلى إقامة دولة على نموذج تلك القائمة، ولكن تحت إمبراطور "جيد"؛ وكان ذلك يعنى أنهم حتى فى حالة الانتصار، كانوا ينصبون حكاما جددا يعاملونهم بنفس الأساليب التى كان يعاملهم بها من سبقوهم.

أصبحت حتى عملية التغيير مندمجة فى الأيديولوچية الحاكمة، مع فكرة أن شرعية الأسرة الحاكمة كانت تستند إلى "مشيئة السماء".

إلا أن هذا النمط المتكرر لا يعنى أن المجتمع الصينى لم يكن قابلا للتغيير، كما يدعى كثير من الكتاب الغربيين، فمع مجئ وذهاب الأسرات الحاكمة، كانت هناك تغيرات تراكمية، تضمنت إدخال تقنيات جديدة، على نحو تدريجى، إلى أوجه النشاط الإنتاجى، ومعها كانت تغيرات مهمة فى العلاقات بين مختلف فئات المجتمع.

قيادة العالم

واصلت الصين تحولها الاقتصادى الكبير. كان كبار ملاك الأراضى يعتمدون على مزارعين أو عمال أجراء، ويسعون لزيادة دخولهم بالاستثمار فى الأدوات الزراعية والماكينات الجديدة واستخدام الأساليب التى تمكنهم من إنتاج أكثر من محصول في العام من أراضيهم[٨]. كانت هناك هجرة مستمرة من الشمال إلى مناطق زراعة الأرز في وادى "اليانج تسى" والجنوب، كما كانت هناك زيادة كبيرة فى الإنتاجية الزراعية ونموا مماثلا فى الفائض لكى يستخدمه الأغنياء فى شراء الكثير من السلع الترفهية.

بدأت شبكات التجارة تربط المزارعين بالأسواق المحلية، والأسواق المحلية بالمدن الإقليمية التى كانت تزداد حجما وأهمية. كانت أعداد من السفن لم يشهدها

العالم من قبل تمخر عباب شبكة الأنهار والقنوات التى كانت تربو مساحتها على **50,000** ميل، حاملة البضائع العامة وليس سلع الأغنياء الترفية فحسب، وكانت النقود مستخدمة على نحو متزايد فى تعاملات كل فئات المجتمع، كما بدأ استخدام العملة الورقية إلى جانب العملة المعدنية. زاد عدد التجار وأثرى بعضهم ثراء شديدا. زاد حجم المدن، لدرجة أن "كاى- فنج: **K'ai-feng**" عاصمة **أسرة سونج- Sung**، والتى كانت مساحتها **12** ضعفا بالنسبة لمساحة باريس العصور الوسطى، كان عدد سكانها قرابة المليون مواطن(٩)، وعدد سكان مدينة "هانج تشو: **Hang-chou**" فى وادى "اليانج تسى" بين المليون ونصف المليون إلى خمسة ملايين(١٠).

نمت الصناعات كذلك، وفى "كاى-فنج" كانت الترسانات تخدم البلاد بشكل عام... فى الوقت الذى كانت تتطور فيه التكنولوجيا على نحو سريع"؛ كما قامت صناعة للنسيج تعتمد على عمال دائمين جاؤوا من شيوان – **Szechwan**" ودلتا "اليانج تسى"، وأصبحت صناعات الحديد والصلب "أنشطة جيدة التنظيم تعتمد على تقنيات متقدمة، واستثمارات هائلة فى المعدات، وأعداد كبيرة من العمل"، تحت إشراف كل من الحكومة و"أصحاب الأعمال". كانت المشاغل والورش الصناعية تنتج السلع والمواد الترفيهية للأسرة الإمبراطورية وكبار المسؤولين ورجال الأعمال والأثرياء"، وكذلك "مواد البناء والكيماويات والكتب والملابس"(١١).

كانت هناك ابتكارات تكنولوجية هائلة. بدأ استخدام فحم المناجم بدلا من الفحم العضوى فى أشغال التعدين، واستخدام معدات تعمل بالطاقة المائية فى ورش الحدادة، واستخدام المواد المفجرة فى المناجم، كما تجاوزت كمية الحديد المستخدم فى **1078** كمية تقدر بـــ**114000** طن، فى الوقت الذى كانت قد وصلت فيه إلى ما لا يزيد عن **68000** طن فى إنجلترا فى **1788**(١٢). كان هناك توسع غير مسبوق فى صناعة السيراميك والبورسيلين، وهى تقنية لن تعرفها أوروبا قبل **700** سنة أخرى. كان البارود مستخدما فى **240-1044** قبل أى ذكر له فى أوروبا. كان مستخدما فى **1132** لدفع وتفجير الصواريخ من أنابيب البامبو، وفى **1280** لإطلاق

المقذوفات من مدافع الهاون المصنوعة من البرونز والحديد[١٣]. كانت هناك تقنيات بحرية جديدة: "المراسى، الدفاف، الرحويات، القرمات المحكمة ضد تسرب الماء، الأشرعة المصنوعة من القنب، الأشرعـــة المصفورة، بوصلة الملاح" كل تلك الابتكارات كان من شأنها أن تمكن السفن الصينية من الوصول إلى الخليج العربى، وحتى إلى الساحل الشرقى لأفريقيا[١٤]. كان بعض هذه السفن يمكن أن يحمل نحو ألف شخص. كانت صناعة الخرائط الصينية سابقة، ليس على تلك فى أوروبا فحسب، بل وعليها فى الشرق الأوسط العربى.

وأخيرا فإن التقدم الذى حدث فى إنتاج الكتاب، مكن لأول مرة فى التاريخ من صنع أدب يستهدف طبقة متوسطة كبيرة الحجم؛ أما الطباعة من قوالب محفورة فقد كانت تقنية معروفة بالفعل فى القرن التاسع، حيث ظهرت أعمال التنجيم والتقويم ونصوص بوذية وموسوعات عامة وكتيبات إرشادية فى التربية الأساسية، وكتب تاريخ، وهذا كله إلى جانب الأعمال الكلاسيكية والكتابات البوذية الكاملة وكمبيالات مطبوعة وكتب إرشادية فى الطب والصيدلة[١٥]؛ وبحلول القرن الحادى عشر كانت تقنية الطباعة المتحركة قد أصبحت معروفة بتشبيك الحروف المفردة مع بعضها، رغم أن هذا الأسلوب لم يكن مستخدما على نطاق واسع حتى القرن الخامس عشر - ربما لأن كثرة عدد الحروف الصينية كان يؤدى إلى بطء العمل وزيادة التكلفة الاقتصادية عما هى فى حال الطباعة بتقنية الكتلة. على أية حال، كان لدى الصين كتب مطبوعة قبل أوروبا بنحو خمسة قرون، كما كانت الكلمة المكتوبة لم تعد حكرا لنخبة مثقفة أو لمن كانوا يعيشون فى الأديرة الكبيرة. تضاعــف عدد المدارس، سواء الحكومية أو الخاصة، وبخاصة فى قلب البلاد الاقتصادى الجديد، منطقة "اليانج تسى" السفلى؛ وكما كتب أحد الكتاب الصينيين الذين كانوا يعيشون فى تلك المنطقة في ذلك الوقت "كان كل فلاح وصانع وتاجر يعلم ابنه قراءة الكتب، حتى من كانوا يشتغلون بالرعى، والزوجات اللائى كن يحضرن الطعام لأزواجهم فى الحقول كان يمكن أن تسمعهن يرددن قصائد لشعراء قدامى"[١٦].

واكب نمو التجارة والصناعة رخاء وزيادة فى حجم ونفوذ طبقة التجار، لدرجة أن بعض المؤرخين يشير إليها باعتبارها "برجوازية" يقول "**تويتشت– Twitchet**" إنه كان هناك فى أواخر عهد أسرة "**سونج– Sung**": "طبقة متوسطة ثرية، لديها شعور قوى بهويتها وثقافتها الخاصـــة"[١٧]. فوق ذلك كله كان هناك تحول مهم فى موقف الدولة من التجار. كانت الأسر السابقة قد وجدت التجار "عنصر دمار محتمل" وكانت تصنعهم دائما "تحت رقابة مستمرة"[١٨]. كانت هناك أوامر بحظر التجوال فى شوارع المدينة بعد منتصف الليـل، وكانت الأسواق مقصورة على مناطق مسورة من المدينة وتحت رقابة صارمة من الدولة، كما كان أبناء التجار ممنوعين من شغل الوظائف العامة فى أجهزة الدولة. الآن، كان معظم تلك الإجراءات والقيود قد سقط، وفى أوائل القرن الحادى عشر كان يمكن أن يشكو أحد كبار المسؤولين من "ضعف الرقابة على التجار، إذ إنهم يعيشون حياة بذخ، يأكلون أطايب الطعام من الأرز واللحم، يمتلكون منازل فخمة ومركبات كثيرة، ويزينون زوجاتهم وأولادهم بالجواهر والأحجار الكريمة، ويكسون عبيدهم الحرير الأبيض. فى الصباح يفكرون كيف يصنعون الثروة، وفى المساء يخترعون الأساليب لسرقة الفقراء"[١٩].

بدأ الأغنياء الحضر الجدد يستخدمون قوتهم الاقتصادية لممارسة النفوذ على البيروقراطية الإمبراطورية:

> **"الآن أصبح نظام الامتحان هو الطريق لدخول أعداد متزايدة من خارج الأسر الكبيرة إلى الوظائف العليا فى البيروقراطية الإمبراطورية... هؤلاء كانوا يأتون من أسر أفادت كثيرا من الثورة التجارية.. أسر التجار الأغنياء وكبار ملاك الأراضى"[٢٠].**

كان عدد من يمكن أن يجتازوا تلك الامتحانات القومية لا يزيد عن مئات قليلة من الناس[٢١]، ولكنهم كانوا يمثلون رأس منظومة هائلة. بحلول القرن الثالث عشـــر، كان هنـــاك نحو **200,000** طالب فى مدارس الحكومة، وألوف أكثـــر فى المدارس الخاصة والمدارس البوذية، كلهم كانوا يحلمون بالوصول إلى القمة. عدد كبير منهم كان من أسر تجارية.

كان التجـــار وما زالوا بعيدين عن إدارة الدولة، حتى وإن كانوا يشكلـــون جماعة ضغط تتزايد أهميتها، وكان معظم الإنتاج الكبير ما زال تحت سيطرة الدولة، حتى عندما كان التجار يقومون بكثير من الأنشطة المربحة – مثل تشغيل السفن المملوكة للدولة – بموجب عقود؛ كما أن شؤون الدولة نفسها كانت تديرها بيروقراطية مدربة على العمل الرسمي نموذجها "ابن البلد النبيل"[٢٢]، وكان ذلك أيضا هو المثل الأعلى لابن التاجر، الذى يريد أن يحصل على وظيفة رسمية، وكانت النتيجة ظهور بوادر جديدة لأزمة، مع وصول "**أسرة سونج**" أوجها.

كـــان ما يطلـــق عليـــه المؤرخـــون عادة "**الكونفوشيوسيـــة المحدثـــة – Neo-Confucianism**" هى الأيديولوچية السائدة فى الدولة، التى كانت تؤكد الحاجة إلى اتباع الحكام والمسئولين عن الإدارة نهجا منظما يقوم على الاحترام المتبادل، مع محاولة تجنب السلوك العنيف للطبقات الأرستقراطية المحاربة، وجشع التجار ولهاثهم وراء الربح. هذه الأيديولوچية كانت هى التى حددت طابع الدراسات التى ينبغى أن يتعهدها كل من يطمح إلى منصب فى بيروقراطية الدولة، وكانت مناسبة لطبقـــة اجتماعية محافظة غايتها حياة ثقافيـــة هادئة بعيدا عن جلبة المنافســـة والصراعات العسكرية.

كانت كذلك أيديولوچية متسقة مع نهج أباطرة "**أسرة سونج**" الأوائل، الذين كانوا يعزون سقوط "**أسرة تانج**" لسياسات التوسع العسكرى المفرطة، ومن ثم قلصوا حجم الجيش وأصبحوا يعتمدون على الرشوة التى يشترون بها مسالمة دول الجوار. هذا النهج كانت تعبر عنه مفاهيم وأفكار شبه دينية عن تناغم بين الطبيعة والمجتمع، إلا أن ذلك كان ينطوى كذلك على جوهر براجماتى. كان سبيلا للخروج من سنوات الأزمة الطويلة السابقة.

انتهى كثير من الكتاب الغربيين إلى أن سيادة **الكونفوشيوسية المحدثة**، كان هو الذى يسد الطريق أمام التطور الرأسمالى فى الصين، كما اعتقدوا أن عداءها

لـ"روح الرأسمالية" كان سبب ركود المجتمع الصينى آلاف السنين؛ بينما يؤكد آخرون أن "الشمولية" هى التى كانت سبب توقف النمو الاقتصادى(٢٣). إلا أن المجتمع الصينى كان أبعد ما يكون عن الركود فى عهد "**أسرة سونج**" كما رأينا. لم تكن الأفكار الغير الكونفوشيوسية (**البودية – الطاوية – النسطورية**) موجودة فحسب، بل إن أعمالها كانت مطبوعة ومتاحة كذلك. المسؤولون الذين كانوا موالين للكونفوشيوسية ومبادئها، كانوا يتصرفون بشكل مختلف من الناحية العملية، فقد أوضحت "**باتريشيا إيبرى– Patricia Ebrey**"، على سبيب المثال، كيف كان كتاب إرشادى يوزع على نطاق واسع فى عهد "**أسرة سونج**"، وهو كتاب "مبادئ أخلاقية للحياة الاجتماعية– **Precepts for Social Life**" من تأليف "**يوآن تساى– Yüan Ts'ai**"، وأنه كان ينكر تماما الكثير من أفكار ومبادئ **الكونفوشيوسية المحدثة**. فى ذلك الكتاب كان الكاتب يرى "أن الربح هو هدف المرء من التجارة" ويعبر عن توجهات تجارية وأن "على الملتزمين بالكونفوشيوسية المحدثة أن يمتنعوا عن معظم الأنشطة... التى يصفها"(٢٤).

كانت هناك فجوة بين أيديولوچية **الكونفوشيوسية المحدثة** السائدة وأنشطة طبقة التجار، إلا أنها كانت فجوة يمكن أن تتسامح معها الطبقة وتتغاضى عنها حيث كان الاقتصاد ينمو ويصبحون أكثر ثراء وأقوى نفوذا – تماما مثلما كان الرأسماليون الأوروبيون الأوائل، بعد ذلك بمئات السنين، على استعداد للعمل مع دول ملكية ويقبلون أيديولوچياتها الرسمية، طالما كان ذلك لا يعوق مكاسبهم.

خصوصية الصين التى أضعفت إمكانية أن يتحول التجار الأثرياء والمشتغلين بالتجارة إلى طبقة رأسمالية كاملة، كانت خصوصية مادية وليست أيديولوچية كانوا أكثر اعتمادا على الموظفين الرسميين فى آلة الدولة أكثر مما كان الحال فى أوروبا القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ حيث كان أولئك الموظفون لا غنى عنهم فى إدارة وسيلة من وسائل الإنتاج الرئيسية – شبكة قنوات الرى الهائلة(٢٥). لم يكن أمام التجار الصينيين سوى العمل مع آلة الدولة(٢٦)، حتى وإن كانت تلك الدولة "تمتص" جزءا هائلا من الفائض وتحوله من الاستخدام الإنتاجى إلى الإنفاق على استهلاك ترفى للبلاط وكبار المسئولين ورشوة شعوب الجوار.

كانت تلك فترة رخاء عظيم لكبار المسئولين والتجار الأغنياء على السواء[٢٧]، كما كانت كذلك فترة فقر مدقع للمزارعين، ففى القرن الحادى عشر كتب "**سوهسون– Su Hsün**":

> **"الأسر الغنية مساحات كبيرة من الأراضى، يفلح حقولهم أجراء طوافون يعملون كالعبيد تحت السياط. يذهب نصف الفائض من إنتاج الأرض للسيد والنصف للعامل. كان لدى كل صاحب أرض عشرة من أولئك الحراث... كان المالك يستطيع بالطبع أن يراكم ما يحصل عليه ليزداد ثراء وقوة، بينما يستهلك الكادحون نصيبهم يوميا ليقعوا فريسة للفقر والجوع"[٢٨].**

المؤكد أن الأخلاقيات الكونفوشيوسية لدى المسئولين من الطبقة العليا أو الحاكمة لم تمتد لتشمل أولئك الذين كانوا يشقون من أجلهم. كتاب "**يوآن تساى– Yüan Ts'ai**" الذى ذكرناه قبل قليل "مبادئ أخلاقية للحياة الاجتماعية"، يشير إلى مزارعين وحرفيين باعتبارهم "أناس أدنى مستوى"، ويتحدث عن "فساد وانحراف من جانب الخدم وميل للانتحار"، بما يوحى أنه كان لا بد من ضربهم وينصح بمعاملتهم معاملة الحيوانات المدجنة"[٢٩].

ويكتب المؤرخ "**چون هايجر– John Haegar**": "بانتهاء "**أسرة سونج**" الجنوبية، كان معظم الريف قد ضربه الفقر. بفعل القوى ذاتها التى كانت قد أشعلت الثورة الزراعية والتجارية فى المقام الأول"[٣٠].

ولكن، قبل أن تنضج أى أعراض لأزمة داخلية – وقبل أن يظهر أى صراع مصالح بين التجار والمسئولين – كانت هناك أزمة خارجية مزقت الدولة. فى **1127** كان هناك غزو من الشمال قسم الصين جزءين، تاركا "**أسرة سونج**" تحكم الجنوب فقط، وفى **1271**، كانت البلاد كلها فى قبضة غزو آخر.

لم يغير الغزو الأول الأوضاع فى الشمال تماما، فقد كان الـ"**چورشن– Jürchen**" الغزاة شعبا منظما فى دولة على النموذج الصينى، وأداروا النصف

الذى استولوا عليه من الصين، "**إمبراطورية تشين– Chin Empire**" بمسئولين يتحدثون الصينية، ومن الناحية الفعلية كان هناك إمبراطوريتان صينيتان على مدى **150** سنة تقريبا.

كان الغزو الثانى أشد خطرا؛ إذ كان بواسطة جيوش مغولية، كانت قد انطلقت من موطنها فى وسط آسيا فى القرن السابق وزحفت غربا إلى وسط أوروبا تدمر وتنهب، وشمالا إلى المنطقة العربية والهند، وشرقا إلى الصين وكوريا. كان المسيطر على المجتمع المغولى أرستقراطية عسكرية تمتلك قطعانا رعوية هائلة. كانوا خيالة ممتازين، ولديهم الثروة التى تمكنهم من الحصول على الدروع والأسلحة الحديثة، وعليه فقد تحققت لهم القوة العسكرية التى تعجز جيوش كثيرة عن التصدى لها(٣١)، إلا أن قدراتهم الإدارية كانت محدودة، ومن هنا كان اعتمادهم على خدمات أبناء الشعوب التى يغزونها.

فى الصين، أطلق الحكام المغول على أنفسهم اسم "**أسرة يوآن– Yüan Dynasty**" واعتمدوا على قطاعات من موظفى الدولة القديمة لإدارة الإمبراطورية؛ ولأنهم لم يكونوا يثقون بهم تماما احتفظوا بالمراكز الرئيسية فى أيديهم، وتعاقدوا مع تجار مسلمين من آسيا الوسطى للقيام بجمع الضرائب، تدعمهم وحدات عسكرية؛ وأدى ذلك إلى تدمير التنظيمات الاجتماعية التى كانت قد نشأت عن – ثم شجعت أكثر فيما بعد – مستوى من التقدم التكنولوچى والاقتصادى لم يسبق أن عرفه العالم.

والآن، كان أن برزت بقوة المشكلات الاقتصادية التى كانت تتنامى ببطء فى سنوات "**أسرة سونج**"، وخاصة فقر المناطق الريفية، كما زادت الأمور سوءا فى المناطق الزراعية الشمالية مع انتشار المزارع الكبيرة.

استمر المجتمع الصينى على تقدمه بدرجة مدهشة حتى للأجانب، فكان البلاط المغولى فى "بيجن– **Beijing**" مثار إعجاب شديد من ارحالة الإيطالى "**ماركو بولو– Marco Polo**" فى **12.75**، كما أن التمدد الواسع للوجود المغولى بطول أوراسيا وعرضها، لعب دورا مهما فى نقل المعرفة بالتقدم المتقنى الصينى

إلى المجتمعات الأقل تقدما فى الغرب. إلا أن الصين نفسها كانت قد فقدت ديناميتها الاقتصادية، كما كان فقر الريف يؤدى إلى ثورات متكررة، كانت فى الغالب تقودها طوائف دينية أو جماعات سرية – "زهرة اللوتس البيضاء– **The White Lotus**، السحابة البيضاء– **The White Cloud**، العمائم الحمراء– **The Red Turbans**"؛ وفى آخر الأمر، قام ابن أحد العمال الزراعيين الجوالة، وكان أحد قيادات "العمائم الحمراء"، واسمه "تشو يوآن شانج: **Chu Yüan-Chang**"، قام بالاستيلاء على العاصمة المغولية "بيجين"، وأعلن نفسه إمبراطورا فى **1368**.

كان هناك نهوض مضطرد من دمار سنوات المغول الأخيرة فى ظل الإمبراطورية الجديدة، المعروفة بإمبراطورية "**منج– Ming**"، إلا أنه لم يكن هناك استعادة للدينامية الاقتصادية. أباطرة "**منج**" الأوائل كانوا، عن وعى، يثبطون الصناعة والتجارة الخارجية في سعى لتركيز الموارد فى الزراعة، وعليه فقد كانوا أقل تقدما فى أوائل القرن السادس عشر، مما كانوا عليه فى القرن الثانى عشر. فى الوقت نفسه، كانت مناطق أوراسيا الأخرى قد تعلمت التقنيات التى كانت الصين قد ارتادتها، وبدأت بناء حضارات مزدهرة خاصة بهم – ومعها جيوش وأساطيل.

الهوامش

(١) انظر ملخص للتغيرات في:

- J. Gernet, "A History", p.180.
- D. Twitchett, "Introduction", in Twitchett (ed), "Cambridge History of China", vol.3 (Cambridge, 1979), p.5.

(2) J. Gernet, "A History", p.179.

(3) J. Gernet, "A History", p.236.

(٤) يوجد خلاف بين المؤرخين حول حجم ومدى تأثير ذلك النظام الضرائبي في ذلك الوقت. يقول N.E.Mcknight إن الإعفاءات من النظام جعلت 17% فقط من السكان هم الذين يدفعون الضرائب، بينما كان النبلاء والمسئولون يحصلون على أكثر مما كان يحصل عليه المزارع العادي، وعليه فقد كان النظام ينقل الأرض من الأرستقراطية القديمة إلى شريحة الموظفين الرسميين الصاعدة، وليس للجماهير. انظر:

N.E. McKnight, "Fiscal Privileges and Social Order", in J.W. Haeger (ed), "Crisis and Prosperity in Sung China, (Tuscon, 1975).

(5) R.M. Somers, "The End of the Tang" in D.Twitchet (ed), (Cambridge History of China", vol.3, p.723.

(6) R.M. Somers, "The End", p.723.

(٧) للمزيد عن التمرد، انظر:

- R.M. Somers, "The End", pp.733-747.
- J. Gernet, "A History", p.267.

الرواية في الفقرتين التاليتين نقلا عن Somers

(٨) يوجد خلاف بين المؤرخين حول طبيعة تلك المزارع، حيث يرى البعض أنها كانت أشبه بعزب الإقطاع الغربي بينما يرى آخرون أنها كانت رأسمالية. للمزيد، انظر:

D. Twitchett, "Introduction", p.27.

(9) E.A. Kracke, "Sung k'ai-feng", in J.W. Haeger (ed), "Crisis", pp.65-66.

(10) Y.Shiba, "Urbanisation and Development of Markets", in J.W. Haeger (ed), "Crisis", p.22.

(11) E.A. Kracke, "Sung", pp.51-52.

(12) J. Gernet, "A History", p. 320.

(13) J. Gernet, "A History", pp. 310, 311.

(14) J. Gernet, "A History", pp. 334, 335.

(١٥) حسب ما جاء في: J. Gernet, "A History", p.333

(16) Fang Ta-tsung, in Y.Shiba, "Urbanisation".

(17) D. Twitchett (ed), 'Cambridge History of China", vol.3, p.30.

(18) L.C.J. Mo "Commercial Development and Urban Change in Sung China", Ann Arbor 1971), pp.124-125.

(19) Hsia Sung, quoyed in Y.Shiba "Urbanisation", p.42.

(20) N.E. McKnight, "Fiscal Privileges", p.98.

للمزيد عن تطور ومحتوى نظام الامتحان انظر:

J.F. Chaffee, "The Thorny Gates of Learning in Sung China", (Cambridge, 1985).

(21) J.F. Chaffee, "The Thorny Gates", p.3.

(22) N.E. McKnight, "Fiscal Privileges", p.98 footnote.

(٢٣) تلك هي النغمة السائدة في أشهر أعمال "كارل ويتفوجل Karl Wittfogel" الأخيرة: "Oriental Despotism" الذي كتبه بعد تخليه عن الماركسية، كما أن الفكرة حاضرة كذلك أحيانا في كتابات Etienne Balazs – عندما يقول مثلا: إن "الدولة كانت هي التي قتلت التقدم التكنولوجي في الصين" (Yale, 1964, p.11) "Chinese Civilisation- and Bureaucracy" هذا بالرغم من أنه يعترف في مواضع أخرى بتنوع وجهات النظر الفكرية وحقيقة التغير التكنولوجي؛ وأخيرا فإن الجدل يظهر أيضا في عمل ديفيد لاندرز– David Landes الأخيــر: (London, 1998) "The Wealth and Poverty of Nations" ولكن تأييد ذلك يعني التقليل من أهمية الدينامية الاقتصادية التي كانت في فترة "سونج".

(24) P.B. Ebrey, "Introduction", in P.B. Ebrey "Family and Property in Sung China: Yüan Ts'ai's "Precepts for Social Life", (Princeton, 1984), p.129.

(٢٥) هذه الفكرة موضحة على نحو جيد في:

Etienne Balazs 'Chinese Civilisation", p.8-9.

(٢٦) كما جاء عند: Etienne Balazs الذي أقر بأن تناوله كان متأثرا بــ"ماركس" و"ماكس فيبر": "كان الموظفون الرسميون المتعلمون والتجار يمثلون طبقتين معاديتين لبعضهما ولكنهما كانتا متداخلتين: E.Balazs "Chinese Civilisation", p.32.

(27) L.C.J. Mo, "Commercial Development", pp.140-141.

(٢٨) اقتباس في:L.C.J. Mo, "Commercial Development", p.20

(٢٩) فقرة مترجمة في: P.B. Ebrey, "Family", p.293

(30) J.W. Haegarm "Introduction to Crisis", p.8

(٣١) للاطلاع على محاولة تحليل ماركس للمغول، انظر:

R.Fox, "Genghis Khan", (Castle Hedingham, 1962).

-٣-

بيزنطة: الأحفورة الحية

لم يكن سقوط الإمبراطورية الرومانية فى أوروبا الغربية نهاية إمبراطورية كتلك، فالأباطرة الذين كانوا يصفون أنفسهم بالرومان كانوا قد بقوا يحكمون القسطنطينية (إسطنبول اليوم) على مدى ألف عام بعد أن نهب **القوط- The Goths** روما. اليوم، يطلق على الإمبراطورية اسم **بيزنطة- Byzantium**، إلا أن الأباطرة ورعاياهم كانوا يعتبرون أنفسهم "رومان"، رغم أن اليونانية كانت لغتهم. على مدى معظم تلك الأعـوام الألف، كانت عظمة إسطنبول، بقصورها الفخمة المترفـة ومكتباتها وحماماتها العامة وعلمائها المطلعين على معارف اليونان والرومان القديمة، وثلاثمائة كنيسة، وكاتدرائية "سانت صوفيا" الرائعة، كانت إسطنبول هى حصن الثقافة الوحيد ضد الفقر والأمية والحروب المستمرة التى كانت تتصف بها الأراضى المسيحية فى بقية أوروبا.

حتى فى القرن الثانى عشر، عندما كانت أوروبا الغربية تستيقظ وتستعيد ازدهارها، كان عدد سكان القسطنطينية، أكبـر منه في لندن وباريس وروما مجتمعة. كانت المدينة الفاتنة بالنسبة للنخب والإمبراطوريات الإسلامية المجاورة، رغم أن كلا من بغداد والقاهرة وقرطبة كانت أكثر منها سكانا[١].

بالرغم من ذلك كان ما أضافته الحضارة البيزنطية إلى قدرة الإنسانية على تأمين سبل العيش أو إلى معرفتها، قليلا جدا فى تلك الفترة التى امتدت ألف عام. كانت تعتمد، فى كل المجالات، على التقدم الذى كان قد بات معروفا بالفعل فى الإمبراطورية الرومانية القديمة، ولليونانيين فى القرن الخامس ق.م.

كانت كاتدرائية سانت صوفيا[٢]، التى اكتمل بناؤها فى منتصف القرن السادس، أروع مبنى فى أوروبا فى ذلك الوقت، إلا أنها كانت كذلك بمثابة نهاية أى تقدم للمعماريين البيزنطيين[٣]. التقنيات الإبداعية المستخدمة فيها لم تظهر فيما بعد، والمعماريون الذين جاؤوا بعد ذلك لم يعرفوا كيف يحافظون عليها. أما الأدب البيزنطى فكان رافضا للأصالة والإبداع، مع "نزعة لمحاكاة النماذج الكلاسيكية وابتاع قواعد متكلفة... حيث لم تكن هناك قيمة لأصالة المضمون أو حرية الإبداع واختيار الموضوعات"[٤]. كان الهوس بمحاكاة الماضى يعنى أن تكون لغة المجتمع الرسمى هى اليونانية "الكلاسيكية" التى كانت مستخدمة قبل ألف عام، وليس تلك المستخدمة فى حياة المدينة: كان الخطيب عندما يلقى كلمة رسمية، ينفر من الإشارة إلى أى أمر فى الحياة اليومية باسمه المعروف[٥]، كان الفن البيزنطى "محاصرا، مقيدا" باستمرار إلا أن أصبح "مجرد دعاية، إما للسلطة الإمبراطورية أو اللكنيسة"[٦].

كان هناك قليل من التقدم فى مجال التكنولوچيا، وكان الكيميائيون يحاولون التوصل إلى أساليب جديدة فى معالجة المعادن، رغم أن "التعدين العلمى كان قد تم تدميره تقريبا بسبب زيادة ممارسات السحر والشعوذة"[٧]. كان هناك تقدم فى صناعة واستخدام الزجاج، ومواد الكتابة والورق، كما كان البيزنطيون يعرفون الكثير من "الآلات البسيطة التى تستخدم كأجزاء ومكونات للرحويات ودواسات الماكينات والمجارف ورافعات الأثقال والمنجنيق، وما يلزمها من عجلات مسننة وأوتاد ومسامير وبكر...إلخ..."[٨]. إلا أن هذه المعارف، فيما يبدو، كانت مستخدمة فى مجالين محدودين: لتزويد الطبقة الحاكمة بسلع ومواد ترفية (مثل ذلك الطائر الميكانيكى المفرد الذى صنعه "ليو- **Leo**"، المتخصص فى الرياضيات للبلاط الإمبراطورى)، ولأغراض عسكرية. حتى فى المجال العسكرى، كانت إضافات البيزنطيين قليلة جدا، إلى ما كان قد تم إنجازه فى الإسكندرية قبل ألف عام.

لم يكن هناك حتى تقدم محدود فى العلوم. بقيت مخطوطات قليلة تفصل الاكتشافات التى تمت فى مجالى الرياضيات والفلك فى الإسكندرية اليونانية، إلا أن

عددا قليلا من طلاب العلم هم الذين كانوا يأخذونها على محمل الجد. كان معظم المفكرين يعتمدون على تفسيرات "**سفر التكوين**" فى "الإنجيل" لفهم العالم المادى، كما كانوا يعتقدون أن الأرض مسطحة وليست كروية(٩).

فوق ذلك، يبدو أنه لم يكن هناك أى تقدم فى أساليب كسب العيش بواسطة أغلبية السكان الذين كانوا يعملون بالزراعة. "لم تتطور الطرق وأدوات الزراعة عما كانت عليه فى الماضى"(١٠). كان المحراث الخفيف الذى تجره الثيران ما زال مستخدما، الحقول لم تكن تسمد بشكل منتظم، عدة الحصان التى كانت مستخدمة حتى القرن الثانى عشر كانت تخنق الحيوانات، ولم يكن حصانان يستطيعان جر حمل يزيد وزنه عن نصف طن تقريبا، وهو ثقل أقل عدة مرات مما يمكن جره باستخدام الأطقم الحديثة. كانت النتيجة أن الفائض المتوفر اللازم للدولة وترف الطبقة الحاكمة لم ينم، مهما كانت درجة فقر وجوع المزارعين. هذه الحقيقة البسيطة كامنة فى أساس الركود الذى أصاب باقى جوانب المجتمع البيزنطى. كان قد صمد أمام الأزمة التى دمرت الإمبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب، ولكن لم تنشأ أساليب جديدة لإنتاج ولا طبقة جديدة تجسد تلك الأساليب، ومن ثم لم يستطع أن يتفادى الضغوط نفسها، التى كانت قد أدت إلى أزمة الغرب فى القرن الخامس.

نجت الإمبراطورية فى الشرق، لأن المنطقة كانت بالأساس منطقة زراعة وفيرة؛ وبعد أن أصبحت القسطنطينية العاصمة الإمبراطورية، استطاع الأباطرة أن يحتفظوا بسيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا والبلقان ووادى النيل أهم منتج للقمح – الذى كان الآن يوفر احتياجات القسطنطينية مثلما كان يوفر احتياجات روما من قبل. كانت اقتصادات أقاليم الإمبراطورية فى أيدى مجموعة من كبار ملاك الأراضى المحليين، الذين كانوا يديرون مزارع كبيرة خاصة بهم، وصلت فى مصر مثلا إلى أن تكون "أشبه بممالك صغيرة، لها حراسها ومحاكها وجيوشها الخاصة وخدماتها للنقل والبريد(١١)، ولكن الجيش الإمبراطورى كان من القـوة والتنظيم المحكم لكى يجعلها تسدد احتياجات الإمبراطورية من الموارد المالية.

هــذه البنية انهارت بالفعــل بعد **50** سنة تقريبا من محاولــة "**جستنيان- Justinian**" الأخيرة إعادة غزو الغرب وإكمال سانت صوفيا فى القرن السادس. الجيوش والإنشاءات الضخمة وترف البلاط والكنيسة، كل ذلك كان يعتمد على ثروة الإمبراطورية التى كان يتم استنزافها إلى أعلى، أما فقر المزارعين الذى كان يتفاقم وسخط الأهالى الأقل ثراء فى المدن الإقليمية، فأدى إلى "صدامات وحشية بين فئات متنافسة فى كل مدن الإمبراطورية"(١٢). كانت الإمبراطورية والكنيسة تنفران أعدادا كبيرة من الناس بمحاولتهمـــا فرض امتثال دينـــى. كان الأساقفة، "مدعومين بأعمال عنف من قبل الكهنة" يقومون بالهجوم على الأديرة "للقضاء على الوثنية"(١٣). كانت هناك اعتداءات متكررة على اليهود واضطهاد دموى للمسيحيين من المؤمنين بطبيعة واحدة للمسيح أو التفسيرات الآريوسية أو النسطورية (التى كان لها مؤيدون كثر). لم تجد الإمبراطورية سوى القليل من الدعم عندما تعرضت للهجوم فى أوائل القرن السابع من الجيوش الفارسية، ثم العربية – الإسلامية فى سوريا ومصر، ثم من قبل الشعوب السلافية فى البلقان. تقلصت الإمبراطورية إلى كيان هزيل مكون من القسطنطينية نفسها وجزء من آسيا الصغرى وبعض المدن الصغيرة وعدد قليل من السكان فى العاصمة واضمحلال عام فى مستويات العلم والمعرفة.

استطاعت الإمبراطورية المهزولة البقاء لأن حكامها أعادوا تنظيم الاقتصاد لكى يفى باحتياجات الدفاع عنها. حاولوا تفكيك المزارع والعزب الكبيرة وتوطين جيوش كاملة فى المناطق الحدودية مع حيازات زراعية صغيرة، معتقدين أن مثل هذا التنظيم كان من شأنه أن يوفر ميليشيات للدفاع عن الإمبراطورية، كما يشكل قاعدة مضمونة للضرائب.

بهذا الأسلوب، تمكنوا من الحفاظ على قلب الإمبراطورية محصنا، لدرجة أنهم، بحلول القرن العاشر، كانوا قد تمكنوا من استعادة بعض أراضى البلقان التى كان يسكنها "السلاف- **The Slavs**"، إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب على ضعف النظام، لتعود إسطنبول مرة أخرى إلى الاضمحلال فى منتصف القرن الحادى

عشر. كانت الإمبراطورية أسيرة تناقض عضوى، فقد كان الهدف بناء طبقة فلاحية مستقلة يمكن فرض ضرائب عليها، إلا أن فرض الضرائب كان يدفع الفلاحين إلى هجر الأرض وتركها لمن هم أكثر ثراء وسطوة.

كان صغار المزارعين يواجهون "غزوات سنوية تقوم بها جماعات فظة وعدائية من محصلى الضرائب تصحبها جماعات من الجنود... كان يتم جلد المتخلفين عن السداد على الفور، والحجز على ممتلكاتهم البسيطة"[١٤]، وأحيانا كان يتم سجنهم وتعذيبهم – وفى القرن الثانى عشر كانت تطلق عليهم كلاب قبرصية جائعة. فى أفضل الأحوال كانوا يعيشون على الكفاف، وكان فضل المحصول يعنى أن يضطر أكثر المزارعين اجتهادا، لبيع أرضه والفرار، وكان مثل هذه الأوضاع يجعل الفلاحين يخضعون لملاك أقوياء كشكل من "الحماية"، وعليه لم يكن مستغربا أن يدعى زعيم إحدى الانتفاضات الفلاحية فى 932 أنه كان ابن إحدى الأسر الكبيرة[١٥].

نجحت البيروقراطية الإمبراطورية بالفعل فى منع جماهير الحضر من التنظيم على نمو مستقبل، أما التجار والصناع فقد كانوا منظمين فى طوائف تحت سيطرة الدولة، الأمر الذى كان يحد من أرباحهم بشدة، وهو "ما أخر نمو برجوازية محلية قوية"[١٦]، ولذلك عندما كانت تظهر فرص ملائمة للتجارة كان يغتنمها تجار أجانب، ومن ثم كانت زيادة نشاطهم تؤدى إلى زيادة ضعف الإمبراطورية.

لم تتطور كذلك طبقة من العمال الأحرار الذين يعملون بالأجر، وذلك بسبب بقاء العبودية فى المدن؛ فمن القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر، كانت "الانتصارات الكبرى قد أغرقت المدن بسلع بشرية رخيصة، ولم تبدأ العبودية فى الانقراض إلا بعد ظهور نتائج الهزائم العسكرية وإغلاق الأسواق وتضاؤل الثروات وتوقف مصادر الإمداد بالعبيد فى القرن الثانى عشر... ليعطى ذلك كله للعامل الحر... قوة اقتصادية"[١٧].

كان الوجه الآخر لعظمة وأبهة القسطنطينية وثروة حكامها، فقر جماهير السكان المدقع، كانت أعداد كبيرة منهم تعيش فى أكواخ، أو مساكن بائسة، أو فى العراء، ولعدم وجود قاعدة اقتصادية لهم. لم يكن الفقراء يستطيعون التحرك كقوة مستقلة. كان تمردهم يمكن أن يحدث أضرارا قليلة لفترات قصيرة، ولكن حتى معاناتهم كان يمكن أن تستغلها جماعات مختلفة لصالحها؛ ولذلك فإن تمرد "**نيكا- Nike**" الكبير فى أوائل فترة حكم "**جستنيان- Justinian**"، والذى استمر قرابة الأسبوعين وأدى إلى حريق هائل التهم نصف المدينة، هذا التمرد استغلته قوى برجوازية كانت تعارض فرض "**جستنيان**" ضرائب عليها؛ ومن الآن فصاعدا سوف يحرص الأباطرة على تقديم القمح الرخيص لجماهير الحضر، ليصبح الانتفاضات بعد ذلك تأييدا للإمبراطور وضد أعدائه.

كان هناك حتى شكل مؤسسى لأعمال الشغب والعنف يحرف الجماهير عن رفع مطالب طبقية خاصة بهم، وكان يتمثل ذلك فى تنظيم جماعات "خضراء" و"زرقاء" متنافسة من مشاهدى الألعاب فى ساحة الألعاب (الهيبدروم) كان المئات من الشباب من كل جانب يحتلون مقاعدهم، يرتدون ثيابا باللون الخاص بهم، يهتفون ويصيحون تشجيعا أو استهجانا حسب الموقف، وكثيرا ما كانت تتطور الأمور إلى أعمال شغب وعنف دموى، وأحيانا كان لا بد من استخدامة قوات عسكرية لاستعادة النظام؛ إلا أن رعاية الكثير من "الكبار" والمتنفذين، بمن فيهم الإمبراطور والإمبراطورة، لمثل تلك الجماعات، يؤكد أن هذا النظام، بصرف النظر عن تعريض الإمبراطورية للخطر، كان وسيلة للتنفيس[١٨].

لم تظهر الاضطرابات وأعمال الشغب التى تعكس مصالح سكان الحضر، إلا بعد انهيار نظام قديم القمح المجانى أو الرخيص فى القرن الثانى عشر، وآنذاك فقط كان أن بدأت طوائف وجماعات الجرفيين والتجار القيام بدور، وهو أمر مثير للاهتمام[١٩].

بقيت بيزنطة معقلا أخيرا للحضارة اليونانية - الرومانية، لأن البيروقراطية الإمبراطورية كانت تديرها شريحة من الخطباء اليونانيين المثقفين، إلا أنها كانت

مجموعة ممن يعيشون على إنتاج الآخرين بدلا من الإسهام فيه أو تنظيمه، ومن هنا كان تباهيها بالابتعاد عن العالم المادى، كما كانت تخشى ظهور أى طبقة قد يؤدى قربها من الإنتاج إلى تحويل جزء من الفائض إلى جيوبها؛ وهو ما يفسر الطبيعة العقيمة والمتكلفة لثقافة بيزنطة، كما يفسر قوة أفكار الخرافة والشعوذة بين مختلف الجماعات الاجتماعية. كان الكهنة، على الأقل، نصف أميين فى الغالب، وكانت رسالتهم تعتمد على قصص بسيطة عن القديسين، وحكايات عن معجزات، وإيمان بالقوة السحرية للآثار المقدسة. وبينما كانت الوثنية قد زودت الناس بآلهة محليين، كانت المسيحية تزودهم الآن بقديسين محليين رعاة. عبادة الإلهة الأم، أصبحت عبادة مريم البتول- **Virgin Mary**. حقوق الخصب أصبحت كرنفالات ثلاثاء المرافع- **Shrove Tuesday** (الثلاثاء السابق لأربعاء الرماد- المترجم) واحتفالات الفصح- **Easter**.

جنبا إلى جنب الخرافة، كانت تمضى أكثر الممارسات بربرية. بحلول القرن الثامن، كان يمكن أن "تجد عمليات مثل قطع اللسان وبتر اليد وجدع الأنف كجزء من النظام الجنائى.... الكنيسة كانت توافق على ذلك لأن الآثم الذى لا لسان له كان ما زال لديه وقت للتوبة"[٢٠]. فى المدن، كانت الأخلاق الرصينة فى نظر الكنيسة تعنى "الحجب الصارم للنساء. كان من المستحيل أن تظهر امرأة "محترمة فى الشارع دون نقاب"[٢١]، وفى الوقت نفسه كانت هناك دعارة على نطاق واسع.

ظهر العنف الكبير للحضارة البيزنطية فى مطلع القرن الثالث عشر، عندما وقعت القسطنطينية فى أيدى جماعة من اللصوص والمغامرين من أوروبا. وجد المشاركون فى الحملة الصليبية الرابعة المدينة جائزة أفضل من أورشليم التى كانت مقصدهم. سلبوها ونهبوها ثم حكموها باعتبارها مملكة إقطاعية. ثم طردها منها فى **1261**، إلا إن الدولة البيزنطية المستعادة كانت ظلا شاحبا لذاتها السابقة، ثم سقطت فى النهاية، فى **1453**، فى ايدى الأتراك العثمانيين.

شكل ما من الحضارة كان قد بقى على مدى ألف عام، ولكن التواصل الوحيد للطبقة الحاكمة، والمفترض أنها كانت مثقفة، مع الجماهير العاملة، كان عن

طــريق جباة الضرائب والكهنـــة الريفيين شبه الأميين. مثل هذه الحضـــارة كان لا يمكن أن يكون أكثر من أحفورة حية، تمرر إنجازات عهد إلى غيره، دون أن تضيف شيئا.

لم يحدث أن تطورت فى المجتمع اليونانى – الرومانى طبقة قادرة على تثوير المجتمع وإطلاق عنان قوى الإنتاج. كانت عصور الظلام هى النتيجة فى أوروبا الغربية، وكانت ألف سنة من العقم هى النتيجة فى البلقان وآسيا الصغرى.

الهوامش

(1) S. Runciman, "The Place of Byzantium in the Medieval World", in J.M. Hussey, "Cambridge Medieval History", vol.IV, part II, p.358.

(٢) يعنى الاسم اليونانى حرفيا "الحكمة المقدسة" ولكن "سانت صوفيا- St Sophia" هو المستخدم عادة فى الإنجليزية.

(3) A.Grabor, "Byzantine Architecture and Art" "Cambridge Medieval History", vol.IV, part II (Cambridge, 1967), p.330.

(4) G. Dölger, "Byzantine Literature", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part II, p.20.

(5) G. Dölger, "Byzantine Literature", p.209.

(6) A.Grabor, "Byzantine Architecture and Art", p.306.

(7) K. Vogel, "Byzantine Science", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part II, p.287.

(8) K. Vogel, "Byzantine Science", p.305.

(٩) انظر الفصل الثامن من:

"The physical University", in C.Mango "Byzantium", (London, 1994), pp.166-176.

(10) R.J.H. Jenkins, "Social Life in Byzantine Empire", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part II, p.93.

(11) H. St L.B. Moss, "Formation of the Eastern Roman Empire", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part I, p.38.

(12) P.Brown, "The World of Late Antiquity", (London, 1971) p.157.

(13) P.Brown, "The World", p.104.

(14) R.J.H. Jenkins, "Social Life", p.97.

(15) R.J.H. Jenkins, "Social Life", p.98.

(16) R.J.H. Jenkins, "Social Life", p.84.

(17) R.J.H. Jenkins, "Social Life", p.89.

(١٨) يقول بعض المؤرخين: إن المجموعات المختلفة كانت تمثل مصالح سياسية أو طبقية أو دينية مختلفة، ولكن "آلان كاميرون– Alan Cameron قدم أدلة كثيرة ليبرهن على رأيه بأنها كانت تتقاطع مع التقسيمات الطبقية والدينية وصرفت الاهتمام عن قضايا كان يمكن أن تشكل خطرا على الإمبراطورية. كان تمرد "Nike" هو الاستثناء الجزئي عندما أصدرت الجماعات الزرقاء والخضراء معا، بيانا ضد "جستنيان" لإصداره قرارا بإعدام "مشاغب" من كل من الجانبين. ولكن حتى في تلك الحالة، كما رأينا، لم تكن أعمال الشغب والتمرد بواسطة الفقراء ضد الأغنياء؛ وللمزيد انظر:

A.Cameron "Blues and Greens: Circus Factions at Rome and Byzantium", (Lundon, 1976).

(19) A.Cameron "Blues and Greens", and R.J.H. Jenkins, 'Social Life", p.86.

(20) J.B. Bury, "Introduction" to "Cambridge Medieval History", vol IV, pxix.

(21) R.J.H. Jenkins, 'Social Life", p.88.

- ٤ -

الثورات الإسلامية

لم يؤد ركود بيزنطة بعد "جستنيان" إلى عقم الإمبراطورية الرومانية العجوز فحسب، وإنما أدى كذلك إلى سلسلة من الفورات الدرامية فى أماكن أخرى من الشرق الأوسط، كانت قد أضافت شيئا ما إلى المعرفة الإنسانية وتقنياتها، كما أنتجت واحدا من أعظم الأديان العالمية.

كانت نقطة البداية "مكة"، ذلك الموقع غير المتوقع، البلدة التجارية الصغيرة فى أراضى شبه الجزيرة العربية القفر. كان سكان المنطقة بدوا يعملون بالرعى، يستخدمون الجمل (وكان قد تم تدجينه نحو **1000** ق.م) فى تنقلاتهم بقطعانهم من واحة إلى أخرى للقيام ببعض الأعمال التجارية أو السلب والنهب. كانوا منظمين فى عشائر وقبائل تديرها مجالس من كبار رجال العشائر التى كانت تحارب بعضها البعض وتغير من وقت لآخر على الشعوب المستقرة على حواف الصحراء.

على أنه كان هناك كذلك مزارعون مستقرون حول الواحات وفى بعض المناطق الساحلية – وبخاصة في الجنوب[١]، حيث كانت حضارة عمرها ألف عام على الأقل، وكانت قد بقيت على تواصل مع الحضارة الإثيوبية، مثيلتها فى القدم، على الجانب الآخر تماما من البحر الأحمر؛ كما كانت بعض الأسر البدوية قد بدأت تستقر كذلك فى مراكز تجارية وتحقق ثروة من العمل فى نقل السلع بين الإمبراطورية الرومانية والحضارات الشرقية بقوافل الجمال. كانت مكة أحد أماكن الاستقرار تلك، ومع بداية القرن السابع، كانت قد أصبحت بلدة مزدهرة.

كانت شجاعة وشرف المرء وعشيرته هما محور القيم التقليدية بين القبائل البدوية. لم يكن هناك دولة، وكان الالتزام لجماعة القرابة وليس للمجتمع ككل. كانت

الاعتــداءات وعمليات القتــل والسرقة تعتبر تعديا على الأســرة أو العشيــرة ويتم التعامل معها عن طريق الثأر وخصومات الدم. كان الدين مسألة تماه مع معبود فردى، يمكن أن ينتقل مع الجماعة القبلية – تقريبا مثلما انتقل "**تابوت العهد**– **Ark of the Covenant**" مع "أبناء إسرائيل" فى التيه كما يقول "**العهد القديم**" لديهم.

مثل هذه القيم، لم يكن ليقدم أى طريقة سهلة للتعامل مع التوترات والصراعات التى كانت تنشب بعد أن عرف بعض البدو حياة مستقرة. كان المزارعون المستقرون فى أماكنهم منذ فترة طويلة وسكان المدن قد انقطعت علاقتهم بهم منذ وقت بعيد. ازدهرت المسيحية فى جنوب الجزيرة العربية، وكان الكثيرون من مزارعى الواحات قد تحولوا إلى اليهودية أو إلى أحد أشكال المسيحية، وفى بلدة مثل مكة كان اندماج البدو والتجار والصناع والمزارعين يضاهيه جدال بين وجهات نظر دينية مختلفة، وكان لذلك الجدال متضمنات عملية حيث إن القيم والآلهة القديمة جعلت من المستحيل إرساء أى قوانين أو قواعد للسلوك تتجاوز الولاء للعشيرة والقبيلة.

تفاقمت الأزمة بسبب ما كان يجرى فى الإمبراطوريتين الكبيرتين المتاخمتين للجزيرة العربية، بيزنطة وفارس. كانت فارس قد استولت على مصر، لفترة قصيرة، من بيزنطة فى أواخر القرن السادس، منهية **900** عام من الهيمنة اليونانية – الرومانية. إلا أن المجتمع الفارسى نفسه كان فى أزمة كبيرة بسبب إهمال أرستقراطيته الزراعية نظم الرى التى كانت قد عرفتها بلاد ما بين النهرين وأدت إلى انتعاش المدن. الخراب الذى أحدثته الحرب زاد الطين بلة. فى كلتا الإمبراطوريتين، كان هناك فقر واسع واضطراب اجتماعى كبير[٢]، وكان العالم كله يبدو فى حالة فوضى.

كان ذلك هو العالم الذى نشأ فيه "**محمد**"، اليتيم المكى الذى ينتمى إلى أسرة تجارية بسيطة، وحاول دون نجاح كبير أن يعمل بالتجارة. خبر "**محمد**" فوضى العالم من حوله باعتباره اضطرابا فكريا، لم يكن فيه لأى من الأفكار والقيم

المتصارعة أى معنى. كان لديه شعور بقوة تدفعه لأن يجعل لحياته الخاصة وللمجتمع الذى يعيش فيه معنى. مجموعة من الرؤى الدينية جعلته يعتقد أن "الله" كان يتحدث إليه، هذه الرؤى صاغت المفاهيم الدينية التى صادفها فى نموذج جديد. تلى الكلمات على آخرين فدونوها فيما يعرف بـ"**القرآن**"، وراح بالتدريج يكون جماعة من التابعين، كانوا إلى حد بعيد من بين شباب أسرة مكة التجارية المختلفة.

كانت الرسالة التى بشر بها "**محمد**" تشبه إلى حد بعيد مسيحية ويهودية المزارعين وسكان المدن العرب. قالت بإله واحد، فى مواجهة آلهة كثر متنافسين كان يقول بهم البدو الرعيان. جعلت الولاء للعقيدة وليس لقوانين وقيم العشيرة والقبيلة، كانت مع الفقراء وحمايتهم من الظلم، ولكنها لم تزدر الأغنياء. ومثل المسيحية الباكرة أيضا كانت تروق لنساء الحضر (كانت هناك زوجات فى جماعة "**محمد**"، أزواجهن يعارضون الرسالة بشدة)؛ ورغم أنها كانت تفترض أن النساء أدنى مرتبة من الرجال (بقبولها الحجاب الذى كان سائدا فى الإمبراطورية الرومانية على سبيل المثال) كانت تدعو الرجال إلى احترام النساء وعدم الإساءة إليهن، كما أعطتهن بعض حقوق التملك.

كان وجهها الدينى الصرف يتضمن دمج مجموعة من الأساطير التوراتية والممارسات الدينية من كل من اليهود والمسيحيين، إلا أن الرسالة كانت تختلف عن صيغ مسيحية ذلك الوقت فى جانب مهم. لم تكن مجرد مجموعة أفكار أو قواعد لسلوك أخلاقى، بل كانت فى ذات الوقت برنامجا سياسيا لإصلاح المجتمع، لإزاحة "بربرية" المنافسة، المسلحة غالبا، بين قبائل وأسر حاكمة، ليحل محلها مجتمع، "**أمة**"، يستند إلى قانون واحد.

أدى هذا الجانب السياسى من دعوة "**محمد**" إلى صدامات مع الأسر الحاكمة فى مكة، وإلى الهجرة الاضطرارية لجماعته إلى "المدينة"، ثم إلى عودته فى النهاية بجيش إلى مكة فى **360** م، ليبدأ تأسيس دولة جديدة. نجح لأنه استطاع أن يكون مجموعة من الشباب يمكن أن تكون بمثابة القلب لدعوته، ملتزمة برؤية

واحدة للعالم، وأن يشكل في الوقت نفسه تحالفات تكتيكية مع جماعات كان هدفها مختلف – مع أهل المدن والمزارعين الذين كانوا يريدون السلام فحسب، ومع الأسر التجارية التي كانت تتطلع إلى المكاسب التي يمكن أن تجلبها لهم دولة عربية قوية، ومع شيوخ القبائل الذين كانوا يحلمون بمغانم الحرب من أجل قضيته.

كانت الدولة الجديدة في وضع يمكنها من الإفادة من أزمتي الإمبراطوريتين الكبيرتين. توفي "**محمد**" في **632** م، ولكن "**أبو بكر**" و"**عمر**"، اللذان خلفاه على التوالي – وكانا لفترة طويلة من تابعيه الذين ينتمون إلى أسر تجارية – كانا يعرفان كذلك كيف يجمعان بين المبدأ الديني والبراجماتية السياسية. وجها طاقات العشائر والقبائل البدوية العدائية وكرساها في الهجوم على المدن الغنية في الإمبراطوريتين الكبيرتين، ليكتشفا في هذه العملية مدى ضعفهما. سقطت تلك المدن واحدة تلو الأخرى في أيدي الجيوش العربية – دمشق في **636** م، عاصمة "ستيسيفون– **Ctesiphon**" الفارسية في **637** م، المدينة المصرية "بابيلون– **Babylon**" (وهي الآن جزء من القاهرة) في **639** م، الإسكندرية في **642** م؛ وفي غضون عشر سنوات، كان أتباع "**محمد**" قد أقاموا إمبراطورية ضخمة من أراضي حضارات الشرق الأوسط التاريخية.

في جزء منه، كان النجاح نتيجة استخدام بارع لإمكانيات وقدرات قبائل البدو القتالية. وجد قادة الجيوش الإسلامية أن المقاتلين من راكبي الجمال، بسرعة تحركهم وقطع الصحارى التي كانت تبدو غير قابلة للاجتياز، كان بإمكانهم الهجوم على مدن الإمبراطوريات المتاخمة على حين غرة وبقوة شديدة. كانوا يستطيعون استخدام فضاء الصحراء مثلما كانت زوارق الإمبراطورية البريطانية القديمة تستخدم المحيطات، تضرب ساعة تشاء الجيوش المدافعة، التي كانت أقل منها قدرة على الحركة[٣]، أو مثل قوات المظلات الحديثة التي تستخدم للوصول إلى أهداف بعيدة في أي وقت تريد[٤].

ولكن الانتصارات كانت كذلك شهادة على مدى كره شعوب تلك الإمبراطوريات لحكامها. اليهود، والمسيحيون "من غير الأرثوذكس"، الذين كانوا يشكلـــون في

الغالب أكثرية سكان الحضر، كانوا يرحبون بالجيوش العربية، وبخاصة لأن الغزاة المسلمين لم يسعوا فى البداية لإنشاء هياكل دولة جديدة أو تحويل السكان إلى دينهم، بل إنهم تركوا معظم الإدارات القديمة كما كانت واحترموا معتقدات المسيحيين واليهود والزرادشت الفرس سواء بسواء. كل ما كانوا يطلبونه هو دفع ضرائب "جزية" بشكل منتظم، مع مصادرة الأراضى التابعة للدولة والأرستقراط الذين كانوا مستمرين فى مقاومة حكمهم؛ أما معظم الأهالى فقد كانوا يجدون الأحوال أقل ظلما واضطهادا، منها فى ظل الإمبراطوريات القديمة.

ويروى كاتب يهودى كيف "جاء الخالق بمملكة إسماعيل [أى العرب] لكى تخلصكم من الشر"، بينما يقول مؤرخ مسيحى سريانى – **Syriac** – "الرب... أنقذنا من أيدى الرومان بواسطة العرب... ليخلصنا من وحشية الرومان وكرههم الشديد لنا"(°).

كان قادة الجيوش القبلية العربية والأسر الملكية الكبيرة، هم أول المستفيدين من الغزو. كانوا يقسمون الغنائم بينهم، وفى غضون سنوات قليلة اصبحوا يشكلون أرستقراطية عربية – واسعة الثراء ولكن شريحة عليا صغيرة، تعيش فى بلدات صغيرة جديدة أشبه بالثكنات على تخوم الصحراء، تحصل الجزية من الأهالى، تاركة ملاك الأراضى والموظفين الرسميين يديرون أملاك الإمبراطوريات القديمة.

إلا أنه كانت هناك دائما حزازات واحتكاكات دائمة داخل الجيوش المنتصرة، إذ كانت بعض القبائل العربية تشعر بأنها لم تحصل على نصيبها المستحق من ثمار الانتصارات. تفاقمت مشاعر الإحباط فى أربعينيات القرن السادس إلى أن انفجرت فى حرب أهلية تركت آثارها على تاريخ الإسلام كله؛ فبعد مقتل الخليفة الثانى، "**عمر**" بيد عبد فى **644** م، انتقلت السلطة إلى "**عثمان**"، أحد قدامى المؤيدين لـــ"**محمد**"، والذى كان أيضا أحد أبناء أقوى الأسر التجارية فى مكة. عمق ذلك مشاعر الألم والغضب. قتل "**عثمان**" فى **656** م. أدى إلى اختيار "**على**" خليفة، وهو ابن عم محمد وزوج ابنته، إلى حرب معلنة بين جيوش إسلامية متنافسة، إلى أن

قتل هو الآخر على يد بعض أنصاره ممن يعرفون بـ"**الخوارج**"، الذين كانوا ضد مهادنته خصومه. انتقلت السلطة إلى صهر لـ"**عثمان**" ليؤسس أسرة وراثية هى الأسرة "**الأموية**" نسبة إلى كنيتهم.

كانت الأسرة "الفائزة" مرتبطة فى عيون الكثيرين بالمفاسد التى كانت دعوة "محمد" تحاربها، وأصبح "**على**" وابنه "**الحسين**" (الذى قتله جيش أموى فى **680**) شهيدين فى نظر كل أولئك العائدين إلى زمن "**محمد**"، ويعتبرونه نموذجا للنقاء الذى تم إفساده منذ ذلك الحين. مرة بعد أخرى فى التاريخ الإسلامى اللاحق ستكون الدعوة إلى العودة إلى زمن "**على**" أو الخليفتين الأولين، تطلقها جماعة اجتماعية أو أخرى للتمرد على الأوضاع القائمة، وما زالت إلى يومنا هذا دافعا محفزا لكثير من المنظمات الإسلامية الأصولية.

اهتم الأمويون بتثبيت أركان الإمبراطورية وجعلوا عاصمتها فى سوريا، وواصلت الجيوش العربية زحفها لتستولى على "كابول" و"بخارى" فى الشرق، وتصل إلى الأطلنطى فى الغرب؛ وكان ذلك يأتى بالمزيد من الثروة للطبقة الأرستقراطية من شيوخ القبائل وكبار التجار السابقين، الذين كانوا يعيشون حياة ترف وبذخ فى مدجن شبه عسكرية، ينفقون عن سعة على بناء القصور لأنفسهم، وتحتهم كان آخرون من أعضاء الجيوش العربية المعفيين من دفع الضرائب ويحصلون على أنصبتهم من غنائم وجزية الغزو.

الطبقات الحضرية والتمرد الدينى

أعطى توحيد منطقة كبيرة فى إمبراطورية واحدة دفعة كبيرة لتجارة السلع الترفية، حيث هرع التجار والباعة والحرفيون إلى المدن الجديدة الأشبه بالثكنات العسكرية ويستوطنون ضواح كانت تتكاثر حول أسوارها، يمدون الحكام العرب وقصورهم وجيوشهم وإداراتهم بما يحتاجون إليه. كان معظم أولئك من غير

العرب الذين انجذبوا إلى دين حكامهم – الذى لم يكن فى آخر الأمر يختلف عن الأديان التوحيدية التى كانت سائدة فى الإمبراطوريات القديمة، إلا أن المسلمين العرب لم يكونوا حريصين على منح قادمين جددا نفس الحقوق الدينية مثل الإعفاء من الضريبة والحصول على نصيب من الجزية؛ وعليه فقد كان المتحولون الجدد يدعون بـــ"الموالى" ومستبعدين من مزايا العرب الذين كانوا يعتبرون أنفسهم المسلمين الحقيقيين فحسب.

ببلوغ الإمبراطورية العربية مائة عام من عمرها، كان المسلمون من غير العرب قد أصبحوا الأغلبية فى مدن الإمبراطورية ومفتاح صناعاتها وتجارتها التى كان التجار العرب قد تخلوا عنها ليصبحوا أرستقراطية جديدة؛ كما كانت أهميتهم تتزايد باستمرار فى مجال الإدارة، ورغم ذلك كله كانوا يعانون من التمييز ضدهم.

وجدت الجماعات المنشقة ممن كانوا يطلقون على أنفسهم "شيعة على" أنصارا جاهزين، وكذلك "الخوارج" الذين كانوا يرون أن "على" قد رضخ للفساد؛ ومثلما كان قطاع من الطبقات الحضرية فى مكة قد وجد فى دعوة "**محمد**" رؤية جديدة للعالم تمكنهم من القتال ضد نظام اجتماعى سيئ، كانت الطبقات الحضرية الآن تجد هذه الدعوة مفيدة. بنفس الدرجة، فى القتال ضد الدولة التى أرساها من جاؤوا بعده. كانت نداء لإقامة نظام جديد يزيح الظلم والاضطهاد اللذين كانا يعوقان تطور تلك الطبقات.

يرى بعض المؤرخين أن الصراعات كانت لتأليب الفرس على العرب[٦]، لكن الحقيقة أن الطبقة العليا الفارسية كانت تدعم الأمويين، بينما كانت صفوف الساخطين والناقمين تضم الكثيرين من العرب:

> **كانت الأرستقراطية الفارسية الباقية تتعاون مع الدولة العربية طالما كانت تعترف بامتيازاتها، وعند التحول غيروا عقيدتهم الزرادشتية إلى عقيدة إسلامية. الفرس المتأسلمون من أهالى المدن والريف غيروا عقيدتهم الزرادشتية إلى بدع إسلامية ضد الأرستقراطية، العربية والفارسية على السواء[٧].**

مع تزايد التوترات الطبقية، كانت هناك سلسلة من حركات التمرد بقيادة "مهدية" مختلفين، كانوا يبشرون بميلاد نظام دينى واجتماعى جديد، ولكن كان يتم إحباطها؛ ثمت جدد الصراع فى منتصف القرن الثامن بين قادة الجيوش العربية.

استغل "**أبو العباس**"، سليل "بنى هاشم" الذين تنتمى إليهم عائلة "**محمد**"، الـموقف لصالحـــه، وأعطى الضـــوء الأخضر لأحد عبيـــد أسرته المحـــررين، "**أبو مسلم**"، ليتولى عمليات الإثارة الدينية والاجتماعية فى جنوب غرب فارس. عمل "**أبو مسلم**" بشكل سرى لحشد الدعم والتأييد إلى أن أصبحت الظروف ملائمة لانتفاضة شعبية كبيرة، وراحت مدينة تلو الأخرى من مدن غرب فارس تعلن تأييدها برفع راية العباسيين السوداء، وهو اللون المرتبط بالجماعات الألفية. زحف "**أبو مسلم**" على الفرات حيث هزم جيشا أمويا كبيرا. هذه "الدعاية الثورية الواسعة والناجحة" مهدت الطريـــق لـــ"**أبو العباس**" ليهزم الأمويين، ويقتل كل الأسرة ويؤسس أسرة جديدة هى الأسرة العباسية[٨]. الفقراء الذين كانوا يتوقعون التحرر من فقرهم، سرعان ما خاب أملهم. انقلب الحكام العباسيون على أكثر مؤيديهم "تطرفا"، ليعدموا "**أبو العباس**" وعددا كبيرا من أنصاره، إلا أن ذلك كان أكثر من مجرد تغير داخل الأسرة.

فى كتابه عن تاريخ الإسلام، يذهب "**برنارد لويس- Bernard Lewis**" إلى القول: إنها كانت "ثورة مهمة فى تاريخ الإسلام... مثل الثورة الفرنسية أو الروسية فى تـــاريخ أوروبـــا"[٩]، بل إن بعض المؤرخين يشير إليها باعتبارها "ثـــورة بورجوازية". المؤكد أن العباسيين استغلوا تعبئة سخط الجماهير للدفع بإعادة تنظيم كاملة للحكم الإمبراطورى. كانت الإمبراطورية تدار بواسطة أرستقراطية عربية عسكرية كاملة، لها جذور فى الحروب والغزو لفرض الجزية. تحت العباسيين، أصبح الإسلام دينا عاما، أصبح المؤمنون به من العرب وغير العرب يعاملون فيه باضطراد على قدم وساق، لم تعد الأصول العرقية هى الأساس، بالرغم من أنه كان ولا يزال هناك أغنياء وفقراء. كان هناك "نظام اجتماعى جديد يقوم على

اقتصاد زراعي تجاري سلمي، مع طبقة كوزموبوليتانية حاكمة من الموظفين والتجار والصيارفة و"العلماء"، طبقة رجال الدين والقضاة والمعلمين والوجهاء"[١٠]. كان من أبرز مظاهر ذلك التغيير، نقل البلاط إلى عاصمة جديدة فخمة هي "**بغداد**" الواقعة في أخصب بقعة من بلاد ما بين النهرين وعلى طريق تجارة مهم إلى الهند، والتي لا تبعد سوى أميال قليلة من "**ستيسيفون- Ctesiphon**"، العاصمة الفارسية القديمة.

فتحت الثورة العباسية الطريق أمام قرن أو يزيد من التقدم الاقتصادي. ازدهرت وديان الأنهار في وديان بلاد ما بين النهرين والنيل، لتنتج القمح والشعير والأرز والتمور والزيتون. قام الحكام بإصلاح شبكات قنوات الري في بلاد ما بين النهرين، وزادت المحاصيل[١١]. انتشرت زراعة القطن، التي أدخلت من الهند، من شرق فارس إلى إسبانيا، واتسعت تجارة الإمبراطورية. كان التجار يسافرون إلى الهند وسريلانكا وجزر الهند الشرقية والصين، وكان من نتائج ذلك استقرار تجار عرب في مدن جنوب الصين. امتدت التجارة كذلك من "البحر الأسود" حتى "الفولجا" في روسيا – وجدت عملات نقدية عربية حتى في السويد – مرورا بالحبشة ووادي النيل إلى أفريقيا، وكذلك، عن طريق التجار اليهود، إلى غرب أوروبا.

بموازاة اتساع التجارة، ظهر ما يشبه النظام المصرفي. كان للمصارف الرئيسية في بغداد أفرع في الكثير من مدن الإمبراطورية، كما كان هناك نظام جيد للشيكات وخطابات الضمان[١٢]، الأمر الذي كان يزيح عن التجار عبء حمل مبالغ كبيرة من الذهب والفضة بين أماكن بعيدة في ارجاء الإمبراطورية. كان بالإمكان إصدار شيك في بغداد وصرفه في مراكش على سبيل المثال. الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا، تعني أن عددا كبيرا من التجار كانوا مسيحيين أو يهودا، رغم أن رجال الأعمال المسلمين لم يعدموا وسيلة للالتفاف على ذلك[١٣]، كما ذكر "**مكسيم رودنسون- Maxime Rodinson**".

انتعشت كذلك المصنوعات الحرفية- المنسوجات بالدرجة الأولى، وكذلك الفخار والمشغولات المعدنية والصابون والعطور، بالإضافة إلى صناعة الورق

التى انتقلت عن الصين؛ كما انعكس انتعاش التجارة وازدهار المدن فى الأدب والفكر، ليكون "التاجر المستقيم" هو القدوة الأخلاقية"[١٤]، وتصور لنا حكايات "ألف ليلة وليلة" الشهيرة حياة طبقة بورجوازية من التجار والصناع، بما فيها من شريحة من رجال الأعمال الأثرياء وتجار الغلال وجباة الضرائب والمستوردين..."[١٥].

كان فى تلك الفترة أن بدأ رجال الدين جمع وتصنيف أقوال "**محمد**" (**الأحاديث**) وقواعد إسلامية قانونية (**الشريعة**). اليوم، تقدم هذه القوانين فى الغرب غالبا كتعبير عن "**بربرية**" خالصة، فى مقابل القيم "**الإنسانية**" و"**المتحضرة**" المزعومة، لبعض التراث "اليهودى- المسيحى"؛ إلا أن هذه القوانين كانت تمثل، فى جزء منها، فى القرنين التاسع والعاشر، قيم التجار والصناع الذين كانوا يسعون لتحرير أنفسهم من الحكم الاستبدادى لطبقة الموظفين الرسميين والأرستقراطية ملاك الأراضى- وكانوا يفعلون ذلك على نحو مناقض لما كان سائدا فى بيزنطة "المسيحية"، ناهيك عن النظام الإقطاعى المتقدم فى أوروبا الغربية؛ وكما يعبر عن ذلك أحد الكتب عن تاريخ الإسلام، فإن "الشريعة" كانت مبنية على "توقعات مساواتية لحراك نسبى... كانت تحتفظ باستقلاليتها ضد الإمبراطوريات الزراعية". كان التجار والصناع يستطيعون أن يتطلعوا إلى "إعادة صياغة المجتمع كله على أسس أكثر انفتاحا من ناحية البنية، وعلى أسس أكثر مساواتية وتعاقدية، واللجوء إلى الإسلام من أجل الشرعنة"[١٦].

كانت تلك، فوق ذلك كله، واحدة من تلك الفترات التاريخية التى أدت فيها صراعات القيم الناجمة عن التغير السريع فى المجتمع، إلى انتعاش التساؤل الفكرى. لم يكن هناك بعد تفسير قويم واحد للإسلام يحظى بالإجماع على استقامته، إذ كانت المدارس الفكرية المتنافسة تتصارع للاستيلاء على عقول الناس. كانت الطبقات الدنيا من سكان المدن منجذبة إلى بدع وأفكار الشيعة، التى كانت كثيرا ما تؤدى إلى محاولات للتمرد والثورة ضد الإمبراطورية.

فى الوقت نفسه، كان الشعراء والعلماء والفلاسفة يتدفقون على بغداد من سائر بقاع الإمبراطورية، طمعا فى رعاية أحد أثرياء البلاط أو أصحاب الأراضى

أو التجار. ترجموا إلى العربية عن اليونانية والفارسية والسريانية (لغة سوريا القديمة) أعمالا فى الطب والرياضيات والفلسفة الهندية؛ كما حاول فلاسفة مثل "**الكندى**" و"**الفارابى**" و"**ابن سينا**" (المعروف عادة فى الغرب بـ"**أفيسينا**–**Avicenna**") تقديم تفسير عقلانى للعالم، بناء على أفكار "**أفلاطون**" و"**أرسطو**"؛ كما جمع علماء رياضيات مثل "**الخوارزمى**" و"**البوزجانى**" و"**البيرونى**" الجمع بين تراث اليونان والهند وتطويره؛ كما ركب الفلكيون الاسطرلابات والآلات السدسية (**sextants**) وقاموا بقياس محيط الأرض.

طفيليات وشلل

لا شك أن الإمبراطورية الإسلامية كانت تمثل تناقضا حادا، ليس لأوروبا العصور المظلمة فحسب، وإنما بالنسبة لبيزنطة الراكدة كذلك؛ إلا أنها كانت تعانى من أخطاء فادحة، بما يعنى أنها لم تكن بمثل دينامية وإبداع الصين وتقدمها التكنولوجى.

أولا، لم تكن حياة وثقافة المدن المزدهرة بمواكبها تقدم مماثل فى وسائل وأساليب الإنتاج. صنعت الثورة العباسية فضاء لتوسع التجارة ومكنت الطبقة الحضرية المتوسطة من التأثير على أداء الدولة، إلا أن السلطة الرئيسية بقيت فى يد جماعات، كانت ما زالت متطفلة على الإنتاج الذى يقوم به آخرون. كان البلاط ينتهج الأساليب التقليدية المميزة لمملكة شرقية، مع البذخ والإنفاق الواسع الذى يشبع غرور الحكام ويبهر الرعية. كان المسؤولون فى الدولة ينتظرون دائما تحقيق ثروات طائلة من الرشوة، وأن تصب عائدات الدولة فى جيوبهم. حتى التجار الذين أثروا من التجارة، كان يمكن أن يجدوا المضاربة فى الأراضى وجمع الضرائب أكثر ربما من الاستثمار فى تحسين الإنتاج.

كانت الصناعات الحضرية تعتمد بشكل أساسى على إنتاج ضيق يقوم به صناع وحرفيون فرادى، كما كان التطور بطيئا وقليلا فى المشاغل والورش الأكبر

التى تستخدم العمل المأجور، باستثناء بعض الصناعات القليلة التى كانت تديرها الدولة، وليس من يعملون لحسابهم الخاص؛ ولم ينقض وقت طويل، حتى زحف المسؤولون فى الدولة على أرباح التجارة كذلك، كما امتدت محاولاتهم للسيطرة على المضاربة فى المواد الغذائية إلى مساع وجهود لاحتكار بعض السلع لأنفسهم.

اختفى تقدم المناطق الريفية فى العقود القليلة الأولى من حكم العباسيين؛ وبمجرد استعادة نظم الرى إلى مستواها القديم، أصبح هناك توجه لتحويل ما كان مطلوبا للإنفاق على صيانتها، إلى أهداف وجيوب أخرى. على نحو متزايد، كانت الأراضى تنتقل إلى أيدى ملاك كبار، كل ما يهمهم هو الربح السريع اللازم لحياة ترف وأبهة فى بغداد. زادت ضغوطهم على المزارعين وأدخلوا عمالة العبيد على مزارعهم وعزبهم الكبيرة؛ ومثلما حدث فى روما من قبل لم يكن المزارعون يفقدون أراضيهم فحسب، بل إنهم كانوا يبحثون عن عمل بالأجر.

كان ضغط البنية الفوقية الحاكمة يتزايد باستمرار على ريف كان قد توقف فيه الإنتاج عن النمو؛ وكما تشير دراسة مهمة عن الزراعة فى حضارات بلاد ما بين النهرين المتعاقبة، فإن الطبقات الحضرية المهيمنة "لم تكن تولى تقدم الزراعة اهتماما كبيرا، كانت منغمسة فى مكائد ومفاسد البلاط، كما أن تورطها فى حروب أهلية كان يستنزف المزيد من موارد الريف؛ كذلك فإن المحاولات القصيرة النظر للحفاظ على عائدات الضرائب أو زيادتها عن طريق الممارسات الفاسدة فى تحصيلها، كان يزيد الأمور سوءا"(١٧).

كانت الظروف الطبيعية (وبخاصة تملح الأرض) تعنى صعوبة زيادة إنتاجية الأرض كثيرا عن المعدلات التى كانت تتحقق فى القرون السابقة، مهما كانت درجة الجهد المبذول فى العناية بها. والآن... كان الإهمال يؤدى إلى انهيار مدمرز كان هناك انقطاع فى الزراعة. استيطان فيما كان من قبل أكثر المناطق رخاء فى عهود الخلافة"(١٨)، وفى أوائل القرن الثالث عشر، كان يمكن أن نقرأ فى تقرير لأحد المراقبين:

"الآن... كل شيء خراب، كل مدنها وقراها أثر بعد عين... لا أحد من السلاطين لديه أى اهتمام بالتشييد أو البناء. همهم الوحيد هو جمع الضرائب واستهلاكها"[١٩].

أدى انهيار القلب الاقتصادى للإمبراطورية الإسلامية إلى انهيار سياسى، لكى يتفاقم الانهيار الاقتصادى، ومع انخفاض عائدات الأرض كان البلاط يحاول أكثر فأكثر تمويل نفسه على حساب التجار، وترك مسئولية تمويل الأقاليم لحكام محليين كانوا يكافئون أنفسهم من حصيلة ما يقومون بجمعه، ولم يمر وقت طويل حتى استقل أولئك الحكام بأقاليمهم.

فى الوقت نفسه، اخفقت محاولات الخلفاء لتقليل اعتمادهم على الجماعات العربية التى كان يمكن أن ترفع راية العصيان فى أى وقت. كانت هناك أعداد متزايدة من أتراك آسيا الوسطى يعملون كمرتزقة أو "مماليك" (جماعات من العبيد تتمتع بامتيازات خاصة، تودى مهام عسكرية للبيت الإمبراطورى)؛ وبمرور الوقت أصبح قادة تلك الجماعات من القوة ليسيطروا على الخلفاء أنفسهم إلى أن أصبح الخلفاء مجرد وجود اسمى يصدرون قرارات من صنع آخرين.

بحلول القرن الحادى عشر، كانت الإمبراطورية قد تداعت. كانت إسپانيا ومراكش وتونس قد أصبحت ممالك منفصلة منذ فترة بعيدة. فى شرق فارس، كانت هناك أسر حاكمة لا تدين للخلافة فى بغداد بأكثر من احترام اسمى. المتمردون المنتمون لـ"لشيعة **الإسماعيلية**" كانوا قد أقاموا خلافة منافسة فى مصر وسوريا وغرب الجزيرة العربية ومنطقة السند الهندية. كانت القاهرة، عاصمتهم التى كانت قد أنشئت حديثا، بجامعها **الأزهر** المهيب، كانت تنافس بغداد كمركز للإسلام فى القرن الحادى عشر، كما كان حكمهم بؤرة لطموحات المسلمين المنشقين الثورية من مصر إلى سمرقند- رغم أنه كان يواجه أحيانا عمليات تمرد من إسماعيلية منشقين من داخله، مثل ذلك الذى أدى إلى ظهور طائفة "**الدروز**"، الموجودة إلى الآن فى لبنان.

لم يؤد تشظى العالم الإسلامى فى حد ذاته إلى انهيار اقتصادى أو ثقافى شامل فورى. تدهورت بغداد واجتاحها جيش مغولى فى **1258**، ولكن مصر استمرات مزدهرة على مدى قرنين، وانتعشت الثقافة الإسلامية، وكان العلماء يجدون بلاطات تتنافس على رعايتهم وتشجيع جهودهم، من قرطبة فى الغرب إلى سمرقند وبخارى فى الشرق.

والآن، كان الكثير من المشكلات التى طوقت الإمبراطورية فى السابق، يطوق الدول التى خلفتها. كانت قد ازدهرت لأنها استطاعت لبعض الوقت إعادة آلية إنتاجية للعمل مرة أخرى، وانخرطت فى تجارة خارجية ذهبت إلى مناطق بعيدة؛ إلا أن ذلك لم يكن مثل تطبيق أساليب إنتاج جديدة يمكن أن تنهض بالمجتمع كله إلى مستوى أعلى. فى مصر، كانت اقتصادات الإسكندرية والقاهرة، وهى مدن الإدارة والتجارة المزدهرة، لا تزال طفيلية على قرى وادى النيل والدلتا، عالة عليها. كان الغذاء والمواد الخام الأخرى تتدفق عليها من الريف، مثلما كانت الضرائب تتدفق على الحكام والإيجارات على أصحاب الأراضى، بينما لم يكن يتدفق شيء يذكر فى الاتجاه العكسى، من المدن إلى القرى، من قبيل الأدوات المتطورة التى يمكن أن يساعد استخدامها على تحسين الإنتاج. لم تكن الحياة فى القرى تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل نحو ألف عام؛ وفى آخر الأمر كان لا بد من أن تضعف هذه الطفيليات اقتصادات المدن ذاتها؛ وبحلول القرن الثانى عشر، كانت أجزاء من الولاية المصرية قد أصبحت ضعيفة لتقع فريسة فى أيدى الصليبيين– **Crusaders**، وهم جماعة من اللصوص تجمعوا بتوجيهات متعصبين دينيين، جاؤوا من مناطق فى غرب أوروبا، ذات مستوى حضارى أدنى منه فى الإمبراطوريات الإسلامية. كانت النجاحات التى أحرزها الصليبيون شهادة على مظاهر التقدم الأولى لأوروبا الغربية خروجا من تخلفها، فى الوقت الذى كان الشرق الأوسط يعانى فيه من الركود؛ وفى القرن التالى فحسب، سيمنع استيلاء قادة "**المماليك**" على السلطة سقوط مصر، مثل فارس، فى يد **المغول**.

فى ذلك الوقت، كانت فترة الازدهار العظيم للثقافة والعلم العربى قد انتهت. مع زيادة تغلغل الإسلام فى الريف – كان قد بقى عقيدة حضرية بشكل أساسى عدة قرون– أصبح يعتمد على شعبية وانتشار الحركات "الصوفية" لبعض "النساك" و"الزهاد" الذين كان يبجل ويوقر بعضهم بعد موته باعتبارهم منم "أولياء الله الصالحين"؛ والحقيقة أنه تمت إعادة طبقة من آلهة صغار إلى ما كان يفترض أنه دين توحيدى. أصبح الجدل العقلانى شيئا من الماضى، حيث كانت منظومة من "المدارس" الدينية تعلم مُعتقدا مذهبيا واحدا – موجه بالأساس ضد بدع الشيعة– ومؤسسة دينية تسعى لفرضه على المجتمع ككل. أصبح العلم يعنى معرفة "القرآن" و"الحديث"، وليس تنمية القدرات لفهم العالم المحيط، ما كان يؤدى باستمرار إلى "خنق" التفكير المستقل والتقدم العلمى؛ ففى مطلع القرن الثانى عشر، كان الشاعر والرياضى "**عمر الخيام**" يشطو "اختفاء رجال العلم الذين لم يبق منهم سوى القليل... ولكن إسهامهم كبير"[٢٠]، بينما كانت مدم إسبانيا العربية قد بقيت منارة لطلاب العلم من أوروبا القرن الثالث عشر، وكان هناك أن طور "ابن خلدون" فى القرن الرابع عشر أفكارا سبقت ومهدت لاكتشافات مفكرى **حركة التنوير – Enlightenment** فى القرن الثامن عشر[٢١].

كان نهوض الحضارة الإسلامية فى القرنين السابع والثامن يعود إلى قيام الجيوش العربية، ثم الثورة العباسية، بتوحيد منطقة مترامية الأطراف من الأطلنطى إلى الإندوس، خلف مبدأ جعل من التاجر والصانع بنفس أهمية مالك الأرض والقائد العسكرى. كان ذلك هو ما جعل المنتجات والابتكارات الفنية والأساليب الحرفية والمعرفة العلمية، تنتقل بين ربوع أوراسيا، ومكن من إضافات حقيقية إلى ميراث الحضارات القديمة فى بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان وروما، والهند القديمة والصين المعاصرة؛ ولكن، بالمثل، فإن اضمحلال الحضارة الإسلامية من القرن العاشر فصاعدا كان يعود إلى قصور الثورة العباسية، التى كانت فى الحقيقة "نصف ثورة"، إذ إنها مكنت التجار والصناع من أن يكون لهم تأثير على الدولة، ولكنها لم تمكنهم من السيطرة عليها.

بالموازنة بين الطبقات الحضرية وكبقات كبار ملاك الأراضى، أصبحت آلة الدولة هى الأكثر قوة. كانت "تشفط" الضرائب من كل الطبقات، تكافئ قياداتها العسكرية والإدارية بالمزارع والعزب الكبيرة، تمتص الفائض الذى كان ينبغى أن يستخدم لتنمية القاعدة الإنتاجية للمجتمع، وفى النهاية دفعت بأعداد غفيرة من المزارعين للعيش دون حد الكفاف. انخفض الناتج العام بدرجة كبيرة، وأدى ذلك بدورة إلى تضييق السوق أمام التجار والصناع، فلم يعد هناك ما يحفزهم على التحول من الاعتماد على الإنتاج الحرفى إلى نظام تصنيعى أولى. كانت هناك معوقات أمام المزيد من التقدم التقنى – حتى الطباعة لم تكن قد انتقلت إلى العالم الإسلامى رغم أن التجار الذين ذهبوا إلى الصين كانوا يعرفونها – والناس قد بقوا غارقين فى الفقر والخرافة. كانت المدنية مقصورة على شريحة صغيرة من الناس، وبدأت تذوى مع تدهور الأحوال الاقتصادية، التى كانت قد حافظت عليها لفترة ما.

هزت الانتفاضات والثورات الإمبراطوريات الإسلامية مرارا وتكرارا – تمرد أتباع "**أبو مسلم**" الزعيم الثورى المقتول، تمرد من كانوا يرون فى واحد أو آخر من نسل "**على**" ممثلا للإسلام النقى الذى أفسده الخلفاء؛ تمرد أهالى المدن، والقرى، "**ثورة الزنج**" التى استمرت ستة عشر عاما فى مناطق المستنقعات المالحة فى بلاد ما بين النهرين فى القرن التاسع[٢٢]، تمرد "**الإسماعيلية**" الذى حمل إلى السلطة فى مصر خلافة مناوئة.

لم يكن أى من هذه الانتفاضات وعمليات التمرد أكثر قدرة بأى درجة من ثورات روما القديمة أو ثورات للمزارعين فى الصين على التوصل إلى مخرج من هذا الطريق المسدود. كانت كلها تعبيرا عن سخط عام وهائل فى شكل دينى، ولكنها لم تبدأ فى تقديم مشروع لإعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة، ولم تكن تستطيع. لم تكن للوسائل التى يكسب بها الناس أقواتهم قد تقدمت لكى يكون ذلك ممكنا.

كانت الحضارة الإسلامية، مثل حضارات عهود "**تانج– Tang**" و"**سونج– Sung**" فى الصين، مهمة فى إنتاج بذور تطور أبعد، إلا أن ضغط البنى الفوقية القديمة الماحق حال دون تجذر تلك البذور، إلى أن تم ازدراعها فى منطقة بدائية من أوراسيا، خالية تقريبا من مثل تلك الضغوط.

الهوامش

(١) كانت معروفة للرومان بـ"الغربية السعيدة- Arabia Felix" والآن تسمى "اليمن".

(٢) للمزيد عن حجم نظام الري في بلاد ما بين النهرين وما أصابه من إهمال، وما يفيد بأن السبب لم يكن الحرب فحسب، وإنما ظلم نظام الضرائب ونفوذ ملاك الأراضي، انظر:

R.M.Adams, "Land Behind Baghdad", (Chicago, 1965), pp.69, 80-82.

(3) Bernard Lewis, "The Arabs in History", (London, 1966), p.55.

(4) Peter Brown, "The World", pp.192-193.

(5) B.Lewis, "The Arabs", p.58.

(٦) انظر على سبيل المثال **P.Brown, "The World"**

(7) B. Lewis, "The Arabs", p.72.

وللمزيد عن الصراعات بين الجيوش العربية، انظر الفصل الخاص بـ:

The Islamic Opposition",

M.G.S. Hodgson, "The Venture of Islam", vol 1, "Classical Age of Islam", (Chicago, 1074).

(8) B. Lewis, "The Arabs", p.80.

(9) B. Lewis, "The Arabs", p.80.

(١٠) حسب ما جاء في:

B.Lewis, "Government, Society and Economic Life Under the Abbasids and Fatamids", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part 1, p.643.

وانظر كذلك:

S.D. Gotein, "Studies in Islamic History and Institutions", (London, 1966), p.221-240.

(11) B. Lewis, "The Arabs", p.86.

(12) B. Lewis, "The Arabs", p.86.

(13) B. Lewis, "The Arabs", p.91.

(14) M. Rodinson, "Islam and Capitalism", (London, 1974).

(15) B. Lewis, "The Arabs", p.91.

(16) G.E. von Grunebaum, "Muslim Civilisation in the Abbasid Period", in "Cambridge Medieval History", vol IV, part 1 p.679.

(17) M.G.S. Hodgson, "The Venture of Islam", vol II 9Chicago, 1972), p.65.

(18) R.M. Adams, "Land Behind Baghdad".

(19) R.M. Adams, "Land Behind Baghdad", p.87.

(20) R.M. Adams, "Land Behind Baghdad", pp. 99-106.

(21) G.E. von Grunebaum, "Muslim Civilisation", p.693.

(22) G.E. von Grunebaum, "Muslim Civilisation", p.682.

- ٥ -

الحضارات الأفريقية

كان المستعمرون الأوروبيون في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يصفون أفريقيا بالقارة السوداء – **The Dark Continent**، وكانت في رأيهم بلاحضارات أو تاريخ "حياتها خواء، وبربرية وحشية، ليس فيها ما يثير الاهتمام"، بعبارة بروفيسور يدعى "**إيجرتون– Egerton**" من جامعة أكسفورد[١]. كانت تحاملاتهم من القوة لدرجة أن الجيولوچي "كارل موك– **Carl Mauch**"، وهو واحد من أوائل الأوروبيين الذين زاروا موقع مدينة زيمبابوي الكبرى – **Great Zimbabwe** التي تعود إلى القرن الثاني عشر، كان مقتنعا بأنها لا يمكن أن تكون ذات أصول محلية، ولا بد من أن يكون من قام ببنائها بعض أناس، غير سود، من الشمال، على نمط هيكل سليمان في أورشليم[٢]؛ كما كتب المؤرخ التوري (Tory) "**هيو تريفور–روپر– Hugh Trevor-Roper**" في 1965 يقول: "لا يوجد في أوروبا سوى تاريخ الأوروبي، الباقي كله ظلام تقريبا"[٣].

بيد أن كل العمليات التي أدت إلى قيام الحضارة في أوراسيا والأمريكتين، حدثت في أفريقيا كذلك، وليس لمرة واحدة وإنما عدة مرات. مصر هي أوضح مثال على ذلك، وبالرغم من أن بعض جوانب حضارتها يبدو متأثرا باتصالها ببلاد ما بين النهرين، فإن جذورها ممتدة في تطورات في جنوب البلاد، بين شعوب من الغرب والجنوب استوطنوا وادي النيل[٤]. وقد أشار المؤرخ اليوناني "**هيرودوتس– Herodotus**" إلى حضارة "**الكوشيت– The Kuchite**" في النوبة، التي غزت مصر لفترة قصيرة في الألفية الأولى ق.م وطورت أبجديتها الخاصة. كان الرومان يعرفون **حضارة أكسوم– Axum** الإثيوبية، التي اعتنقت المسيحية مبكرا، وأنها

كانت على صلة وثيقة بجنوب الجزيرة العربية، وأنها كانت قد طورت أبجديتها هى الأخرى. (كان البعض من أوائل من آمنوا بمحمد قد فروا إلى هناك هربا من الاضطهاد). تجار من الهند والإمبراطوريات الإسلامية وحتى من الصين، كانوا على صلة بالمدن على امتداد ساحل أفريقيا الشرقى، جنوبا إلى موزنبيق؛ وقد وصف أحدهم - **ابن بطوطة** - "كيلوا- **Kilwa**" (فى تنزانيا اليوم) فى **1331**، باعتبارها "واحدة من أجمل مدن العالم وأكثرها فخامة"(٥)؛ كما وصف "**حسن الوزان**" (الأكثر شهرة بكنيته الإيطالية "**ليون الأفريقى- Leo Africanus**")، وكان موريسكيا منفيا من غرناطة، وصف قطع الصحارى من مراكش لزيارة نحو عشرين مملكة على امتداد نهر النيجر فى مطلع القرن الخامس عشر. كتب يقول: إن "تامبو- **Tambo**" (تمبكتو- **Timbuktu**) كانت مدينة يعيش فيها ألوف من البشر، "يوجد بها عدد كبير من القضاة، والأطباء ورجال الدين"، وحيث توجد "سوف كبيرة للمخطوطـــات من بلاد البربر، وأرباح بيع الكتب أكثر من أربـــاح أى تجارة أخرى(٦)؛ كما قامت حضارات أخرى فى غابات ساحل أفريقيا الغربى، حيث كانت مدينة "بنين- **Benin**" محل دهشة وإعجاب كبيرين لأول من زاروها من البرتغاليين، وعبر حزام واسع فى أفريقيا الوسطى، من مملكة الكونغو فى شمال أنجولا، إلى بوجندا- **Buganda** فى أوغندا الحالية.

التسلسل الذى نشأ به كل من تلك الحضارات، هو بالضرورة نفس ما حدث بالنسبة للحضارات الأوراسية والأمريكية؛ وفى بعض المناطق، كان الناس يطورون أنماطا من الزراعة توفر لهم الفائض الذى يخلق بدايات عملية استقطاب فى إطار البنى المجتمعية بين الأسر السلالية الكبيرة وغيرها، ثم كان أن تبلور، بعض تلك الأسر فى طبقات حاكمة تستغل بقية المجتمع، بينما ظهرت بين الكتلة السكانية جماعات متخصصة من الحرفيين والتجار، بجانب كتلة المزارعين والمشتغلين بالرعى.

فى بعض الأحيان، كان تأثير الحضارات يدفع بتلك التطورات إلى الأمام نوعا ما. تأثير مصر على النوبة واضح بلا شك، ومن المرجح أن يكون جنوب

الجزيرة العربية (حيث كانت هناك مدن صغيرة بالفعل فى **1000**ق.م) قد أثر فى إثيوبيا على الشاطئ المقابل، من البحر الأحمر، والتجار الهنود والعرب كان لهم تأثير على ساحل أفريقيا الشرقى، إلا أن ذلك حدث لأن ميولا ونزعات كانت قد نشأت بالفعل، على نحو مستقل، قادرة على الإفادة من مثل تلك المؤثرات. كان التجار يذهبون إلى أماكن مثل الساحل الشرقى فحسب، حيث كان هناك مجتمعات لديها أشياء تصلح للتجارة.

أهم التغيرات التى طرأت على أساليب الشعوب الأفريقية المختلفة لتدبير سبل العيش، حدثت على نحو مستقل تماما عن المؤثرات الخارجية، وكان ذلك يعنى اللجوء إلى تدجين نباتات، فى حال ما إذا كانت محاصيل الحضارات القديمة فى أوراسيا ووادى النيل لن تكون قابلة للنمو فى المناخات الاستوائية وشبه الاستوائية لمعظم مناطق أفريقيا جنوب الصحراء. قامت الشعوب الأفريقية بتطوير أنماط من الزراعة خاصة بها؛ كما عملت كذلك، بعد وقت طويل، على إنتاج الحديد؛ وكان الحدادون فى غرب أفريقيا يعرفون صهر الخام، تقريبا فى نفس الوقت الذى كانت فيه تلك التقنية تنتشر فى أوراسيا فى **1000** ق.م تقريبا، إلا أن أساليب استخدامهم لها كانت مختلفة، بما يدل على تطور مستقل(٧).

الزراعة والحديد معا، غيرا وجه الحياة فى أفريقيا جنوب الصحراء. عدد الشعوب الناطقة بلغة الـ"بانتو- **Bantu**" من غرب أفريقيا، الذين كانــوا أول من استخدم تلك الأساليب، واد عبر القرون، ما جعلهم فى الفترة ما بين **2000** ق.م و**500** م، يحــلون محل الكثير من المشتغلين بالصيــد والجمع، والذيــن كانوا فى الأصل أغلبية فى وسط وجنوب أفريقيا. هذه الشعوب بما لديها من فائض زراعى كبير، أو وضع تجارى أفضل، بدأت تمر بتحول إلى انقسامات طبقية وحياة حضرية فى وقت ما ما بعد **500** م. جعلت التجارة مدن الساحل الشرقى على اتصال بحضارات المحيط الهندى الأخرى، كما أصبحت مدن الساحل الغربى جزءا من شبكة تجارة ممتدة إلى النيل ومصر من جهة، وعبر الصحارى إلى

المغرب. مثل هذا التواصل مكنهم من اختصار عملية تطوير أبجدياتهم الطويلة، وتبنى أبجدية العرب- ومعها الدين الإسلامى، الذى كان أكثر ملاءمة لجو الحياة الحضرية أكثر من المعتقدات "الوثنية" القديمة.

أنتجت التطورات المحلية الحضارات المصرية والنوبية والإثيوبية على التوالى، وبحلول القرن الخامس عشر كانت هناك حضارات أخرى قائمة عبر القارة من الساحل إلى الساحل، حتى وإن كانت فى بعض تضم ما يسمى بشعوب "بدائية" تعيش فى مجتمعات ما قبل طبقية، وكانت تلك الحضارات موصولة بنظام التجارة العالمى عبر الإسلام، قبل أن يرسو الأوروبيون على شواطئها بفترة طويلة (والحقيقة أن أحد التفسيرات لتدهور زيمبابوى القديمة يمكن فى تدهور عالمى لسعر الذهب الذى كانت تصدره فى القرن الخامس عشر)[٨].

انتهى الأمر بشعوب أفريقيا ضحايا للنظام العالمى الناشئ - لدرجة أن حضاراتهم تم محوها تقريبا من سجل التاريخ بفعل أيديولوچيا عنصرية تعتبرهم دون البشر. إلا أن الأسباب تكمن فى مصادفة من مصادفات الجغرافيا.

أوراسيا ممتدة من الغرب إلى الشرق، ويوجد بها نطاقات شاسعة من الأراضى لها نفس المناخ وبالتالى فهى مناسبة لزراعة المحاصيل نفسها - القمح والشعير والشيلم تزرع فى كل الأرجاء من أيرلندا إلى بيچن، والأرز من كوريا واليابان إلى المحيط الهندى؛ كما أن هناك بعض الموانع الطبيعية لانتشار بعض أنواع الحيوانات المدجنة الخيول والبقر والأغنام والماعز يمكن تربيتها فى أى مكان، باستثناء بعض المناطق الصحراوية، ومن ثم كان تقدم الزراعة سريعا نسبيا نتيجة التعلم من جيران يمارسونها تحت ظروف مشابهة. موجات متلاحقة من الجماعات والقبائل المترحلة كانت تزحف أحيانا، مثلما كان الأمر بالنسبة لـ"**الهون- The Huns**" و"المغول"، وكذلك معرفة تقنيات جديدة.

على النقيض من أوراسيا الممتدة من الغرب إلى الشرق، تمتد أفريقيا من الشمال إلى الجنوب، كما يوجد بها العديد من النطاقات المختلفة من الناحية

المناخية. المحاصيل التى تنجح زراعتها فى المغرب أو مصر مثلا، لن تنمو بسهولة فى مناطق السافانا، بينما المحاصيل التى تنمو فيها لا فائدة لها فى المناطق الاستوائية بالقرب من خط الاستواء[٩]. لذلك فإن التحسينات المحلية فى أساليب الزراعة نادرا ما كان لها أكثر من الفائدة الإقليمية المحدودة، إلى أن مكنت وسائل النقل الحديثة من التغلب على صعوبات المناخ. كان المزارعون ممن لديهم أبقار مدجنة على سبيل المثال يجدون صعوبة بالغة فى الوصول إلى أراض فى جنوب أفريقيا مناسبة للماشية. كان الإبحار إلى مسافات بعيدة من الساحل الغربى مستحيلا حتى القرن الخامس عشر، حيث لم يكن العالم قد عرف بعد تكنولوجيا التغلب على مشكلات الرياح. كان يمكن الوصول إلى الساحل الشرقى، إلا أنه لم يكن من السهل على الناس الوصول إلى المناطق المرتفعة الداخلية. كانت الصحارى التى تقسم القارة قسمين من الأطلنطى إلى النيل تمثل عقبة كؤود للكل سوى الرحالة الأشداء حتى بعد إدخال الجمل المدجن فى **500** م تقريبا.

كانت الشعوب المتخلفة فى أوروبا – مثل البريطانيين، الألمان أو الإسكاندنيفانيين– قد تمكنت فى آخر الأمر، حتى فى "عصور الظلام" من اكتساب المعرفة الخاصة بالابتكارات التقنية والتحسينات الزراعية من الصين والهند أو الشرق الأوسط. حضارات أفريقيا جنوب الصحراء كان عليها أن تعتمد كثيرا على مواردها الخاصة. كانت منعزلة نسبيا فى قارة بنصف حجم ونحو سدس عدد سكان أوراسيا. لم يكن ذلك عائقا أمام تقدم المجتمع لا يمكن التغلب عليه، كما يبين لنا سجل الحضارات المتعاقبة، إلا أنه وضعها أمام عيب قاتل عندما وجدوا أنفسهم فى النهاية فى مواجهة زائرين نهابين من المناطق المتخلفة السابقة فى غرب أوروبا، التى كانت أكثر قدرة على اقتراض التكنولوجيا من أقاصى آسيا وتطويرها.

الهوامش

(1) B. Davidson, "Africa in History", (London, 1992), p.61.

(2) G. Connah, "African Civilisations", (Cambridge, 1987), 183.

(3) H.Trevor – Roper (Lord Dacre), in A.Callinicos, "Theories and Narratives", (Cambridge, 1995), p.167.

(٤) انظر على سبيل المثال:

- K.W. Butzer, "Early Hydraulic Civilisation in Egypt", (Chicago, 1976), pp.9-12;
- M.Stone, "Egypt's Making", (London, 1991), pp.27-29.

وللمزيد عن آثار "الميجاليث" في جنوب مصر نحو 5400 ق.م، انظر:

- "Tribe In Sahara were the First To Aim For The Stars", in the "Guardian", 2 April 1998.

(5) G. Connah, "African", p.150.

(6) Leo Africanus, "History and Development of Africa", vol 1 (London, 1896)

وللمزيد عن رحلاته انظر عمل أمين معلوف:

"Leo the African", (London 1994)

(٧) انظر:

D.W. Phillipson, "African Archaeology", (Cambridge, 1985), p.170.

يذهب Lared Diamond إلى القول: إن "الحدادين الأفارقة اكتشفوا كيف ينتجون درجات حرارة عالية في أفران القرن لديهم ويضعون الصلب قبل أفران Bessemer بألفي عام في القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا".

(J.Diamond, "Guns, Germs and Steel", p.394).

كما يعتقد كل من "T.A.Wertime", "M.J. Vander Merwr" أن معرفة صناعة الحديد انتشرت عبر الصحارى انطلاقا من مناطق البحر الأبيض المتوسط الساحلية، إلا أنهما

يعترفان بأن الحدادين الأفارقة قاموا بتطوير أساليب فنية أدت إلى صناعة الصلب بدلا من الحديد المطاوع. انظر مقالاتهما في:

T.A. Wertime and J.D. Munly (eds), "The Coming of the Age of Iron", (New Haven, 1980).

8 – G. Connah, "African Civilisation", p.213.

9 – J. Diamond, "Guns", pp. 177-191.

-٦-

الإقطاع الأوروبي

كان تجار المدن الإسلامية الكبرى مثل القاهرة وقرطبة يتنقلون كثيرا طولا وعرضا قبل ألف سنة(١)، ولا بد أن يكون من شق طريقه منهم إلى البلاطات الملكية فى شمال أوروبا قد تأثر كثيرا بما رآه هناك. كانت الأراضى مقسمة إلى بارونيات- **Baronies**، تفصل بينها فى الغالب غابات كثيفة أو مستنقعات، وكان كل منها بمثابة اقتصاد متكامل، يعتمد الشعب فيها على ما تنتجه الأرض، ما كان يعنى بالنسبة للمزارعين وجبة قوامها الخبز والحساء، وكساء من الصوف أو الكتان الخشن يتم غزله ونسجه فى منازلهم، وما كان يعنى أيضا تكريس الخمسين من طاقاتهم للعمل المجانى للإقطاعى مالك الأرض – **The lord**- سواء فى شكل عمل أو مواد عينية؛ وباعتبارهم "أقنان- **serfs**"، لم يكن لدى المزارعين الحرية لترك الأرض أو "السيد".

أما مستوى معيشة الأسرة الإقطاعية فكان أعلى من ذلك بكثير، إلا أنه كان مقيدا بما ينتجه المزارعون. كانت قلاع الإقطاعيين بسيطة، مبنية من الخشب، مسيجة بجروف من الطين الجاف وأوتاد الخشب، لا تتوفر لها حماية جيدة ضد العوامل الجوية. ملبسهم، كان أكثر وفرة من ملبس المزارعين، لم يكن أكثر نعومة على الجلد، ونادرا ما كانوا أكثر ثقافة منهم. كانوا فى حاجة إلى خبرة بركوب الخيل واستخدام الأسلحة للاحتفاظ بأراضيهم من أطماع إقطاعيين آخرين، وعقاب المتمردين من المزارعين. لم يكونوا فى حاجة لمعرفة القراءة والكتابة، ولم يكن معظمهم مهتما بأن يتعلم؛ وعندما كان أى من كبار الملاك يريد أن يحتفظ بسجلات مكتوبة، كان يلجأ إلى الجماعة الصغيرة الملمة بالقراءة والكتابة – تلك الشريحة الصغيرة من الكهنة ورجال الدين.

كان هناك منتجات قليلة – الملح، الحديد لصناعة أسلات المحاريث، السكاكين، أسلحة الملاك – يحصلون عليها من التجار الصغار؛ ولكن أولئك كانوا مختلفين عن طبقات أثرياء التجار فى الحضارات الشرقية، وأقرب إلى الباعة الجائلين أو الغجر الذين يذرعون دروب الغاليات ومدقات الطرق المجهولة.

كان هناك مدن صغيرة قليلة و"أقطار كاملة مثل إنجلترا، وكل الأراضى الجرمانية تقريبا، لا يوجد بها مدة مطلقا"(٢)، أما المدن الصغيرة الموجودة فلم تكن أكثر من مراكز إدارية لكبار الإقطاعيين أو المؤسسات الدينية، وكانت عبارة عن عدد قليل من المنازل، حول قلعة أو دير أو كنيسة كبيرة.

إلا أن هذا الواقع الشديد المتخلف فى قارة أوراسيا. كان ليصبح فى آخر الأمر مسقط رأس حضارة جديدة ستطغى على كل ما عداها.

كانت هناك كل صور التفسير لهذا التحول، والتى تتراوح بين الغرائبى والعبثى والبغيض. البعض يعزو ذلك للتراث "اليهودى- المسيحى"، رغم أن الجانب المسيحى لذلك لم يكشف عن أى ميزة خلال السنوات الأخيرة للإمبراطورية الرومانية، أو عصور الظلام فى أوروبا، أو ركود بيزنطة. آخرون يعزونه للمناخ، الذى يدعى أنه يشجع على "العمل" و"المغامرة"(٣)، ما يجعل المرء يتساءل عن قدرة الحضارات الأولى العظيمة على الازدهار. أما المحاولة البغيضة لتفسيره على ضوء التفوق "العرقى" المزعوم للأوروبيين، فيسقط لأول وهلة، باعتبارها كانت متخلفة منذ فترة طويلة، وهناك خط فكرى آخر يعزو تقدم أوروبا لعوامل "عارضة"، أو أن ذلك – بعبارة أخرى – كان من قبيل "المصادفة". كان هناك ظهور تصادفى لمجموعة من الرجال العظام، بحسب التيار التاريخى التقليدى السائد؛ كان هناك الانبعاث المواتى لل**ـ"كالفينية- Calvinism**، كما يقول أتباع عالم الاجتماع الألمانى "**ماكس فيبر- Max Weber**"؛ كانت هناك النتيجة التصادفية لصدامات المزارعين وأمراء الإقطاع فى إنجلترا القرن الخامس عشر، التى لم ينتصر فيها أحد، كما يرى بعض الأكاديميين فى أمريكا الشمالية(٤).

كل هذه الروايات تغفل نقطة واضحة، إذ إن تخلف أوروبا كان يحفز الناس على تبنى أساليب جديدة لتأمين سبل العيش من أماكن أخرى؛ وعلى مدى قرون راحوا، شيئا فشيئا، يستخدمون تقنيات كانت معروفة فى الصين والهند ومصر وبلاد ما بين النهرين وجنوب إسبانيا؛ وكان هناك تغير مواكب، بطيء ولكن تراكمى، فى العلاقات الاجتماعية فى المجتمع بصفة عامة، مثلما كان قد حدث فى صين "سونج" و"الخلافة العباسية"؛ إلا أن التغير هذه المرة كان بدون ضغط ثقيل من بنية فوقية إمبراطورية قديمة يمكن أن تكبح التقدم المضطرد. كان تخلف أوروبا ذاته هو الذى مكنها من أن تتجاوز الإمبراطوريات الكبرى.

لم يكن التقدم الاقتصادى والتقنى تلقائيا أو سلسا، فقد كانت الهياكل القديمة تعطل وتعترض، وأحيانا تقضى على الأساليب الجديدة فى كثير من الأحيان. وكما فى أى مكان آخر، كانت هناك انتفاضات وعمليات تمرد يتم سحقها، وحركات تعد بمجتمع جديد، وينتهى بها الحال إلى إعادة إنتاج القديم. المناطق الخصبة كانت تتحول إلى قفر، والمدن المزدهرة إلى خرائب. كان هناك حروب عبثية مروعة وعمليات تعذيب وحشية وعبودية على نطاق واسع، ورغم ذلك كله ظهر فى آخر الأمر نظام جديد للإنتاج، كما ظهر مجتمع مختلف تماما، غير مسبوق فى التاريخ.

كانت التغيرات الأولى فى الزراعة. أولئك الذين كانوا يعيشون اعتمادا على الأرض فى عصور الظلام، ربما كانوا أميين، يؤمنون بالخرافات، جاهلين تماما بالعالم الخارجى؛ ولكنهم كانوا يعرفون مصادر معيشتهم وكانوا مستعدين، وإن كان ببطء، لتبنى أساليب جديدة فى الزراعة تمكنهم بسهولة من ملء بطونهم إن هم وجدوا فرصة لذلك. فى القرن السادس، ظهر لدى الشعب السلافى فى أوروبا الشرقية شكل جديد من المحراث بعجلات ثقيلة، يصلح للأراضى صعبة الزراعة، وعلى مدى القرون الثلاثة التالية انتشر استخدامه غربا(٥)، ومعه كانت طرق جديدة لتسوية الأرض واستخدام روث الماشية لتسميدها، ما مكن الأسرة الفلاحية من

مضاعفة المحصول، فى نمط زراعى زاد معه إنتاج اللحوم ومنتجات الألبان والجلود والصوف أكثر من ذى قبل، وفى نفس الوقت تحسنت طرق الحصاد"(٦)، وكان ذلك، كما يقول أحد المؤرخين للاقتصاد "أكثر الأساليب الزراعية إنتاجية كان قد عرفها العالم، فى إطار قوة العمل المتوفرة"(٧).

كانت هناك أساليب جديدة أخرى فى القرون التالية، مثل تبنى أسلوب آسيا الوسطى فى ترويض الخيول – ما جعلهم يستخدمونها بدلا من الثيران البطيئة فى الحرث – واستخدام الفول وغيره البقوليات لتقوية التربة؛ وكان للتأثير التراكمى لهذه الابتكارات، كما يقول مؤرخ زراعة العصور الوسطى الشهير "**چورچ دوبى– Georges Duby**"، كان له الفضل فى مضاعفة محصول الحبوب بحلول القرن الثانى عشر(٨).

هذه التغيرات حدثت ببطء، وتقول "**سيلڤيا ثراب– Sylvia Thrupp**" إن "أعلى معدلات النمو الاقتصادى العام فى العصور الوسطى... ربما كانت تصل إلى نصف واحد فى المائة"(٩)، وبالرغم من ذلك أدى ذلك على مدى **300** أو **400** سنة إلى تحول فى الحياة الاقتصادية.

هذا التقدم كان يعتمد إلى حد كبير على براعة المنتجين الزراعيين، بيد أنه كان يتطلب شيئا آخر – أن يترك أمراء الإقطاع جزءا من الفائض لتحسين الزراعة بدلا من الاستيلاء عليه بالكامل. كان أمراء الإقطاع (كبار ملاك الأراضى) فئة من النهابين الجشعين، ممن كانوا قد استولوا على أراضيهم بالقوة، وكانت ثروتهم تعتمد على الإكراه والقسر وليس على البيع والشراء، كما كانوا يضيعونها على حياة البذخ والحروب؛ ولكنهم كانوا ما زالوا يقيمون على مزارعهم وعزبهم، ولم يكونوا طبقة من الملاك الغائبين مثل أولئك فى الجمهورية الرومانية السابقة أو السنوات من حكم العباسيين. حتى أكثرهم حماقة كان يدرك أنه لن يكون لديه ما يعيش عليه أو ينفقه على الحرب لو أنه بالغ فى سرقة المزارعين ولم يترك شيئا لبذار العام التالى؛ وكما بين المؤرخ الاقتصادى الألمانى "**كريديت– Kriedte**"،

فإن الإقطاعى "كان عليه أن يحافظ على مخزون المزارع بأى ثمن... أن يساعد فى حالات الضرورة أو الطوارئ الناجمة عن فشل المحصول أو لأى سبب آخر"(١٠). كان تزويد المزارعين بمحاريث أفضل يعنى فائضا أكبر من أجل الاستهلاك الترفى والحرب، وكان بعض الإقطاعيين يضعون "الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد، وبخاصة المحاريث، تحت حمايتهم"(١١)؛ وكان هناك من يقومون بتنظيم وتمويل عمليات لتنظيف واستصلاح أراض جديدة، على مدى الفترة الإقطاعية. كانوا القوة الدافعة وراء انتشار أول وأهم شكل من الميكنة، لفترة طويلة، وهو الطاحونة المائية.

مثل الطبقات الحاكمة الأخرى، كان أمراء الإقطاع متورطين فى الاستغلال قبل أى شىء آخر، يستخدمون المزارعين، مجانا، لبناء طاحونة على سبيل المثال، يجبرونهم على طحن حبوبهم فيها ويتقاضون منهم أجرا لقاء ذلك؛ على أن انشغالهم بزيادة معدل الاستغلال أدى بهم فى فترة تاريخية ما لتشجيع التقدم فى وسائل الإنتاج.

لم تكن الطبقة الإقطاعية مكونة فقط من بارونات محاربين، بل إن مساحات كبيرة من الملكيات الزراعية كانت فى أيدى مؤسسات دينية وكنائس كبيرة وأديرة: "فى الثروة والسلطة والميل إلى السيطرة... كان رؤساء الأديرة والأساقفة والكهنة.... بنفس مستوى بارونات الحرب.. كانت جماعات الرهبان والأساقفة تكدس ثروات طائلة"(١٢)؛ وفى بعض الأحيان، كان يتم استغلال معرفة الكهنة القراءة والكتابة للوصول إلى مؤلفات عن التكنولوچيا من اليونان وروما، ومن الإمبراطوريات البيزنطية والعربية: "إذا بحثت عن الطواحين الأولى، سواء أكانت طواحين الماء أو الهواء، أو عن التقدم فى أساليب الزراعة، ستجد غالبا الفئات الدينية فى الطليعة"(١٣).

كان التبنى الكامل لأساليب فنية جديدة يتضمن تغيرا فى العلاقات بين علية القوم (سواء كانوا من المحاربين أو رجال الدين) والمزارعين؛ وكان على كبار

ملاك الأراضى فى آخر الأمر أن يتخلوا عن استخدام العبيد كقوة عمل، ذلك العرف الرومانى السفيــه الذى راح يتلاشى حتى القرن العاشر. بعدئذ، بدأوا يكتشفون مزايا فى نظام **القنانة – Serfdom**، فى توزيع قطع من الأرض على أسر حيازية فلاحية مقابل حصة من الناتج. كان لدى الأقنان حافز لكى يبذلوا قصارى جهدهم فى العمل واستخدام تقنيات جديدة فى الأراضى التى يستأجرونها. مع زيادة الناتج، كانت دخول ملاك الأراضى تزيد، وخاصة لأنهم كانوا يستخدمون قوتهم العسكرية لإجبار المزارعين الذين كانوا أحرارا فى السابق على القنانة. ما يطلق عليه "بوا- **Bois**" "تحول العام الألف"، أدى حتما إلى نهاية العبودية الزراعية – والمؤسسة الأخيرة للقنانة الإقطاعية باعتباره أسلوب إنتاج أكثر دينامية من النظام الرومانى القديم(١٤).

من السهل أن يستهين البعض منا ممن يعنى الطعام بالنسبة لهم مجرد شيء يشترونه من السوبر ماركت، بأهمية ما حدث فى الريف بين **1000** و**1300**م. مضاعفة كمية الطعام الــذى تنتجه كل أسرة حيازية، حولت إمكانيات الحياة الإنسانية عبر أوروبا، فمن كان، أيا كان، يتحكم فى كمية الطعام الزائدة، كان يستطيع أن يبادلها بالسلع التى يحملها التجار الجائلون أو ينتجها الصناع. ببساطة، كان يمكن مبادلة الحبوب بالحرير لأسرة الإقطاعى، وبالحديد اللازم لأسلحته وبالأثاث لقلعته، وبالنبيذ والتوابل لوجباته. كان يمكن كذلك تحويله إلى وسائل لزيادة إنتاجية للمزارعين – محاريث من الخشب ذات أسلات من الحديد، سكاكين، مناجل، وفى بعض الأحيان إلى خيول مزودة بما يلزمها من لجام وشكائم وحدوات من الحديد.

بتزويد الأسواق المنظمة بمثل تلك الأشياء، كان بإمكان البائع الجوال المتواضع أن يتجول إلى تاجر جدير بالاحترام، ومن تاجر جدير بالاحترام إلى تاجر كبير ثرى. بدأت المدن الصغيرة تزدهر مع استقرار التجار والصناع بها، وظهرت المحلات والورش حول القلاع والكنائس. اتسعت شبكات التجارة التى

ربطت القرى التى كانت معزولة فى السابق ببعضها حول مدن آخذة فى الاتساع، ما كان له تأثير كبير فى أسلوب الحياة فى منطقة كبيرة[١٥]، وللحصول على نقود لشراء المواد الترفية والأسلحة، كان الإقطاعيون يشجعون الأقنان على إنتاج محاصيل نقدية وتحصيل إيجارات بدلا من الخدمات أو السلع العينية، كما وجد البعض مصدرا إضافيا للدخل من الرسوم التى يمكن أن يتقاضونها من التجار مقابل السماح لهم بإقامة أسواق على أراضيهم.

كانت الحياة فى المدن الصغيرة مختلفة تماما عنها فى الريف. كان التجار والصناعى أفرادا أحرارا وليسوا تحت سلطة أى إقطاعى، وكان هناك مثل ألمانى يقول: "هواء المدينة يجعلك حرا". كانت الطبقات الحضرية غير راغبة باستمرار فى قبول امتيازات طبقة أمراء الإقطاع. التجار والصناع الذين كانوا يحتاجون عمالة إضافية، كانوا يرحبون بالأقنان الهاربين من عبودية المزارع والعزب القريبة؛ ومع زيادة حجم المدن والثروة، كانوا يحصلون على الوسائل اللازمة لحماية استقلالهم وحريتهم وبناء الأسوار وتسليح ميليشيات حضرية.

حضارة القرن الثالث عشر

عاجلا أو آجلا، كان أن تغيرت كل جوانب المجتمع: لدرجة أن الدراسة الكلاسيكية للمؤرخ الفرنسى "**مارك بلوك: Marc Bloch**" تتحدث عن "عصر إقطاعى ثان"، مرت فيه العلاقة بين أمراء الإقطاع أنفسهم بتحول ما. أصبح الملوك أكثر نفوذا. كانوا يستطيعون فرض سلطتهم على رأس تراتبيات من أمراء الإقطاع؛ وبمنحهم عددا من المدن الصغيرة حكما ذاتيا داخليا، كانوا يستطيعون استخدامها ثقلا موازيا للبارونات؛ كما حاولوا إنشاء شبكات من المجالس يقوم فيها موظفون من طرفهم الفصل فى النزاعات، رغم أن البارونات عادة كانوا يستطيعون الاحتفاظ بنفوذهم فى كل ما يتعلق بمزارعهم الكبيرة.

تغيرت كذلك الحياة الفكرية، حيث أصبح التجار يحتاجون الاحتفاظ بدفاتر حسابات وسجلات مكتوبة للعقود على نحو لم يكن موجودا لدى ملاك الأراضى السابقين. كانوا يريدون أيضا قوانين رسمية مكتوبة، بدلا من الأحكام المرتجلة التى كان يصدرها الإقطاعيون فى القرى. حاول كثيرون تعلم القراءة والكتابة، وفعلوا ذلك بالعامية التى كانوا يتحدثونها. لم تعد معرفة القراءة والكتابة مقصورة على الأديرة، كما لم تعد اللاتينية اللغة الوحيدة المكتوبة. انتقل التعلم والمعرفة من الأديرة إلى جامعات جديدة أنشئت فى مدن مثل باريس وأكسفورد وبراغ، وأصبح العلماء والدارسون يستطيعون كسب معيشتهم الآن بعيدا عن السيطرة المباشرة لسلطات الكنيسة، بالقيام بالتدريس بمقابل مالى، كما كشفوا عن اهتمام جديد بالدراسة الجادة للأعمال غير الدينية للعالمين اليونانى والرومانى، والسفر إلى صقلية وإسبانيا الموريسكية، أو حتى سوريا للوصول إليها عن طريق الترجمات العربية[١٦]، كما بدأ الخلاف بينهم حول أفضلية "**أفلاطون**" و"**أرسطو**"، و"**ابن رشد**" المفكر الإسلامى الأرسطى.

يتم الربط عادة بين فكر العصور الوسطى و"**السكولاستية**[*]– **Scholasticism**"، إلا أن المرحلة الأولى من الفكر الجديد كانت بعيدة عن ذلك، إذ كانت تتضمن استخدام النصوص التى كانت فى طى النسيان، لتوليد أفكار جديدة؛ وعليه فقد كان من رأى "**أبيلار – Abelard**"، الذى كان مهيمنا على الحياة الفكرية لجامعة باريس فى بدايات القرن الثانى عشر، كان من رأيه أن "الشخص الفاهم هو من لديه القدرة على إدراك الأسباب الكامنة وراء الأشياء وتأملها، ونقصد بالأسباب الكامنة تلك التى تنشأ عنها الأشياء، وتلك يتم استقصاؤها بالعقل أكثر مما هو بالخبرة الحسية"[١٧]، وقد هاجمه الصوفى "**سان برنار الكليرفووى– St Bernard of Calirvaux**"، لاعتباره نفسه "قادرا بالعقل البشرى وحده على إدراك كنه الله"[١٨].

(*) **السكولاستية**– Scholasticism الاسم الذى يطلق على "فلسفة المدرسة" فى العصور الوسطى، التى كان أتباعها – المدرسيون– يحاولون أن يقدموا برهانا نظريا للنظرة العامة الدينية للعالم، وكانت الفلسفة المدرسية تعتمد على أفكار الفلسفة القديمة (أفلاطون وخاصة أرسطو). (الموسوعة الفلسفية– ترجمة سمير كرم– دار الطليعة– بيروت– 1974). (المترجم)

لم يكن الاعتماد على العقل يعنى أن العلم الجديد ينبغي أن يكون بعيدا عن النشاط العملي، وكان العالم "**روچر بيكون– Roger Bacon**" هو الذى وضع صيغة البارود لأول مرة فى الغرب، واكتشف أساليب لاستخدام المرايا والعدسات لتكبير شكل الأشياء، وكان عالم آخر هو "**بيتر الماريكورتى– Peter of Maricourt**"، الذى تقصى الخواص المغناطيسية واخترع آلات تعتمد عليها[١٩].

ومع الترجمات العلمية جاءت معلومات عن الأساليب الفنية التى كان قد تم اكتشافها قبل أكثر من ألف عام فى اليونان أو روما أو الإسكندرية، وعن الأساليب التى كانت المجتمعات الإسلامية فى شرق المتوسط وآسيا الوسطى قد عرفتها عن طريق الصين؛ وقد أضاف ذلك كله إلى التحسينات التى كان يقوم بها الحدادون والصناع والبناؤون على ما يستخدمونه من آلات ومعدات؛ وكانت النتيجة "حماسة شديدة ورغبة جامحة فى ميكنة الصناعة لم تعرفها ثقافة من قبل"[٢٠].

بدأ استخدام الطواحين التى تدار بالماء لتشغيل كير مطارق الحدادين وتجهيز القماش. ذراع التدوير (الكرنك) حول الحركة من أعلى إلى أسفل إلى حركة دائرية (والعكس بالعكس)، مكنت الحذافات من الاحتفاظ بحركة منتظمة أثناء الدوران. دولاب الغزل والبوصلة جاءا من الشرق الأقصى فى القرن الثانى عشر، وحل السكّان محل مجذاف التوجيه فى القرن الثالث عشر، ما زاد الثقة فى النقل البحرى، كما كان اكتشاف الطبية يعنى أن ضعف البصر لم يعد عائقا يمنع الموظفين أو العلماء من مواصلة عملهم. ركاب الخيل، التقدم فى صناعة الدروع، النشابية، المقلاع، ثم البارود والمدفع (استخدام لأول مرة فى **1320**)، كل ذلك غير طبيعة الحرب والقتال؛ حتى عجلة اليد، ذات الدولاب الواحد، التى ربما لا تلفت نظر أحد، غيرت طبيعة العمل القاصم للظهر فى الزراعة.

هذا التقدم التقنى الكبير هو الذى يقف وراء ازدهار المجتمع والثقافة فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، وفى ذلك الوقت كانت "**الكوميونات– Communes**"، الدول – المدن ذات الحكم الذاتى هى النموذج السائد

فى المشهد السياسى فى الشمال الإيطالى والفلاندرز[٢١]. فى ذلك الوقت أيضا كان أن صنع كتاب مثل "**بوكاتشيو – Bocaccio**" و"**تشوسر – Chaucer**"، وقبل الجميع "**دانتى – Dante**"، يصنعون لأنفسهم شهرة بإنتاج أدب علمانى مكتوب بلغاتهم المحلية، وفوق كل شىء، كانت تعلو شاهقة شواهد ثقافتها، الكاتدرائيات العظيمة. كانت أعمالا إنشائية وفنية لا يمكن تصورها دون التغيرات الزراعية والتقنية والأيديولوچية التى حدثت فى القرون السابقة.

أزمة القرن الرابع عشر

لم تكن فترة النمو الاقتصادى والتقدم التقنى لتستمر، حيث إنها حدثت فى مجتمع كان يسيطر عليه فيها طبقة من أمراء الإقطاع، ظل محور حياتها الاستهلاك الترفى، والاستعداد للحرب، ومفاهيم الشرف العسكرى، وبمرور الوقت أصبح ذلك عبئا واستنزافا للموارد، بدل أن يكون حافزا على النمو والتقدم. فى السياق نفسه، كانت أسطورة العصور الوسطى تحتفى بأمثال "**ريتشارد قلب الأسد – Richard the Lionheart**" أو "القديس" "**لويس التاسع – Louis IX**" وتعتبرهم "ملوكا صالحين"، ينفقون مبالغ طائلة على قيادة عصابات من اللصوص وقطاع الطرق عبر أوروبا وآسيا الصغرى لإزعاج المسلمين وإزاحتهم من فلسطين، بحملات صليبية. ومثلما كانت تلك الحملات مخربة ومدمرة للأراضى التى مرت بها، كذلك كانت الحروب التى شنها الملوك النورمنديون عندما حاولوا إخضاع اسكتلندة، وويلز، وجزءا كبيرا من فرنسا، وأيرلندا، بالإضافة إلى إنجلترا؛ أو الحروب التى قامت فى إيطاليا القرن الثالث عشر بين "أباطرة رومان مقدسين" (ألمان) وملـوك فرنسيين متحالفين مع البابا[٢٢]. كان "1" أو "2" فى المائـة من العائدات، على أكثر تقدير، هو ما يذهب للاستثمار الجديد[٢٣].

كان أمراء الإقطـاع يزدادون بعدا وانعـزالا عن واقع إنتاج الثروة التى يستهلكونها، إذ أصبحت سلالة من كانوا يعيشون فى حصون وعرة يسكنون القلاع

المحكمة المجهزة، يلبسون الحرير ويعيشون حياة بذخ ويمارسون طقوس فروسية تميزهم عمن سواهم من الجماعات الاجتماعية الأخرى. كانوا يعتبرون أنفسهم طائفة منفصلة عن الآخرين، لهم حقوقهم القانونية الوراثية المشفوعة بمراسم دينية مقدسة. فى إطار هذه الطائفة نفسها كان هناك تدرج واضح فى المرتبة يفصل كبار الأرستقراط عن الفرسان العاديين الذين كانوا خاضعين لهم من الناحية القانونية، إلا أن كل شرائح هذه الطائفة كانت تزدرى أى شخص مشارك فى صنع الثروة – سواء أكان من أغنياء التجار، أو من صغار الصناع أو فقراء المزارعين.

كان الباباوات ورؤساء الأديرة من الرهبان والأساقفة، جزءا من هذه الطبقة الحاكمة، يشاركونها التوجهات نفسها، بيد أنه كانت لهم مصالحهم الخاصة. فى أواخر القرن الحادى عشر، كان لدى مجموعة من الباباوات "الإصلاحيين" طموح لتركيز شبكة رؤساء الأديرة والأساقفة مستهدفين فرض بنية شبه ثيوقراطية على كل أوروبا، وكان من نتائج ذلك محاولة الكنيسة تحقيق السلام بين الأمراء المتنافسين وأن تجعل من نفسها المؤسسة المهيمنة على المجتمع، وكان تخريب وتدمير الحملات الصليبية نتيجة أخرى لذلك الطموح. كان الباباوات يستخدمون الدعوة "لتحرير" أورشليم من "الكفرة" المسلمين (الذين لم يحدث أن منعوا رحلات الحج المسيحية)، واحتمالات الغنائم، لإقناع الملوك والأمراء والفرسان بالالتحاق بالجيوش الجرارة، تحت مظلة بابوية. لم يقلقهم أن تتضمن ممارسات تلك الجيوش سلب ونهب المدن، وقتل النساء والأطفال والاغتصاب وذبح اليهود والمسلمين والمسيحيين غير الكاثوليك، وغزو ونهب القسطنطينية فى **1204**[٢٤]، كما كانت الحروب بين الباباوات (المتحالفين مع الملك الفرنسى) والأباطرة، التى دمرت إيطاليا فى القرن الثالث عشر نتيجة أخرى للطموح البابوى.

كذلك كرسى الباباوات والأساقفة ورؤساء الأديرة أنفسهم لتدعيم القيم الأوسع المشتركة بينهم وبين أمراء الإقطاع.

كانت سيطرة الكنيسة على عقول الجماهير تعتمد على الخرافات والمعتقدات البالية والمعجزات التى شاعت فى مجتمع كانت الحياة عادة فيه قصيرة وغير آمنة

فى معظم الأحوال؛ وهو ما كان وراء خشية قيادات الكنيسة انتشار الأفكار الجديدة فى المدن. كان الإيمان بأفكار عقلانية مثل أفكار "**أبيلار- Abelard**" و"**بيكون- Bacon**" يمكن أن يضعف من قبضة الخرافة، بينما كان الكهنة الجوالة الذين يحملون رسالة فقر وصنعة يمكن أن يروجوا لبدعة أن "الفقراء الأتقياء" مؤهلون لشن حرب على "الأغنياء الفسدة". كانت الكنيسة تضيق باستمرار على الأفكار الجديدة. اعترفت رسميا بـ"**الفرانسيسكان- Franciscans**" المعتدلين، ولكنها اضطهدت "**الإخوان- Fratelli**" المتطرفين؛ ثم حاولت فى **1277** منع **290** خطأ مقيتا – **execrable errors**" (**كان توما الإكوينى – Thomas Aquinas**، المدافع الكبير عن مسيحية أواخر العصور الوسطى قد وقع فيها) من تعاليم العلماء. كان "**روجر بيكون**" تحت الإقامة الجبرية فى منزله تقريبا، كما أجبر أتباع "**ابن رشد**" على مغادرة باريس إلى "بادوا- **Padua**"؛ وأخيرا ظهرت **محاكم التفتيش** إلى حيز الوجود فى القرن الرابع عشر ومعها إحراق بعض الناس بتهمة الهرطقة. فى ذلك المناخ الجديد بدأ العلماء ينأون بأنفسهم عن "النقاش الخطر"؛ وبعد أن أعاد "**توما الإكوينى**" صياغة اللاهوت المسيحى على أساس أفكار "**أرسطو**"- فى عملية تبرير تراتبية الأرستقراط، والفرسان، والتجار، والصناع، والمزارعين- دخل فكر العصور الوسطى مرحلته "السكولاستية" العميقة التى لم يكن فيها أى مساءلة لأسس عقيدة الكنيسة أو لمفاهيم العالم المادى المصاحب لها.

بحلول العام **1300**، كان هناك تناقض هائل فى صميم المجتمع الأوروبى، منذ كانت الحياة المادية والثقافية قد وصلت ذروة يمكن مضاهاتها بما كان فى الحضارة الرومانية. كان هناك ما يشير إلى أن المجتمع كان يتحرك، وإن ببطء، للخروج من الفقر والخرافة وعدم الأمان، إلا أن القمة كانت متجمدة فى مكانها، منعزلة، حيث كان أمراء الإقطاع يجعلون الحواجز بينهم وبين الطبقات الأخرى أكثر إحكاما، والكنيسة تحاصر الفكر العقلانى والمخالف، وكميات أكبر من الفائض تهدر على الحرب ومظاهر الترف.

بلغت التناقضات مرحلة الأزمة مع اجتياح المجاعة معظم أوروبا، وخلفها الوباء الذى ازداد تفاقما مع انتشار سوء التغذية. هلك ما يقرب من نصف عدد

السكان تقريبا، وتركت أعداد غفيرة القرى وأقفرت ملايين الهكتارات من الأراضى الزراعية فى خضم أزمة القرن الرابع عشر الطاحنة؛ وكما يقول "**جى بوا- Guy Bois**"، "لمدة تربو على نصف القرن... الجزء الأكبر من القارة... كان يعانى تآكلا كبيرا فى عدد السكان وتراجعا فى الطاقة الإنتاجية. لم يكن لتلك الظاهرة سوابق معروفة فى التاريخ، سواء من حيث حدتها أو استمراريتها، إذ إنها حدثت فى إطار مناخ كارثى: أوبئة، حروب مدمرة، تمزق روحى، اضطرابات اجتماعية وسياسية"(٢٥).

ومثلما كان الأمر بالنسبة للأزمات التى هوت بالحضارات السابقة إلى "عصور مظلمة"، كانت هناك محاولات لتفسير ما حدث من منظور أسباب طبيعية. بعض المؤرخين ينحو باللائمة على برودة الطقس الأوروبى، إلا أن هذا لا يفسر عدم قدرة الناس على التكيف على مر العقود والتحول إلى محاصيل جديدة أكثر قدرة على الاحتمال – مثل زراعة الشعير فى الأماكن التى كانوا يزرعون فيها القمح، والقمح حيث كانوا يزرعون الكروم. وهناك من يزعم أن الزيادة السكانية التهمت الأراضى الزراعية، ولكن ما يبدو هو أنه لم يتم استخدام كل الأراضى الجرداء، وهذا على أية حال لا يفسر توقف الزيادة فى إنتاج المحاصيل مثلما كانت فى الماضى.

السبب الحقيقى للأزمة يكمن فى العبء المتزايد على المجتمع، عبء تحمل أسلوب حياة الطبقة الإقطاعية الحاكمة؛ فمن ناحية، كما يقول "**چورج دوبى- Georges Duby**": "فى أكثر الدول تقدما... بدأ نظام الزراعة الذى يركز على القمح فى الاضطراب بسبب متطلبات الزيادة التدريجية فى مستويات المعيشة الأرستقراطية والحضرية، والطلب المتزايد على السلع الترفية(٢٦)؛ ومن ناحية أخرى، كان الإنفاق الجديد على التطوير التقنى قليلا؛ وكما يشير "**رودنى هيلتون- Rodney Hilton**"، فإن "البنية الاجتماعية وعادات وأعراف طبقة النبلاء من أصحاب الأراضى، لم تكن تسمح بتراكم للإنفاق أو الاستثمار فى الإنتاج"(٢٧).

الصراعات الطبقية والحركات الألفية

أدى تفاقم الأزمة واتساع حجمها إلى اضطرابات في المجتمع بعامة، حتى الطبقة الحاكمة كانت تواجه صعوبات بالغة. كانت هناك، كذلك "أزمة في دخول أمراء الإقطاع"[٢٨]، بسبب مشكلات انتزاع الفائض من فلاحين يتضورون جوعا، ثم بسبب النقص الحاد في قوة العمل الزراعي على أثر ارتفاع معدلات الوفاة بسبب المجاعات والأوبئة. اتجه الأمراء مرة أخرى إلى محاربة بعضهم البعض على نحو لم يسبق له مثيل – على غرار حرب المائة عام بين ملوك إنجلترا وفرنسا، كما حاولوا استعواض عائداتهم بالاستيلاء على المزيد من الطبقات الأدنى منهم، أى الفلاحين والمدن الصغيرة. أفرزت الأزمة الاقتصادية صراعات طبقية حادة.

لم تكن الصراعات بين أمراء الإقطاع والفلاحين أمرا جديدا، وكانت مقاومة القنانة قد أدت، مثلا، إلى انتفاضة كبرى في القرن العاشر في شمال فرنسا، كما عبرت عن ذلك قصيدة فيما بعد، نقرأ منها:

الفلاحون شبه الأحرار والمزارعون
عقدوا عدة برلمانات
نشروا هذا الأمر:
كل من هو أعلى... عدو...
وأقسم الكثيرون منهم
أنهم لن يقبلوا
أن يكون عليهم أمير أو سيد[٢٩].

بعد ترسخ الإقطاع، وجد الفلاحون أن التحدى المباشر للأمير الإقطاعي أصبح أكثر صعوبة. كان مسلحا على نحو لم يكن متوفرا لهم، إذ كانوا يعتمدون عليه في إمدادهم بالأدوات، وإطعامهم في مواسم فشل المحصول، كما أن تعاليم الكنيسة كانت تدعم موقفه، إلا أنهم كانوا ما زالوا قادرين على المقاومة في حال تجاوز مطالبه المستويات المعتادة. كانوا يستمدون بعض القوة من كثرة أعدادهم

في كل مزرعة، ومن الروابط التى جمعت بينهم على مدى أجيال عاشت وتزاوجت في تلك القرى. زادت المعاناة واشتعل الغضب كما لم يحدث من قبل. فى **1325** حمل الفلاحون الأحرار السلاح فى غرب الفلاندرز، ورفضوا أن يدفعوا العشور للكنيسة والمستحقات لأمراء الإقطاع، ولم ينهزموا إلى أن تدخل ملك فرنسا فى **1328**؛ وفى **1358** قامت ثورة فلاحية كبيرة (**jacqerie**) في وادى "السين" فى شمال فرنسا إلى هجمات على النبلاء وإحراق قصور إقطاعية؛ وفى يونيو **1381** مكن تمرد فلاحى إنجليزى مجموعة من الثوار بقيادة "**وات تيلر- Wat Tyler**"، من السيطرة على لندن لفترة قصيرة. (شنقوا جميعا بعد أن وقعوا فى خطأ الثقة بالملك). شهد هذا التمرد بديات اتحاد كل الفلاحين للمطالبة بالتحرر من أمراء الإقطاع: "كان إلغاء الاسترقاق والقنانة هو المادة الأولى من برنامج الفلاحين"[٣٠]. كان "**چون بول- John Ball**"، الكاهن السابق وأحد ملهمى التمرد يشن هجوما على امتيازات النبلاء عندما يقول: عندما كان آدم يقلب التربة، وحواء تغزل، من كان السيد آنذاك؟".

أيدت قطاعات من سكان الحضر فلاحى الفلاندرز فى **1320** والتمرد الإنجليزى في **1381**؛ وكان أبناء المدن الصغيرة هم الذين فتحوا بوابات لندن للفلاحين، وانضم فقراء المدينة إلى الحشود الثائرة؛ ولكن القرن الرابع عشر شهد كذلك أعمال تمرد واسعة ضد النظام القديم.

كان بعضها يمثل استمرارية لأعمال مقاومة سابقة من مواطنى المدن الصغيرة للاستقلال عن الأمراء المحليين، وكان مثل هذه الأعمال قد تكرر فى الفلاندرز؛ وفى أواخر خمسينيات القرن الرابع عشر استغل بعض أغنياء المدن الفرصة التى أتاحها سجن الملك بواسطة الإنجليز، للاستيلاء على المدينة. قام "**إيتيان مارسيل- Etienne Marcel**"، أحد أبناء أسرة تجارية غنية، ومعه نحو **3000** من الصناع باقتحام القصر الملكى وأجبروا الابن البكر للملك (وريثه) على ارتداء شارة الثورة لفترة من الوقت؛ وفى فلورنسا فى الشمال الإيطالى مضى

التمرد خطوة أبعد فى **1378** عندما انقلبت جماهير صناعة الصوف على كبار رجال الصناعة وسيطروا على المدينة لمدة شهرين(٣١). لم تكن تجليات النضال الطبقى من هذا القبيل هى الأسلوب الوحيد الذى يرد به الناس على تدمير حياتهم، بل كان هناك تاريخ طويل من الحركات الألفية فى أوروبا العصور الوسطى، والتى كانت تجمع بين السخط الشعبى العام على الأغنياء، والتوقع الدينى للقدوم الثانى للمسيح، وغالبا كره الغرباء. حملات الباباوات الرسمية حثت على حملات غير رسمية من العامة – حملات الشعب، حملات الأولاد، حملات الرعيان...، وكان الدعاة المهرطقون يكسبون تأييدا كبيرا بإعلان أنفسهم خلفاء للمسيح؛ وبالمثل كانت الجماهير تزحف من مدينة إلى أخرى تسلب وتنهب وتحشد التأييد العام، ولم يكونوا يوجهون غضبهم نحو الطبقة الإقطاعية الحاكمة، وإنما ضد الكهنة الفاسدين، وضد اليهود بخاصة. كان أولئك هدفا سهلا. كان اليهود الجماعة الوحيدة غير المسيحية فى مجتمع كانت المسيحية فيه هى الديانة السائدة؛ ولأنهم كانوا مستبعدين من الزراعة بسبب موقف الكنيسة، كانوا مضطرين للاشتغال بالتجارة وإقراض الأموال على هامش مجتمع من العصور الوسطى، وكانت تنقصهم سلطة الطبقات الغنية بالفعل، لحماية أنفسهم. كان على اليهود أن يختاروا بين التحول الفورى إلى المسيحية أو الموت، ولكن الجماهير كذلك كان يمكن أن تجر الكهنة فى الشوارع وتنهب كنائسهم.

أشعلت الأزمة سلسلة من الحرمات شبه الدينية المشوشة، ففى **1309**، فى الفلاندرز وشمال فرنسا:

> **ظهرت طوابير مسلحة، مكونة من صناع وعمال فقراء**
> **بؤساء، وخليط من نبلاء كانوا قد بددوا**
> **ثرواتهم. كان أولئك الناس يتسولون ويسرقون**
> **وينهبون، يقتلون اليهود... ويقتحمون**
> **القرع كذلك... وفى النهاية هجموا على قلعة**

دوق باربانت– Duke of Barbant،

الذى كان قبل ثلاث سنوات قد أباد جيشا من

عمال الأقمشة ويقال: إنه دفن قادته أحياء[٣٢].

وفى **1520**، كانت طوابير من الفقراء والمعدمين تتحرك مرة أخرى، بقيادة كاهن كان قد جرد من سلطاته، وراهب مارق وأنبياء كانوا يقولون بأن الكثير من سفك الدماء يعجل بقدوم عصر جديد. اقتحموا السجن فى باريس، كما اقتحموا القصر الرئاسى قبل أن يزحفوا على "تولوز" و"بوردو"، وأثناء زحفهم كانوا يقتلون اليهود[٣٣]، ولكنهم كانوا، يشجبون الكهنة باعتبارهم "رعاة زائفين يسرقون قطعانهم، وبدأوا يتحدثون عن نزع ملكية الأديرة". أرسل البابا، المقيم فى أفينون– **Avignon** قوة مسلحة للتصدى لهم، حيث كان يتم شنق المشاركين منهم بالعشرين أو الثلاثين فى المرة الواحدة[٣٤].

كذلك فإن حالة الذعر المصاحبة للطاعون الأسود– **Black Death** فى أواخر أربعينيات القرن الرابع عشر، أدت إلى انتشار المزيد من الهستيريا الدينية – **الفلاجيلانت: Flagellants**(*). استجابة لبيان بابوى، كانت جماعات يصل عدد كل منها إلى نحو **500** رجل من الأشداء الأقوياء، يخرجون فى زى موحد وهم ينشدون تراتيل معينة قاصدين مدينة ما، حيث يشكلون دائرة ويشرعون فى جلد ظهورهم بإيقاع منتظم، بواسطة سياط حديدية مكسوة بالجلد، إلى أن تغطيها الجروح والدماء. كانوا يعتقدون أنهم بمحاكاة الآلام التى تحمّلها المسيح على الصليب، يطهرون أنفسهم من الخطايا التى أودت بالعالم إلى حالته الراهنة، وأنهم بذلك يؤمّنون طريقهم إلى الجنة. كان الهوس الدينى لديهم مصحوبا بما يمكن أن يطلق عليه اليوم "ذعر معنوى مفترض" – اعتقادهم بأن هناك مؤامرة ما وراء الظهور المفاجئ للطاعون الأسود. كانوا يقتلون اليهود المتهمين بنشر الوباء بتسميم

(*) Flagellants من يضربون أنفسهم بالسياط (تقربا إلى الله). (المترجم)

الآبار، رغم أن اليهود مثل المسيحيين، بالطبع، كانوا عرضة له؛ إلا أنهم كانوا يهاجمون الكهنة كذلك ويتحدثون عن الاستيلاء على ثروة الكنيسة ويحثون البابا على شجبهم فى رسالة بابوية، ومختلف السلطات العلمانية على شنق كل الخارجين عن طاعتها[٣٥].

شهدت بداية القرن الخامس عشر قيام شكل آخر من الحركات الدينية فى بوهيميا[٣٦]، كان يحتوى بعض مواصفات الثورات الحضرية فى الفلاندرز وفرنسا وإيطاليا، بيد أنه كان فى الوقت نفسه بمثابة "بروفة" لـ"**الإصلاح البروتستانتى- Protestant Reformation**" الكبير بعد مائة عام. كانت المنطقة قد مرت بتطور اقتصادى سريع. كان يوجد بها أغنى منجم للفضة فى أوروبا وأهم مركز للعلم فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الألمانية)؛ إلا أن معظم الثروة كان فى يد الكنيسة التى كانت تمتلك نصف الأراضى، وكان ذلك وراء غضب واستياء كبيرين، ليس بين الطبقات الفقيرة من سكان الريف والمدن الصغيرة، بل وبين عدد كبير من الفرسان – **Knights**، الذين كانوا يتحدثون التشيكية أكثر من الألمانية.

انعكس الغضب والاستياء فى التأييد الواسع لأفكار "چان هس- **Jan Hus**"، وكان مبشرا وأستاذا بالجامعة، ويحرض بقوة ضد فساد الكنيسة وادعاء البابا أنه المفسر الوحيد لمشيئة الله. كان "**هس**" يحظى ببعض الدعم من "**ونسيسلاس- Wenceslas**" ملك بوهيميا؛ وعندما قام الإمبراطور، بإيعاز من البابا، بإحراق "**هس**" على الخازوق فى **1415**، انتفض كل التشيك فى بوهيميا، واستولوا على الكنيسة وممتلكاتها.

انقلب الملك على الحركة، وأصبح النبلاء والتجار الأغنياء أكثر اضطرابا بسبب نزوع الفلاحين إلى رفض الاستغلال من أى مصدر، وليس من قبل الكنيسة فحسب. سيطر الصناع المنتمون للجناح التابورى- **Taborians**(*)- على "براغ"

(*) التابوريون- Taborians نسبة إلى جبل "تابور- Tabor" فى بوهيميا (جنوب براغ) حيث كان يتجمع هذا الجناح الراديكالى. (المترجم)

لمدة أربعة أشهر قبل أن يزيحهم التجار الذين كانوا يأملون فى استرضاء البابا والإمبراطور. كان هناك عقد من الحرب حيث كان البابا والإمبراطور يحاولان سحق التمرد البوهيمى. كانت المواقف المتأرجحة لطبقة النبلاء التشيك وسكان براغ تدفع القاعدة العريضة من **التابوريين– Taborites** نحو الأفكار الثورية، مع شعارات مساواتية من قبيل "الكل سيعيشون معا كإخوة؛ لن يخضع أحد للآخر"، "سيحكم الرب وسوف يتسلم الملكوت ناس الأرض"؛ "كل الأمراء والنبلاء والفرسان سيقتلون ويبادون فى الغابات مثل الخارجين على القانون"[٣٧]. استمر الوضع هذا حتى مايو **1434** عندما هزم جيش من النبلاء القوة "**التابورية**"، بمساعدة أحد قادتها الذين انشقوا عنها، وتم قتل ما لا يقل عن **13000** فار منهم.

الفلاندرز والشمال الإيطالى والشمال الفرنسى وبريطانيا وبوهيميا – أزمة الإقطاع، كل ذلك أدى إلى سلسلة من الثورات؛ ومع ذلك بقيت سلطة أمراء الإقطاع متماسكة. لم تبرز طبقة قادرة على جمع بقية المجتمع خلفها فى هجوم على النظام.

على مدى قرون كان سكان المدن الصغيرة يقاومون سلطة أمراء الإقطاع، ولكن مجالس الحكم فى تلك المدن كانت فى أغلبها **أوليجاركيات– oligarchies** (جماعات قلة همها تحقيق مصالحها الذاتية) نادرا ما تعارض أمراء الإقطاع، ولأنها كانت تعيش فى كنف هذا النظام، كانت تقبل بالكثير من أفكاره ومبادئه. كان طموحهم فى معظم الأوقات اللحاق بهم – وتحويل الثروة التى حققوها من التجارة إلى ثروة أكثر دواما، أى امتلاك أراض كاملة بما عليها من أقنان يفلحونها؛ وعند كل نقطة تحول كبرى فى أفضل الأحوال يتخذون مواقف مذبذبة ويحاولون كسب رضاء الأمراء، وفى أسوأ الأحوال ينضمون إليهم فى هجومهم على الجماهير؛ وما حدث فى الشمال أوضح مثال على ذلك؛ ولعل ذلك الجزء من إيطاليا، كان الأكثر تقدما من الناحية الاقتصادية فى كل أوروبا فى مطلع القرن الرابع عشر، وأقل المناطق تضررا من الأزمة. كانت أسرة "**ميديتشى– Medicis**" التجارية قد تمكنت من السيطرة على "فلورنسا" أهم مدن المنطقة بما فيها من صناعة وتجارة الأقمشة

الهائلة؛ إلا أن الأسرة لم تستخدم نفوذها فى القرن الخامس عشر لتحطيم الإقطاع، وإنما لترسيخ أنفسهم لاعبين رئيسيين فى مناورات أسر النبلاء والأمراء، وبذلك أكدت التمزق المستمر للمنطقة إلى دويلات متحاربة، وتدهور اقتصادى نهائى[٣٨].

كان صناع المدن أكثر راديكالية، فالكثيرون منهم لم يكن يفصلهم عن القنانة أكثر من جيلين، ومثلهم مثل الفئات الفلاحية المحيطة بهم كانوا يواجهون المجاعات فى ظروف فشل المحصول؛ وهناك أمثلة كثيرة على صدامات بينهم وبين أوليجاركية المدن، بل وكانوا ينضمون أحيانا إلى الانتفاضات الفلاحية؛ إلا أنهم لم يكونوا جماعة متجانسة. كان البعض منهم أغنياء نسبيا يديرون مشاغلهم وورشهم الخاصة ويستخدمون عمالة أسرية أو أعدادا قليلة من عمال المياومة والمبتدئين. آخرون كانوا أكثر فقرا ويخشون الوقوع فى المزيد من الفقر والعوز مثل جماهير الريف، ولذلك كان هناك من تحالف مع ثوار القرى ومن انضم إلى التجار الأغنياء، ولذلك أيضا كان هناك دعم من قطاعات من جماهير الحضر للهوس الدينى المتمثل فى الحملات الصليبية الشعبية و"**الفلاجيلانت**"(*).

وأخيرا، كان هناك الفلاحون. كانت الانتفاضات الفلاحية تستطيع أن تهز المجتمع، ولكن الفلاحين أنفسهم – لكونهم أميين ومبعثرين فى أماكن مختلفة، كل منهم معنى بقريته وأرضه – لم يكن فى أذهانهم أى تصور لبرنامج واقعى لإعادة صياغة المجتمع. كان من شأن برنامج من هذا القبيل أن يجمع بين هجوم ثورى على سلطة أمراء الإقطاع، ومشروعات لاستخدام التقدم التقنى فى المدن لزيادة الناتج الزراعى فى الريف. لم يكن التقدم الصناعى قد وصل إلى مرحلة تكفى لخلق طبقى، سواء فى المدينة أو الريف، قادرة على تقديم مثل هذا البرنامج، وإن حتى بأسلوب مشوش.

على أنه كانت قد أصبحت هناك أجنة يمكن أن تنمو ذات يوم وتخلق مثل هذه الطبقة. كان هناك فى بعض المدن تجار وصناع مهتمون بالابتكارات الفنية

(*) Flagellants من يضربون أنفسهم بالسياط (تقربا إلى الله). (المترجم)

والاستثمار الإنتاجى؛ وفى بعض المناطق الريفية كان هناك فلاحون أغنياء لديهم الرغبة فى أن يصبحوا أكثر رغدا بالتخلص من عبء الاستغلال الإقطاعى، وأن تكون زراعاتهم أكثر إنتاجية؛ ولكن الجنين الواعد لم يكن مثل طبقة قادرة على وضع نهاية للأزمة التى كانت تدمر المجتمع كله.

نشأة إقطاع السوق

كانت أزمة الإقطاع الأوروبى مختلفة، فى جانب مهم، عن الأزمـــة التى ضربت روما القديمة وصين سونج، أو الإمبراطوريات العربية فى الشرق الأوسط. التعافى حدث على نحو أكثر سرعة.

كان هناك انتعاش اقتصادى وتجدد فى النمو السكانى بحلول منتصف القرن الخامس عشر[٣٩]. كان هناك، كذلك، ارتفاع فى مستويات معيشة من نجوا من المجاعات والأوبئة، إذ بالرغم من أن عدد السكان القليل لم يكن يزرع سوى مساحة صغيرة من الأرض، إلا أنها كانت الأكثر خصبا. هبط إنتاج الغذاء إلى أقل من نصف المطلوب لإطعام الناس. زادت أهمية بعض المدن. قطاع من سكان الحضر، وبخاصة أمراء الإقطاع، أصبح أكثر اعتمادا على السلع التى تنتجها المدن، ليعود المجتمع إلى نظام إنتاجى يتم فى مزارع كبيرة متكاملة؛ ومع زيادة طلبهم على السلع، كان يتزايد كذلك طلبهم على النقد الذى كانوا يستطيعون تأمينه من بيع نسبة متزايدة من الناتج الزراعى. واصلت شبكات السوق اختراق الريف، لكى تصل كل قرية وكل أسرة حيازية بتجار وصناع المدن.

غير نمو شبكات السوق المجتمع الإقطاعى، صحيح أن التغير كان بطيئا ولكنه كان عميقا. أثرى بعض التجار من التجارة الدولية فى السلع الترفية، التى كانت تأتى بالسلع من الهند وجنوب شرق آسيا والصين إلى أوروبا[٤٠]؛ وكانت ثرواتهم تكفى لتجعلهم بمثابة صيارفة للملوك والأباطرة، ويمولون الحروب ويحصدون مكاسب سياسية واقتصادية؛ حتى من لم يكونوا يطمحون منهم إلى تلك

المرتبة، كانوا يستطيعون السيطرة على الحياة السياسية فى مدنهم ويجعلون منها حلفاء لملوك يحاولون توسيع نفوذهم.

بدأ الملوك بدورهم يرون أن مستقبلهم ليس فقط فى محاربة بعضهم البعض ولا فى مصاهرة الأسر الأخرى من أجل الأرض، وإنما كان فى جنى بعض الفوائد من التجارة. شجع ملوك البرتغال التجار على استخدام السفن الحديثة لاكتشاف طريق حول أفريقيا يمكنهم من الوصول إلى ثروات آسيا، كما مول ملوك إسبانيا "الكاثوليك" رحلة "**كولومبس– Columbus**" غربا عبر الأطلنطى.

كانت الكتلة الأكبر من صغار التجار ما زالت بمستوىً أصحاب المتاجر الصغيرة، ولكن الحظ كان يحالفهم لزيادة نفوذهم وثرواتهم بأن يجدوا لأنفسهم مكانا فى المجتمع الإقطاعى يعملون على تنميته ببطء؛ فالقصاب، على سبيل المثال يمكن أن يكون صاحب إمكانيات متواضعة، ولكنه كان فى وضع يمكنه من تقديم حوافز نقدية للمزارعين المحليين لكى يتخصصوا فى تربية أنواع معينة من الماشية – وهكذا كانت بداية ممارسة درجة من التحكم فى الاقتصاد الزراعى؛ وبحلول القرن الخامس عشر "كان لكل من مدينة قصابوها، وكلهم أغنياء، كانوا رجال الاقتصادى الريفى الجدد وسادته"(٤١).

أما تجار الحضر فكانوا مؤثرين فى حياة الريف بأسلوب مختلف، إذ كانوا يشجعون المزارعين الأقل ثراء على القيام بأعمال حرفية فى الريف، بعيدا عن سيطرة طوائف الصناع من المدن. كان هناك نمو فى نظام يمكن أن يطلق عليه نظام الإقراض من أجل الإنتاج، فالتاجر يزود العمال الريفيين بالمواد الخام التى يحولونها إلى سلع مكتملة فى منازلهم، دون أن يكون أمامهم من خيار سوى قبول الثمن الذى يحدده التاجر.

حالة صناعة النسيج يمكن أن توضح لنا أهمية مثل هذا التغير، ففى منتصف القرن الرابع عشر، كان يتم تحويل ما يقدر بـــ**96%** من الصوف، وهو أهم صادرات بريطانيا، إلى قماش فى الخارج، وبخاصة فى مدن الفلاندرز. بعد قرن،

كان يتم تصدير 50% فى صورة منسوجات. زاد التجار أرباحهم بإضعاف قبضة الصناع الفلمنكيين (أبناء الفلاندرز)؛ إلا أنهم فعلوا ما هو أكثر من ذلك، فقد استولوا على جزء من قوة العمل الزراعى التى كانت فى السابق تحت سيطرة الأمير الإقطاعى. كانت النتيجة بعيدة المدى هى إحلال شكل من الاستغلال محل آخر. السرقة المباشرة لعمل الفلاح حل محلها نظام يقبل فيه العمال، فرادى وطواعية، ما هو أقل من القيمة الكاملة لمنتجاتهم، مقابل إمدادهم بالمواد الخام أو الأدوات.

لم يكن ذلك إنتاجا رأسماليا كاملا كما نعرفه. كان الإنتاج فى أماكن العمل الكبيرة، تحت الإشراف المباشر لمدير أو مقاول، مقصورا على عدد قليل من الصناعات، وعلى التعدين فى المقام الأول. كان نظام الإقراض من أجل الإنتاج يعتمد على أناس كانوا ما زالوا يعتبرون أنفسهم "رؤساء أنفسهم"، ولكنها كانت خطوة نحو رأسمالية كاملة. انتقل التاجر من مجرد شراء وبيع السلع إلى الاهتمام بإنتاجها، ولم يعد بإمكان المنتجين المباشرين تأمين سبل عيشهم، إلا إذا ذهب جزء من إنتاجهم للتاجر فى صورة ربح.

يضاف إلى ذلك أن كلا من التاجر والمنتج أصبحا، وعلى نحو مضطرد، عرضة لشروط وإملاءات أسواق لا سيطرة لهما عليها. منتجو الريف، المتفرقون، كانت تنقصهم قوة طوائف صناع المدن لتحديد الناتج والسيطرة على الأسعار، ولم يكن أمامهم من خيار سوى مجاراة أساليب تقليل التكلفة التى يقدمها منتجون آخرون. كان النظام الإقطاعى للإنتاج يخلى مكانه لنظام مختلف تماما، أدت فيه المنافسة إلى استثمار، وأدى فيه الاستثمار إلى زيادة حدة ومجال المنافسة. حتى ذلك الحين، كان ذلك يحدث فى عدد قليل من الثغرات فى النظام القديم، إلا أنه كان مثل المادة الحمضية التى تحدث التآكل فى العالم المحيط بها وتغيره.

كان للتغيرات كذلك أثرها فى أساليب تصرف بعض أمراء الإقطاع، كانوا مستميتين لزيادة مخزونهم النقدى، وكان أمامهم أسلوبان لذلك، أحدهما استخدام

سلطاتهم الإقطاعية القديمة واستخدام العنف المنظم لتدعيم القنانة، وجعل الفلاحين يقدمون المزيد من العمل القسرى فـــى المزارع الكبيرة. الأقنان سيعيشون على الكفاف دون تحميل الأمير أى تكلفة، ما يمكنه من بيع الفائض بثمن كبير للتجار.

الأسلوب الثانى كان أن يقوم أمراء الإقطاع بتأجير قطع من أملاكهم مقابل قيمة إيجارية ثابتة لفترات طويلة للقطاع الأكثر كفاءة من المزارعين، الذين سوف يستخدمون بدورهم مزارعين من المعدمين أو ممن لديهم مساحات صغيرة، للعمل لديهم. كان ذلك فى الواقع يتضمن قبول الأمير الإقطاعى المتضمنات الكاملة لنظام السوق المتطور، ويختار أن يحصل على دخله كقيمة إيجارية أو ربع من أراض تتم زراعتها بأسلوب رأسمالى.

المناطق المرتبطة بشبكات من المدن تحركت نحو الزراعى الرأسمالية بينما كان التحول فى المناطق الأخرى نحو القنانة التى تم تعزيزها. على مدى فترة تزيد عن **300** عام، تحركت إنجلترا والأراضى المنخفضة (هولندا) وأجزاء من فرنسا وألمانيا الغربية وبوهيميا فى اتجاه واحد، بينما تحركت أوروبا الشرقية والجنوب الإيطالى فى الاتجاه الآخر، إلا أن التحول فى الحالتين لم يكن فوريا أو بدون تعقيدات. كان الأمراء المختلفون يتحركون بسرعات مختلفة كما أصبحت العملية برمتها متداخلة مع التغيرات الأخرى. كان بعض الملوك يسعون لتمديد سلطانهم بمساعدة أغنياء الحضر ويواجهون مقاومة من الأمراء الكبار. خاض الملوك حروبا سلالية ضد بعضهم البعض. أساليب جديدة فى رؤية العالم مدعومة بالتحضر، تصادمت مع الأساليب القديمة المرتبطة بالنظام الإقطاعى والمتجسدة فى تعاليم الكنيسة. قام الفلاحون على أمراء الإقطاع – وتفجرت فى المدن الصراعات بين الأغنياء والفقراء.

بقيت القضية دون حل فى كل مكان لمدة تزيد عن قرن من الحروب والثورات والاضطراب الأيديولوجي – وإلى ما بعد فترة كبيرة أخرى من الأزمات الاقتصادية التى أدت إلى مجاعات وأوبئة.

الهوامش

(١) انظر التفاصيل فى البحث الخاص بوثائق المعبد اليهودى فى القاهرة وذلك فى:

S.D. Coitien, "Studies in Islamic History and Institutions", (Leiden, 1966), p.297.

(2) G. Duby, "Rural Economy and Countrylife in the Medieval West", (London, 1968), p.5.

(٣) هذا، مثلاً، جزء من تفسير David Landes فى كتابه الذى ينوه إليه كثيرا:

The Wealth and Poverty of Nations.

(٤) "روبرت برينر– Robert Brenner" و"إيلين ميكسنز وود– Ellen Meiksins Wood" "السياسيان الماركسيان" كما يقال.

انظر – مثلا – مقال R.Brenner نفسه فى:

T.Ashton (ed), "The Brenner Debate", (Cambridge, 1993).

(5) L.White, "The Expansion of Technology 500-1500", in C.Cipolla(ed), Fontana Economic History of Europe, vol 1, The Middle Ages (London, 1972), p.147.

وانظر كذلك:

G. Duby, "Rural Economy", pp. 18-19.

(6) L. White, "The Expansion", p.149.

(7) L. White, "The Expansion", p.146.

(8) G. Duby, "Medieval Agriculture", in C.Cipolla (ed), Fontana, pp. 196-197.

ربما يكون التقدم الذى حدث فى الإنتاجية فى عهدى "شين– Ch'en" و"تانج– Tang" فى الصين بنفس عظم ما حدث فى أوروبا، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية ما حدث.

(9) S. Thrupp, "Medieval History", in C.Cipolla (ed), Fontana, p.225.

(10) P.Kriedte (ed), "Industrialisation Before Industrialisation", (Cambridge, 1981), p.19.

(11) J. Le Goff, "Medieval Civilisation", Oxford, 1988), p.59.

(12) M.Bloch, "Feudal Society", (London. 1965), p.346.

(13) J. Le Goff, "Medieval Civilisation", p.198.

(١٤) انظر:

G. Bois, "The Transformation of the year 1000", (Manchester, 1992).

وللاطلاع على مناقشة نقدية لآرائه انظر مراجعتى:

"Change at the First Millennium", International Socialism 62, (Spring 1994).

(15) J. Le Goff, "The Town as an Agent of Civilisation", in C.M. Cipolla (ed), Fontana, p.79.

وللمزيد عن دور هذه المدن الصغيرة التى أنشئت حديثا على أراضى أمراء الإقطاع فى إنجلترا، انظر:

R. Hilton, "Lords, Burgesses and Hucksters", in "Past and Hucksters", in "Past and Present", November, 1982.

(١٦) انظر، على سبيل المثال، قائمة النصوص العلمية المترجمة إلى اللاتينية عن اللغة العربية، فى:

J. Gimpel, "The Medieval Machine", (London, 1992), pp. 176-177.

(١٧) اقتباس فى: J. Gimpel, "Medieval", p.174

(18) J. Gimpel, "Medieval", p. 174.

(19) J. Gimpel, "Medieval", p.193.

(20) L. White, "The Expansion", p.156.

(٢١) جنوب بلچيكا والشريط الشمالى من فرنسا.

(٢٢) انظر للمزيد: S. Runciman, "The Sicilian Vespers".

(23) R.Roehl, "Pattern and Structure of Demand 1000-1500", in C.Cipolla (ed) Fontana, p.133.

(٢٤) التاريخ المعيارى للحملات الصليبية تجده فى ثلاثية "ستيفن رانسيمان– "Stephen Runciman

"A History of the Crusades" 9Harmondsworth, 1999);

كما تجد فكرة عامة فى:

The BBC paperback by Terry Jones and Alan Ereira, "The Crusades", (London, 1996).

حقيقة أن الصليبيين استطاعوا غزو أراضى حضارات كانت أكثر تقدما من أوروبا، نتيجة استخدام تقنيات جديدة فى الزراعة الأوروبية، وأن ذلك كان دلالة على تقدم مادى، هذه الحقيقة لا تنفى عن الحملات الصليبية جرائمها ولا طبيعتها التخريبية.

(25) G.Bois, "The Crisis of Feudalism"; (Cambridge, p.1).

كانت هناك فى الحقيقة سوابق تاريخية على نفس الدرجة من الأهمية – منها على سبيل المثال الأزمة التى ضربت الحضارات القديمة الباكرة أو بلاد ما بين النهرين فى العصور الوسطى.

(26) G.Dubt, "Medieval Agriculture", p.192.

(27) R.Hilton, "Class Conflict and the Crisis of Feudalism", (London, 1990), p.171.

وانظر كذلك: G. Bois, "The Crisis", pp. 1-5.

(٢٨) العبارة التي يستخدمها "Bois" و"Hilton".

(٢٩) اقتباس في:

J-P. Poly and E.Bournazel, "The Feudal Transformation", (New York, 1991), p.119.

(30) R.Hilton, "Class Conflict", p.65.

(٣١) انظر، للاطلاع على وصف يلخص الأحداث:

S.A. Epstein "Wage Labor and Guilds in Medieval Europe", (North Carolina, 1991), pp. 252-253.

(32) N. Cohn, "The Pursuit of Millennium", (London, 1970), p.102.

(٣٣) المصدر السابق– p.103

(٣٤) المصدر السابق– p.104

(٣٥) المصدر السابق– pp. 139-141

(٣٦) الجزء الشمالي الغربي من جمهورية التشيك الآن.

(٣٧) الاقتباسات موجودة في: N.Cohn, "Pursuit", p.215

وانظر للمزيد:

K.Kautsky, "Communism in Central Europe in the Reformation", translated by J.L. and E.G. Mulliken, (London, 1897, reprinted New York, 1966).

(٣٨) انظر على سبيل المثال:

C.Hibbert, "The Rise and Fall of the Medicis", (London, 1979).

(٣٩) انظر: G. Duby, "Medieval Agriculture", p.182

(٤٠) تجد لدى "فرنان برودل– Fernand Braudel" وصفا كاملا لمختلف الشبكات العالمية، وذلك في الفصل الثاني بعنوان "Markets and Economy" من كتابه:

"The Wheels of Commerce, Civilisation and Capitalism in the 15th – 18th Century", vol.2 (London, 1979).

(41) G. Duby, "Medieval Agriculture", p.193.

وللمزيد عن تجار الحضر الذين أصبحوا من كبار ملاك الأراضي الزراعية، انظر:

C. Bois, "The Crisis", p.153.

مصادر للمزيد من الاطلاع

انظر :

Peter Brown's "The World of Late Antiquity", and "The Rise of Western Christendom",

للاطلاع على التطورات الأولى في أوروبا الغربية وبيزنطة والشرق الأوسط، كما يقدم Gernet عرضا ممتازا للإنجازات الصينية.

مجموعة مقالات من تحرير:

W.Haeger, "Crisis and Prosperity in Sung China.

* Colin Ronan's abridgement of the work of Joseph Needham on Chinese Science.

* Cyril Mongo's "Byzantium".

* Bernard Lewis's "The Arabs in History".

* Maxine Rodinson's "Mohammed and Islam and Caoitalism.

* Basil Davidson's "Africa in History", and "The Search for Africa".

* Marc Bloch's two volume "Feudal Society".

* Jacques Le Goff's "Medieval Civilisation".

* Guy Bois's two books "The Transformation of the year 1000" and "The Crisis of Feudalism".

* Rodney Hilton's "Class Struggle and the Crisis of Feudalism.

* Jean Gimpel's "The Medieval Machine".?

الفصل الرابع

التحول العظيم

مسرد زمنى

■ **القرن الخامس عشر**

- العثمانيون يغزون القسطنطينية- **1453**
- ذروة النهضة الإيطالية - ليوناردو دافنشى، مايكل أنجلو، ماكيافللى **(1450-1520)**
- ازدياد قوة الأنظمة الملكية فى فرنسا وإسبانيا وبريطانيا، فى تسعينيات القرن الخامس عشر.
- الملوك الإسبان يغزون غرناطة، **1493**.
- كولومبس يرسو فى الكاريبى، **1492**.

■ **القرن السادس عشر**

- البرتغاليون يستولون على "جوا- **Goa**"، **1510**.
- العثمانيون يغزون القاهرة **1517**، والجزائر **1529** ويحاصرون ڤيينا **1529**.
- تأثير النهضة ينتشر فى أوروبا الغربية، "إيرازموس- **Erasmus**" فى هولندا، "دورار- **Dürer**: فى ألمانيا، "رابليه- **Rabelais**" فى فرنسا.
- الإصلاح اللوثرى يجتاح جنوب ألمانيا **1518-25**.
- "كورتيز- **Cortes**" يخضع الأزتيك - **Aztecs 1519-21**.
- حرب الفلاحين الألمانية، **1525**.
- المغول يغزون شمال الهند، **1529**.
- "بيثارو- **Pizarro**" يغزو إمبراطورية الإنكا، **1532**.

- الإصلاح من أعلى وإغلاق الأديرة فى إنجلترا، 1534-39.
- أول حظائر زراعية فى إنجلترا.
- كوبرنيكوس- **Copernicus** ينشر نظرية عن الكون بعد تأخر ثلاثين عاما، **1540**.
- إيڤان الرهيب- **Ivan the Terrible** يمركز السلطة فى روسيا، ويبدأ غزو سيبيريا **(1544-84)**.
- الحروب الدينية الفرنسية – **1550s, 1566s**.
- "مجلس ترينت- **Council of Trent**" يشرع فى إصلاح مضاد – **counter- Reformation** فى ستينيات القرن السادس عشر.
- موجة إحراق الساحرات **(1560-1630)**.
- تصويـــر "بيتر بروجل- **Pieter Breughel**" للحيـــاة فى الفلاندرز **(1540s to 1560s)**.
- ثورات البلاد الواطئة- **Low Countries** الأولى ضد الحكم الإسبانى **(1560s01570s)**.
- "شيكسبير" يكتب المسرحيات الأولى **(1590s)**.

■ **القرن السابع عشر**

- محاكم التفتيش تحرق "جيوردانو برونو- **Giordono Brono**" على الخازوق، **1600**.
- "كيبلر- **Kepler**" يقوم بحساب مدارات الكواكب بدقة فى براغ، **1609**.
- "جاليليو- **Galileo**" يستخدم التلسكوب لمراقبة القمـــر، **1609**.
- بدء حرب ثلاثين عاما فى بوهيميا، **1618**.
- المستعمـــرات الإنجليزية الأولـــى فى أمريكا الجنوبية، عشرينيات وثلاثينيات القرن السابع عشر.

- انتشار المحاصيل الأمريكية (البطاطس- الذرة- البطاطا الحلوة- التبغ) فى أوراسيا وأفريقيا.
- "هارفى- **Harvi**" يصف الدورة الدموية، **1628**.
- "جاليليو" يدحض الفيزيـــاء الأرسطية، **1632**، ومحاكـــم التفتيش تدينه فى **1637**.
- كتاب "ديـــكارت- **Descartes**": "مقـــال فى المنهـــج - **Discourse on Methid**"، يبدأ المدرسة العقلانية فى الفلسفة، **1637**.
- هولندا تستولى على معظم الإمبراطورية البرتغالية السابقة فى ثلاثينيات القرن.
- "رمبرانت- **Rembrandt**" يرسم فى أمستردام (من الثلاثينيات إلى الستينيات).
- بدء الحرب الأهلية الإنجليزية (**1641-42**).
- حكم "شاه جيهان" فى الهند، بناء تاج محل **1643**.
- سقوط أسرة "منج" فى الصين وغزو الـــ"مانشو- **Manchu**"، **1644**.
- تصديـــر المنتجـــات القطنية الهندية بكميات هائلـــة إلى أوروبا.
- انتهاء حرب الثلاثين عام **1648**.
- قطع رأس الملك الإنجليزى، **1649**.
- "القنانة الثانية" تسود أوروبا الشرقية.
- "ليفياثان- **Leviathan**" هوبز- **Hobbes**- الدفاع المادى عن السياسة المحافظة، **1651**.
- بداية العبوديـــة الزراعية فى الأمريكتين، **20000** عبد أسود فى باربادوس، **1653**.

- تنامى سوق الحريـــر الصينى والبورسيليـــن فى أوروبا وأمريكا اللاتينية.
- إنجلترا تكسب الحرب ضد هولندا وتستولى على چامايكا، **1655**.
- "أورنجزيب– **Aurungzeb**" يستولى على عرش المغول فى الهنـــد **1658**، ويخـــوض حربا ضد الماراثييـــن– **Marathas** فى **1662**.
- بويل– **Boyle** يكتشف قانون الغازات، ويدافع عن نظرية الذرات **1662**.
- "نيوتن– **Newton**" يكمل صورة الفيزياء **1687**.
- الثورة المجيدة– **Gbrious Revolution** فى **1688**، تؤكد سيادة إنجلترا بواسطة أرستقراطية ذات توجهات سوقية.
- "لـوك– **Locke**" يدشن مـــدرسة الفلسفـــة التجريبيـــة **(empiricist)**، **1690**.
- البيض والسود معا فى ثورة "بيكون– **Bacon**" فى ڤرچينيا فى **1687**، التشريع يحظر زيجات البيض والسود فى **1691**.

- ١ -

فتح إسبانيا الجديدة وإخضاعها

■ عندما رأينا مدنا وقرى كثيرة مبنية على الماء وأخرى على اليابسة، وذلك الطريق المستقيم المستوى... تملكتنا الدهشة وقلنا لعله السحر الذى يحكــون عنه فى أرض أماديـــس **Amadis**، وذلك بسبب الأبراج والأهرام والمبانى الضخمة البارزة فى الماء... وكان بعض جنودنا، حتى، يتساءلون ما إذا كانت تلك الأشياء التى يرونها ليست سوى حلم[١].

■ كان الهيكل نفسه أكثر ارتفاعا من كاتدرائية سيفيى (إشبيلية) **Seville**... كان حجم الساحة الرئيسية فى وسط المدينة ضعف حجم تلك فى "سالامانكا"، كما كانت محاطة بأعمدة. كل يوم، كان يتجمع فيها نحو ستين ألف من البشر يبيعون ويشترون. كل أنواع السلع موجودة... قادمة من كل أرجاء الإمبراطورية... المواد الغذائية، الملابس، مصنوعات ومشغولات من الذهب والفضة والنحاس...

من الأحجار الكريمـــة والجلـــود والعظام.... والمرجـــان والقطن والريش[٢].

■ كانت بالغة الجمال، ويوجد بها مبان رائعة يمكن ألا يكون لها نظير حتى فى إسبانيا.. وفى الكثير من منازل الإنكا كانت توجد صالات واسعة يمكن أن يصل طول الواحدة منها **200** ياردة وطولها من **80:60** ياردة، وكان الكبير منها يتسع لنحو أربعة آلاف شخص[٣].

الأوائل من الأوروبيين الذين تعرفوا على حضارات "**الأزتيك**" فى المكسيك و**الإنكا** فى بيرو فى عشرينيات وثلاثينيات القرن السادس، أدهشتهم روعة وعظمة المبانى التى وجدوها هناك. كانت مدينة **تينوشتتلان**- **Tenoctitlan** الأزتيكية بعظمة أى مدينة فى أوروبا. كانت **كوزكو**- **Cuzco**، عاصمة "**الإنكا**"، أصغر حجما ولكنها كانت موصولة بطرق لم يكن لها مثيل فى أوروبا، تربط بين أطراف إمبراطورية طولها نحو ثلاثة آلاف ميل - أكبر من كل أوروبا، وربما من صين "منج".

كانت الحضارات تعتمد على أساليب متطورة لإمداد شعوبها باحتياجاتهم المعيشية باستخدام نظم متقدمة فى الرى. كانوا يعرفون كيف يقومون بتجميع السلع والبضائع ونقلها عبر مئات وربما آلاف الأميال إلى عواصمهم؛ كما كان التقدم فى الزراعة مصحوبا بتقدم فى العلوم والآداب والعمارة والفنون البصرية والرياضيات ووضع التقاويم التى تربط بين حركة القمــر (أساسا للشهور) والحركة الظاهرية للشمس (أساسا لحساب السنين).

بالرغم من ذلك، كان أن قامت قوات عسكرية صغيرة بقيادة الإسبان "**هيرنان كورتيز**- **Hernan Cortés**" و"**فرانشيسكو بيثارو**- **Francisco Pizarro**"، اللذين لم يكونا أكثر من مغامرين طائشين، بغزو الإمبراطوريتين فى غضون أشهر قليلة.

كان هذان الإسبانيان يمضيان على خطى المغامر السابق "**كريستوفر كولومبس**- **Christopher Columbus**" (بالإسبانية: **كريستوبال كولون**- **Cristobal Colon**). كان ذلك الربان، القادم من جنوة، قد أقنع حاكمى إسبانيا المشتركين، "**فرديناند الأراجونى**- **Ferdinand of Aragon**"، و"**إيزابيلا القشتالية**- **Isabella of Castile**" بتمويل حملة لاستكشاف طريق تؤدى إلى حضارة الصين الأسطورية وثروة "جزر التوابل" (جزر الهند الشرقية)، وذلك بالإبحار غربا عبر المحيط الأطلنطى.

هناك أسطورة ذائعة أن حجج "**كولومبس**" كانت تقوم على قدر من الفهم العلمى الحديث، الذى كان يواجه مقاومة من ذوى المعتقدات الخرافية بأن الأرض

كانت "مسطحة"؛ والحقيقة أن فكرة كروية الأرض كانت قد أصبحت منتشرة تماما بحلول القرن الخامس عشر. كان كولومبس نفسه يخلط قدرا من العلم الزائف بمقتطفات من مؤلفين يونانيين ورومان قدامى والفهم الديني اللاعقلاني(٤). وصل "**كولومبس**" إلى درجة الاعتقاد أنه كان الأداة التي اختارها الله لإنقاذ المسيحية قبل قيام الساعة(٥). أخطأ في تقدير محيط الأرض بنسبة ٢٥% أقل من الحساب الصحيح الذي كان الجغرافي العربي "**الفرغاني**" قد قام به في القرن العاشر. انطلق "**كولومبس**" بثلاث سفن صغيرة في الثالث من أغسطس **1492** متوقعا الوصول إلى الصين أو اليابان في غضون أسابيع قليلة ليواجه رعايا "الخان الأعظم" الذي كان يحكم الصين في زمن "**ماركو بولو– Marco Polo**" (**قبل 200 عام**)، ما حدث هو أنه وصل إلى جزيرة صغيرة في الكاريبي، في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر، ومن هناك أبحر إلى الجزر المعروفة الآن بـ"كوبا" و"هاييتي". كان سكان تلك الجزر أناس بسطاء حيث لم يكن هناك وجود لدولة أو حتى لملكية خاصة، كما كانوا ودودين بشكل لافت مع أولئك القادمين الجدد من عالم مجهول. كان أولئك الناس الذين أطلق عليهم الإسبان "هنود **التاينو– The Tainos**": "أناسا مسالمين، وودعاء، وبسطاء"، و"عندما رست القوارب على الشاطئ للحصول على الماء، كان الهنود يرشدونهم بكل مودة إلى مكانه وكانوا يحملون لهم البراميل الخشبية، بعد ملئها، إلى... القوارب"(٦).

إلا أن هدف "**كولومبس**" لم يكن كسب ود السكان المحليين أو مصادقتهم. ما أبهره، كان الأقراط الذهب المشبوكة بأنوفهم. كان يريد أن يحقق ثروة لنفسه وأن يبرر للملوك الإسبان رعايتهم وانفاقهم على رحلته. حاول كثيرا أن يعرف مكان الذهب من الأهالي، رغم أنه لم يكن يعرف كلمة واحدة من لغتهم ولا هم من لغته.

كتب فيما بعد يقول: "الذهب شيء رائع... من يمتلكه يستطيع أن يفعل كل ما يريد في هذه الدنيا. وربما ينجح في حمل الأرواح إلى الجنة"(٧).

كتب إلى رعاته يقول: إن أهالي الجزر "كانوا من المودة والكرم ولين العريكة، ولعلهم أفضل شعوب الدنيا. أنهم محبون لجيرانهم حبهم لأنفسهم، حديثهم

حلو، ودائما يتكلمون وهم مبتسمون"[٨]. إلا أن هدفه كان الإيقاع بأولئك الناس فى الأسر واستعبادهم. يقول ابنه: إنه "أمر بأسر البعض من أهالى الجزيرة... وعليه، قام المسيحيون بإلقاء القبض على 12 رجل وامرأة وطفل"[٩]. خطط لبناء قلعة، وضع بها 50 من الأهالى، يسخرهم للقيام بأى عمل يريد"[١٠].

لم يكن كل سكان الجزر، بالتأكيد، من السذاجة للانصياع لمثل تلك الأفعال، وسرعان ما بدأ "**كولومبس**" يقول: إنه كان هناك إلى جانب "**التاينو**– The Tainos"، المسالمين، هنود **كاريب**– Caribs، عدوانيون لا بد من إخضاعهم، لأنهم من **أكلة لحوم البشر**– Cannibals؛ لم يكن هناك آنذاك، ولا حدث أن كان، أى دليل على ذلك. "**كولومبس**" نفسه، لم تطأ قدمه أى جزيرة كان يسكنها هنود "**كاريب**"، ولم يكن قد التقى منهم سوى بعض النسوة والأطفال الذين أسرهم رجاله؛ إلا أن الكلام عن أكل لحوم البشر، كان مبررا لاستخدام الإسبان مدافعهم لإرهاب السكان الأصليين وتمزيقهم بسيوفهم ونشابياتهم. حتى فى القرن العشرين، كانت أسطورة **أكل لحوم البشر** وادعاء شيوع تلك الظاهرة بين الشعوب "الهمجية"، كانت بقيت مبررا محتملا للكولونيالية[١١].

بالرغم من كل أساليبه الوحشية، لم يجد "**كولومبس**" الكثير من الذهب، كما لم يكن أكثر نجاحا فى رحلته التالية التى قام بها فى **1493**، التى تكبدت إنفاقا أعظم من الملوك، وكانت مكونة من أسطول أكبر حجما ونحو **1500** من الذاهبين للاستيطان – "صناع من كل لون، عمال، فلاحـون لزراعة الأرض، فرسان (**كاباليرو**– Caballeros)، نبلاء (**هيدلج**– Hidalgos) وغيرهم من ذوى الشأن الذين جذبتهم شهرة الذهب وعجائب تلك البلاد"[١٢]– إلى جانب عدد كبير من الجنود وثلاثة كهنة؛ وبعد إقامة سبع مستوطنات، بكل منها قلعة وعدة مشانق على جزيرة "**هسپانيولا**– Hispaniola" (هاييتى– Haiti)، أصدر "**كولومبس**" مرسوما بأن يقدم كل "**هندى**" فوق الرابعة عشرة من العمر، كمية معينة من الذهب كل ثلاثة اشهر، ومن لا ينفذ يعاقب بقطع يديه، مع تركه ينزف حتى الموت[١٣]، وبالرغم من هذه الوحشية، لم يتحقق له ما كان يريد، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يجد أكثر من تلك الكميات الهزيلة على الجزيرة.

حاول "**كولومبس**" استعواض إخفاقه فى الحصول على كميات كبيرة من الذهب بمصدر آخر – العبودية، ففى فبراير **1495**، قام بمحاصرة نحو **1600** من "**التاينو– Tainos**"– الذين كان قد وصفهم بالمودة وطيب المعشر قبل عامين ونصف العام – وأرسل **500** منهم على سفينة إلى "**سيفى– Seville**" [إشبيلية] مقيدين بالسلاسل، لبيعهم رقيقا. مات منهم **200** فى طريقهم عبر الأطلنطى؛ ثم تبع ذلك بإقامة نظام يمنح بموجبه بعض المستعمرين قطعا من الأراضى بمن عليها من السكان الأصليين الذين يفلحونها دون مقابل، ويعرف بنظام "الهبة" أو "الإقطاعة"، **(Incomienda System)**.

كان أثر إجراءات "كولومبس" كارثيا، بالنسبة لأولئك الناس الذين كان ما زال مصرا على تسميتهم بـــ"**الهنود– Indians**". كان عدد سكان "**هسپانيولا**"، عندما رسا "**كولومبس**" على شواطئها أول مرة، نحو المليون نسمة، وربما أكثر قليلا(١٤)– وبعد عشرين عاما، كان قد أصبح نحو **28** ألفا، وبحلول العام **1542**، كان **200** نسمة؛ وبنحو "**لاس كاساس– Las Casas**"، المستوطن الذى تحول إلى كاهن، باللائمة على أساليب المستعمرين، "الانتهاكات الوحشية والمذابح التى أودت بحياة أولئك الناس"(١٥). حديثا، يتردد سبب آخر أهمية، وهو الأمراض التى جاء بها الأوروبيون، ولم يكن "الهنود" محصنين ضدها. كان لا بد من تحدث أمراض مثل الحصبة، والإنفلونزا، والتيفوس، والالتهاب الرئوى، والسل، والدفتريا، وفوق ذلك كله الجدرى، كان لا بد من أن تحدث أضرارا بالغة لأناس لم يسبق أن واجهوها؛ وبالرغم من ذلك من الصعب أن نعتقد أن المرض وحده يمكن أن يكون سبب الاستئصال الفعلى لسكان الجزيرة الأصليين. فى معظم أجزاء البر الرئيسى فى الأمريكتين، بقى على الأقل بعض "**الهنود**"، أما معدل الوفيات فى المستعمرات الإسپانيـــة الأولـــى، فلا بد من أن يـــكون من بين أسبابـــه الأساليب البربريـــة لـــ"**كولومبس**" ومستوطنوه.

إلا أن البربريـــة فى حد ذاتها لم تحقق لـــ"**كولومبس**" ولا لمستوطنيـــه ولا لرعاته الملكيين ما كانوا يريدونه من ثروة. كانت المستعمرات الأولى مملوءة بالمشكلات. النبلاء الذين استوطنوها وجدوا الحياة فيها أصعب مما توقعوا، العمال

الهنود كانوا يموتون ولا يوجد من يحل محلهم لإدارة المزارع الكبيرة أنشأوها، أما المستوطنون من الطبقات الدنيا فلم يكونوا يتحملون ضغوط العمل. كانت فترة "**كولومبس**" حاكما لـ"**هسپانيولا**" مليئة بأعمال العصيان والتمرد عليه، وكان يرد بالوحشية نفسها التي كان يتعامل بها مع السكان الأصليين. في أواخر رحلته الثالثة، أعيد إلى إسپانيا مقيدا بالسلاسل- وسط تعليقات ساخرة من مستوطني "**هسپانيولا**"- بعد أن أصاب الفزع من خلفه في الحكم، عندما كان سبعة من الإسپان معلقين على المشانق في ساحة مدينة "سانتو دومنجو"[١٦]. أطلق سراحه بعد فترة من تحديد إقامته في إسپانيا، ولكن رحلته الرابعة كانت فشلا ذريعا. منعه التاج من الإقامة في "**هسپانيولا**"، قبل أن يعود إلى إسپانيا ضائعا خائب الأمل. كان الحكم الإسپاني الذي رعاه ما زال منشغلا بمعاركه ضد الفرنسيين للسيطرة على إيطاليا، أكثر من انشغاله بالسيطرة على جزر بعيدة، ولم يتغير موقفه إلا بعد أن اكتشف مغامرون جدد ثروة هائلة[١٧].

غزو الأزتيك وإخضاعه

في سنة **1517**، تلقى "موكتيزوما- **Moctezuma**"، الحاكم الأزتيكي للمكسيك التقارير الأولى عن غرباء شاحبي اللون يبحرون بالقرب من سواحل مملكته "في عدد من الجبال المتحركة وسط الماء"[١٨]. كانت تلك "الجبال" سفن رحلة استكشافية، وبعد عامين رست قوة من مستعمرة كوبا الإسپانية، قوامها نحو **500** فرد، بقيادة الجندي "**هيرنان كورتيز- Hernan Cortés**"، الذي كان قد سمع بإمبراطورية عظيمة وعزم على غزوها، وعندما وجد أن رجاله يرون ذلك ضربا من الجنون، قام بإحراق سفنه ليمنع عودتهم إلى كوبا، وفي غضون عامين، كان "**كورتيز**" قد ألحق الهزيمة بجيش يفوق قوته عددا بمئات المرات.

اعتمد نجاحه على عدة عوامل. لم يقم "**موكتيزوما**" بتدمير قوات "**كورتيز**" عند رأس الشاطئ عندما كانت لديه فرصة لذلك، بل إنه قدم لهم التسهيلات اللازمة للانتقال من الساحل إلى وادي المكسيك. كانت ازدواجية ونفاق "**كورتيز**" بلا حدود،

فعندما وصل إلـــى "**تينوشتيتلان**- Tenochtitlan"، عاصمـــة الأزتيك، تظاهر بمصادقة "**موكتيزيما**" قبل أن يأسره. كانت جراثيم الجدرى التى يحملها الإسبان (دون علم بذلك) قد انتشرت فى المدينة لتقضى على عدد كبير من الناس فى لحظة فارقة من حصار الإسبان لها؛ وفى آخر الأمر كان للإسبان التفوق فى السلاح، الذى لا نستطيع أن نعزوه كلية لمدافعهم التى لم تكن دقيقة وتتطلب وقتا طويلا لحشوها. كانت الأسلحة الإسبانية الأكثر أهمية، الدروع والسيوف المصنوعة من من الصلب، والتى كانت تشق بسهولة القماش السميك الذى كان بمثابة درع "**الأزتيك**"؛ وفى المعركة الأخيرة على "**تينوشتيتلان**"، مكنت التكنولوچيا المتقدمة الإسبان من السيطرة على البحيرات حول المدينة وضرب وتشتيت القوارب التى كان يعتمد عليها "**الأزتيك**" لنقل المواد الغذائية.

بعض عناصر الانتصار الإسبانى حدث بالمصادفة، فلو أن "**كويتلاهوك**- Cuitlahuac" شقيق "**مونتيزوما**" كان هو الحاكم مكانه، لما وجد "**كورتيز**" دليلا يرشده لجولة فى المدينة، ولا فرصة لاختطاف الإمبراطور. المؤكد أن قوات "**كورتيز**" لم تكن عصية على الهزيمة، ففى لحظة ما، أجبر على الهروب من "**تينوشتيتلان**" وفقد معظم جيشه؛ ولو كان الإسبان قد واجهوا مقاومة أشد، لتفاقمت الانشقاقات فى صفوفهم – حيث كانت قوة جديدة قد رست فى المكسيك، مع أوامر بمعاملة "**كورتيز**" باعتباره خائنا.

على أية حال، كان وراء انتصار "**كورتيز**" العرضى شيء آخر مهم. كان يواجه إمبراطورية، مثلها مثل الإسبانية، مستغلة ومستبدة ولكنها أقل تقدما من الناحية التكنولوچية.

كان **الأزتيك**، بالأساس، شعب صيد وجمع، على معرفة محدودة بالزراعة، وكانوا قد جاؤوا إلى وادى المكسيك فى منتصف القرن الثالث عشر. كانت المنطقة مأهولة بعدة دول – مدن من ورثة حضارات **التيوتيهاوكـــان**- Teotihuacan و**المايا**- Maya (انظر الجزء الثانى) التى أخضعت الأزتيك ولم تترك لهم سوى الأرض الفقر لفلاحتها. لم يستمر خضوع **الأزتيك** طويلا، إذ حققوا تقدما تكنولوچيا

مكنهـم من زيـادة إنتاجهـم بدرجة كبيـرة – الزراعة على جزر صناعيـة (chinampas) على البحيرات – كما كان التحول إلى الزراعة الواسعة مصحوبا بنشأة طبقة أرستقراطية فرضت العمل القسرى على باقى المجتمع. لم تكتف الطبقة الأرستقراطية بمجرد استغلال الطبقات الدنيا من الأزتيك، إذ سرعان ما بدأت الصراع مع الدول المدن الأخرى للسيطرة على وادى المكسيك، ثم عكفت على بناء إمبراطورية امتدت مئات الأميال جنوبا، إلى ما يعرف الآن بـ"جواتيمالا". صحب نشأة تلك الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية، نشأة أيديولوجية عسكرية كذلك، كانت ترتكز على عبادة "هويتزيلوبوكتلى– **Huitzilopochtli**"، إله الأزتيك القبلى القديم، الطائر الطنان، الذى كان يمنح الخلود لمن يموتون طوعا، ولكنه كان يتطلب تزويدا مستمرا بالدم البشرى لكى يستمر فى رحلته اليومية. كانت التضحية البشرية بأسرى الحرب طقسا رئيسيا من طقوس هذا الدين، وكان على الشعوب الخاضعة، بالإضافة إلى دفع جزية مادية للأزتيك، أن تقوم بتسليم عدد من النساء والأطفال للتضحية بهم. كان هذا الدين يقوى من عزيمة طبقة الأزتيك المحاربة لبنـاء إمبراطورية، كما ينفـس عن طاقة الطبقات الدنيا مثل السيرك واحتفاليات الانتصار الرومانية، عندما كان يتم إعدام الأميرات الأسيرات؛ ولكن مع نمو الإمبراطورية كان ذلك سببا فى توترات كبيرة فى المجتمع، حيث كان البعض فى الطبقات الحاكمة يبالغ فى زيادة الأضحيات البشرية بدرجة غير مسبوقة، إذ يقال: إنه تم ذبح نحو **80000** ضحية فى أحد معابد "تينوشتتلان"، فى إحدى المناسبات، فى مدة لم تتجاوز **96** ساعة[١٩]. كان ذلك مدعاة لزيادة الشعور بالظلم بين الشعوب المقهـورة، والخنوع والانجـذاب نحو عقائد أكثر سلامية. حتى بيـن الأرستقراطيـة الأزتيكية كان هنـاك اعتقاد فى عـودة الإلـه "كويتزالكوتـل– **Quetzalcoatl**".

وصل الغزاة الإسبان عندما كانت تلك التوترات فى ذروتها، وكانت مجاعة طاحنة قد ضربت الطبقات الأزيتيكية الدنيا فى **1505**، ما إضطر الكثيرين لبيع أنفسهم عبيدا. كان معدل الإفادة من الغزو فى تراجع، وكان "موكتيزوما" قد دعم

سلطته الخاصة داخل الطبقة الحاكمة باستخدام شعيرة التضحية بالدم، إلا أن تحدى ذلك كان أمرا صعبا بالنسبة له، إذ جعله يخشى أن عودة "كويتزالكوتل" كانت متمثلة فى "كورتيز"، وأن عليه أن يستقبله بما يليق، أما الأكثر أهمية فإن الشعوب الخاضعة للأزتيك هرعت للترحيب بالغزاة ومساعدتهم، وفى المعركة الأخيرة على "تينوشتيتلان" كان هناك محاربون من السكان الأصليين يساعدون الإسپان، أكثر ممن كانوا يساعدون **الأزتيك**.

كلتاهما، الحضارتان الأزتيكية والإسپانية كانت تعتمد على الجزية، مع العقاب الوحشى لكل من كان يحاول التمرد على ذلك. كلتاهما كانت تمارس عقيدة دينية لا إنسانية، فالإسپان كانوا يحرقون المهرطقين (الخارجين على العقيدة) على الخازوق، والأزتيك كانوا يضحون بالناس إرضاء للآلهة. بعد الغزو أقام الإسپان المحارق الدائمة فى ساحة السوق فى "**تينوشتيتلان**"[٢٠]. ولكن الإسپان كانوا يعرفون استخدام تكنولوچيا الحديد، التى كانت قد تطورت فى أوراسيا وشمال أفريقيا فى الألفيتين السابقتين، بينما كان **الأزتيك** يعتمدون على تكنولوچيا الحجر والخشب، حتى وإن كانوا قد طوروها أكثر منها فى أى مكان فى العالم. لم يكن لدى **الأزتيك** من المعادن سوى الذهب والنحاس، بل إن النحاس كان نادرا ومستخدما فى الزينة فحسب، أما أسلحتهم فكانت مصنوعة من السبج (**obsidian**)، وهو زجاج بركانى حجرى حاد الحواف ولكنه سهل الكسر.

كان نقص المعادن سببا فى تأخر التكنولوچيا لدى "**الأزتيك**"، إذ لم يكن لديهم مركبات تتحرك على عجلات، على سبيل المثال، ويعزو "جوردون تشايلد- **Gordon Childe**" إلى أن صنع العجلات كان لا بد له من منشار، والمنشار كان لا بد من أن يكون مصنوعا من معدن أقوى من النحاس[٢١]. ولكن، لماذا لم يعرف "**الأزتيك**" أشغال التعدين (**metallurgy**)؟ يشير "چاريد دايموند- **Jared Diamond**" إلى بعض المثالب الجغرافية مثل تلك فى أفريقيا. لم تفد شعوب المكسيك من الابتكارات التى كانت قد تحققت على بعد آلاف الأميال، فالمكسيك كانت معزولة بواسطة الحزام الاستوائى لأمريكا الوسطى عن الحضارات الكبرى الأخرى فى

أمريكا اللاتينية فى الأنديز، والتى كانت على طريق التعدين، ولكنها لم تكن قد عرفت الحديد[٢٢]. لم يكن لدى **الأزتيك** أى حافز كبير يجعلهم يتبنون التعدين، إذا كانوا قد استطاعوا أن يطوروا أساليب متقدمة لإنتاج الغذاء وبناء مدن رائعة بدونه، وإذا كانوا قد واجهوا مجاعات من وقت لآخر، فإن حضارات أوروبا وآسيا، التى كانت تعتمد على الحديد، كانت قد واجهت المصير نفسه. كان فقط عندما واجهتهم أسلحة الأوروبيين المصنوعة من الحديد، أن أصبح نقص المعادن وعدم إلمامهم بالتعدين عيبا قاتلا، جعلهم فريسة لشعوب لم تكن أكثر تقدما منهم فى مجالات أخرى.

إخضاع پـيرو

نادرا ما يكرر التاريخ نفسه بدقة، إلا أن ذلك حدث عندما أبحر "**فرانسيسكو پيثارو– Francisco Pizarro**"، أحد أقـارب "**كورتيز**" جنوبا، من پنما على امتداد ساحل المحيط الهادئ لأمريكا الجنوبية فى أوائل ثلاثينيات القرن السادس عشر، بعد عقد من غزو المكسيك.

كان قد قام قبل ذلك برحلتين استطلاعيتين، وعرف بوجود إمبراطورية عظيمة فى الداخل. هذه المرة رسا عند مدينة "**تمبز– Tumbez**" ومعه **106** من جنود المشاة و**62** من الخيالة، وهناك جاءته أخبار حرب أهلية فى إمبراطورية **الإنكا** العظمى، حيث كان أخوان غير شقيقين، "**أتاهوالپا– Atahualpa**" فى الشمال، و"**هواسكار– Huascar**" فى الجنوب، يتصارعان على إرث أبيهما **الإنكا** الأكبر "**هوانا–كوپاك: Huna-Cupac**". سارع "پثارو" للاتصال بممثلى "أتاهوالپا" مؤكدا له صداقته ومودته، وتلقى دعوة للقائه فى مدينة "**كاچاماركا– Cajamarca**"، فى الأنديز، والمؤكد أن الرحلة البرية الجبلية كان يمكن أن تكون مستحيلة بالنسبة للفرقة العسكرية الإسپانية، بدون مرشدين وأدلاء على طول طريق مجهز باستراحات جيدة فى نهاية مسيرة كل يوم.

فى "**كاچاماركا**"، اتخذ الإسپان مواقعهم داخل المدينة مع إخفاء معظمهم بنادقهم وخيولهم، أما "**أتاهوالپا**" فترك معظم جيش من الإنكا وراءه، ودخل المدينة وسط جو احتفالى من عدد من رجاله يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف... لم يكونوا مستعدين للقتال على أى نحو. بعد ذلك كتب "**هيرناندو– Hernando**"، شقيق "**پـــيثارو**" يقول:

> **وصل محمولا على محفة... يسبقه نحو ثلثمائة أو أربعمائة من الخدم الهنود، يكنسون وينظفون الطريق أمامه وهم يغنــون، ثم جاء "أتاهوالپا" يحيط به قياداته وكبار رجاله، كان ذوو الشــأن منهم محمولين على الأكتاف(٢٣).**

بدأ كاهن دومينيكانى كان مع الإسپان يتحدث مع "**أتاهوالپا**" محاولا إقناعه بالتحول إلى المسيحية، وأن يدفع الجزية للملك الإسپانى – على اعتبار أن البابا كان قد خصص هذا الجزء من أمريكا اللاتينية لإسپانيا، ويقال: إن رد "**الإنكا**" كان كما يلى:

> **لن أكون خاضعا دافع جزية لأحد.... أما بالنسبة للبابا الذى تتحدث عنه، فلا بد أنه مجنون لكى يتحدث عن التنازل عن بلاد لا تخصه، وبالنسبة لدينى.. فلن أغيره. إن إلهك، كما تقول، قتله الرجال أنفسهم الذين خلقهم، أما إلهى فما زال حيا فى السماء، وينظر إلى أبنائه(٢٤).**

ثم ألقى "الإنكا" بنسخة الإنجيل التى كانت قد أعطيت له، فقال الكاهن لـــ"**پـــيثارو**": "ألا ترى الميدان يعج بالهنود بينما بح صوتنا ونحن نتحدث دون جدوى مع هذا الكلب. اهجم فورا، أنا أحل لك ذلك"(٢٥). لوح "**پـــيثارو**" بوشاح أبيض ففتحت القوات الإسپانية المختبئة النار، وبينما أحدثت الضوضاء والدخان حالة من الذعر بين "الإنكا" المتجمعين. هجم الخيالة. لم يستطع "**الإنكا**" الهرب، وبحسب تقديرات إسپانيـــة كان عدد القتلى مـــن "**الإنكا**" نحو **2000** شخص، بينما يقدرهم الإنكا بعشرة آلاف(٢٦).

والآن، كان "**أتاهوالبا**" قد أصبح أسيرا لدى الإسبان، ومجبرا على أن يكون واجهة لهم بينما يستولون على قلب إمبراطوريته. كان يتصور أن بإمكانه شراءهم بالذهب لهوسهم به فجمع كمية كبيرة منه لذلك ولكنه كان مخطئا. أخذ "**بيثارو**" الذهب وأعدم "**الإنكا**" بعد محاكمة هزلية، متهما بين أشياء أخرى بـ"الزنى وتعدد الزوجات"، و"الوثنية" و"الدعوة للعصيان المسلح ضد الإسبان، ثم أخذوه لإحراقه على الخازوق فى ساحة المدينة، حيث قال إنه كان يريد أن يتحول إلى المسيحية – ظنا منه إن الإسبان لن يقدموا على إحراق مسيحى تم تعميده. كان محقا، فبعد تعميده أمر "بيثاروا" بشنقه.... بدلا من إحراقه(٢٧).

كانت المذبحة ومقتل "**أتاهوالبا**" النموذج الذى سوف يحتذى فى غزو وإخضاع باقى إمبراطورية "**الإنكا**"، وبعد أن انضم إليه المزيد من الجنود الإسبان طمعا فى الذهب، نصب "بيثارو" أحد إخوة "**أتاهوالبا**" إمبراطورا شكليا، وانطلق زاحفا على العاصمة "كوزكو– **Cuzco**" لإحراق زعيم آخر من زعماء "**الإنكا**"، هو "**كاليكوشيما– Calicuchima**" الذى كان يحاول التصدى له. كان الإسبان يستولون على الذهب من المنازل والمعابد ويأسرون الأميرات، أما معاملة العامة من الإنكا، فيصفها الكاهن "كريستوبال دومولينا– **Cristobal do Molina**":

> **كل من كان يرفض من الأهالى الانضمام للإسبان طوعا، كان يؤخذ مقيدا بالسلاسل والحبال. كان الإسبان يضعونهم فى سجون قاسية فى الليل، ويقتادونهم فى النهار لحمل الأثقال وهم يتضورون جوعا لحمل الأثقال. فى تلك الحملة، ربط أحد الإسبان 12 هنديا فى سلسلة، وكان يفاخر بأنهم ماتوا جميعا مقيدين"(٢٨).**

كان الغزاة الإسبان يسعون جاهدين وراء الثروة، ولجأوا لتحقيق ذلك إلى العبودية وسرقة الذهب، قسموا البلاد إلى إقطاعات خاصة لبعض المستعمرين ومنحهم السلطة لاستغلال السكان الأصليين قسريا، استنادا إلى **قوانين بيرجوس– Laws of Burgos (1512-13)**، التى كانت تقضى بإجبار الهنود على العمل لدى الإسبان تسعة أشهر من السنة، وكان القانون يقرأ عليهم مع التحذير باسترقاق

زوجاتهم وأطفالهم ومصادرة ممتلكاتهم في حال عدم الانصياع[٢٩]. كانت هناك، كذلك، جزية لا بد من دفعها للكهنة، الذين "كان بعضهم يحتفظ لديه بأدوات للتعذيب وسجون خاصة لعقاب المذنبين والمخالفين للدين"[٣٠].

لم يكن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة للإسبان، إذ كانت هناك عمليات تمرد وعصيان كثيرة ضدهم، وفي أحدها حوصر أحد إخوة "بيثارو" في العاصمة عدة أشهر. لم يتم القضاء على مقاومة "**الإنكا**" إلا بعد إعدام الإمبراطور الأخير "**توپاك أمورا**– **Tupac Amura**" في **1572**، إلا أن "**الإنكا**" انتهوا لأسباب أشبه بتلك التي أدت إلى انتهاء الأزتيك في المكسيك. كان لديهم نحاس ولم يكن لديهم حديد، كانت لديهم اللاما، وليس الخيول والبغال الأكثر قوة. لم تستطع حضارة عصر برونزي، مهما كانت متقدمة، أن تصمد أمام حضارة عصر حديدي مهما كانت بسيطة. كانت الخيول، بعبارة "**هيمنجز**– **Hemmings**": "هي دبابات الغزو"[٣١]، وعندما عرف الهنود في شيلي في الجنوب استخدام الخيول، كان أن بدأ الغزاة الإسبان يواجهون انتكاسات.

نجح عدد قليل من الأسر الغنية الكبيرة في البقاء في ظل الأوضاع الجديدة، واندمجوا في الطبقة العليا الإسبانية. كانوا كما يقول "**هيمنجز**" متلهفين على الألقاب وارتداء الدروع والثياب الإسبانية الفاخرة، والدخول التي تأتي مجانا، مثل أي نبيل إسباني **(hidalgo)**"[٣٢]. أما بالنسبة للعامة الذين كانوا يعيشون في إمبراطورية **الإنكا**، فقد أصبحت الأمور أكثر سوءا. كتب أحد النبلاء الإسبان للملك في **1535** يقول: "لقد تنقلت في قطاع كبير من البلاد ولم أكن أرى أمامي سوى الخراب[٣٣]، وكتب آخر يقارن الأوضاع تحت **الإنكا**، بها بعد الغزو: "كانت البلاد كلها هادئة ومنتعشة، ولا نرى الآن سوى قرى مهجورة على امتداد كل طرق المملكة"[٣٤].

تفاقمت الأضرار الناجمة عن الغزو بسبب هوس كل من الحكام الجدد بالثروة والسعي إلى تحقيق أكبر قدر منها، ما أدى إلى حروب أهلية طاحنة بين القادة الإسبان المتنافسين، وإلى حركات تمرد ومقاومة من قبل المستوطنين الأغنياء

الجدد، ضد ممثلي التاج الإسباني؛ وبينما كانت الجيوش المتنافسة منشغلة بالسلب والنهب وإشعال الحرائق، خربت قنوات الري ومصاطب التـــلال وكل ما كان مستخدما في الزراعة. ذبحت قطعان اللاما ونفد مخزون الطعام، وأصابت الجياع نفس الأمراض الأوروبية، التي كانت قد سببت أضرارا بالغة في الكاريبي من قبل، وكان أثرها أكثر سوءا من أثر الطاعون الأسود في أوروبا في القرن الرابع عشر، وفي أربعينيات القرن السادس عشر لم يكن قد بقي من سكان "وادي ليما" سوى نحو الألفين من البشر، من بين **25000** نسمة. انخفض عدد السكان الأصليين فـــي الإمبراطورية إلى ما بين النصف والثلاثة أرباع.

أصاب الخراب البلاد لدرجة أن بدأ العرش الإسباني يشعر بالقلق. كان يريد إمبراطورية تمدد بالثروة، وليس إمبراطورية مستنزفة، مجردة من قوة العمل، وفي خمسينيات القرن السادس عشر كانت هناك محاولات لتحجيم الدمار الذي يقوم به المستوطنون والسيطرة على استغلال الهنود، وآنذاك كان أن برزت أسماء كهنة مثل "لاس كاســاس- **Las Casas**" ممن كانوا يشجبون ويدينون مـــا يقوم به المستوطنون، إلا أن جهودهم لم تؤد إلى تغيير كبير في إمبراطورية **الإنكا** السابقة، إذ كان العمل القسري قد أصبح ضروريا لتحقيق المكاسب التي يجنيها التاج من مناجم الفضة والزئبق في "بوتوسي- **Potosi**"، المدينة التي جعلها سكانها (**150000** نسمة) واحدة من أكبر مدن العالم. في **1570**، أحلت لجنة برئاسة رئيس الأساقفة "لويزا- **Loyza**" العمل القسري، ما دامت المناجم مستخدمة للصالح العام[٣٥].

الهوامش

(١) وصف "برنال دياز- Bernal Diaz" للمشهد عند وصول قوات "كورتيز" إلى "إتزتاپالاپا- Itztapalapa" على شواطئ بحيرة المكسيك، كما جاء في:

F. Katz: "Ancient American Civilisations", (London, 1989), p.179.

(٢) وصف "كورتيز" لـــ"تينوشتيتلان" وسوقها في "تلاتيلولكو" كما جاء في:

F. Katz, "Ancient", p.180.

(٣) من وصف لـــ"كوزكو- Cuzco" عاصمة الإنكا كتبه أحد الفاتحين الإسبان، نقلا عن:

J. Hemmings, "The Conquest of Peru", (London, 1970), pp. 120-121.

(٤) حجج كولومبس كما جاءت في:

The Life of Admiral Christopher Columbus by his Son Ferdinand", (New Brunswick, 1992), pp. 15-28.

(٥) للمزيد عن أفكار كولومبس الدينية، انظر:

K. Sale, "The Conquest of Paradise", (New York, 1991), p.189.

(٦) وصف لأول من التقاهم بحارة كولومبس من السكان الأصليين في الكاريبي، نقلا عن: "The Life of the Admiral...." (مصدر سابق- p.60-69)

(7) K. Sale, "Paradise", p.181.

(8) Letter's text in "The Life of the Admiral Christopher Columbus", p.82.

(9) The Life of the Admiral", p.71.

(10) K. Sale, "Paradise", p. 110.

(١١) انظر، للمزيد عن كولومبس والكاريبيين (caribs) K.Sale "Paradise", p.130

هناك جدل واسع بين علماء الأنثروپولوچيا عن وجود دقيق لأكل لحوم البشر، ويبدو أنه لم يكن هناك دليل مؤكد على وجود الظاهرة كوسيلة للغذاء، سوى في ظروف المجاعات الكبرى (وأن ذلك كان يحدث حتى في مجتمعات القرن العشرين المتقدمة. الأكل "الطقوسي" لأجزاء معينة من أجساد الموتى كان ملمحا – أحيانا – بين عدد محدود جدا من المجتمعات القديمة التي كانت تقوم على البستنة.

(12) "The Life of the Admiral", p.109.

(١٣) كما يقول "لاس كاساس- Las Casas"، الذي عاش على الجزيرة عدة سنوات كمستعمر، قبل أن يتحول إلى كاهن، نقلا عن: K.Sale, "Paradise", p.155.

(١٤)- فى تقدير آخـــر لـــ Woodrow Borah, Sherbure Cook يصـــل الرقـــم إلى 8000000.
انظر : K. Sale "Paradise" p.161.

(15) K. Sale "Paradise" p. 159.

(16) K. Sale "Paradise" p. 182.

(17) K. Sale "Paradise" p. 180.

(18) F. Katz "Ancient", p.324.

(19) R.C. Padden "The Hummingbird and the Hawk: Conquest and Sovereignty in the Valley of Mexico 1503-1541 (New York 1970) p.74.

وانظر كذلك ما جاء عن الانقسامات الطبقية والتوسع الإمبريالى والدين، وذلك فى: F.Katz "Ancient", pp 134-243.

(٢٠) الآن، قصر "ألميدا" فى مكسيكو سيتى.

(21) V. Gordon Childe, "The Bronze Age", in "Past and Present", (1956).

(22) J. Diamond, "Guns, Germs and steel".

(23) F. Katz "Ancient", p. 334.

(24) W. H. Prescott, "The Conquest of Peru", (New York, 1961), p.251.

(٢٥) بحسب ما جاء فى: W. H. Prescott, "Conquest", p.251

وانظر كذلك: F. Katz "Ancient", p. 334

(٢٦) الوصف والأرقام، كما جاء فى: W. H. Prescott, "Conquest", p.253

(٢٧) بحسب وصف "بيدرو بيثارو"، كما جاء فى: F. Katz "Ancient", p. 335

(28) J. Hemmings, "Peru", p.178.

(29) J. Hemmings, "Peru", p. 129.

(30) J. Hemmings, "Peru", p. 365.

(31) J. Hemmings, "Peru", p.113.

(32) J. Hemmings, "Peru", p. 376.

(33) J. Hemmings, "Peru", p.347.

(34) Fernandode Almellones, quoted in: J. Hemmings, "Peru", p. 348.

(٣٥) التفاصيل موجودة فى: J. Hemmings, "Peru", p.407.

-٢-

من "النهضة" إلى "الإصلاح"

"كولومبوس" لم يكتشف أمريكا. كان "الهنود" قد فعلوا ذلك قبل **14000** عام على الأقل عندما عبروا مضائق بيرنج- **Bering Straits** من سيبيريا إلى ألاسكا. لم يكن، حتى، أول أوروبى يصل إلى هناك، إذ كان لـ"الڤايكينج- **Vikings**" وجود قصير على الساحل الشمالى الشرقى لأمريكا الشمالية قبله بخمسمائة عام تقريبا. إلا أن العام **1493** كان بمثابة نقطة تحول فى التاريخ؛ فلأول مرة كانت المجتمعات المتخلفة على الساحل الأوراسى من الأطلنطى تثبت قدرتها على ممارسة نفوذ على مناطق أخرى من العالم؛ وهكذا، رغم أن الإسپان كانوا برابرة فى الأمريكتين، مثلما كان الصليبيون فى الشرق الأوسط قبل ثلاثة أو أربعة قرون، كانت المحصلة مختلفة. الصليبيون جاؤوا وشاهدوا وغزوا ودمروا - ثم طردوا دون أن يخلفوا وراءهم سوى بعض القلاع المهجورة. الإسپان جاؤوا وشاهدوا وغزوا ودمروا - وبقوا ليقيموا عالما دائما مستقرا.

وبينما كان ذلك يجرى عبر الأطلنطى، كانت تحدث بالمثل تغيرات مهمة فى أوروبا نفسها، تغيرات مؤثرة فى العالم - سياسيا وأيديولوجيا وثقافيا - بما فى ذلك وسائل حصول الناس على احتياجاتهم المعيشية.

التاريخ فى معظمه تسيطر عليه فكرة انتقال السلطة من ملك أو عاهل إلى آخر، ولا يحتوى على ما هو أكثر من قوائم بأسماء ملوك وملكات ووزراء، مع ما يصاحب ذلك من قصص مناورات رجال البلاط وعمليات القتل بين الأمراء ومعارك الأسر السلالية؛ إلا أن التغيرات السياسية التى بدأت فى أواخر القرن الخامس عشر تظل بعيدة عن مثل هذه الأمور التافهة، إذ إنها أدت إلى قيام شكل جديد من الدولة، أصبح سائدا فى العالم على نحو أو آخر.

يستخدم الناس عادة كلمات مثل "قطر" أو "أمة" عندما يتحدثون عن العوالم القديمة أو عوالم العصور الوسطى، إلا أن "الدول" التى كانت تحكم آنذاك كانت مختلفة تماما عما يعرف الآن بالدولة "الوطنية- **National**".

من المسلم بها ليوم أن الدولة عبارة عن منطقة متصلة جغرافيا، ذات حدود ثابتة، ونتوقع أن يكون لها بنية إدارية واحدة، ذات نظام ضريبي واحد (مع تنويعات محلية أحيانا)، ودون عوائق جمركية بين أجزائها المختلفة، كما نفترض أنها تتطلب ولاء "مواطنيها" مقابل منحهم حقوقا معينة، مهما كانت محدودة. عدم وجود دولة – **Being stateless**، هو المصيــر الذى يبذل الناس قصارى جهدهم لتجنبه. نفترض كذلك وجود لغـــة قومية (أو مجموعـــة لغات أحيانا) يتحدثها الحكـــام والمحكومون.

لم تكن دول (ممالك) أوروبـــا العصور الوسطى تحمل سوى القليل من هذه الملامح. كانت مناطق عبارة عن خليط تتقاطع فيه الانقسامات اللغوية بين الشعوب، كما تتقاطع فيه الجغرافيا؛ فإمبراطور "الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية"، على سبيل المثال، كان يدير "بوهيميا" باعتبارها مملكة، كما كان يدعى السيادة على مناطق مختلفة من البلاد الناطقة بالألمانية وعلى أجزاء من إيطاليا. ملوك إنجلترا دخلوا فى سلسلة من الحروب لتأكيد أحقيتهم فى جزء كبير من المنطقة الناطقة بالفرنسية. ملوك فرنسا كانوا يسعون للتمسك بمنطقة عبر "الألب"، (الآن ضمن إيطاليا)، ولكن سيطرتهم لم تكن كاملة على شرق فرنسا (جزء من دوقية بورجندى المنافسة)، جنوب غرب فرنسا ونورماندى (التى كان يحكمها الملوك الإنجليز) أو بريتانى. كانت حدود الدول تتغير بشكل كبير، حيث كانت الزيجات والوراثة تمنح الملوك السيادة على بلاد بعيدة، مثلما كانت الحروب تجردهم من مناطق محلية. نادرا ما كان يوجد بنية إدارية واحدة متسقة للدولة، إذ كانت غالبا ما تتكون من معتمديات ودوقيات وبارونيات ومدن أشبه بمديريات مستقلة، لها حكامها ومحاكمها، وقوانينها المحلية، ونظمها الضريبية، ومراكزها الجمركية، ومسلحوها، وعليه فقد كان الولاء للملك أو العاهل، ولاء اسميا، يمكن

"نسيانه"، إذا قدم ملك أو عاهل آخر "عرضا" أفضل. فى الغالب، لم يكن الملوك يتحدثون لغة من يحكمونهم، ونادرا ما كانت الوثائق الرسمية والتشريعات بلغة الخاضعين لتلك التشريعات.

بدأ ذلك يتغير فى أجزاء مهمة من أوروبا قرب نهاية القرن الخامس عشر، فى الوقت الذى كانت تتجه فيه إسبانيا لغزو أمريكا اللاتينية. كان **شارل السابع- Charles VII**، **ولويس الحادى عشر- Louis XI** فى فرنسا، **وهنرى السابع- Henry VII** **وهنرى الثامن- Henry VIII** فى إنجلترا والشريكان الملكة **إيزابيل- Isabel** والملك **فرديناند- Ferdinand** فى إسبانيا، كانوا كلهم قد نجحوا فى تثبيت سلطانهم على حساب أمراء الإقطاع الكبار، وفرض شكل من النظام على مستوى الدولة فى إطار ما هو الحدود القومية اليوم.

كانت التغيرات بالغة الأهمية حيث كانت تمثل التحرك من البنية الإقطاعية إلى البنية الحديثة، إلا أن النقلة لم تكن كاملة، فأقوى تلك الملكيات "الجديدة"، مملكة إسبانيا، مثلا كان ولا يزال يوجد بها هياكل إدارية منفصلة لمكوناتها القطالونية والفالينسية والأراجونية والقشتالية، بينما كان ملوكها يشنون حروبا على مدى قرن ونصف القرن للاحتفاظ بملكية أراضى فى إيطاليا والبلاد الواطئة، وكان على الملوك الفرنسيين أن يتحملوا سلسلة من الحروب والحروب المحلية قبل إجبار الأمراء الإقليميين على الخضوع لحكم "استبدادى"- وحتى آنذاك بقيت المراكز الجمركية والنظم القانونية المحلية كما كانت. حتى فى إنجلترا، حيث كان الغزو النورماندى فى **1066** قد أقام دولة إقطاعية أكثر وحدة منها فى أى مكان آخر، بقى الإيرلات **(earls)** الشماليون محتفظين بقدر كبير من سلطاتهم، ولم يكن الملوك قد تخلوا عن ادعاءاتهم فى "فرنسا".

بالرغم من ذلك، كانت "الملكيات" و"الأنظمة الاستبدادية" التى تطورت عنها فيما بعد فى فرنسا وإسبانيا، كانت تمثل شيئا مختلفا بالنسبة للنظام الإقطاعى القديم. كانت دولا تقوم على الإقطاع، ولكنها كان الإقطاع الذى عرف فيه الملوك كيف

يستخدمون قوى جديدة مرتبطة بنظام السوق ونمو المدن كقوة موازنة مع سلطة أمراء الإقطاع[1]. كانت سياساتهـم ما زالت موجهة في جزء منها نحو الأهداف الإقطاعية الكلاسيكية للاستيلاء على الأراضى بالقوة أو عن طريق المصاهرة، على أنه كان هناك هدف آخر تتزايد أهميته – وهو تنمية التجارة والإنتاج المحلى. لذلك قـامت "**إيزابيل**– **Isabel**" و"**فرديناند**– **Ferdinand**" بغزو مملكة غرناطة الموريسكية، وحاربا من أجل مناطق فى إيطاليا، وقاما فى الوقت نفسه بتمويل "**كولومبس**" وخلفائه على أمل توسيع مجال التجارة. "**هنرى الثامن**" استخدام الزواج لعقد علاقات أسرية مع ممالك أخرى، وفى الوقت نفسه كان يعمل على تنمية صناعة الصوف الإنجليزى والبحرية الإنجليزية.

لا يعنى ذلك، بالقطع، أن تلك الملكيات كانت، بأى حال، أقل وحشية من أسلافها، بل إنها كانت على استعداد لاستخدام أى وسيلة لتدعيم قوتها ضد بعضها البعض وضد رعاياها، وكانت المؤامرات والمكائد والقتل والاختطاف والتعذيب هى وسائلهم لذلك؛ أما أبلغ ما يعبر عن فلسفتهم هذه، فهى كتابات "**ماكيافيللى**– **Machiavelli**"، موظف الإدارة المدنية الفرنسى، الذى كان طموح حياته أن يرى إيطاليا موحدة فى دولة، والذى وضع خطوطا إرشادية يحقق بها "**الأمير**" أهدافه. أحبطت آمال "**ماكيافيللى**"، إلا أن كتاباته تفصل قائمة أساليب كان يمكن أن تكون مستمدة مباشرة من ذخيرة الملوك الإسبان أو "**هنرى الثامن**".

أتبعت "**إيزابيل**" و"**فرديناند**" غزو غرناطة بشىء لم تفعله قط الممالك الإسلامية مع المسيحيين – وهو استخدام محاكم التفتيش للتخلص بالقتل ممن رفضوا التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد؛ ومع بداية القرن السابع عشر كان المسلمون، الذين كان لهم فى البلاد **900** عام، قد طردوا، أما اليهود الذين عاشوا فى ظل سياسة من التسامح نحو ثمانية قرون تحت الحكم الإسلامى، فأجبروا على الهجرة ليبدأوا حياة جديدة فى شمال أفريقيا، وفى البلقان تحت الحكم التركى (حيث بقى مجتمع يهودى يتحدث الإسبانية فى "سالونيكا"، إلى أن استولت جيوش "**هتلر**" على المدينة فى الحرب العالمية الثانية)، وفى شرق أوروبا. حتى من تحولو

إلى المسيحية (conversos)، لم يكونوا فى أمان، إذ كانت هناك موجة اضطهاد ضدهم فى سبعينيات القرن السادس عشر.

لم تكن الأساليب العنيفة والقاسية لـ"**هنرى السابع**" و"**هنرى الثامن**" وخلفائهما فى إنجلترا، موجة ضد سلطة أمراء الإقطاع فحسب، بل كانت كذلك موجهة ضد أعداد كبيرة من الفقراء – أولئك الذين تركوا هائمين فى الأرض دون مصدر عيش، بعد أن طرد الأمراء جيوشهم القديمة من صغار الملاك والفلاحين، وكان الملوك المتوالون يعاملونهم باعتبارهم "مجرمين طوعيين"[٢]، وفى **1530**، كان هناك قانون يقضى بـ:

> **"جلد وسجن المشردين والشرسين... بأن يقيدوا ويربطوا بعجلات المركبات... وجلدهم حتى تدمى أجسادهم... بعدها يتعهد كل منهم بالعودة إلى مسقط رأسه أو المكان الذى كان يعيش فيه فى السنوات الثلاث الأخيرة... وأن يكون مسخرا للعمل".**

بعد ذلك تم تعديل القانون ليضاف إليه:

> **وفى حال المخالفة الثانية يعاد الجلد مع قطع نصف الأذن، وفى الثالثة يعدم المخالف باعتباره مجرما عتيدا"**[٣].

الأفكار الجديدة

كانت فترة "اكتشاف" أمريكا و"الملكيات الجديدة" هى كذلك فترة **النهضة**– **Renaissance**– "إعادة ميلاد" الحياة الفكرية والفنية التى بدأت فى المدن الإيطالية وانتشرت، على مدى قرن، فى بقية أوروبا الغربية. عبر القارة، كان هناك إعادة اكتشاف للمعارف القديمة ومعه قطيعة مع الرؤية الضيقة للعالم والأعراف الفنية المحبطة والخرافة الدينية، التى كانت تتسم بها العصور الوسطى الأوروبية. كانت نتيجة ذلك كله ازدهار الفنون والآداب والتقدم العلمى على نحو لم يشهده العالم الأوروبى منذ "**أفلاطون**" و"**أرسطو**" و"**إقليدس**".

لم تكن تلك المحاولة الأولى لإحداث هذا التغير المفاجئ بالرغم من مزاعم بعض كتب التاريخ، إذ كان قد حدث تقدم مفاجئ كبير قبل قرنين مع ترجمة أعمال عن اللاتينية واليونانية والعربيـــة فى "طليطلة"، وجهود مفكرين مثل "**أبيلار**- **Abelard**" و"**روچر بيكون**- **Roger Bacon**"، وكتابات "**بوكاتشيو**- **Bocaccio**" و"**تشوسر**- **Chaucer**" و"**دانتى**- **Dante**"، ولكن ذلك هبط مع أزمة القرن الرابع عشر، حيث عملت الكنيسة والدولة على استئصال الأفكار التى قد تربك بالصراع الطبقى فى المدن والريف؛ أما الجامعات فبعد أن كانت مراكز للبحث الفكرى، أصبحت على نحو متزايد منابر للخلافات التقليدية المنبتة الصلة بالواقع العملى.

كانت "**النهضة**" تمثل عودة إلى الجهود الفكرية والثقافية والعلمية للقرن الثالث عشر، ولكن على مستوى أعلى بكثير، وقاعدة أوسع. لم تواجه النهضة عقم رؤية العصور الوسطى للعالم مباشرة فى الدول – المدن الإيطالية التى ولدت فيها. كان يسيطر على تلك الدول أوليجاركيات تجارية تتباهى بالثروة التى حققتها بأساليب غير إقطاعية، وأزاحت أبناء طبقة النبلاء الإقطاعية القديمة جانبا، وراحت تستخدم ثروتها ونفوذها لتأمين مواقع لها فى الإطار الذى رسخه الإقطاع. كان "**الميديشى**- **The Medicis**"، على سبيل المثال، هم الأسرة المتسيدة فى فلورنسا. كانوا قد بدأوا تجارا وأصحاب مصارف، إلا أن الأمر انتهى باثنين منهم ليصبحا باباوات وبأخرى لتصبح ملكة على فرنسا. كانت الثقافة التى تبنوها تعكس وضعهم المتناقض. كانوا سماسرة رسوم ومنحوتات فنانين من العامة، الذين كانوا يعبرون عن المجتمع الجديد الناشئ فى قلب القديم. إبداعات "**مايكل أنجلو**- **Michelangelo**": "لوحة خلق آدم" **(God Giving Life to Adam)** أو "القيامة" **(Last Judgement)** فى كنيسة سيستاين- **Sistine Chapel**"، هى أعمال دينية تحتفى بالإنسانية؛ ومن بين أعماله البارعة مجموعة التماثيل الضخمة لعبيد أو سجناء تصورهم وهم يصارعون لتحرير أنفسهم من الحجر. من ناحية أخرى، كان الأدب الذى رعته الأوليجاركيات خطوة إلى الوراء نوعا ما، عن تراث القرن الثالث عشر وبدايات الرابع عشر؛ وكمـــا أشار "**جرامش**- **Gramsci**"، المفكـــر الثورى الإيطالـــى،

قبل سبعين عاما تقريبا: بينما كان "**دانتي- Dante**" يكتب بإيطالية أهالي فلورنسا المحلية، كانت لغة "النزعة الإنسانية" للنهضة هي اللاتينية وهي لغة نخبة فكرية ضئيلة. كان ذلك بمثابة قناة تواصل بين العلماء والدارسين في أوروبا، ولكن ليس بين جماهير فلورنسا أو ميلانو أو فينيسيا، أضف إلى ذلك أنه كان ما زال هناك إجلال خرافي للنصوص القديمة، لدرجة أن أي اقتباس عن كاتب يوناني أو روماني كان يكفي لحسم النقاش.

مع انتشار **النهضة** في أوروبا بدأ مضمونها يتغير. كان هناك عدد متزايد من الترجمات عن اليونانية أو اللاتينية إلى اللغات المحلية، كما كان هناك استعداد، يتزايد كذلك، لتحدي ما توصل إليه القدامى وليس قراءة أعمالهم فحسب، وأوضح دليل على ذلك ما تحقق من تقدم علمي على يد كل من "**كوبرنيكوس- Copernicis**" و"**كيبلر- Kepler**" و"**جاليليو- Galileo**". ربما يكون القرن السادس عشر قد بدأ بلفظ أفكار عمرها **2000** عام، ولكن في غضون أقل من قرن آخر، كان هناك انفجار كتابات جديدة بلغات الجماهير - "**رابليه- Rabelais**" بالفرنسية، و"**شيكسبير- Shakespeare**" و"**مارلو- Marlowe**" و"**بن جونسون- Ben Jonson**" بالإنجليزية، و"**ثربانتس- Cervantes**" بالإسبانية. لم يكن الأمر مجرد كتابة قصص أو مسرحيات أو أفكار جديدة كثيرة على ورق، كان الأمر كذلك إعطاء شكل للحديث اليومي الذي يستخدمه الملايين. العصر الذي شهد "الملكيات الجديدة"، شهد كذلك النشأة الأولى للغات القومية.

الأديان الجديدة

بعد عشرين عاما من استيلاء القوات الإسبانية على غرناطة، ورسو "**كولومبس**" على جزر الهند الغربية، قام راهب وأستاذ لاهوت عمره **34** عاما بتعليق ورقة على باب كنيسة في "ويتنبيرج" في جنوب ألمانيا. كانت الورقة تحتوي على **95** نقطة (أطروحات- **theses**) تهاجم قيام الكنيسة الكاثوليكية لبيع صكوك

الغفران (indulgences)، وكانت عبارة عن وثائق تغفر للناس خطاياهم وتعتبر بمثابة "جواز مرور" للجنة. عجل هذا العمل الذى قام به "**مارتن لوثر**- **Martin Luther**" بحدوث أكبر انشقاق فى الكنيسة الغربية منذ أن اعتنق "**قسطنطين**- **Constantine**" المسيحية قبل **12** قرنا. كانت **الإمبراطورية الرومانية المقدسة** تبدو عاجزة عن فعل أى شيء لإيقاف التأييد المتزايد لـ"**لوثر**"، الذى اندفعت خلفه مدن جنوب ألمانيا وسويسره - "بازل"، "زيورخ"، "ستراسبورج"، "ماينز"، وكذلك البعض من أقوى أمراء ألمانيا فى "ساكسونيا" و"هيس" و"براندنبورج"، وعلى الفور أصبح هناك متحولون فى هولندا وفرنسا، بالرغم من الإجراءات المضادة التى اتخذتها السلطات، مثل إحراق **14** من الصناع المهرة من أتباع "**لوثر**" أحياء، فى ميدان مدينة "ميكس- **Meaux**" فى **1546**(٤). قطع "**هنرى الثامن**"، ملك إنجلترا، علاقته بالكنيسة الكاثوليكية بعد أن رفض البابا (وكان حليفا للتاج الإسبانى) الموافقة على طلاقه من الأميرة الإسبانية "**كاترين الأراجونية**- **Catherine of Aragon**".

بدأ "**لوثر**" بحجج لاهوتية- حول صكوك الغفران، وحول طقوس الكنيسة، وحول دور الكهنة كوسطاء بين المؤمنين وبين الله، وحول حق البابا فى تنظيم الكهنوت؛ إلا أن الكنيسة الكاثوليكية كانت جزءا سياسيا من مجتمع العصور الوسطى، ولم يكن بالإمكان أن تتلافى القضايا الجوانب الاجتماعية والسياسية؛ وما قام به "**لوثر**" كان فى حقيقته تحديا للمؤسسة التى تمارس سطوة أيديولوجية باسم النظام الإقطاعى كله، فكان لا بد من أن يرد المستفيدون من تلك السطوة. كان أن أغرقت الخلافات حول تلك القضايا معظم أوروبا فى سلسلة من الحروب والحروب الأهلية على مدى قرن وربع القرن – الحرب الشمالكلدية(*) فى ألمانيا، والحروب الأهلية الدينية فى فرنسا، والحرب الهولندية الطويلة للاستقلال عن إسبانيا، وحرب الثلاثين عام التى دمرت أراضى ألمانيا، والحرب الأهلية الإنجليزية.

(*) الحرب الشمالكلدية: Smalkaldic War فترة عنف قصيرة ما بين 1546 و1547 بين قوات الإمبراطور "شارل الخامس" والاتحاد الشمالكلدى اللوثرى. (شمالكالدى: نسبة إلى مدينة شمالكالدن (فى تورنجن) التى شهدت تأسيس الاتحاد. (المترجم)

كان "**لوثر**" مجادلا بارعا، يقدم كراساته الواحدة تلو الأخرى لعرض قضيته، بالإضافة إلى قيامه بترجمة الكتاب المقدس التى كان لها أثرها على تطور اللغة الألمانية، إلا أن كل ذلك فى حد ذاته لا يفسر تأثير ما قام به. كان هناك تراث معارضة طويل للكنيسة الكاثوليكية الرومانية يستند إلى أفكار تشبه أفكار "**لوثر**" إلى حد بعيد. كانت هناك كنيسة "**والدينيسية– Waldensian**"(*)، ولها جماعات فى مدن أوروبية رئيسية على مدى **200** عام، وكان "**الهوسيون– Hussites**"(**) قد حاربوا قبل قرن فى بوهيميا، خلف أفكار مشابهة، وكان ولا يزال هناك أتباع **"Lollard"**(***) كثر لـــ"**ويكلف– Wycliff**" الإصلاحى الإنجليزى فى أواخر القرن الرابع عشر؛ إلا أن هذه الحركات لم تنجح قط فى تمزيق الكنيسة والمجتمع الذى كانت موجودة به. "**لوثر**" هو الذى فعل ذلك على وجه الدقة، كما فعله إصلاحيون آخرون كانوا مختلفين معه حول بعض أمور العقيدة – "**زونجلى– Zwingli**" فى زيورخ و"**كالفن– Calvin**" فى جنيف.

لفهم سبب حدوث ذلك، لا بد من تأمل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الأوسع التى حدثت منذ أزمة القرن الرابع عشر– وهى التغيرات التى مهدت للأديان الجديدة، مثلما مهدت للملكيات الجديدة، والغزوات التى تمت للعالم الجديد والمعارف الجديدة لعصر النهضة. شىء جديد كان يخرج من رحم الاقتصاد الإقطاعى والمجتمع الإقطاعى، وكانت **البروتستانتية** إحدى صرخات الولادة.

(*) الكنيسة الوالدينيسية– Waldensian Church نسبة إلى الإصلاحى "بيتروالدو" (1170-1184). (المترجم)

(**) الهوسيون (أتباع چان هوس)– Hussites نسبة إلى الإصلاحى التشيكى چن هوس (1369-1415)، الذى يعد أشهر ممثل للإصلاح فى بوهيميا. (المترجم)

(***) داعية تابع– Lollard الكلمة هولندية الأصل (lollaert) بمعنى الشخص الذى يتمتم بكلمات غير واضحة، وكانت مستخدمة لوصف جماعات دينية أوروبية قديمة متهمة بخلط مزاعم التقوى والورع بالهرطقة والبدع. (المترجم)

الاقتصاد في حالة تحول

كان المجتمع فى أوروبا الغربية يمر بتغيرات بطيئة ولكنها تراكمية على مدى مئات السنين، لم يكن من يعيشونها يدركونها تماما. كان هناك، أولا، التقدم البطيء والمتقطع في تقنيات الإنتاج، حيث استوعب الصناع وبناة السفن والمهندسون العسكريون الابتكارات القادمة من أماكن أخرى فى أوراسيا وشمال أفريقيا وطوروها؛ ومن ثم كان هناك في بدايات القرن السادس عشر عشرات الأجهزة التي لم تكن معروفة في القرن الثاني عشر، وربما حتى في القرن الرابع عشر - ساعات ميكانيكية في كل المدن المهمة، طواحين هوائية إلى جانب المائية، أفران لافحة تستطيع إنتاج الحديد الزهر، أساليب جديدة لبناء وتجهيز السفن، المدفع والبندقية للحرب، المطبعة التي مكنت من نسخ عدد كبير من النصوص التي لم تكن موجودة في السابق سوى في صورة مخطوطات محفوظة في بعض المكتبات.

كانت كل تلك الابتكارات التقنية هي الشرط السابق للتغيرات الكبرى التي حدثت، إذ لعل كان بإمكان **"كولومبس"** أن يكتشف طريقا إلى الأمريكتين دون الإصطرلاب الذي جاء من الأراضي العربية والبوصلة التي جاءت من الصين - ويمكن أن يكون آخرون قد فعلوا ذلك قبله - إلا أنه لم يكن ليستطيع أن يرسم خريطة للطريق البحري، الذي منه أصبحت العودة والغزوات الإسبانية ممكنة، ولربما كانت جيوش الملوك تستطيع كسب معركة دون آلاتهم الحربية وأسلحتهم النارية المتطورة، ولكنها لم تكن لتستطيع أن تهزم خيالة الفرسان المدرعة أو أن تسوي قلاع الأمراء بالأرض أو أن تهزم حملة الرماح من الفلاحين. ربما كان بإمكان مفكري النهضة في شمال إيطاليا إحياء بعض الاهتمام بكتابات اليونان والرومان دون المطبعة، إلا أن تأثير تلك الكتابات ما كان ينتشر عبر معظم أوروبا دون عمل آلاف النسخ منها؛ وبالمثل ما كان لتحدى **"لوثر"** للبابوية أن يجد جمهورا واسعا كما حدث. الواقع، أن المطبعة ضمنت أن تكون التربة مهيأة لأفكاره، ففي إنجلترا على سبيل المثال هيأت المطابع كذلك "قوة كبيرة وإن متأخرة"

للجدل المقـــاوم للإكليـــروس الموجـــود عند "**ويكلف**- **Wycliffe**"، وعند "لانجلانـــد- **Langland**"، وبقدر محدود عند "**تشوسر**- **Chaucer**"، حتى إن القرن الرابع عشر غزا السادس عشر(٥).

إلا أن التقنيات وحدها ما كانت لتحقق شيئا. كان لا بد من أن تستخدم، وأحيانا بتكلفة باهظة. كان ينبغي أن تصنع الأسلحة، وتستخرج المعادن من المناجم، وتمول المطابع، وتبنى السفن، وتزود الجيوش بالمؤن؛ وكان بالإمكان أن يتم ذلك كله وبالحجم المطلوب لأن التنظيم التقنى للإنتاج كان قد مر بتغيرات كبيرة.

فى المرحلة الإقطاعية الباكرة، كان الإنتاج يتم بهدف الاستخدام المباشر – لتزويد الأسرة الفلاحية باحتياجاتها الحياتية، ولتمكين الأمير من العيش فى ترف. كان المهم هو ما أطلق عليه كل من "**آدم سميث**- **Adam Smith**" و"**كارل ماركس**- **Karl Marx**" "**القيم الاستعمالية**- **Use Values**"- ضرورات الحياة لأسرة الفلاح، والمواد الترفية لإشباع أذواق أمراء الإقطاع النهمة. كان الضغط لزيادة الإنتاج سواء عن طريق زيادة جهد الفلاح أو استخدام التقنيات الجديدة، يتم فقط نتيجة لرغبة الفلاح فى تحسين ظروف معيشته نوعا ما، أو رغبة الأمير فى المزيد من الاستهلاك والبذخ؛ وكما عبر "ماركس" عن ذلك أيضا، فإن "درجة استغلال الفلاحين كان يحددها حجم معدة الأمير الإقطاعى". فى مجتمع كهذا، كان دور التبادل والنقود هامشيا، وإذا كان شخص ما يريد أن يكون ثروة، كان الطريق لذلك هو اغتصاب الأراضى أكثر مما هو اكتناز الذهب.

مع بداية القرن الخامس عشر، كانت كل الأمور قد أصبحت مختلفة تماما. كان إنتاج أشياء للبيع- استبدال بها الذهب أو الفضة، اللذين كان يمكن استبدالهما كذلك بأشياء أخرى – كان يتزايد بشكل مضطرد. ما أطلق عليه "**سميث**- **Smith**" و"**ماركس**": "**القيمة التبادلية**- **exchange value**" كان يزداد أهمية. كانت أسرة الفلاح ربما ما زالت تستطيع أن تنتج معظم ما تحتاجه من مأكل وملبس. إلا أنها

كانت تحتاج النقود لتسديد القيمة الإيجارية أو شراء الأدوات الزراعية أو إعالة نفسها فى ظروف فشل المحصول؛ أما الأمراء والحكام فكانوا يحتاجون النقود على نطاق واسع. كانت تجارة المسافات البعيدة تعنى أن تأتى السلع الترفية من آخر الدنيا، وكان لذلك ثمنه. وفى حال استطاع أحدهم الحصول على ما يكفى من أموال، كان (أو كانت) يمكن أن يصبح لديه جيش قادر على هزيمة الآخرين (كانت الجيوش فى معظمها من المرتزقة)، أو أن يحصل على سفن ويستأجر البحارة للخروج فى رحلات للاستكشاف أو التجارة أو القرصنة. إجمالا، أصبحت النقود ما هى عليه الآن.

بمرور الزمن، سيحول ذلك عالم العمل تماما، بحيث لا يصبح وسيلة لإشباعى الاحتياجات الإنسانية، وإنما وسيلة يضاعف بها من لديهم الأموال أموالهم. لم تكن هذه العملية قد اكتملت تماما فى أوائل القرن السادس عشر. كان معظم الصناع ما زالوا يتوقعون أن يحصلوا على سعر معتاد عن أى عمل وأن تكون لديهم الحرية للاحتفال فى ايام الأعياد والمناسبات الدينية، وكان معظم الفلاحين ما زالوا يرون عملهم مرتبطا بنظام الفصول وليس بطاحونة اسواق السلع. إلا إن العملية كانت فى الطريق وبقيت كذلك على مدى قرنين. الانتشار البطيء لشبكات الأسواق فى المدن والقرى زحف على حياة أعداد متزايدة من الناس. كانت مناطق كاملة من الريف تتحول إلى إنتاج "محاصيل صناعية"، بالقرب من المدن الرئيسية والموانئ أو الأنهار الصالحة للملاحة – الكتان لصناعة الملابس والمفروشات، العنب لصناعة النبيذ، الزيتون لاستخراج الزيت، النيلة أو الزعفران للصباغة– أو تتحول إلى مراع لتربية الحيوانات لمواجهة الطلب المتزايد على اللحوم فى المدن وبين الطبقات العليا. كان التجار يتوسعون فى استخدام نظام "الإنتاج للبيع" للضغط على الصناع والحرفيين لكى يقبلوا أجورا يحددها العرض والطلب، وليس الأسعار المعتادة للسلع– وتشجيع نمو صناعات جديدة فى المناطق الريفية، حيث كان الصناع فى المدن يرفضون التضحية بأسلوب حياتهم لصالح جشع التجار. فى مناطق مثل مرتفعات جنوب ألمانيا وبوهيميا وترانسلفانيا، كان

كبار رجال المال مثل أسرة فوجر- **Fugger** (الذين كانوا يمولون حروب الملوك الإسبان والإمبراطورية الرومانية المقدسة)، ينشئون مناجم يعمل فيها أجراء.

كان الدور الذى قام به "الإنتاج من أجل السوق"، هو الذى جعل نتيجة أزمة القرن الرابع عشر، مختلفة تماما عن نتيجة الأزمات التى أصابت الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس، والصين فى القرنين الثالث والثالث عشر. فى تلك الظروف، كانت المجاعة والحرب الأهلية والغزو الأجنبى هى ما أدى إلى التمزق لملكيات زراعية كبيرة، منفصلة اقتصاديا عن بعضها البعض إلى حد بعيد، كما هى عن المجتمع الأوسع. على النقيض من ذلك، فإن أزمة القرن الرابع عشر جاء فى أعقابها اتساع كبير فى علاقات السوق فى كل أوروبا. حتى فى المناطق التى كانت قد بقيت فيها القنانة الإقطاعية، نجد أنها كانت قنانة بقصد إنتاج محاصيل يمكن أن يبيعها الأمير الإقطاعى لكبار التجار مع تحقيق ربح ضخم.

الأزمة لم تدمر المدن الصغيرة، إذ بالرغم من أن عددا كبيرا من القرى بات مهجورا نتيجة للمجاعات والأوبئة، بقى معظم المدن متماسكا، وفى منتصف القرن الخامس عشر كانت فى المقدمة من اتساع اقتصادى جديد يشجع على استخدام التقنيات الحديثة، مثل الطباعة والشحن بالسفن. لم تفد كل المدن الصغيرة من هذه الفترة الجديدة، إذ إن اتساع السوق ذاته، واتساع الإنتاج من أجل التبادل وليس بهدف الاستخدام المباشر، كان يعنى أن يصبح مصير بعض المدن الصغيرة عرضة للخطر. بعض المدن التى كانت ازدهرت فى الفترة السابقة، كانت تعانى الآن (ومن خلال السوق) من تأثير تغيرات غير منظورة فى الإنتاج، أو أحداث سياسية فى بلاد بعيدة. مدن أخرى كانت قد تخلفت فى الماضى، برزت الآن إلى الصدارة. برشلونة، فلورنسا، المدن التجارية الكبرى فى شمال أوروبا والبلطيق، تدهورت كلها بدرجات مختلفة فى القرن السادس عشر، بينما بدأت فى الازدهار مدن أخرى شمالى البلاد الواطئة (هولندا الآن) وفى جنوب إسبانيا، وفى جنوب شرق ألمانيا، وفى إنجلترا.

كان للسوق تأثير آخر، إذ إنها غيرت الظروف التى يعيش تحتها الملايين من البشر. بعد منتصف القرن الخامس عشر، بدأت الأسعار ترتفع مع انخفاض مستويات معيشة معظم الناس. الأجور الحقيقية، التى كانت غالبا قد تضاعفت فى القرن التالى للطاعون الأسود، انخفضت بمقدار النصف أو الثلثين، من منتصف القرن الخامس عشر إلى نهاية السادس عشر[٦]، بينما كان الفلاحون عرضة لضغوط متزايدة لكى يدفعوا مستحقات مختلفة لأمراء الإقطاع.

كان هناك تكالب على المال بين أغنياء الريف والمدن على السواء، وكانت شهوة الذهب التى تملكت كلا من "**كولومبس**" و"**كورتيز**" و"**بيثارو**" إحدى تجليات ذلك، ومثلها كان قيام الكنيسة بالتجارة فى صكوك الغفران، ما أدى إلى أولى انفجارات "**لوثر**"؛ وكذلك كان اللجوء إلى شكل جديد من القنانة فى أوروبا الشرقيةى، وإلى الأنماط الأولى من الفلاحة الرأسمالية فى مناطق من أوروبا الغربية. على نحو مضطرد، كانت النقود تصبح مقياسا لكل شىء، بيد أن القيم الرسمية للمجتمع كانت ما زالت هى تلك المتجسدة فى تراتبية الإقطاع القديم.

كانت الكنيسة مركزية تماما بالنسبة لقيم العصور الوسطى، كما كانت طقوسها تجسد السلوك المتوقع من مختلف الطبقات، والذى كان يتم التعبير عنه بصريا فى النقوش والنوافذ ذات الزجاج الملون. إلا أن الكنيسة قد أصيبت هى الأخرى بشهوة الذهب. أصبح أبناء أسر تجارية كبيرة، مثل "**آل ميديتشى**– **Medicis**"– و"**بورجيا**– **Borgias**" باباوات لكى يضاعفوا ثرواتهم، التى كانوا يتوقعون أن تنتقل إلى أبناء غير شرعيين. كان صبية صغار يعينون فى أسقفيات تدر عليهم الأموال، كما كان الكهنة يستولون على دخل كنائس عدة لا يظهرون فيها، بينما يزيد القساوسة والرهبان الفلاحين رهقا بإقراضهم بمعدلات فائدة عالية، رغم أن – المفترض – الربا خطيئة.

لقد أضاع المؤرخون وقتا طويلا فى الجدال حول العلاقة المتبادلة الدقيقة بين الرأسمالية و"**البروتستانتية**– **Protestanism**". مدرسة كاملة يتزعمها عالم

الاجتماع (القومى الألمانى) "**ماكس ڤيبر– Max Weber**" ترى أن القيم **البروتستانتية** هى التى أنتجت الرأسمالية دون أن تفسر من أين جاءت "الروح" **البروتستانتية** المزعومة(٧)، بينما ترى مدارس أخرى أن لا صلة هناك بالمرة، حيث لم يكن الكثيرون من أوائل **البروتستانت** رأسمـــاليين، وإن معظم المناطق **البروتستانتية** الراسخة فى ألمانيا كانت تضم مناطق "القنانة الثانية"(٨).

بيد أن من السهل اكتشاف العلاقة بينهما (البروتستانتية والرأسمالية). لقد أدى تأثير التغيرات التقنية وعلاقات السوق الجديدة بين الناس فى إطار الإقطاع، أدى إلى ظهور "مجتمع مختلط" – إقطاع السوق– يوجد به تضافر، وصدام فى الوقت نفسه، بين أساليب العمل والتفكير الرأسمالية والإقطاعية.

إن تراكب بنية السوق على بنية الإقطاع أدى إلى معاناة الجماهير من عيوب الطرفين. تقلبات السوق كثيرا ما عرضت سبل معيشة الناس للخطر، كما أن الأساليب الإقطاعية فى الزراعة التى ما زالت منتشرة فى مناطق كبيرة من شرق أوروبا وجنـــوبها لم تستطع أن تنتج ما يكفى لإطعام الفلاحين وتوفيـــر احتياجات الأمراء وجيوش الممالك(٩). كانت بنية فوقية متسعة لاستهلاك الطبقة الحاكمة، تقوض استقرار قاعدة إنتاجية فلاحية– ومع سنوات القرن السادس عشر، كانت تتزايد وتيرة اندفاع المجتمع نحو فترة جديدة من الأزمة، متعثرا بين التقدم إلى الأمام والعودة إلى الوراء.

نتيجة لذلك، كانت كل طبقات المجتمع تشعر بالارتباك، و كان كلٍ منها يعود إلى معتقداته الدينية القديمة للاطمئنان واستعادة الثقة، ولكن ليجدوا الكنيسة نفسها وقد أصابها الارتباك والتخبط. لم يكن الناس يستطيعون التوافق مع هذا الوضع، إلا إذا وجدوا سبلا لإعادة صياغة ما ورثوه من أفكار الإقطاع القديم. "**لوثر**" و"**زونجلى– Zwingli**" و"**كالڤن**" و"**چون نوكس– John knox**" وغيرهم، وحتى "**إجناتيوس ليولا– Ignatius Loyola**" الذى أسس "**الچيزويت: Jesuits**" وكان رأس الحربة فى الإصلاح الكاثوليكى المضـاد– هم الذين زودوهم بتلك السبل.

الإصلاح الألمانى

لم يكن لدى "**مارتن لوثر**" و"**چان كالڤن**" القصد لبدء حركات ثورية ولا حتى حركات إصلاح اجتماعى. كانا مهيأين لتحدى النظام الدينى القائم ومناجزته جذريا، ولكن الحجج بالنسبة لهم كانت لاهوتية- **theological**- بخصوص تشويه وإفساد **الكنيسة الكاثوليكية** التعاليم الدينية لـ"يسوع" و"الرسل"، التى جاءت فى الكتاب المقدس. كان المهم، بالنسبة لهمـا، هو إيمان الفرد، وليس وساطة الكهنـة أو "الأعمال الخيرة"- وبخاصة تلك التى تتضمن دفع أموال للكنيسة. لم تكن أبهة القديسين **الكاثوليك**، التى تبجل من خلال التماثيل والأضرحة، فى نظرهما، أقل من غش وتدنيس وثنى للرسالة الكتابية. "**كالڤن**"، ذهب حتى إلى أبعد من ذلك، إذ كان يرى أن الاعتقاد بأن المتعبدين كانوا، على نحو ما، يتناولن جسد يسوع فى طقس العشاء الربانى- **Holy Communion**، إنما كان ضربا من التجديف- وكان ذلك رأيا حال دون التوافق مع أتباع "**لوثر**"، ناهيك عنه مع كنيسة روما. حول مثل هذه المسائل، كان **البروتستانت** الأوائل يجادلون، ويخاطرون بحياتهم الشخصية ويحثون أتباعهم على الصمود والثبات - رغم أن عقاب الهرطقة فى كل مدن أوروبا كان إحراق المهرطق حيا.

إلا أن كليهما، "لوثر"، و"**كالڤن**" كان محافظا بخصوص القضايا الاجتماعية، ففى **1521**، وعندما كانت السلطات الرسمية تطلب رأسه، كان من رأيه أن النـاس لا بد من أن يطيعوا تلك السلطات فى الأمور غير الدينية:

> **"لا مبرر للشغب أو التمرد أيا كانت أسبابه... السلطة الزمنية والسيف مقدرتان لعقـاب الشرير الأثيم وحماية التقى الـورع... ولكن يهب أحد العوام، ممن لا يستطيعون التمييز بين الخير والشر فسوف يضربون دون تمييز، ولن يكون ذلك دون ظلم كبير... لذا، خذوا حذركم وأطيعوا السلطات"(١٠)**

آراء "**كالڤن**" بالمثل وصفت باعتبارها "مبدأ الطاعة العامة" لأن "ضرورة وجود نظام اجتماعى من حكام ومحكومين" أمر مقدر من الله و"لأن الجنس البشرى كان تحت خطيئة أصلية، فلا بد من أن يكون ذلك نظاما للقمع"(١١).

لم تمنع تلك المبادئ انطلاق الصراعات الاجتماعية – تلك الصراعات التى كان لا بد من أن يحددا موقفهما فيها.

"**لوثر**"، الراهب الذى تحول إلى "بروفيسور" وكان جزءا من النهضة "الإنسانية" التى اجتاحت أوروبا، استطاع أن يقنع بعض أفراد ذلك الوسط، كما استطاع أن يحظى بحماية بعد الشخصيات القوية مثل "**فردريك– Frederic**" أمير ساكسونيا[١٢]، الذى كان على خلاف مع الكنيسة؛ أما السبب الرئيسى لسرعة انتشار تعاليمه فى جنوب ألمانيا فى عشرينيات القرن السادس عشر، فلكونها لقيت قبولا لدى الطبقات الاجتماعية الساخطة التى لم يكن "**لوثر**" يثق بها؛ ونفس الشيء ينطبق على انتشار تعاليم "**كالفن**" فى فرنسا بعد ذلك بربع قرن.

اليوم، يميز مؤرخو "**الإصلاح الألمانى– German Reformation**" بين مراحل مختلفة: إصلاح حضرى (أو مدينى)، و"إصلاح ريفى" و"إصلاح أمراء"[١٣]. الإصلاح الحضرى اجتاح مدن جنوب ألمانيا ومدن سويسرا بعد أن أصبح "لوثر" شخصية عامة عندما تحدى الإمبراطور فى مجلس شهير **(The Diet)** لدوائر الإمبراطورية الانتخابية فى "وارمز– **Warms**" فى **1521**. كانت تدير المدن "**أوليجاركيات– Oligarchies**" (جماعات قلة) تضم عائلات تجارية غنية وبعض الشرائح الدنيا من الطبقة الأرستقراطية، وكان أولئك يسيطرون على المجالس على مدى أجيال، حتى فى وجود بعض الهياكل الديمقراطية الشكلية. كان لتلك "**الأوليجاركيات**" شكاواها وأحقادها على الكنيسة – من أسبابها مثلا أن رجال الدين (الإكليروس) كانوا يمتعون بالإعفاء من الضرائب، ما يجعل الآخرين يدفعون أكثر – وكانوا يخشون سطوة الأمراء المحليين. إلا أنهم كان لهم كذلك ارتباطات عدة بالنظام الاجتماعى والدينى القائم. كانوا يعيشون على إيجارات أراضيهم خارج المدن ويحصلون لأبنائهم على مراكز كنيسة مربحة، ويجدون السبل للاستيلاء على جزء كبير من عشور الكنيسة، وعليه فقد كانوا مترددين بين قبول ورفض "**إصلاح**" الكنيسة.

كانوا يتطلعون إلى تغيير تدريجى يمكنهم من ممارسة سيطرة أكبر على الحياة الدينية في المدينة، واستخدام موارد الكنيسة دون أن يؤدى ذلك إلى حنق كبير.

ولكن تحت هذه الطبقة كانت هناك كتلة أكبر حجما من التجار والصناع – وأحيانا كهنة وراهبات ورهبان من أسر حرفية– ممن سئموا الدفع من أجل فئة من الكهنة، لم تكن موجودة حتى لتقديم السلوى الدينية التى وعدت بها الكنيسة. كان تحريضهم هو ما جعل الإصلاح ينتصر فى مدينة تلو الأخرى، وفى "إفورت– **Efurt**"، "شارك الطلاب والصناع" فى "الهجوم على الإكليروس" و"تحطيم مقر المجلس المقدس بعد أن طاف "**مارتن لوثر**" بالمدينة فى **1521**"[١٤]. فى "بازل" كان النساجون يطالبون بإدراك البشارة "ليس عن طريق الروح فحسب وإنما بالأيدى كذلك"، مصرين على أنه "لا بد من النظر إلى إخواننا فى الإنسانية بحب وإيمان حقيقى" وتوجيه الأموال التى يتم إنفاقها على تزيين الكنائس إلى "الفقير الذى لا يجد الخشب ولا الشموع ولا غيرها من الضروريات فى الشتاء"[١٥]. وفى "براونشويج" و"هامبورج" و"هانوفر" و"ليمجو" و"لوبيك" و"ماجدبورج" و"مولهاوزن" و"يزمار"، أجبرت لجان من الصناع والتجار أجهزة الحكم فى تلك المدن على القيام بتغييرات دينية[١٦]. ومزقت "ويتنبيرج" صراعات واجتاحها محطمو الأيقونات لدرجة أن لجأت سلطات المدينة إلى "**لوثر**" نفسه لكى يقوم بالتغيير المنهجى الذى يحافظ على النظام[١٧]. فى "استراسبورج" كان "الحكام، بضغط من العامة، يبدأون إجراء تغييرات فى الممارسات الدينية التى كان من الواضح أنها غير قانونية، آملين فى الوقت نفسه أن يهب أحد– مثل الإمبراطور أو مجلس عام من الكنيسة – لكى يخفف عنهم الضغوط التى كانت تتزايد من أجل تغيير أوسع[١٨]. على هذا النحو "الذى كان يجد دائما تعزيزا له من أسفل، وليس بواسطة حكومة المدينة وإنما بواسطة طوائف الصناع"[١٩]، ذهب ثلثا المدن الألمانية الكبيرة إلى الدين الجديد. كان "**لوثر**" يعزو نجاح عقيدته للمشيئة الإلهية. كتب يقول "كلمة الله صنعت كل شىء"، "بينما كنت جالسا أحتسى الجعة مع "**فيليب**" و"**أمسدورف**" وجه الله لكمة قوية للبابوية"[٢٠]. فى الحقيقة، كان شعورا طبقيا فى زمن اقتصادية مستوطنة، هو ما أسرع بالاستجابة لتعاليمه.

بالرغم من ذلك، كانت مجالس الحكم قادرة دائما على تنفيذ ما يكفى من تغيير لكى تسكن وتهدئ التحريض والإثارة من أسفل: "بمجرد أن أقر المجلس التعاليم **البروتستانتية** وألغى القداس، واستوعب الإكليروس فى إطار المواطنة، كان من الطبيعى أن ينتقل القرار الخاص بحياة كنيسة المدينة، من الشارع إلى غرفة المجلس(٢١).

حرب الفلاحين

فى **1524**، اندلعت حركة ثانية أكثر عنفا. هذه الحركة المعروفة بـ"**حرب الفلاحين– Peasant War**" (وبين بعض المؤرخين اليوم بـ"ثورة العامة") توصف بأنها "أهم انتفاضة جماهيرية في أوروبا ما قبل الحديثة"(٢٢). كانت هناك سلسلة من عمليات التمرد الريفية المحلية عبر جنوب ألمانيا فى نصف القرن السابق، والآن كانت أخبار الاضطرابات الدينية تنتشر فى المدن، وغالبا بواسطة الصناع فى الحرف الحضرية النامية، والتى كانت بمثابة بؤرة للمعاناة من جراء سنوات من الشعور بعدم الأمان، وحفزت على ثورة دينية واجتماعية.

جيوش مرتجلة تضم الألوف، وربما مئات الألوف، من البشر حملت الحركة من منطقة إلى أخرى مجتاحة جنوب ووسط الإمبراطورية، تنهب الأديرة وتهاجم القلاع وتحاول الاستيلاء على المدن(٢٣). أخذ أمراء الإقطاع والأساقفة على حين غرة، وكانوا يحاولون تهدئة المتمردين ومثيرى الاضطرابات بالتفاوض، بينما كانوا يطلبون من كبار الأمراء أن يهرعوا لمساعدتهم. كانت أوليجاركيات المدن فى حيرة من أمرها؛ فمن ناحية، كانت لديهم مظالمهم من أمراء الريف والأساقفة والأديرة، ووقوعهم تحت ضغط المواطنين الأكثر فقرا فى المدن، لكى ينضموا إلى الثورة، ومن ناحية أخرى كانوا فى الغالب جماعة ممن تملكوا الأراضى تحت تهديد من الثورة؛ وهؤلاء عموما انتحوا جانبا بعيدا عن الثورة، آملين أن ينجح أحد فى استعادة السلام والهدوء(٢٤).

إلا أن الثوار نجحوا فى الاستيلاء على بعض المدن ويكسبون مدنا أخرى إلى صفوفهم، ففى "سالزبورج" انضم عمال المناجم والعاملون بالتعدين والفلاحون إلى الانتفاضة[٢٥]، وفى "هيلبرون"، اضطر حكام المدينة، تحت ضغط الناس "وبخاصة النساء" لفتح الأبواب أمام الثوار، الذين احتلوا كل الأديرة والمؤسسات الإكليركية[٢٦]. على هذا النحو، سيطر الثوار على مدن مثـــل "ممنجن" و"كاوفبيرن" و"وينبرج" و"بيرماتنجن" و"نيوشتاد" و"شتوتجارد" و"مولهاوزن".

فى كل مكان، كان الثوار يكتبون قوائم بمظالمهم، ويضعونها فى قالب برامج محلية وإقليمية، وكانت إحدى القوائم التى احتوت على **12** نقطة، حددها فلاحو منطقة "ممنجن" بمساعدة متعاطف من الصناع وأحد الكهنة الثوار، كانت بمثابة بيان رسمى (مانيفستو) قومى للثورة، حيث أعيدت طباعتها أكثر من مرة[٢٧].

بدأت القائمة بأهم مطالب الجماهير – حق الجماعات المحلية فى تعيين رعاة الأبرشيات وتحديد كيفية استخدام العشور، ثم مضت إلى مطالب أكثر أهمية بالنسبة لظروف الناس المعيشية – إلغاء القنانة، إلغاء كل أشكال الرسوم التى تدفع للأمراء، وإيقاف الزحف على الأراضى العامة، وإلغاء الحظر على قيام الفلاحين بالصيد برا وبحرا وجمع الخشب، وإيقاف الأحكام الاعتباطية.

لم يكن ذلك برنامجا ثوريا. كان يفترض أن النبلاء والأمراء يمكن أن يقتنعوا ويقبلوا قضية الفلاحين، والمؤكد أن معظم المشاركين فى الثورة، كانوا يعتقدون فى بداية الحركة أن الأمور يمكن أن تصبح على ما يرام، إن هم استطاعوا إجبار الأمراء على الإصلاح من أساليبهم؛ "وبصفة عامة، كان الفلاحون يميلون إلى القبول بطبقة النبلاء، شريطة أن تكون على استعداد للاستجابة لمطالب تجمعاتهم أو "**الاتحادات المسيحية– Christian Unions**" للثوار"[٢٨]. يقول المؤرخ "**جى. آر. إلتون– G.R. Elton**"، وهو من المحافظين: "الفلاحون... بشكل عام كانوا يتصرفون بدرجة غير عادية من التحفظ"[٢٩]، بينما يشير "**فردريك إنجلز**– إنهم أظهروا عجزا واضحا لعزمهم فيما يخص هذه النقاط المتعلقة بالموقف.. أى اتجاه النبلاء

والحكومات، وهذا العزم كما ظهر كانت بدايته فقط فى سياق الحرب، بعد أن عرف الفلاحون سلوك أعدائهم"[٣٠]، اعتدال الفلاحين قادهم، بشكل متكرر، إلى تصديق أولئك الذين ادعوا أنه يمكن أن يكون هناك تسوية ودية للخلافات مع اللوردات.

ومع ذلك، فإن معظم المطالب الأساسية للفلاحين مثلت تحديا للأساس كله الذى اعتمد عليه الأمراء والنبلاء فى حكمهم فى الماضى. وبلغتهم الدينية، قال الفلاحون إنه لا يوجد الآن قانون أعلى مما سنته المحاكم. وكما قال أحد الفلاحين فى اجتماع: "لا أحد غير الرب خالقنا الذى يجب أن يفعل ذلك"[٣١]، "قانون الرب" هو الذى يمثل مصالح الفلاحين عليه أن يحل محل "القانون الموقر" الذى أخضعهم للوردات والكنيسة.

كانت طبقة اللوردات غير قادرة على تقديم تنازلات من شأنها تقويض وضعها الطبقى. وفى نفس الوقت الذى كانت طبقة اللورادت تتظاهر فيها بتقديم تنازلات، بدأوا فى تعبئة جيوش من المرتزقة. وفى أبريل عام ١٥٢٥ شرعت الأحداث تتوالى، وكما يعترف "إلتون":

> **"اهتزت الطبقات الحاكمة فى صميمها وكان رد فعلهم أكثر وحشية من التهديد الذى كان يواجههم، الآلاف – والبعض يقدرهم بمئة ألف – من الفلاحين قتلوا، أكثرهم بعد المعارك المزعومة"[٣٢].**

التمرد أفزع لوثر بشدة. فى البداية، كان شديد الانتقاد للأمراء لإثارتهم كل ذلك الغضب، إلا أنه بمجرد أن بدأت جيوش الفلاحين تحقق مكاسب مهمة، انحاز تماما إلى الأمراء. كتب كراسة بعنوان: "ضد جماعات القتل والسرقة من الفلاحين"، كان يحث فيها الأمراء على استخدام أشد وسائل الانتقام من المتمردين: "لا بد من تمزيقهم وخنقهم وطعنهم سرا وعلانية بواسطة كل من يستطيع القيام بذلك، مثلما يقتل كلبا مسعورا"[٣٣]. كما كتب يطلب من الأمراء ألا يكفوا أيديهم "..... أبيدوا... اذبحوا... دمروا كل من لديه قوة يستخدمها"[٣٤]، وفى رسالة له كان يؤكد أن "من الأفضل فناء كل الفلاحين بدلا من موت الأمراء والحكام"[٣٥].

لم يكن "لوثر" وحده فى ذلك.

"مثلمـــا كان الأمراء يعتبرون المقاومة خيانة للدولـــة، كان الإصلاحيون يعتبرونها خيانة للإنجيل. كان الكل ضد العامة فى 1515، "مارتن لوثر"، "فيليب ميلانكتون-Philip Melanchthon"، "يوهـــان برنـــز- Johannes Brenz"، "أوربـــانوس ريجيـــوس- Urbanus Regius"، "زونجلى- Zwingli"(٣٦).

والحقيقة أنه كان هناك بعض القساوسة الذين اختاروا دعم الانتفاضة، لعل أشهرهم "**توماس مونتسر- Thomas Müntzer**". كان رجل دين ناجحا تخرج فى الجامعة، وانحاز إلى "لوثر" فى صراعاته الأولى مع البابا والإمبراطور؛ إلا أنه فى غضون ثلاث أو أربع سنوات أصبح شديد الانتقاد له بسبب ما قدمه من تنازلات. على نحو متزايد، أصبحت كتابات "**مونتسر**" تذهب إلى ما هو أبعد من الشأن الدينى، لتواجه الاضطهاد والظلم الذى تتعرض له الجماهير. أصبح تحقق وعد المسيحية، بالنسبة له، يعنى التحول الثورى للعالم:

إن أبغض شىء على الأرض، ألا يخفف أحد من عناء الفقير... رؤساؤنا وحكامنا فى الدرك الأسفل من الربا والسرقة واللصوصية... يظلمون الفلاحين والصناع الفقراء... عند أقل هفوة قانونية، يدفع أولئك الفقراء ثمنا فادحا، وهذا هو الدكتور "Liar" [لوثر]، يقول لكل ذلك "آمين"(٣٧).

كان لا بد من أن تثير مثل هذه الكلمات حنق السلطات وغضبهـــم على "**مونتسر**" الذى أمضى معظم العام **1524** مختبئا، يتحرك سرا ويكون جماعات صغيرة من المؤيدين له؛ أما "لوثر" فكان يحث الأمراء على اتخاذ إجراءات ضده؛ وهناك، حتى إلى اليوم، كثير من المؤرخين الذين يعتبرونه مجنونا بالفعل. فى رأى "**إلتون- Elton**"، كان "**مونتسر**": "العبقرية الشيطانية لحركة الإصلاح الباكرة"، و"مفرطا فى تعصبه" و"مجنونا خطرا"(٣٨). ولكن الشىء الوحيد "المجنون" فيـــه،

فكان استخدامه اللغة الكتابية (لغة الكتاب المقدس) المألوفة لكل مفكرى عصره تقريبا، لمقاومة الحكم الطبقى وليس لدعمه.

بعد أن انهزمت الثورة، ذهب "**مونتسر**" إلى "مولهاوزن" فى منطقة المناجم فى "ثورنجيا"، وهناك راح يعمل مع جماعات راديكالية من سكان المدينة بقيادة الكاهن السابق "**فايفر- Pfeifer**"، للدفاع عن المدينة باعتبارها حصنا للثورة. ألقى القبض عليه، وتم تعذيبه وقطعت رأسه – كان فى الثامنة والعشرين من العمر – بعد هزيمة الجيش المتمرد فى "فرانكنهاوزن" على يد أمير "**هيس- Hesse**" **اللوثرى** ودوق ساكسونيا **الكاثوليكى**.

كان لسحق الثورة متضمنات كبيرة بالنسبة للمجتمع الألمانى كله، فقد قوى من وضع كبار الأمراء بدرجة كبيرة، الفرسان الأقل مرتبة، والذين كانوا مستائين من القوة المتزايدة للأمراء ويحلمون بأن يكونوا تابعين لهم نحو ألمانيا إمبراطورية، كانوا قد حملوا السلاح من أجل المسائل الدينية، وأبدوا تعاطفهم مع المراحل الأولى للثورة(٣٩). الآن، كانوا يتبنون مواقف الأمراء باعتبارهم الضمان لاستمرار استغلال الفلاحين. "**أوليجاركية**" المدن، بالمثل، بعد تردد فى البداية، أصبحوا يرون فى الأمراء مصدر حماية لهم ضد الثورة. حتى صغار أبناء المدن لم يجدوا صعوبة كبيرة فى أن يسلموا قيادهم للمنتصرين بعد تمرد جبنوا عن تأييده.

ولكن، بقبولها السلطة الجديدة المعززة للأمراء، فإن الطبقات العليا والمتوسطة كانت تقبل كذلك بأن مصالحها من تكون هى ما يحدد شكل المجتمع الألمانى القادم. كانت الأزمة التى تفاقمت مع نمو عناصر الرأسمالية فى إطار الإقطاع، كانت قد أدت إلى تصاعد ثورى. لكن الثورة تم سحقها مثل ثورات الفترة السابقة إبان الأزمة الكبرى فى كل أوروبا فى القرن الرابع عشر. لم تكن الطبقات المتوسطة فى المدن، حتى وهى تتبنى الأيديولوجية الدينية الجديدة لـ"البروتستانتية"، لم تكن على استعداد لاستخدامها لحشد الطبقات الأكثر معاناة من الاستغلال، فى هجوم على النظام القديم؛ وهكذا لقى الفلاحون هزيمة ساحقة ووجدت الطبقات المتوسطة الحضرية نفسها بلا حول ولا قوة، فى مواجهة قوة الأمراء المتزايدة.

كانت "**البروتستانتية**" الألمانية إحدى ضحايا ذلك الجبن، أما "**اللوثرية**" فبحثها للأمراء ودفعهم، جعلت من نفسها سجينا تاريخيا لهم. كانت مبادئ لوثر الأصلية قد أرخت من قبضة الكنيسة على أبناء أبرشيتها بالجدل حول المساواة بينهم في العبادة، وكما كتب "**ميلانكتون- Melanchthon**"، أحد اقرب المتعاونين مع "**لوثر**"، كتب يقول بعد **1525** "لا بد من أن يكون لدى شعب جامح وفظ مثل الشعب الألماني حرية أقل مما لديهم الآن"(٤٠). كان الأمراء هم المنوطين بفرض هذا الانضباط. أصبحت "**اللوثرية**" سلاحا ذا حدين بالنسبة لهم بعد هزيمة الثورة، فمن ناحية كان بإمكانهم التلويح بها ضد الإمبراطور **الكاثوليكي** الذى كان يريد الزحف على سلطتهم، ومن ناحية أخرى كان يمكن استخدامها للإبقاء على قبضتهم الأيديولوچية على الطبقات التي يستغلونها؛ وعليه كان أن أصبح دين نشأ كرد فعل على أزمة الإقطاع الألماني، هو العقيدة الرسمية في مناطق شمال وشرق ألمانيا حيث أجبر الفلاحون على العودة إلى القنانة، مثلما كانت المسيحية نفسها قد تطورت كرد فعل على أزمة الإمبراطورية الرومانية لكي تتحول إلى أيديولوچية لها. في الوقت نفسه لم يعد فلاحو جنوب ووسط ألمانيا يرون أى سبب يجعلهم يعتنقون "**بروتستانتية**" اصطفت مع المستبدين في **1525**.

وضع ذلك مدن جنوب ألمانيا تحت ضغط متزايد من الإمبراطور والأمراء الكاثوليك في المنطقة لكي يتخلوا عن الدين الجديد. لجأت **أوليجاركيات** المدن للأمراء **البروتستانت** لحمايتهم، إلا أن ذلك ورطهم في الحروب الإقطاعية والأسرية لأولئك الأمراء، وعندما وضع التحالف موضع التجربة في "**الحرب الشمالكلدية- Smalkaldic War**"(*) مع الإمبراطور في **1546**، لم يكن الأمراء

(*) الحرب الشمالكلدية: Smalkaldic War فترة عنف قصيرة ما بين 1546 و1547 بين قوات الإمبراطور "شارل الخامس" والاتحاد الشمالكلدى اللوثرى. (شمالكالدى: نسبة إلى مدينة شمالكالدن (في تورنجن) التي شهدت تأسيس الاتحاد. (المترجم)

البروتستانت، حتى، مستعدين للقتال بجدية، إذ تركوا المدن **البروتستانت** تواجه عربدة الجيـوش **الكاثوليكيـة** المنتصـرة. من هـذه النقطـة فصاعـدا، ستبقى **البروتستانتية** في المدن الجنوبية على مضض، وسوف يعكس اضمحلالها فقدان الطبقات الوسطى الحضرية لاستقلالها.

الحروب الدينية الفرنسية

قصة "**الإصلاح– Reformation**" في فرنسا أشبه بإعادة عرض، بعد ثلاثين سنة، لأحداث في ألمانيا. أدت الأزمة الاقتصادية إلى إفقار الفلاحين والصناع وكل من يعمل بأجر، وإلى مجاعات متكررة وانتشار للأوبئة، وإلى إفلاس الدولة في **1557**. أعداد كبيرة من الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية انقلبوا على الكنيسة، أكبر مالك للعقارات وقبضة عدد محدود من العائـلات الأرستقراطية[٤١]. كـان لـ" **البروتستانتية**" جاذبيتها بين قطاعات من مختلف الطبقات، ولكن، كما أشار "**هنرى هيلر– Henry Heller**": "بقدر ما كانت حركة جماهيرية، كان صغار الصناع والحرفيين والتجار هم جمهورها الرئيسي"[٤٢]. نفس النقطة أشار إليها "**بلزاك– Balzac**"، الروائي الفرنسي الشهير، قبل قرن ونصف القرن، عندما قال:

> **"الإصلاح الديني.... وجد أنصارا له، خاصة، بين أبناء الطبقات الدنيا الذين كانوا قد بدأوا يفكرون. كان النبلاء يشجعون الحركة، فقط، لخدمة اهتمامات غريبة تماما عن الشأن الديني... إلا أن الإيمان كان حقيقيا بين الصناع والمشتغلين بالتجارة، ويستند إلى اهتمامات ذكية"[٤٣].**

كان "**چان كالڤن– Jean Calvin**" ينتمي إلى أسرة فرنسية متوسطة، اضطر نتيجة للاضطهاد للعيش في "چنيف"، وكون رؤية للعالم أكثر اتساقا مع تلك الطبقة من رؤية "**لوثر**". كان "**لوثر**" في البداية يعارض نظام الكنيسة، ثم انصاع بعد ذلك

لنظام الأمراء. "**كالڤن**"، على العكس، كان يؤكد نظام شكل جديد من الكنيسة، تديرها الطبقات المتوسطة الحضرية بنفسها. جعل أتباعه يشعرون أنهم اختيار الله، وحاولوا أن يثبتوا ذلك بأن يكونوا أكثر اعتدالا ورصانة وتحكما فى أنفسهم من أقرانهم، وكانت تلك التوجهات تروق تماما لأسر الصناع والتجار حسنة السمعة، البعيدة عن حياة الأرستقراطية المترفة، ولكنها تخشى طبقة الفقراء "المنحلة" وتزدرى أسلوبها فى الحياة.

> **وقد عبر "هيلر– Heller" عن ذلك بقوله: "كان بعض أهل المدن... يرون أن معظم البشر يقعون فى الفقر لدرجة أن التقدم المادى، أو بالأحرى الثقافى الذى تحقق على مدى قرن، أصبح فى خطر. كانوا على صواب فى رأيهم أن الخطأ كامن فى نظام كنسى وإقطاعى أضاع ثروة المجتمع على الحروب والترف والأبهة. أصبحت ثورتهم محاولة لحماية أنفسهم ضد كل ممن يسيطرون على النظام ومن يعارضونه فى الوقت نفسه، وكان أحد أساليبهم لذلك أيديولوچية للعمل والزهد والانضباط"[٤٤].**

كان "**كالــڤن**" محافظا من الناحية الاجتماعية، ويرى أن النظـــام القائـــم فى المجتمع مقدر من الله، إلا أن دعوته للإصلاح الدينى كان لها، بالضرورة، متضمنـــات اجتماعيـــة. كانت "تستلزم تقدما رئيسيـــا لـــ"بورجوازية" الحضـــر، لا تتضمن درجة من التحرر الاقتصادى فحسب، وإنما نقل الهيمنة فى مجال الدين إليهم كذلك[٤٥]. لم تكن تلك دعوة إلى إعادة صياغة ثورية للدولة: كانت الطبقات المتوسطة الحضرية ما زالت ضعيفة لكى تقوم بذلك؛ ولكنها كانت تنطوى ضمنا على إصلاحات جوهرية، وكان يمكن أن تحمى مصالحهم فى خضم أزمة اجتماعية.

اعتدال "**كالڤن**" الاجتماعى فشل فى تحقيق، حتى، هذه الإصلاحات عندما زادت حدة الأزمة فى المجتمع فى أواخر خمسينيات القرن السادس عشر. بدأ قطاع من النبلاء يهاجم امتيازات الهيئة الكهنوتية للكنيسة بكل مراتبها، وخاضت أسرتان من كبار الأسر الأرستقراطية، هما "**البوربون– Bourbons**" و"**المونتموزنسى–**

Montmorency"، صراعا حادا للوصول إلى العرش، مع الأسرة الثالثة الكبيرة، أسرة "الجيس– **Guises**"، **الكاثوليكية** المتعصبة.

كان لدى الطبقات المتوسطة الفرصة لاستغلال الانشقاق بين النبلاء لتوحيد الفلاحين وفقراء المدن وراءهم فى صراعها من أجل الإصلاح، والمؤكد أن الفلاحين كان لديهم ما يكفى من الشعور بالغضب والاستياء، كما كان لهم تاريخ من الانشقاق ومعارضة الكهنوت؛ ولكن عملا بنصيحـــة "**كالفن**"، ربط القطاع الثورى من الطبقة المتوسطة مصيره بمصير القطاع المنشق من الأرستقراطية. وعندما هب الفلاحون فى منتصف خمسينيات القرن السادس عشر من جراء الفقر الشديد، وقاموا في مواكب دينية يرتلون فيها ترانيم القديسين مع مشاهد من جلد الذات، كانت الطبقات المتوسطة الحضرية تعمل جاهدة على إخلاء المدن منهم. "كان **الكالفنيون** مروعين لجهل وخرافة وحسية أهل الريف"، بينما كان الفلاحون ينفرون من "زهد **الكالفنية**" وظلوا "متعلقين بقديسيهم ومعجزاتهم وقداساتهم، وبرقصهم واحتفالاتهم وكحولهم"[٤٦].

بلغت الأزمة ذروتها فى سلسلة من الحروب الدينية فى ستينيات القرن السادس عشر– بما فى ذلك مذبحة "**يوم بارتولوميو– Bartholomew's Day**" الشهيرة لبعض **البروتستانت** البارزين فى باريس[٤٧]. كانت الاستراتيجية **الكالفنية** للاعتماد على النبلاء، تعنى محاربتهم، بالضرورة، على امتداد خطوط إقطاعية، أى "بواسطة" جيوش يقودها نبلاء، ومكونة فى معظمها بواسطتهم[٤٨]، مع نسيان القضايا الاجتماعية. عاد ذلك بالفائدة على المدافعين عن النظام القديم، حيث كان هناك أعداد كبيرة من النبلاء **الكاثوليك**.

كان لا بد من أن تصبح القضايا الرئيسية غير واضحة بالنسبة للكثير من المشاركين في الحروب الأهلية – مثلما لم تكن واضحة للكثير من المؤرخين الذين لم يروا فيها أى عنصـــر من عناصر الصراع الطبقى[٤٩]. سلوك الأمـــراء **الكالفنيين**– وهو ما يمكــن أن يكون مثل سلــوك خصومهم **الكاثوليك** فاســدا ولا أخلاقيا– كان يمكن أن يصيب الطبقة الوسطى **الكالفنية** بالإحباط فحسب[٥٠]،

بينما كان موقف **الكالفنيين** الازدرائى من الفقراء يشجع الكاثوليك على تنظيم أعمال شغب واضطرابات فى باريس. كما يحدث كثيرا فى التاريخ، كان زعماء تيار معارض يعتقدون أن من "السياسة العملية" الثقة بقطاع من الحكام السابقين – والنتيجة كانت الهزيمة الفادحة.

بطل **الكالفنيين** المختار "**هنرى النافارى– Henry of Navarre**"، استولى أخيرا على العرش بإدارة ظهره لـ" **البروتستانتية**" وأصبح وجود **البروتستانت** مقصورا على مدن معينة محصنة جيدا، قبل طردهم من البلاد بعد قرن. لم تكن هزيمة الطبقة المتوسطة كاملة أو كارثية كما حدث فى ألمانيا. كان ما زال هناك بعض التقدم فى الصناعة والتجارة، وازدهار لبعض رجال الأعمال الناجحين، كما تمكن البعض من "شراء طريقة" إلى طبقة أرستقراطية جديدة (نبلاء الروب– **noblesse de robe**) [نسبة إلى الروب الذى يرتديه شاغلو المناصب العليا فى القضاء والإدارة مثلا]، أو مصاهرة عائلات من الأرستقراطية القديمة (نبلاء السيف– **noblesse d'epée**) [بالنسبة إلى طبقة الفرسان المحاربين]؛ ولكن على مدى قرنين ونصف قرن بعد ذلك، كان عليهم أن يعيشوا فى مجتمع قابل بقمع الطبقة الأرستقراطية وإسرافها وتسلطها، وكما يحدث فى التاريخ كثيرا، كانت الهزيمة هى ثمن "الاعتدال" و"الاحترام" و"الواقعية".

الهوامش

(١) وصفها "ماركس" و"إنجلز" بصور مختلفة باعتبارها "موازنة بين طبقة النبلاء والعامة:

(F. Engels, "The Origins of the Family", London, 1998, p.221);

وباعتبارها موازنة بين الأرستقراطية من ملاك الأراضي والبورجوازية:

(F. Engels, "The Housing Question in K.Marx amd F.Engels, "Collected Works", vol.23 (London, 1988), p.363;

وباعتبارها تخدم طبقة اجتماعية متوسطة ناشئة، سلاحا في صراعها ضد الإقطاع":

(K.Marx, "The Civil War in France", (London, 1996), p.75;

وباعتبارها منتجا للتطور البورجوازي"

(K. Marx, "Capital", vol.1 (Moscow, 1986), p.672.

وعلى العكس من ذلك، يصفها **Perry Anderson** باعتبارها "جهازا للسيطرة الإقطاعية يعاد استخدامه وشحنه... الغطاء السياسي لطبقة نبلاء مهددة":

(P. Anderson, "Lineages of the Absolutist State", (London, 1974), p.18);

أما إذا كانت إقطاعا يعاد استخدامه أو شحنه، فإن ذلك كان من خلال اعتماد النظام الاستبدادي على السوق، والاعتماد على الطبقة العليا الحضرية – أي بالاعتماد على عناصر من الرأسمالية وعناصر من الإقطاع.

(٢) مصطلح "ماركس" في: **K.Marx, "Capital", vol.1, p.686**

(3) K. Marx, "Capital", vol.1, p.686-687.

(٤) للاطلاع على التفاصيل، انظر:

H.Heller, "The Conquest of Poverty: The Calvinist Revolt on 16th Century France", (London, 1986) p.27.

(5) A.G. Dickens, "The Shape of Anti-clericalism and the English Reformation", in E.I. Kouri and T. Scott "Politics and Society in Reformation Europe", (London, 1987), p.381.

(٦) انظر على سبيل المثال:

R.S. Duplessis, "Transitions to Capitalism in Early Modern Europe", (Cambridge,

1997), p.93.

(٧) يحاول "ڤيبر – Weber" فى كثير من كتاباته تقديم مثل هذا التفسير من خلال التفاعل بين عدة عوامل، إلا أنه يقدم قط تعليلا متماسكا. كتابات "ڤيبر" هوامش على التاريخ أكثر منها تناولا للعملية التاريخية الحقيقية.

(٨) هذه الحجة مقبولة حتى لدى Perry Anderson، انظر كتابه "Lineages".

(٩) يقدم "ويتولدكولا– Witold Kula" عرضا جيدا عن ديناميات وتناقضات الاقتصاد الذى ظهر فى بولندا، وضمنا، فى مناطق كثيرة أخرى من أوروبا فى تلك الفترة، وذلك فى:

W. Kula, "Economics of the Feudal System", (London, 1987).

وبالرغم من عنوانه، فإن هذا الكتاب يتناول ما أطلق عليه "إقطاع السوق"، وليس إقطاع أوائل العصور الوسطى الكلاسيكى. يبين الكتاب كيف أن اندفاع الأمراء لشراء السلع الجديدة التى أنتجتها الصناعات المتقدمة فى بريطانيا وهولندا وغيرها، أدى إلى كساد وربما إضعاف الزراعة؛ ولزعم أن هذه النتيجة تنطبق كذلك، ولو فى جزء منها على الأقل، على مجتمعات أخرى من مجتمعات "القيمة الاستعمالية– Use value" و"القيمة التبادلية– exchange value" مثل صين سونج، وبلاد ما بين النهرين العباسية، وهند المغول.

(١٠) انظر:

G.Müilder, "Martin Luther and the Political World of His Time"; E.I. Kouri and T.Scott, "Politics and Society in Restoration Europe", p.37.

(11) H. Heller, "Poverty", p.131.

(١٢) الأمير.

(١٣) انظر، بشكل خاص:

- T.A. Brady, "The Politics of the Reformation in Germany", "New Jersey", 1997);
- P. Blickle, "Communal Reformation", (London, 1992);
- J. Abray, "The People's Reformation", (Oxford, 1985).

(14) P. Blickle, "Communal", p.63.

(15) P. Blickle, "Communal", p. 73.

(16) P. Blickle, "Communal", p. 84.

(17) G.R. Elton, "Reformation Europe", (Glasgow, 1963), p.53-54.

(18) T.A. Brady, "The Politics", p.80.

(19) G.R. Elton, "Reformation Europe", p.64.

(20) A.G. Dickens, "The Age of Humanism and Reformation", (London, 1977), p.152.

(21) P. Blickle, "Communal", p.88.

(22) P. Blickle, "Communal", p.12.

(23) P. Blickle, "Communal", p.13.

للمزيد، وللاطلاع على ترجمة الوثائق، انظر:

T.Scott and B. Scribner (eds), "The German peasants'War", (London, 1991).

(٢٤) للاطلاع على رد نموذجـــي لأحد أوليجارك المدينة "چاكوب ستـــورم- "Jacob Sturm (من ستراسبورج)، انظر:

T.A. Brady, "The Politics", pp. 82-86.

(25) P. Blickle, "Communal", p. 13.

(26) T.A. Brady, "The Politics", p. 83.

كما تجد في: The Peasant War in Germany لفردريك إنجلز (1850) وصفا تفصيليا للحركة في مناطق مختلفة، وكذلك في:

K. Marx and Engels, "Collected Works", vol.10, (London, 1978), pp. 399-477.

وللاطلاع على تاريخ ماركس لايولي اهتماما كبيرا لتفاصيل المعارك، انظر:

E.Belfort Bax, "The Peasants" War in Germany, (London, 1899)

(٢٧) النقاط الاثنى عشرة تجدها في:

T.Scott and B.Scribner (eds), "The German Peasants War", pp. 252-257.

(28) P. Blickle, "Communal", p. 50.

(29) G.R. Elton, "Reformation Europe", p.59.

(30) F. Engels, "The Peasant War", p.449.

(31) V illagers in Shaffhausen,

كما ورد في: P. Blickle, "Communal", p. 48

(32) G.R. Elton, "Reformation Europe", p.59.

(٣٣) كما ورد في: F. Engels, "The Peasant War", p. 419

(٣٤) كما ورد في: L.Febvre, "Martin Luther" (London, 1930), p.258

(٣٥) المصدر السابق- p.258

(36) P. Blickle, "Communal", p. 199.

(٣٧) كما ورد في:

K.Kautsky, "Communism in Central Europe in the Time of the Reformation", (New York, 1966), p.136.

(38) G.R. Elton, "Reformation Europe", p. 58-94.

(٣٩) الأكثر شهرة حالة: Goetz von Berlichingen

(٤٠) كما ورد فى: P. Blickle, "Communal", p. 200

(41) H. Heller, "Poverty", p.137.

(42) H. Heller, "Poverty", p. 70.

(43) Honore de Balzac, "About Catherine de Medici", (London, 1910), p.59.

(44) H. Heller, "Poverty", p. 175.

(45) H. Heller, "Poverty", p. 139.

(46) H. Heller, "Poverty", p. 172.

(٤٧) الجزء المركزى فى الفيلم الحديث La Reine Margot، الذى حظى بإعجاب شديد.

(48) H. Heller, "Poverty", p. 246-247.

(٤٩) انظر: G.B. Elton "Reformation Europe", p.334

(٥٠) حدث ذلك بكل تأكيد "لحلفائهم الأجانب" كانت هناك معارضة قوية فى ستراسبورج – التى كانت ولا تزال جزءا من الإمبراطورية – لتحالف مع نبلاء كالڤينيين، كانوا يريدون شراء منصب أسقف المدينة لصبى من أقاربهم، انظر:

J. Abray "The People's Reformation".

-٣-

آلام مخاض نظام جديـد

لم يكن مصير "الكالفنية" الهزيمة فى كل مكان، "كالفن" نفسه لقى ترحيبا كبيرا واستقبالا جيدا فى "جنيف"، حيث أصبح القوة الفكرية والسياسية المهيمنة فى المدينة، وفرض عقيدة دينية جديدة، غدت شديدة التعصب مثل القديمة تماما. فى **1547**، تم إعـدام شخص يدعى "جـاك جروويـه- **Jacques Gruet**" متهمـا بـ"التجديف" و"الإلحاد"، وفى **1553** تم إحراق لاجئ إسپانى، يدعى "سيرفيتوس- **Servetus**" حيا، متهما بـ"الهرطقة". فرض كذلك "كالفن" نظامه التأديبى من خلال الإبعـاد والطرد والجلد. حـرمت القوانين الزنا والتجـديف وفرضت الحضور الإجبارى للمدارس. كان ذلك فى نظر الكثيرين نظاما مضجرا إلا أنه هيأ ظروفا مثالية لجمع المال والإثراء، وألهم هذا النموذج آخرين فى أوروبا. حتى فى مكان مثل اسكتلندا، حيث كان الاقتصاد متخلفا والطبقة الوسطى الحضرية ضعيفة نسبيا، أصبح لـ"**الكالفنية**" جاذبية فكرية، وبخاصة بين أولئك الذين كانوا يريدون دفع المجتمع إلى الأمام نوعا ما. استطاع الكاهن "**چون نوكس- John Knox**" أن يحشد مجموعة متباينة من الأرستقراط وطبقة ضعيفة من سكان المدن، فى معارضة للملكة **الكاثوليكية** "**مارى ستيوارت- Mary Stuart**"، والأهم أن ذلك كان بمثابة الراية التى هب تحتها سكان المدن المزدهرة إلى جانب الأمراء المحليين فى ثورتهم على الحكم الإسپانى فى الأراضى الواطئة- **The Netherlands**.

التمرد الهولندى

كانت المنطقة المكونة الآن من بلچيكا وهولندا، قد آلت إلى التاج الإسپانى فى القرن الخامس عشر. لم يؤد ذلك إلى خصومـة أو عداء خاص بين السكان

المحليين فى البداية، حيث إنه كان قد حدث قبل مرحلة القومية الحديثة. أمراء الإقطاع أفادوا من خدمة إمبراطور عظيم- حتى 1555، "**تشارلز الخامس- Charle V**"، الفلمنكى المولد، كما أفادت كذلك الطبقات المتوسطة نتيجة استخدام الصوف الإسبانى فى صناعة المنسوجات، وتحقيق أرباح من تصدير السلع المصنعة إلى إمبراطورية إسبانيا الأمريكية. كانت الفضة والذهب تتدفقان من المستعمرات، ثم عن طريق خزائن التاج الإسبانى تنتهى بها الرحلة إلى جيوب تجار البلاد الواطئة. القلب القشتالى لإسبانيا، الذى كان قويا وغنيا فى القرن الخامس عشر، دخل الحقبة كسادااقتصادى امتدت قرونا، بينما أصبحت الأراضى الواطئة أكثر مناطق أوروبا نشاطا وحيوية من الناحية الاقتصادية.

كان التاج الإسبانى قد استخدم سيطرته على الهيئة الكهنوتية **الكاثوليكية**، وبخاصة **محكمة التفتيش- The Inquisition**، لسحق المعارضة منذ تسعينيات القرن الخامس عشر. "**فيليب الثانى- Philip II**"، الذى حكم من منتصف خمسينيات القرن السادس عشر، مضى خطوة أبعد فى هذا الاتجاه، معتقدا أن رسالته كانت محاربة الهرطقة و**البروتستانتية** فى كل أوروبا، وفرض أيديولوچية **كاثوليكية** فى كل مكان، كانت متوافقة مع التخلف المتزايد لاقتصاد قشتالة؛ وفى إسبانيا كان ذلك يعنى اعتداء على استقلالية قطالونيا، وقمع الأقلية الموريسكية، أما فى البلاد الواطئة فكان يعنى هجوما ضاريا على الأرستقراطية المحلية والأقليات **البروتستانتية**، التى كانت تتنامى بين الطبقات الحضرية، وكان ذلك كله مصحوبا بضرائب متزايدة على الجماهير، فى فترة أزمة اقتصادية طاحنة.

كانت الموجة الأولى من التمرد فى أواخر ستينيات القرن السادس عشر، مع بداية اشتعال الحروب الدينية فى فرنسا. انتقلت "**الكالفنية**" من المدن الجنوبية لكى تنتشر فى المدن الشمالية مع موجة من الثورة على المعتقدات القديمة وتحطيم الأيقونات والصور الدينية – **Iconoclasm**- ونهب الكنائس. قام **دوق ألبا الإسبانى (Spain's Duke of Alba)** بسحق التمرد وزحف على بروكسل بجيش من عشرة آلاف جندى، ليقتل أعدادا كبيرة كان من بينها **كونت "اجمونت" الكاثوليكى-**

The Catholic Count of Egmont، الذى كان ضد المقاومة المسلحة مثل باقى الأرستقراطية المحلية. بعد عقد، كان هناك تمرد آخر ناجح فى الشمال، حيث لقى دعما من بعض النبلاء- كان أكثرهم أهمية **أمير أورانج- Prince of Orange**، وأقام دولة مستقلة باسم المقاطعات المتحدة- **United Provinces**، (التى عرفت فيما بعد بالجمهورية الهولندية). ازدهرت مدن وتجارة الدولة الجديدة بدرجة كبيرة، وعلى مدى أكثر من قرن كانت أكثر مناطق أوروبا حيوية من الناحية الاقتصادية لتحل محل البرتغال فى مستعمرات جزر الهند الشرقية، وربما تهدد حتى سيادتها فى البرازيل. على النقيض من ذلك، كان الأمراء فى الجنوب قد نأوت بأنفسهم عن الصراع، الأمر الذى مكن الجيش الإسبانى من استعادة المدن؛ والآن كانت أماكن مثل "جنت- **Ghent**" و"برجز- **Bruges**" و"أنتويرب- **Antwerp**" والتى كانت فى صدارة التقدم الاقتصادى قبل **300** عام، كانت تدخل الآن مرحلة طويلة من الركود.

حرب الثلاثين عاما

توقف القتال بين هولندا وإسبانيا بعقد هدنة لمدة **12** سنة، فى **1609**، إلا أن حربا دينية كبيرة أخرى اندلعت على بعد مئات الأميال غربا، قبل أن تنتهى الهدنة. استمرت الحرب لمدة **30** سنة فوق معظم الأراضى بين الراين والبلطيق لتخلف خرابا ماديا كبيرا وخسائر فادحة فى الأرواح. انخفض عدد سكان ألمانيا بمقدار الثلث تقريبا، عما كان عليه قبل أن تبدأ الحرب.

كل من يقرأ عن هذه الحرب اليوم لا بد من أن تصيبه الحيرة بسبب طبيعتها المتعددة الألوان والأطياف. تحالفات كثيرة تطونت وتفككت. كانت تشتعل فى طرف من أطراف القارة، لتنفجر فى اليوم التالى على بعد مئات الأميال. تبدو قضية وقد أوشكت على الحل، لتظهر أخرى أكثر تعقيدا. جيوش كاملة غيرت انحيازاتها. كان هناك محاربون بالألوف ممن يعتبرونها حرب مبادئ دينية ومستعدون للموت فى سبيلها، بيد أن الأمراء البروتستانت دعموا إمبراطورا **كاثوليكيا** فى مرحلة ما،

وفى مرحلة أخرى كان البابا وفرنسا **الكاثوليكية** يدعمون ملك السويد **البروتستانتى**. أكثر قادة الحرب حنكة اغتاله كبار ضباطه بإيعاز من حاكمه؛ ويبدو أن الملامح الثابتة الوحيدة كانت جيوش المرتزقة، والقرى المنهوبة، والفلاحون الجياع، والمدن المحترقة – وهو عالم صوره ببراعة "**برتولد برخت**– **Bertolt Brecht**" فى مسرحيته الملحمية "**الأم شجاعة**"، المناهضة للحرب. لا عجب إذن أن تكون هذه الحرب سبب خلاف شديد بين المؤرخين، مثل أى حرب أخرى فى التاريخ(1)، بيد أننا يمكن أن نجد وسك ضباب الأحداث نموذجا بعينه.

كانت إسپانيا ولا تزال القوة الأعظم فى أوروبا فى العقد الأول من القرن السابع عشر. كان حكامها، وهم فرع من أسرة **الهابسبورج**– **The Habsburg**، ما زالو يعتمدون على فرض عقيدة **كاثوليكية** صارمة، وسيلة لتدعيم سلطانهم فى كل أراضى التاج – ليس فى قشتالة فحسب، ولكن فى الممالك الأيبيرية الأخرى كذلك فى أراجون (وبخاصة قطالونيا) والبرتغال (التى تمكنوا من إحرازها) والأمريكتين (التى قاومهم فيها تمرد "هندى" قوى فى شيلى لفترة قصيرة كانوا فيها فى موقف الدفاع)، وأجزاء رئيسية من إيطاليا (بما فى ذلك دوقية ميلانو ومملكة نابولى) والأراضى الواطئة الجنوبية. كانو، كذلك، يعدون العدة لغزو الأراضى الواطئة الشمالية.

كان الفرع الثانى من أسرة "**الهابسبورج**"، أباطرة "**الإمبراطورية الرومانية المقدسة**" للأمة الألمانية، كان متحالفا مع التاج الإسپانى. كانوا يحلمون بتحويل إمبراطوريتهم إلى مملكة مركزية تضم كل أوروبا من الأطلنطى إلى الحدود مع الأتراك العثمانيين، إلا أن معظم أجزاء الإمبراطورية كان ولا يزال يديرها حتى ذلك الحين أمراء أقوياء مستقلون. كانت السلطة الحقيقية الوحيدة للأباطرة فى أراضيهم النمســـاوية الخاصة، وحتى هناك، كانت سلطة مقيدة إلى حد بعيد من قبل **المجالس**– **the estates**– (ممثلو اللوردات والفرسان وأوليجاركيات المدن). كانت تلك "**المجالس**" متمسكة بحقها فى إقرار السياسات الأساسية، وفى أكبر جزء من الأقاليم النمساوية – مملكة بوهيميا – كان لها سلطة اختيار ملك، ينبغى ألا

يكون من **الهابسبورج**. كان هناك فصيل فى البلاط الإمبراطورى يرى أن فرض أسلوب من الامتثال الدينى على النموذج الإسپانـــى هو السبيل لسحق مقاومة السلطـــة الإمبراطورية.

فى ستينيات القرن السادس عشر، كان هناك تدعيم وتنظيم لعقيدة **كاثوليكية** مع حركة "**الإصلاح المضاد**– **Counter Reformation**". كان مجلس الكنيسة فى "**ترنت**" قد استقر على عقيدة عامة كان المطلوب أن تقوم كل الهيئة الكهوتية **الكاثوليكية** بترسيخها. نظام دينى جديد، هو "**الچيزويت**– **Jesuits**" يقوم على وعى أخلاقى بالانضباط والحماسة الدينية والصرامة الفكرية، مختلف تماماعن الفساد والانحلال الذى كان يميز الكنيسة فى الماضى. أصبح هذا النظام هو الطليعة فى محاربة البروتستانتية، وبخاصة بين صفوف الطبقة العليا الأوروبية، مكونا شبكات من التابعين الأرستقراط فى كل مدينة يستطيع أن يعمل بها.

كانت **كاثوليكية "الإصلاح المضاد**" ملائمة تماما لحكام إسپانيا، كما كان غزو "**الچيزويت**" للطبقة الحاكمة الأوروبية، كذلك، وسيلة لاستكمال القوة العسكرية الإسپانية بقوة أيديولوچية. بمجرد أن بدأت هذه العملية، كان لها منطقها الخاص. كان التراخى البابوى فى أوائل القرن السادس عشر يتمثل فى هيئة كنسية، كانت أحيانا رصينة كما هى فاسدة، تاركة فكر وفن **النهضة** يزدهر. كان الجيل الأول من "**الچيزويت**" قد ورث بعض تقاليد **النهضة**، واكتسبوا سمعة طيبة لدورهم التربوى واهتمامهم بفعل الخير[٢]؛ إلا أن "الإصلاح المضاد" و"**الچيزويت**"، على نحو خاص، سرعان ما أصبحوا مقترنين بالإجراءات المشددة ضد أى فكر نقدى، وليس ضد الهرطقة الصريحة فحسب. حظرت البابوية كل كتابات العالم الدينى الكبير "**إراسموس**– **Erasmus**"، وكل ترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات الحية، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح، حتى، أسقف طليطلة، الذى كان قد قام بدور مهم فى "**مجلس ترنت**" مضطهدا من محكمة التفتيش، متهما بالهرطقة[٣]. ساءت سمعة "**الچيزويت**" لأنهم أصبحوا مستعدين دائما لتبرير أى سياسة لأتباعهم من

الأرستقراط، على أساس أن "الغايات" وهى خلاص الناس، كانت تبرر "الوسائل" أيا كانت. كان هناك "الانتصار" داخل "مجتمع يسوع" لمذهب يملك سلطة لا عقلانية وإخضاع تام للشخصية فى خدمة كيان وحشى"[٤].

كاثوليكية الإصلاح المضاد وجناحا أسرة **الهابسبورج**، كان لهما عدو مشترك كبير – البلاد، الواطئة الشمالية **البروتستانتية**، المتحررة والمعادية لـ"**الهابسبورج**"، وكما عبر عن ذلك المؤرخ التشيكى "**بوليسنسكى– Polisensky**": "كانت أوروبا ممزقة فى داخلها... الأراضـــى الواطئة المحررة من جهة، والإسبان من جهة أخرى... أصبحتا بؤرتى تجمع قوى مؤثرة على القارة كلها"[٥].

إلا أن الحرب لم تنشب على حدود الأراضى الواطئة، وإنما فى بوهيميا على بعد **400** ميلا. كانت مملكة بوهيميا، التى تضم اليوم جمهورية التشيك وسيليسيا، ذات أهمية مركزية بالنسبة لـ"**الإمبراطورية الرومانية المقدسة**"، إذ كانت أكبر دولها وبيت البلاطات الإمبراطورية على مدى النصف الثانى من القرن السادس عشر، على أنها كانت حالة شاذة فى إمبراطورية واقعة على نحو متزايد تحت نفوذ أيديولوچية الإصلاح المضاد المجتاحة من إسبانيا، مع تمجيدها لسلطة ملكية وخوف من الانشقاق أيا كان شكله. كانت بوهيميا تتميز بأمرين: سلطة **المجالس** غير الملكية، والتسامح مع جماعات دينية متعددة كانت قد بقيت منذ تسوية "**الحروب الهوسية– The Hussite Wars**" قبل **170** عاما، وإلى جانب الكاثوليك، كان هناك أيضا "غلاة– **ultraquists**"[٦] و"لوثريون" و"كالفنيون". كان ذلك تحديا كبيرا لكل أيديولوجية "**الإصلاح المضاد**"، مثلما كانت سلطة "**المجالس– the estates**" تحديا للحلم الإمبراطورى بإقامة ملكية ألمانية مركزية على النموذج الإسبانى.

كان السبب المباشر للحرب، هو محاولة التضييق الشديد على الحرية الدينية فى المملكة. بدأت السلطات الإمبراطورية تعمل على إضعاف الكنائس **البروتستانتية** من خلال إجراءات مثل القبض على بعض رموزها، ومراقبة المواد المطبوعة، وحرمان **غير الكاثوليك (90%** من السكان**)** من الوظائف العامة؛ وعندما شكا ممثلو

"**المجالس**" **البروتستانتية** رفض الإمبراطور احتجاجاتهم وأعلن أن اجتماعات مجالسهم غير قانونية، وكان الرد أكثر غضبا، وأبرز مثال على ذلك حدث براغ الشهير فى **1618**، عندما ألقى ممثلو "**المجالس**" ببعض كبار المسئولين من نافذة على ارتفاع **60** قدما، (ولولا سقوطهم فوق كومة سماد عضوى لكانت العاقبة وخيمة) وجاؤوا بأمير **بروتستانتى** من ألمانيا، "**فردريك البالاتينى**- **Frederick of the Palatinate**" ليحل محل "**فرديناند الهابسبورجى**- **Habsburg Ferdinand**" ملكا على بوهيميا.

اعتبر "**الهابسبورج**" الصدام مع "**المجالس**" **البوهيمية** الجولة الأولى فى معركة أكبر مع البلاد الواطئة وحلفائها، بيد أنه كان هناك، وراء ذلك، صراع أعمق- بين نهجين مختلفين للتعامل مع التغيرات التى كانت تمر بها أوروبا كلها، بعد أن حولت السوق نظام الاقطاع القديم.

لا يعنى ذلك أن "**المجالــس**" **البوهيمية** كانت تقف بشكل صريــح مع "الرأسمالية" أو "البورجوازية" ضد الإقطاع. كانت "المجالس" تمثل ثلاث شرائح من المجتمع – ليس أهالى الحضر فحسب، وإنما (وبنفوذ أكثر منهم) التجمعين الإقطاعيين الآخرين لكبار اللوردات (علية القوم) والفرسان. لم يكن حتى ممثلو أهالى الحضر بورجوازيين تماما، حيث كانوا فى الغالب يمتلكون أراض يديرونها بالأسلوب الإقطاعى، ولكن كانت هناك تغيرات تجرى، كان من شأنها أن تضعف الطبيعة الإقطاعية للحياة الريفية فى مناطق بوهيميا، كما يشير "**بوليسنسكى**". كان الكثير من أصحاب الأراضى والأمراء وأهالى الحضر قد بدأوا يستخدمون أسلوب الإيجار المحدد القيمة المالية بدلا من العمل بأسلوب القنانة أو الإيجار العينى (دفع الثمن سلعا)، وزراعة محاصيل صناعية، وتشجيع نمو تجمعات سكنية صغيرة وأشكال من المنتجات اليدوية على أراضيهم. كان هناك دافع لتحسين أساليب الإنتاج فى الزراعة والصناعة وانتشار أسلوب العمل الحر لقاء أجر، أما العمل "غير الحر" الذى كان على الفلاح أن يقدمه فكان يمكن ألا يتجاوز يوما واحدا فى السنة. لم يكن الإقطاع قد انتهى تماما فى بوهيميا، ولكن أشكالا جديدة من الإنتاج

التى تحمل جنين الرأسمالية، كانت قد بدأت تغير من طبيعته؛ وكما يقول "**بوليسنسكى**": "كانت البنية الكلية للنظام الإقطاعى قد بدأت تضمحل تحت وطأة سلسلة من الضغوط التى كانت تتجه لتحرير الإنتاج من قيوده"(٧)، وكانت النتيجة أن بوهيميا كانت فى حالة نشاط اقتصادى ولم تعان، على الأقل حتى تسعينيات القرن السادس عشر، من الكساد أو الفقر مثلما حدث فى الأراضى الألمانية المجاورة.

كان نظام الحكم والإدارة عن طريق "**المجالس**"، بما فيه من توازن واع بين المصالح المختلفة والتسامح الدينى، يوفر الإطار اللازم لحدوث هذا التغير الاقتصادى بشكل هادئ. كان ممثلــو الشرائح الثلاث فى "**المجالس**" يدركــون الأسباب التى تمكنهم من التعايش فى سلام وبما يعود عليهم من فائدة، حتى أن بعض كبار الإقطاعيين وجدوا أنفسهم يقاومون قوى كانت تحاول إعادة أوروبا كلها إلى النظام الإقطاعى.

لم تكن تلك، على أية حال، نهاية القصة كما أظهر مسار الحرب، ففى مرحلة الإعداد لها، انحاز بعض كبار الإقطاعيين إلى الإمبراطورية و"**الإصلاح المضاد**"، ما جعل كثيرين يتحولون إلى "**جيزويت**". حتى أولئك النبلاء الذين كانوا شديدى الولاء للمسألة البوهيمية كانوا ينظرون إلى الحرب من مواقفهم الطبقية، مثيرين بذلك سخطا كبيرا بين أهالى الحضر، كان له أثره فى إضعاف المجهود الحربى.

المراقبون فى بــلاط الملك **البروتستانتــى** "أذهلتهم لا مبالاة أو قســوة "**فردريك**" وحاشيته تجاه الفلاحين التعساء"(٨)، شخصية بارزة واحدة هو النمساوى "**تشيرنجى**– **Tschernembi**"، هو الذى كان يقول: "إذا تم تحرير الأقنان والغيت القنانة.... سيكون العامة مستعدين للقتال من أجل وطنهم"(٩). لم يستمع إليه أحد.

بالرغم من أن الجيوش البوهيمية زحفت مرتين على العاصمة الإمبراطورية ڤيينا، كانت مجبرة على التراجع فى المرتين، حيث لم تجد الجيوش المعادية عقبة كبيرة أمام تقدمها فى الأراضى البوهيمية، وبعد أن منى جيش بوهيميا بهزيمة كبيرة فى **1620** فــ"**معركة الجبل الأبيض**"، فر الملك **البروتستانتى** والقادة النبلاء

من البلاد بدلا من العودة إلى "براغ" لشن مقاومة أكبر. انتهت الحرب بالهزيمة، ليس لأن "**المجالس**" كانت تفتقر إلى وسائل الانتصار على الإمبراطورية، ولكن لأن المصالح الطبقية لقادتها حالت دون استخدام تلك الوسائل.

كان قادة بوهيميا قد اعتمدوا على الحكام **البروتستانت** فى أماكن أخرى فى أوروبا لكى يهبوا للدفاع عنهم ولكن أملهم خاب. انسحب الاتحاد البروتستانتى للأمراء الألمان من الحرب قبل معركة الجبل الأبيض. رفضت الحكومتان الهولندية والإنجليزية القيام بأى أعمال عدائية جديدة ضد إسبانيا، (كان "**فردريك**"، ملك بوهيميا متزوجا من إحدى أخوات **جيمس الأول James I** ملك إنجلترا)؛ وباعتبارها قوى تجارية كانت تزداد نجاحا، قدمت معاركها من أجل التجارة على التزاماتها الدينية المفترضة. إلا أن تجنب الحرب البوهيمية لم يضع حدا لمعاناة الأمراء الألمان **البروتستانت** ولا الهولنديين من جرائها. التاج الإسبانى، مبتهجا بالانتصار الذى حققه، مضى فى طريقه لغزو الأراضى البالاتينية الواقعة بين أراضيه والأراضى الواطئة أو هدفه الثانى. اضطر ذلك الهولنديين والإنجليز للتصرف – بتقديم المال والدعم العسكرى فى "البالاتين". هدد ذلك أيضا بتغير توازن القوى فى أوروبا ليلحق الضرر بكل من الأمراء الألمان والمملكتين الفرنسية والسويدية، ومن ثم كانت فرنسا **الكاثوليكية** والسويد **اللوثرية حلفاء** لهولندة **الكالفنية**، مع دعم من البابا الذى كان يخشى النفوذ الإسبانى المتزايد فى إيطاليا باعتباره خطرا على أراضيه البابوية.

فى لحظة ما، بدت الإمبراطورية على مقربة من النصر، تحت قيادة البوهيمى اللامع "**فالنشتاين– Wallenstine**" الذى كان قد تحول إلى **الكاثوليكية**. إلا أن "**فالنشتاين**" لم يكن مجرد شخص مكروه من البوهيميين **البروتستانت** الذين كان قد خانهم. كان بالإضافة إلى ذلك قد روع الأمراء **الكاثوليك** فى ألمانيا عندما كان يبدو على وشك تأسيس إمبراطورية يمكن أن تقضى على قوتهم المستقلة، كما كان قد عادى دعاة **الكثلكة** الكاملة للإمبراطورية عندما قاوم مطالبهم بالعودة إلى الأوضاع الاجتماعية التى كانت قبل **200** عام. كانت تجربته فى إدارة ممتلكاته

التى جمعها فى بوهيميا وأماكن أخرى – بمساعدة "**دى ويت– De Witte**"[١٠] وكان مصرفيا بروتستانتيا هولندى الجنسية – قد أقنعته بأهمية أشكال أحدث من التنظيم الاقتصادى، ومعها درجة من التسامح الدينى[١١]. تخلى عن معارضة الغلاة، أزيح مرتين عن منصب قائد الجيش، وتم اغتياله بعد ذلك بإيعاز من الإمبراطور[١٢]، وكما يقول "**بوليسنسكى**": "فى التحليل الأخير، كان وراء سقوط "ڤالنشتاين" ماهو أبعد من الأحقاد الشخصية، كانت القضية الأساسية هى نظامه الاقتصادى المضاد لسلطة الإقطاع المطلقة"[١٣].

إلا أن أساليب الغلاة والمتشددين لم تؤد إلى الانتصار فى الحرب التى استمرت **14** عاما أخرى بعد موت "**ڤالنشتاين**"، مع تقلبات وتحولات فىَ الولاءات لم تتوقف، كان يتزايد تمركزها حول الملكيات المستبدة المتنافسة فى إسپانيا وفرنسا. عندما انتهت الحرب، كان القليلون ممن يشاركون فيها بدور كبير، هم الذين يستطيعون التعرف على بقايا قضاياهم الرئيسية. كل ما كان يمكن رؤيته هو دمار ألمانيا والتكلفة الاقتصادية فى كل مكان. تم التوصل إلى السلام فى آخر الأمر بموجب معاهدة وستفاليا فى **1648**، على خلفية قلق اجتماعى وسياسى للجميع – تمرد فى قطالونيا والبرتغال داخل الإمبراطورية الإسپانية، صدام بين أمير أورانج وتجار البلاد الواطئة الشمالية، بداية التمرد السياسى فى فرنسا المعروف بالـ"**فروند– Fronde**". دمرت الحرب كل الأطراف التى بدأتها. أخضعت بوهيميا لحكم استبدادى إقطاعى مدمر، حيث أصبحت الأرض فى أيدى أمراء، جل همهم هو نهب أكبر قدر من الناتج بصرف النظر عن الإنتاجية. انتهى الاهتمام بالأساليب التقنية الجديدة الذى اتسم به القرن السادس عشر، حيث أصبح على الفلاحين أن يكرسوا نصف وقتهم للعمل دون مقابل[١٤]. المدن التى أفرغتها الحرب من أهلها أصابها الكساد تحت ضغط الديون والدمار المادى، وما كان ذات يوم أحد مراكز أوروبا الثقافية أصبح مناطق إقليمية معزولة. كان أحد الأمثلة الدالة على هذا التغير اندثار اللغة التشيكية تقريبا لمدة **200** سنة، باستثناء الريف، بينما أصبحت اليونانية هى اللغة السائدة فى المدن[١٥]. الصدام بين الأساليب الجديدة لكسب العيش وقيم

الحياة الاجتماعية القديمة، كان قد تم حسمه فى بوهيميا بتدمير القديم للجديد على نحو عنيف ودموى. كان الثمن فادحا، لفشل الثورة فى السنوات الأولى للحرب.

فقد التاج الإسبانى الكثير كذلك. حتى قبل الحرب، كانت هناك مؤشرات على التدهور الاقتصادى فى قشتالة، إلا أن القوة العسكرية كانت تحاول إصلاح الوضع، وفى **1648** كانت الظروف قد تغيرت. كان التاج قد فقد البرتغال، وإن كان قد استطاع أن يبقى على قشتالة وإمبراطورية فى أمريكا اللاتينية والفيليبين وأجزاء من إيطاليا والأراضى الواطئة الجنوبية؛ إلا أن مكاسب الإمبراطورية راحت تتدفق، على نحو متزايد، فى أماكن أخرى بينما أصبحت شبه جزيرة أيبيريا إحدى المناطق المتخلفة فى أوروبا.

كان الأمراء الألمان من بين المنتصرين فى الحرب، بما أنهم كانوا يستطيعون ممارسة نفوذ مستقل بعد أن انتهت، وأكبر حتى من نفوذهم عندما بدأت، إلا أن الشعب الألمانى دفع ثمن ذلك. الممالك الممزقة، المنفصلة عن بعضها البعض بالمراكز الجمركية والمتورطة باستمرار فى مؤامرات أسرية ضد بعضها بعضا، لم توفر قاعدة للتغلب على الخلل الاقتصادى والاجتماعى الكبير الذى أحدثته الحرب. فى مطلع القرن السادس عشر كان جنوب ألمانيا واحدا من أكثر مناطق أوروبا تقدما من الناحيتين الحضرية والاقتصادية – المؤكد أنه لم يكن كذلك فى أواخر القرن السابع عشر[١٦].

خرجت فرنسا من حرب الثلاثين عاما، كما كانت قد خرجت من الحروب الدينية فى القرن السابق – ملكية أكثر قوة (بالرغم من فترة التمرد القصيرة التى عرفت بالـ"**فروند**")، نمو شديد البطء فى التمركز الاقتصادى ومعدل أكثر بطئا فى أشكال التنظيم الاقتصادى المفارق للأساليب الاقطاعية القديمة، وإذا كان حكامها قد حققوا مكاسب قليلة من الحرب، فإن الكتلة الأعظم من الجماهيــر لم تحقق شيئا.

كان "المكسب" الحقيقى الوحيد من الحرب هو بقاء الجمهورية الهولندية المستقلة وطبقتها الحاكمة الجديدة التى تقوم على أساليب رأسمالية؛ وبين كل دخان

قرن وربع القرن من "**الإصلاح**" والدمار الذى أحدثته الحروب الدينية والأهلية، كان جزء واحد صغير من أوروبا قد شهد تأسيس دولة تقوم على أسلوب جديد فى تنظيم الحياة الاقتصادية. ومع توقيع "**صلح وستفاليا**"، كان هناك تطور آخر على الجانب المقابل من بحر الشمال فى طريقه للاكتمال، بأساليب عنيفة وإن بتكلفة أقل.

الثورة الإنجليزية

فى يناير **1649**، قطعت بلطة جلاد رأس "**شارل الأول- Charles I**" ملك إنجلترا واسكتلندا. هز الحدث كل أوروبا(١٧). قطع الحكام فى أرجاء القارة – **الكاثوليك** و**اللوثريون** و**الكالفنيون** – العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الإنجليزية(١٨). كانت قد انتهكت مبدأ مشتركا، وهو حق البعض فى حكم الآخرين بموجب الميلاد.

كان من أصدروا الحكم بالإعدام أبعد ما يكونون عن الجمهوريين المتطرفين، إذ قبل **20** شهر فقط، كان زعيمهم "**كرومويل- Cromwell**" قد دفع عن مبدأ الملكية قائلا: "لا أحد كان يستطيع أن ينعم بحياته وممتلكاته فى هدوء دون أن ينال الملك حقوقه"(١٩). الآن كان يقول: "سنقطع رأسه وعليه تاجه". كان "**كرومويل**"، رغما عنه، يفتح الباب أمام عهد جديد يعترض على ادعاء حق إلهى للبعض يجعلهم فوق الآخرين.

هناك روايات دارجة عن الثورة الإنجليزية ترى أنها كانت نتيجة – لا أكثر – لمناورات بين متنافسين فى إطار نخبة متجانسة من الطبقة العليا من أجل المكانة الاجتماعية. مثل هذه الروايات يوضح علاقات النسب والصلات الأسرية التى تربط بين شخص ما من طبقة عليا بآخر، وتفسر المعارك وعمليات قطع الرؤوس التى نجمت عن المؤامرات والمؤامرات المضادة وخرجت عن السيطرة.

مثل هذه التفسيرات تفضل فى تقديرها لسنة **1649** باعتبارها لم تكن انعطافة تاريخية بدرجة ما. كانت أحد نتاجات الصدام بين نفس القوى الاجتماعية التى كانت قد مزقت أوروبا على مدى قرن ونصف القرن. قوى كانت قد انطلقت من عقالها بعد أن نشأت علاقات السوق عن النظام الإقطاعى لكى تغيره. لم تكن تلك القوى تتضمن رجال البلاط والسياسيين المتنافسين فحسب، وإنما كانت تنطوى كذلك على مصالح تجارية، أشبه بتلك التى كانت قد التمرد الهولندى: كانت تتضمن صناعا وتجارا مثل أولئك الذين حملوا "**الإصلاح**" عبر جنوب ألمانيا أو أحرقوا على الخازوق فى فرنسا؛ كما كانت تتضمن احتجاجات فلاحية، أصغر كثيرا من ناحية الحجم، ولكنها لا تختلف فى طبيعتها عنها فى "**حرب الفلاحين الألمانية**" فى **1525**. كانت المفاهيم الدينية المتنافسة التى جاء بها "**الإصلاح الأوروبى**"، هى الرابط بين أطراف "**الحرب الأهلية الإنجليزية**".

استهلال هادئ

مثل "الإصلاحات الأميرية" فى بعض المناطق الألمانية، كان "**الإصلاح**" فى إنجلترا بمرسوم ملكى. كان "**هنرى الثامن– Henry VIII**" قد قطع علاقته بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية لأسباب دبلوماسية، وربط معظم الطبقة الحاكمة الإنجليزية بسياسته، ببيع أراضى الأديرة السابقة بأسعار زهيدة.

إلا أن "**الإصلاح**" فى إنجلترا كان ينطوى على ما هو أكثر من مجـــرد المصلحة الشخصية الأميرية وجشع الطبقة العليا. "**الإصلاح**" ضرب جذوره بين كل من كانوا منفتحين على رؤية جديدة للعالم، وخاصة بين طبقات التجار والصناع وملاك الأراضى من الطبقة العليا، ويبدو أن تلك الرؤية الجديدة كانت تدرك معنى المجتمع المتغير.

فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، انطمست الثغرة التى كانت تفصل بين **الإصلاح** من أعلى و**الإصلاح** من أسفل فى إنجلترا. التجربة المريرة

المتمثلة فى محاولة إعادة فرض **الكاثوليكية** القديمة عنوة تحت "**مارى تيودور– Mary Tudor**" (كانت متزوجة من "**فيليب الثانى– Philip II**" ملك إسبانيا) جعلت من حصلوا على أراضى الكنيسة من الطبقة العليا يقفون كتفا بكتف مع "**البيوريتان**" من سكان الحضر، دعما لخليفتها "**الملكة إليزابيث الأولى– Queen Elizabeth I**".

كان مما شجع على ذلك التغير الاقتصادى المستمر، وإن كان بطيئا، بالرغم من أن إنجلترا كانت ولا تزال واحدة من أكثر دول أوروبا المتخلفة اقتصاديا. زاد عدد السكان بأكثر من الضعف بين **1500** و**1650**[٢٠]، وفى نهاية تلك الفترة كان هناك أكثر شخص من بين كل **12** شخصا يعيش فى المدن. زاد إنتاج الصناعات الحرفية – وخاصة المنسوجات زيادة كبيرة، وكذلك التعدين وصناعة الحديد. ألوف كثيرة من البشر كانوا يعملون فى صناعات ريفية بالإضافة إلى من كانوا يعملون فى المدن، لدرجة أن **60%** من الأسر فى منطقة "فورست أوف آردن– **Forest of Arden**" كانوا يعملون بصناعة الأقمشة كما كان هناك نحو **100000** من الريف يعملون بصناعة الجوارب[٢١]، بينما زادت كثيرا حصة الأراضى فى أيدى المزارعين الأفضل حالا، الذين كانوا يستطيعون استخدام عمالة إضافية بأجر. بدأ عدد قليل من أبناء الطبقة العليا يكتشف إمكانية الحصول على دخل أكبر، ومضمون، عن طريق الإيجار طويل المدى للمزارعين الميسورين – الذين يمكن أن يستخدموا عاملين بأجر ويحسنون التربة – بدلا من دفع صغار الفلاحين إلى ما دون حد الكفاف.

كان المجتمع لا يزال يحمل الكثير من ملامح الإقطاع. كثير من أبناء الطبقة العليا والأرستقراط كانوا يستنزفون الفلاحين، ورغم أن القنانة كانت قد اختفت فى زمن "**الطاعون الأسود– Black Death**"، كانوا لا يزالون يستطيعون ابتزاز الكثير من المدفوعات الإقطاعية. كانت فلاحة معظم الأراضى ما زالت تتم بواسطة فلاحين صغار أو متوسطين وليس بواسطة مزارعين رأسماليين يستخدمون عمالة بأجر. كان الصناع والحرفيون، وليس عمال الأجر، هم الأغلبية فى معظم الصناعات. كان أبناء الطبقة العليا ما زالوا يسعون لزيادة دخولهم عن طريق

عطايا البلاط – ما كان بدوره يأتى من الضرائب – مثلما هو عن طريق تحسين ملكياتهم الزراعية. التجار الأكثر نفوذا كانوا يعتمدون على الاحتكارات التى يمنحها لهم الملك، الأمر الذى كان يؤدى إلى ارتفاع الأسعار بالنسبة للجميع ويثبط الصناعات الأخرى. إلا أن الترتيبات التى تمت فى الفترة من منتصف خمسينيات القرن السادس عشر إلى منتصف العقد الأول من القرن السابع عشر، مثل تلك التى تمت فى بوهيميا قبل "حرب الثلاثين عاما"، هذه الترتيبات مكنت من تقدم اقتصادى بطيء، صحبه تكون جنينى، بطيء كذلك، للأساليب الرأسمالية الجديدة.

كانت هناك صراعات دينية ذات طبيعة سياسية أثناء تلك الفترة، كما شهد الجزء الأخير من حكم "**إليزابيث**" اضطهاد وهجرة بعض **الكالفنيين** "**البيوريتان**"، وشهد تولى "**چيمس السادس James VI**"، ملك اسكتلندا عرش إنجلترا فى الوقت نفسه باسم "**چيمس الأول– James I**" شهد مؤامرة فاشلة، هى "**مؤامرة البارود– The Gunpowder Plot**"، التى تضمنت بقايا بعض كبار ملاك الأراضى الكاثوليك. تميزت تلك الفترة على العموم بدرجة كبيرة من التوافق بين الملكية وكبار الملاك والطبقـــة العليا والهيئة الكهنوتية للكنيسة الوطنية والتجار، وتجلى ذلك فى بنيـــة دستورية يعين فيها الملك وزراء لإقرار السياسات، ولكنهم يعتمدون فى تطبيقها وتمويلها على دعم مجلس البرلمان– "**مجلس اللوردات– The House of Lords**" و"**مجلس العموم– The House of Commons**"، كان الأول يتكون من كبار الطبقة الأرستقراطية والأساقفة، والثانى من ممثلى الطبقة العليا من ملاك الأراضى فى كل قطر وأعيان المناطق الحضرية.

كانت آلة الدولة أكثر ضعفا، بدرجة كبيرة، منها فى فرنسا أو قشتالـــة. لم يكن هناك جيش عامل، ولا هيئة شرطية وطنية، كل ما كان هناك هو خدمة مدنية متخلفة. كانت السلطة الحقيقية فى كل موقع هى سلطة أعيان الطبقة العليا، الذين كانوا يطبقون معظم القوانين ويفرضون العقاب على الطبقات الكادحة، ويؤقّنون تحصيل الضرائب، ويحشدون قوات عسكرية إذا لزم الأمر. كانت سلطة الملك تعتمد على قدرته على إقناع أو تملق الطبقة العليا لكى يفعل ما يريد، إلا أن ذلك كان يتم ما دام هناك توافق عريض على السياسات.

الطريق إلى الحرب

بدأت الأمور تتداعى فى أواخر العقد الأول من القرن السابع عشر تحت "**جيمس الأول**– **James I**"، ثم بدرجة أكثر خطرا فى أواخر عشرينيات القرن نفسه تحت ابنه "**شارل الأول**– **Charles I**"، ظهرت هوة كبيرة بين احتياجات ومطالب العرش المالية، وبين استعداد الطبقة العليا البرلمانية وكبار التجار تلبيتها عن طريق الضرائب. زاد غضب البرلمان من الملك عندما سعى إلى مصادر أخرى ليست خاضعة له– ضرائب جديدة ورسوم جمركية وبيع الألقاب الملكية وبعض الاحتكارات التجارية. هدد البرلمان بعدم الموافقة على مثل هذا التمويل إلا بعد مراقبته للإجراءات، وحاول العرض الحكم دون ذلك، مستخدما محاكم خاصة مثل "محكمة قاعة النجوم– **The Star Chamber**" لعقاب المخالفين. زاد ذلك من عدم الثقة بالملك، أو على الأقل بمستشارين مثل "**بكنجهام**– **Buckingham**" فى العقدين الأول والثانى من القرن السابع عشر، و"**سترافورد**– **Strafford**" فى العقد الثالث.

على نحو متزايد، أصبح الصراع يأخذ طابعا دينيا مع ميل التجار إلى القوى البروتستانتية فى حرب الثلاثين عاما بدافع من حسابات اقتصادية ساذجة فى الوقت نفسه. كان التجار يعتقدون أن أى إضعاف للنفوذ الإسبانى سيترجم إلى سهولة الوصول إلى أسواق أمريكا وجزر الهند الشرقية. كان "**جيمس**" و"**شارل**" يعملان فى الاتجاه الآخر نحو التحالف مع الملكيات **الكاثوليكية** الكبيرة – بزواج "**شارل**" من ابنة الملك الفرنسى الذى كان يهاجم **البروتستانت** فى مدينة "لاروشيل"، وقيام "**لود**– **Laud**" أسقف كانتربرى، التابع لـ"**شارل**"، بتطهير الكهنة **الكالفنيين**، مستخدما محاكم الكنيسة ضد المنشقين الدينيين، وحث الكهنوت على الإعلان عن أن عدم دفع الضرائب للملك يعتبر خروجا على الدين. ما حدث بالفعل هو أن كهنوت الكنيسة بدأوا يتصرفون باعتبارهم جزءا من الخدمة المدنية، أو قوة شرطة "أخلاقية" تعمل نيابة عن الملك.

بدأت قطاعات من الطبقة العليا والتجار تخشى أن يكون مصيرها مثل مصير الكثير من البروتستانت الأوروبيين، والفرق فى موجة الإصلاح الملكى المضاد الزاحفة على القارة؛ وزاد الخوف بعد صدام بين "**مجلس العموم**" والملك فى أواخر عشرينيات القرن السابع عشر، عندما سجن خمسة من الفرسان لرفضهم دفع الضرائب، وقام بحل البرلمان. ظهرت فى البلاط مجموعة **كاثوليكية** قوية ملتفة حول زوجة الملك الفرنسية ومستشارها **الجيزويتى "سترافورد"** المقرب إلى الملك، وشكلوا جيشا أيرلنديا عاملا، مكونا من "**كاثوليك**".

بدا أسلوب الملك المتشدد مؤثرا، إلا أنه تمادى فى تجاوزاته فى **1637** وحاول فرض كتاب صلوات جديد غير كالفينى فى اسكتلندا – التى كان يعتبرها دولة منفصلة لها مؤسساتها السياسية وبنيتها القانونية وكنيستها الخاصة. قام "تجمع" اسكتلندى من النبلاء والمحامين ورجال الدين الكالفنيين وأبناء المدن بحشد جيش للثورة. قام الملك دون تردد محاولا سحقه ليكتشق عجزه عن جمع التمويل اللازم، ومع تحرك القوات الاسكتلندية ودخولها شمال إنجلترا، اضطر إلى استدعاء برلمانه الأول لمدة **11** سنة.

لم يكن النبلاء وممثلو المدن، وحتى الكثير من الأعيان الذين تجمعوا فى "وستمنستر" مهيأين للموافقة على طلبات الملك دون الحصول على مقابل كبير. على الجملة، كانوا محافظين فى توجهاتهم السياسية، إلا أن النزعة المحافظة كانت تعنى بالنسبة لهم الاحتفاظ بوضعهم كحكام للمحليات، وهو الوضع الذى كان مهددا من قبل الملك لمدة **11** سنة. كانت الأغلبية تحذو حذو أشخاص مثل "جون بيم- **John Pym**" – سكرتير إحدى الشركات، الذى كان طموحه كسر القبضة الإسبانية الخانقة على التجارة مع أمريكا اللاتينية والكاريبى. كانت مطالبهم لتعويض ما أصابهم من أضرار ومظالم: إلغاء الضرائب الجديدة والعفو عمن لم يدفعوها، حل المحاكم الخاصة، إنهاء سلطة الملك فى حل البرلمان دون موافقته، محاكمة وإعدام "سترافورد" كبير مستشارى الملك، إزاحة الأساقفة من "مجلس العموم"، وتسوية ودية مع الكالفنيين الاسكتلنديين.

قدم الملك بعض التنازلات – منها مثلا محاكمة "سترافورد"، إلا أنه لم يقبل "البرنامج" ككل، وإلا كان ذلك يعنى تخلى النظام الملكى عن نظام السلطات التى اكتسبها على مدى مئات السنين، إذ بدونها كان الملك لن يصبح أكثر من مجرد صورة، فى الوقت الذى كان فيه أمثاله من ملوك أوروبا يضاعفون من سلطاتهم.

بمرور الوقت، كان الملك يشعر بتحسن وضعه. كان عدد كبير فى مجلس العموم، ومعظم "مجلس اللوردات" مترددين فى اتخاذ أى خطوة راديكالية ضده، خشية أن يشجع ذلك آخرين على تحدى سلطاتهم. برز "حزب" للملك بين قطاع من أبناء الطبقة العليا والأرستقراطية، وبخاصة فى مناطق الشمال والغرب، حيث كان البعد عن تأثير سوق لندن قد ترك بعض التقاليد الإقطاعية متماسكة. حتى فى المناطق الأكثر تقدما من الناحية الاقتصادية، كان هناك دعم للملك من أبناء الطبقة العليا الذين أفادوا ماليا من العطايا الملكية، ومن كبار التجار الذين أفادوا من الاحتكارات التى كان يمنحهم إياها الملك (شركة الهند الشرقية مثلا) ومن أبناء كل الطبقات الاجتماعية الذين اعتادوا الإذعان على مدى أجيال كثيرة.

بحلول يناير **1642**، شعر الملك بأنه أصبح من القوة لكى يحاول القيام بمحاولة لامتلاك زمام كامل السلطة بضربة مفاجئة. انقض على البرلمان بأربعمائة مسلح من مؤيديه، بهدف القبض على خمسة من أبرز أعضائه، إلا أنهم كانوا قد هربوا إلى منطقة آمنة على بعد ميل تقريبا، فى حماية التجار والحرفيين فى مدينة لندن.

يصف أحد شهود العيان الموقف بعد أن دخل الملك المدينة فى اليوم التالى ليطاردهم، فيقول: "كان أسوأ يوم فى حياة الملك يواجهه فى لندن، كان الألوف يهتفون "امتياز البرلمان"... كان الجميع قد أغلقوا محلاتهم ووقفوا أمام أبوابها بالسيوف والأسلحة القديمة المكونة من الرماح وفؤوس الحرب"[٢٢]، وعندما انتشرت شائعات بأن الملك سيعود إلى المدينة بخيالته المسلحة "خرجت جموع كبيرة إلى الشوارع مدججة بكل ما كانت تجده أمامها من سلاح" النساء تأتين بالماء الساخن لإلقائه على الغزاة؛ دكك ومقاعد قديمة، أحواض غسيل فارغة... تم تكديس كل تلك الأشياء فى الشوارع لإعاقة حركة الخيل"[٢٣].

كانت الأحداث منذرة والأيام حبلى بالمزيد، وكان الملك قد فشل فى بسط سلطته المطلقة عن طريق عمل بوليسى بسيط، وفى غضون أسبوع كان قد غادر لندن عاقدا العزم على حشد جيش لاستعادتها، وكان الجدل السياسى على حافة حرب أهلية.

الحرب الأهلية الأولى

جمع الملك حوله أبناء وأتباع نبلاء الشمال والبلاط ومغامرين عسكريين ومرتزقة عاطلين عن العمل وشباب الأرستقراطية المترفة ومجموعة من الخيالة الطموحين للسلب والنهب، ولحق بأولئك كل من كان يرى أن ملكيات إسبانيا وفرنسا الاستبدادية هى النموذج الذى يجب أن يحتذى فى إدارة المجتمع، بمن فى ذلك عدد **قليل** من الآباء **الكاثوليك** فى حركة **"الإصلاح المضاد"**. كان الفصيل البرلمانى من الطبقة الحاكمة يستطيع أن يحمى نفسه وممتلكاته عن طريق حشد جيوش خاصة فحسب، إلا أن الأحداث كانت قد جذبت إلى أتون الصراع أعدادا كبيرة من خارج الطبقة الحاكمة.

استطاع التجار المعارضون لأصحاب الاحتكارات المدعومين من الملك أن يحكموا سيطرتهم على مدينة لندن، بتشجيع موجة من التظاهرات يقوم بها الباعة وصغار الحرفيين، إلا أنهم لم يتمكنوا من التحكم فى الحركة الشعبية، وبخاصة عندما هاجم ضباط الخيالة المشاركين فيها. كان المتدربون على الحرف والصناعات يتظاهرون بالمئات وربما بالآلاف، وكان اللون يواجه لـ"المبشرين من الحرفيين" الذين كانوا يشجعون الناس على "إهمال أعمالهم وصنائعهم يومين أو ثلاثة فى الأسبوع"[٢٤]. حدث ذلك عندما أدت المصاعب الاقتصادية إلى أعمال شغب وتمرد فى مناطق كثيرة من البلاد اعتراضا على القيام بأعمال صرف المياه وتجفيف الحظائر والمستنقعات (وهو ما كان يحرم الفلاحين من جزء من سبل العيش فى شرق أنجليا).

كان تفجر الغضب الشعبى سلاحا ذا حدين بالنسبة للجناح البرلمانى من الطبقة الحاكمة، فقد مكنهم من صون حياتهم فى وجه المحاولة الانقلابية الملكية، إلا أنه هددهم فى الوقت نفسه بحركة يمكن أن تدمر طبقتهم الحاكمة إذا ما خرجت عن السيطرة. لم يكن الاهتياج الحضرى يكسر قبضة مؤيدى الملك على حكومة المدينة، حتى كان البرلمانيون يحاولون وضع نهاية له. أصبح كثيرون مقتنعين بأن شكلا جديدا من الانضباط الدينى يقومون بتطبيقه بأنفسهم، هو القادر فحسب على إخماد التمرد بين الطبقات الدنيا ويحكم السيطرة. كانوا يريدون إجبار الملك على قبول مطالبهم إلا أنهم كانوا حريصين على إنهاء الأعمال العدائية على وجه السرعة.

سرعان ما قامت هذه المجموعة بتشكيل زمرة برلمانية، كان يطلق "**المشيخيون– Presbyterians**" نسبـــة إلى فكرة ضرورة أن يكون هناك نظام متسق العقيدة دينية يفرضه كبار رجـــال **(شيوخ)** الكنيسة **(Presbyters)** المنتمـــون لطبقتهم على الآخرين كافة.

حتى ذلك الحين، لم يكن هناك بد من الحرب. حتى الطبقة العليا "**المشيخية**" كانت تخشى عواقب السلطة الملكية غير المحدودة وكان لا بد من أن تصعد المقاومة، إلا أن هذه المقاومة توقفت فى العاملين الأولين من الحرب، مثلما حدث بالنسبـــة لمقاومـــة "**المجالس**" البوهيميـــة لـــ"**الهابسبـــورج**" فى **1619**، والسبب هو ازدراء ورفض الإجراءات الثورية الحقيقية.

لم يكن هنـــاك جيش برلمانى واحد موحد، يستطيع أن يعمـــل بموجب استراتيجية وطنية واحدة، وإنما مجموعة جيوش محلية، على رأس كل منها "لورد" باعتباره قائدا عسكريا، ومجموعة من أبناء الطبقة العليا المحلية باعتبارهم ضباطا. الأفراد، كانوا من المجندين إجباريا للقتال رغما عنهم، ولا علاقة لهم بأى أفكار ثورية. عدم استعداد الطبقة العليا لتحمل الإنفاق على الجيوش، جعل القوات البرلمانية (مثل الخيالة الملكية) تعيش على سلب ونهب الأراضى، ومن هنا كان إبعاد الفلاحين عن الريف والحرفيين عن المدن الصغيرة.

حقق البرلمانيون نجاحين، إذ أوقفت جمعات التجار والحرفيين الجيش الملكي عن الزحف على العاصمة عند "تيرنهام جرين- **Turnham Green**" في أواخر **1642**، كما هزمت الجيوش البرلمانية والاسكتلندية المشتركة قوة ملكية أخرى عن "مارستون مور- **Marston Moor**" في صيف **1644**. إلا أن معظم معارك الفترة من **1642-1644** لم تكن حاسمة، والأسوأ أن الوضع في أوائل **1645** متجها نحو كارثة. كان الملك ما زال متحصنا عند "أكسفورد" على بعد **50** ميلا من لندن. كانت الجيوش البرلمانية منهكة، أفرادها لا يحصلون على رواتبهم، معنوياتهم في الحضيض، وغالبا في حالة تمرد وعصيان. كانت أعداد كبيرة تهرب من الخدمة، مع خطر داهم آخر من احتمال قيام الجيش الاسكتلندي بعقد صفقة خاصة مع الملك؛ وفي حال عدم اتخاذ إجراء سريع، فستكون النتيجة ضياع كل شيء، في نسخة إنجليزية مكررة من **معركة الجبل الأبيض**.

لم يكن هناك سوى نقطة مضيئة وحيدة في الصورة. تمكنت فرقة خيالة تابعة لأحد جيوش "**الرابطة الشرقية- Eastern Association**"، وهي فرقة "**الرجال الحديد- The Ironsides**" من إلحاق هزيمة حاسمة بالملكيين عند "مارستون مور". كانت هذه الفرقة قد تم تشكيلها بأسلوب مختلف عن باقي قوات الجيش. كان قائدها "**أوليفر كرومويل- Oliver Cromwell**" الإقطاعي القادم من "كمبردج شاير" وعضو البرلمان، كان قد قرر أن يكون ضباطها من الأرستقراط ولا أفرادها من المجندين المعوزين الكارهين لذلك. اعتمد "**كرومويل**" على متطوعين من "الطبقات المتوسطة" وكان معظمهم من شريحة الفلاحين ميسوري الحال نوعا ما، صغار مالكي الأرض، ويعرفون بالـ"**يومن- Yeoman**". كانوا أغنياء بما يكفي ليجعلهم يمتلكون خيولا، وفقراء بما يكفي لكي يكون لديهم التزام – ديني **بيوريتاني** غالبا – بالعمل الجاد. كانوا، كما كتب أحد المراقبين فيما بعد "معظمهم ملاك أحرار وأبناء ملاك أحرار انخرطوا في الصراع بوازع من الضمير"[٢٥]. كان "**كرومويل**" يرى أن هذه القوات يمكن أن تكون بمثل مهارة "أبناء السادة" والمرتزقة الذين يقاتلون لحساب الملك، ولكنهم أكثر انضباطا في المعركة وليس من المرجح

أن يهرعوا إلى الغنائم عند أول فرصة. كان يقول: "أفضل أن يكون لدى ضابط يرتدى الخيش يعرف لماذا يحارب ويحب ما يعرف، عن ذلك الذى تدعونه سيدا، وهو لا شيء أكثر من ذلك"(٢٦).

كان "**كرومويل**" يرى كذلك أنه لن يستطيع أن يجتذب مثل أولئك الناس وأن يحتفظ بهم، ما لم يسمح لهم بأن يعبروا عن قيم وأفكار مختلفة تماما عن قيم وأفكار الطبقة العليا. لن يسمح للبرلمانيين **المشيخيين** أن يطهروا أتباع قواته من المذاهب الدينية المختلفة الذين يحملون رسالة خلاص للشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة. كان مبشرون ودعاة لرسالة ثورية يتحركون مع القوات – لعل أبرزهم كان "**هيوبيتر**– **Hugh Peter**"، يتحدثون عن نظام اجتماعى عادل يتميز برعايته للمرضى والفقراء، وبنظام قضائى أفضل.... ويلغى السجن بسبب الدين"(٢٧). دافع "**كرومويل**" حتى عن "**جون ليلبورن**– **John Liburne**" الراديكالى اللادينى ضد قائد وحدته "**إيرل مانشستر**– **Earl of Manchester**"، وكان "الإيرل" يردد ثرثرته أن "**كرومويل**" كان يتمنى أن "يمتد به العمر حتى لا يرى نبيلا واحدا فى إنجلترا"، وأنه كان يفضل البعض "ممن لا يحبون اللوردات"(٢٨). ليس مؤكدا أن تكون تلك أفكار "**كرومويل**" فى ذلك الوقت، إلا أنه كان قد حشد دعما له فى "كمبردج شاير" فى الماضى، عندما تحدث نيابة عن الفلاحين المعارضين لتجفيف المستنقعات، وكان مستعدا باستمرار للعب على مشاعر الطبقات المتوسطة؛ ويعنى ذلك كله أنه كان يملك الإصرار والعزيمة التى كانت تنقص الكثير من الزعماء **البروتستانت** فى الصراع عبر القارة.

الجيش النموذجى الجديد

فى ربيع **1645**، كان "**كرومويل**" الشخصية المحورية فى مجموعة من أعضاء البرلمان والضباط الذين كانوا يرون أن السبيل الوحيد لتجنب الهزيمة، هو إعادة لبناء الجيش بكامله كقوة مركزية، لا يقودها أرستقراط ممن تخاذلوا عن

الحرب ولا تضم ضباطا من أبناء الطبقة العليا الهواة. انطلقوا فى ذلك فى مواجهة مقاومة شديدة فى مجلس العموم ومعارضة من مجلس اللوردات، معتمدين على شريحة ثورية من الصناع والتجار المعارضين للاحتكار فى مدينة لندن. تشكلت أداة الانتصار الثورى، أو "**الجيش النموذجى الحديث**" فى ظروف أزمة كبرى.

تم اختيار الكثير من جنود المشاة بالأسلوب القديم، من مجندين إجباريين لم يكن يبدو عليهم حتى ذلك الحين أى اهتمام بالقضايا المطروحة، بينما تم بناء قوات الخيالة من متطوعين لديهم الحماسة السياسية والحمية الدينية وهو الأسلوب ذاته الذى كان "**كرومويل**" قد بنى به قوات "**الرجال الحديد – The Ironsides**"، على أنه كانت هناك قلة من بين أفراد المشاة المتحمسين الذين يمكنهم إشعال حماسة الآخرين فى المعركة. كان هناك، فى الواقع، عمود فقرى ثورى للجيش، كما كان يزيد من قوته التوجيه المعنوى من شخصيات مثل "**هيوبيتر – Hugh Peter**" وتوزيع الكتيبات والنشرات الإخبارية والقراءات الإنجيلية والحوارات الدينية والسياسية.

ظهر أثر هذا النهج الثورى جليا فى "**معركة نيزبى – The Battle of Naseby**" فى يونيو **1645**. استطاع الجيش البرلمانى أن يبقى متماسكا بعد هجوم ناجح فى البداية من الخيالة الملكية، ثم تقدم ليكتسح العدو، وفى غضون أيام قليلة كانت مراكز قيادة القوات الملكية فى أكسفورد فى أيدى البرلمانيين، وكان الملك قد فر ليستسلم الجيش الاسكتلندى فى "نيوارك – **Newark**".

كانت "**نيزبى**" هى المعركة الحاسمة فى الحرب الأهلية، إلا أنها لم تكن نهاية الثورة.

بعد زوال الخوف من الملك، أصبح الخوف من الجماهير هو الشعور السائد بين أغلبية الطبقة العليا، فبدأوا يضغطون لحل "**الجيش النموذجى الجديد**" وتقليص الحرية الدينية وسحق الجماعات الدينية المنشقة والثوار العلمانيين.

إلا أنه كانت هناك قوة أخرى ناشئة لم يكن من السهل على الطبقة العليا فى البرلمان التعامل معها. لم يكن أفراد الجيش مستريحين لفكرة تسريحهم دون

رواتب، أو إرسالهم للقتال فى حرب بائسة فى أيرلندا، وهذا أسوأ. زاد غضب أفراد الخيالة الذين كانوا قد حاربوا من أجل مبادئهم، واتجهوا لتبنى نهج أكثر ثورية مما كان حتى ذلك الحين. كان المجندون مستائين لمواجهة مستقبل مجهول، ورغم أنهم كانوا يعبرون أحيانا عن مشاعر ملكية، سرعان ما أصبحوا منجذبين لحديث القلة الملتزمة بينهم. اختارت كل كتيبة من كتائب الخيالة الثمانية ممثلين لها – كانا يعرفان (**بالمحركين– agitators**) للتعبير عن آرائها، وحذا حذوهم جنود بقية الكتائب. بدأ "**المحركون**" يقدمون مطالب باسم جنود الجيش، كانت تتحدى سلطة الملك، وسلطة الطبقة العليا كذلك، وصفت إحدى عرائض المطالب الطبقة العليا فى **مجلس العموم** بـ"بعض الذين ذاقوا السلطة وتحولوا إلى طغاة"[٢٩]. اتخذت اجتماعات الكتائب طابعا ثوريا مع هجوم على طريقة انتخاب أعضاء **مجلس العموم**، ومطالب ببرلمانات سنوية، ودعوات للانتقام من الممثلين "**المشيخيين– Presbyteria**"، وهجوم على اللغة الملغزة للمحاكم[٣٠]. بدأت اجتماعات "**المحركين**" تتحول إلى شكل من التنظيم الذاتى للجنود فى الجيش لكى يضغطوا بمطالبهم ويستعجلونها – شكلوا فريقا من الكتاب لإعداد الكتيبات، وأصروا على أن يكون للضباط مطبعتهم الخاصة، وأرسلوا مندوبين لإثارة وتحريك الكتائب الأخرى خارج "**الجيش النموذجى الجديد**"، كما بدأوا التواصل مع العناصر الثورية الأخرى (المتأثرة بهم) فى أرجاء البلاد.

دعاة المساواة والثوار

تزايد نفوذ تجمع ديمقراطى راديكالى يدعى "**دعاة المساواة– The Levellers**"، بزعامة شخصيات مثل "**ريتشارد أوفرتون– Richard Overton**" و"**چون ويلدمان– John Wildman**" و"**وليم وولوين– William Walwyn**" و"**چون ليلبورن– John Lilburne**"، وفى أكتوبر **1647** زاد الدعم لهم لدرجة جعلت "**كرومويل**" وغيره من قادة الجيش يترأسون اجتماعا فى "**بوتنى– Putney**" للتحاور مع جنود من المتأثرين بهم. هنا كان أن طرح "**رينبوروى– Rainborowe**"، أكثر

الضباط راديكالية، وجهة نظر تتحدى أساس حكم الطبقات العليا والتجارية: "أعتقد أن أفقر الفقراء فى إنجلترا يجب أن يحيا حياة مثل أعظم [...] الفقير فى إنجلترا ليس مقيدا بتلك الحكومة التى ليس له صوت فيها"[٣١]، وردا على ذلك قال "**أيرتيون–Ireton** " أحد حلفاء "**كرومويل**" المقربين: "ليس لأحد الحق... نصيب... فى أن يقرر شؤون المملكة.... ليس له مصلحة دائمة ومحددة... ذلك هو الشخص الذى يملك الأراضى... والمؤسسات التجارية"[٣٢].

موقف دعاة المساواة، كما كان يشار إليه دعاة، لم يكن من أجل حق الاقتراع العام للرجـال، وعندما تم الضغط عليهم كانوا مستعدين لقبول استثناء "الخدم"– أى الذين يعملون لدى آخرين – من مشروعهم، لزيادة عدد المسموح لهم بالتصويت. كان ذلك، فى جزء منه، خشية أن يجبر الأمراء والطبقات العليا خدمهم وعمالهم وأتباعهم على التصويت لصالحهم، وكذلك لأن مركز التأثير الراديكالى فى الجيش لم يكن بين المجندين الفقراء، وإنما بين المتطوعين من صغار الملاك الذين كانوا يرون أنفسهم أعلى مكانة من العاملين لديهم.

أوضح "**ليلبورن**"، أحد قيادات حركة المساواة بعبارات لا لبس فيها أن المطالبة بحقوق سياسية لصغار الملاك لا تنطوى على اعتداء على نظام الملكية الخاصة، فهم كما كتب "أصدق وأخلص المدافعين عن الحريـة والملكية"، وأنـه لا يوجد شيء فى كتاباتهم أو تصريحاتهم:

> **... يؤدى، على الإطلاق، إلى القضاء على حريتهم أو ممتلكاتهم أو علـى إقامة المساواة أو أى شيء من هذا القبيـل.... هذا التصور الواهم عن مساواة الممتلكات والقضاء أمر غريب لا يمكن لأى عاقل أن يتخيله"[٣٣].**

إلا أن انتخاب "**المحركين**" المحرضين والدعوة لأن يكون لأصحاب الملكيات الصغيرة نفس الحقوق مثلهم مثل الكبار، كان يكفى لبث الرعب فى قلوب "المعتدلين" من جماعة المشيخيين، الذين كانوا خائفين بالفعل. كانت سلطة الطبقات العليا وكبار التجار أمام تحد من كيان تمثيلى جديد لأبناء الطبقات الوسطى والدنيا فى الجيش،

وكان أولئك الناس يمثلون أكبر قوة عسكرية منظمة فى البلاد. كان من المحتمل أن يتحول أى صدام بين جزء من الطبقة الحاكمة والملك إلى صراع ثورى.

استدعى البرلمانيون المعتدلون ثلاثة من "**المحركين**" للمثول أمامهم للتحقيق وهددوا بمعاقبتهم، وفيما بعد كان الزعيم "المشيخى" "**دينزل هولز**– **Denzil Holes**" إنه كان لا بد من أن تكون لديهم الشجاعة لشنق أحدهم ليكون عبرة للآخرين، إلا أنهم تركوهم ينصرفون. لم يكن بإمكانهم عمل أى شىء أكثر من ذلك قبل أن يكون لديهم قوات مسلحة خاصة بهم، يعتمد عليها. كانوا يحاولون جمع هذه القوات ويساعدون "**أوليجاركية**" مدينة لندن لتطهير ميليشياتها من الراديكاليين، وإنشاء "**لجنة سلامة**" لتنظيم القوات تحت إشراف أعيان كل قطر، ومحاولة أن تكون الترسانات العسكرية فى أيديهم، والتفاوض مع أقرانهم "**المشيخيين**" الذين يسيطرون على الجيش الاسكتلندى ليأتوا به إلى إنجلترا. كانوا يعتقدون أنهم لا بد من أن يتحدوا مع الطبقة العليا الملكية لاستعادة صيغة من الملكية يكون قد اصابها قدر قليل من الإصلاح.

كان المستقلون حول "**كرومويل**" ضعافًا جدا بالمفهوم البرلمانى، ولكنهم كانوا يرون أن بإمكانهم استخدام حركة "**المحركين**" للدفاع عن أنفسهم، مع ضمان ألا تخرج عن السيطرة. شكلوا "**مجلسا للجيش**– **Council of the Army**" نصفه من ممثلى الجنود والنصف الآخر من ضباط، واستطاع الضباط تحويل قدر كبير من استياء الجنود إلى قنوات لصالحهم.

فى البداية، كان هدف "المستقلين" إجبار الملك على التفاوض معهم، وعليه أفردوا وحدة خاصة من القوات للاستيلاء على الملك من أيدى جماعة "**المشيخيين**". كان "**كرومويل**" ومن حوله يريدون أن يعلنوا أنهم قد كسبوا الحرب الأهلية، وأن على الملك أن يقبل الشروط التى أملوها، والتى كانت تتضمن الكثير من الإصلاحات التى كان قد رفضها؛ إلا أن شروطهم كانت لا تزال تنص على الملكية، على استمرار مجلس اللوردات غير المنتخب وعلى قصر الامتياز البرلمانى على الطبقة العليا.

الحرب الأهلية الثانية والإعدام الشهير

لم يكن لدى "**شارل**- **Charles**" - على أى حال أن يرضخ لمطالب كان يعتبرها ضد مبادئ الملكية الفعلية، وهرب من الأسر في نوفمبر **1647** عازما اللجوء مرة أخرى إلى حرب أهلية؛ والآن كان "**كرومويل**" يدرك أن محاولاته للتفاوض مع الملك قد أسيء فهمها، واستخدم قوات الجيش النموذجي الجديد للضغط على البرلمان للتصويت على إجراءات الجانب المؤيد للحرب، وفى صيف **1648**، كان أن وقعت ما يطلق عليها عادة "**الحرب الأهلية الثانية**". حارب المؤيدون السابقون فى البرلمان إلى جانب قوات الخيالة، وكان هناك انتفاضات ملكية في جنوب "ويلز" و"كنت" و"إسكس"، وغزو من اسكتلندا.

هذه المرة، لم يتبع انتصار الجيش المعارض للملك سياسة لين أو تفاوض معه، وأعلن "**كرومويل**" أن "لا بد من القضاء بسرعة على المعاندين الذين لن يكفوا عن تكدير صفو البلاد"؛ وطالب ضباط الجيش النموذجي الجديد بإعدام "**شارل**" وكبار مستشاريه، ولأنهم كانوا يعرفون أن أغلبية ضباط البرلمان لن يصدقوا لذلك، قام الجيش باحتلال لندن، وقامت وحدة عسكرية بقيادة الكولونيل "**برايد**- **Pride**" بمنع زعماء المشيخيين من دخول مجلس العموم، كما أزاحت قوات أخرى القيادات الأوليجاركية عن مواقعها في مدينة لندن؛ وفى آخر يناير، كان الجلاد يحمل رأس الملك المقطوع أمام حشد من الناس فى "وايت هول- **Whitehall**".

كانت الأحداث المؤدية إلى إعدام الملك تمضى على نحو متواز مع قلق مكتوم داخل الجيش النموذجي الجديد، وفى صفوف مؤيديه من المدنيين. لم يكن "**كرومويل**" والمستقلون قادرين على السيطرة على لندن وهزيمة كل من "**المشيخيين**" والملك بدون الحركة الثورية داخل الجيش؛ وفى مواجهة خطر الثورة المضادة كان على استعداد، مؤقتا، للدفاع عن "دعاة المساواة- **The Levellers**" ضد قمع "المشيخيين- **The Presbyterians**"، بل إنه خطا خطوة أبعد فى هذا الاتجاه ليقوم بزيارة "**ليلبورن**" الذى كان مسجونا فى "**برج لندن**"، فى محاولة

للوصول إلى اتفاق. إلا أنه لجأ إلى القوة كذلك مع اقتراب الحرب الأهلية الثانية. عزل "**كرومويل**" الراديكاليين باستخدام الحرب ذريعة لإعادة تنظيم وحداتهم، وأحبط محاولة تمرد- وأعدم "**ريتشارد آرنولد**" أحد زعمائها- ووضع دعاة المساواة في لندن في السجن. في الوقت نفسه كان مستمرا في اعتماده على جنود الجيش الواقعين تحت تأثير دعاة المساواة في الفترة السابقة لإعدام الملك والتالية له مباشرة. آنذاك، فحسب، كان يشعر بالثقة في قدرته على سحق أولئك بإثارة المشاعر الطبقية. كان يوبخ زملاءه في "**مجلس الدولة- Council of State**": "أنبهكم أيها السادة، ليس أمامكم من سبيل للتعامل مع أولئك الناس سوى القضاء عليهم، قبل أن يقضوا هم عليكم"(٣٤). في ربيع **1649** كان قد تم اعتقال زعماء حركة المساواة في لندن ووضعهم في "**البرج**"، وفي مايو تم سحق تمرد وإعدام أربعة من زعمائه في فناء كنيسة "برفورد" في "أكسفورد شاير".

لم تعد هناك حاجة لجزء كبير من "**الجيش النموذجي الجديد**"، لهزيمة الملك و"**المشيخيين**" في إنجلترا. تم إرساله، عدا محركيه، إلى أيرلندا، بينما كان هناك كتيب لدعاة المساواة يخاطب الجنود:

> **هل ستواصلون الذبح والقتل لتصنعوا (من ضباطكم) سادة مستبدين على أيرلندا، مثلما جعلتموهم على إنجلترا؟ أم ترى طموحكم هو إخضاع الأيرلنديين للضرائب والرسوم الجمركية والاحتكارات التجارية؟ أم أن تصبح سجونهم مليئة بالمتسولين؟"(٣٥).**

كان ذلك تحذيرا نبوئيا بشأن ما ستفعله الطبقة الحاكمة الإنجليزية بأيرلندا، ولكنه لم ينجح في جعل الناس الذين ضربهم الفقر يرفضون النظام العسكري وسبيل العيش الوحيد أمامهم بعد قتل قادتهم.

لم تكن الدعوة للمساواة حركة تعتمد على الكتلة الفقيرة من المجتمع، وإنما على "متوسطي الحال" من حرفيين وباعة وفلاحين ميسورين نوعا ما، بالإضافة إلى من كان يتم تجنيدهم من بين هذه الجماعات. كان دعاة المساواة هم الحزب

الأكثر ثورية وجسارة الذى برز من بين هذه الجماعات. ودفع ببرنامج كان من شأنه لو نجح أن يحدث تغيرا أكثر ثورية مما كان بالفعل. كانوا يفعلون ذلك من وجهة نظر جماعات اجتماعية كانت تأمل فى الازدهار نتيجة نمو أشكال رأسمالية فى الإنتاج – الجماعات التى كانت لتتبلور فى القرن التالى فى "طبقة متوسطة"، يتزايد وعيها بذاتها، ولكنهم بذلك بدأوا تحديهم للعرف المتوارث وهو **الحق الإلهى** لشريحة من المجتمع فى أن تحكم الآخرين. ومثلما فعل "**مونتسر**– **Muntzer**" وأتباعه فى "**حرب الفلاحين الألمانية**– **The German Peasant War**"، فإنهم ساعدوا على قيام تقليد منافس لمقاومة الحكم الطبقى.

لم تكن هزيمة دعاة المساواة تعنى عدم تحقق أى شىء نتيجة تحريض وصراع السنوات السابقة. لمت كن الجماعة الملتفة حول "**كرومويل**" تستطيع الكسب إلا باتخاذ إجراءات ثورية، حتى وإن كانت محدودة المجال. اعتبارا من **1649**، كان من يريد حكم إنجلترا – واسكتلندا بعد وقت قصير – ضباط الجيش، وكان معظمهم من "متوسطى الحال":

يشير "**كريستوفر هيل**– **Christopher Hill**" إلى أنه بعد الحرب الأهلية الثانية:

> **كان الناس الذين يسيطرون على الأحداث الآن، رغم أنهم ليسوا من دعاة المساواة،... كانوا ينتمون إلى الطبقة الدنيا... الكولونيل إيور– Ewer جندى سابق، الكولونيل توماس هاريسون– Thomas Harrison... ابن راعى... أو جزار، "برايد– Pride" كان سائق عربة نقل صغيرة أو عاملا لدى خمار جعة فى السابق، الكولونيل "أوكى– Okey" كان عاملا فى مصنع شحم، "هيوسن– Hewson" صانع أحذية، "جوف– Goffe" بائع ملح، "باركستيد– Barkstead" صانع حلى، "برى– Berry" كاتب فى مصنع حديد، "كلسى– Kelesy" صانع أزرار، الرجال الذين وصلوا إلى السلطة فى ديسمبر 1648، وكانوا مسئولين عن إعدام "شارل الأول– Charles I"، كانوا دون مرتبة الحكام التقليديين لإنجلترا"[٣٦].**

هؤلاء الناس، دفعوا بسلسلة من الإجراءات كسرت قبضة أولئك الذين كان يمكن أن يحولوا المجتمع الإنجليزى إلى وجهة إقطاعية مرة وإلىَ الأبد، وهكذا مهدت "**الثورة الإنجليزية**- **The English Revolution**" الأرض لتطور مجتمع يقوم على علاقات السوق وأشكال راسمالية من الاستغلال.

"**كرومويل**" نفسه، لم يكن ينتمى لطبقة "برجوازية" مستغلة جديدة، بالرغم من صلاته الأسرية ببعض التجار، إلا أنه ما كان لينجح لولا اعتماده على أناس من خارج تلك الطبقة. كانت عبقريته فى إدراكه أن أزمة المجتمع الإنجليزى لا يمكن أن تحل دون الاتجاه إلى أساليب جديدة والاعتماد على أشخاص جدد. كان ذلك، فحسب، هو ما يمكن أن يجنب "**الثورة الإنجليزية**" مصير الكالفنيين الفرنسيين أو المجالس البوهيمية. كان على ابن أسرة من الطبقة العليا أن ينجز ثورة تضمن إدارة المجتمع على نهج برجوازى.

حكم إنجلترا حكما دكتاتوريا بالفعل لمدة عشر سنوات. كان عهده يعتمد على القوة المسلحة، إلا أنها لم تستطع البقاء لأجل غير مسمى دون دعم اجتماعى أوسع. كان "**كرومويل**" يدرك ذلك، وحاول أن ينشئ برلمانات يمكن أن تدعمه، ليفاجأ بأن الانشقاقات التى كانت قد ألّبت "**المشيخيين**" على "**المستقلين**" فى منتصف أربعينيات القرن السابع عشر، كانت تعاود الظهور باستمرار. كانت الطبقة العليا فى كل مكان تتطلع إلى انتهاء القلق المرتبط بالتقلبات الثورية وتوقفت عن المزيد من الإصلاح، بينما كانت الفصائل من الفئات المتوسطة تريد المزيد من الإصلاح الثورى وكان لهم تمثيل جيد بين قوات الجيش، إلا أنهم لم يكونوا مستعدين للدفع بتلك الإصلاحات إذا ما كان ذلك يعنى المزيد من القلق وعدم الاستقرار الاجتماعى، ومع الوقت أصبحوا أكثر تحالفا مع تلك الفئات من الطبقة العليا الذين كانوا يتصارعون معهم فى الحرب الأهلية – أولئك الذين كانوا ما زالوا يرون الملكية شرطا مسبقا لحماية النظام الاجتماعى، وكانت ذروة تلك العملية فى **1660** بعد موت "**كرومويل**". اتفق جزء من الجيش مع بقايا البرلمان على دعوة ابن الملك الذى تم إعدامه لتولى العرش.

رغم أن الحرب كانت قد انتهت، كانت بعض التغيرات قد بقيت، وكان وجود الملكية الآن يعتمد على إرادة طبقات الملاك التى يتم التعبير عنها من خلال البرلمان – كما ظهر فى **1688** عندما أطاحوا بـ"**جيمس الثانى– James II**" فى ثورة "بيضاء". كانت ثروة طبقات الملاك تعتمد – كما لم يحدث من قبل قط – على نجاحهم فى التكافؤ مع قوى السوق. كان كبار ملاك الأراضى يتبنون، على نحو متزايد، الأساليب الرأسمالية فى الزراعة، وكانت النسبة الأكبر من سكان المدن يستخدمون آخرين للعمل لديهم أو يعملون هم عند الغير. لم تعد الطوائف قادرة على منع الابتكارات فى التقنيات الإنتاجية – وبحلول العام **1686** لم يكن هناك طوائف قط فى ثلاثة أرباع المدن الإنجليزية[٣٧]. كانت سياسات الحومة تمليها الرغبة فى توسيع رقعة التجارة وليس مكائد الملك ومؤمراته.

كل هذه التغيرات مجتمعة كانت تمثل شيئا جديدا تماما فى تاريخ العالم الأساليب التى كان الناس يحصلون بها على قوتهم، كانت تتم الآن فى وحدات تعتمد على قدرة من يديرونها فى خفض التكلفة عنها فى الوحدات الأخرى. الفلاح المقتدر، صاحب ورشة الحديد المتوسط الحال، حتى عامل النول اليدوى لم يكونوا يستطيعوا تأمين لقمة العيش إلا باستمرارهم فى العمل، وهو ما كان يعنى مجاراة أساليب الإنتاج الجديدة التى تقلل التكلفة.

أصبحت المنافسة من أجل المنافسة، أكثر منها من أجل احتياجات الاستهلاك المباشر للأغنياء والفقراء، أصبحت هى القوة الدافعة للنشاط الاقتصادى. النمو الذى تبع ذلك كان عشوائيا مع تقلبات مفاجئة، صعودا وهبوطا. كان كذلك قليل النفع لقطاع متنام من الأهالى الذين كان بقاؤهم قد أصبح يعتمد، على نحو متزايد، على قدرتهم على بيع قوة عملهم للآخرين. إلا أن ذلك غير وضع الاقتصاد الإنجليزى ووضع من كانوا يسيطرون عليه. ما كانت واحدة من أكثر مناطق أوروبا فقرا، سرعان ما أصبحت هى الأكثر تقدما، تمد حكامها بالوسائل اللازمة لبناء إمبراطورية عالمية – ومع الزمن، ساعدت أسلوب الإنتاج الرأسمالى الجديد على البدء فى إزاحة كل النماذج السابقة.

الهوامش

(١) للاطلاع على مجموعة من التفسيرات المتعارضة، انظر:

T.K. Rabb (ed), "The Thirty Years War", (Boston, 1965).

(٢) لعبت كذلك دورا مهما في تقدم العلم والتكنولوجيا بنقل المعرفة الخاصة ببعض الاكتشافات الأوروبية بعد عصر النهضة إلى الصين. انظر:

C.A. Ronan and L.Needham, "The Shorter Science and Civilisation of China", vol.4 (Cambridge, 1994) p.220.

(3) A. G. Dickens, "The Age of Humanism and Reformation in Europe", (London, 1977), p.202.

(4) H.V. Polisensky, "The Thirty Years War", (London, 1974), p.28.

(٥) المصدر السابق – **p.31**.

(٦) أتباع الاعتقاد "الهُوسي"– **Hussite** بأن الكهنة ليس لهم دور في طقوس العشاء الرباني.

(7) H.V. Polisensky, "The Thirty...", p.47.

(8) G. Parker, "Europin Crisis", p.168.

(٩) كما جاء في المصدر السابق: **p.168**.

(١٠) للمزيد عن هذه الصلة انظر:

H.V. Polisensky, "The Thirty...", p.141, 186-187.

(١١) انظر تعليقات الماركسي الألماني "فرانز مهرنج– **Franz Mehring**" التي كتبها قبل **90** عاما:

F. Mehring, "Absolutism and Revolution in Germany, 1525-1848", (London, 1975), p.28.

(١٢) الاغتيال (وأسلوب ڤالنشتاين– **Wallenstein** المتردد الذي ساعد عليه) هو منطلق مسرحيتين لكاتب التنوير الألماني "فردريك شيللر– **Frederick Schiller**". انظر:

The Piccolomini and the Death of Wallenstein",

وذلك في:

F.Schiller, "Historical and Dramatic Works", vol.2 (London, 1980).

(13) H.V. Polisensky, "The Thirty...", p. 197.

(١٤) المصدر السابق – p.245.

(١٥) المصدر السابق – pp 245-247. للمزيد عن تدهور الاقتصاد والحياة الثقافية في بوهيميا.

(١٦) للمزيـــد عن الجدل حول درجة الضــــرر الذي أحدثته الحرب، انظر ما جاء على لســـان: S.H. Steinburg, G. Pages، H.V. Polisensky، T.K. Rabb، وذلك في:

T.K. Rabb, "The Thirty Year War".

(١٧) بالرغم من أن صدمة الطبقات الحاكمة كانت من باب النفاق، حيث كان قد تم إعدام الكثير من الملوك في السابق، كما أشار "ڤولتير" بعد ذلك في عمله:

Lettres Philosophiques.

(١٨) حسب ما ورد:

C.Hill, "The English Revolution and the Brotherhood of Man", in C.Hill, "Puritanism and Revolution", (London, 1968) p.126.

(١٩) كما ورد في:

C.Hill, "God's Englishman", (Harmondsworth, 1973), p.87.

(20) R.S. Duplessis, "Transitions", p.68.

وانظر كذلك: G.Parker "Europe in Crisis", table 1, p.23

(٢١) انظر: R.S. Duplessis, "Transitions", pp. 113-115

(22) John Dillingham to Lord Montagu,

كما ورد في:

A.Fletcher, "The Outbreak of the English Civil War", (London, 1981), p.182.

(23) A. Fletcher, "The Outbreak", p.182.

(24) John Tailor in his New Preacher News tract, quoted in A. Fletcher, "The Outbreak", p.175.

(25) C.Hill, "God's Englishman", p.62.

(26) C.Hill, "The Centurt of Revolution", 1603-1714 (London- 1969), p.116.

(٢٧) ملخص أحد خطاباته كما ورد في:

"The New Model Army", (Oxford, 1992), p.84.

(28) C.Hill, "God's Englishman", pp. 68-69.

(29) I. Gentles, "New Model Army", p.160.

(٣٠) انظر: I. Gentles, "New Model Army", p. 161-163

(31) I. Gentles, "New Model Army", p. 209.

(32) I. Gentles, "New Model Army", p. 209.

(٣٣) كما ورد في:

B.Manning, "The Crisis of the English Revolution", (London, 1992), p.108.

(34) C.Hill, "God's Englishman", p.105.

(35) I. Gentles, "New Model Army", p.330.

(36) C.Hill, "God's Englishman", p. 97.

(٣٧) كما جاء في: C.Hill, "The Centurt of Revolution", p.181

- ٤ -

الازدهار الأخير لإمبراطوريات آسيا

عندما ننظر اليوم إلى الماضي، نجد أن ما حدث في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان من شأنه أن يغير العالم، أن يمكن عددا قليلا من القوى الأوروبية من إقامة إمبراطوريات كانت تضم كل آسيا وأفريقيا تقريبا، وأخذت العالم كله إلى أسلوب جديد في تنظيم الإنتاج هو الرأسمالية الصناعية.

إلا أن التاريخ لم يكن قد توقف تماما بالنسبة لخمسة أسداس الجنس البشرى، الذين كانوا يعيشون هناك. ربما تكون إمبراطوريات المكسيك وبيرو قد سقطت بين عشية وضحاها في يد المستعمرين الأوروبيين، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لباقي الأمريكتين. في الشمال، كان شريط ساحلي ضيق هو ما تم احتلاله في أواخر القرن السابع عشر، أما في أفريقيا وآسيا فلم تكن المستعمرات الأوروبية فيها تزيد عن أن تكون مراكز تجارية أثناء حرب الثلاثين عاما، وبقيت كذلك لفترة طويلة بعدها. نجح الهولنديون بالفعل في غزو الـ"**خويسان- Khoisan**" وهي شعوب تعتمد على الصيد والجمع (يطلق عليها "**الهوتنتوت- Hottentots**" و"**البوشمن- Bushmen**") في الطرف الجنوبي لأفريقيا، ولكن ذلك كان قبل مائتي عام من بدء الأوروبيين التحرك شمالا، بعد أن هزموا المشتغلين بالزراعة، الذين زودتهم معرفتهم بصناعة الصلب بأسلحة مؤثرة. استولى البرتغاليون على "جووا- **Goa**" في القرن السادس عشر، وهي جيب ساحلي على الشاطئ الجنوبي الغربي للهند، وأنشأوا مدينة رائعة(١) بالمقاييس الأوروبية آنذاك، كما أداروا مدينة تجارية على جزيرة "ماكاو- **Macao**" بالقرب من الشاطئ الجنوبي للصين؛ ولكن جهودهم كانت تبدو ضئيلة مقارنة بالممالك والإمبراطوريات العظيمة القريبة. في **1522**،

كتب الزوار البرتغاليون الأوائل لمدينة "ڤيچاياناجار- **Vigayanagar**"[٢]، عاصمة إحدى الممالك الأربع فى جنوب الهند، إنها كانت كبيرة، بحجم روما تقريبا، وبها نحو مائة ألف منزل، وأنها كانت "أفضل مدن العالم" من حيث تنظيم عملية الإمداد بالغذاء[٣]، والمؤكد أن بقايا وآثار المدينة تغطى مساحة أوسع من مساحة أى مدينة أوروبية أخرى فى القرن السادس عشر. على مسافة أبعد شمالا، كان الأباطرة "**المغول**" الذين بدأوا غزو شبه القارة فى **1525**، قد أو أعادوا بناء مجموعة من المدن- "لاهور" و"دلهى" و"أجرا"- على مستوى ليس له مثيل فى أوروبا، أما حكام الإمبراطورية الصينية فكان بإمكانهم، بالفعل، تجاهل الأوروبيين على الساحل الجنوبى. كان الخطر الوحيد على مدنهم الكبيرة يأتى من الشعوب الرعوية فى الشمال. فى الوقت نفسه، كانت **تركيا العثمانية** هى القوة الكبيرة الناشئة على عتبة أوروبا الغربية. بعد غزو القسطنطينية فى **1453**، كانت تركيا قد انطلقت للاستيلاء على القاهرة فى **1517** والجزائر فى **1528** وهنغاريا فى **1526**، وحاصرت ڤيينا فى **1529** ثم فى **1683**. كانت **الإمبراطورية العثمانية** لاعبا حاضرا باستمرار فى الألعاب الدبلوماسية والتحالفات العسكرية فى الإصلاح الأوروبى، وكان لثقافتها تقديرها الكبير فى أدب تلك المرحلة؛ وبين **الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية المغولية** فى الهند، كانت هناك **الإمبراطورية الصفوية الإيرانية**، حول عاصمتها الجديدة أصفهان التى كانت تخلب بروعتها ألباب الزائرين؛ وبالقرب من الساحل الشرقى لآسيا، كانت جزر اليابان قد نقلت الكثير من الثقافة والتقنيات الصينية لكى تقيم حضارة متطورة نسبيا، كانت تحمل بعض ملامح الإقطاع الأوروبى مثل الحروب بين أمراء الإقطاع الأرستقراط الذين كانوا يستخدمون الصلب والبارد لبسط هيمنتهم على بعضهم البعض[٤]. حتى فى أوروبا، ظهرت قوة عظيمة خارج المنطقة اكتسحتها "**النهضة**" و"**الإصلاح**" و"**الحروب الدينية**". فى الشرق، بدأ حكام متعاقبون يحولون دوقية مسكوڤيا- **Muscovy** إلى دولة روسية مركزية ثم إلى إمبراطورية امتدت على كل شمال آسيا وزحفت على پولندا غربا.

لم تكن تلك الإمبراطوريات متخلفة اقتصاديا مقارنة بأوروبا التى كان لها نفس الملامح فى أواخر القرن التاسع عشر. كان يمكن أن تجد فيها كلها بعض

مظاهر التقدم التي كانت قد دفعت أوروبا من الإقطاع القديم في القرن العاشر، نحو المجتمعات المختلفة تماما في القرن السادس عشر. كلها كانت تعرف الأسلحة النارية على اختلاف أنواعها؛ وكان "**بابر- Babur**"، أول إمبراطور مغولي، قد هزم جيوشا ضخمة في جنوب الهند باستخدام مدفعية لاستكمال وتدعيم قوات الخيالة العالية الكفاءة. كانت تلك المجتمعات تنقل وتقتبس عن بعضها البعض أساليب البناء ومهارات الصناعات الحرفية، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن الحرفيين والعمال الذين شاركوا في تشييد "**تاج محل**"، الضريح الذى بناه الإمبراطور "**شاه جاهان- Shah Jahan**"، كانوا قد جاؤوا من أنحاء آسيا وأوروبا. في كل تلك الإمبراطوريات، كانت الزراعة والغذاء يتغيران بدرجة كبيرة مع انتشار النباتات الجديدة المدجنة من الأمريكتين - زراعة الشطة والفلفل الحلو والطماطم والتبغ والذرة في الهند؛ والبطاطا الحلوة واللوز والجوز والذرة والتبغ في الصين.

غروب الصين المجيد

في أوائل القرن الخامس عشر، كانت الصين تتعافى من الأزمة الطاحنة التي كانت قد ألمت بها في القرن السابق؛ أما أحد مظاهر هذا التعافي فهي سلسلة الرحلات الكبرى المتمثلة في الحملات البحرية. كانت أساطيل سفن ضخمة تحمل أكثر من عشرين ألف من البشر، تبحر إلى الساحل الغربي للهند و"آدن"، وتواصل إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، وكانت الرحلة أحيانا تقطع نحو ستة آلاف ميل دون توقف. كان ذلك قبل ثلاثة أرباع قرن من محاولة الأساطيل الإسبانية أو البرتغالية القيام برحلات مشابهة.

يصف "**چيرنيه- Gernet**"، كذلك، القرن السادس عشر بأنه كان "بداية عصر جديد"[٥]، ففي الزراعة كما يقول، كانت هناك آلات جديدة للعمل في الأرض، وللري، وللبذار، ومعالجة المنتجات، بالإضافة إلى أساليب جديدة لتحسين

التربة واختيار سلالات جديدة من النباتات؛ أما فى الصناعة، فكانوا قد عرفوا نول الحرير الثلاثى أو رباعى اللفافات المكوكية، مع التحسن فى أنوال القطن، وتطور الطباعة، والطرق الجديدة لصناعة السكر الأبيض والسكر الناعم(٦)، و"فى النصف الأول من القرن السابع عشر، كان أن ظهرت أعمال كثيرة ذات طبيعة علمية أو فنية" تتناول موضوعات متنوعة مثل طرق الزراعة والنسيج وصناعة السيراميك والحديد والصلـــب، والنقل البحـــرى، والأسلحـــة، والورق والأحبار والأجهـــزة الهيدروليكية(٧). المؤكد أن تلك لم تكن فترة ركود تكنولوجى، ولا كان التفكير فيها مجرد ترديد لمسلمات من الماضى. يحدثنا "**جيرنيه**" عن مفكرين مثل "**وانج كن- Wange Ken**"، بائع الملح السابق الذى علم نفسه بنفسه وكان يسائل ويناقش الأفكار الراسخة للشخصيات التاريخية، ويتحدى نفاق العصر والأخلاقيات الموروثة، كما كان يدافع عن "الطبقات الدنيا والنساء والأقليات العرقية"(٨)، ويضيف "**جيرنيه**":

> **"كانت أواخر القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر تتميزان بتقدم ملحوظ فى المسرح والقصة القصيرة والرواية وبظهـــور ثقافة عامة شبه شعبية.... وطبقة متوسطة شغوفة بالقراءة والثقافة، ولم يسبق أن كانت صناعة الكتاب بمثل تلك الجودة ولا كانت المنتجات الثقافية بمثل ذلك المستوى"(٩).**

كان هناك "زيادة مضطردة فى عدد المطبوعات الزهيدة الثمن"، مع "ظهور أدب مكتوب بلغة أقرب إلى العامية منه إلى الصينية القديمة... يخاطب جمهورا حضريا متوسط التعليم... كانت لغة متحررة من القيود الكلاسيكية..."(١٠)؛ وإذا كانت رواية "**جيرنيه**" صادقة، فلا بد أن الصين كانت تمر بنهضة تقنية وفكرية فى نفس الوقت تقريبا، مثل أوروبا(١١).

كانت هناك أيضا بعـــض التغيرات الاجتماعية المشابهة، إذ كانت الدولـــة تستبدل على نحو مضطرد خدمات العمل القديمة للفلاحين والصناع بضرائب مالية، كما أدى إدارة الزراعة بأسلوب تجارى إلى إنتاج محاصيل صناعية مثل القطن ومواد الصباغة والزيوت النباتية والتبغ. كان الفلاحون الأكثر فقرا، الذين

طردهم الإقطاعيون من الأرض، كانوا يبحثون عن لقمة العيش بوسائل أخرى – الاشتغال بحرف يدوية، الهجرة إلى مناطق التعدين، البحث عن عمل فى المدن. ازدهرت المشروعات والأنشطة التجارية والحرفية وبخاصة فى المناطق الساحلية فى الشمال والشرق. ومثلما كان الأمر فى أوروبا، كان معظم الإنتاج ما زال يتم فى ورش الصناع والحرفيين، مع نماذج فى بعض الأحيان لما يشبه الرأسمالية الصناعية. المشروعات الصغيرة كانت تكبر وكان بعضها يستخدم المئات من العمال. كانت هناك أعداد كبيرة من نساء الفلاحين اللائى يعملن فى مصانع القطن فى "سنج شيانج" جنوب غرب "شانغهاى"[١٢]، وفى أواخر القرن السادس عشر كان هناك قرابة **50000** عامل فى **30** مصنع للورق فى "كيانج سى"[١٣]. كانت بعض الصناعات الصينية قد بدأت تنتج لسوق عالمية وليس للسوق المحلية فحسب. كان الحرير والسيراميك يصدران بكميات كبيرة إلى اليابان[١٤]؛ ولم يمر وقت طويل لتظهر الملابس المصنوعة من الحرير الصينى فى شوارع "طوكيو" و"ليما"، ويباع القطن الصينى فى أسواق "الفيلبين" و"المكسيك"، ويستخدم الخزف الصينى فى أحدث البيوت من "ساكاى" إلى "لندن"[١٥].

كانت فترة نمو اقتصادى، رغم استمرار حالة الفقر بين الطبقات الدنيا. بعد انخفاض عدد السكان إلى قرابة **70** مليونا فى القرن الرابع عشر، ارتفع إلى **130** مليونا إلى أواخر القرن السادس عشر، وإلى نحو **170** مليونا فى خمسينيات القرن السابع عشر[١٦]. دخلت الإمبراطورية بعد ذلك فى أزمة طاحنة، أشبه من نواح كثيرة بأزمات القرنين الرابع والرابع عشر، كما كانت تشبه الأزمة المتزامنة فى معظم دول أوروبا فى القرن السابع عشر. كان هناك متوالية من الأوبئة والسيول والقحط... وغيرها من الكوارث. دمرت المجاعات مناطق كاملة. توقفت الزيادة السكانية، بل إن المعدل كان يتراجع فى بعض المناطق[١٧]، وبحلول العقد الرابع من القرن السابع عشر، كانت التقارير من "تش كيانج" الشمالية (الواقعة خلف شانغهاى)، تتحدث عن "مجاعة عامة وعن جموع من المتسولين وعمليات وأد للأطفال وأكل لحوم البشر"[١٨].

"بحلـول العام 1642، كانت مدينـة "سـوشو- Soochow" [أدنى اليانجتسى] فى تدهور كبير، منازل كبيرة خالية تتحول إلى خرائب، بينما أصبحت المناطق الريفية التى كانت مزدهرة ذات يوم، أصبحت مناطق جرداء غير آهلة، لا يمكن دخولها إلا بالسلاح"(١٩).

غالبا ما يفسر المؤرخون تلك الأزمة، مثل ما سبقها من أزمات، بإرجاعها إلى أسباب مثل الزيادة السكانية أو فشل المحاصيل نتيجة تغيرات كونية فى الطقس(٢٠)، غير أن الأرز كان موجودا فى دلتا الـ"يانجتسى" حتى أثناء المجاعات الطاحنة التى أصابت البلاد فى أوائل العقد الرابع من القرن السابع عشر... إلا أن الناس لم يكونوا يستطيعون شراءه"(٢١).

الحقيقة أن الأزمات كانت متجذرة فى تنظيم المجتمع الصينى. كانت الدولة وأجهزتها البيروقراطية الطبقية قد شجعت التوسع الاقتصادى بعد أزمة القرن الرابع عشر، إلا أنهم سرعان ما أصبحوا يخشون الآثار الجانبية لذلك، وبخاصة نفوذ التجار الذى كان قد بدأ يتزايد. كان هناك توقف مفاجئ للرحلات البحرية إلى الهند وأفريقيا فى 1433، (ما يؤكد أن ما "اكتشف" الصين كان السفن الأوروبية وليس العكس)"(٢٢) كان ما يهم "إمبراطورية منج" فى المقام الأول هو "عدم السماح للتجارة الساحلية بتعكير صفو الحياة الاجتماعية لمجتمعها الزراعى"(٢٣). كان حكامها عاجزين عن إيقاف كل التجارة عبر البحار. شهدت المناطق الساحلية نموا لما يطلق عليه اليوم "الاقتصاد الأسود"، كما كانت هناك صدامات عسكرية حادة مع "قراصنة" يسيطرون على تلك المناطق؛ إلا أن الإجراءات التى كانت تتخذها الدولة كان من شأنها أن تعوق تطور أساليب الإنتاج الجديدة.

فى الوقت نفسه كان إنفاق الدولة الباهظ وغير المنتج، عبئا كبيرا يستنزف الاقتصاد، ففى عهد الإمبراطور "وان لى- Wanli"، على سبيل المثال، كان هناك 45 أميرا من المرتبة الأولى يحصل كل منهم على دخل يعادل 600 طنا من الحبوب سنويا، و23000 من النبلاء الأقل منهم مرتبة، وكان أكثر من نصف عائد الضرائب فى أقاليم "شانسى" و"هونان" يستخدم لدفع هذه المخصصات؛ كما أن

الحرب مع اليابـــان من أجل السيطرة على كوريا كانت قد "أنهكت الخـــزانة تماما"(٢٤). هذه الصعوبات الحادة مجتمعة كانت تؤدى إلى سخط شعبى شديد. كل سنة تقريبا فى الفترة ما بين **1596** و**1626**، كانت هناك اضطرابات "عمالية" فى أكثر مناطق البلاد تقدما من الناحية الاقتصادية(٢٥)، ففى **1603** زحف عمال بعض المناجم الخاصة على "بيجن"، وفى عشرينيات القرن السابع عشر كانت هناك أعمال تمرد فى الشمال الغربى من شعوب غير صينية، وفى ثلاثينيات القرن السابع عشر كانت هناك ثورات فلاحية كبيرة فى شمال البلاد، وفى قمة المجتمع ظهر شكل من المعارضة بين المثقفين تم سحقها بواسطة شبكة الشرطة السرية"(٢٦).

فى **1644** كان الانهيار السياسى، إذ شنق آخر إمبراطور من أسرة "منج" نفسه، على أثر قيام قائد جيش من الفلاحين كان راعى غنم فى السابق، ليعلن عن أسرة جديدة؛ وبعد شهر واحد استولى غزاة من "**المانشو – Manchus**" من الشمال، على "بيجن".

كانت الأزمة الاقتصادية والسياسية تشبه فى جوانب كثيرة منها أزمة أوروبا فى الفترة نفسها. لم تكن الطبقات التجارية والصناعية قد بدأت طرح بديل للنظام القديم، ولكن كان هناك فرق. لم يفعلوا حتى ما فعله التجار الكالفنيون وطبقة الحضر فى فرنسا وعندما مارسوا قدرا من النفوذ على الجناح المنشق من الطبقة الأرستقراطية، والمؤكد كذلك أنهم لم يعيدوا صياغة المجتمع ككل حسب تصورهم مثلما فعلت البرجوازية التجارية فى المناطق الشمالية من الأراضى الواطئة، والطبقات المتوسطة فى إنجلترا؛ ومثلما كان الأمر إبان الأزمات الكبرى فى المجتمع الصينى، كانت الطبقات التدارية والصناعية تعتمد، إلى حد كبير، على بيروقراطية الدولة لكى تقدم بديلا.

لم تستمر حالة الفوضى سوى سنوات قليلة. كان "**المانشو – The Manchus**" قد استوعبوا جوانب كثيرة من الحضارة الصينية قبل وقت طويل، وباستعادتهم الهدوء والاستقرار للجوانب الماليـــة الإمبراطورية، وضعوا إطار عمل للتعافـــى

الاقتصادى – لفترة ما. كان هناك تقدم فى مجال الزراعة مع زيادة غلة النباتات الأمريكية واتساع حجم المحاصيل الصناعية. كانت أحوال الفلاحين "أفضل بكثير منها لدى نظرائهم الفرنسيين فى عهد "لويس الخامس عشر"، إذ كانوا يستطيعون تعليم أولادهم فى المدارس"(٢٧). عاد الإنتاج التجارى والحرفى ليفوق ما كان من قبل. كان هناك نحو **200000** عامل نسيج، يعملون كل الوقت، فى المنطقة جنوب غرب "شانغهاى"، وعشرات الألوف من عمال الخزف الذين ينتجون لسد احتياجات البلاط وللتصدير، حتى، إلى أوروبا. زاد إنتاج الشاى بسرعة كبيرة حيث كان يتم معالجة الأوراق فى مصانع صغيرة يعمل بها مئات العمال، وتصدير الشاى بحرا، وتشير بعض التقديرات إلى أن نصف الفضة التى كانت تحمل من أمريكا إلى أوروبا بين **1571** و**1821** كانت ينتهى بها الأمر ثمنا لسلع من الصين. زاد عدد السكان بدرجة كبيرة حيث كان الناس يرون أملا فى المستقبل، ووصل إلى **260** مليون نسمة، فى **1812**(٢٨). كانت الصين "أغنى وأقوى دولة فى العالم"(٢٩).

هذه القوة الكلية للإمبراطورية خلفت حالة من الدعة والرضا عن الذات لدى دوائر الحكم، وأدت هذه الحالة بدورها إلى ركود فكرى. كانت سنوات "**المانشو**" الأولى قد شهدت ازدهارا فكريا وموجة من "التفكير الحر والنقد الثورى ومساءلة المؤسسات والأسس الفكرية للإمبراطورية الاستبدادية"(٣٠). روح من الحيوية والنشاط كانت تسود عالم الأدب والفن والفلسفة والتاريخ. ما يروى عن تلك الفترة يذكرنا و"**التنوير – Enlightenment**" الأوروبى(٣١)، إلا أن الروح النقدية خمدت عندما "التفت الطبقات المتعلمة حول النظام الجديد"(٣٢). حدث تدهور للأدب الشعبى الموجه للطبقات الحضرية المتوسطة(٣٣)، وحظر على أى شىء يمكن أن يعتبر نقدا، ولو بسيطا، للنظام، إذ شهدت الفترة من **1774** إلى **1789** حظر أكثر من عشرة آلاف عمل واتلاف **2320** عملا آخر. كان الكتاب المنشقون وأقاربهم يواجهون عقوبات مثل النفى والأعمال الشاقة ومصادرة ممتلكاتهم وربما الإعدام"(٣٤)، أما تجنب تناول القضايا الحقيقية فكان الضمان الوحيد لنجاة المفكرين من مثل ذلك المصير. ما نجا

من الأدب "كان ذلك الذى يكتب بلغة قديمة صعبة الفهم، مليئة بالاجترار والتلميح أحيانا... أما الرواية فأصبحــت أكثر ميلا للسخرية الماكرة والجوانب النفسيــة... أو لاستعراض المعارف"[٣٥].

لم يتناول أحد الأسباب الحقيقية لأزمة القرن السابع عشر، وسرعان ما عادت الأعراض القديمة للظهور – إنفاق واسع على البلاط الإمبراطورى، تفشى الفساد فى الإدارة، حروب باهظة التكلفة على الحدود، المزيد من ظلم واضطهاد الفلاحين من قبل الإدارة وجباة الضرائب، فشل فى صيانة الجسور وقنوات الرى، والسيول الكارثية أحيانا[٣٦]. موجة جديدة من الثورات الفلاحية سوف تبدأ مع ظهور "**زهرة اللوتس البيضاء– White Lotus**" فى **1795**، لتتبعها واحدة من أكبر الثورات فى تاريخ الصين فى غضون نصف القرن.

الهند المغولية

كانت الهند المغولية مجتمعا شديد الاختلاف مقارنة بالصين. لم يكن لديها مثل تلك المنظومة الكبيرة لدى[٣٧]، ولا مثل تلك البيروقراطية المركزية المحملة بتراث أدبى عمره نحو **2000** عام تقريبا، ولا طبقة كبيرة، من ملاك الأراضى، ولا طبقة فلاحية تبيع وتشترى فى الأسواق المحلية.

كان تعاقب من حكام مسلمين قد اكتسح معظم شمال الهند اعتبارا من القرن الثالث عشر، فارضا هياكل مركزية على الاقتصادات الريفية المحلية لـــ"**العصور الوسطى الهندية– Indian Middle Ages**". قام الأباطرة المغول بتطوير النظام ليحكموا من خلال هيئة هرمية من الموظفين كان لهم حق القيام بتحصيل الضرائب الزراعية فى مناطق معينة، للإنفاق على قوات الخيالة اللازمة لمهام الدولة العسكرية. لم يكن جباة الضرائب أولئك من ملاك الأراضى، رغم أنهم كانوا يثرون من استغلال الفلاحين. كانت هناك، كذلك، طبقة أخرى من الملاك – **طبقة**

الزمندار– The Zamindars – فى كل موقع محلى. كانوا غالبا طائفة عليا من الهندوس، من الطبقات العليا المستغلة قبل المغول، الذين كانوا يساعدون فى تحصيل الضرائب ويحصلون علىّ نصيب منها[٣٨].

.كانت الغالبية العظمى من أهل الريف يعيشون فى قرى مكتفية ذاتيا تقريبا، كما كانت جماعات تقليدية من الفلاحين تقوم بإنتاج الغذاء لجماعات تقليدية أخرى فى القرى، مثل الحدادين والندارين والنساجين والحلاقين فى تقسيم ذاتى للعمل الذى لم يكن يتضمن التعامل النقدى. كانت كل عناصر نظام الطوائف فى العصور الوسطى قد بقيت كما هى، متماسكة.

إلا أن الفلاحين كانوا يحتاجون النقد (cash) لدفع الضرائب، وكان لا بد من أن يبيعوا ما بين الثلث والنصف من محاصيلهم للحصول عليه، أما من كانوا يتخلفون عن الدفع فكانوا، كما سجل أحد المراقبين فى عشرينيات القرن السابع عشر، "يحملون بالقوة مكبلين بالسلاسل الثقيلة، إلى الأسواق" لبيعهم عبيدا، "وخلفهم زوجاتهم البائسات يحملن أطفالهن، يصرخن وينتحبن، لما هن فيه من بلاء وكرب"[٣٩].

كان الجزء الأكبر من الفائض المنتزع من الفلاحين بهذا الأسلوب، يذهب للبلاط الإمبراطورى وبيروقراطية الدولة وجيوشها؛ وكما يفسر لنا الأمر "**عرفان حبيب**": "لم تكن الدولة تعمل باعتبارها الذراع الواقية للطبقات المستغلة فحسب، بل كانت هى نفسها الأداة الرئيسية للاستغلال"[٤٠]. لم تكن حصيلة الضرائب تعود على القرى بأى نفع. كانت الدولة تستخدمها فى مدن وبلدات الإمبراطورية.

كانت النتيجة نمو إنتاج تجارى وحرفى مدينى، ونظام أبعد ما يكون عن الاستقرار الاقتصادى. شهدت الفترة المغولية "تحقيق مستوى غير مسبوق من الازدهار الصناعى والتجارى، انعكس فى نمو حضرى عام"[٤١]. كان هناك "تعظم وتوسيع وتعدد للحرف والصناعات"، وفى كل من التجارة الداخلية والدولية، كما كان هناك "نحو **120** مدينة كبيرة"[٤٢]. وتجمعات سكانية ومعدلات هائلة من الإنتاج

والاستهـــلاك فى "لاهور" و"دلهى" و"أجرا"، وبدرجـــة أقل نوعا ما فـــى "لكنو" و"بينارس" و"الله أباد"[٤٣]. كان المراقبون المعاصرون يعتبرون "لاهور": "أعظم مدن الشرق[٤٤]، كما كان أحد الزائرين الأوروبيين يقدر تعداد "أجرا" بـــ**650000** نسمة[٤٥]، كما يقول: إن "دلهى" كانت آنذاك بحجم "باريس" أكبر مدن أوروبا[٤٦].

كانت المنسوجات القطنية، الصناعة الأكبر، تصدر إلى أوروبا فى القرن السابع عشر، إذ كان "نحو **32** مركزا حضريا تقوم بتصنيع القطن بكميات هائلة"[٤٧]، و"لم تكن هناك مدينة أو بلدة أو قرية تخلو من مثل تلك الصناعات"[٤٨]، كما كان "من عادة كل بيت تقريبا أن يكون لديه "عجلة النسج" الخاصة به"[٤٩]؛ فى الوقت نفسه يذكرنا "تنظيم الائتمان التجارى والتأمين والإيداع المصرفى الدولى، يذكرنا بظروف أوروبا فى عصر النهضة"[٥٠].

إلا أن عنصرا مهما كان غائبا، لكى يدوم هذا التقدم الاقتصادى – لم يكن هناك أى عائد على القوى من هذا التقدم الحادث فى المدن، فكما كتب أحد الشهود المعاصرين: "كان الكثير ينتزع من الفلاحين، وكانوا لا يجدون، حتى الخبز اليابس، ليقيم أودهم"[٥١]. لم يكونوا يستطيعون شراء أدوات أفضل. "ليس ثمة دليل على أن القرى كانت، على أى نحو، تعتمد على صناعة المدينة"[٥٢]، وعليه فإن نمو تجارة المدن كان مصحوبا بركود وإفقار القرى؛ وعموما، "لم تكن المدينة هى تلك التى تنتج سلعا لاستخدام المجتمع، بل كانت مدينة تدمر الريف وتلتهم الناتج المحلى"[٥٣].

كان للأثـــر الطويـــل المـــدى أن يدمر القاعـــدة الإنتاجيـــة الفلاحيـــة فى الإمبراطورية[٥٤]؛ وفى الوقت الذى كان يستخدم فيه "**شاه جاهان**" عائد الضرائب لتجميل "لاهور" و"دلهى" و"أجرا"، ويبنى "**تاج محل**"، "كان الجدب يصيب الأرض بسبب الرشوة والضرائب وابتزاز الفلاحين وهجرهم الأرض تحت كل تلك الضغوط"[٥٥]، ويوضح "**حبيب**" كيف أن "المجاعات هى الدافع الأول لتحركات الأهالى... ولكن نظاما آخر من صنع الإنسان، أكثر من أى عامل آخر، كان وراء حراك الفلاحين"[٥٦].

كان أحد أسباب نمو المدن تدفق الفلاحين المعدمين عليها بحثا عن عمل، إلا أن ذلك لم يعالج الأثر الكبير للضرائب الباهظة على الريف، وفي الوقت نفسه الذى كانت تبدو فيه الإمبراطورية فى ذروة مجدها، كانت تدخل مرحلة اضمحلال كان لا بد من أن تكون نهائية.

كانت الآثار قد أصبحت واضحة جلية فى عهد "**أورنجزيب– Aurangzeb**"، ابن "**شاه جاهان**" (وسجانه)[٥٧]. يقارن الكثير من تواريخ المغول بين تعصب "**أورنجزيب**" الإسلامى، والأعمال المعادية للهندوس والحروب المتواصلة، وبين حكم "**أكبر– Akbar**" الذى كان يبدو مستنيرا، والذى كان يقوم على التسامح الدينى والسيطرة على جشع المسئولين المحليين وتحجيمهم؛ وما من شك فى أن الاختلافات كانت تعود فى جزء منها إلى الفرق بين شخصيتى الإمبراطورين؛ إلا أنهما كذلك يتوافقان مع فترتين – فترة كانت ما زالت الإمبراطورية تستطيع التمدد دون أن تضر بقاعدتها الزراعية، وفترة لم يعد ممكنا أن يتم فيها ذلك.

فى النهاية، بدأت الصناعة الحضرية والمدن تعانى من التدهور الزراعى – ربما باستثناء منطقة البنغال؛ وبعد **1712**، لم يكن فى طأجرا" حديث سوى عن "حالة المدينة التى يرثى لها، والمجد الذى كان"[٥٨].

فى البداية، لم يكن يستطيع أن يتحدى السلطة المغولية سوى قلة من الفلاحين. "كان الناس يتحملون صابرين، ويقولون: إنهم لا يريدون شيئا أفضل"، كما كتب أحد الرحالة الأوروبيين فى عشرينيات القرن السابع عشر[٥٩]. كان السخط فى ذلك الوقت يتجلى فى نشأة طوائف دينية جديدة. كانوا يستخدمون اللهجات المحلية بدلا من "السانسكرتية" القديمة، وكان أنبياؤهم ودعاتهم ينتمون فى معظمهم إلى الطبقات الدنيا – إذ كان يمكن أن تجد بينهم النساج والمشاط والعبد... وتاجر الحبوب "**جورو ناناك– Guru Nanak**" مؤسس "**السيخية– Sikism**"[٦٠]. كانت تلك الطوائف تتحدى الأيديولوجية الدينية التقليدية التى تقوم على "**البراهمانية– Brahmanism**"، وتتبنى "عقيدة توحيدية متشددة، والتخلى عن الأشكال الطقوسية للعبادة، وإنكار الحواجز الطائفية والفوارق المجتمعية"[٦١]، إلا

أنها كانت تنفر كذلك من لغة التمرد الكامل. كانت تنادى بـــ"التواضع والرضا والتسليم"، لا "الاقتتال والصراع المادى"(٦٢).

تغير ذلك مع زيادة ظروف أتباعهم سوءا: "لم تكن الطوائف تستطيـــع أن تبقى دائما محصورة فى إطارها الغامض، كانت إلهاما لاثنتين من أقوى الثورات ضد المغول، هما ثورتا "**الساتنام**- **The Satnams**" و"**السيخ**- **Sikhs**"(٦٣). فى أواخر عهد "**أورانجزيب**"، كان الثائرون "**السيخ**" الذين لم يكن قد تم القضاء عليهم تماما، كانوا قد أصبحوا مشكلة فى المنطقة الخلفية لمدينة "لاهور"(٦٤)، كما كان هناك تمرد لطائفة الـــ"**جات**- **Jat**" الفلاحية فى المنطقة الواقعة بين "أجرا" و"دلهى"، (وكان أحد الكتاب يتباهى بأن قمع إحدى عمليات التمرد تضمن قتل نحو عشرة آلاف من أولئك الوحوش الذين كانوا يبدون فى صورة بشر"(٦٥)، كان التمرد الكبير للسيخ فى عام ١٧٠٩(٦٦)، كما كان هناك تمرد لـــ"**الماراثا**- **Marathas**"، "الذين كانوا القوة الكبرى الوحيدة المسئولة عن سقوط الإمبراطورية"(٦٧).

كانت معاناة الفلاحين الحادة هى وقود القوة القتالية لكل حركات التمرد، إلا أن القيادة كانت دائما من طبقة "**الزمندار**" أو الطبقات المحلية الأخرى المستغلة، التى كانت مستاءة لحصول الطبقة الحاكمة المغولية على نصيب الأسد من الفائض. هكذا اندمجت "انتفاضات وتمردات المظلومين" مع "الحرب بين طبقتين ظالمتين"(٦٨).

لم يكن للتجار والصناع دور رئيسى فى تلك الانتفاضات. كانوا يعولون على أسواق السلع الترفية للحكام المغول، وكان ينقصهم شبكة الأسواق المحلية، التى مكنت الطبقات الحضرية فى بعض مناطق أوروبا، من أن يكون لها تأثير على الريف. كان المجتمع القديم فى أزمة، ولكن البرجوازية لم تكن مستعدة للقيام بدور مستقل فى الصراع من أجل تغييره(٦٩)، وهكذا أصبح قادة "**الزمندار**" مطلقى اليد لاستغلال الانتفاضات وعمليات التمـــرد لصالحهم... ومـــا كان ليستطيع مثل هؤلاء دفع المجتمع إلى الأمام.

وكما يستخلص "عرفان حبيب":

هكذا تحطمت الإمبراطورية المغولية. لم يقم نظام جديد، ولا كان ذلك ممكنا، نتيجة للقوة التى هبت ضدها... كانت الأبواب مشرعة أمام عمليات سلب ونهب لا حدود لها... فوضى... وغزو أجنبى. إلا أن الإمبراطورية المغولية كانت هى من حفر قبرها(٧٠).

كان الطريق مفتوحا أمام جيوش من أوروبا الغربية لبدء بناء إمبراطورية خاصة بهم، والحصول على دعم وتأييد قطاعات من البرجوازية التجارية الهندية، وهم يقومون بذلك.

الهوامش

(١) المدينة المعروفة اليوم بـ"جووا القديمة- Old Goa".

(٢) بالقرب من مدينة "هامبى- Hampi" الحالية.

(٣) كما جاء في:

V.A. Smith, "The Oxford History of India", (Oxford, 1985), p.312.

(٤) المعارك التى ظهرت فى فيلم "ران" للمخرج "كيراساوا".

(5) J. Gernet, "A History of Chinese Civilisation" (Cambridge, 1996), p.424.

وانظر كذلك:

'Introduction' to F.W. Mote and D.Twitchett (eds), "Cambridge History of China", vol.7 (Cambridge, 1988), pp. 508-509.

(6) J. Gernet, "A History", p.426.

(7) J. Gernet, "A History", p.442.

مثلما تعلمت أوروبا العصور الوسطى من الصين، كان للمفكرون والفنيون الصينيون ينقلون عن "بعثة چيزويت" فى "بيچين" المعارف الجديدة لأوروبا ما بعد النهضة. انظر:

C.A. Ranon and J. Needham "The Shorter Science and Civilisation of China", vol.4, (Cambridge, 1994), pp. 220-221.

(8) J. Gernet, "A History", p. 440.

(9) J. Gernet, "A History", p. 437.

(10) J. Gernet, "A History", p. 446.

(١١) بالرغم من أن "رونان- Ronan" و"نيدام- Needham" يريان أن تأثير النهضة الأوروبية كان له أهمية كبيرة فى حين القرن السابع عشر. انظر:

C.A. Ranon and J. Needham "Shorter Science", (pp. 1, 34).

(12) J. Gernet, "A History", p. 425.

(13) J. Gernet, "A History", p. 426.

(14) J. Gernet, "A History", p. 426.

(15) F.W. Mote and D. Twitchett, "Cambridge, vol.7, p. 586.

(١٦) التقديرات الواردة في:

J. Gernet, "A History", p. 429.

F.W. Mote and D. Twitchett, Cambridge, vol. 7, p.586.

(17) F.W. Mote and D. Twitchett, Cambridge, vol.7, p.586.

(18) F.W. Mote and D. Twitchett, Cambridge, vol.7, p. 631.

(19) F.W. Mote and D. Twitchett, Cambridge, vol.7, p. 632.

(20) Geoffrey Parker, in G.Parker, "Europe in Crisis", pp. 17-22.

(21) F.W. Mote and D. Twitchett, Cambridge, vol.7, p. 587.

(٢٢) لم تكن المقاومة لزيادة نفوذ التجار هي السبب الوحيد لتوقف الحملات. كانت الحملات مكلفة بالنسبة للدولة، ولم تكن الصين في حاجة شديدة للسلع الموجودة في المحيط الهندي – أو لذلك الأمر في أوروبا. كانت الإمبراطورية تصدر أكثر مما تستورد حتى نشأة تجارة الأفيون في القرن التاسع عشر.

(23) F.W. Mote and D. Twitchett, "Cambridge, vol.7, p. 518.

(24) J. Gernet, "A History", p. 431.

(25) J. Gernet, "A History", p. 432.

(٢٦) للاطلاع على التفاصيل، انظر: J. Gernet, "A History", p.432

(27) J. Gernet, "A History", p. 483.

(٢٨) الأرقام، كما ورد في: J. Gernet, "A History", p. 489

(29) J. Gernet, "A History", p. 464.

(30) J. Gernet, "A History", p. 497.

(٣١) انظر: J. Gernet, "A History", pp. 497-505

بالرغم من أن Jernet نفسه، لسبب ما، يستخدم مصطلح "مستنيرة– enlightened" لوصف الثقافة في الفترة التالية لقبول حكم الـ"مانشو – Manchu".

(32) J. Gernet, "A History", p. 505.

(33) J. Gernet, "A History", p. 507.

(٣٤) التفاصيل عن: J. Gernet, "A History", p. 508

(35) J. Gernet, "A History", p. 509.

(٣٦) للمزيد عن أعراض الأزمة، انظر: J. Gernet, "A History"

(٣٧) كان أحد أخطاء "ماركس" في كتاباته عن الهند مغالاته في تأكيد أهمية هذه الأشياء. "عرفان حبيب"، رغم ثنائه على هذه الكتابات يقول: "بالرغم مما يقوله "ماركس"، من الصعب أن

نصدق أن إنشاء الدولة لأعمال الري والإشراف عليها، كان ملمحا مهما في الحياة الزراعية للهند في عهد المغول". انظر:

I. Habib, "The Agrarian System of Mughal India", (London, 1963). P.256.

(٣٨) للاطلاع على وصف أكثر تفصيلا للعلاقــات بين المسؤولين المغول وجباة الضرائب (الزمندارية- **Zamindars**)، انظر: **I. Habib, "Agrarian", p.153-185**

(٣٩) اقتباس عن "مانركس- **Manriques**" كما ورد في:

I. Habib, "The Agrarian", pp.322-323.

(40) **I. Habib, "The Agrarian", p. 250.**

كانت الدولة تحصل على جزء من الفائض أكبر بكثير مما كان يحصل عليه "الزامندارية" (جباة الضرائب) انظر:

I. Habib, "The Agrarian", p. 153.

(41) H.K. Naqvi, "Mughal Hindustan: Cities and Industries, 1556-1803", (Karachi, 1974).

(٤٢) حسب ما ذكره **S.Maqvi** في:

"Marx on Pre-British Indian Society", in D.D.Kosambi Commemoration Committee (eds), Essays in Honour of D.D. Kosambi, Science and Human Progress, (Bombay, 1974).

(43) H.K. Naqvi, "Mughal", p.2.

(44) H.K. Naqvi, "Mughal", p. 18.

(45) H.K. Naqvi, "Mughal", p.22; I. Habib, "The Agrarian", p. 75.

(46) I. Habib, "The Agrarian", p. 76.

(47) I. Habib, "Problems in Marxist Historical Analysis", in D.D. Kosambi, p.73.

(48) H.K. Naqvi, "Mughal", p. 155.

(49) H.K. Naqvi, "Mughal", p. 171.

(50) I. Habib, "Problems", p.46.

(٥١) اقتباس عن "بلزايرت- **Pelsaert**" كما ورد في:

I. Habib, "The Agrarian", p.190.

(52) I. Habib, "The Agrarian", p. 77.

(53) D.D. Kosambi, "Introduction", in D.D. Kosambi, p.387.

يستخدم كوسامبى– Kosambi مصطلح "الإقطاع" لوصف المجتمع فى تلك الفترة، أما "عرفان حبيب" فينكر صحة ذلك بعد 1200 ق.م على الأقل، على افتراض عدم وجود قنانة أو طبقة حقيقية من ملاك الأراضى، وتحويل جزء كبير من الفائض إلى نقود لدفاع الضرائب. انظر:

I. Habib, "Problems", p. 46.

(54) I. Habib, "The Agrarian", p. 320.

(55) I. Habib, "The Agrarian", p. 321.

(56) I. Habib, "The Agrarian", p. 328.

(٥٧) خلع "أورنجزيب– Aurangzeb" أباه واحتجزه فى أحد الأبراج فى قلعة "أجرا– Agra"، كان يرى منه صرحه العظيم (الباهظ)" تاج محل".

(٥٨) اقتباس عن أحد الشهود المعاصرين، كما ورد فى:

H.K. Naqvi, "Mughal", p. 23.

(٥٩) اقتباس فى: I. Habib, "The Agrarian", p. 330

(٦٠) التفاصيل فى: I. Habib, "The Agrarian", p. 330

(61) I. Habib, "The Agrarian", p. 333.

(62) I. Habib, "The Agrarian", p. 333.

(63) I. Habib, "The Agrarian", p. 333.

(64) H.K. Naqvi, "Mughal", p. 18.

(٦٥) اقتباس فى: I. Habib, "The Agrarian", p. 339

(66) I. Habib, "The Agrarian", pp. 344-345.

(67) I. Habib, "The Agrarian", p. 346.

(68) I. Habib, "The Agrarian", p. 333.

(٦٩) هناك جدل كبير بين مؤرخى الهند حول عدم ترسيخ البرجوازية نفسها. البعض يرى أنها كانت ضعيفة نتيجة للكساد الاقتصادى، بينما يرى آخرون أنها لم تقاتل مستقلة حيث كانت ترى فى "شركة الهند الشرقية" أداة لتحقيق أهدافها؛ ولعدم إلمامى الكامل بالأمر، لا أستطيع أن أعلق على هذا الخلاف؛ ولا أظن أن ذلك يغير من النقطة الأساسية – وهى أنها فشلت فى أن تعمل مستقلة، ثم كانت النتيجة المعاناة لأن "شركة الهند الشرقية" حسب أهداف تتحقق فى لندن وليس الهند.

(70) I. Habib, "The Agrarian", p. 351.

مصادر للمزيد من الاطلاع

* لا يوجد حتى الآن ما هو أفضل من الجزء الأول من "البيان الشيوعي– The Communist Manifesto" لتقديم فكرة عامة عن التغيرات الجارفة التي حدثت.

* تقدم المجلدات الثلاثة من كتاب "فرنان برودل– Fernand Braudel": (Capitalism and Civilisation)، التي تغطي الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، تقدم وصفاً مفصلاً للتغيرات في حياة الناس والسياسات العالمية مع نشأة السوق.

* يقدم كتاب "R.S. Duplessis": (Transitions to Capitalism in Early Modern Europe)، وصفا موجزا للتغيرات الاقتصادية في أوروبا على مدى ثلاثة قرون.

وانظر كذلك:

* **Thomas Brady, "The Politics of Reformation in Germany";**

* **P. Bickle, "Communal Reformation";**

* **J. Abray, "The People's Reformation".**

وذلك للاطلاع على الطبيعة الاجتماعية للإصلاح الألماني.

ومن الكتب الجديرة بالقراءة:

* **Karl Kautsky, "Communism in Europe in the Age of the Refotmation";**

* **Engels, "The Peasant War in Germany".**

* **Henry Heller, "The Conquest of Poverty"**

رغم العنوان الملتبس للكتاب، فإنه يحتوي على تحليل ممتاز للجذور الطبقية للكالفنية في فرنسا.

* **J.V. Polisensky, "The Thirty Years War",**

مرجع رئيسى لفهم أحد أكثر الأحداث إرباكا فى التاريخ الأوروبى.

* هناك أعمال كثيرة عن "الثورة الإنجليزية"، وبخاصة كتابات "كريستوفر هيل– **Christopher Hill**" و"بريان مانتج– **Brian Manning**". وللمزيد يمكن الرجوع إلى:

*** Hill, "The Century of Revolution and God's Englishman";**

*** Manning, "Aristocrats, Plebeians and Revolution in England";**

*** Gentile, "The New Model Army".**

وللمزيد عن "الهند" انظر:

*** Burton Stein "A History of India".**

*** Irfan Habib, "Agrarian Structure of Mogui India".**

الفصل الخامس

تمدد النظام الجديد

مسرد زمنى

■ **القرن الثامن عشر**

- تعافى الزراعة والصناعة في الصين لمدة نصف قرن.
- ثورات "السيخ" و"الماراثا" تؤدى إلى تفتت إمبراطورية المغول فى الهند.
- ركود اقتصادى فى معظم أوروبا الشرقية والجنوبية.
- بطرس الأكبر يبدأ بناء "سان بطرسبورج" فى **1703**، ويحاول إدخال العلوم والأساليب التقنية الأوروبية إلى روسيا.
- توحيد إنجلترا واسكتلندا **1707**.
- فشل محاولات عودة أسرة "ستيوارت"، **1716** الثورة الزراعية فى بريطانيا، انتشار المسيجات فى كل البلاد تقريبا.
- الاقتصاد البريطانى يتجاوز فرنسا ثم هولندا.
- "ڤولتير" يصدر أول عمل فلسفى **1734**، ويمتدح النظام الإنجليزى.
- "باخ" يطور الأشكال الموسيقية.
- معركة "كلودين- **Culloden**"، هزيمة المحاولة الأخيرة لعودة أسرة "ستيوارت" إلى العرش فى بريطانيا، التدمير الدموى لبقايا إقطاع "هاى لاند"، **1746**.
- "ديدرو- **Diderot**" يبدأ نشر الموسوعة – **Encyclopédie** للتعريف بأفكار تنويرية **1751**.

- شركة الهند الشرقية البريطانية تسيطر على البنغال، **1757**.
- "روســو" يصــدر: **"Discourse on The Origins of Inequality"** (أصل عدم المساواة بين البشر)، **1755**، و"العقد الاجتماعي- **The Social Contract**"، **1762**.
- "ڤولتير" يصدر روايته الهجائية "كانديد- **Candide**"، **1759**، التي صب فيها احتقاره على التفاؤل. حظر الموسوعة، **1759**.
- إعدام اثنين من البروتستانت في فرنسا في **1761** و**1766**.
- "الاستبـداد المستنير"- الملكيات في بروسيـا، وروسيا، والبرتغال، والنمسا، تحاول إصلاح الحكم.
- نمو جلاسجو لتصبح مدينة تجارية وصناعية كبرى.
- "التنوير الاسكتلندي": "ديڤيد هيوم"، "آدم فيرجسون"، "آدم سميث".
- بريطانيا تهزم فرنسا في حرب للسيطرة على مستعمرات جديدة، **1763**.
- أوج تجارة العبيد، نمو "بريستول" و"ليڤربول" و"بوردو" و"نانتس".
- تعداد العبيد في أمريكا الشمالية **400000** (من إجمالي ثلاثة ملايين)، **1770**.
- "آركرايـت" ينشئ أول مصنع نسيـج في "كرومفـورد" في "ديربشاير"، **1771**.
- محـاولات تبرير علمـي للعنصرية- كتـاب **"Long"**: **"History of Jamaica"**، **1772**.
- "وات- **Watt**" و"بولتون- **Boulton**" وأولـى المحركات البخارية، **1775**.

- كتاب آدم سميث **"The Wealth of Nations"** وأفكار عن نظام يقوم على "العمل الحر" و"التجارة الحرة"، **1776**.
- ثورة مستعمرات أمريكا الشمالية ضد الحكم البريطانى، كتاب "توم باينى– **Tom Paine": "Common Sense"** يروج أفكار التنوير.
- "إعلان الاستقلال" يعلن "كل البشر خلقوا متساويين" (ولكنه يصمت عن مسألة العبودية)، **1776**.
- "هنرى كورت– **Henry Cort**" يبتكر أسلوبا أكثر تقدما لصهر الحديد باستخدام الفحم، **1783**.
- بدايات الثورة الصناعية في بريطانيا – **40%** من الناس لم يعودوا يعيشون على الأرض.
- سيمفونيات وأوبرات "موتسارت"، "زواج فيجارو"، **1786**؛ و"دون جيوفانى"، **1787**.

- ١ -

وقت للسلام الاجتماعى

كان القرن وربع القرن التاليين للعام **1650** مختلفين تمام الاختلاف فى معظم أوروبا عن القرن وربع القرن السابقين. كانت الحروب الدينية وانتفاضات الفلاحين والحروب الأهلية والثورات تبدو وكأنها قد أصبحت شيئا من الماضى.

كانت هناك حروب طاحنة بين قوى أوروبية مثل "حرب الخلافة الإسپانية- **War of the Spanish Succession**" فى أوائل القرن الثامن عشر، و"حرب السبع سنوات- **The Seven Years War**" فى منتصفه، كما كانت هناك صراعات فى قمة المجتمع على تقسيم السلطة الملوك والأرستقراط فى دول مثل الدانمرك والسويد وپولندا والبرتغال، بل وكانت هناك محاولات من مؤيدى "أسرة ستيوارت- **Stuart Dynasty**" فى **1690** و**1715** و**1745** لقلب النظام الدستورى الذى قام فى بريطانيا، بوسائل عسكرية؛ إلا أن الحماسة التى كانت قد هزت معظم أوروبا فى الفترة السابقة لم تكن قد بقيت سوى على أطراف القارة، وكان من السهل على أى متأمل لأوضاع العالم فى منتصف خمسينيات القرن الثامن عشر، أن يخلص إلى أن عصر الثورات قد مضى منذ زمن، بالرغم من كل صور العبث والبربرية التى صورتها على نحو شديد الذكاء رواية "ڤولتير- **Volraire**" الهجائية: "كانديد- **Candide**".

بالرغم من ذلك، كانت الملامح الرئيسية للمرحلة نتاجا للفورات الثورية السابقة. أسرة "هابسبورج"، التى كانت ذات يوم حصنا للثورة المضادة، أصبحت مجرد ظل لما كان، بعد أن فقدت التـــاج الإسپانى لصالح فرع من "البوربـــون- **Bourbons**"،

وفى المقابل كانت الدولتان اللتان اجتاحتهما القوى الثورية، الجمهورية الهولندية وإنجلتـــرا، كانتا تـــزدادان أهمية - هــولندا تستولى على معظم الإمبراطورية البرتغالية، ثم تتحدى إنجلترا ذلك.

يطلق أحيانا على النصف الثانى من القرن السابع عشر "العصر الذهبى الهولندى- **Duth Golden Age**". انتعشت الزراعة مع استصلاح الأراضى من البحر، وتبنى أنواع جديدة من النباتات وأساليب الزراعة[١]، كما ازدهرت الصناعة مع تحويل "زانستريك- **Zaanstreek**"، "ربما لتكون أحدث منطقة صناعية فى كل أوروبا"، بعد أن كانت مجرد منطقة سبخة شمال أمستردام. الآن كان يوجد بها **128** طاحونة هوائية صناعية "لتشغيل عدد كبير من الصناعات.. من صناعة الورق إلى تقشير الأرز"[٢].

بدأت إنجلترا الدخول فى "ثورة زراعية" فى أعقاب الحرب الأهلية أصبحت الزراعة تتم بأسلوب تجارى مع إدخال محاصيل جديدة - من اللفت والبطاطا إلى الذرة، كما كان هناك توسع فى الزراعة الرأسمالية، وموجة كبيرة من "المسيجات" - قيام ملاك الأراضى والمزارعين الرأسماليين ببناء سياجات وأسوار حول أراضى الرعى العامة القديمة، الأمر الذى كان يضطر الغالبية العظمى من فقراء الفلاحين للعمل أجراء.

زاد الناتج الصناعى كذلك، ففى الفترة بين **1710** و**1760** كان معدل الزيادة السنوية يقدر بـــ**0,7**%، وفى الفترة بين **1780** و**1800** كان **2**%، كما ارتفع معدل الزيـــادة السكانية فى المدن من نحـــو **9**% فى **1650** إلى **20**% فـــى **1800**[٣]. فى البداية كانت هناك معارضة واسعة فى اسكتلندا للاتحاد مع إنجلترا فى **1707**، إلا أن ذلك أدى إلى نمو كبير ومضطرد للصناعة والتجارة، وكان "دانييل ديفو- **Daniel Defoe**"، الذى زار "جلاسجو" بعد **15** سنة يمكن أن يصفها باعتبارها "مدينة تجارية، هنا مدينة تجارة داخلية وأجنبية... مع زيادة وتحسن فى كلتيهما"[٤].

بدأ الابتكار الصناعى يكتسب زخما قويا فى المملكة الجديدة المتحدة، ويضع الأساس للثورة الصناعية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. ثم تطوير أول

محرك يعمل بالبخار في 1705 (بعد 60 عاما، نجح "چيمس واط– James Watt" في تطويره ليعمل بكفاءة في أى مكان باستثناء المناجم). كان يتم صهر الحديد باستخدام فحم المكوك بدلا من الفحم الحجـرى، في 1709 (وبعد 40 عامـا بلغ مستوى من الجودة تناسب الاستخدام العام)؛ وبين ثلاثينيات القرن الثامن عشر وستينيات القرن نفسه تمكن مخترعون متوالون من تقسيم عملية النسج إلى مراحل مختلفة وبدء تحويلها لكى تتم ميكانيكيا، (مغزل "هارجريڤز– Hargreaves"، (1766)؛ إطار "آركرايت Arkwright" المائى، (1769)؛ مغزل "كومتون– Compton" الآلى، (1779)[٥]. بالتوازى مع هذه التغيرات الكبرى، كانت هناك تغيرات أقل في الحرف والصناعات اليدوية وإنتاج أقمشة قليلة التكلفة، واستخدام المكوك الخفيف الذى ضاعف إنتاجية نساج النول اليدوى، ومناجم الفحم الأكثر عمقا التى تستخدم معدات متطورة (زاد إنتاج الفحم من 500000 طن في 1650 إلى 5 ملايين في 1750 و15 مليونا في 1800)[٦].

في هذا المناخ الجديد من المنافسة الواسعة في التجارة الخارجية، لم يعد الابتكار التقنى حدثا عارضا يتم قبوله بمرور الزمن، بل أصبح من متطلبات النجاح والتقدم الضرورية.

لم تكن هولندا أو بريطانيا مجتمعات صناعية حديثة، وكان معظم السكان يعيشون في الريف، وكانت الحالة السيئة للطرق تعنى أياما عدة من السفر المرهق للوصول من المدن الإقليمية إلى العواصم. لم تكن هولندا وبريطانيا مثل الديمقراطيات الحديثة، إذ كانت الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى هى المسيطرة على الحكومات البريطانية، وكانت تلك الطبقات هى التى تستطيع عادة أن تقرر كيفية قيام الآخرين من الطبقة العليا وأهالى الحضر بالتصويت لاختيار مجلس العموم، بينما كان كبار التجار في هولندا يقومون بالدور نفسه.

بالرغم من ذلك، كانت الدولتان مختلفتين نوعيا عنهما قبل قرن من الزمان، فما بالك بهما قبل قرنين، ومختلفتين نوعيا كذلك عن جيرانهما الأوروبيين. كان خضوع الفلاحين القانونى لأفراد من كبار الملاك قد انتهى تماما. كانت هناك

أسواق قومية حقيقية بدون ذلك الخليط من الولايات الصغيرة مثل تلك فى ألمانيا وإيطاليا، أو الحواجز الجمركية الداخلية التى كانت تقطع أوصال فرنسا. كان عدد كبير من الناس قد خبر حياة المدينة – نحو سدس سكان إنجلترا كانوا قد قضوا على الأقل بعض الوقت فى لندن، بنهاية القرن السابع عشر. الصناعات الريفية استوعبت قوة عمل الكثيرين حتى فى المناطق الزراعية والموانئ البحرية، كما استخدمت الأساطيل أعدادا كبيرة من أبناء الطبقات الدنيا فى أعمال تعتمد على التجارة. تجاوزت لندن باريس باعتبارها أكبر مدن أوروبا، ورغم أن معظم الإنتاج كان يقوم به أفراد من الحرفيين والصناع فى منازلهم أو ورشهم الخاصة، أصبح، على نحو متزايد، يجد شكلا من التنسيق بواسطة التجار والصناع الأكثر ثراء. كان هناك تجار جملة "قماشون" فى غرب إنجلترا ممن يستخدمون أعدادا من النساجين وعمال التشطيب بالمئات، ويحققون دخولا أعظم مما يحققه كثير من علية القوم(٧).

كانت العائلات الكبيرة المسيطرة على الحكومات حريصة على تبنى سياسات تجعل التجار المتوسطين والصناع والزراع الرأسماليين سعداء إلى جانب التجار الكبار. فى ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الثامن عشر قام أبناء مدينة لندن بالتحريض بقوة ضد مصالح الأرستقراطية والنبلاء الذين كانوا يسيطرون على الحكومة والبرلمان، وأمضى "چون ويلكس– **John Wilkes**"، الناطق باسمهم، فترة فى السجن، إلا أنهم وجدوا دعما من بعض العائلات الكبيرة، وتمكنوا فى آخر الأمر من فرض إرادتهم على الآخرين، دون الحاجة إلى أى إجراءات ثورية. كانت الصراعات الأيديولوچية والسياسية فى القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر تعنى أنهم قد كسبوا، بالفعل، المعارك الأكثر أهمية.

كانت الأمــور مختلفة تماما فى الــدول الأوروبية التى أحبطــت فيها الانتفاضات الثورية. بالنسبة لمعظمها كان القرن السابع عشر فترة تدهور اقتصادى – ونقص سكانى حيث كان معدل الوفيات يفوق معدل المواليد، وتقلص فى الحرف الحضرية، واستثمار ضعيف فى الزراعة حيث كان الملاك يستولون على معظم

الفائض والفلاحون يرزحون تحت فقر مدقع، (وقنانة ثانية فى بعض الأماكن). كان إجمالى الناتج الزراعى فى پولندا أو صقلية أو قشتالة فى القرن الثامن عشر أقل مما كان قبل قرنين. فى بوهيميا، أثناء المجاعة التى اجتاحتها بين **1770** و**1772**، مات شخص من كل عشرة أشخاص بسبب الجوع: هكذا كان ثمن انتصار الثورة المضادة.

فرنسا وجنوب غرب ألمانيا وشمال إيطاليا كانت "حالة متوسطة". لم تواجه مثل ذلك التردى الاقتصادى مثلَ ذلك فى قشتالة والجنوب الإيطالى وأوروبا الشرقية، إلا أن زراعتها وصناعتها كانت أكثر تخلفا بشكل عام منها فى إنجلترا وهولندا. الأساليب الإبتكارية فى الزراعة والعلاقات الرأسمالية انتشرت فى بعض المناطق القريبن من المدن الكبرى. كان هناك زيادة، إلى حد ما، فى الإنتاج الحرفى، وفى بعض الأحيان فى التعدين وبعض الصناعات. زاد حجم بعض الموانئ التى تخدم تجارة الأطلنطى زيادة كبيرة وبخاصة على ساحل فرنسا الغربى. بنهاية ثمانينيات القرن الثامن عشر، كان نحو **20%** من سكان فرنسا يعملون فى الصناعات المحدودة المجال – مقابل نحو **40%** فى إنجلترا. كانت مناطق رئيسية فى أوروبا تتحرك فى الاتجاه ذاته فى الطريق إلى رأسمالية صناعية، ولكن بسرعات مختلفة تماما.

الهوامش

(١) انظر على سبيل المثال:

* G. Rudé: Europe in the Eightheen Century" (Harvard, 1985), p.23;

* R.S. Duplessis, "Transitions to Capitalism in Early Modern Europe", Cambridge, 1997). p.174.

(٢) انظر:

G. Rudé: "Europe" p.23. and R.S. Duplessis, "Transitions", p.174.

(٣) الأرقام نقلا عن:

R.S. Duplessis, "Transitions". p. 242, 248.

(4) D. Defoe, "A Tour Through the Whole Island of Great Britain", (London, 1912),

كما ورد في: G. Rude, "Europe", p.58

(٥) للاطلاع على ملخص لهذه الاختراعات انظر:

D. Landes, "Wealth", pp. 187-191.

(٦) الأرقام نقلا عن:

R.S. Duplessis, "Transitions", pp. 88, 242.

(7) J. de L. Mann, "The Cloth Industry in the West of England", (Oxford, 1971), pp. 23, 90-91.

- ٢ -

من الخرافة إلى العلم

المصائر المتغيرة لأجزاء مختلفة من أوروبا كان يلائمها تغاير فى المسعى الفكرى. كانت "**النهضة**" قد أشرقت و"**الإصلاح**" قد انبلج على عالم مخترق بالمعتقــدات الخرافية على كل المستويات. اعتقــادات فى الآثار المقدسة والرقى والتعاويذ والطلاسم، إيمان بقدرة الساحرات والعرافات على الأعمال السحرية القاتلة، ولمسات الملوك التى تشفى من الأمراض(١). لم يكن مثل تلك المعتقدات منتشرا بين الفلاحين وعامة الناس، ولكنها كانت متفشية بين الحكام كما هى بين العامة. كان الملوك يقومون بجمع آثار ورفات القديسين، وكان أفراد من مشارب مختلفة مثل "**كولومبس**" و"**أوليفر كرومويل**" و"**إسحق نيوتن**" يأخذون نبوءات تستند إلى "**سفر الرؤيا**" على محمل الجد، كما كان يمكن أن يعزو شخص مثل "كورتيز" أو "بيثارو" انتصارا فى معركة إلى تدخل إلهى، وأن يقوم أحد الملوك (**چيمس السادس** ملك اسكتلندا الذى سرعان ما سيصبح **چيمس الأول** ملك إنجلترا) بكتابة رسالة فى السحر.

كان مثل تلك المعتقدات موجودا جنبا إلى جنب جهل بالأسباب الحقيقية للعلل التى أصابت الناس. كانت الحياة قصيرة بالنسبة لمعظمهم، فالموت المفاجئ كان منتشرا ولا تفسير له فى الغالب بسبب قلة المعرفة، والجهل حتى بين الأطباء. كان وباء طاعون أو جدرى يمكن أن يقضى على ربع سكان المدينة، كما كان فشل المحاصيل والمجاعات المفاجئة أمورا معتادة، لا يمكن التنبؤ بها. كان يمكن أن يشب حريق ليحرق شارعا بكامله، وربما مدينة بكاملها، كما حدث فى لندن فى 1666.

كان الحل الوحيد البعيد المدى لأى من تلك المشكلات، يكمن فى البدء فى فهم الأسباب الطبيعية وراء تلك الأحداث التى تبدو غير طبيعية، إلا أن العلم لن يكون قد تخلص من الخرافة بعد. كانت معرفة فصل ومزج المواد الطبيعية (الكيمياء) مختلطة بالاعتقاد بإمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب (الخيمياء). كـــانت المعرفة بحركـــة الكواكب والنجـــوم (الفلك) – اللازمة لتحديـــد التواريخ ورحلات المحيطات – ما زالت مرتبطة باعتقاد فى القدرة على التنبؤ بالأحداث، (التخييم). الاهتمام الجاد بالرياضيات كان ما زال مصحوبا باعتقاد فى سحر المتواليات العددية. كان بالإمكان رفض معظم تلك التخبطات، مع بقاء الاعتقاد بأن المعرفة العلمية كان يمكن، ببساطة، اكتسابها من دراسة النصوص اليونانية. أو اللاتينية أو العربية.

كانت هناك دائرة مفرغة، إذ لم يكن بالإمكان التخلص من تلك المعتقدات الخرافية دون تقدم العلم، بينما هى ما يعوق ذلك، بل إن الفرق بين منظومة المعتقدات العلمية ومنظومة من المعتقدات غير العلمية لم يكن واضحا مثلما قد يبدو اليوم.

عندك مثلا الاعتقاد بأن الكواكب، الشمس والنجوم، تدور حول الأرض. كان ذلك اعتمادا على أفكار "أرسطو"، كما قام بتعديلها "**بطليموس**"، بعد وفاته[٢]. كانت هناك فكرة مختلفة راسخة منذ وقت طويل وهى أن الأرض كانت تدور حول الشمس، وكانت قد تطورت فى العالم اليونانى الرومانى القديم على يد "**هيراقليطس**"، وفى فترة العصور الوسطى على يد "نيكول أورسمى" و"**نيكولاس كوزانوس**"، ولكن من الصعب أن نفهم اليوم كيف أن معظم العقول العلمية المتفتحة رفضت فكرة أن "الأرض تتحرك" على مدى ألفية ونصف الألفية، حيث كان ذلك يتعارض مع مبادئ **أرسطية** راسخة عن حركة الأشياء. الفكرة الجديدة عن دوران الأرض والكواكب حول الشمس، كما طرحها الراهب البولندى "كوبرنيكوس" فى **1543**، لم تتناول هذا الاعتراض، فقد كانت أبعد ما تكون عن القبول العام، حتى

بين من كانوا يدركون فائدتها لأسباب عملية، فعلى سبيل المثال، "فرانسيس بيكون"- وهو المشهود له بفعل الكثير لتحرير العلم من الخرافة نتيجة تأكيده ضرورة الملاحظة التجريبية- رفض نظام "كوبرنيكوس" حيث إن "مدرس الأسلوب الإمبيريقي الحديث لا يرى أن هناك حاجة لمثل تلك التخيلات الهدامة"(٣). قويت نزعة الشك بسبب عدم الدقة التي تم اكتشافها في حسابات "كوبرنيكوس" لحركة الكواكب، وكان ذلك قبل نصف قرن من قيام "كيبلر" بحل هذه المشكلة رياضيا، حيث بين أن الحسابـات يمكن أن تكون دقيقة إذا نظرنا إلى الكواكب باعتبارها تتحرك في مدارات إهليلجية وليس دائرية. ولكن معتقدات "كيبلر" الخاصة كانت سحرية بمقاييسنا. كان يعتقد أن المسافات بين الكواكب وبينها وبين الشمس تعبر عن الخواص الجوهرية لتسلسلات عددية وليس لقوى مادية. كان قد انتقل من الصورة الأرسطية للعالم إلى صورة أقدم، وربما إلى صورة أفلاطونية أكثر غموضا، وربما "فيثاغورسية"، حيث توجد أنماط عامة في مختلف جوانب الواقع. مثل هذا الاعتقاد كان من شأنه أن يبرر التنبؤات التنجيمية مثلما يبرر الحسابات الفلكية، حيث كان يعتقد أن ما يحدث في جانب من الواقع يتبع النموذج نفسه الذى حدث في أماكن أخرى. كان "كيبلر" مستعدا للقيام بتنبؤات تنجيمية، فقد تنبأ في "براغ" في **1618** بأن "شهر مايو لن يمر دون صعوبة بالغة"، وصحت نبوءته حيث نشبت "حرب الثلاثين عاما"... ولكن ليس لأسباب تتعلق بحركة الكون.

لم يكن "كيبلر" وحده في هذا الاعتقاد بوجود تأثير غامض لبعض الأجسام على غيرها، فقد بقيت "**الأفلاطونية الجديدة- Neo- Platonism**" مؤثرة في جامعة كمبردج حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر تقريبا(٤).

"**جاليليو**" فعل المثير لكسب قبول صورة "**كوبرنيكوس**" للكون، عندما استخدم التلسكوب الذى كان قد تم اختراعه حديثا في **1609**، واكتشف وجود حفر وجبال على القمر، وبين ذلك أنه لم يكن من مادة مختلفة تماما عن الأرض كما كانت تقول رواية "**أرسطو- بطليموس**". كما طور "**جاليليو**" كذلك فيزياء جديدة،

تتحدث عن كيفية تحرك الأجسام، ما كان يمثل تحديا لأفكار "**أرسطو**". ولكن إنجازه لم يكن قطيعة كاملة(٥). قبل "**جاليليو**" مثلا فكرة أن الكون محدود أو متناه، كما رفض فكرة "**كيبلر**" عن حركة الكواكب الإهليلجية. إلى هذه الدرجة، كان ما زال سجينا للأفكار القديمة، وسرعان ما سيصبح سجينا، بمعنى آخر عندما سيمثل أمام محكمة التفتيش ويجبر على شجب رؤية "**كوبرنيكوس**"، ويوضع تحت الإقامة الجبرية في منزله حتى وفاته.

أصبح الجدل حول الفيزياء والفلك متداخلا، أو قل مضفورا، مع الجدل الأيديولوچي العام للمرحلة؛ وفي **1543** كان قد أصبح بمقدور "كوبرنيكـــوس" أن ينشر أفكاره، دون خشية الاضطهاد من قبل **الكنيسة الكاثوليكية** التي كان ينتمي إليها؛ والحقيقة أن أعنف هجوم على أفكاره جاء من "**ميلانكتون– Melanchthon**"، تلميذ "**لوثر**"، بينما كان إصلاح التقويم بواسطة **الكنيسة الكاثوليكية** يعتمد على حسابات تستند إلى نموذج "**كوبرنيكوس**".

إلا أن الأمور تغيرت مع "**الإصلاح المضاد**". احتشد مؤيدوه خلف **النموذج الأرسطي** كما تبناه عالم اللاهوت "**توماس أكيناس– Thomas Aquinas**" (توما الإكويني) قبل **250** عاما، لحسم الجدل الفلسفي للقرن الثالث عشـــر – نموذج مفروض على متشككي المرحلة من قبل **محاكم التفتيش** حديثة الولادة. كان "**أرسطو**" (و"**أكيناس**") قد قالا بأن كل شيء وكل شخص له مكانه الخاص في نظام الأشياء. كان هناك تراتبية محددة للأجسام السماوية وتراتبية محددة بالمثل على الأرض. كانت تلك رؤية العالم المثالية بالنسبة للملوك والطبقات، الذين لم يكونوا يريدون القضاء على "**الإصلاح**" فحسب، وإنما كذلك لإجبار الطبقات المتوسطة والدنيا المتمردة على الرضوخ والاستسلام للنظام الإقطاعي القديم. من مثل هذا المنظور، كانت رؤية "**كوبرنيكوس**" للعالم، رؤية مخربة مثل أفكار ورؤى "لوثر" أو "كالفن". في **1600**، تم إحراق "**جيوردانو برونو– Giordano Druno**" على الخازوق لقوله بوجود عوالم لا متناهية. كان المناخ الأيديولوچي في الدول **الكاثوليكية**

يعمل ضد المزيد من البحث العلمي، وعند سماعه بمحاكمة "**جاليليو**"، تكنم "**ديكارت**- **Descartes**"، عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي على اكتشاف كان إيذانا باكتشافات "**نيوتن**" التالية[٦]. لن يكون من المثير للدهشة أن يتحول مركز التقدم العلمي إلى الجمهورية الهولندية وإنجلترا بعد الثورة – وإلى "**بويل**- **Boyle**"، و"**هوك**- **Hook**"، و"**هيوجنز**- **Huygens**"، وفوق الجميع، إلى "**نيوتن**"، الذى حلت قوانينه الجديدة فى الفيزياء المشكلات التى كانت قد أصابت أفكار كل من "**كوبرنيكوس**" و"**كيبلر**" و"**جاليليو**" عن الكون، بالعجز والتشوه.

لم يكن ذلك لأن قيادات البروتستانت كانوا أكثر استنارة من نظرائهم **الكاثوليك**، إذ إن "كل اللاهوتيين على اختلاف مللهم ونحلهم"، كما يقول "**كيث توماس**- **Keith Thomas**"، "كانوا يؤمنون بوجود السحر"[٧]، غير أن القاعدة الشعبية للبروتستانتية كانت تتكون من جماعات اجتماعية – صناع وتجار صغار – تريد دفع المعرفة، حتى وإن كانت مجرد معرفة القراءة والكتابة، مدخلا لمعرفة "الكتاب المقدس". كان انتشار البروتستانتية مصحوبا بانتشار جهود تشجيع التعلم، وبمجرد أن يستطيع الناس القراءة والكتابة، كان يتفتح أمامهم عالم من الأفكار الجديدة؛ يضاف إلى ذلك أن مجرد تحدى الأفكار التقليدية الراسخة، كان يفتح عقول الناس أمام المزيد من التحديات. ظهر ذلك جليا أثناء **الثورة الإنجليزية**. "**المشيخيون**- **The Presbyterians**" الذين تحدوا الأساقفة والملك لم يتمكنوا من ذلك دون تخفيض الرقابة، ولكن ذلك بدوره أعطى الفرصة لأصحاب الأفكار الدينية الأخرى لكى يعبروا عن أنفسهم بحرية، وفى خضم النبوءات الدينية والتفسيرات المتنافرة للكتاب المقدس، وجد الناس، لأول مرة، أن بإمكانهم التعبير عن شكوكهم فى ذلك كله علنا. كان جندى ثمل فى "**الجيش النموذجى الجديد**" يستطيع أن يتساءل "ولماذا لا تكون هذه البوتقة الموضوعة على الطاولة هى الله؟". المنظر السياسى المحافظ "**توماس هوبز**- **Thomas Hobbes**"، نشر عملا ماديا تماما هو "**ليفياثان**- **Leviathan**"، كان يحتوى على هجوم على فكرة المعجزات الدينية، واستطاع عدد من العلماء من أصحاب الرؤى والأفكار المشتركة،

أن يتجمعوا فى مناخ أكسفورد المتحرر بعد أن استولى عليها "**الجيش النموذجى الجديد**" من الملكيين، ويكونوا جمعية للتقدم العلمى.

كان "هوبز" يخشى أن يحرق على الخازوق متهما بالهرطقة فى فترة "استعادة الملكية – **The Restoration**"، ولكن ما حدث أنه حصل على معاش ملكى وأصبحت الجمعية "الجمعية الملكية". كان العلم يبدأ طريقه ليصبح مرتبطا بزيادة السيطرة على العالم الطبيعى الذى كان يدفع عائدات بلغة الزراعة والصناعة والتجارة والفعالية العسكرية.

لم يكن ذلك يعنى أن المعركة ضد الخرافة كانت قد حسمت، كان هناك أعداد هائلة من البشر لا تزال تؤمن بالمنجمين والسحر والشعوذة الدينية أو غيرها، ولم يكن ذلك مقصورا على البعض ممن يفترض أنهم "غير متعلمين". "زعماء عالميون" مثل "**رونالد ريجان**" و"**إنديرا غاندى**" ورئيسة وزراء فرنسا السابقة "**إيديث كريسون**"، كانوا يستشيرون منجمين، وفى القرن الثامن عشر كان نفوذ السحر أعظم بكثير.

إلا أن تغيرا حدث بالفعل. مطارد الساحرات المحترف "**ماثيو هوبكنز**– **Mathew Hopkins**" استطاع أن يزج بـ**200** متهما بالسحر فى المحاكم فى المقاطعات الشرقية من إنجلترا فى منتصف أربعينيات القرن السابع عشر، وسط فوضى الحرب الأهلية التى لم تكن قد حسمت بعد. كان ذلك عددا أكبر منه فى أى وقت مضى[٨]. على النقيض من ذلك، فإن احتلال اسكتلندا من قبل "الجيش النموذجى الجديد" وضع نهاية مؤقتة للاضطهاد بسبب السحر[٩]، وبحلول العام **1668** كان أحد المعلقين يقول: "معظم الشريحة الدنيا من الأعيان ومدعى الفلسفة والفطنة يسخرون من الإيمان بالساحرات"[١٠]. آخر إعدام بسبب السحر فى إنجلترا كان فى **1685**، رغم أن النص القانونى على الجريمة بقى خمسين عاما أخرى. تغير فى "الذهنية" العامة نجم عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى حدثت فى القرن السابق.

الهوامش

(١) يقدم كيث توماس – Keith Thomas وصفا مسهبا لكل هذه المعتقدات وكيف كانت ملائمة لخبرة الناس في حياتهم المادية. انظر:

* K. Thomas, "Religion and the Decline of Magic", (Harmonds worthm 1978);

* C. Ginsberg, "Night Battles", (Baltimore, 1983).

(٢) للمزيد عن التطورات الواردة في هذه الفقرة، انظر:

I.B. Cohen, "The Birth of the New Physics", (London, 1961).

(٣) كما ورد في:

G.de Santillana, "The Age of Adventure", (New York, 1956), p.158.

(٤) انظر: K. Thomas, "Religien"

(٥) للاطلاع على قصور تقدير "جاليليو" – والطبيعة الإشكالية لبعض تجاربه– انظر:

I.B. Cohen, "Birth", pp. 91-129.

(6) I.B. Cohen, "Birth", p.158.

يجادل Robert Munchenbled بأن انتشار مقاضاة السحر كان نتيجة لمحاولات بعض الجماعات بسط سيطرتها على أهالي الريف. انظر على سبيل المثال:

R. Munchenbled, "Sorcèries, Justice et Societe", (Paris, 1987), pp.9-10.

(7) K. Thomas, "Religion", p.598.

(8) K. Thomas, "Religion", pp. 533, 537.

(٩) كما ورد في:

C.Hill, "A Century of Revolution", p.250

(١٠) كما ورد في:

K. Thomas, "Religion", p.692.

-٣-

التنـــــوير

كان أكبر التحديات الجذرية التى واجهتها الأفكار الجديدة منذ نشأة المجتمع الطبقى، ما حدث فى أعقاب الثورتين الهولندية والإنجليزية. كانت الشرائح الأكثر وعيا فى الطبقات المتوسطة، وحتى فى الطبقات العليا فى المناطق الأوروبية الأخرى، قد بدأت تشعر بأن مجتمعاتها معيبة، وتسعى لإحداث تغيير عن طريق أفكار جديدة، ما أدى إلى هجوم واسع على الأحكام السابقة والخرافة، بأكثر مما حدث إبان "**النهضة**" و"**الإصلاح**".

كان هذا القطاع الكبير يضم مجموعة من المفكرين والكتاب – فى العلم الطبيعـــى والفلسفة والاقتصاد والتاريخ... وكتاب المقالات والروائيين ومنظـــرى السياسة... وحتى الموسيقيين مثل "**موتسارت – Mozart**". لم تكن لهم كلهم نفس الأفكار، إذ كان لبعضهم آراء معارضة حول قضايا أساسية[١].

كان المشترك بينهم ذلك الإيمان العميق بقوة الفهم العقلانى الذى يقوم على المعرفة الإمبيريقية، الذى كان لا بد من أن يطبق على العالم، حتى وإن كان ذلك يعنى تحدى الأساطير والمعتقدات الراسخة؛ وكان ذلك النهج يمثل تحديا للكثير من المؤسسات، ولجانب كبير من أيديولوجيا المجتمعات الأوروبية الموجودة.

كان أحد المؤثرات تأثير فلاسفة مثل "**ديكارت– Decartes**" فى فرنسا، و"**سبينوزا– Spinioza**" فى هولندا، و"**ليبنتــز– Leibniz**" فى جنوب غرب ألمانيا. كانوا كلهم مقتنعين بأن فهما كاملا للعالم يمكن استخلاصه من بعض المبادئ **العقلية** الراسخة وهو اعتقاد كان قد نما فى القرن الثامن عشر إثر نجاح "**نيوتن– Newton**" فى وضع قوانين أساسية للفيزياء[٢].

لم يكن أولئك الفلاسفة "**العقلانيون**" ثوريين سياسيين بالضرورة؛ إذ كان "**ليبنتز**"، على سبيل المثال يرى أن الكون كله يسير فى تناغم سابق الترتيب، وأن كل شيء "يسير نحو الأفضل، فى أفضل العوالم الممكنة"، وهى الفكرة التى يتناولها "**ڤولتير**– **Voltaire**" بشكل ساخر وذكاء شديد فى عمله "**كانديد**– **Candide**". إلا أن هذا النهج **العقلانى** كان يمكن أن يصبح سلاحا ثوريا فى أيد أخرى، طالما كان يعنى ضرورة رفض أى مؤسسة أو ممارسة ليست مستمدة من المبادئ الأولية.

كان هناك مؤثر آخر وهو ذلك التقليد المختلف الذى كان قد بدأه "**چون لوك**– **John Locke**" فى إنجلترا. كان "**لوك**" يرى أن المعرفة تأتى من الملاحظة الإمبريقية (التجريبية) لما هو موجود بالفعل، وليس نتيجة "لأفكار فطرية" لدى العقلانيين. كان "**لوك**"، مثل "**ليبنتز**"، محافظا من الناحية السياسية. كان يعبر عن توجهات السادة – **The Masters** من ملاك الأراضى والتجار الإنجليز، الذين كانت آمالهم قد تحققت بمجرد أن قبل ملوك إنجلترا أن يحكموا من خلال برلمان طبقة عليا. على مدى سنوات القرن الثامن عشر، كانت نتائج راديكالية متزايدة من النهج الإنجليزى التجريبى، تجد طريقها إلى كل من فرنسا وألمانيا، وهكذا كان "**ڤولتير**" و"**مونتسكيو**– **Montesquieu**" فى فرنسا من أشد المعجبين بـــ"**لوك**" بعد أن أوصلتهم كتاباته إلى نتيجة مؤداها أن إصلاح دول القارة الأوروبية لا بد أن يتبع النهج الإنجليزى، وأن عقيدة محافظة فى إنجلترا، يمكن أن تكون مدمرة عبر القنال. لم يكن **مفكرو التنوير** ثوريين. كانوا مفكرين منشقين يتطلعون إلى أبناء الطبقة العليا لرعايتهم. لم يكن إسقاط المجتمع نصب أعينهم، وإنما كانت آمالهم معلقة على إصلاحه، الذى يمكن أن يتحقق بالانتصار فى معركة الأفكار. لم يكن "**ديدرو**– **Diderot**" يرى أن تناقضا فى قيامه بزيارة الإمبراطورية الروسية "**كاترينا العظمى**– **Catherine the Great**"، ولا كان "ڤولتير" يرى تناقضا فى تعاونه مع "**فردريك المعظم**– **Frederick the Great**" ملك بروسيا. خير معبر عن الوسط الذى كانوا يتحركون فيه، نجده فى المواظبة على حضور الصالونات التى كانت تعقدها مرتين فى الأسبوع زوجة "**هولباخ**– **Holbach**"، والتى كان يحضرها

مفكرون مثل "**ديدرو**" و"**هيوم**" و"**روسو**" والقائد العسكرى الأمريكى، فيما بعد، "**بنجامين فرانكلين**"، وعالم الكيمياء الثورى "**جوزيف بريستلى**- **Joseph Priestley**"، وسفير نابولى، و"**لورد شيلبورن**- **Shelbourne**" و"**نيكر**- **Necker**" الوزير الفرنسى فيما بعد، وأمير برونزويك(٣). كان "**ڤولتير**" يرى أن "البرجوازية الجيدة والتجار هم من يجب أن يتعلموا.. وليس العمال". حتى الموسوعيين الفرنسيين الذين كانوا دعاة متحمسين للفكر الجديد، كانت جهودهم مركزة على الكتب البعيدة عن متناول معظم الناس ماليا، (الطبعات الأولى من **موسوعة**- **Encyclopédie** "**ديدرو**" و"**ألمبير**- **Alembert**"، **17** مجلدا، لم يبع منها سوى **4000** نسخة)، من خلال صالونات أصدقاء من الطبقة الأرستقراطية أو المشاركة فى **جمعيات ماسونية**- **Masonic Societies**، التى كانت طقوسها الدينية شبه السرية تجمع النخبة "المستنيرة" من الطبقات العليا والمتوسطة.

كانت هناك كذلك حدود للمدى الذى يمكن أن يذهب إليه **مفكرو التنوير**، فى انتقادهم للمؤسسات والأفكار الموجودة، بشكل علنى، وعليه فقد كان "ڤولتير" يستطيع أن يصب جام غضبه على الخرافات الدينية (كان شعاره: "امحوا العار- **écrasez l'infame**")، وأن يخضع روايات الكتاب المقدس عن المعجزات لنقد شديد، إلا أنه كان شديد الانزعاج عندما نشر "**هولباخ**- **Holbach**" (تحت اسم مستعار) عمله الإلحادى "**نظام الطبيعة**- **The System of Nature**"، فكتب يقول: إن "هذا الكتاب جعل الفلسفة بغيضة فى عيون الملك وكل البلاط"(٤)، وفى إنجلترا كتب "**جيبون**- **Gibbon**": "**انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية**- **The Decline and Fall of the Roman Empire**"، الذى كان عملا تاريخيا رائدا فى هجومه الساحق على الكنيسة المسيحية، إلا أن المستهدف لم يكن هز إيمان الجماهير؛ كما أن المفكر الاسكتلندى "**ديڤيد هيوم**" لم ينشر هجومه الضارى على الدين فى حياته؛ وكما عارض "**ڤولتير**" ما كان يراه موقفا سلبيا من "**روسو**" إزاء المؤسسات الاجتماعية القائمة فى كتابه "**العقد الاجتماعى**- **The Social Contract**"، كان "**روسو**" معارضا لمواقف "**ڤولتير**" السلبية من الدين.

ولكن مفكرى التنوير، أيا كان ترددهم فى اتخاذ مواقف ثورية، قد هزوا بعض الدعامات الأساسية للمجتمعات التى كانوا يعيشون فيها. لم تكن تلك المجتمعات مهيأة لعملية إصلاح سهلة، كما كانت المصالح القوية ترى أن أى مساءلة للواقع ضرب من الدمار؛ وقد عانى كثير من المفكرين معاناة شديدة من جراء ذلك، "**ڤولتير**" مثلا، تعرض لضرب مبرح من بعض "قطاع طرق" استأجرهم أحد الأرستقراط، وقضى فترة من سجن "الباستيل"، واضطر للعيش خارج باريس عدة سنوات؛ و"**ديدرو**" تم احتجازه فترة فى قلعة "ڤانسان" بالقرب من باريس؛ و"**روسو**" أمضى الفترة الأخيرة من حياته خارج الحدود بعيدا عن أنظار السلطات الفرنسية؛ كما كانت مسرحيات "**بومارشيه– Beaumarchais**" (الذى وصفت مسرحيته "زواج فيجارو" أساس أوبرا "**موتسارت**") محظورة فى عدة دول؛ لأنها توحى بأن خادما يمكن أن يحبط مقاصد سيده.

كان من السهل أن تتخذ الكنيسة موقفا عدائيا من أى تساؤل أو تشكك حول الأفكار الراسخة، وفى جنوب أوروبا كان الإصلاح المضاد يضغط بضراوة على كل صور المعارضة حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. فى إسبانيا، فى الفترة ما بين **1700** و**1740** كانت هناك **700** حالة إحراق "حيا" للمهرطقين[٥]. فى فرنسا، كان لا يزال بالإمكان الحكم على "البروتستانت" بالعبودية على السفن الصغيرة، وفى **1761** و**1766**، تم سحل اثنين من "البروتستانت" قبل إعدامهما فى "تولوز" و"أبيڤى" على التوالى[٦].

بتحديهم لمثل تلك الأمور، طرح المفكرون أسئلة أساسية عن تنظيم المجتمع، حتى وإن تحاشوا تقديم إجابات كاملة. رواية "ڤولتير" القصيرة "كانديد" ترى أنه لا توجد دولة فى أوروبا تستطيع أن تفى باحتياجات الناس. "روسو"، بدأ "العقد الاجتماعى بفكرة ثورية يعبر عنها بقوله "يولد الإنسان حرا، إلا أنه مكبل بالقيود فى كل مكان"، رغم أنه شخصيا لم يكن يثق كثيرا بالجماهير. الفيلسوفان "د.هولباخ" و"هلڤتيوس" حاولا القيام بتحليل مادى شامل للطبيعة والمجتمع يرفض تماما أى فكرة عن إله[٧]. العالم الطبيعى "بافون– **Buffon**" قدم نظرية تطورية عن النوع الحيوانى (مصرا على وحدة النوع الإنسانى، كما يعزو الفوارق بين

"الأجنـــاس" إلى الظـــروف المناخيـــة)[٨]. الاسكتلنديـــان "آدم **فرجســـون**- **Adam Ferguson**" و"آدم **سميث**- **Adam Smith**" كانا يريان أن المجتمع الإنساني يتقدم عبر مراحل، الصيد والرعي والزراعة، ومن ثم وضعا أساس فهم مادى للتطور الاجتماعى؛ وبينهم ذهب **مفكرو التنوير** أبعد من أى شخص آخر قبلهم فى محاولة فهم البشر والمؤسسات الإنسانية.

كانت هناك أسباب معقولة وراء سيطرة أفكارهم على النقاش فى أرجاء أوروبا ليصبح أصحاب الأفكار المخالفة فى وضع الدفاع دائما. كانوا يجدون آذانا صاغية من كل من يستمع إليهم، حتى من أولئك فى قمة السلم الاجتماعى، الذين كانوا يريدون مثل ذلك المجتمع "الحديث"، الناجح اقتصاديا، الذى يشهدونه فى إنجلترا، بدلا من تلك المجتمعات البالية الكاسدة فى أوروبا.

فى مراحل مختلفة، كانت الحكومات فى النمسا وروسيا والبرتغال وبولندا، تحاول أن تدفع ببعض الإصلاحات المرتبطة بفكر التنوير، (يطلق عليهم بعض المؤرخين أحيانا: "المستبدون المستنيرون"). فى الفترة ما بين **1759** و**1765** قام حكام البرتغال وفرنسا وإسبانيا ونابولى وبارما بحل "**الجيزويت**- **Jesuits**" وتحت ضغط من الملوك **الكاثوليك** قام البابا بحل الطائفة فى أوروبا[٩]. فى فرنسا، أصبح "تيرجوت- **Turgot**"، وكان واحدا من أبرز علماء الاقتصاد الطبيعى، أصبح وزيرا لـــ"**لويس السادس عشر**" فى **1774**؛ ولكن فى كل حالة، كان يتم التخلى عن تلك الإصلاحات التى تتم من أعلى، فى آخر الأمر. حتى الملوك المستنيرين لم يكونوا يستطيعون تطبيقها، أمام مقاومة الطبقات الحاكمة، التى كانت ثروتها تعتمد على بقايا أنماط من الاستغلال الإقطاعى.

كتب "**ديدرو**" فى **الموسوعة** يقول: إن هدفها كان "تغيير الأسلوب العـــام فى التفكير"[١٠]. لقد قام **مفكرو التنوير** بتحد كبير ناجح لأفكار المثقفين، بمن فيهم مثقفو الطبقة الحاكمة، وكان التحدى الذى قاموا به أبعد مدى من تحدى "**الإصلاح**" قبل قرنين.

بحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر، كانت أعمال "**ڤولتير**" و"روسو" "تخاطب جمهورا هائـــلا"[١١]. كانت طبعات زهيدة الثمن (غالبا مقرصنة) من "**الموسوعة**" تبيع أعدادا كبيرة من النسخ، وربما أكثر مما كان "**ديدرو**" نفسه يفكر به. "انتشرت **الموسوعة** بين برجوازية "النظام القديم – **ancienregime**" وتسربت أيديولوچية تقدمية من خلال المفاصل الأكثر قدما وتآكلا فى البنية الاجتماعية"[١٢]. إلا أن **مفكرى التنوير** لم يكن لهم تأثير كبير فى تحقيق هدفهم من إصلاح المجتمع. مات "**ڤولتير**" مثبط الهمة فى **1778**[١٣]. بعد ذلك بست سنوات كان "**كانت**" يرى أنه "بالرغم من أنه كان يعيش فى عصر التنوير، لم يكن العصر نفسه مستنيرا"[١٤]. كان تغيير الأفكار شيئًا، وتغيير المجتمع شيئًا آخر، وهو ما لم يحدث.

كان لا بد من دورة جديدة من الثورات والحروب الأهلية.

الهوامش

(١) يمكن أن يؤدى ذلك إلى تفسيرات مختلفة لما يمثل "التنوير"، ففى كتابه: "فلسفة التنوير– The Philosophy of the Enlightenment" (Boston-1955)، يعتبر Ernst Cassirer الفلاسفة العقلانيون من "ديكارت" فصاعدا جزءا من حركة التنوير، وعلى العكس منه يرى George Rudé (فى كتابه Europe)، أن التنوير بدأ برد فعل حفز عليه "جون لوك"، ضد أولئك الفلاسفة.

(٢) قبل "ليبنتز– Leibniz" معادلات "نيوتن" الرياضية، ولكنه رفض نموذجه العام للكون.

(٣) للمزيد عن الصالونات انظر:

P. Naville, "D'Holbach et la Philosophie Scientifique au XVIIIe Siècle (Paris, 1067), pp. 46-48.

(٤) كما ورد فى: P. Naville, "Philosophie", p. 118-119

(5) G. Rudé, "Europe", p.131.

(6) G. Rudé, "Europe", p. 132.

(7) P. Naville, "Philosophie", p. 73.

(8) D. Outram, "The Enlightenment", (Cambridge, 1995).

على العكس من ذلك يضع عالم التاريخ الطبيعى السويدى "ليناليوس– Linnaeus" تقسيما صارما إلى أربعة أجناس على أساس اللون.

(9) G. Rudé, "Europe", p. 135-136.

كان هدف الملكيات هو ضمان السيطرة على الكنائس الوطنية، وكان الأثر هو إضعاف مؤسسة رئيسية تروج أفكارا رجعية.

(١٠) كما ورد فى: "The Enlightenment", (New York, 1977) p. 71

(11) R. Darnton, "The Business of the Enlightenment" (Harvard, 1979), p.528.

(١٢) المصدر السابق– p. 526.

(١٣) كما ورد فى: G. Rudé, "Europe", p. 170

(١٤) اقتباسا عن I. Kant، كما ورد فى: G. Rudé, "Europe", p. 171.

- ٤ -

العبودية وعبودية الأجر

لم تنبثق أفكار **التنوير** هكذا بالمصادفة من عقول بعض المفكرين، وإنما كانت، على الأقل، انعكاسا جزئيا لتغيرات تحدث في العلاقة بين البشر، وكانت قد ذهبت إلى مدى أبعد في إنجلترا وهولندا.

كان التغير الرئيسي الذي حدث نتيجة اضطرابات القرنين السادس عشر والسابع عشر، هو أن التبادل عن طريق السوق، أصبح يلعب دورا تتزايد أهميته في أساليب تدبير الناس معيشتهم. كانت الكنيسة يمكن أن تقوم بإحراق مهرطقين، وجيوش **الهابسبورج** تنهب مراكز حضرين تعارض حكمهم، ولكن الباباوات والأباطرة والأمراء وملاك الأراضي... كلهم، كانوا في حاجة إلى المال (النقد) لتمويل جهودهم؛ وهو ما يعني أنهم حتى وهم يحاولون الحفاظ على النظام القديم، كانوا يساعدون على نشر قوى السوق التي سوف تقوضه في آخر الأمر.

ظهر ذلك على أوضح ما يكون بعد غزو الأمريكتين. كانت الفضة المجلوبة من المناجم الأمريكية هي مفتاح تمويل الجيوش التي دعمت الإصلاح المضاد، إلا أن تدفقها كان جزءا من شبكة جديدة من علاقات السوق بين قارات مختلفة. كان معظم الفضة يتدفق عبر وسطاء في شمال غرب أوروبا، وخارجيا إلى الصين وجزر الهند الشرقية والهند لشراء سلع ترفية. كانت طرق بحرية دولية جديدة – من "مانيلا" إلى "أكابولكو"، ومن "ڤيراكروز" إلى "سيڤي" (إشبيلية)، ومن "أمستردام" إلى "باتاڤيا"[١] (جاكارتا)، ومن "باتاڤيا" إلى "كانتون"– قد بدأت تربط بين حياة الناس في أربعة أركان المعمورة.

تستند علاقات السوق إلى افتراض مفاده أنه أيا كانت مواقع الناس الاجتماعية، فإن حقوقهم متساوية فى قبول أو رفض صفقة ما. المشترى حر فى عرض أى سعر، مثلما البائع حر فى رفض أو قبول العــرض. الموظف الكبير والتاجر، البارون والمواطن العادى، صاحب الأرض والمستأجر... كلهم متساوون فى هذه الحقوق. بقدر ما تتسع السوق، تصبح الانحيازات والأهواء القديمة التى تقوم على الهيمنة والإذعان، تصبح تحت حصار من الحسابات المالية.

كان **التنوير** اعترافا فى عالم الأفكار بهذا التغير الذى يحدث فى الواقع. صورته عن عالم من الرجال المتساوين (رغم أن **قلة من مفكرى التنوير** طرحوا مسألة الحقوق المتساوية للنساء) كانت تجريدا من عالم يفترض أن يكون الناس فيه قادرين بنفس الدرجة على الاتفاق أو عدم الاتفاق، لبيع أو شراء ما فى حوزتهم من سلع. كان الوضع "العقلانى" هو ما يمكن أن يحدث فيه ذلك دون عوائق تحكمية.

إلا أنه كان هناك "ثقبان كبيران" فى صورة **التنوير** كما طبقت فى القرن الثامن عشر- وليس فقط على المناطق "المتخلفة" فى أوروبا مثل "قشتالة" وصقلية وأوروبا الشرقية، ولكن على بريطانيا التى كانت نموذجا بالنسبة لأناس مثل "**فولتير**". أحدهما كان العبودية المنقولة إلى الأمريكتين، والثانى عبودية الأجر للعمال المعدمين فى الداخل.

- ٥ -

العبودية والعنصرية

كانت كميات متزايدة من ثروة أوروبا القرن الثامن عشر تأتى من مؤسسة تقوم، على العكس تماما، من الحقوق المتساوية بين البائعين والمشترين – أى من العبودية المفروضة. ربما كان الفلاسفة يتحدثون فى مقاهى أوروبا عن حقوق متساوية، إلا أن القهوة المحلاة التى كانوا يشربونها، كانت من إنتاج بشر كانوا يساقون قطعانا تحت فوهات البنـادق إلى سفن فى غرب أفريقيا، تحملهم عبر الأطلنطى فى ظروف بالغة السوء (كان أكثر من واحد من بين كل عشرة يموتون فى الطريق)، لكى يتم بيعهم فى مزادات لكى يعملوا تحت السياط لمدة **15** أو **16**، وربما **18** ساعة يوميا، إلى أن يلقوا حتفهم.

كان ذلك مصير نحو **12** مليونا من البشر[١]. مليون ونصف المليون ماتوا أثناء تلك الرحلة، كما كان معدل الوفيات فى المزارع رهيبا. كان المستعمرون (أصحاب المزارع) يرون أن تشغيل الواحد منهم إلى أن يموت ثم شراء بديل، أكثر فائدة بالنسبة لهم. فى القرن الثامن عشر، حمل **106** مليون عبد إلى جزر الكاريبى البريطانية، وفى نهاية القرن كان تعداد العبيد **600000**. فى أمريكـا الشمالية (حيث الطقس أكثر اعتدالا وفرصة الغذاء الطازج أكبر) كانت الظروف أفضل بما يحقق زيادة أسرع فى عدد السكان من العبيد نتيجة للإنجاب وكذلك الاستيراد، وعليه فقد زاد عددهم من **500000** فى مطلع القرن إلى **3** ملايين فى ستينيات القرن التاسع عشر، إلا أن معدل الوفيات بين العبيد كان أكثر منه بين سواهم؛ "وبحلول العقد الثانى من القرن التاسع عشر" كما يشير "**باتريكماننج- Patric Manning**"، "كان نحو **10** مليون أفريقى قد نزحوا إلى العالم الجديد مقارنة

بمليونين من الأوروبيين. كان تعداد البيض في العالم الجديد، البالغ **12** مليونا، ضعف تعداد السود تقريبا"(٢).

لم تخترع العبودية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بالطبع، إذ كانت قد بقيت في جيوب صغيرة في مناطق مختلفة من أوروبا والشرق الأوسط عبر العصور الوسطى – كوسيلة لتزويد سفن دول البحر الأبيض بالرجال، على سبيل المثال، إلا أن العبودية كانت ظاهرة هامشية في وقت كانت فيه القنانة هي الصورة الرئيسية للاستغلال، ولم تكن العبودية الموجودة مرتبطة بالسود منها بأي جماعة أخرى. كان يمكن أن يكون البيض عبيدا على السفن، كما أن كلمة "**slave**" نفسها مشتقة من كلمة "**Slav**"، وفي **1500**، كان الأفارقة أو المتحـــدرين من أصول أفريقية، أقلية بين العدد الإجمالي للعبيد في العالم. إلا أنهم كانوا قد أصبحوا الأغلبية بحلول العام **1700**(٣)، كما يقول "**باتريكماننج**".

بدأ التغيير مع الغزو الإسباني للأمريكتين. أرسل "**كريستوفر كولومبوس**" بعض "**الآراواكس**(*)– **Arawaks**"، وكانوا أول من استقبلوه، لكي يباعوا عبيدا في "سيفي" (إشبيلية)، كما كانت هناك محاولات لاستخدام الهنود الأمريكيين عبيدا في الكاريبي، ولكن الجهود لم تنجح. انخفض عدد السكان الهنود إلى نحو **90%** نتيجة للمعاملة الوحشية والأوبئة، ووجد الغزاة الإسبان أن فرض الجزية والعمل القسري أكثر فائدة من اللجوء إلى العبودية المباشرة، أما **التاج الإسباني**– الذي كان يخشى انقراض السكان الهنود فلا يجد من يفلح الأرض– فكان يستمع إلى الانتقادات الموجهة للعبودية الهندية من الكهنة الذين كانوا يرون أن الأولوية هي تحويل الهنود إلى المسيحية.

(*) الآراواكس– **The Arawaks** الهنود الأوائل الذين قابلهم "كولومبس" عام **1492**. كانوا يعيشون في معظم جزر الهند الغربية وهم الذين زودوه بالماء والطعام والهدايا. كانوا مسالمين ولا يحملون أي أسلحة وربما لم يكونوا يعرفونها، لدرجة أنهم جرحوا أيديهم بالسيف عندما أمسكوا به من طرفه الحاد، لدى عرضه عليهم من قبل القادمين الجدد. (المترجم)

كلاهما، **التاج والمستعمرون**، كانوا يتحولون باضطراد إلى مصدر مختلف للقوة العاملة- شراء عبيد على ساحل غرب أفريقيا. بدأ "**كورتيز**" مستعمرة زراعية زودها بعبيد أفارقة، وحتى الكاهن "**لاس كاساس- Las Casas**"، الناقد الشهير لمعاملة الإسبان للهنود، كان يسوغ العبودية الأفريقية (رغم أنه ندم على ذلك فيما بعد).

انطلقت العبودية على نطاق واسع عندما بدأت البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا زراعة التبغ والسكر تجاريا فى مستعمراتها. كانت تلك المحاصيل تتطلب قوة عمل كبيرة، ولم يكن المهاجرون الأحرار من أوروبا مستعدين لذلك.

فى البداية، كان أصحاب المزارع يستخدمون شكلا من القوة العاملة غير الحرة من أوروبا. كان الخدم المهنيون - الذين كانوا فى الواقع عبيد دين- يتعاقدون للعمل لمدة ثلاث أو خمس أو سبع سنوات دون أجر مقابل نقلهم إلى الضفة الأخرى من الأطلنطى. بعضهم كان يتم اختطافه بواسطة "الخطافة- **Spirits**"، كما كان يطلق على وكلاء المقاولين فى بريطانيا[٤]. كان هناك أيضا المتهمون وأسرى الحروب الدينية والأهلية فى أوروبا. كانت مزارع السكر فى "باربادوس" يعمل عليها نحو **2000** خادم متعاقد و**200** عبد أفريقى فى **1638**- وكانت تكلفة الخادم **12** جنيها إسترلينيا والعبد **25** جنيها[٥]. وحيث كان المتوقع ألا يعيش العبد أكثر من أربع أو خمس سنوات، كان الخدم يعتبرون "قيمة أفضل" من العبيد بالنسبة لأصحاب المزارع.

لم يكن التجار أو الحكام يشعرون بأى مشكلة أخلاقية مع ذلك الوضع، وفى آخر الأمر كانت البحرية البريطانية مزودة بأفراد مكرهين على الخدمة، فقراء تم اختطافهم من الشوارع، يتم احتجازهم فى ظروف "ليست أفضل بكثير من ظروف العبيد السود" قبل مغادرة الميناء[٦]، مع معدلات وفاة فى البحر مرتفعة مثل تلك فى "الشحنة" البشرية على قوارب العبيد[٧]. كان هناك قانون من البرلمان يعطى القباطنة السلطة لفرض أحكام الإعدام على كل من يعتدى على ضابط، أو حتى النوم أثناء نوبة الحراسة[٨].

ولكن عبودية الاسترقاق فى أوروبا لم تكن بذلك الحجم الذى يمكنها من تزويد المزارع بقوة العمل التى يطلبها ملاك المزارع، إذ كانت أسواق التبغ والسكر قد اتسعت، وبدأوا يتجهون على نحو متزايد إلى أفريقيا. بحلول العام **1653** كان عدد العبيد قد فاق عدد الخدم المهنيين فى "بربادوس" بنحو **20000** إلى **80000** عامل(٩)، وبينما لم يكن هناك سوى **22400** من السود فى المستعمرات الجنوبية من شمال أفريقيا فى سنة **1700**، كان العدد قد وصل إلى **409000** بحلول العام **1770**.

فى البداية، كان أصحاب المزارع يعاملون الخدم المهنيين البيض والعبيد الأفارقة بالمثل، وفى "ڤرچينيا" كان العبيد الذين يهربون من العمل يعادون عنوة للعمل ساعات مضاعفة، كما كانوا يوسمون بحرف **"R"** على الخد فى حال تكرار المحاولة؛ وفى "بربادوس" كانت هناك حالات لملاك يقتلون الخدم المرضى عندما يصبحون غير قادرين على العمل(١٠). كان الخدم والعبيد يعملون جنبا إلى جنب ، وحدثت – على الأقل – حالة زواج واحدة بينهم فى "ڤرچينيا" (وهو أمر سيكون بعيدا عن التصور لمدة **300** سنة أخرى).

الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون جنبا إلى جنب ويخالطون بعضهم بعضا اجتماعيا، كان يمكن أن يتقاتلوا كذلك. حالات مساعدة الخدم والعبيد بعضهم بعضا على الهرب بدأت تقلق بعد "**تمرد بيكون**(*)– **Bacon's Rebellion**" فى "ڤرچينيا" فى **1676**، أبدى خصوم الحاكم وأصحاب المزارع استعدادهم لمنح الحرية للخدم والعبيد الذين يساعدون فى الاستيلاء على المستعمرة. كانت أهداف المتمردين مختلطة – كان أحد مطالبهم الحرب للاستيلاء على المزيد من الأراضى من الهنود(١١)، ولكن سلوكهم كان يكشف عن استعداد الفقراء البيض والأفارقة للاتحاد

(*) من قاعدته فى "هايتى" بدأ "كولومبس" شن غارات فى عمق الجزر لجمع الهنود (عبيدا) وحملهم على سفن لبيعهم فى إسپانيا؛ وهكذا باسم الدين والحضارة الغربية أطلق أول تجاره للعبيد. كان المستكشف الإسپانى يؤكد ذلك، عندما كتب يقول: "لنبدأ باسم الثالوث المقدس بإرسال كل ما يمكننا بيعه من عبيد". (المترجم)

ضد ملاك الأراضى، أما رد الملاك المستعمرين على ذلك فكان المزيد من الإجراءات التى تفرق بين الجماعتين.

وكما يسجل "**روبن بلاكبيرن– Robin Blackburn**" فى تاريخه عن العبودية الاستعمارية، فإن "المجلس البرلمانى– **House of Burgesses**" فى "ڤرچينيا" سعى لتقوية الحاجز العنصرى بين الخدم الإنجليز والعبيد الأفارقة. فى **1680** فرض عقوبة **30** جلدة على الظهر العارى "لأى زنجى **(Negro)** أو عبد آخر يتجرأ على رفع يده معارضا أى مسيحى"؛ أما قانون "ڤرچينيا" لسنة **1691** فقد أجاز "قتل وتدمير الزنوج والمولدين **(mulattos)** وغيرهم من العبيد" الذين يتعمدون التغيب بشكل غير قانونى عن خدمة سادتهم"، كما قضى بطرد أى رجل أبيض أو امرأة بيضاء من المستعمرة فى حال زواجه، أو زواجها، من "زنجى أو مـولّد أو هندى"[١٢]. بعبارة أخرى، كان أصحاب المزارع من المستعمرين يدركون أن بصرف النظر عن كراهية البيض والسود الطبيعية لبعضهم الآخر، كانت هناك احتمالات قيام علاقات وثيقة بين بعض البيض والعبيد، ومن ثم كان سعى السلطات الاستعمارية للقضاء على ذلك بمنح ملاك العبيد سلطة الحياة والموت. آنذاك، كان أن بدأت العنصرية تتطور كأيديولوچية.

انتشار العنصرية اليوم، يجعل الناس يعتقدون أنها كانت موجودة دائما، وأنها نابعة من نفور فطرى لدى البعض وبعض لآخرين من عرقيات أخرى، وهكذا تعتبر العبودية "منتجا فرعيا" للعنصرية وليس العكس.

إلا أن الناس فى العوالم القديمة والعصور الوسطى لم يكونوا يعتبرون لون البشرة أمرا يستحق التوقف عنده، كان مثل طول القامة أو لون الشعر أو العينين... أمرا عاديا. رسوم المقابر فى مصر القديمة تجد فيها الخليط من أصحاب البشرة المختلفة الألوان. شخصيات كثيرة مهمة فى التاريخ الرومانى جاءت من شمال أفريقيا، بينهم، على الأقل، إمبراطور؛ ولم يتوقف أى نص تاريخى عند لون بشرة أى منهم. فى رسوم القرن السادس عشر الهولندية، يظهر الاختلاط الطبيعى بين

السود والبيض – عندك مثلا لوحة "**جورداين**– **Jordaen**": "موسى وسيفورا[*]– **Moses and Zipporah**"، التى تظهر فيها زوجة موسى سوداء[١٣].

كثيرا ما كان هناك عداء شديد ضد اليهود فى أوروبا العصور الوسطى، ولكنه كان عداء على أساس دينى، وليس بناء على جسمانية أو ذهنية فطرية. كان اليهود هم الجماعة الوحيدة غير الكاثوليكية فى مجتمع مسيحى بالكامل، وكان من يضطهدونهم يتركونهم وشأنهم إن هم تخلوا عن معتقداتهم الدينية. كان الأمر مجرد حقد دينى لا عقلانى وليس عنصرية بيولوجية لاعقلانية. العنصرية البيولوجية اللاعقلانية نشأت مع تجارة العبيد.

لم يكن أوائل تجار وملاك العبيد يستندون إلى فوارق عرقية لتبرير أعمالهم، وكانوا بدل ذلك يعودون إلى النصوص اليونانية والرومانية القديمة التى كانت تبرر استعباد أسرى الحروب، أو بالأحرى أسرى "الحروب العادلة– **Just Wars**". وبافتراض أن يكون الملاك قد "حصلوا" على عبيدهم بطرق مشروعة، كان العبيد يصبحون فى عداد الملكية الخاصة، ويمكن التخلص منهم كيفما شاؤوا؛ وهكذا كان "**جون لوك**– **John Lock**" (الفيلسوف الذى كان محل إعجاب **ڤولتير**) يستطيع أن يبرر العبودية فى تسعينيات القرن التاسع عشر – وأن يصبح أحد المستفيدين منها من خلال ملكية بعض الأسهم فى شركة أفريقيا الملكية – **Royal Africa Company**"[١٤]– ويرفض فكرة أن الأفارقة كانوا مختلفين جوهريا بالنسبة للأوروبيين[١٥].

(*) **Moses and Zipporah Painting** لوحة "موسى وسيفورا" للفنان الفلمنكى چاكوب جورداين (**1593-1678**) زوجة موسى اسمها "صفورية" أو "صفوريا"، ويطلق عليها الأوروبيون "سيفورا– **Zipporah**" وتعنى "العصفورة". هى ابنة النبى "شعيب" (فى رواية لأنس بن مالك) وهى إحدى الامرأتين اللتين قابلهما موسى وساعدهما لتسقيا أغنامهما.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة القصص– ٢٣) (المترجم)

إلا أن الحجج القديمة لم تكن لتتناسب تماما مع حجم الاقتصاد العبودى فى منتصف القرن الثامن عشر. كان من الصعب الزعم بأن العبيد كانوا كلهم أسرى من "**حروب عادلة**". كان الناس يعرفون أنه كان قد تم شراؤهم من تجار فى أفريقيا، أو أنهم من نسل عبيد(١٦)، وكان تجار وملاك العبيد يحتاجون باستمرار إلى حجج يستخدمونها مع البيض، الأغلبية التى لم تكن تمتلك عبيدا؛ وفى المستعمرات كان الفلاحون الأكثر فقرا هم الأكثر استياء لقيام ملاك العبيد بسلب ونهب الأراضى واستغلال عبيد بأجور متدنية بدلا منهم، وكان العبيد الهاربون يجدون ملجأ لهم فى المناطق الفقيرة من مدن مثل لندن. كان التجار والملاك دائما فى حاجة إلى وسيلة تجعل الناس يكرهون ويحتقرون ويخشون العبيد ولا يثقون بهم. كانت فكرة "**أسرى الحرب**" من الصعب أن تحقق ذلك، وعلى العكس منها كانت فكرة أن أولئك الأفارقة، بالطبيعة، أقل شأنا من الأوروبيين، متوافقة تماما مع احتياجات التجار والمستعمرين أصحاب المزارع.

أما المسيحيون من مؤيدى العبودية فكانوا يزعمون أنهم وجدوا تبريرا من خلال إشارات فى "الكتاب المقدس" إلى مصير ذرية "**حام**" أحد أبناء "**نوح**". بيد أنه كانت هناك محاولات كذلك لإيجاد مبررات "**علمية**" عن "**وحشية**" فى الأفارقة تجعلهم "**دون مستوى البشر**"- كما نجد مثلا فى "تاريخ جامايكا- **History of Jamaica**" لـــ"**إدوارد لونج- Edward Ling**"، الصادر فى **1774**. مثل هذه الحجج جعل بعض المفكرين المتأثرين بـــ"التنوير" يواصلون تأييدهم للعبودية(١٧). كان بإمكانهم إعلان أن "كل البشر يولدون متساوين"، ثم يضيفون أن غير البيض ليسوا بشرا.

لم تظهر العنصرية فجأة باعتبارها أيديولوجية متكاملة، وإنما تطورت على مدى ثلاثة قرون؛ فالموقف المبكر من سكان أمريكا الشمالية الأصليين كان يعتبرهم مختلفين عن الأوروبيين لأنهم واجهوا ظروفا حياتية مختلفة. كانت إحدى المشكلات التى تواجه حكام "جيمس تاون- **Jamestown**" "فرجينيا"، أن الحياة الهندية كان لها جاذبية خاصة بالنسبة للمستعمرين البيض، وكان أن "فرضوا عقوبة

القتل على الهرب للعيش مع الهنود"[١٨]. تفضيل "ألوف الأوروبيين لأسلوب الحياة الهندى" نجد انعكاسا له فى النظرة الإيجابية "لحالة الطبيعة" فى كتابات مؤثرة مثل كتابات "**روسو- Rousseau**"[١٩]. حتى فى منتصف القرن الثامن عشر لم يكن هناك وجود لمثل "تلك الامتدادات التى أثارها فيما بعد مصطلح "الرجال الحمر"... لم يكن لون البشرة يعتبر خصيصة أو ملمحا مهما"[٢٠]. تغيرت المواقف فى أواخر القرن الثامن عشر مع تزايد صراعات المستوطنين الأوروبيين مع السكان الهنود على ملكية واستخدام الأرض. أصبح الهنود، على نحو متزايد، يوصفون بأنهم "وحوش متعطشون للدم"، كما أصبح يشار إليهم باعتبارهم وثنيين سمر اللون، همجا سود، حشرات وطفيليات، ثم بنهاية القرن الثامن عشر أصبحوا يوصفون بالهنود الحمر (**Redskins**)[٢١]. تطورت العنصرية من دفاع عن العبودية الأفريقية إلى نظام كامل من الاعتقاد بأن كل شعوب الأرض يمكن أن تصنف فيه إلى "بيض" و"سود" و"سمر" و"حمر" و"صفر"- حتى بالرغم من أن هناك الكثير من الأوروبيين من ذوى البشرة الحمراء الضاربة إلى اللون القرنفلى، والكثير من الأفارقة السمر، والكثير من أبناء جنوب آسيا الشقر مثل الأوروبيين، فالمؤكد أن سكان أمريكا الأصليين ليسوا حمرا، وأن الصينيين واليابانيين ليسوا صفرا!

قبل نحو **60** عاما تقريبا، لفت الماركسى "**سى. إل. آر. چيمس- C.L.R. James**" والزعيم الكاريبى "**إريك وليمز- Eric Williams**" الانتباه إلى أهمية العبودية فى صنع العنصرية وفى تطوير اقتصادات أوروبا الغربية، وكانا بذلك يبنيان على جدل طرحه "كارل ماركس" عن الصلة بين العبودية المنقولة فى العالم الجديد وعبودية الأجر فى العالم القديم.

كانت حجتهما عرضة للهجوم منذ أن طرحاها، وفى آخر الأمر، فإن الكثير من مكاسب العبودية لم يستثمر فى الصناعة، كما يقول النقاد، وإنما كان يتم إنفاقه على القصور الفارهة، حيث كان التجار وملاك المزارع المقيمون فى مناطق بعيدة عنها، يعيشون بنفس أسلوب الأرستقراطية القديمة، كما كانت كل مكاسب

اقتصادات شمال غرب أوروبا يتم تبديدها على حروب للسيطرة على التجارة التى تعتمد على العبودية(٢٢)، هذا الوضع يصفه لنا أحد كتب التاريخ الاقتصادى فى ستينيات القرن العشرين كما يلى:

> **لا تمثل أرباح التجارة الخارجية إسهاما مهما فى المدخرات اللازمة للاستثمارات الصناعية... محاولات قياس أرباح العبودية كشفت عن قيمة ضئيلة بالنسبة للتجارة الكلية والتدفقات الاستثمارية(٢٣).**

ولكن هذا يصرف الانتباه عن الآثار الحقيقية للإنتاج الذى كان يعتمد على العبيد، على الحياة الاقتصادية لأوروبا الغربية، وبخاصة بريطانيا فى القرن الثامن عشر؛ فما يطلق عليها عادة "**التجارة الثلاثية- Triangular Trade**" وفرت منافذ لصناعاتها الحرفية المزدهرة ومصنوعاتها المزدهرة. كانت الأدوار المصنوعة من الحديد، والمدافع، والمنسوجات الأوروبية تباع للتجار على الساحل الأفريقى ثمنا للعبيد، وكان يتم نقل العبيد فى ظروف بالغة الصعوبة لكى يباعوا فى الأمريكتين، (كان من الأجدى اقتصاديا بالنسبة لتجار العبيد يتركون **15%** منهم يموتون أثناء الرحلة، من توفير ظروف أفضل للجميع)، أما الأموال التى كان يتم تحصيلها فكانت تنفق على شراء التبغ والسكر، ثم القطن الخام فيما بعد، لبيعها فى أوروبا(٢٤).

كانت مزارع السكر تتطلب معدات متطورة نسبيا لمعالجة القصب وتكرير العصير، وكان يتم شراء تلك المعدات من المصانع الأوروبية، ومما لا شك فيه أن هذه الحركة التجارية أدت إلى انتعاش حركة الشحن وصناعة بناء السفن التى كانت تستوعب أعدادا متزايدة من المستخدمين المهرة وغير المهرة. كانت بعض الأرباح المتدفقة عبر المراكز التجارية فى "ليفربول" و"بريستول" و"جلاسجو"، كان يتم استثمارها فى عمليات فى الإنتاج فى المستعمرات، أو لتمويل إنشاءات جديدة لتسهيل عمليات النقل إلى السوق البريطانية فى الداخل، وكانت تلك الإنشاءات تشمل حفر قنوات مائية وبناء طرق رئيسية.

لم تؤد العبودية إلى نشأة الرأسمالية، ولكنها جاءت نتيجة لها. كانت الصناعة والزراعة الإنجليزية فى حالة نشاط وحيوية فى أواخر القرن السابع عشر، أى فى الوقت الذى كان فيه إنتاج المزارع فى جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية فى حالة جنينية؛ ونتيجة لحالة الحيوية والنشاط تلك، كان أن قويت وانتعشت تجارة العبيد. زاد الطلب على إنتاج المستعمرات تحديدا لأن اقتصادا بريطانيا منتعشا أدى إلى انتشار استهلاك التبغ والسكر بين الطبقات الحضرية والريفية، بعد أن كان مرتبطا بالطبقات العليا فحسب. لم يكن سلب ونهب المستعمرات واستعباد الشعوب وحدها أسباب مثل هذه الحالة من الحيوية – فالاقتصاد الإسپانى والاقتصاد البرتغالى، على سبيل المثال أصابهما الركود برغم الإمبراطورية الاستعمارية؛ أما الاقتصاد البريطانى فقد نما لأن الاستخدام المتنامى للعمل الحر فى الداخل، كان يمكنه من استغلال عمل العبيد فى الامريكتين بأسلوب جديد.

كانت كذلك حيوية اقتصاد داخلى، يتزايد اعتماده على العمل المأجور، هى ما مكن المستعبدين البريطانيين و(الفرنسيين بدرجة أقل) من الحصول على "**شحناتهم البشرية**" فى أفريقيا. معظم العبيد كان يتم شراؤهم من الطبقات العليا فى المدن الساحلية الأفريقية. كان تجار العبيد أنفسهم يجهلون الداخل الأفريقى ولا يستطيعون القيام باختطاف الملايين من الناس ونقلهم عبر مسافات طويلة إلى الشواطئ، ولذا كانوا يعتمدون على ذلك على التجار والحكام والأفارقة، مقابل تزويدهم بسلع أفضل مما يمكن الحصول عليها بوسائل أخرى. إلا أن الأفارقة لم يكونوا "**همجا جهلاء**" برغم الأسطورة العنصرية. كانوا يعيشون فى مجتمعات متطورة نسبيا، غير أمية، قريبة من مستواها من معظم مجتمعات أوروبا فى العصور الوسطى. كان الاقتصاد البريطانى قد بدأ يتجاوز هذا المستوى نتيجة مظاهر التقدم الأولى التى أحدثتها الرأسمالية ليس إلا؛ وهكذا كان يمكن أن يكون هناك شكـــلا من التجارة الهائلة الحجـــم فى القرن الثامن عشـــر، كان لا يمكن أن

يتحقق فى زمن **"ليون الأفريقى**[*]**- Leo Africanus**" (فى القرن السادس عشر) عندما كانت معظم دول أفريقيا وغرب أوروبا على نفس المستوى من التقدم الاقتصادى.

كانت عبودية مزارع المستعمرات إحدى منتجات واقع فعلى وهو عكوف كل من هولندا وإنجلترا على التوسع الرأسمالى، وفى الوقت نفسه كان لها مردودها على الرأسمالية بتقويتها ودعمها.

بذلك، تكون العبودية قد قامت بدور مهم فى تشكيل النظام العالمى الذى نضجت فيه الرأسمالية. لقد ساعدت على تزويد إنجلترا بدافع، كانت تحتاجه، لكى "تستوعب" اسكتلندا (بعد محاولة الطبقة الحاكمة الاسكتلندية إقامة مستعمرة فى "بنما"، فشل مشروع **"الدارين**[**]**- Darien**") ولكى تبدأ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، إنشاء إمبراطورية جديدة فى الشرق، من خلال غزو شركة الهند الشرقية للبنغال.

كان إضعاف معظم أفريقيا، هو الوجه الآخر لصعود الطبقة الحاكمة البريطانية. وفرت تجارة العبيد للحكام والتجار فى المناطق الساحلية فرصة

(*) **ليون الأفريقى- Leo Africanus** هو الحسن بن محمد الوزان الشهير بـ"ليون الأفريقى" أو "يوحنا ليون الأفريقى" أو "يوحنا الأسد الأفريقى". يرجع البعض نسبه إلى قبيلة أمازيجية. ولد فى غرناطة قبل سقوطها فى أيدى الإسبان، أما سنة مولده فهى محل خلاف (1495، 1500م؟). اشتهر بتأليفه الجغرافى فى عصر النهضة ومن أشهر أعماله "وصف أفريقيا". عمل سفيرا لسلطان المغرب فى "تمبكتو" وممالك أفريقية أخرى. سقط فى الأسر أثناء توقف سفينته فى جزيرة "جربة"، وتم اقتياده هدية للبابا "ليون العاشر" الذى حمله على اعتناق المسيحية، وأبقاه فى روما لتدريس اللغة العربية وتأليف مجموعة من الكتب فى اللغة والأدب والجغرافيا. (المترجم)

(**) **مشروع الدارين-** The Darien Scheme "دارين" مدينة صغيرة على ساحل كونيكتكت. كان المشروع (الذى اقترحه التاجر البريطانى الثرى "وليم باترسون" مؤسس بنك إنجلترا) محاولة فاشلة من حكومة اسكتلندا لإقامة مستعمرة باسم "كاليدونيا" فى "دارين" على برزخ بنما، فى أواخر تسعينيات القرن السابع عشر. كان الهدف أن يكون للمستعمرة طريق برى يصل بين شاطئ المحيطين الهادى والأطلنطى، أما الهدف الاستراتيجى فكان أن تصبح اسكتلندا قوة تجارية عالمية. (المترجم)

الوصول إلى سلع استهلاكية وأسلحة متقدمة نسبيا، دون الحاجة إلى القيام بتطوير صناعاتهم – ما حدث هو أن البضائع المستوردة "ضربت الصناعة الأفريقية"[٢٥]. كانت الدولة "الناجحة"، هي تلك التي تستطيع أن تشن الحرب على الآخرين وتستعبد شعوبهم. الطبقات الحاكمة الجانحة إلى السلم، لم تكن تستطيع البقاء إلا بالتحول إلى العدوان والنزعة العسكرية؛ وعندما حاولت دول مثل "جولوف- **Jolof**" و"بنين- **Benin**" و"الكونغو- **Kongo**" إيقاف تجارها عن "توريد" العبيد، كانوا يرون كيف يحقق حكام الدول الأخرى ثروات طائلة ويكتسبون قوة من جراء ذلك[٢٦]، بينما كانت المجتمعات ما قبل الطبقية تواجه الدمار، إلا إذا برزت طبقات حاكمة عسكرية جديدة. كان أولئك على الساحل يكسبون على حساب أولئك في الداخل.

يزعم بعض المؤرخين أن النمو الذى ظهر فى "الدول الأفريقية المركزية" كان يمثل شكلا من "التقدم"، إلا أن ذلك كان يصحبه إضعاف أساسى للقاعدة المادية للمجتمع. النمو السكانى توقف، فى ذات الوقت الذى يتزايد فيه باضطراد فى أوروبا وأمريكا الشمالية[٢٧]. فى غرب أفريقيا، كان هناك، حتى، تناقص فى عدد السكان فى الفترة ما بين **1750** و**1850**[٢٨]. كل ذلك أدى بدوره إلى جعل الدول الأفريقية غير مهيأة لمقاومة الغزو الاستعمارى الأوروبى فى أواخر القرن التاسع عشر؛ وبينما كانت أوروبا الغربية تتقدم اقتصاديا، كانت أفريقيا متعثرة فى مكانها.

الهوامش

(١) تقدير "بلاكبيرين– Blackburn"، كما ورد في:

R. Blackburn, "The Making of New World Slavery", (London, 1997), p.3.

وهناك تقديرات أخرى تنقص أو تزيد قليلا. وللمزيد عن الأرقام المتضمنة انظر:

P. Manning, "Slavery and African Life", (Cambridge, 1990), p.104.

(٢) المصدر السابق p.35.

(٣) المصدر السابق p.30.

(٤) انظر:

* A. Calder, "Revolutionary Empire", (New York, 1981), pp. 257-258,

* R.L. Stephenson,s novel "Kidnapped".

(5) R. Blackburn, "Making", p.230.

(6) A. Calder, "Revolutionary", p.566.

(٧) تجد في رواية "Sacred Hunger" (London, 1992) للكاتب Barry Unsworth وصفا جيدا للمشاعر المشتركة بين العبيد والبحارة.

(8) A. Calder, "Revolutionary", p.289.

(9) R. Blackburn, "Making", p.231.

(١٠) للاطلاع على التفاصيل انظر المصدر السابق. P.240, 241.

(١١) بينما تؤكد رواية "بلاكبيرن" عن التمرد تورط العبيد الأفارقة، لا يشير "كالدار" سوى للبعد غير الهندي ولا يذكر شيئا عن تورط العبيد. انظر:

* R. Blackburn, "Making", pp 256-258,

* A. Calder, "Revolutionary", pp 311-312.

(12) R. Blackburn, "Making", p. 264.

(١٣) توجد نسخة "أبيض وأسود" من الرسم في: R. Blackburn, "Making", p. 32

(١٤) انظر المصدر السابق pp 254-255, pp 264-265

(15) J. Locke, "An Essay Concerning Human Understanding", (Oxford, 1975), pp 606-607.

(١٦) كان ذلك على سبيل المثال رأى "فرانسيس موور – Francis Moore". انظر:

A. Calder, "Revolutionary", p.454.

(١٧) كثير من شخصيات التنوير مثل "آدام سميث" و"كوندروسيه" و"بنچامين فرانكلين" كانوا ضد العبودية، حتى وإن كان هناك بعض من قبلوا فكرة الدونية العقلية للأفارقة مثل "هيوم".

(١٨) انظر:

* W.E. Washburn and B. Trigger, "Native peoples in Euro-American Historiography",
* W.E. Washburn and B. Trigger (eds), "Cambridge History of Native Peoples of the Americas", vol.1, part.1 (Cambridge, 1996), p.74.

(19) W.E. Washburn and B. Trigger, "Native", p.75.

(٢٠) المصدر السابق– p.79.

(٢١) المصدر السابق– p.80.

(22) P. Manning, "Slavery", p.13.

(23) P. Matthias, "The First Industrial Nation", (London, 1983), p.168.

(٢٤) كان نموذج التجارة أكثر تعقيدا من ذلك بالطبع، إلا أنه يلخص بعض الملامح الأساسية.

(25) P. Manning, "Slavery", p. 22.

(26) P. Manning, "Slavery", p. 34.

(27) P. Manning, "Slavery", p. 85.

(28) P. Manning, "Slavery", p. 23.

-٦-

اقتصاديات "العمل الحر"

فى سنة **1771**، افتتح "**ريتشارد آركرايت- Richard Arkwright**"، الحلاق وصانع الباروكات السابق، أول مصنع غزل يعمل بالطاقة المائية، وذلك فى "كرومفورد" فى "ديربيشاير". كان يستخدم **600** من العمال، معظمهم من الأطفال الذين كانوا ينجزون عملا يمكن أن يقوم به عشرة أمثال ذلك العدد من عمال الغزل اليدوى؛ وفى سنة **1775**، اشترك "**جيمس وات- James Watt**"، صانع الآلات الحاسبية الاسكتلندى، مع مهندس من "برمنجهام"، يدعى "**ماثيو بولتون- Mathew Bolton**" فى إنتاج محركات بخارية، تستطيع تشغيل الماكينات لنقل أحمال هائلة، ودفع وإرساء السفن والمركبات بسرعة لم يسبق أن حلم بها أحد؛ وفى **1783-1784**، ابتكر "**هنرى كورت- Henry Cort**" طريقة متقدمة لصهر الحديد وطرقه وتحويله إلى صفائح.

كانت الطريق مفتوحة، من خلال تكامل هذه الاختراعات وغيرها، لتطوير أسلوب كامل فى الإنتاج، يعتمد على مصانع تعمل بطاقة البخار، يعمل فيها المئات وربما الألوف من البشر. بنهاية القرن، كان قد أصبح هناك نحو **50** مصنعا من هذه المصانع فى منطقة "مانشستر" وحدها، ولم يمر وقت طويل حتى كان المنتجون ورجال الأعمال، فى أماكن أخرى من أوروبا وعبر الأطلنطى، يحاولون محاكاة هذه الأساليب الجديدة. كان عالم الصناع فى المدن ونظام الإنتاج الريفى يمهدان الطريق لظهور المدينة الصناعية.

فى نفس الوقت الذى كانت تتكشف فيه هذه التغيرات، أطلق بروفيسور اسكتلندى ما كان يعتبره المبادئ الأساسية للنظام الاقتصادى الجديد. اليوم، يعتبر

"**ثروة الأمم**– **The Wealth of Nations**"، كتاب "**آدم سميث**– **Adam Smith**" إنجيل النزعة المحافظة– **Conservatism**، إلا أنه عندما ظهر كان يمثل تحديا ثوريا للنظام السائد فى إنجلترا، ولأولئك الذين كانوا ما زالوا متعلقين به في بريطانيا.

كان "**سميث**" جـزءا من حركـة "**التنوير الاسكتلندى**"، وهى جماعـة من المفكرين كانت تضم فى صفوفهـا "**آدم فيرجسون**– **Adam Ferguson**" و"**ديفيـد هيوم**– **David Hume**". كانوا منزعجين لمحاولات "**آل ستيوارت**– **The Stuarts**" استخدام النجاد الاسكتلندية الإقطاعية لإعادة فرض ملكية استبدادية على إنجلترا، وكانوا عاقدين العزم على استئصال ما كانوا يرونه نظاما قديما مجحفا؛ وأدى بهم ذلك إلى أن يصبحوا أكثر قربا من "**التنوير الأوروبى**"، من معظم المفكرين الإنجليز فى ذلك الوقت. كان "**سميث**" من المعجبين بـ"**الموسوعة**– **Encyclopédie**"، كما كان صديقا لـ"**فولتير**" و"**دى هولباخ**" و"**هلفيتيوس**" و"**روسو**"[١]. كـان "**ثروة الأمم**" جزءا من محاولة "**التنوير**" لتنظيف العالم من "لاعقلانية" الإقطاع.

كان يقابل بين الأساليب الحديثة لإنتاج سلع بهدف تحسين وتعزيز حياة الناس (ثروة الأمم)، والمؤسسات والأساليب القديمة التى تحول دون ذلك– وهو ما كان يميز "الدول الغنية فى أوروبا"، وما كان سائدا "إبان نظام الحكم الإقطاعية"[٢]. يبدأ الكتاب بوصف "مصنع" حديث للدبابيس، حيث تحققت زيادة كبيرة فى إنتاجية العمل نتيجة تقسيمه على نحو محدد، يجعل كل عامل يؤدى واجبا واحدا صغيرا.. محددا.

قلب "**سميث**" الأفكار التقليدية عن مصدر الثروة رأسا على عقب. فى الفترة الباكرة من العصور الوسطى، كانت الأرض تعتبر مصدر الثروة، ومن **1500** فصاعدا شاعت المفاهيم التجارية التى أصبحت تركز على الذهب والفضة. كتب "**سميث**": "العمل السنوى لكل أمة هو المورد الذى يزودها باحتياجاتها وضروريات حياتها"، كما أن "العمل هو المعيار الحقيقى للقيمة التبادلية لكل السلع"[٣].

هذا العمل يمكن استخدامه على نحوين– بشكل "**إنتاجى**" أو "**غير إنتاجى**". "**العمل المنتج**– **Productive labour**" يساعد على صنع سلع معمرة يمكن بيعها،

إما لكى يستهلكها آخرون ممن يقومون بأعمال أخرى، أو لاستخدامها باعتبارها "رأسمال" لإنتاج المزيد من السلع، وفى كلتا الحالتين يساعد الناتج إلى المزيد من الإنتاج، ما يجعل "ثروة الأمة" تزيد.

أما "**العمل غير المنتج– Unproductive labour**" فيتم استهلاكه مباشرة دون أن يساعد فى صنع سلع جديدة، مثال ذلك عمل الخدم، بمجرد انتهاء ما يقدمونه من خدمة، ينتهى. يمكن أن يثرى شخص ما باستخدامه عددا كبيرا من العمال المنتجين: "وأن يصيبه الفقر عندما يبقى على عدد كبير من الخدم.. غير المنتجين". ويضيف "**سميث**" إلى "**العمل غير المنتج**":

> **... عمل بعض أكثر الفئات احتراما فى المجتمع.... الملك مثلا، وكل الكبار الذين يعملون تحته فى القضاء والشئون العسكرية... كل الجيش والقوات البحرية... كلهم عمال غير منتجين... كلهم عالة على الناتج السنوى لآخرين... وفى نفس الطبقة لا بد من أن يوضع البعض ممن يعملون بأهم المهن وأكثرها خطرا، والبعض ممن يعملون بأكثر المهن والوظائف تفاهة: رجال الكنيسة، المحامون، الأطباء، الأدباء، الممثلون، المهرجون، الموسيقيون....**(٤)

كل الدول فى أوروبا فى القرن الثامن عشر تعطى "مناصب عاطلة" (**Sinecures**) للكثيرين الذين كانوا يتقاضون رواتب كبيرة دون أن تكون لهم واجبات أو أعمال حقيقية يقومون بها. كان أولئك أشبه بالطفيليات التى تعيش عالة على أجهزة الحكم والإدارة.. فى حالة بطالة مترفة. كانت أفكار "**سميث**" تمثل هجوما ضاريا عليهم، كما كانت هجوما على ملاك الأراضى الذين كانوا يعيشون على القيمة الإيجارية، دون أى استثمار فى الزراعة. كانت مطالبة بأن يتحرر نظام السوق المتطور من المعوقات التى تكبله. كانت برنامجا للإصلاح فى بريطانيا، بل يمكن تفسيرها باعتبارها برنامجا للثورة فى أوروبا.

كان "**سميث**"، علاوة على ذلك، يحاجج ضد أى محاولات من الدولة للتحكم فى التجارة أو غزو أراض أخرى. بترك الناس وشأنهم سوف يقومون دائما بمبادلة

السلع الناتجة عن عملهم، بأفضل وأرخص السلع الناتجة عن عمل آخرين، كما يقول. سيكون تركيز كل فرد على أفضل ما يمكنه القيام به من عمل، وبكل ما يستطيع من كفاءة، ولن تكون لدى أحد رغبة فى إنتاج أشياء لا يريدها الآخرون، كما أن السوق سوف تنسق أنشطة الناس بأفضل الطرق الممكنة.

محاولة الحكومات محاباة منتجيها ستؤدى إلى أن استهلاك عمل أكثر من اللازم. مثل هذه الضوابط قد تفيد بعض جماعات المصالح إلا أن "**سميث**" كان مصرا على أنها ستؤدى إلى انخفاض "الثروة القومية". كانت "التجارة الحرة" فى نظره، هى الأسلوب العقلانى الوحيد الذى ينبغى اتباعه.

بالأسلوب نفسه كان يدافع عن مزايا "العمل الحر". ربما كانت العبودية تبدو أسلوبا سهلا لتحقيق الربح، ولكن لأنها كانت تحرم العبيد من فرص مبادراتهم الخاصة على عملهم، كانت أكثر تكلفة من العمل الحر، على المدى الطويل. "الشخص الذى لا يمكن أن يكون لديه أى ممتلكات، لن يكون له أى اهتمام سوى أن يأكل كثيرا ويعمل قليلا قدر الإمكان"، كما كان "**سميث**" يقول[٥].

كان يطرى مزايا نظام **سوق حرة** "صرفة" مقابل المؤسسات الإقطاعية الاستبدادية التى كانت تنبثق عنها. كانت كتابات "**سميث**"، كما يقول "**إريك رول– Eric Roll**": "تمثل مصالح طبقة وحيدة... كان لا يمكن أن يكون تحت وهم أن هجومه الرئيسى كان موجها ضد الوضع المتميز لأولئك الذين كانوا يمثلون العقبات الرئيسية أمام النمو الأبعد مدى للرأسمالية الصناعية"[٦].

توصيف "**سميث**" للنظام الجديد كان أحادى الجانب. لم تكن الرأسمالية البريطانية قد قفزت وتجاوزت بقية أوروبا نتيجة منافسة سلمية فى السوق فحسب. كانت العبودية قد وفرت بعض رأس المال، والمستعمرات وفرت الأسواق. على مدى القرون كان إنفاق الدولة كبيرا، ووفر دعما كبيرا ما كان لصناعات جديدة مربحة وتنافسية أن تظهر بدونه. كانت ركائز الاستعمار والعبودية والنزعة التجارية كلها ضرورية لنشأة الرأسمالية الصناعية، حتى وإن كانت قد بدأت تشعر بأنها لم تعد فى حاجة إليها.

البلاد التى لم تكن بها دول قادرة على توفير مثل تلك الركائز عانت كثيرا. كانت تلك حال "أيرلندا"، مثلا، التى عانى رأسماليوها المحليون عندما فرضت برلمانات "وستمنستر" قيودا على تجارتهم؛ وكان ذلك ينطبق، على نحو متزايد، على الهند عندما قام مسئولو شركة الهند الشرقية البريطانية بنهب "البنغال- **Bengal**" دون أن تقدم شيئا فى المقابل. بمجرد أن كانت الرأسمالية البريطانية قد حققت وضعا مستقرا، كانت الطبقات الرأسمالية فى كل مكان فى حاجة إلى دعم الدولة حتى لا تموت الصناعات الوليدة فى مهدها.

ولأن "**آدم سميث**" كان يكتب والرأسمالية الصناعية فى طفولتها، لم يتبين أن أنظمة السوق الحرة "الصرفة" تكشف عن لا عقلانيتها. اندفاع المنتجين لمنافسة بعضهم البعض لا يؤدى إلى ضبط تلقائى بين الإنتاج والطلب، وإنما إلى ارتفاعات مفاجئة هائلة (انتعاشات- **booms**) فى الإنتاج، يتبعها انخفاضات هائلة (انهيارات- **slumps**)، حيث يخشى المنتجون عدم القدرة على بيع منتجاتهم مع تحقيق ربح. كان لا بد من أن تمر **45** سنة أخرى، قبل أن يصيف "**ديڤيد ريكاردو- David Ricardo**"، أهم خلفاء "**سميث**"، فصلا لكتابه "**مبادئ الاقتصاد السياسى- Principles of Political Economy**"، فقرا بأن إدخال الآلات (**machinery**) يمكن أن يؤدى إلى زيادة أحوال العمال سوءا؛ ولو كان "**سميث**" قد فعل ذلك لكان قد سبق عصره؛ ومع ذلك فإن من يريدون أن يقدموا كتابات "سميث" باعتبارها الكلمة الأخيرة اليوم، ليس لديهم نفس العذر.

أخيرا، كان هناك تناقض فى جدال "**سميث**" عن العمل والقيمة، وكان له متضمنات مهمة، فمثل كل مفكرى "**التنوير الإنجليزى**"، كان "**سميث**" يفترض أن الناس من ذوى الملكيات الغير المتساوية، متساوون ما داموا يواجهون بعضهم فى السوق. إلا أن بعض حججه بدأت تتحدى ذلكوتتشكك فى مدى "حرية" العمل الحر، وإذا ما كانت أكثر من حرية العمل العبودى.

إصرار "**سميث**" على أن العمل هو مصدر كل القيمة، أدى به إلى الرأى بأن القيمة الإيجارية والربح عمل، يأخذه مالك الأرض أو صاحب المصنع من المنتج المباشر.

بمجرد أن تصبح الأرض ملكية خاصة، يطلب مالك الأرض حصة من كل ما يستطيع العامل أن ينتجه أو يجمعه منها. القيمة الإيجارية تمثل أول اقتطاع من إنتاج العامل المستخدم فى الأرض.. ناتج كل عمل آخر تقريبا عرضة لمثل هذا الاقتطاع من الربح. فى كل الحرف والصناعات تقريبا، يكون الجزء الأكبر من العمال فى حاجة إلى رب عمل يزودهم بالمواد اللازمة وبأجورهم وبالصيانة إلى أن يكتمل العمل... إنه يشارك فى ناتج عملهم... هذه الشراكة تكون ربحه[٧].

ليس هناك توافق فى المصالح، وإنما صراع بين مصالح أرباب العمل ومصالح العمال.

مصالح الطرفين ليست واحدة، فالعمال يريدون الحصول على أكثر ما يستطيعون، وأرباب العمل يعطون أقل ما يستطيعون. الطرف الأول يميل إلى الاتحاد لكى ينتعش، والطرف الثانى لكى يخفض أجور العمل. ليس من الصعب التنبؤ بمن من الطرفين ستكون له الغلبة فى الصراع، فى كل الظروف العادية، ويجبر الطرف الآخر على الرضوخ لشروطه؛ ولأن أرباب العمل أقل عددا، يمكن أن يتحدوا بسهولة، كما أن القانون، بالإضافة إلى ذلك، يسمح أو على الأقل لا يحظر اتحادهم... بينما يحظر اتحاد العمال... فى كل الصراعات والنزاعات يستطيع أرباب العمل الصمود فترة أطول، فمالك الأرض أو رب العمل أو التاجر بإمكانه أن يعيش عاما أو عامين على المخزون الذى حصل عليه... كثير من العمال لا يستطيعون العيش أسبوعا[٨].

كان المنطق وراء جدل "سميث" هو الانتقال خطوة أبعد من انتقاد الطفيليين الذين يعيشون عالة على الآخرين نتيجة "الإقطاع" وهو الانتقاد من وجهة نظر الرأسماليين الصناعيين، وتحويله إلى انتقاد للرأسماليين أنفسهم – ليعتبرهم متطفلين غير منتجين، يعيشون على أرباح صنعها جهد العمال. كان منطقا انتقل عبر

كتابات "**ريكادو**" (الذى كان يهاجم ملاك الأراضى من وجهة نظر الرأسمالية الصناعية)، إلى أوائل علماء الاقتصاد الاشتراكى فى عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، وإلى "**كارل ماركس**". الأسلحة التى استخدمها أعظم علماء الاقتصاد السياسى فى حركة "التنوير"، لمحاربة النظام القديم، كانت تستخدم الآن لمحاربة النظام الجديد.

أحجم "**سميث**" عن استخلاص مثل هذه النتائج. كان بإمكانه أن يفعل ذلك بمزج فكرته بأن القيمة تأتى من العمل بفكرة أخرى مناقضة؛ وفى هذا السياق كان يقول إن قيمة سلعة ما تعتمد على جماع "العائد" منها من مالك الأرض والرأسمالى والعامل؛ وبرغم "تداولية" الحجة (العائدات تعتمد على القيمة ولكن القيمة هى إجمالى العائدات)، كانت تلك هى الفكرة التى سوف يلتقطها "**مالتوس– Malthus**"، و"**چان بابتست ساى– Jean Baptiste Say**" أعظم المروجين لها، ولتصبح المعتقد التقليدى فى العلم الاقتصادى السائد بعد وفاة "**ريكادو**".

إلا أن "**سميث**" كان أول من رسم الملامح الرئيسية للنظام الاقتصادى الجديد الناشئ، وكانت الصورة التى رسمها هى التى أعطت الرأسماليين فكرة عن الوجهة التى كانوا سائرين إليها، كما أعطت الراغبين فى أن يكونوا رأسماليين فى الدول الأخرى فكرة عامة عن ما يمكن أن يحتذوه. نشر كتاب "**سميث**" عندما كان قرن وربع القرن من السلام الاجتماعى النسبى يفسح الطريق أمام مرحلة جديدة من الجيشان الثورى، وكانت أفكاره لتشكل توجهات الكثير من اللاعبين الرئيسيين فى المرحلة الجديدة.

الهوامش

(١) للمزيد من علاقة Smith بالتنوير الأوروبى، انظر:

I. impson Ross, "The Life of Adam Smith", (Oxford, 1995).

(2) Adam Smith, "The Wealth of Nations", (Harmondsworth, 1982), p.433.

(٣) المصدر السابق – pp 104, 133.

(٤) المصدر السابق – pp 430, 431.

(٥) المصدر السابق – p. 488.

(6) E. Roll, History of Economic Thought", (London, 1962), p.151.

(7) A. Smith, "Wealth", p.168.

(8) A. Smith, "Wealth", p.169.

مصادر للمزيد من الاطلاع

* George Rude's, "Europe in the 18th Century".

تجد فيه نظرة عامة على التطورات فى أوروبا الغربية، كما تجد لدى R.S. Duplessis نظرة عامة على التغيرات الاقتصادية.

* Anges Calder's "Revolutionary Empire",

نظرة عامة على بريطانيا ومستعمراتها.

* Robin Blackburn's "The Making of New World Slavery".

حيث تجد تحديثا للأفكار التى أوردها "Eric Williams" Capitalism and Slavery، وتفاصيل عن نشأة الأفكار العنصرية.

* Patric Manning's "Slavery and African Life".

حيث تجد فكرة عن التأثير على أفريقيا.

* Keth Thomas's "Eeligion and the Decline of Magic".

تفاصيل تطور الأساليب العلمية فى النظر إلى العالم فى القرن السابع عشر، بينما تبحث أعمال أخرى من تأليف "روبرت دارنتون- Robert Darnton"، "The Business if the Enlightenment" فى جذوره الاجتماعية فى القرن الثامن عشر.

* كما تجد عرضا مفيدا لأفكار "آدم سميث- Adam Smith" فى العمل الماركسى لـ"Rubin" بعنوان: "A History of Economic Thought".

الفصل السادس

العالم ... رأسا على عقب

مسرد زمني

- **1773:** "حفل شاي بوسطن".
- **1775:** القتال في "لكسنجتون" و"بنكر هل".
- **1776:** إعلان الاستقلال الأمريكي.
- **1781:** هزيمة بريطانيا في "يورك تاون".
- **1780s to 1830s:** انتشار نظام المصنع والتعدين في بريطانيا.
- **1789:** اجتياح الباستيل، وبداية الثورة الفرنسية.
- **1791:** تمرد العبيد في "سان دومنجو".
- **1792:** الحرب الثورية الفرنسية، معركة فالمي- **valmy**، إعدام الملك.
- **1793 - 94:** **اليعاقبة- Jacobins** يحكمون فرنسا. انتهاء "إرهاب" استحقاقات الإقطاع.
- **1794:** سقوط اليعاقبة، "الترميدور- **Thermidor**"
- **1793 - 98:** **بريطانيا** تستولي على "سان دومنجـــو"، وتلقى هزيمة على يد جيش من العبيد السابقين.
- **1797:** حركات تمرد بحرية بريطانية.
- **1798:** انتفاضة **ضد** الحكم البريطاني في إيرلندا، تشكيل "تنظيم أورانج- **orange order** لمقاومتها.
- **1799:** القـــوانين التوافقيـــة تحظـــر الاتحادات العماليـــة في بريطانيا. نابوليون يستحوذ على كل السلطة في فرنسا.

■ 1801 -03: نابوليون يحاول إعادة فرض العبودية فى "هايتى"، سجــن "توســان- **Toussaint**" وموته. ديسالين **Dessalines** يقود جيش عبيد سابقين إلى انتصار.

■ **1804**: سيمفونية بتهوفن "إرويكا".

■ **1805**: نابوليون إمبراطورا.

■ **1807**: كتاب "هيجل": "فينومونولوچيا العقل".

■ **1807**: بريطانيا تحظر تجارة العبيد.

■ **1810**: أولى الانتفاضات ضد الحكم الإسبانى فى المكسيك وفنزويلا.

■ **1810 - 16**: اللوديت- **Luddites** يحطمون الماكينــات فى شمال إنجلترا.

■ **1814 - 15**: هزيمة نابوليون. استعادة الملكيات القديمة. واترلو- **Waterloo**.

■ **1811 - 18**: صدور روايات "چين أوستن- **Jane Austin**" و"والتر سكوت- **Walter Scott**".

■ **1819**: مذبحة تظاهرات الطبقة العمالية فى "بيترلو- **Peterloo**".

■ **1830**: الثورة فى باريس تستبدل بملكا آخر.

■ **1830s**: روايات "ستندال- **Stendhal**" و"بلزاك- **Balzac**".

■ **1830**: أول خط سكة حديد للركاب.

■ **1831**: "فراداى- **Faraday**" يكتشف التوصيل الكهربائى.

■ **1830:** الطبقـــة المتوسطة البريطانية تحصــــل على حـــق التصويت.

■ **1834:** قانون إغاثة الفقراء المعدل يقضى بإنشاء مساكن للعمال فى بريطانيا.

■ **1838 - 39:** الحركة الميثاقية تطالب بحق التصويت للعمال.

■ **1839 - 42:** حرب الأفيون ضد الصين.

■ **1840s إلى 1860s:** روايات "دكنز- **Dickens**" و"چورچ إليوت- **George Eliot**" و"الأخوات برونتى- **Bronties**".

■ **منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر:** تمرد **T'ai-p'ing** يسيطر على نصف الصين تقريبا.

■ **1846 - 49:** المجاعة الكبرى فى أيرلندا.

■ **1847:** البيان الشيوعى.

■ **ربيع 1848:** الثورة تجتاح أوروبا، انتفاضة فاشلـــة فى أيرلندا، آخر تظاهرة كبرى للحركة الميثاقية فى لندن.

■ **يونيو 1848:** البرجوازية الفرنسية تسحق حركة العمال.

■ **1848 -49:** استعادة الملكيات القديمة فى كل أوروبا.

■ **1850s و1860s:** انتشار الصناعة إلى ألمانيا وفرنسا.

■ **1843 -56:** غزو بريطانى كامل لشمال الهند.

■ **1857:** تمرد هندى.

■ **1857 -60:** حرب الأفيون الثانية، "تنازلات استعمارية فى المدن الصينية.

■ **1859**: كتاب "أصل الأنواع" لــ"دارون- **Darwin**".

■ **1850 -71**: إيطاليا موحدة تحت ملك.

■ **1861**: اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية، القيصر ينهى العبودية في روسيا.

■ **1863**: لينكولن- **Lincoln** يعلن نهاية العبودية.

■ **1865**: هزيمة الجنوب الأمريكي.

■ **1864**: القضاء على تمرد **T'ai-p'ing** نهائيا بواسطة قوات بقيادة بريطانية.

■ **1866**: "نوبل- **Nobel**" يكتشف الديناميت.

■ **1867**: ثورة ميجى- **Meiji** من أعلى تنهى حكم **Tokugawa** الإقطاعى فى اليابان.

■ **1867**: "ماركس" يصدر "رأس المال".

■ **1870**: الحرب الفرنسية البروسية. سقوط "لويس بونابرت".

■ **1871**: "كوميونة" باريس، العمال يسيطرون على المدينة، الحكومة الجمهورية تهجم على المدينة وتقتل الآلاف.

■ **1871**: "بسمارك- **Bismarck**" يقيم إمبراطورية ألمانية تحت الملكية البروسية.

■ **1873**: أول ماكينة كهربائية.

■ **منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر**: انسحاب القوات من الولايات الأمريكية الجنوبية، نشأة تمييز "جيم كرو- **Jim Crow**" العنصرى.

- ١ -

التمهيد الأمريكى

كانت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف لحن "العالم مقلوب رأسا على عقب" عندما كانت القوات البريطانية تنسحب من "يورك تاون" فى **1781**، وكان الأمر يبدو كذلك بالفعل بالنسبة للآلاف من "**التوريين- Tories**" الموالين للملك "**چورچ**" وهم يغادرون مع القوات. كانت كل الافتراضات التى نشأوا عليها عن النظام "الطبيعى" للمجتمع، قد تم سحقها تحت الأقدام بواسطة تمرد ناجح. ذات يوم، كان نحو **99%** من أولئك المتمردين يشاركون تلك الافتراضات قبل ثمان سنوات... لا أكثر.

كان الزعيم والسياسى القديم **بنچامين فرانكلين- Benjamin Franklin**، أحد أشهر شخصيات التمرد، قد كتب فى ستينيات القرن الثامن عشر يقول "نحن أسعد ما نكون الآن تحت أفضل الملوك"[١]. كـــان الألوف من الأمريكيين الذين يقرأون مقالاته وتصريحاته الصحفية يوافقونه تماما حتى **1774**. فى مستوطنته فى "بنسلفانيا"، "لم يكن هناك تراث ثورى واع"[٢]، كما كان "**توماس چيفرسون- Thomas Jefferson**"، الزعيم "الفرچينى" ما زال يؤكد فى بدايات **1776** أنه لم يكن لدى الأمريكيين "رغبة... ولا مصلحة فى الانفصال" عن الملكية[٣].

ما الذى حدث ليجعل ممثلين عن المستوطنات الثلاث عشر يجتمعون فى صيف **1776** فى "**مؤتمر قارى- Continental Congress**" يتبنى "**إعلان الاستقلال- Declaration of Independence**" الذى مكتب مسودته "**چيفرسون**" نفسه، والذى يؤكد أن "كل الناس يولدون متساوين"؟؛ كانت عبارة ثورية صريحة فى وقت كانت طاعة الملوك والإذعان للطبقة الأرستقراطية تكاد تكون عامة فى أوروبا. كانت المستوطنات (المستعمرات) قد أنشئت فى القرن ونصف القرن السابقين بدعم من التاج البريطانى، وكانت كل السلطة السياسية فى كل منها فى يد حاكم يعين من

لندن، إلا أن النفوذ الحقيقى كان لجماعات مختلفة فى كل مستوطنة: كان لمزارعين كبـار مستقلين فى "نيوانجلند" الزراعية، وللتجار والصناع فى مدنها الساحلية؛ ولملاك أراضى كبار منافسين فى ولاية نيويورك، كانوا لا يزالون يعاملون المستأجرين بأسلوب إقطاعى؛ ولتجار مرتبطين بتجارة بريطانيا الأطلنطية فى "نيويورك سيتـى"؛ ولعائلة "بن-**Penn**" (التى كانت تعين الحاكم)، ولحفنة من **عائلات الكويكر (Quaker families)** فى "پنسلڤانيا"؛ ولأصحاب المزارع الكبيرة من ملاك العبيد فى "ڤرچينيا" و"كارولينا" الشمالية والجنوبية، الذين كانوا يستبعدون البيض الفقراء من كل أمر. كانت هناك كذلك صراعات اجتماعية حادة فى المستوطنات بين الملاك والمستأجرين الذين هبوا فى حركة تمرد كبيرة فى "وادى هدسون- **Hudson valley**- نيويورك" فى **1766**؛ بين نخبة "فيلادلفيا" والمستوطنين الغربيين فى "پنسلڤانيا"؛ بين المزارعين الصغار وأصحاب المزارع الكبيرة فى "كارولينا" الشمالية والجنوبية؛ وفوق ذلك كله كان هناك الخوف الدائم لدى أصحاب المـزارع فى الجنوب من ثورات العبيد، كما حدث فى "كارولينا" الجنوبية فى **1739**. كان مثل هذه المصالح المتصارعة قد أحبط محاولة لتأسيس اتحاد بين المستوطنات فى الخمسينيات الأولى من القرن الثامن عشر.

فى كل مستوطنة، كان الناس يعتبرون أنفسهم "بريطانيين" وليس "أمريكيين"، فالمستوطنات، فى آخر الأمر، كانت قد نمت وازدهرت فى إطار اقتصاد بريطانيا "الأطلنطى". كان عدد السكان الإجمالى للمستوطنات قد زاد، وعندما بلغ الثلاثة ملايين كان يمثل ثلث تعداد بريطانيا. كان التجار وملاك الأراضى قد حققوا ثروات طائلة، كما كان المزارعون والصناع أفضل حالا من نظرائهم على الضفة الأخرى من الأطلنطى. لم يكن تغيير الأوضاع فى صالح أحد، كما كان يبدو.

من شرخ صغير.. إلى هوة سحيقة

ما حدث هو أن التوسع الاقتصادى كان يدفع التجار وملاك الأراضى والصنـاع على ضفتى الأطلنطى، لتبنـى مصالح مختلفـة... ومعهـا توجهات

متباعدة[٤]؛ وفى بريطانيا كان الخوف يتزايد من احتمال انتهاج المستعمرات (المستوطنات) سياسات تضر بالمصالح التجارية البريطانية، كما كانت هناك، بالمثـل، شكوك متزايدة فى تلك المستعمـرات بأن الحكومة البريطانيـة تهمل احتياجاتها ولا تكترث بمطالب أهلها. حتى منتصف سبعينيات القرن الثامن عشر، كان أشخاص مثل "فرانكلين"، الذى كان بمثابة ممثل للمستعمرات فى لندن، كانوا يعتبرون هذه المخاوف والشكوك مجرد "سوء فهم"، إلا أنها لم تكن كلها محض توهمات علـى الجانبين. كان الصدام بين المستعمرات وبريطانيا حتميـا... فى مرحلة معينة.

لم يكن نظام السوق العالمية الناشئ، كما بين "**آدم سميث**" وأتباعه، (وما زالوا يدللون على ذلك إلى اليوم) بلا دور اقتصادى بالنسبة للدولة. كانت شبكات التجارة قد انتشرت عبر النظام كله إلا أنها كانت مركزة حول مدن بعينها، لم يكن التجار والصناع ورجال المال يبيعون ويشترون فيها فحسب، وإنما كانوا بالإضافة إلى ذلك يختلطون اجتماعيا ويمارسون ضغوطا على السلطات السياسية بها. كان مما يخدم مصالحهم نمو ولايات قومية منافسة، لكل منها بنية سياسية أكثر تماسكا من تلك إبان الإقطاع، مع لغة قومية مواكبة. لم يكن من المتصور ألا يمارس الرأسماليون فى بريطانيا ضغطا على النخبة التى تدير البرلمان لتعزيز مصالحهم، كما لم يكن متصورا بالمثل ألا يقوم الرأسماليون فى المستوطنات الأمريكية بالرد بإجراءات سياسية مضادة من جانبهم.

فى كل من الاقتصاد والسياسة، هناك دائما أحداث بعينها تضع التوجهات البعيدة المدى فى بؤرة الاهتمام، وهذا ما حدث فى ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر. كانت "**حرب السبع سنوات The Seven Years War**" **(1763-1756)**، بين بريطانيا وفرنسا، مركزة على السيطرة على المستعمرات، وبخاصة فى أمريكا الشمالية، وعلى التجارة معها. بريطانيا هزمت فرنسا فى جزر الهند الغربية، استولت على "البنغال"، وغزت كندا، ووضعت الأساس لإمبراطورية عالمية، ولكن "الفاتورة" كانت باهظة.

كان من بين الخطوات المنطقية التى اتخذها ممثلو الحكومة البريطانية أن يجعلوا المستوطنين الأمريكيين يتحملـون جزءا من تكاليف الحـرب، بما أن المستعمرات قد حققت مكاسب هائلة بعد إحباط مشروع فرنسى للسيطرة وادى الميسيسيبى ومنعها من التمدد غربا.

وعليـه، كان أن فرضـت بريطانيا أشكالا مختلفة من الضرائـب على المستوطنين – ضريبة على "المولاس" (عسل قصب السكر أو البنجر الأسود) فى **1764**، وضريبة "دمغة" على عدد كبير من المعاملات فى **1765**، و"قانون إيواء" يتحمل بموجبه المستوطنون تكلفة إيواء القوات البريطانية فى أمريكا، وضريبة على الواردات فى **1767**.

مع كل ضريبة جديدة كان الاستياء يتزايد، حيث كان الاقتصاد فى حالة ركود والصناعات مهددة. كانت فرنسا لم تعد تمثل خطرا عسكريـا، وكانت الحكومة البريطانية تبحث عن دخل إضافى لخفض الضرائب عن كبار ملاك الأراضى فى بريطانيا، يضاف إلى ذلك أن المستوطنين كان عليهم أن يدفعوا ضرائب لسياسات لا يشاركون فيها. كان المستوطنون يرون أن "**مجلس العموم**" فى بريطانيا يستطيع أن يعترض أى اقتراح مالى للحكومة، والمؤكد أن مجالس المستوطنات المختلفة ينبغى أن يكون لها نفس الحق، وحرمانها منه يعنى انتهاك "الحريات" الأساسية للمستوطنات. لم تكن لغة الاحتجاج ثورية بعد. كان الناس يرون أنهم يدافعون عن "حرياتهم" باعتبارهم بريطانيين **"Britons"**، ولكن ذلك أدى بهم إلى أن يتحدوا ويحتشدوا لأول مرة ضد بريطانيا.

جرى الاحتشاد والتعبئة على مستويات مختلفة من المجتمع، ففى القمة اجتمع ممثلو المستوطنات فى مؤتمر قارى، مطالبين بمقاطعة بريطانيا تجاريا إلى أن يتم إلغاء الضرائب، وكان من شأن هذا التوجه أن جعل أى إجراء يعتمد على تلك المجموعة الصغيرة من التجار الذين يقومون بذلك.

ولكن قوى أخرى كانت تحتشد كذلك، حيث ظهرت جماعات فى كل المستعمرات فى **1765** و**1766**، أطلقت على نفسها اسم "**أبناء الحرية– Sons of Liberty**"[c]. لم تكن

تلك الجماعات مكونة من مزارعين أغنياء أو من ملاك كبار، أو حتى تجار أثرياء، كانت مكونة من أفراد ينتمون إلى "الشرائح الاجتماعية المختلفة... من النخب إلى العامة"– "مثقفون منشقون، تجار وصناع من بين المستوطنين"(٦). كانوا أشبه بتلك الفئات "الوسطى" التى قامت بدور رئيسى فى "**الجيش النموذجى الجديد– New Model Army**" فى "**الثورة الإنجليزية**". كان هناك تراث للاحتجاج الشعبى والتمرد فى مدن المستعمرات. قامت جماعات "**أبناء الحرية**" بدور أشبه ما يكون بدور الحزب السياسى فى توجيه هذا "الحراك الشعبى التقليدى نحو المسألة البريطانية"، و"إيقاظ وعى سياسى جديد بين الكثيرين من عامة الأمريكيين"(٧).

مضت أعمال الجماهير إلى ما هو أبعد من المقاطعة السلبية للتجارة؛ ففى "بوسطن" قام الناس بتحطيم مبنى كان يعتقد أنه مكتب لبيع طوابع الدمغة، كما هجموا على منزل أحد الموزعين(٨)، وفى نيويورك قاموا بتحطيم منازل من كانوا يعتبرونهم خونة، كما اصطدموا بجنود بريطانيين من العاملين فى المدينة(٩). كان الغضب على البريطانيين ممزوجا بالاستياء الشديد والنقمة على النخبة التى كانت تتباهى بثروتها فى زمن شدة عامة ومعاناة شاملة. داهمت الجماهير أحد المسارح التى كان يتردد عليها مثل أولئك الناس. كانت صحيفة "نيويورك جورنال– **New York Journal**"، وهى الصحيفة الأكثر راديكالية، تصور المسألة البريطانية على نحو درامى، ولكنها فى نفس الوقت كانت تنشر المقال تلو المقال للهجوم على ارتفاع الإيجارات والأسعار والبطالة"(١٠).

مع قيام أى حركة احتجاجية، يغير الفعل أفكار الناس، ويؤدى تغير الأفكار إلى مزيد من الفعل؛ وهذا ما كان بالفعل فى "بوسطن" و"نيويورك" فى ستينيات القرن الثامن عشر؛ ففى "نيويورك" نصب الناس "أعمدة حرية" احتجاجا على أعمال البريطانيين، وعندما كان الجنود يحطمونها كان الناس يرفعونها مرة أخرى. محاولات الحكومة البريطانية إنشاء هيئة لتحصيل الضرائب، أدت إلى زيادة الاحتقان والشعور لدى الناس بالضغوط المفروضة عليهم من الخارج. بلغت مشاعر الغضب والاستياء ذروتها فى مارس **1770**، عندما فتحت قوات عسكرية

النار على مجموعة من الناس كانت تقذفهم بكرات من الثلج. قتلت القوات خمسة أشخاص، فى ما يعرف بـــ"**مذبحة بوسطن** – **Boston Massacre**".

تراجعت الحكومة البريطانية فترة تحت ضغوط فى الداخل من عدد كبير من تجار مدينة لندن، وجماهير لندن المنتفضة وراء "**چون ويلكز** – **John Wilkes**". أسقطت كل الضرائب باستثناء ضريبة الشاى، وهدأت سورة الغضب الأمريكى.

كان لا يمكن أن تنتهى الأمور عند هذا الحد. كان التذمر يتزايد فى كل مرة بين من عرفوا القمع فى "بوسطن" وغيرها، إزاء كل محاولة لفرض الضرائب، وكذلك كان الخوف يتزايد بين الدوائر الحاكمة البريطانية إزاء إصرار المستعمرات على تقرير مصالحها بعيدا عن بريطانيا، مع شعور بضرورة إعطائهم درسا حتى لا يصبح العصيان عادة وتنتهى قصة الاحتفاظ بمستعمرات.

من كرات الثلج إلى بارود البنادق

يحدث أحيانا فى التاريخ أن يؤدى فعل صغير إلى انفجار... مثلما تؤدى شكة دبوس إلى انفجار بالون. هذا الفعل الصغير وقع فى "بوسطن" فى نوفمبر **1773**. كانت إحدى سفن شركة الهند الشرقية تقوم بتسليم شحنة شاى، حاول بها أبناء الحاكم كسر المقاطعة ضد الضريبة التى كانت قد بقيت، وبينما كان الألوف يتظاهرون على الشاطئ، قام نحو مائة من النشطاء الذين كانوا يرتدون ملابس الهنود الحمر بالصعود إلى السفينة وتفريغ الشحنة فى مياه المحيط.

أصاب الذعر قادة الرأى بين المستعمرين، إذ كان ذلك "تجاوزا عنيفا" كما زمجر غاضبا "**بنچامين فرانكلين**"[١١]، إلا أن ذلك كان له صدى كبير بين المستائين من الحكومة البريطانية – وكانت تلك هى القشة الأخيرة التى قصمت ظهرها. قامت الحكومة بتعيين الچنرال "**جيدج** – **Gage**" حاكما على "ماساشوستس"، مع تفويض بتركيع المستعمرة، وأرسلت قوات إلى "بوسطن" وأصدرت **قوانين عدم**

التسامح– Intolerance Acts التى كانت تقضى بإرسال المستوطنين الخارجين على القوانين إلى بريطانيا لمحاكمتهم.

لم تعد القضية قضية ضرائب، كانت قضية ما إذا كان ينبغى أن يكون للمستعمـــرات، رأى فـــى القوانين التى تحكمها من عدمه – كما عبر عـــن ذلك "**چيفرسون**": "ما إذا كان **160000** ناخب فى جزيرة بريطانيا العظمى يمكن أن يفرضوا قوانين على أربعة ملايين فى الولايات الأمريكية[١٢]. (ناسيا فى الوقت نفسه أن العبيد السود والكثيرين من البيض الفقراء فى ولايته "ڤرچينيا" لم يكن لهم رأى فى أى شىء). كانت كل المستعمرات مهددة. اجتاحتها موجة من الغضب، وانشقت الأرض فى كل مكان عن لجان تعبر عن ذلك. انتشرت مقاطعة الشاى، واتفقـــت المجالس الثلاثة عشر على إرسال ممثلين لها إلـــى "**مؤتمر قارى– Continental Congress**" آخر. كان الحضور، بوجه عام، من كبار الملاك الذين كانوا قد ارتقوا إلى الجاه فى الأطر الإمبراطورية البريطانية، ولم تكن لديهم رغبة فى تغييرها، ولو كان الأمر بيدهم لاختاروا أم تستمر الأمور بالأسلوب القديم نفسه. إلا أن ذلك لم يكن خيارا. دعوا لمقاطعة تجارية جديدة، إلا أن عنف الإجراءات التى اتخذتها الحكومة البريطانية كان يعنى ألا يترك أمر مثل تلك المقاطعة للتجار. كان لا بد من تدعيمها بتنظيم مقاومة جماهيرية، وفى كل "مقاطعة ومدينة وبلدة" كان على الناس أن ينتخبوا لجانا للتحريض على عدم شراء أو استهلاك البضائع البريطانية[١٣].

لم يكن ذلك يمثل مشكلة بالنسبة لمزارعى "ڤرچينيا"، الذين انضموا لأهالى "ماساشوستس" فى تشجيع المقاطعة. سيطروا على كل هياكل المدينة باستثناء مقر الحاكم. استطاعوا أن يفرضوا إرادتهم دون حدوث أى اضطرابات، ولكن فى كل مكان... كان هناك ألف سؤال وسؤال.

فى "ماساشوستس" كان هناك شبه إجماع بين الرأى العام ضد الإجراءات البريطانية؛ إلا أن القضاة فى أماكن مثل مقاطعة "وورشستر– **Worcester**" كانوا قد قرروا تطبيق القوانين الجديدة، فما الذى كان يمكن عمله إذن؟ فى نيويورك،

كان الكثير من التجار الأثرياء قد أفادوا من تجارة بريطانيا، وكانوا مترددين فى تنفيذ المقاطعة، بينما عائلات ملاك الأراضى الغنية كانوا يحذون حذو الحاكم البريطانى. مرة أخرى... ما الذى كان يمكن عمله؟ فى "پنسلڤانيا" كان جزء كبير من نخبة التجار "**الكويكر**"، يقدمون "الولاء" لبريطانيا على دعوة أقرانهم من المستعمرين، فماذا كان يمكن عمله هناك؟

كانت دعوة اللجان لفرض المقاطعة تعنى إحلالا ثوريا لمؤسسات جديدة بدلا من القديمة، سواء كان "**المؤتمر القارى**" مدركا للحقيقة أو لا.

الطبقة والمواجهة

فى مقاطعة "وورشستر"، كان على مزارعين مسلحين أن يمنعوا المحاكم من أداء عملها، رغم أن ذلك كان يعنى مواجهة قضاة محليين مصممين على أداء واجبهم، وليس مواجهة مسئولين بريطانيين[١٤]، وفى "نيويورك سيتى" "كان تنفيذ القرارات التى أدت إلى الاستقلال يعنى التخلص من... السلطات... القديمة، مثلما كان يعنى قطيعة مع البرلمان والملك". كانت القوة المحركة لذلك "مستمدة من 'الناس'، سواء عامة الناس أو اللجان الثورية". كان الصناع "العمال اليدويون" الذين يجتمعون أسبوعيا فى جلسات كاملة العدد، كانوا هم الذين ضغطوا لتشكيل لجنة "رسمية"، ثم لإحـــلال "عمال وتجار ومهنيين محل الأعضاء المؤيديـــن للملكية"[١٥]، وفى "فيلادلفيا"، أجبر اجتماع حضـــره **1200** من العمال الحرفييـــن الأعضاء الشباب من النخبة التجارية على الدعوة إلى اجتماع جماهيرى حضره عدة ألوف وتشكيل لجنة.

كان الانتقال من المقاطعة السلمية إلى الحرب، نتيجة كذلك للحراك من أسفل. بعد أن فتحت القوات البريطانية النار على استعراض عسكرى لجنود الميليشيات فى "لكسنجتون– ماساشوستس"، كان "**پول ريڤير– Paul Revere**"، أحد الحرفيين، هو الذى قام برحلته الشهيرة ليحذر الفلاحين المحليين المسلحين ويبلغهم

بأن رتلا من الجنود البريطانيين كان فى الطريق للاستيلاء على الأسلحة المخبأة فى "كونكورد" بالقرب من "بوسطن". كان أولئك الفلاحــون هم الذين حاربوا البريطانيين فى معركة "لكسنجتون"، ثم اتجهوا صوب "بوسطن" لمحاصرة الحامية البريطانيــة فى "بنكرهيل- **Bunker Hill**". فى كل حالة، كان أبناء الطبقــات المتوسطة والدنيا ينحون أبناء الطبقة العليا المترددين جانبا، وذلك بسبب ارتباطهم بالمؤسسة البريطانية.

وكما يؤكد "**إدوارد كانتريمان- Edward Countryman**" فى كتابيه الممتازين عن الثورة، فإن النضال استمر لأن الناس أقاموا مؤسسات جديدة فى وجه النخب القديمة: "ففى الفترة ما بين **1774** وصيف **1776** قامت تلك اللجان فى نيويورك بما قامت به كيانات مشابهة فى "باريس" بين **1789** و**1792**، وفى روسيا فى **1917**"[٦٦].

كان مثل هذا الحراك أساسيا بالنسبة لأحداث **1776**. فى "نيويورك"، كان هنـــاك عداء حاد ورفض لأى عمـــل ضد بريطانيا، من قبل التجـــار الأغنياء المرتبطين بتجارة الأطلنطى، وكبار الموظفين الذين يعتمدون على الحاكم، وبعض كبار مـــلاك الأراضى. فى "فيلادلفيـــا"، كانت الأغلبية فى "مجلس بنسلفانســـا" ضد الاستقلال بشكل قاطع، وما كانت الحرب ضد بريطانيا لتنجح دون دعم هاتين المدينتين. غير أن هذا الدعم كان يمكن أن يأتى، فقط، نتيجة لتحدى النخب الاقتصادية والسياسية القديمة. كان لا بد من أن يسيطر على اللجان أشخاص جدد، أكثر ثورية، يبرزون من بين صفوف الصناع والحرفيين، وليس من بين ذوى الخلفيات التجارية والإقطاعية المؤثرين على حياة المدن من خلال تحكمهم فى التصدير والاستيراد.

الكتيبات أسلحة

لم تختف المؤسسات السياسية للطبقة العليا القديمة حقا، وإنما بقيت معتمدة على التقاليد العقلية المتراكمة على مدى أجيال، لكى تحافظ على احترام الحكم والإذعان له وإضعاف أى مقاومة لبريطانيا.

كان التخلص من تلك التقاليد ومن ذلك الإذعان يتطلب تحريضا جماهيريا ودعاية شعبية. التحريض الجماهيرى اتخذ شكل الجدل من أجل المقاطعة، واستعراضات ضد المخالفين لها، وإحراق دمي تمثل الحكام والوزراء البريطانيين، ونهب المنشآت، أما الدعاية فكانت تتضمن تناول وتفنيد ودحض الحجج التي تدعم أسلوب التفكير القديم. في عام **1776** وحده، ظهر أكثر من **400** كتيب بالإضافة إلى عشرات الصحف والمجلات، إلا أن الـــدور الرئيسى كان لكتيب من **40** صفحة لمهاجر بريطاني كان قد وصل مؤخرا اسمه "**توم پين– Tom Paine**".

كان "**پين**" قد وصل إلـــى "فيلادلفيا" فى مطلع **1775** مع خطاب توصية من "بنچامين فرانكلين". كان نموذجا لأبناء الطبقة المتوسطة من الحرفيين والتجار الذين كانوا فى بداية الطريق للقيام بدور رئيسى فى الحياة السياسية. كان قد مارس فى إنجلترا مهنا كثيرة مختلفة (خياط كورسيهات، بحار، محصل جمركي، صاحب فندق صغير)، وعندما وصل إلى أمريكا، وكان قد تجاوز الأربعين بقليل، وجد عملا فى مجلة كانت قد صدرت حديثا، تخاطب جمهورا على شاكلته. مثل جمهوره، كان "**پين**" داعما ومؤيدا شديد الحماسة للمقاطعة، ولكنه لم يكن قد أصبح "ثوريا" بعد. كتب فيما بعد: "الارتباط ببريطانيا قوى وثابت والكلام ضده فى هذا الوقت خيانة"(١٧). أحداث **1775**– وبخاصة عنف القمع البريطانى المتزايد – جعلته يغير رأيه، إلى أن أصبح مقتنعا بإقامة جمهورية مستقلة، وكان ذلك ما طرحه فى الكتيب الذى أصدره فى مطلع **1776** بعنوان: "**الحس المشترك– Common Sense**".

كان الكتيب يتميز بأسلوبه الشعبى، واستخدام لغة العامة من الحرفيين والصنـــاع وليس لغـــة الـــحكام و"رجـــال المجالس". إلا أن "**الحس المشتـــرك– Common Sense**" لم يكن مجرد عمل للتحريض والإثارة، كان يستهدف تقديم الحجج المبررة للمطالب، وذلك بتناول بعض الأفكار التى كانت مطروحة على مدى القرن وربع القرن السابقين – أفكار منتقاة من "**هوبز– Hobbes**" و"**لوك– Locke**" و"**فولتيـــر– Voltaire**"، وربما "**روســـو– Rousseau**"– وتقديمها بأسلـــو يفهمه الشخص العادى. كان "**پين**" قد عرف بعض أفكار "**التنوير**" من المحاضرات

العلمية العامة ومنتديات الحوار فى إنجلترا، والآن كان يقوم بترجمة تلك الأفكار بلغة الشارع والورشة، مقتنعا تمام الاقتناع بأن "شخصا واحدا أمينا أكثر فائدة وقيمة بالنسبة للمجتمع من كل الأشرار المتوجين على مر التاريخ". كان يسخر من "**حق الحكم**" الذى يدعيه "**چورچ الثالث**- **George III**"، المستمد من كونه من سلالة "نغل فرنسى" يقود عصابة من "قطاع الطرق".

كان لكتيب "**الحس المشترك**- **Common Sense**" تأثير مذهل، إذ وزع نحو **150000** نسخة، وفيما بعد كان "بنچامين راش- **Benjamin Rush**"، أحد السياسيين فى "پنسلڤانيا" يقول:

"كان تأثيره مفاجئا وهائلا على العقل الأمريكى. كان يقرأه العامة، وتردد ما فيه الأندية، وتناقشه المـــدارس، وكانت الرسالة تصل فورا، وأسرع من عظـــة كاهـــن"(١٨).

كانت إحدى لحظات التاريخ، عندما يجعل النقاش الناس يرون الأشياء على نحو مختلف. اكتسبت الحركة الراديكاليـــة فى "پنسلڤانيا" زخما جديدا وأصبحت جاهزة لاتخاذ إجراءات ثورية.

كان كثير من التجار الأغنياء وكبار أصحاب الأراضى قد بقوا على ولائهم للملكية، وكانوا ما زالوا مؤثرين على قطاعات من السكان، الذين لم يكونوا قد انخرطوا فى الصراع فى العامين السابقين. فازوا بثلاثة مقاعد من أربعة فى اقتراع مهم للسيطرة على المجلس، وبدا أن أى مشروع لكسب دعم "پنسلڤانيا" لإعلان استقلال، محكوم عليه بالفشل؛ إلا أنه بدون مثل هذا الدعم، ستكون كل الأمور مستحيلة بالنسبة للمستعمرات الأخرى.

كان المؤيدون الراديكاليون للاستقلال لا يرون أمامهم سوى خيار واحد – ذلك الذى لجأ إليه "**الجيش النموذجى الجديد**" إبان "**الثورة الإنجليزية**"، والذى سيتم اللجوء إليه مرة أخرى فى "**الثورة الروسية**"، بعد **150** سنة. كان عليهم أن يبنوا حركة نشطة فاعلة (**activist movement**) خارج المجلس، لإسقاط قراره. دعا

اجتماع حضره **4000** شخص لعقد مؤتمر للممثلين للاتفاق على مستقبل المستعمرة، وحظيت الدعوة بدعم لجنة المحاربين المكونة من ممثلى ميليشيات المستعمرة. فجأة، وجد المجلس القديم نفسه دون سلطة ودون قوة عسكرية تحت تصرفه. رفع المجلس جلساته فى **14** يونيو ولم يجتمع مرة أخرى، وفى **18** يونيو انعقد المؤتمر العام لكتابة أكثر الدساتير ثورية، فى أى مكان، حتى ذلك الحين. منح الدستور حق التصويت لـــ**90%** من السكان الذكور، وحرم منه أى شخص لا يؤدى مسبقا قسم الولاء للملك. بعد أيام قليلة، كانت الأرض قد أصبحت ممهدة بواسطة المؤتمر القارى أمام "**إعلان الاستقلال– Declaration of Independence**".

ما كان تأسيس الولايات المتحدة الجديدة ليتم، إلا لأن ذلك القطاع من سكان "بنسلفانيا" اتخذ إجراءات "دكتاتورية" ضد أولئك الذين كانوا ما زالوا متمسكين بالملكية.

الحرب الأهلية فى إطار الثورة

يتم تقديم الثورة الأمريكية عادة باعتبارها ثورة بيضاء نسبيا، لم تعرف سفك الدماء، وأنها كانت عبارة عن معارك قليلة بين جيشين نظاميين؛ والحقيقة أن عنصر "الحرب الأهلية" اللصيق بها يعنى أنها كانت بالفعل دموية فى بعض الأماكن. كانت منطقة "وادى التريون– **The Tryon Valley**" فى "نيويورك" تحت سيطرة أسرة إقطاعية قوية مؤيدة للملكية، هى أسرة "**آل جونسون– The Johnsons**" التى شرعت فى سحق أى معارضة. "وبنهاية الحرب، كما تشير بعض التقديرات، كان هناك **700** مبنى أتت عليها النيران، **12000** مزرعة مهجورة، مئات الألوف من مخازن الغلال مدمرة، ونحو **400** امرأة أصبحن أرامل، ونحو **2000** من أبناء الثوار أيتاما"[١٩]. فى المناطق التى كان الجانب المتمرد قويا فيها، كانت تتخذ إجراءات مشددة لمنع مؤيدى الملكية من مساعدة القوات البريطانية، وعليه كانت اللجان تراقب المطبوعات المؤيدة للحكم الملكى وتصادر أراضى من يلتحقون بالجيش

الملكى وأسقطت الديون المستحقة للتجار ورجال المال المؤيدين للملكية، وكانت الجماهير تنكل بالقضاة المؤيدين للملكية بإلقاء القار عليهم ثم طلائـــه بالريش، وتـــطارد "**التوريين– Tories**" عـــراة فى الشوارع. كانت "نيويورك سيتى" تحت الاحتلال البريطانى معظم فترة الحرب، وعندما عاد الثوار كانوا يحشدون المشاعر الشعبيـــة ضد من كانوا يساعدون البريطانيين، وقد غادر المدينـــة ما لا يقل عن **20000** من مؤيدى الملكية مع السفن البريطانية فى **1783**(٢٠). ربما يكون الصراع قد بدأ فى صورة "**حفل شاى– Tea Party**" ولكن المؤكد أنه لم ينته كذلك.

مع استمرار الحرب وزيادة النقص فى المواد الغذائية، كان على اللجان أن تمنع التجار من تصديرها إلى المناطق المؤيدة للملكية، وأن تضمن وجود ما يكفى منها احتياجات الجماهير المؤيدة للحركة. فرضت ضرائب أكثر على الأغنياء وسيطرت على الأسعار وصادرت أراضى "الخونة". كانت تلك إجراءات ضرورية إن كان لا بد من الانتصـــار فى الحرب، كما كانت هناك إجراءات أخرى لصالح الفقراء على حساب الأغنياء؛ وبالضرورة، أخذ التمرد بعدا اجتماعيا إلى جانب البعد القومى.

ما كان للتمرد أن ينجح دون ذلك. كانت الاستراتيجية البريطانية تستهدف عزل المستعمرات عن بعضها بالاستيلاء على "نيويورك"، وتعقيد الوضع بمحاصرة التجارة الساحلية، ثم الزحف بعد ذلك بجيوش قوية للاستيلاء على نقاط ومدن استراتيجية. كان البريطانيون يتوقعون أن جنودهم المرتزقة سيوقعون الهزيمة بالمليشيات العديمة الخبرة بسهولة وبخاصة بعد فتور حماسة الثوار، كما كانوا يتوقعـــون انسحاب التجار وملاك الأراضـــى من الحركة والانضمام إلى الحكم البريطانى بعد نجاح جيوشهم.

لم تكن الاستراتيجية خاطئة تماما فى تصورها، إذ كان هناك بالفعل فتور فى حماسة جيوش المتمردين مع تزايد الصعاب. كان هناك متعاونون كثيرون مع الحكم البريطانى فى "نيويورك"، ثم عندما استولوا على "فيلادلفيا". أمضت جيوش

المتمردين وقتا طويلا من الحرب فى التقهقر أمام قوات ملكية أفضل تسليحا وأكثر انضباطا، وكان على معظم جيش الثوار أن يقضى شتاء شديد القسوة فى مخيمات خارج "فيلادلفيا" المحتلة؛ أما الاستراتيجية البريطانية فقد أخفقت فى آخر الأمر لسبب بسيط- كانت اللجان وحملات الإثارة والتحريض قد نجحت فى ربط الجماهير بقوة بقضية التمرد. مع استمرار مقاومة الجماهير وصمودها، كان جيش الثورة يستطيع إنهاك القوات الملكية بالكر والفر، ثم اختيار اللحظة المناسبة لشن هجوم مباغت.

كان لا يمكن اختزال الحرب باعتبارها قضايا طبقية، ففى "ڤرچينيا" كان المزارعون الأكثر ثراء سعداء بأن يشاركوا فى الصراع - "**واشنطن**" الذى كان صاحب مزرعة قاد الجيش الأمريكى، "**چيفرسون**"، وهو مالك عبيد آخر، كتب "إعلان الاستقلال"؛ وفى "نيويورك" كان بعض ملاك الأراضى والتجار يدعمون البريطانيين، ولكن كان هناك آخرون ممن اشتركوا فى الحرب ضدهم؛ حتى فى "بنسلڤانيا"، كان شخص غنى مثل "**بنچامين فرانكلين**" يقطع علاقته بأصدقائه القدامى فى المؤسسة السياسية المحلية ويصبح من أشد المتحمسين للاستقلال.

يضاف إلى ذلك أن النجاح النهائى كان يعتمد على قدرة أولئك الناس على إقامة تحالف مع الملكية الفرنسية ضد بريطانيا. كان هناك مستشارون فرنسيون يساعـــدون "**واشنطن**" فى إدارة جيش التمرد. كما كانت البحرية الفرنسية تقوم بتوصيل أسلحة وإضعاف الحصار البريطانى.

ومثلما كانت هناك قطاعات من الطبقة العليا منحازة للتمرد، كان هناك الكثيرون من أبناء الطبقات المتوسطة والدنيا الذين نأوا بأنفسهم عن الصراع من أجل **الاستقلال**، وكان ذلك، أحيانا، لأنهم لم يشعروا بأن مسألة الضرائب قد جارت على مصالحهم الخاصة بالدرجة التى تجعلهم يخرجون عن الولاءات التى تربوا عليها ويعتبرونها مقدسة؛ وأحيانا لأن الشخصيات المحلية المرتبطة بالصراع كانوا أولئك الذين عانوا منهم فى الماضى. لذلك كان كثير من المستأجرين فى "نيويورك

سيتى" يؤيدون البريطانيين لمجرد أن يكون مالك الأرض الذى يكرهونه ضدهم؛ وبالمثل، فى أجزاء من "كارولينا الشمالية" و"الجنوبية" حمل فقراء الفلاحين السلاح بسبب معاناتهم على أيدى أصحاب مزارع من الاستقلال، ما أدى إلى أعمال انتقامية دامية من الجانبين.

نجح حتى البريطانيون فى الحصول على المزيد من الدعم وبأكثر مما حصلت عليه جيوش الثوريين، وذلك من الجماعتين الأكثر اضطهادا وظلما فى أمريكا الشمالية – وهما العبيد السود والأمريكيون الأصليون. حاكم "ڤرچينيا" الموالى للملكية، كان يمنح الحرية للعبيد الذين يحاربون مع البريطانيين. عدد كبير منهم قاموا بذلك، وغادروا مع الجيوش البريطانية عندما انتهت الحرب[٢١]. على النقيض من ذلك، عندما اقترح المؤتمر فى **1779** منح الحرية للسود فى "كارولينا" و"چورچيا" مقابل الالتحاق بجيش التمرد لم تبد حكومات الولايات اكتراثا[٢٢]. لا يعنى ذلك أن حركة الاستقلال كلها كانت مع العبودية. فى "نيو إنجلند" كان الكثير من الراديكاليين يعتبرون العبودية شيئا بغيضًا وكان هناك الكثيرون من السود الذين يحاربون، بشكل شخصى، إلى جانب البيض فى الميليشيات المحلية. "ماساشوستس" و"ڤيرمونت" حظرتا العبودية فى **1780**، كما اقترعت "فيلادلفيا" على إلغائها. فى "ميريلاند"، كان فقراء البيض يتحدثون مع السود عن قضية مشتركة، وحتى فى "ڤرچينيا" بدأ بعض المزارعين يعتبرون العبودية مؤسسة يمكن الاستغناء عنها[٢٣].

كان البريطانيون يرون كذلك أن من السهل عليهم أكثر من المستعمرين أن يكسبوا حلفاء من "الهنود"، حيث كان المستوطنون والمضاربون على السواء يحتالون لنهب أراضيهم، كما كان بعض أولئك الأكثر راديكالية فى القتال ضد البريطانيين كانوا هم كذلك الأكثر عداء للشعوب الأصلية.

على أن "**الثورة الأمريكية**" كانت أكثر من مجرد انشقاق سياسى للمستعمرات عن بريطانيا، فمن أتون الحرب واضطراباتها برز مجتمع كان قد نفض عنه معالم

تعود إلى ماض قبل رأسمالى. اختفت الحقوق الإقطاعية لكبار ملاك الأراضى. اهتز احترام الناس وإذعانهم للأسر "الكبيرة". انحاز مئات الألوف من الناس فى المستوطنات الشمالية والوسطى لأفكار المساواة الإنسانية والتحرر من الظلم والاضطهاد، والتى كانوا يرون أنها لا بد من أن تشمل السود مثل البيض؛ وبالنسبة للكثيرين من مريدى "**التنوير**" فى أوروبا، كانت لغة "**إعلان الاستقلال**" تبدو تجسيدا حيا لأفكارهم.

لم تحتفظ القوى الراديكالية التى فعلت الكثير لتدعيم الثورة بالسلطة فى يدها فى أى مكان، وفى أماكن مثل "بنسلفانيا" استطاعوا لفترة اتخاذ إجراءات حققت مزايا حقيقية للطبقات المتوسطة والدنيا. كانت هناك دساتير للولايات تعطى كل الرجال حق التصـــويت، ومجالس سنوية، وتدابير لحماية الفلاحين من الديون والرقابة على الأسعار؛ وفى الوقت الذى اتفقت فيه الولايات على "**دستور فيدرالى- Fedral Constitution**" فى **1788**، كانت القوى المجمعة على إنشاء سوق حرة أمريكية كاملة، قد سيطرت على مجالس الولايات. مهد ذلك الطريق لتغير اقتصادى لم يكن مقصورا أن يكون على خلاف ذلك، إلا أنه أدى كذلك إلى انتشار وتعاظم الأنماط القديمة والجديدة من الظلم والاستغلال.

الهوامش

(١) انظر:

E. Wright, "Benjamin Franklin and American Revolution", pp 71, 90.

(2) R.A. Ryerson, "The Revolution Has Now Begun; The Racial Committees in Philadelphia, 1765-76, (Pennsylvania, 1987), pp 3-4.

(3) E. Countryman, "The American Revolution", (London, 1986), p.71.

٤() قام "تيودور درابر – Theodore Draper" بتوثيق ذلك بشكل مفصل في عمله:

"A. Struggle for Power", (London, 1996).

(5) E. Countryman, "American Revolution", p.79.

(٦) المصدر السابق– pp 98, 100

(٧) المصدر السابق– p. 100

(٨) المصدر السابق– p.103

(9) E. Countryman, "American Revolution", p. 103. E. Countryman, "A People in Revolution", (Baltimore), 1981, p.30.

(10) E. Countryman, "American Revolution", p. 103.

(11) Queted in E. Wright, "Benjamin Franklin" p.116.

(12) Queted in E. Countryman, "American Revolution", pp 70, 17.

(13) E. Countryman, "American Revolution", p.4.

(14) E. Countryman, "American Revolution", p. 113-114.

(15) E. Countryman "A People", p. 102, 125-126.

(16) E. Countryman "A People", pp 102.

وانظر كذلك ما أورده عن ماساشوستس وذلك في: American Revolution, p.118

وما كتبه R.A. Ryerson عن فيلادلفيا في: "The Revolution".

(17) Queted in J. Keane, "Tom Paine, A Political Life", (London, 1995).

(١٨) المصدر السابق– p.125

(19) E. Countryman "A People", p. 150.

(٢٠) الرقم كما ورد في: E. Countryman "A People", p.221

(21) E. Countryman, "American Revolution", p. 71.

(٢٢) المصدر السابق- p.72

(٢٣) هكذا كان في مسودة "چيفرسون" الأولـــى لإعلان الاستقلال هجوم مشوش على الملكيـــة للتشجيع على العبودية ثم حث العبيد على التمرد. انظر:

E. Countryman, "American Revolution", p. 71.

- ٢ -

الثـــورة الفـرنسيـــة

"هنا، واليوم يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم"، هكذا كتب "**جوته- Goethe**"، أبرز ممثلى "**التنوير**" في ألمانيا، في صيف **1792**.

قبل عام من ذلك، كان الأرستقراطى المحافظ "**ڤان جندورپ- van Hagendorp**" قد رأى كيف كانت تسير الأمور. "في كل الدول"، كان يتشكل فريقان قويان، كما كتب. أحدهما فريق الكنيسة والدولة، يؤمن: "بحكم شرعى يمارسه شخص واحد أو عدة أشخاص على العامة، كريم النسب، تدعمه الكنيسة". الفريق الآخر ينكر أى حق فى الحكـــم "سوى ذلك المستمد من القبول الحر للمحكومين"، ويعتبـــر كل الأشخاص المشاركين فى الحكم مسئولين عن أفعالهم"[١].

ما نبـــه "جوته" لذلك كان أن هذين "الفريقين" الكبيرين كانا قد واجها كلاهما الآخر فى ساحة المعركة فى "**ڤالمى- Valmy**" فى شمال فرنسا، وانتصر الفريق الثانى. كانت قوى الثورة الفرنسية قد هزمت جيوش نصف الملكيات الأوروبية تقريبا.

قبل عشر سنوات، كانت فكرة قيام ثورة فى فرنسا تبدو ضربا من العبث بالنسبة لمعظم الناس، بصرف النظر عن أنها كان يمكن أن تشعل كل أوروبا. كان النظام الملكى الفرنسى يحكم على مدى أكثر من ألف سنة، ولفترة تربو على **140** سنة لم تكن هناك قوة منافسة له. كان "**لويس الرابع عشر- Louis XIV**"، الملك الشمس، وقصره المنيف فى "**ڤرساى- Versailles**" يرمزان لترسخ "**استبدادية- absolutism**" باقية، جعلت من فرنسا القوة الأعظم فى أوروبا، وكذلك كان خلفاؤه "**لويس الخامس عشر**" و"**لويس السادس عشر**".

إلا أن هذه القوة كانت، فجأة، قد بدأت تتداعى فى صيف **1789**. كان الملك قد استدعى ممثلى "**الطبقات**– **estates**" الثلاث التى تكون المجتمع الفرنسى – الإكليروس والنبلاء وباقى الأهالى، "الطبقة الثالثة"– وذلك لمناقشة طرق جمع الضرائب، إلا أن ممثلى الطبقة الثالثة رفضوا الخضوع للنبلاء، كما رفضوا ما قال به الملك، وأعلنوا أنفسهم "**جمعية وطنية**– **National Assembly**"، وفى اجتماع عقدوه فى ملعب للتنس بعد أن طردهم الملك من قاعتهم، أقسموا ألا يتفرقوا إلا بعد أن يمنحهم دستورا. رد الملك باستدعاء قوة قوامها **20000** جنديا، وعزل "**نيكر**– **Necker**"، الوزير الأول على افتراض أنه كان متعاطفا مع الدعوة للإصلاح.

كان ممثلو الطبقة الثالثة كلهم من الطبقة المتوسطة المحترمة، ومعظمهم من الشريحة الغنية. كان نصفهم محامين ومعظم الباقين تجارًا ومصرفيين ورجال أعمال وملاك أراض من أبناء الطبقة الوسطى. لم يكن بينهم حرفى أو مزارع واحد. كانوا كلهم تقريبا مقتنعين بالحاجة إلى نظام ملكى، على أن تكون "**ملكية دستورية**"، وكذلك بالحاجة إلى أن تكون هناك مؤهلات صارمة فى أى نظام انتخابى تتمثل فى الملكية– **property**. لم يكونوا مستعدين للخضوع، وكان الجدل الدائر فى "ڤرساى" مثيرا للقلق بين أعداد غفيرة من الناس فى "باريس"، لم تكن السياسة تشغلهم من قبل. ظهرت الأندية – **Clubs**، بين الأغنياء من الطبقة المتوسطة فى البداية، حيث كان الناس يتجمعون ويناقشون ما يحدث، ظهر عدد كبير من النشرات الإخبارية والمطويات والكتيبات، واجتمع نحو **400** من أبناء الطبقة المتوسطة فى "باريس" ليعلنوا أنفسهم مجلسا للمدينة أو "**كوميون**– **Commune**".

مسرد زمنى للثورة الفرنسية

1787 – 88: الأرستقراط يعارضون فرض ضرائب على المزارع الكبيرة. الملك يوافق على دعوة مجلس عموم الطبقات: **Estates General**.

أبريل 1789: اجتماع مجلس عموم الطبقات فى "ڤرساى".

يونيو 1789: مندوبو الطبقة الثالثة يعلنون أنفسهم "جمعية وطنية".

يوليو 1789: جماهير باريسية تقتحم "الباستيل".

أكتوبر 1789: مسيرة نسائية إلى "ڤرساى"، إعادة الملك إلى باريس، الحرس الوطنى التابع لـــ"لافاييت" يبدأ فى السيطرة على المدينة، ملكية دستورية.

يوليو 1790: عيد الاتحاد في باريس، الاحتفال بالتوافق بين الملك والشعب.

ربيع 1791: الملك يحاول الهرب إلى "باريس".

يوليو 1791: الحرس يقتل الناس فى "شامپ دور مارس".

أغسطس 1791: بداية انتفاضات العبيد فى "سان دومنجو" (هايتى).

سپتمبر 1791: دستور مع مؤهلات ملكية صارمة.

يناير 1792: شغب ومظاهرات الطعام فى "باريس".

أبريل 1792: حكومة "الچيروندين" تعلن الحرب على النمسا وپروسيا، هزائم عسكرية كبيرة.

أغسطس 1792: عصيان مسلح فى "باريس"، إلقاء القبض على الملك، "دانتون- **Danton**" يلتحق بالحكومة.

سپتمبر 1792: الانتصار فى "ڤالمى- **Valmy**"، انتخاب مؤتمر عام- **Convention** بتصويت الذكور البالغين.

يناير 1793: إعدام الملك.

فبراير 1793: بريطانيا تدخل الحرب.

ربيع 1793: تقدم الجيوش الغازية نحو "باريس"، انتفاضات مؤيدة للملكية فى غرب فرنسا. (ڤندى- **Vendée**).

مايو-يونيو 1793: عصيان مسلح فى "باريس"، حكومة "يعاقبه" برئاسة روبسپيير- **Robespierre**" و"دانتون- **Danton**"، حرب أهلية.

صيف 1793: مقتل "مارا- **Marat**"، إنهاء كل المدفوعات الإقطاعية، الملكيون يسلمون "طولون- **Toulon**" للبريطانيين.

سبتمبر 1793: عصيان مسلح في باريس، قانون يضع الحد الأقصى للأسعار، بداية عهد الإرهاب.

أكتوبر- ديسمبر 1793: هزيمة الانتفاضات والتمردات الملكية و"الچيروندية - **Girondist**".

فبراير 1794: "اليعاقبة" ينهون العبودية في كل الإمبراطورية الفرنسية.

مارس- أبريل 1794: "اليعاقبة" يعدمون "هيبير- **Hebert**" ثم "دانتون"، انتصارات للجيوش الثورية على كل الجبهات.

يونيو-يوليو 1794: "الإرهاب العظيم".

يوليو 1794: "تيرميدور- **Thermidor**"، إعدام "روبسبيير" وغيره من اليعاقبة.

نوفمبر-ديسمبر 1794: إغلاق النادي "اليعقوبي"، إلغاء قوانين الحد الأقصى للأسعار.

مارس- مايو 1795: قمع وحشي لآخر انتفاضة شعبية، إلقاء القبض على **1200** شخصا، إعدام **36** شخصا.

سبتمبر 1795: دستور جديد وحق اقتراع مقيد، الحكومة تعتمد على "بونابرت- **Bonaparte**" لقمع الانتفاضة الملكية، السلطة الحقيقية مع حكومة إدارة- **Directory** من خمسة أفراد.

نوفمبر 1799: "بونابرت" يمسك بالسلطة ويصبح "القنصل الأول".

1804 : "بونابرت" يعلن نفسه "الإمبراطور نابوليون الأول".

سقوط "الباستيل"، وبعده

الشائعات التى انتشرت عن انقلاب عسكرى وشيك استثارت جماهير المدينة بشكل لم يسبق له مثيل، وفى 12 يوليو، خرجت جموع من أكثر الأحياء فقرا إلى الشوارع، مسلحة بكل ما كانت تستطيع أيديهم الوصول إليه. بعد يومين، زحف عدد هائل على رمز الهيمنة الملكية على المدينة، حصن "**الباستيل**" البالغ ارتفاعه نحو **100** قدم ويحيط به خندق مائى عرضه **80** قدما. لم تكن تلك مجرد تظاهرة احتجاجية. كان المبنى مستودعا للبارود وسجنا لعدد كبير من خصوم النظام، وكانت الجماهير كلها إصرار على الاستيلاء عليه. فتح المدافعون عنه نيران المدافع عليهم، وبعد ثلاث ساعات كان هناك **83** قتيلا. سحب المهاجمون مدفعا كانوا قد استولوا عليه من فندق "الإنفاليد" القريب، وبعد التهديد بنسف الحصن والمنطقة المحيطة به، استسلم القائد وسلمه لهم. كانت الثورة قد سيطرت على العاصمة – الأمر الذى سرعان ما سوف يتكرر فى مدينة تلو الأخرى فى أرجاء البلاد.

كان "**سقوط الباستيل**" نقطة التحول الكبرى الأولى فى مسيرة الثورة. شجع ما قامت به جماهير باريس "**الجمعية الوطنية– The National Assembly**" على إصدار مرسوم بإلغاء الإقطاع (رغم أنه كان يقضى بأن يدفع الفلاحون تعويضا عن إسقاط المستحقات الإقطاعية)، وإعلان عن حقوق الإنسان، يقترب فى فحواه من "إعلان الاستقلال" الأمريكى. أحبطت تحركات الجماهير كذلك محاولة أخرى من الملك للقيام بانقلاب عسكرى، إذ زحفت مسيرة من النساء، خرجن من أفقر أحياء "باريس"، على "فرساى"، ووراءهن نحو **20000** مسلحا. اقتحموا القصر وأرغموا الملك على العودة إلى "باريس" ليكون تحت الرقابة الشعبية.

كان الطريق لا يزال طويلا أمام إزاحة الملكية. كانت الجماهير التى اقتحمت "الباستيل"، والنساء اللائى زحفن على "**فرساى**" قد فعلوا ذلك بمبادرة شخصية أذكاها نقص المواد الغذائية الذى ضرب الأحياء الفقيرة والنقمة على الأرستقراط المقربين من الملك. كانت تلك الجماهير ما زالت قابلة بقيادة الممثلين

الرسميين للطبقة الثالثة – أفراد من الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة الذين لم يكونوا يريدون أكثر من تغيير محدود؛ وكانوا يركزون السلطة العسكرية الجديدة فى "باريس"، فى أيدى "**حرس وطنى– National Guard**"، كان مشكلا بكامله تقريبا من أبناء الشرائع الغنية من للطبقة المتوسطة. كان على رأس الحرس الجنرال الأرستقراطى السابــق "**لافايت– Lafayette**"، الذى كانت مؤهلاتــه "**الديمقراطية**" مستمدة من عمله مستشارا فرنسيا رسميا فى حرب الاستقلال الأمريكية. تحت قيادة "**لافايت**" شرعت "**الجمعية الوطنية**" فى وضع **دستور** يقيد التصويت من خلال مؤهلات تعتمد على الملكية – **property**– واقتصاره على من كانوا يدعون بـــ"**المواطنين الفاعلين– active citizens**"، وترك للملك صلاحية تعطيل القوانين الجديدة لمدة عامين. كان من المنتظر أن يبتهج الناس لنظام جديد يقوم على "**اتحاد**" الملك والجمعية الوطنية، والأغنياء والفقراء. فرح كثيرون بالفعل، فى أول الأمر. كان هناك شعور عام بالتحرر والانتشاء عندما أحيا الملك والأرستقراط السابقون وأبناء الطبقات المتوسطة وجماهير "باريس" – كلهم معا– الذكرى الأولى لسقوط "**الباستيل**" فى احتفالية عظيمة عرفت بـــ"عيد الاتحاد".

لم تستمر مشاعر "**الاتحاد**" طويلا. كان الأرستقراط مستائيون لفقدان امتيازاتهم القديمة، رغم أنهم كانوا ما زالوا ينعمون بثرواتهم، وكان أن انتقل كثيرون منهم إلى الخارج من حيث كانوا يتآمرون مع من بقوا فى الداخل، على الإطاحة بالثورة؛ أما الملك والملكة فكتبا، سرا، لملوك آخرين يحثونهم على القيام بغزو من الخارج.

فى الوقت نفسه، كان السخط يتزايد بين جماهير المدن والقرى لعدم تحسن الظروف المادية؛ وبالفعل حدث أن شهد صيف **1789** موجة سخط شديدة بين الفلاحين– "**الخوف الكبير– The Great Fear**"– تضمنت اقتحام قلاع الأرستقراط وإحراق سندات الحقوق الإقطاعية؛ وفى المدن والمناطق التجارية كان هناك غضب واحتجاجات متكررة بسبب نقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار والبطالة،

بالإضافة إلى السخط الشديد على الأرستقراط والمضاربين. كان هناك اختمار أفكار ساعد عليه انتشار الصحف- في النصف الثاني من عام **1789** فقط، صدرت **250** صحيفة - وتأثير النوادي السياسية التي كان يتلقى فيها الناس للنقاش حول ما يحدث. كان أشهرها "**نادي اليعاقبة**" في باريس، الذي كان على رأسه "**روبسبيير- Robespierre**"، المحامي القادم من مدينة "آراس- **Arras**" في الشمال الفرنسي، كما كان هناك عشرات النوادي الشبيهة به في أرجاء البلاد. محام آخر، "**دانتون- Danton**"، كان يهيمن على "**نادي الكوردلييه**"، الذي كانت رسوم الالتحاق به أقل، ما جعله أقرب إلى الجماهير، وكان لجريدة "صديق الشعب- **L'Ami du Peuple**" اليومية، التي يحررها "**جان بول مارا- Jean Paul Marat**"، تأثير كبير على أعضائه.

على الرغم من ذلك، بقيت ملكية لافايت الدستورية "المعتدلة" هي السائدة على الساحة السياسية. فشلت محاولة قام بها الملك للفرار من "باريس" في يونيو **1791**، للالتحاق بالجيوش المعادية للثورة التي كانت تتجمع عبر الحدود، وذلك بفضل التصرف الفوري لمدير مكتب بريد في إحدى القرى، قام بإبلاغ الميليشيات المحلية. كان الفصيل المهيمن على "الجمعية الوطنية" يرفض المساس بالنظام الملكي، أعلنوا أن "**الثورة انتهت**" وأن الملك كان قد تم اختطافه، وروجوا القصة، وكان "**بارناف- Barnave**"، أحد زعماء ذلك الفصيل يقول: إن "الخطر الأعظم هو تدمير النظام الملكي" إذ سوف يكون معنى ذلك "تدمير مفهوم التملك"[٢]. هرب "جان بول مارا" وقضى فترة منفيا في بريطانيا. حظرت "**قوانين شابيلييه- Le Chapelier laws**" الاتحادات والإضرابات. فتح "الحرس الوطني النار على آلاف المصطفين لتوقيع بيان يطالب بالجمهورية، وذلك في نفس المكان الذي كان قد شهد الاحتفال بـ"**عيد الاتحاد**" قبل **12** شهرا. مات خمسون شخصا، في مذبحة، نادرا ما يأتي على ذكرها من يتباكون على مصير الملكة "**ماري أنطوانيت- Marie Antoinette**" الذي آلت إليه.

لم ينجح القمع في إيقاف الاهتياج الشعبي. نقص الغذاء وارتفاع الأسعار والبطالة دفعت الحرفيين والباعة (ممن يعرفون بالـ: "**سان كيلوت- sans-culottes**"

لأنهم لا يرتدون لباسا تحتيا)، بالإضافة إلى العمال والصناع إلى حافة اليأس. شهد شهرا يناير وفبراير **1792** أعمال شغب وتظاهرات فى "باريس" من أجل الطعام، وفى الريف كانت جماعات من فقراء المزارعين تقتحم الأسواق لإجبار التجار على تخفيض أسعار القمح والخبز. أصدر أحد "**اليعاقبة**"، ويدعى "**هيبرت- Hébert**" صحيفة بعنوان: **Le Père Duchesne (الأب دوشسن)** تخاطب القراء من الــ: "**سان كيلوت**"، كما جمع "**جاك رو- Jazques Roux**"، وهو قس كان يحظى بشعبية فى أحد الأحياء الفقيرة، جمع حوله مجموعة من الأتباع كان أعداؤهم يصفونهم بالمجانين (**enraqés**)، كانوا وراء إذكاء روح الغضب والكراهية للأرستقراط والأغنياء. التحق عدد كبير من الـــ"**سان كيلوت**" بالنوادى السياسية، وكانوا يتدفقون فى جماعات على اجتماعات "الأقسام" التى كانت تعقد بانتظام فى كل أحياء "باريس"؛ كما اكتسبت منظمة نسائية ثورية بقيادة الممثلة السابقة "**كلير لاكومب- Claire Lacombe**" ثقة وتأييدا بين كل من كانوا قد شاركوا فى احتجاجات الطعام والزحف على "**فرساى**".

لم ينجح القمع كذلك فى رأب الصدع الذى حدث فى قمة المجتمع؛ إذ كان الملك والملكة ما زالا يتآمران مع الجيوش المعادية للثورة خارج البلاد. "**المعتدلون**" الذين كانوا يديرون شؤون البلاد دبت بينهم الفرقة، فكانوا بين خائف من تلك المؤامرات، وخائف من الجماهير؛ وفى داخل "**نادى اليعاقبة**"، ظهرت جماعة تعرف بالـــ"**بريسوتين- Brisotins**" (نسبة إلى "**بريسو- Brissot**"، أحد زعمائها) أو "**الجيروندين- Girondins**"، كانوا يرون أنفسهم أقل راديكالية من "**روبسبـــيير**" و"**دانتون**"، وبدأوا مناوراتهم ليحلوا محل "**لافايت**" فى الحكومة.

كانت كل جماعة من هذه الجماعات المتنافسة ترى أن هناك حلا بسيطا لمشكلاتها – الحرب ضد الجيوش الأجنبية التى كانت قد احتشدت على امتداد حدود فرنسا الشمالية. كان الملك يعتقد أن الحرب يمكن أن تؤدى إلى هزيمة بواسطة قوات أجنبية يمكن أن تستعيد سلطته كاملة. "**لافايت**" كان يعتقد أنها يمكن أن تساعده لكى تصبح كتاتورا حقيقيا. "**الجيروند- Girondins**" كانوا يعتقدون أنهم

يمكن أن يفيدوا من موجة الحماسة القومية. المعارضة الصلبة للحرب كانت من جانب "**روبسبيير**"، الذى غالبا ما يصوره المؤرخون والروائيون وحشا متعطشا للدماء. كان يجادل فى "**نادى اليعاقبة**" ويحاجج بأن الحرب سوف تفتح الباب أمام الثورة المضادة، إلا أنه لم يستطع أن يوقف "**الچيروند**" عن الاتفاق مع الملك على تشكيل حكومة، ثم إعلان الحرب على النمسا وپروسيا فى يناير **1792**.

الحرب الثورية

بدأت الحرب على نحو كارثى. تكبد الجيش الفرنسى خسائر فادحة- إلى حد ما، لأن قادته كثيرا ما كانوا يسلمون أنفسهم للعدو - وحاول الملك استخدام الفوضى الناجمة ذريعة للتخلص من "**الچيروند**". أعلن "**دوق برونزويك- The Duke of Brunswick**"، باسم جيش الغزو أنه سيفرض "انتقاما لا مثيل له" فى حال انتصاره، وأن "يسلم مدينة پاريس للجند ويعاقب المتمردين كما يستحقون"[٣].

أخفق تهديد الثورة المضادة. أطلق موجة نشاط جديدة هائلة. كان هناك شعور طاغ بين الجماهير بأن الغزو الأجنبى كان يمثل خطرا على كل مكتسبات السنوات الثلاث السابقة. ألوف من البشر، "**المواطنون السلبيون**"، الذين كانوا يعتبرون فى عداد من لا صوت لهم، كانوا يتدفقون على الأقسام والاجتماعات الجماهيرية المنتظمة فى كل أحياء "پاريس"، وعلى إثر نداء من "الجمعية الوطنية" للتطوع لمحاربة الغزو المضاد للثورة، تقدم فى "پاريس" وحدها نحو **15000** متطوعا. بدأ متطوعون متحمسون للثورة (**Federes**) يتدفقون على پاريس من المدن الإقليمية - وخاصة أولئك الذين جاؤوا من "مرسيليا" الذين أصبح نشيد مسيرتهم نشيدا للثورة. كل مؤتمرات أقسام پاريس الثمانية والأربعين، باستثناء مؤتمر واحد طالبت بجمهورية. كان تأثير الحالة الثورية العامة يتزايد على وحدات "الحرس الوطنى" فى أحياء پاريس الفقيرة.

لم يكن الفقراء وحدهم من يخشون شبح الثورة المضادة، بل كانت تخشاه كذلك قطاعات راديكالية من الطبقة المتوسطة، بقيادة "**روبسبيير**" و"**دانتون**"

و"**مارا**". كانوا يرون الهزيمة محدقة بهم إن لم يقوموا بثورة أبعد. وفعلوا. وكانت تلك نقطة التحول الكبرى الثانية في مسيرة الثورة. عشرات الألوف من الـ"**سان كيلوت**" من أقسام المدينة انضموا إلى المتطوعين في الزحف على قصر "**تويلري**- **Tuileries**". قوة "**الحرس الوطني**"، التي كان من المفترض أنها تحمي الملك، انضمت إلى العصيان المسلح، وهزمت القوات الملكية بعد معركة مات فيها **600** من الملكيين و**370** من المتمردين.

مرة أخرى، كانت جماهير "باريس" تسيطر على المدينة. "الجمعية" المكونة من ممثلين "**معتدلين**"، كان قد تم انتخابهم قبل أقل من عام بموجب مؤهل الملكية، انحنت أمام القوة الجديدة. صوتت على تعليق وضع الملك، والاعتراف بالكوميون الثوري الجديد الذي يقوم على الأقسام الباريسية، وتنظيم انتخابات جديدة على أساس تصويت عام للذكور. عاد "**الجيروند**" لإدارة دفة الحكم، ولكن كان لا بد من إعطاء ثلاثة مناصب لـ"**اليعاقبة**" – وخاصة "**دانتون**" الذي أصبح وزيرا للعدل.

لم تكن هذه التغيرات وحدها كافية لتبديد الخطر الداخلي. استمر الجيش الفرنسي يتلقى الهزائم مع تقدم الجيوش الأجنبية نحو "باريس". الآن كان قد انضم إليها أشخاص مثل "**لافاييت**". كان هناك جماعات من النبلاء والمدافعين عن الملكية، وكثيرون في سجون ضعيفة الحراسة، وكانوا كلهم ينتظرون الفرصة ليشفوا غليلهم بالانتقام لما حاق بهم من مهانة وإذلال على مدى السنوات الثلاث السابقة. كان الكثيرون من ضباط الجيش وموظفي الإدارة الحكومية من المتعاطفين مع الملكية.

أمران فقط كان يمكن أن يساعدا في التعامل مع الخطر الذي كان يتهدد الثورة – إرسال أعداد كبيرة من المتطوعين الثوريين لمواجهة العدو في جبهة القتال، وتصرف حاسم لمنع أي انقلابات أخرى بواسطة الملكيين والأرستقراط في الداخل. لم يكن "**الجيروند**" الذين يهيمنون على الإدارة الحكومية يستطيعون القيام بأي من المهمتين؛ ولكن "**دانتون**" هو الذي كشف عن القوة التي تستطيع أن تلعب على وتر المزاج العام. "**الجسارة، الجسارة، والمزيد من الجسارة**"، كان ذلك شعاره عندما استخدم المتطوعين الثوريين من مناطق "باريس" الفقيرة، لبعث حياة

جديدة في الجيوش على الجبهة. في "باريس" كذلك، كانت هناك مبادرة جماهيرية حاسمة، باستثارة وتحفيز من "مارا- **Marat**"، تكلفوا بسحق الثورة المضادة في الداخل، فهجموا على السجون وأعدموا من كانوا يعتقدون أنهم من أنصار الملكية في ما عرف بـــ"**مذابح سبتمبر**".

كان تحرك الجماهير نتيجة شعورهم بأنهم سوف يساقون إلى المشنقة أو المقصلة في حال استيلاء العدو على "باريس"، كما كانوا يعرفون أن هناك الكثيرين في المواقع العليا، المستعدين لمساعدة العدو. كانوا قد شهدوا معاناة أصدقائهم وجيرانهم – في مذبحة "شامب دو مارس- **Champ de Mars**"، وفي عمليات القتل على الجبهة حيث كان الضباط يحاربون مع العدو، وفي الجوع بسبب نقص المواد الغذائية. كان لا بد من أن يفعلوا شيئا، ومن الأسف أنه في خضم حالة الذعر، وبسبب عدم وجود تنظيمات لهم توجههم، كان من السهل أن تقوم الجماهير بعمليات قتل عشوائية لا تفرق بين السجناء، فكان يتم قتل سجناء عاديين إلى جانب خصوم الثورة؛ ومع ذلك كان لذلك أثره الكبير في تخويف وقمع الطابور الخامس الملكي في المدينة.

في **20** سبتمبر، أوقف الجيش الثوري قوات الغزو عند "**ڤالمي- Valmy**"، وفي اليوم التالي قام المؤتمر الوطني الجديد- أول هيئة تشريعية في أي دولة في التاريخ يتم انتخابها بتصويت من كل السكان الذكور- بإلغاء الملكية وإعلان فرنسا "**جمهورية**".

لم يكن الملك وحده هو الذي ذهب، بل ذهب معه الكثير من الملامح التي كانت تبدو عصية على الإزاحة قبل ثلاث سنوات. تم إزالة مخلفات الإقطاع فعلا وقولا، وكذلك العشور التي كان الناس يجبرون على دفعها لكي يعيش الأساقفة والرهبان في نعيم. لم تعد خرافات الكنيسة تجد سندا من الدولة. كانت هناك خطط لتشجيع التعليم ونشر المعرفة العلمية، وإفساح المجال في الحياة اليومية لأفكار **التنوير**. اختفت المراكز الجمركية التي كانت تعوق طرق التجارة لصالح الوجهاء المحليين، وفي وحدات المتطوعين في الجبهة كان الجنود العاديون يصوتون لانتخاب زملائهم ضباطا.

لا عجب إذن فى اعتقاد **"جوته"**، بأن عصرا جديدا فى تاريخ العالم كان قد بدأ.

إلا أن الثورة لم تكن قد انتهت بعد، إذ شهد العامان التاليان المزيد من التغيير الثورى فى الإدارة الحكومية وفى قاعدة المجتمع على السواء؛ ثم كان أن حدث فى صيف **1794** تراجعا مفاجئا للموجة الثورية، ما سمح بعودة بعض مظاهر الامتيازات القديمة، فى ما أصبح فى النهاية ملكية جديدة، وفى هذه العملية كان **"الإرهاب"** الشهير الذى أربك مفاهيم – وتعاطف – أناس كثيرين عن الثورة. إعدام **الملك**، الذى وافق عليه أقل الأكثريات فى المؤتمر، تبعه إعدام عدد كبير من الأرستقراط الآخرين... وكذلك **الملكة**. بعد ذلك قام **"اليعاقبة"** بإعدام زعماء "الچيروند" على المقصلة؛ ثم قام **"روبسپــيير"** و**"سان– چوست: Saint-Just"** بإعدام **"دانتون"** و**"هيبير– Hebert"** على المقصلة؛ وأخيرا كان إعدام **"روبسپــيير"** و**"سان چوست"** نفسيهما على المقصلة بواسطة **"الثيرميدور– Thermidorians"** (تحالف من مؤيدين سابقين لـ**"الچيروند"** و**"دانتون"** و**"هيبير"**). هذه الأحداث والمشاهد الغير العادية كانت وراء زيوع عبارة **"الثورات تأكل أبناءها دائما"**[٤]، ومعها المعنى المتضمن أن الثورات داما عبث لا جدوى له وأنها مغامرات دموية.

ولكن ذلك تعميم زائف، فـ**"الثورة الإنجليزية"** لم تأكل زعماءها – فقد تركت هذه المهمة لجلادى إعادة الملكية – ولا أكلت **"الثورة الأمريكية"** زعماءها أو أبناءها؛ وهى ملاحظة تعجز كذلك عن فهم القوى الحقيقية الفاعلة فى فرنسا.

جذور الثورة

أى وصف موجز للثورة يركز بالضرورة على أحداث لافتة، مثلما يركز على أشهر الشخصيات، إلا أن الثورة، دائما، أكثر من ذلك بكثير. الثورة تتضمن تغيرا مفاجئا فى ميزان القوى الاجتماعية، ناجم عن تطـورات بطيئة، وغالبا تدريجية، على مدى فترات زمنية طويلة. الثورة، يمكن فهمها على ضوء مثل تلك التطورات فحسب.

في قمة المجتمع القديم، الذي يعرف عادة بـــ"**النظام القديم– ancient régime**"، كانت توجد الطبقة الملكية وطبقة النبلاء. كانت الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية التقليدية (**طبقة نبالة السيف– noblessed'epée**) تحظى بوضع متميز في فرنسا، كان قد اختفى من بريطانيا من زمن. كان النظام الملكي الفرنسي قد قام بتحجيم السلطة المستقلة لبعض النبلاء الكبار، وذلك باستخدام المدن والطبقات "**البرجوازية**" الجديدة الغنية كثقل موازن لكبار الأرستقراط. كانت ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر تعبر عن ذلك مؤسسيا ببيع المناصب الإدارية في مؤسسات الدولة ودور القضاء لأبناء الطبقات الغنية، الذين سرعان ما أصبحوا يشكلون طبقة نبلاء وراثية جديدة (**نبالة الثوب– noblesse de robe**). هذه المجموعة سيطرت على دور القضاء التي كانت تطبق المراسيم الملكية.

وأخيرا، كان هناك شكل آخر من "**النبالة**" يتكون من "**أمراء**" الكنائس الكبار – الأساقفة ورؤساء الأديرة، الذين كانوا ينعمون بثروة أقرب إلى ثروة كبار الأرستقراط، بينما كانت الكتلة الأوسع من الكهنة تحيا حياة لا تفضل كثيرا حياة الفلاحين. كانت الطبقة الكهنوتية العليا مدينة بوصفها للرعاية الملكية، التي كانت بدورها تعتمد على درجة النفوذ في البلاط؛ وعليه كان يمكن لشخص مثل "**شارل موريس دوتاليـــرا– Charles Maurice de Talleyrand**"، ابن إحدى الأسر الأرستقراطية العريقة "الذي يفتقر إلى كل الفضائل الأخلاقية"[٥]، والذي لم يكمل حتى الدرجات الكهنوتية، أن يكون رئيسا لأحد الأديرة وهو في الواحد والعشرين من العمر. مثل كل النبلاء، كبار طبقة الكهنوت يدفعون ضرائب، بل كانوا يحصلون على الإيجارات والعائدات الإقطاعية عن مساحات كبيرة من الأراضي، بالإضافة إلى العشور للكنيسة.

لم يبد أي قطاع كبير من النبلاء أي استعداد للتنازل عن المزايا الممنوحة له؛ ومع زيادة تكلفة حياة البذخ كانوا يعملون على زيارتها بفرض عائدات جديدة، والاستيلاء على مساحات من أراضي الدولة في القرى، وباحتكار المناصب المربحة في الدولة والجيش والكنيسة. كان هناك "رد فعل عنيف من قبل الأرستقراطية"[٦].

كان ذلك مواكبا لنمو صناعى كبير فى فرنسا، وخاصة بالنسبة للمنتجات اليدوية فى المناطق الريفية، وبحسب تقدير حديث، كان النمو الاقتصادى على امتداد القرن الثامن عشر بمعدل **109%** سنويا(٧). إنتاج المنسوجـــات بنسبة **250%**، إنتاج الفحم سبعة أو ثمانية أضعاف، إنتاج الحديد من **40000** طـــن إلى **140000** طن؛ وبحلول العام **1789** كان خمس سكان فرنسا يعملون بالصناعة أو الحرف اليدوية(٨).

طبقـــة كبار التجـــار الأغنياء (وبخاصة فى موانئ الأطلنطـــى المتصلـــة بمستعمرات السكر فى جزر الهند الغربية)، والمنتجين والصناع (مثل المحتكرين الذين كانوا يتحكمون فى صناعة الطباعة)، زاد حجمها كما زادت ثروتها. كان وضع البرجوازية الغنية شاذا، فمن الناحية الشكلية والقانونية كانوا دون مستوى أى من النبلاء، ولكنهم عادة كانوا أكثر ثراء ويستطيعون ممارسة نفوذ كبير على النظام الملكى. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يستطيعون شراء الأراضى التى تدر عليهم عائدات إقطاعية كبيرة من الفلاحين، كما كانوا يتربحون من العمل "جباة" للضرائب لحساب العرش. تحتهم، كانت الطبقة البرجوازية الدنيا بعيدة تماما عن دائرة النفوذ، إلا أنهم أيضا كانوا يوجهون الأموال التى تحصل عليها أسرهم من التجارة أو الصناعات الحرفية للاستثمار فى الأراضى أو شراء مناصب قانونية معينة. هاتان الفئتان من البرجوازية كانتا تشعران بالغيظ والاستياء الشديد من التمييز ضدهم من قبل الأرستقراطية؛ إلا أنهم، تلقائيا، اتخذوا موقف المعارضة الثورية للملكية الاستبدادية؛ والحقيقة أنهم كانوا ما زالوا يتطلعون إلى النظام الملكى لحمايتهم من الطبقة الأرستقراطية.

وبين الطبقات البرجوازية وفقراء المدن، كانت هناك كتلة "محشورة" من المشتغلين بالتجارة والصناعات الحرفية، الذين كانوا تقليديا يعتمدون على النقابات التى ترعاها الدولة، لضبط الأسعار وحماية دخولهم، إلا أن انتشار السوق جعل ذلك وسيلة أقل قدرة على تأمين حياتهم. كان أى تغير مفاجئ فى ظروف السوق يمكن أن يحرمهم من أى دخل، بينما أى ارتفاع فى سعر الخبز نتيجة فشل المحصول – كما حدث فى أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر، ثم فى أوائل تسعينيات القرن نفسه – كان يمكن أن يدفعهم إلى حافة المجاعة؛ يضاف إلى ذلك

أن نسبة متزايدة من الحرفيين والباعة كانوا من العمالة المؤقتة (التى تعمل باليوم)، الذين لا يتوقعون أن يعملوا لحساب أنفسهم ذات يوم. هؤلاء، كان المشترك قليلاً بينهم وبين الحرفيين والمشتغلين بالتجارة ممن ظلوا محافظين وعلى توجهاتهم النقابية.

كان هناك كذلك عدد متنام من أصحاب **التطلعات**، الجاهزين لاهتبال أى فرصة للصعود: صفقة تجارية مربحة، مكافأة مالية مقابل خدمة سياسية، أو ريادة أسلوب إنتاج جديد؛ ولكن رغم أن أمثال **هؤلاء** كان يمكن أن يعبروا عن استيائهم من "لاعقلانية" **النظام القديم**، لم يكونوا ثوريين.

كان الفلاحون يمثلون الكتلة الكبرى من المجتمع الفرنسى، وكانت طبقة شديدة التنوع من منطقة لأخرى. فى أماكن قليلة، كان المجتمع الزراعى قد مر بتغيرات أشبه بتلك فى إنجلترا، مع ظهور مزارعين رأسماليين يستخدمون أساليب مبتكرة. كان هناك عدد أكبر، ممن كان إنتاجهم موجها للسوق (عن طريق زراعة الكروم أو الجمع بين الغزل والنسج مع الزراعة)، ولكنها ظلت حيازات صغيرة. ثم كانت هناك أعداد كبيرة ممن كانوا يستأجرون أراضى من ملاك أو يتشاركون معهم المحصول، دون أن يتلقوا منهم أى مساعدة لتحسين الزراعة؛ وأخيرا كان هناك كثيرون ممن لم تكن أحوالهم تختلف كثيرا عنها فى العصور الوسطى، بصرف النظر عن عدم وجود القنانة بشكل رسمى. بالرغم من ذلك كله، كانت هناك ملامح مشتركة بين كل المجتمعات الزراعية. كان الفلاحون جميعا يشعرون بأن الأرض ملكهم، ومع ذلك كان عليهم أن يدفعوا مستحقات إقطاعية لأصحاب الأراضى، وعشورا للكنيسة، ربما تصل إلى ما يقرب من 9% من المحصول، وفوق ذلك كله القيمة الإيجارية بالطبع، كما كان عليهم أن يدفعوا ضرائب باهظة، كان النبلاء وطبقة الكهنوت معفيين منها. كان هذا العبء الثقيل يعنى المعاناة الشديدة فى حال فشل المحصول أو ارتفاع أسعار ما يحتاجونه من سلع.

هذا التداخل المعقد بين النظام **الملكى والأرستقراطية** والجماعات **البرجوازية** المختلفة والفئات **الفلاحية** المتعددة، هو ما يجعل بعض المؤرخين "المراجعين"

يدعون أن الثورة لا يمكن تفسيرها **من منظور طبقى**[٩]، فيقولون إن **البرجوازية** من الأرجح أن تحصل على دخلها من المناصب القانونية وملكية الأراضى وحتى من الاستحقاقات الإقطاعية، أكثر مما هو من الصناعة الحديثة؛ وعليه فلا يمكن أن تكون طبقة تسعى من أجل أسلوب إنتاج رأسمالى جديد، فى معارضة طبقة من **النبلاء** وسلطة **ملكية** تقوم على **الإقطاع**؛ كما يجادل أولئك المؤرخون بأن قضيتهم يؤكدها ذلك العدد الصغير من الصناعات الكبيرة المتضمنة على الجانب الثورى والعدد الكبير من التجار الذين انحازوا إلى الملك.

لا شك أن بعض مزاعمهم حقيقى، فالمؤكد أن البرجوازية كطبقة لم تكن فى وضع معارضة ثورية متواصلة من **النظام القديم**، إذ إنها كانت قد نمت فى إطاره على مدى مئات السنين وكانت مرتبطة به أيديولوجيا وتكنولوجيا على السواء، وبصور مختلفة. الشخصيات القيادية الثورية لم يكونوا من رجال المال أو الصناعة الرأسمالية. كانوا محامين مثل "**دانتون**" و"**روبسبيير**"، وصحفيين مثل "**ديمولان**-Desmoulins"، وحتى، فى مثل حالة "**مارا**"، الذى كان طبيبا سابقا للطبقات العليا. إلا أن الاستنتاجات التى يستخلصها المراجعون زائفة. تداخل مصالح **النبلاء** و**البرجوازية** لم يمنع انجذابهم نحو رؤى متعارضة للمجتمع الفرنسى. أحدهما كان ينظر إلى الماضى، إلى الدفاع عن المزايا **الأرستقراطية** والمستحقات الإقطاعية ضد كل تغيير. الآخر كان يتطلع إلى مجتمع مبنى حول المساواة فى السوق. على نحو متكرر كانت الكتلة **البرجوازية** مترددة فى وجه الإجراءات المطلوبة لتقدم هذا الشكل من المجتمع، ولكن المؤكد أنهم لم يذهبوا غلى المنفى مكرهين عندما انتصر، كما فعل كثير من الأرستقراط.

انقسام المجتمع حول هذه الأقطاب المتنافسة لم يكن بسبب "**البرجوازية**"، فى المقام الأول، ولكن كان نتيجة رد فعل "**الأرستقراطية**". ومثلما كان الأمر فى الثورتين الإنجليزية والأمريكية لم تكن الكتلة الجماهيرية التى تطالب بشىء جديد هى سبب الفوران الأولى، وإنما كان السبب محاولة النظام القديم دفع الأمور إلى الوراء.

كان المال قد أصبح الشاغل الرئيسى للنظام الملكى الفرنسى فى ثمانينيات القرن الثامن عشر؛ وكان العرش قد أنفق مبالغ طائلة على **حرب السنوات السبع** مع بريطانيا وبروسيا، ثم مبالغ أكبر أثناء **الحرب الأمريكية** مع بريطانيا. كان الإفلاس يتهدده إن لم يجد وسيلة لزيادة عائد الضرائب، ولكنه وجد أن ذلك كان مستحيلا. كان إعفاء **النبلاء والكهنوت** من دفع الضرائب يعنى أن يقع العبء على الطبقات الدنيا لدرجة العجز عن دفع المزيد. كانت مستويات المعيشة فى الريف تتدهور، أما ارتفاع الأجور فى المدن فلم يكن أكثر من **22%** مقابل **65%** زيادة فى الأسعار[١٠]. يضاف إلى ذلك عدم كفاءة نظام جمع الضرائب حيث كان "**الجباة**" ينهبون جزءا كبيرا منها.

لم يكن الملك مطلعا على تلك الأوضاع السيئة بالقدر الكافى، وعندما عرف بخطورة الموقف عين وزارة "**إصلاح**" فى **1786**، وضعت خطة لترشيد نظام الضرائب بحيث يشمل الممتلكات الواسعة للنبلاء والكنيسة. هاجت وماجت الطبقة **الأرستقراطية**، ورفض مجلس من "الأعيان" الذين اختارهم الملك الاقتراحات؛ وعندما تم إقرار المزيد من الإصلاحات رفضت "**نبالة الثوب– nobles de robe**" فى محاكم الاستئناف الإقليمية تطبيقها– وعندما حاول المفوضون الاستمرار رغما عنهم، قاموا بتنظيم احتجاجات عامة تحولت إلى أعمال شغب واضطرابات فى أماكن مختلفة. فى غمار تلك الاحتجاجات، كانت طبقة **النبلاء** ما زالت تعتقد أن بالإمكان حشد تأييد الكثيرين من أبناء الطبقات الأخرى. فى آخر الأمر، كان الحديث عن المزيد من الضرائب يبدو خطرا يتهدد البعض من **البرجوازية** والفلاحين.

كان **النبلاء**، بما أنهم يرون أنفسهم القادة الطبيعيين للمجتمع، يتصورون أن بإمكانهم، استخدام التأييد الشعبى لإخضاع الحكومة لرغباتهم. كان مطلبهم الرئيسى عقد **مجلس عموم الطبقات الثلاث– Estates- General**، الذى كان آخر اجتماع له فى **1614**. بالموافقة على ذلك فى مايو **1987**، كان الملك يذعن للمطالب **الرجعية** للطبقة **الأرستقراطية**، وليس لمطالب حركة **تقدمية** فى إطار **البرجوازية** أو الطبقات الدنيا.

هذا الاستسلام للأرستقراطية، دفع الطبقات الأخرى لتنظيم نفسها، وكان عليهم أن يختاروا ممثلين لـــ"**الطبقة الثالثة**". كان ذلك يعنى أن تكون فى المدن مجالس لاختيار "ناخبين"، يقومون بدورهم بالتصويت لاختيار ممثلين لهم، وفى الريف كان يعنى أن يختار أهالى القرى مندوبين عنهم لحضور مؤتمرات المناطق التى ستقوم باتخاذ القرارات. لم يكن لدى الكتلة الكبيرة من الجماهير خبرة بمثل تلك الأمور، وعليه فقد كانوا يضعون ثقتهم فى من هم أكثر قدرة على التعبير؛ إلا أن عملية اختيار مندوبين شجعت الملايين، لأول مرة، على التفكير فى ما يريدونه من المجتمع. فى كل مدن وقرى فرنسا كانوا يضعون **قوائم– doléances – بمطالب** يريدون أن يحققها "**مجلس عموم الطبقات الثلاث– Estates- General**". هذا النقاش أدى بجماعات النشطاء إلى بدء التفكير فى التكتل فى أحياء "باريس" الفقيرة التى كان أن اقتحمت "**الباستيل**" فى يوليو، وزحفت على "**فرســاى**" فى أكتوبر. كما شجع كذلك على تأجج المشاعر بين الجماهير، لتتحول إلى تمرد ضد النبلاء المحليين فى صيف **1789**.

استثار هجوم **الأرستقراطية** الرجعى الطبقة الوسطى، وخلق حالة من توكيد الذات بين ممثليها عند التئام **مجلس الطبقات**، لم يكونوا ثوريين مضمونا، كانوا ما زالوا مقتنعين بالنظام الملكى، وكل ما كانوا يريدونه هو تحجيم الأرستقراطية ووضع نهاية للامتيازات الاعتباطية المستفزة. لم يكونوا مستعدين للخضوع لإملاءات، كما كانوا يشعرون بالقوة على إثر غليان المجتمع؛ ومن هنا كان أن تبع مبادراتهم الجسورة – التأكيد على حقوق الإنسان والإعلان عن نهاية الإقطاع – تفاهم ترك للملك سلطة كبيرة، كما ترك للأرستقراطية ممتلكاتها.

إلا أن رد فعل **الأرستقراطية** لم يكن لينته على وجه السرعة، فما دام أبناء الطبقة يتحكمون فى ثرواتهم ومزارعهم الريفية الكبيرة، وسلك الضباط فى الجيش، كان لا بد من أن يحاولوا من جديد إعادة تثبيت أوضاعهم المميزة.

الإصلاحيون والثوريون والـ"سان كيلوت"

استحثت التحركات الشعبية التى كانت قد دعمت مؤتمر الطبقات المتوسطة فى صيف **1789**، استحثت الطبقات الدنيا على مواجهة مصيرها البائس لأول مرة. كانوا قد بدأوا يدركون أن ثراء القلة **وفقر** الكثرة وجهان للعملة ذاتها. فى البداية، كانوا يقرنون الثروة بالطبقة **الأرستقراطية**، ثم لم يمض وقت طويل قبل أن يلتفتوا إلى تلك القطاعات من **البرجوازية** التى كانت تحاكى **الأرستقراطية**، أو أثروا من وراء عملهم جباة للضرائب أو كملاك للأراضى أو مضاربين.

كانت اضطرابات **1789** قد أفرزت الآلاف من النشطاء السياسيين الجدد بين الطبقات المتوسطة. كانوا هم الذين يحضرون لقاءات النوادى السياسية، ويقرأون الكتيبات والصحف الجماهيرية، ويشاركون فى الاجتماعات الانتخابية. فى البداية كانوا مبتهجين للانتصار، وكان التاريخ يبدو وكأنه يتيح لهم فرصة لتحقيق أحلام "**التنوير**"، ولتصحيح الأخطاء التى انتقدها "**فولتير**" دون هوادة، ولتحقيق المجتمع الذى تخيله "**روسو**". تلبستهم حالة "بطولية" وبدؤوا يتصورون أنفسهم "تناسخا" من روما القديمة، مثل "**بروتس- Brutus**". إلا أنهم كانوا أمام خطر أن يقعوا فى الفخ بين **رجعية أرستقراطية** من جانب وغليان شعبى من جانب آخر، إذ بينما كانت أحداث **1789** قد برهنت على أن الاضطرابات الشعبية يمكن أن تهزم **الأرستقراطية**، فإن عمليات قيام الفلاحين بإحراق سندات ملكية أصحاب الأراضى لم تتوقف فى حال كون الملاك من **الأرستقراط**، كما أن الناس فى المدن لم يتوقفوا عن الهجوم المضاربين من **البرجوازية**.

كان ذلك هو ما أدى إلى الانشقاقات المتكررة بين صفوف نشطاء الطبقة المتوسطة. كالعادة، آثرت الأغلبية السلامة واختارت الملكية والوفاق بين العرش **والأرستقراطية**. أقلية ثورية، فحسب، هى التى كانت مستعدة للمخاطرة بإثارة الجماهير؛ بيد أن **الرجعية**، بعد أن استعادت قوتها نتيجة التنازلات والمهادنة، سوف تتحرك بما يهدد الأغلبية وتلتف على الثوريين – مع فصيل منشق للانضمام إلى الثورة المضادة.

كان ذلك ما حدث فى **1791** و**1792**، وكان ليحدث مرة أخرى فى **1793**.

كانت أزمة **1792** التى بلغت ذروتها بإعلان **الجمهورية** وإعدام الملك، قد تضمنت كذلك قيام "**اليعاقبة**" وجماهير "پاريس" التى تم تنظيمها فى أقسام المدينة، بالإطاحة بــ"**لافايت**"؛ وكان "**الچيروند**" قد أقروا ذلك الفعل إلا أنهم كانوا مترددين فى المضى إلى ما هو أبعد من ذلك والموافقة على إعدام الملك. كانوا يخشون "**الدهماء**"- أو "أفعوان الفوضى" كما كان يطلق عليهم "**بريسو- Brissot**"[11]؛ وعلى خلفية الجوع المتزايد فى المدن والقرى على السواء، كانوا يقاومون مطالب الأقسام الپاريسية للسيطرة على الأسعار ومصادرة مخزون القمح لإطعام الناس والقيام بإجراء تأديبى رادع ضد "المكتنزين والمضاربين".

بدل ذلك، هجموا على الجماهير بنفس طريقة الحكومة السابقة تقريبا، وفى أبريل كان أحد زعمائهم يحذر **البرجوازية** الغنية قائلا "ممتلكاتكم مهددة... إنكم تغمضون أعينكم عن الخطر... طاردوا تلك الكائنات الشريرة الحاقدة حتى تعود إلى جحورها"[12]. صوت المؤتمر العام بالإجماع على تقديم "**مارا- Marat**" للمحكمة الثورية متهما بالتخريب.... وما كان إلا أن برأته. ألقى القبض على "**هيبير- Hébert**"، وأعلن رئيس المؤتمر، بلغة أقرب ما تكون إلى بيان "**دوق برونزويك**" سيئ السمعة، أنه إن لم تتوقف "عمليات العصيان المسلح المتواترة" فى المدينة، "سيتم تدمير پاريس"[13]. كان الجيش قد لقى سلسلة جديدة من الهزائم بعد أن فر قائده "**ديموريه- Dumouriez**" إلى صفوف العدو، كما انضم الفلاحون الساخطون فى منطقة "ڤندى- **Vendée**" فى غرب فرنسا إلى انتفاضة دامية كانت مؤيدة للملكية.

وأخيرا، تمكن "**المعتدلون**" والملكيون فى **29** مايو من السيطرة على "ليون- **Lyons**" وسجنوا عمدتها اليعقوبى "**كالييه- Chalier**"، قبل أن يعدموه فى يوليو.

كان "**يعاقبة روبسپــيير**" من أبناء الطبقة الوسطى مثلهم مثل "الچيروند" رغم قول كثير من المؤرخين أنهم كانوا ينتمون إلى شريحة دنيا منها، وكانوا مثلهم

مع "حقوق" الملكية، كما كانوا يعلنون دائما في بياناتهم العامة. كان "**روبسبيير**" نفسه غير قابل للفساد، ولكن معظم مؤيديه لم يكونوا يترددون للإفادة ماليا من الثورة، ففي آخر الأمر كانوا من بين البرجوازية أو المتطلعين إليها. كان "**دانتون**" شخصيا قد حقق ثروة لنفسه وفي مرحلة ما كان يتلقى أموالا من الملك. "مارا" و"**هيبير**" كانا يقومان بالتحريض بين الجماهير – ولكن من وجهة نظر صغار الحرفيين والتجار مع عدم اعتراض على الفائدة.

ولكن في أوائل صيف **1793**، وجدا أن بديل استمرار الثورة وتقدمها كان "كرنفالا" من رد الفعل لم يكن بالإمكان أن يتحملاه ولا أن تتحمله مكاسب السنوات الأربع السابقة. وجدا كذلك أن السبيل الوحيد لدفع الثورة إلى الأمام هو التحالف مع جماهير "باريس" مرة أخرى والتفاهم مع الفلاحين، حتى وإن كان ذلك يعني اتخاذ إجراءات تتعارض مع مصالح **البرجوازية**. كتب "**روبسبيير**" في مفكرته: "الأخطار تأتي من الطبقات المتوسطة، ولكي نتغلب عليها لا بد من أن تكون مع الناس"[١٤]. بعبارة أخرى، كان على **البرجوازية الراديكالية** في "**نادي اليعاقبة**" أن تتحد مع الـ"**سان كيلوت**" الثوريين في **أقسام** "باريس"، ضد **برجوازية الجيروند المعتدلة**. كانت نقطة التحول الكبرى الثالثة في مسيرة الثورة قد حانت.

في **26** يناير **1793**، أطلق "**روبسبيير**" نداء للناس بأن يهبوا، وفي **29** مايو اجتمع **33** قسما من **أقسام** "باريس" واختاروا لجنة **عصيان مسلح** من **9** أعضاء لتنظيم "**يوم حاسم**– **a journée**" – انتفاضة جديدة. في **31** مايو و**2** يونيو استدعى صوت جرس الإنذار (**tocsin**) وهدير المدفع الجماهير إلى الشوارع. حاصروا المؤتمر بثمانين ألف مسلح وأجبروه على إصدار أوامر بالقبض على **29** نائب لـ"**الجيروند**"؛ والآن، كانت **المراكز** "الباريسية" هي مركز السلطة في العاصمة، وكانت قيادة "**اليعاقبة**" هي الحكومة الفعلية لفرنسا.

فر "**الجيروند**" المهزومون من المدينة للتحريض على التمرد في الأقاليم، وكان لهم أصدقاء بين صفوف ضباط الجيش وحلفاء بين كبار التجار، كما كانوا

يلقون تعاطفا كبيرا من ملاك الأراضى من الطبقة المتوسطة الذين كانوا يخشون تمرد الفلاحين، وولاء من كل من كانوا يرون "**الدهماء**" خطرا عليهم – هذا بالطبع بالإضافة إلى دعم الأرستقراطية التى كان يسعدها أى انتصار على الثورة. فى غضون أسابيع قليلة، كان معظم جنوب وغرب البلاد قد أصبح فى يد "**الچيروند**". كانت منطقة "ڤندى– **Vendée**" فى الملكيين، وكان "**معارضو اليعاقبة**" قد سلموا ميناء "طولون" فى الجنوب وسفن بحرية البحر الأبيض للبريطانيين، وكانت الجيوش الأجنبية تواصل زحفها على "باريس". كانت الثورة المضادة قد أثبتت أنها تستطيع أن تضرب فى قلب العاصمة عندما تمكنت امرأة شابة من مدينة "كاين– **Caen**"، التابعة للـ"**چيروند**"، تدعى "**شارلوت كورداى– Charlotte Corday**" من الوصول إلى "**مارا– Marat**"، بحجة طلب مساعدته، وطعنته ليلقى حتفه وهو جالس فى الحمام.

كان الـ"**سان كيلوت**" الباريسيون يحرضون "**زعماء اليعاقبة**" ويحثونهم على اتخاذ إجراءات ثورية أبعد لإيقاف الفساد وسرعان ما وجد أولئك الزعماء أن لا خيار آخر أمامهم. كلفت "**لجنة السلامة العامة– Committee of Public Safety**"، كانت قبل أسبوع واحد على الأقل تابعة للمؤتمر، وكان يتم إعادة انتخابها كل شهر، باتخاذ أى إجراءات تراها ضرورية. فرض "قانون للحد الأقصى" السيطرة على أسعار الخبز، كما أصبحت المضاربة على قوت الشعب جريمة كبرى. تم فرض مبالغ مالية يدفعها الأغنياء لدعم الحرب وضريبة تصاعدية كانت تبدأ من **10%** وتصل إلى **50%** على إجمالى الدخل الذى يزيد عن الحد الأدنى اللازم لإعالة أسرة[١٥]. كان الاقتصاد، على نحو متزايد، يخضع لتوجيه مركزى، مع وجود قطاع مؤمم مهم لإنتاج احتياجات الحرب. تم تقسيم الأراضى المستولى عليها ممن تركوها ومن الكنيسة إلى قطع صغيرة لاسترضاء الفلاحين. تم دمج وحدات المتطوعين الثوريين ووحدات الجيش القديمة على الجبهة، لكى يزيد المتطوعون حماسة الجنود النظاميين بينما يتعلمون منهم المهارات العسكرية؛ وكانوا، معا، يقومون بانتخاب ضباطهم. تم تطهير الإدارات الحكومية من الموظفين موضع

الشك، كما تم إرسال مفوضين ثوريين، مع كامل الصلاحيات، لإخماد الانتفاضات وعمليات التمرد المضادة للثورة فى المناطق الريفية. كان على كل الذكور غير المتزوجين، بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين من العمر أن يؤدوا الخدمة العسكرية، مع إلغاء الإعفاءات القديمة التى كانت تسمح بأن يدفع الأغنياء لبدلاء يخدمون مكانهم. وأخيرا، بعد المزيد من الأيام الحاسمة- **Journées** فى سبتمبر، كان أن توافق المؤتمر و"**لجنة السلامة العامة**" على سياسة قمع صارم- "**إرهاب: Terror**".

اليعاقبة والإرهاب

جاء الدافع إلى **الإرهاب** من أسفل – من الناس الذين كانوا قد عانوا الأمرين تحت **النظام القديم**، وكانوا على يقين من أنهم سوف يعانون أكثر من ذلك إذا عاد، الناس الذين كان أصدقاءهم وأقاربهم يموتون يوميا على الجبهة نتيجة للخيانة والتربح الفاسد استغلالا للأزمة. كان الدافع يجمع بين الرغبة فى الانتقام واليقين بأن خصوم العهد الثورى سوف يستغلون كل فرصة لتدميره، تحت ظروف الحرب الأهلية. لن يردعهم السجن، حيث كانوا يتوقعون إطلاق سراحهم بمجرد نجاح مؤامراتهم. كان أشخاص مثل "**هيبير**"، من الفصيل الإرهابى بين "**اليعاقبة**" يوصون بمثل تلك المشاعر، ولكن **زعماء اليعاقبة** الرئيسيين لم يسارعوا لتبنى الدعوة. وبصرف النظر عن كونه "سفاح الأسطورة"، كان "**روبسبيير**" وحده، تقريبا، فى الدعوة لإلغاء عقوبة الإعدام فى الأيام الأولى للثورة؛ وعلى العكس منه، كان "**الچيروند**" يؤيدون تطبيقها على "المجرمين" العاديين من الطبقات الدنيا، ولكن التوجس انتابهم عندما كان الأمر يتعلق بالملك.

من بين **260** شخصا تم تقديمهم للمحكمة الثورية فى سبتمبر **1793**، حكم بالإعدام على **66** فقط، أى ربع العدد تقريبا. بدءا من أكتوبر زاد المعدل. بعد إعدام الملكة "**مارى أنطوانيت**- **Mary Antoinette**"، تحت إدانة "**الچيروند**" و"**دوق**

أورليانز" (الذى حاول أن يعزز قضيته الخاصة باستعراض يظهر فيه باعتباره يعقوبيا). فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من **1793**، حكم بالإعدام على **177** شخصا من **395** متهما، وبحلول ديسمبر كان العدو فى سجون "باريس" قد ارتفع إلى **4,525** من **1,500** فى أغسطس؛ إلا أن عدد الإعدامات فى هذه المرحلة كان أقل بكثير مما يعتقد، بناء على حكايات الروايات والأفلام التى تتحدث عن عشرات كان يتم إعدامهم يوميا على المقصلة.

السردية المملة على امتداد مائتى عام عن إعدام الأرستقراط والملكيين لا بد من تناولها من منظورها الصحيح. الإعدامات كانت حدثا متكررا فى ظل النظام القديم. كان يمكن شنق شخص فقير لسرقة قطعة قماش، وكما عبر عن ذلك "**مارك توين**– **Mark Twain**" ذات مرة: "كان هناك عهدا إرهاب، أحدهما استمر عدة أشهر، والثانى ألف سنة". كان يمكن أن يرسى الجيش الزاحف من الشمال على "باريس" إرهابه الخاص، وبدرجة أكثر عنفا من "**اليعاقبة**"، لو أنه كان قد تمكن من الاستيلاء على المدينة ولكان قد استخدم الملكيين والأرستقراط فى تحديد "زعماء الفتنة" لإعدامهم على الفور. "**المعتدلون**" و**الملكيون** الذين استولوا على "ليون" و"مرسيليا" و"طولون" أقاموا محاكم، أصدرت أحكاما بالإعدام على المقصلة أو الشنق". كانت النتائج "يرثى لها"[١٦]– ويقال إن عدد من قضوا بهذا الأسلوب فى "ليون" كان **800** شخصا[١٧]، وفى "فندى– **Vendée**"، نقل عن كاهن من مؤيدى الملكية قوله إن "كل يوم كانت هنـــاك حملات تصفية دموية" للمتعاطفين مع الجمهورية. حتى حضور قداس برئاسة أحد الكهنة الموالين للجمهورية كان مبررا "للسجن ثم القتــل بذريعة عدم وجود مكان فى السجون"[١٨]. فى "ماشيكــول– **Machecoul**" أعــدم **524** شخصا رميا بالرصـــاص[١٩]. يضاف إلى ذلك معــدل الوفيات الكبير على الحدود الشمالية لفرنسا، فى حرب كان قد بدأها الملكيون و"**الجيروند**"، انضم إليها بحماسة شديدة كل أعداء الثورة فى الداخل والخارج – حرب كان الضباط المتحمسون فيها للجانب الآخر يرسلون آلاف الجنود، عمــدا، لحتفهم.

ضحايا **الثورة المضادة** والحرب لا يظهرون فى قصص الرعب عن الثورة التى رواها روائيون رائجون، ولا حتى فى رواية "**تشارلز ديكنز – Charles Dickens**" الشهيرة "**قصة مدينتين– A Tale of Two Cities**". بالنسبة لمثل أولئك الكتاب فإن موت رجل أو امرأة من الصفوة يعتبر مأساة، أما موت صانع أو خياطة من الجمهوريين فأمر لا قيمة له.

كان ذلك، فى جوهره، منطق "**روبسبيير**"، كما طرحه أمام **المؤتمر العام** فى أواخر سبتمبر **1793**. كان يبرر الإجراءات العقابين ضد "**هوكارد– Houchard**"، أحد الجنرالات الجمهوريين لانسحابه محدثا كارثة عسكرية. قال: "فى عامين، قتل مائة ألف شخص بسبب الخيانة والضعف، ما يدمرنا هو الضعف أمام الخونة"[٢٠].

حمام الدم الأكثر سوءا أثناء الثورة لم يقع فى "باريس"، التى لم يحدث أن فقد فيها الثوار السيطرة، وإنما فى القتال لاستعادة المناطق التى كان قد استولى عليها خصومها. فى حالات قليلة، قامت الجيوش الجمهورية بعمليات انتقامية دموية: ففى "ليون" أصدرت إحدى اللجان الثورية **1667** حكما بالإعدام، وفى "فندى" تم إعدام المتمردين الأسرى الذين حملوا السلاح على وجه السرعة، وفى "نانتس– **Nantes**". تم إعدام **3000** مؤيد للتمرد بإغراقهم فى "نهر لوا– **River Loire**"، وفى "طولون" كانت هناك إعدامات بالجملة للمسئولين عن تسليم المدينة للبريطانيين[٢١].

هناك شكل آخر من **الإرهاب** جدير بالدرس، وهو إرهاب زعماء الثورة بعضهم البعض بين **1793** و**1794**. بدأ ذلك بالخصومة بين "**الچيروند**" و"**اليعاقبة**"؛ وفى الاتهامات التى كالها "**الچيروند**" لـــ"**مارا**"، كشفوا عن استعدادهم للجوء إلى القمع؛ وبالرغم من ذلك فإن أول من ألقى القبض عليهم من زعماء "**الچيروند**" بعد تشكيل **حكومة اليعاقبة** وضعوا تحت الإقامة الجبرية فحسب، وعندما تركوا "باريس" لإثارة القلاقل والتمرد فى الأقاليم، أثبتوا أن ذلك كان خلافا لا يمكن تسويته بالكلام فقط. أدرك "**روبسبيير**" و"**دانتون**" أن أيا من "**الچيروند**" سوف يتصرف بالأسلوب نفسه فى حال تركه حرا، فكان السبيل الوحيد لمنعهم من ذلك هو القمع الصارم، الذى كان يعنى الإعدام فى ظروف الحرب.

أما بالنسبة لـــ"**يعاقبة**" الطبقة المتوسطة، فإن المنطق الذى كان يطبق بالنسبة للـــ"**جيروند**"، كان مطبقا فى ظروف الحرب الأهلية على بعض الجمهوريين الآخرين. كان حلفاء "**روبسبـــيير**"، الـــ"**سان كيلوت**" فى "باريس" قد بدأوا يمثلون مشكلة. كانوا قد فعلوا الكثير لحشد دعم الجماهير للثورة فى الشوارع، إلا أنهم فى الوقت نفسه كانوا يناصبون الجماعة الاجتماعية التى جاء منها "**روبسبـــيير**" وغيره من زعماء "اليعاقبة" العداء- أولئك الناس أصحاب الممتلكات الذين كانوا مترددين فى القتال من أجل الجمهورية؛ فى نفس اللحظة التى كان يتبنى فيها دعوة الـــ"**سان كيلوت**" للإرهاب، بدأ "**روبسبـــيير**" إجراءات صارمة ضد منظمات "**سان كيلوت**"- فى منتصف سبتمبر ألقى القبض على "**جاك رو- Jacques Roux**"، وفى أكتوبر تم حل "**جمعية كلير لا كومب للنساء الجمهوريات الثوريات**"، وأخيرا تم إعدام "**هيبير**" وعددا كبيرا آخر على المقصلة فى شهر مارس.

لم يكن "المتطرفون" الذين تقدموا بمطالب يمكن أن تخيف أصحاب الأملاك من الطبقة المتوسطة، لم يكونوا هم مشكلة "**روبسبـــيير**" الوحيدة. كان يخشى كذلك القضاء على الثورة من قبل من كانوا يقدمون مصالحهم وأهواءهم الشخصية على احتياجات اللحظة. كان ذلك ينطبق، بخاصة، على البعض فى الدائرة المحيطة بـــ"**دانتون**"- رجل لديه الشجاعة الثورية والحماسة ولكنه مفتون بالمكافآت التى يتيحها له اندماجه مع شخصيات ثرية مريبة؛ ولم يكن مصادفة تورط أصدقائه فى قضية فساد كبيرة بخصوص "**شركة الهند الشرقية الفرنسية**". عندما بدأ "**دانتون**" يجذب حوله فصيلا "مدللا" فى يناير وفبراير **1794**، بدأ "**روبسبـــيير**" يخشى أن يكون قد انتهج أسلوب "**الجيروند**" قبل تسعة أشهر. بعد خمسة أيام من إعدام "**هيبير**"، كان قد جاء دور "**دانتون**" و"**ديمولا- Desmoulins**" وغيرهم ليتم القبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة وإعدامهم.

كان "**روبسبـــيير**" وحلفاؤه المقربـــون يشعـــرون أنهم محاصـــرون. كانت طبقتهم تكاد تكون منحازة لقوى **الثورة المضادة**، وحيث إنها كانت طبقة مجبولة على جنى الفوائد، كان أعضاؤها دائما عرضة لإغراءات الرشوة والفساد. الخوف

من الإجراءات الصارمة فحسب، هو ما كان يمكن أن يبقى الطبقة المتوسطة على طريق النصر. كان "**روبسبـــيير**" يعتقد أنه يدافع عن شكل جديد من المجتمع يمكن أن تتحقق فيه القيم الأساسية للطبقة المتوسطة، وكان يعبر عن ذلك الشعور بإعلانه أن هدفه كان "الفضيلة"، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يحقق ذلك دون انضباط الطبقة المتوسطة نفسها وأحيانا باستخدام وسائل شديدة القسوة؛ وفى فبراير **1794** كان يعبر عن ذلك بقوله "دون فضيلة لن يكون للإرهاب فائدة، ودون الإرهاب تكون الفضيلة بلا قوة".

الأكثر من ذلك، أن الإرهاب جعل الدولة بؤرة الشعور والفعل الثورى، ساعد فى إبعاد الجماهير الـــ"**سان كيلوت**" عن طريق محفوف بالمخاطر على الطبقة المتوسطة– طريق اتخاذ الثورة وجهة تجعلها فى أيدى الطبقة الدنيا. كان من الأفضل كثيرا بالنسبة لسياسيى الطبقة المتوسطة لو أن الـــ"**سان كيلوت**" بقوا يرقصون "الكارمانول– **Carmagnole**"، وهم يشهدون المقصلة تعمل، مما لو كانوا يجادلون ويتصرفون باسمهم. لم يكن الإرهاب لحماية الثورة فحسب، وإنما ليرمز كذلك للأسلوب الذى كانت تتمركز فيه الدولة بواسطة جماعة سياسية توازن بين الجماهير والعناصر المتصالحة من البرجوازية.

بحلول ربيع **1794**، كان "**اليعاقبة**" حول "روبسبـــيير" يحكمون منفردين، يفككون التنظيمات الشعبية فى "باريس" تدريجيا، يطهرون **الكوميون**، يلغون "**الأقسام**" (مجالس الدوائر)، يلغون اللجان المكلفة بمراقبة اكتناز المواد الغذائية والاتجار بقوت الناس. أصبحت سلطة الحكومة مركزة على نحو غير مسبوق فى أيدى مجموعة تبدو متحدة ولم تعد منقسمة بين يمين ويسار، إلا إن مثل تلك السلطة المركزية ما كانت لتستمر دون اللجوء إلى المزيد من القمع. وكما يكشف عن ذلك "**سوبول– Soboul**":

> **"حتى ذلك الحين، كان الإرهاب موجها ضد أعداء الثورة، ولكنه الآن امتد ليشمـــل معارضى اللجان الحكومية؛ وعليـــه أصبحـــت اللجان تستخدمه لإحكام قبضتها على الحياة السياسية"**[٢٢].

تمركز **الإرهاب** حقق له زخما. بدأت النخبة "**اليعقوبية**" تشعر بأن من ليس معهم، لا بد من أن يكون ضدهم، وكان لهذا الشعور ما يبرره إلى حد ما. كان العداء يتنامى ضدهم داخل طبقتهم المتوسطة نفسها مع تقييد حرياتها، كما كان هناك عداء شديد من قبل الكثيرين من الـ"**سان كيلوت**"، أتباع "رو- **Roux**" و"**هيبير- Hébert**". مواجهة هذه الصراعات والتعامل معها بـ"**الإرهاب**" كان من شأنه أن يزيد من عزلة النخبة "**اليعقوبية**"؛ إلا أن إيقاف **الإرهاب** كان يهدد بإطلاق يد أولئك الذين كانوا يريدون الانتقام من النخبة "**اليعقوبية**".

كان "**روبسبيير**" في حيرة من أمره. حاول أن يسيطر على **الإرهاب** ويحجمه في بعض الأقاليم – فقد استدعى، على سبيل المثال، إلى "باريس" الشخص الذي كان مسئولا عن عمليات الإغراق في "نانتس- **Nantes**"، ولكنه ترك **الإرهاب** يتصاعد في "باريس" في مايو **1794**، لدرجة أن شهدت الأشهر الثلاثة التالية عددا من عمليات الإعدام يقترب من عدد العام السابق. لأول مرة، كان المتهمون محرومين من حق الدفاع. لم يكن القضاة يستطيعون أن يوجهوا لهم اتهاما أكثر من "**ارتكاب جريمة أخلاقية**"، وكان من ليس لهم علاقة ببعضهم البعض يحاكمون "جماعيا" على أساس أنهم لا بد من أن يكونوا قد "تآمروا" في السجون. في تلك الظروف كان أن نجا "**توم پين- Tom Paine**" صاحب كتيبات "**الثورة الأمريكية**" الشهيرة، والراديكالية الشعبية البريطانية من الإعدام- كانت جريمته كونه "أجنبيا" وصديقا لبعض "**الچيروند**" (مثلما كان بالطبع معظم زعماء "**اليعاقبة**" في فترة ما، في السابق).

تيرميدور، وما كان بعده

نجحت أساليب "**اليعاقبة**"، كما لم تنجح أساليب "**الچيروند**"، في حماية النظام الثوري. بحلول صيف **1794**م كان الجيش الثوري يكشف عن أنه ربما كان أفضل قوة قتالية شهدتها أوروبا. كان قد تم القضاء على كل حركات التمرد في الأقاليم،

كان الجيش الفرنسى يحتل "بروكسل" ويزحف شمالا، وكانت الجمهورية تبدو بالفعل كيانا واحدا لا يتجزأ.

بالرغم من ذلك كله، خلقت تلك النجاحات ذاتها مشكلة بالغة الصعوبة لـــ"**اليعاقبـــة**". كانوا قد استطاعــوا تثبيت أقدامهم بالموازنة بين اليسار واليميـــن – وأثناء ذلك كانوا يتخذون إجراءات شديدة القسوة ضد فئات من طبقتهم – حيث إن قطاعات كبيرة من الطبقة المتوسطة لم تكن ترى بديلا آخر قبل شهور. كان ذلك وراء تصويت المؤتمر، شهرا تلو الآخر، لتجديد سلطات "**لجنة السلامة العامة**"، إلا أن الانتصارات كانت تؤدى إلى شعور متزايد بأن الحكم الدكتاتورى لم يعد ضروريا.

كان "**روبسبـــيير**" قد خلق أعداء كثيرين فى الأشهر السابقة – متعاطفين متسامحين مع "**دانتون**"، مبعوثين كان قد تم إعادتهم من الأقاليم بسبب استخدامهم المفرط للقمع، حلفاء سابقين لـــ"**هيبير**"، وأولئك الذين لم يفارقوا "**الچيروند**" ولكنهم كانوا يخشون ذلك. فى **27** يوليو **1794**، اتحدوا مكنوا لـــ"**روبسبـــيير**" أثناء نقاش كان يدور فى المؤتمر العام. تقدم أحد النواب باقتراح إصدار أمر بالقبض عليه وعلى دائرة حلفائه، وكان التصويت بالإجماع لصالح الاقتراح.

قام "**اليعاقبة**" بمحاولة أخيرة لإنقاذ أنفسهم بدعوة الجماهير للقيام بحركة ثورية، إلا أنهم كانوا هم الذين قاموا بحل اللجان ومنعوا صحف الـــ"**سان كيلوت**" التى كان يمكن أن تساعد فى تنظيم مثل تلك الانتفاضة. كانوا قد رفعوا الحظر عن المضاربة فى قوت الناس وكانوا قد أصدروا قبل أربعة أيام معدلات الحد الأقصى للأجور، ما كان يعنى تقلص مكاسب الكثير من الصناع. **16** قسما من أقسام "باريس" البالغ عددها **48** قسما، هى التى أرسلت قوات للمشاركة فى الانتفاضة التى دعى لها، وبقيت تلك القوات ساعات طويلة دون قيادة تنظمها، إلى أن تفرقت. تم إعدام "**روبسبـــيير**" و**21** من حلفائه فى **28** يوليو، وفى اليوم التالى أعدم **71** آخرين – فى أكبر عملية إعدام جماعى فى تاريخ الثورة.

كان "**روبسبـــيير**" قد "صرخ" فى المؤتمر: الجمهورية قضية خاسرة. اللصوص وقطاع الطرق هم المنتصرون الآن". كان محقا، بمعنى أن الحركة العظيمة التى كانت على مدى السنوات الخمس السابقة، كانت قد انتهت. منذ ذلك الحيـن أصبح "**تيرميـدور– Thermidor**"، اسم الشهـر الذى تمت فيه الإطاحـة بـ"**روبسبـيير**"، حسب تقويم الجمهورية الثورى، أصبح يرمز لـ"**الثورة المضادة**" الداخلية.

لم يبق الحلفاء الذين أطاحوا به طويلا فى السلطة، كما شهدت الشهور التالية لذلك تزايد ثقة من كانوا يكرهون الثورة بأنفسهم. بدأت جماعات من الشباب الأغنياء الصعاليك (البلطجية) – **الشباب الذهبى– Jeunesse dorée**– تسيطر على شوارع "باريس"، وتعتدى على كل من يحاول الدفاع عن أهداف الثورة، أو يبدى عدم احترام لمن هم "**أفضل**". أجبرت ثلة منهم "**نادى اليعاقبة**" على أن يغلق أبوابه، كما جاء تعديل دستورى بمؤهل ملكية جديدة من أجل حق التصويت؛ وأدى شكل جديد من الإرهاب، هو "**الإرهاب الأبيض**" إلى موجة إعدامات للعناصر الثورية السابقة، واستهداف كثيرين آخرين؛ كما أثبتت انتفاضتان للـ"**سان كيلوت**" فى أبريل ومايو **1795** أن الفقراء، لو اتيحت لهم الفرصة، يمكن أن يكونوا أكثر من ند لـ"**الشباب الذهبى**"، إلا أنه تم سحقهم بواسطة قوات موالية للـ: "**تيرميدوريين– Thermidorians**".

وفى أكتوبر **1795**، قام الملكيون بانتفاضة فى "باريس" أصابت الـ"**تيرميدوريين**" بالرعب فقاموا بإعادة تسليح "اليعاقبة" وطلبوا مساعدة الـ"**سان كيلوت**" قبل أن يهب الجيش لنجدتهم– وخاصة "**نابوليون بونابرت– Napoleon Bonaparte**"، الضابط الصاعد، الذى كان "**يعقوبيا**" فى مرحلة ما. خوفا من عملية **استعادة** دموية للنظام الملكى، اتفق "**تيرميدوريين**" على تركيز السلطة فى يد "**حكومة إدارة– Directory**" من خمسة أفراد. على مدى أربع سنوات كانت هذه الحكومة يتم جذبها فى البداية فى اتجاه ثم فى اتجاه آخر، وفى كل مرة كانت تترك المزيد من النفوذ لـ"**نابوليون**"،

الذى وفرت قاعدته فى الجيش حصنا منيعا ضد كل من الملكيين وأى انبعاث جديد لـــ"**يعقوبية**" شعبية، إلى أن قام فى **1799** بانقلاب منحه سلطة دكتاتورية فعلية. فى **1804** جعل "**البابا**" يتوجه إمبراطورا، ليحكم بدعم من بعض "**اليعاقبة**" السابقين وبعض **الأرستقراط** الذين كانوا قد عادوا من المنفى؛ وأخيرا مكنت هزيمة جيوشه فى **1814** و**1815** القوى الأوروبية الأخرى من أن تعيد حكم "**البوربون– Bourbon**" الملكى، وهذا بدا أن كان تحذير "**روبسپـــيير**" الأخير اليائس له ما يبرره.

إلا أنه كان مخطئا فى أمرين. كانت الثورة قد انتهت بعد "تيرميدور" **1794**، إلا أن الكثير من التغيرات التى أحدثتها كان قد بقى. كان نظام "**ناپوليون**" يعتمد على تثبيت وتقوية الكثير من تلك التغيرات: إنهاء الاستحقاقات الإقطاعية، خلق طبقة فلاحية جديدة مستقلة، إزالة المراكز الجمركية الداخلية، إقامة إدارة قومية موحدة النظام، وفوق ذلك كله تصميم سياسة الحكم على ضوء أهداف **البرجوازية** وليس الأهداف الأسرية أو **الأرستقراطية**. استطاع جيش "**ناپوليون**" أن يغزو معظم أوروبا لفترة، لأنه تحديدا لم يكن جيش **النظام القديم**. كان جيشا تم تنظيمه وتحفيزه بأساليب تأسست أثناء الثورة، وبخاصة فى مرحلتها "**اليعقوبية**". كان قادته ممن برزوا وترقوا بين صفوفه على أساس الجدارة فى الفترة الثورية– لدرجة أن "**ناپوليون**" كان يعتمد على "**إرهابى**" "**يعقوبى**" سابق فى قيادة حرسه.

مثل الثورات الهولندية والإنجليزية والأمريكية قبلها، كانت **الثورة الفرنسية** قد استأصلت العقبات الكبرى الموروثة عن الماضى لصالح مجتمع يقوم تماما على السوق، وبعد أحداث **1792-94** لم يكن بإمكان أى موقف مناوئ للأرستقراطية أن يفرضها مرة أخرى.

بعد عشرين سنة، كان الروائى "**ستندال– Stendhal**" بينما يتأمل ماضى الثورة يقول: "لم يحدث أن كان تاريخ العالم تقريبا، البالغ الآن **2000** عاما، مثل تلك الثورة الحادة فى تقاليدها وأفكارها ومعتقداتها"[٢٣]. ربما يكون الثوريون قد هزموا، ولكن الكثير من إرث الثورة قد بقى ليشكل العالم الحديث.

كان "**روبسبــيير**" مخطئا، كذلك، من جانب آخر، وذلك لأن الثورة لم تكن عبارة عن انتفاضة الجماعات السياسية للطبقة المتوسطة التى كانت كل منها أكثر راديكالية من سابقتها، فحسب. المؤكد أنها كذلك كانت قد تضمنت الدخول فى الحياة السياسية لملايين الناس فى المدن والقرى، ممن لم تكن قد أتيحت لهم فرصة من قبل لتشكيل التاريخ. كانوا قد عرفوا كيف يقاتلون من أجل مصالحهم وأن يجادلوا حولها. الفلاحون الذين أحرقوا قلاع **الأرستقراط** فى **1789** و**1792** لم يكونوا ليتركوا حكومة أخرى تأتى بعد ذلك لتنتزع أرضهم منهم؛ وفى "باريس" وغيرها من المدن كانت الطبقات الدنيا قد هبت دفاعا عن مصالحها، على نطاق غير مسبوق فى التاريخ، وكان يمكن أن تقوم بذلك مرة أخرى فى **1830** و**1848** و**1817**، وكذلك فى **1936** و**1968**.

الروايات والتقارير عن الثورة وإن كانت تبدو صحيحة من ناحية تأثيرها العام على تاريخ العالم، معرضة دائما للخطر فى فهم ما حدث على الأرض، فى الشوارع الضيقة والمناطق السكنية المزدحمة فى أكثر أحياء "باريس" فقرا. هنا، كان أن قرأ الناس وتجادلوا حول كتابات "**مارا**" و"**هيبير**"، وأمضوا الساعات والساعات فى اجتماعات دائمة فى "**الأقسام**"، وطاردوا مكتنزى القمح وتجار القوت، وفتشوا عن عملاء الملكية، وسنوا الرماح وزحفوا على "**الباستيل**"، ونظموا الانتفاضات التى جاءت بـــ"**الجيروند**" بدلا من الملكيين الدستوريين، وبـــ"**اليعاقبة**" بدلا من "**الجيروند**"، وتطوعوا بالآلاف للذهاب إلى الجبهة أو لنشر الثورة فى ربوع المناطق الريفية.

كان هناك جوانب قصور فى التحركات الشعبية فى المدن، إذ إنها كانت قد انطلقت من هياكل المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت. كانت الأغلبية العظمى من جماهير الحضر ما زالت تعمل فى مصانع وورش صغيرة، التى ربما كان أصحابها يعملون بها بجانب عدد صغير من المستخدمين الذين لا تختلف مستويات المعيشة بينهم كثيرا. كان يمكن أن يجتمعوا معا فى **المجالس** والأندية ويلتقوا فى الشوارع، ولكنهم لم يكونوا مرتبطين معا بشكل عضوى فى عملية الإنتاج التى كانت تشغل كثيرا من وقتهـــم. كان نموذجهم المثالى الحفاظ على وحدة الأسرة

الفردية حيث المسئولية للأب، وليس لإعادة التنظيم الجماعية للمجتمع. كان يمكن أن ينتفضوا ضد **الأرستقراط** الذين كانوا قد أذلوهم في الماضي، والمضاربين الذين جعلوهم يتضورون جوعا، مبدين شجاعة فائقة ومهارة كما بينت كتابات "**كروبوتكين- Kropotkin**" و"**جورين- Guerin**"[٢٤] التاريخية عن الثورة. عندما هبوا، كان أن بدأوا التخلى عن الكثير من انحيازاتهم الخاصة، كما تجلى ذلك فى **الدور الطليعى للنساء** فى كثير من التحركات الاحتجاجية، وفى دعوة بعض القيادات الثورية لتمكين النساء من التصويت، وفى ظهور بعضى الأندية النسائية الثورية؛ إلا أنهم في خضم أزمة الثورة الكبيرة فى **1793-94**، كان من الصعب أن يضعوا برنامجا خاصا بهم يمكن أن يؤدى إلى الانتصار.

كانت ظروفهم الحياتية تعنى، كما يقول "**ألبرت سوبول- Albert Soboul**" أنهم يستطيعون دفع اليعاقبة لاتخاذ الإجراءات الراديكالية الضرورية، إلا أنهم كانوا عاجزين عن بلورة موقف طبقى جماعى خاص بهم يمكن أن يحل مشكلات الثورة. كان يمكن أن يحاربوا من أجل حد أقصى للأسعار، إلا أنهم لم يكونوا فى وضع يمكنهم من تولى زمام العمليات الحاسمة المؤدية إلى قرارات مهمة. حتى حرصهم على **الإرهاب** كان علامة ضعف. كان عليهم أن يركزوا الاهتمام على إيقاف الآخرين عن تخريب الثورة، لأنهم كانوا عاجزين عن التحكم بشكل جماعى ومباشر فى مصيرها.

على أن فعلهم ومبادرتهم، بقدر ما كانت كلمات "**دانتون**" الملهمة أو عزيمة "**روبسبيير**" الصلبة، هى ما أدى إلى قلب النظام القديم فى فرنسا – لكى "تلهم أو ترعب" كل أوروبا وما وراءها على مدى معظم القرن التالى. منها أيضا، ظهرت فى أعقاب سحق الحركة الشعبية، جماعة من الثوار حول "**(جراكوس- Graccus) بابيف- Babeuf**"- الذى أعدم فى **1796** – الذى ساعد تأكيده على المساواة الاجتماعية والاقتصادية فى وضع أساس الحركات الاشتراكية فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

الهوامش

(1) R. R. Palmer: Social and Psychological Foundation of the Revolutionary Era",

وذلك في:

A. Goodwin (ed), "Cambridge New Modern History", vol VIII (Cambridge, 1965), p.422.

(2) Quoted in P.Mc Garr, "The Great French Revolution" in "Marxism and the Great French Revolution, International Socialism 43 (June 1989), p.40.

(3) Quoted in P.Mc Garr, "The Great French Revolution", p.48.

(٤) ينسب هذا القول لـ"Danton" كما جاء في مسرحية (ج. بوشنر – Georg Buechner) (موت دانتون) – 1835، ويبدو أن ذلك كان قد نشأ مع Girondin Vergninaud قبل عام من القطعة بين "دانتون" و"روبسبيير".

(5) L. Madelin, "Talleyrand", (London, 1948), p.12.

(6) A.Soboul, "The French Revolution", 1787-99, (London, 1989), p.37.

(7) R.S. Duplessis, "Transitions to Capitalism in Early Modern Europe", (Camfridge, 1997), p.242.

(8) R.S. Duplessis, "Transitions", p. 237.

(٩) أشهر "المراجعين" المحدثين:

F.Furet, "Interpreting tne French Revolution", (Cambridge, 1981).

(10) A.Soboul, "The French Revolution", p.99.

(11) Quoted in A.Soboul, "The French Revolution", p.255.

(12) Quoted in A.Soboul, "The French Revolution", p. 307.

(١٣) المصدر السابق p.309.

(١٤) المصدر السابق p.325.

(١٥) للمزيد عن القروض والضرائب انظر:

P. Kropotkin, "The Great French Revolution", (London, 1971), pp 410-411.

(16) G. Lefebvre, "The French Revolution", vol II, (New York, 1964), p.57.

(17) Kropolkin, "The Great…", p.404.

(18) Kropolkin, "The Great…", p. 387.

(19) Kropolkin, "The Great…", p. 387.

(20) A.Soboul, "The French Revolution", p. 339.

(٢١) للاطلاع على التفاصيل، انظر:

A.Soboul, "The French Revolution", p. 342.

(٢٢) المصدر السابق p.386.

(٢٣) كما ورد في:

H.G. Schenk, "Revolutionary Influences and conservatism in Literature and Thought", in C.W. Crawley(ed), Cambridge New Modern History, vol IX (Cambridge, 1965), p.91.

(٢٤) انظر كتابه:

"Class Struggle in the First French Republic", (London, 1977)

-٣-

اليعقوبية خارج فرنسا

"مساعدة كل الشعوب التى تريد أن تستعيد حريتها"، كان ذلك هو الوعد الذى قدمه المؤتمر الذى عقد فى **1792** بقيادة "**الچيروند**". لن تكون الحرب التى أعلنها "**بريسو – Brissot**" على عـــروش أوروبا حرب غزو على بالأسلوب القديـــم، كما قال، وإنما حرب تحرير، والمؤكد أنه كان هناك كثيرون خارج فرنسا ممن يسعدهم التقدم على طريق الثورة:

> **كان فجر عقل مجيد، غمر الفرح به كل المفكرين، وحركت عقول النـــاس مشاعـــر ساميـــة، ودبت فـــى أوصال العالـــم حماســـة روحية...**[1].

هكذا وصف "**هيجل– Hegel**"، الفيلسوف الألمانى الكهل، تأثير الأحداث فى فرنسا على عالم شبابه. لم تكن ذاكرته تخدعه، إذ كانت رسالة الثورة قد وجدت صدى لها فى كل مكان أثر فيه "**التنوير**" فى الناس.

عبر الشعراء الإنجليز "**ووردزورث– Wordsworth**" و"**سوزى– Southey**" و"**كوليردچ– Coleridge**" عن غبطتهم وحماستهم لاجتياح "الباستيل". كتب "**كوليردچ**" يقول: "من قلب البشرية المشترك، يشرق الأمل إلها مكتمل النمو". الشاعر الفنان "**وليم بليك– William Blake**" كاد أن يلقى القبض عليه لدفاعه عن مبادئ الثورة فى حوار مع أحد الجنود. منزل الكيميائى الرائد "**چوزيف بريستلى– Joseph Priestly**"، تعرض لهجوم من قبل جماعة من الغوغاء المدافعين عن

الملكية. الفليسوفان الألمانيان "**كانط**– **Kant**" و"**فيختة**– **Fichte**" كانا بنفس حماسة "**هيجل**" فى شبابه، حتى إن "كانط" كان يقول بعد "**تيرميدور**": "إن جرائم وآثام "**اليعاقبة**" لا تعد شيئا، مقارنة بطغيان الزمن السابق"(٢). "**بيتهوفن**– **Beethoven**" ضمن موسيقاه أنغام أناشيد الثورة وجسد روح الجيش الثورى فى سيمفونيته الثالثة الرائعة "**Eroica**"، (رغم أنه حذف الإهداء إلى **نابوليون**"، اشمئزازا، بعد أن أعلن نفسه إمبراطورا). من إيرلندا ذهب "**وولف تون**– **Wolfe Tone**"، أحد أبناء الطبقة المتوسطة فى "بلفاست"، و"**لورد إدوارد فيتزجيرالد**– **Lord Edward Fitzgerald**"، ابن إحدى الأسر الأرستقراطية العريقة، ذهبا إلى "باريس" للاتصال بالحكومة الثورية؛ فى أمريكا اللاتينية، كان "**سيمون بوليفار**– **Simon Bolivar**" الشاب البالغ من العمر **16** عاما، والذى كان كذلك أحد أبناء أسرة أرستقراطية فى "كاراكاس"، كان يدافع عن الثورة فى حوار مع نائب الملك الإسپانى فى "پنما" فى **1799**؛ بينما كان كاهن مكسيكى، هو "**ميجويل هيدالجو**– **Miguel Hidalgo**"، يستميل إلى أهداف ومثل الثورة طلابا مثل "**خوسيه ماريا موريلوس**– **Jose Maria Morelos**".

الثورة ... على سن حربة

كانت هذه الحماسة تعنى أن الجيوش الفرنسية الزاحفة وجدت لها حلفاء محليين، فى البداية عندما عبرت الحدود إلى بلجيكا وهولندا وشمال إيطاليا وجنوب ألمانيا. كان خصوم الحكومات الملكية أو الأوليجاركية من الطبقة المتوسطة يصفون أنفسهم بأنهم "يعاقبة"– وحتى بعد أن فقد "**اليعاقبة**" السلطة، بقى ذلك هو المسمى العام الذى يطلق على مؤيدى القوى الثورية؛ وكلما كان الجيش الفرنسى يتقدم، كانت تلك القوى تعمل معه لتقوم بإصلاحات "من أعلى" أشبه بتلك التى كان يتم فرضها "من أسفل" فى فرنسا. إلغاء القنانة والاستحقاقات الإقطاعية، الفصل بين الكنيسة والدولة، مصادرة أراضى الكنيسة، إلغاء المراكز الجمركية الداخلية، إنشاء المجالس الديمقراطية بدرجة أو أخرى؛ ولكن سرعان ما بدأت تظهر مشكلات.

كانت إحدى محاججات "**روبسبيير**" ضد "بريسو" أن شعوب الدول الأخرى لن ترحب بغزاة أجانب، أيا كان طيب النوايا، وسرعان ما اتضح أنه كان محقا على الرغم من الحماسة الأولية لكثير من المثقفين وبعض قطاعات الطبقة المتوسطة. لم يكن الجيش الفرنسى يستطيع إعالة نفسه سوى عن طريق النهب وفرض الجزية على البلاد التى غزاها. الحرب التى بدأت باعتبارها حرب **تحرير**، مرت بفترة مريرة كحرب **دفاع ثورى**، وانتهت كحرب **غزو إمبراطورى**. وصل "**نابوليون**" بالعملية إلى نهايتها المنطقية بضم "بلچيكا" و"سافوى" والدويلات الألمانية شمالى "الراين"، ووضع أنظمة ملكية محل المجالس الديمقراطية، وتنصيب أشقائه ملوكا فى "إيطاليا" و"وستفاليا" و"هولندة" و"إسپانيا".

حتى تحت "**نابوليون**"، كان الجيش الفرنسى يعزل ويرهب بقايا الإقطاع، وفى بعض الأحيان، على الأقل، كان يمهد لتقدم الإنتاج الرأسمالى؛ ولكن دون الـ"سان كيلوت" ودون الانتفاضات الفلاحية التى كانت شديدة الأهمية فى فرنسا، كان حلفاؤه المحليون يفتقرون لقاعدة بين الجماهير. لم يفد الفلاحون أو الطبقات المتوسطة فى الحضر شيئا من الاحتلال الفرنسى لكى يجعلهم يندمجون مع النظام الجديد. كانت الجزية التى تدفع لفرنسا وتكلفه إعالة الجيش الفرنسى عبئا ثقيلا، مثلما كانت المدفوعات الإقطاعية القديمة. كان "اليعاقبة المحليون" قد أصبحوا منعزلين ودون غطاء عندما أجبر الجيش الفرنسى على الانسحاب.

حدث ذلك فى كل مكان فى **1812-14**. أفرط "**نابوليون**" فى توسيع إمبراطوريته على جبهتين، بمحاولة وضع شقيقه على العرش الإسپانى، وبالزحف عبر السهل الأوروبى الشمالى على "موسكو". كانت استراتيچية كارثية. تمكنت قواته من إخماد انتفاضة شعبية فى "مدريد"، ولكن من الآن فصاعدا سوف تواجه إغارات متكررة من قبل عصابات مقاتلة حيث كانت القوات البريطانية بقيادة "ولنجتون- **Wellington**" تتقدم عبر شبه جزيرة "أيبيريا". فى الوقت نفسه، كان احتلال "موسكو" المهجورة قد تحول إلى كارثة عندما دمرت قوات العدو والشتاء القاسى

نحو **1000** ميل من خطوط الإمداد. لم يكن هناك قبول شعبى للقوات الفرنسية فى المناطق المحتلة لدرجة أن الليبراليين الإسبان والبروسيين كانوا يتحالفون مع القوى الملكية لطردهم فى ما كان يبدو "**حرب تحرير**"- لكى يجدوا أنفسهم ضحية لخيانة الملوك المنتصرين، فريسة للاضطهاد وحالة من اليأس والإحباط عبرت عنها لوحات "جويا- **Goya**"، "المرحلة المظلمة".

هزيمة "**نابوليون**" (أو بالأحرى هزيمتاه، بعد مائة يوم حاسمة فى **1815** قبل هزيمة "ووترلو- **Waterloo**") مكنت كل الملوك والأمراء والأرستقراط من العودة إلى وضع أفضل، صانعين لأنفسهم عالما شاذا غير مألوف؛ فرضت فيه البنى الفوقية القديمة للنظام القديم فى القرن الثامن عشر، على البنى الاجتماعية التى كان قد تم تغييرها - على الأقل فى فرنسا، وشمال إيطاليا وغرب ألمانيا. ذلك هو العالم الذى تصوره على نحو بارع روايات "الأحمر والأسود- **Le Rouge et le Noire**" "دير بارما- **La Chartreuse de Parme**" لـ"**ستندال**"، (ضابط التموين السابق فى جيش "**نابوليون**")، و"الكونت دى مونتى كريستو- **Le Comte de Monte Cristo**" (الذى كان أبوه، ابن أحد العبيد السود، جنرالا تحت قيادة "**نابوليون**".

بريطانيا: ميلاد تقليد

لم يكن للثورة تأثير عميق على الحياة السياسية فى القارة الأوروبية وحدها، فقد كان لها تأثير كبير كذلك فى بريطانيا. كانت القطاعات الأكثر أهمية فى الطبقة "البرجوازية" قد حققت نفوذا كبيرا على الشئون السياسية قبل **1789**، ولم تكن ترى سببا يجعلها تفكر بالثورة؛ بيد أن الأحداث الفرنسية هزت قطاعات عريضة من الجماهير فى المدن والبلدات المتسارعة النمو، والأعداد المتزايدة من الحرفيين والعمالة المؤقتة والباعة، ومعهم بعض عمال المصانع الجدد. كتاب "توم بين- **Tom Paine**" بجزأيه: الدفاع عن الثورة والدعوة إلى مبادئ دستورية مماثلة فى بريطانيا، والصادر بعنوان "حقوق الإنسان- **The Rights of Man**"، باع مائة ألف

نسخة؛ وفى "شيفلد" فى آخر **1791** "كون" خمسة أو ستة من عمال الميكانيــك... كانوا يتناقشون حول الأسعار المرتفعة للمواد التموينية" وفساد الإدارة الحكومية، كونوا "**جمعية شيفلد الدستورية**" التى كرست نشاطها للدعوة لحق الاقتراع العام ومجالس نواب؛ وبحلول مايو **1792**، كان عددها قد وصل إلى **2000** شخص، ونظمت احتفالا جاب الشوارع كان يضم نحو **6000** مشارك بعد الانتصار فى "**فالمى**" فى الخريف[٣]، كما تكونت جكعيات أخرى مشابهة فى "مانشستر" و"ستوك بورت" و"برمنجهام" و"كوفنترى" و"نورويش"، صادفت درجات مختلفة من النجاح[٤]. "**جمعية لندن للتواصل**" التى أنشأها "**توماس هاردى**– **Thomas Hardy**"، أحد صناع الأحذية، فى مطلع **1792** اتسعت إلى أن أصبح عددها **5000** عضو، منظمين فى "**48**" فرعا لها[٥]، مع شبكة قومية تضم الجمعيات الإقليمية.

كانت الحركة من الضخامة بحيث أقلقت الحكومة البريطانية وهــى تعد للحرب ضــد "**الثــورة الفرنسية**" فى أواخــر **1792**. كان المتنفــذون الكبار فى "برمنجهــام" قد حرضــوا جماعة من الدهماء للهجوم على حفل عشــاء لبعض المصلحين المحليين كانوا يحتفلون بذكرى سقوط الباستيل فى **1791**، ونهب المنازل وإحراق أماكن التجمعات، وطرد بعض الناس، مثل الكيميائى "جوزيف بريستلى– **Joseph Priestly**" من المدينة[٦]. الآن، كانت الحكومة تشجع على الإثارة وتهيج الرأى العام ضد اليعاقبة، وفى مختلف المواقع المحلية كانت تنشأ الجمعيات الموالية لإثارة حماسة قومية للحرب.

كان هناك كذلك تضييق صارم على أى محاولة لنشر الأفكار الديمقراطية. "توم بين"، بعد اتهامه بالخيانة بسبب كتابه "حقوق الإنسان"، اضطر إلى الهرب من البلاد. اثنان من زعماء "جمعية" أصدقاء الشعب الاسكتلنديون"، المحامى الشاب "**توماس موير**– **Thomas Muir**" والداعية التوحيدى "**توماس پالمر**" حكم عليهما بالنفى بعد محاكمة متحاملــة[٧]، وكذلك على ثلاثة مندوبين لجمعية دستــورية اسكتلندية. "**توماس هاردى**" ومجموعة أخرى من زعماء لندن تمت محاكمتهم متهمين بالخيانة، وزوجة "هاردى" ماتت فى هجوم للدهماء على منازلهم؛ وعندما

برأ قاض متعاطف المتهمين، أوقف البرلمان أمر الإحضار، ليتم سجن النشطاء دون المثول أمام القضاء.

فى بعض الأحيان، كان تحريض "**اليعاقبة**" الإنجليز والاسكتلنديين يواجه برد واسع بين الطبقات الحضرية. كانوا يستطيعون حشد الآلاف إلى اجتماعات عامة، كما كان بعض زعماء حركات التمرد التــى هزت البحرية البريطانية فى **1797**، متأثرين بأفكارهم إلى حد كبير؛ إلا إن الكتلة الأكبر من الطبقة المتوسطة كانت مستعدة للاتحاد مع طبقة ملاك الأراضى دفاعا عن الوضع القائم المفيد، ما أطلق يد الحكومة لسحق الحركة؛ وفى أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر، كان قد أصبح من الصعب أن يعبر أحد عن تعاطفه مع الأهداف والمثل الثورية.

غير أن تحريض "**جمعية شيفلد الدستورية**" و"**جمعية لندن للتواصل**"، و"**جمعية أصدقاء الشعب الاسكتلنديون**"، كان له بالفعل أثر واحد مهم، فكما أوضح "**إدوارد طومسون– Edqward Thompson**"، فى كتابه "**صنع الطبقة العاملة الإنجليزية– The Making of the English Working Class**" ساعد فى خلق تقليد سيكون له أثره الكبير فى الفترة من **1848:1815**.

انتفاضة إيرلندا الجمهورية

كان لنموذج فرنسا تأثير مباشر، ربما أكبر، فى أيرلندا، أقدم مستعمرات بريطانيا، لينتج عنه تقليد قومى ثورى، باق إلى اليوم.

كانت الحكومات الإنجليزية فى أحكمت قبضتها على الجزيرة بعد تحطيم المقاومة فى خمسينيــات القرن السابع عشر، بتوطين فلاحين "**بروتستــانت**" (من اسكتلندا فى الغالــب) على أرض مستولى عليها من "**كاثوليك**" محليين فى مقاطعة "ألستــر– **Ulster**". عــاش نسل أولئك المستوطنين يخشون أن يــقوم "**الكاثوليك**" بطردهم من تلك الأراضى، وعليه نما لديهم شعور بالمصلحة المشتركة مع ملاك الأراضى الأنجلو– أيرلنديين، الذين كانوا "**بروتستانت**" فى الوقت نفسه. كانوا

يخشون تحدى السياسات التى تفرضها عليهم الحكومات البريطانية فى حال ما إذا شجعــت "**الكاثوليك**" المضاربين. ظل البرلمـــان "**البروتستانتى**" فى "دبلـــن" حتى سبعينيات القرن الثامن عشر أداة طيعة، "يبصم" على سياسات "لندن" دون مناقشة.

بدأت المواقف تتغير فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. أعطت "**حرب الاستقلال الأمريكية**" برلمان "دبلن" قوة تفاوضية راحت تتزايد، حيث كانـــت الحكومات البريطانيـــة ميليشيات من المتطوعين الأيرلنديين للتصدى لأى هجوم فرنسى؛ ولفترة ما، بدا أن البرلمـــان الأيرلندى يمكن أن يعمل لمصلحة ملاك الأراضى ورجال الأعمال الأيرلنديين، إلا إن تلك الآمال تبددت بمجرد انتهاء الحرب وأصبح هناك شعور أكثر مرارة تجاه بريطانيا، وبخاصة بين الطبقة المتوسطة "**البروتستانتية**" فى "بلفاست".

هذه المشاعر التأمت فى استجابة حماسية لـــ"**الثورة الفرنسية**"، وبدأ المتطوعون يضغطون ويطالبون بجمعية دستورية ويدعمون التحرر "**الكاثوليكى**"؛ وفى **1792** "كانت مدينة 'بلفاست'، التى كانت فى الصدارة فى النضال من أجل الديمقراطيـــة، كانت تحيى ذكـــرى '**الثورة الفرنسية**' باحتفاليــة كبيرة وموكب مهيب... كانت الروح والمشاعر الجمهورية عامة". كانت الملصقات واللافتات الإعلانية تحمل عبارات تهاجم الطائفية الدينية: "الأحقاد الخرافية سبب '**الباستيل الأيرلندى**': فلنتحد ونحطمه[٨]؛ وقام المحامى '**البروتستانتى**' الشاب "**وولف تون- Wolfe Tone**"، أحد منظمى هذه الفعالية بتكوين منظمة راديكالية جديدة "**الأيرلنديون المتحدون- The United Irishmen**"، وأعلن عنها فى حفل عشاء فى "بلفاست"، مع مجموعة صغيرة، كان معظمهم من المهنيين (تاجر أقمشة، عامل نسيج، دباغ جلود، كاتب مصرفى، صيدلى، ساعاتى، وثلاثة تجار)[٩].

كانت هناك فى أيرلندا، كما فى إنجلترا، محاولة للقضاء على "**اليعقوبية**" الجديدة باستخدام القمع. حظرت القوانين حمل السلاح، كما جرمت منظمة "**الأيرلنديون المتحدون**"، ونظرا لاضطرارها للعمل تحت الأرض أصبحت أكثر راديكالية، كما

أصبح هدفها إسقاط الحكم البريطانى، الذى أدى إلى تخلف إيرلندا اقتصاديا وتوجيهها وجهة دينية، فكان لا بد من انتفاضة ثورية، كما حدث فى فرنسا، من أجل إقامة دولة حديثة. كانت "**الأيرلنديون المتحدون**" ترى، من المفروغ منه، أن تكون دولة رأسمالية بعد أن تكون قد تخلصت من عبء الحكم الأجنبى والأرستقراطية المحلية. كان "**تون– Tone**" يرى أن تحقيق ذلك يعتمد على قيام الطبقة المتوسطة، وبخاصة "الأيرلنديون المتحدون" **البروتستانت** باستنهاض الفلاحين "**الكاثوليك**"، الذين كان لهم تراث طويل من التحريض ضد كبار ملاك الأراضى عن طريق جماعات سرية مسلحة.

كان عدد المستعدين لدعم الانتفاضة يفوق عدد الموالين للحكومة البريطانية– **100000** مقارنة بـــ **65000**[١٠]، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا وتسليحا، وكـــان من الواضح أن الانتصار لن يتحقق دون دعم عسكرى من فرنسا.

حدثت الانتفاضة فى **1798**، ولكن الدعم الفرنسي كان قليلا.. وجاء متأخرا، وتمثل فى إبراز قوة من **1,100** جندى فى "مايو– **Mayo**" في شهر أغسطس. فى ذلك الحين، كانت السلطات قد تمكنت من القبض على زعماء الحركة وأخبرت المتمردين المسلحين على معركة لم يكن هناك استعداد كاف لها. تم سحق الانتفاضات فى "وكسفورد– **Wexford**" و"أنتريم– **Antrim**". القمع الذى جاء بعد ذلك كان فائقا، وبدرجة تجعل "**إرهاب الثورة الفرنسية**" يبدو "مزاح أطفال" إذا ما قورن به. أطاحت الأعمال الانتقامية ممن كان يشتبه بتورطهم فى دعم الانتفاضة بما يقرب من **30,000** حياة[١١].

لم يكن ذلك نهاية القصة. مع تصاعد التوترات فى السنوات الثلاث السابقة على الانتفاضة، كانت السلطات قد شجعت، وعمدا، جماعات من "**البروتستانت**" على تنظيم حملات لبث الكراهية والبغضاء ضد "**الكاثوليك**"؛ وعلى إثر صدامات محلية بين فلاحين "**كاثوليك**" و"**بروتستانت**" فى قرية "دياموند– **Diamond**" فى مقاطعة "أنتريم– **Antrim**"، فى خريف **1795**، تأسست منظمة "**بروتستانتية**" شبه

سرية باسم "**تنظيم أورانج– Orange Order**". كان كبار ملاك الأراضى الأنجلو–أيرلنديون يحتقرون الفلاحين، كل الفلاحين، وبقوا بعيدين عن هذا الكيان الجديد فى أول الأمر، إلا إنهم سرعان ما اكتشفوا أهميته فى التصدى لخطر التمرد:

> **"تدريجيا، فى 1796 و1797... تحول 'تنظيم أورانج' من منظمة ثانوية صغيرة مفككة، مرفوضة اجتماعيا، محتقرة من الطبقة الحاكمة، إلى جمعية قوية منتشرة، تحظى بقبول ودعم بعض أفراد النخبة العليا فى بريطانيا وأيرلندا[١٢].**

كان الجنرال "**ليك– Lake**"، قائد القوات المسلحة يرأس مواكب التنظيم، بينما كانت مجموعات مسلحة منه تعمل جنبا إلى جنب القوات والميليشيات الحكومية لمعاقبة مؤيدى وأنصار "الأيرلنديين المتحدين". كانوا يضعون المتمردين "**البروتستانت**" أمام خيارين: الجلد والتعذيب، أو الانضمام لتنظيم أورانج" لجلد وتعذيب متمردين آخرين[١٣]؛ وبمثل تلك الأساليب لم تكن السلطات البريطانية وملاك الأراضى الأنجلو أيرلنديون يسحقون الانتفاضة فحسب، بل كانوا كذلك يؤججون مشاعر الطائفية الدينية. التقليدان السياسيان اللذان سادا الحياة السياسية الأيرلندية على مدى القرنين الأخيرين، وهما التمسك بالنظام الجمهورى– **Republicanism** و"الأورانجية– **Orangeism**"، هذان التقليدان كانا قد ولدا من رحم صراع أوروبى أوسع بين الثورة والثورة المضادة.

حتى ذلك الحين، لم يكن الأمر يمثل أمرا مقلقا لزمرة رجال الدولة "المتحضرين" فى الحكومة البريطانية، وبعد أن كانوا قد نجحوا فى تطبيق سياسة "فرق تسد" ضد "الأيرلنديين المتحدين"، كانوا بعد عامين يستطيعون إقناع البرلمان الأيرلندى بالتصويت على ما يريدون. كان دمار كبير قد لحق بالزراعة والصناعة الأيرلندية فى السابق على إثر استبعادها من الأسواق الخاضعة لسيطرة بريطانيا، والآن كانت قد أصبحت محرومة من أى وسيلة سياسية لحمايتها، بينما كان ملاك الأراضى الأنجلو أيرلنديون ينتزعون إيجارات باهظة يبددونها على حياة لاهية فى

إنجلترا. كانت الحكومة البريطانية تعتقد أنها قد حسمت "**المسألة الأيرلندية**"- وهو اعتقاد كان ليعاود الظهور كل **30** أو **40** سنة إلى الآن.

يعاقبة "هايتى" السود

لم تنجح **الثورة المضادة** فى كل مكان، ففى جزيرة تبعد **3000** ميل عبر الأطلنطى، فى تاهيتى، كانت النتيجة مختلفة تماما عنها فى أيرلندا، ولكن الأمر كان يتطلب عقدا من الانتفاضات المريرة والحروب الأهلية لكى تتحقق.

كانت "سان دومينجو- **Saint Domingue**"، الجــزء الغربى من جزيرة "هسپانيولا" هى الجائـــزة الكبرى فى الإمبراطورية الاستعمارية للنظام الملكى الفرنسى. كانت مزارعها تنتج كميات من السكر أكثر من كل مستعمرات أوروبا الكاريبية والأمريكية الأخرى مجتمعة، كما كانت تضخ الثروة فى دجيوب كل من أصحاب المزارع والرأسماليين التجاريين فى الموانئ الفرنسية مثل "نانتس- **Nantes**" و"بوردو- **Bordeaux**".

كان مصدر تلك الثروة شقاء نحو **500,000** من العبيد "**السود**"، الذين دمر كدحهم حياتهم، ولم يكن يحافظ على عددهم سوى الوارد المتواصل من إفريقيا. فوقهم كان هناك نحو **30,000** من "**البيض**"- نسبة أصغر كثيرا من السكان منها فى أى من ولايات أمريكا الشمالية – وإلى جانب أولئك كان هناك عدد مماثل من "**المولّدين- mulattos**"، وكان بعضهم قد أصبحوا أثرياء، وربما حتى ملاك عبيد.

أعداد "**البيض**" الصغيرة نسبيا، لم تمنع أن يكون لديهم ادعاءات كبيرة. كانوا يشعرون أن ثروة المستعمرة نتيجة جهدهم، فكانوا مستاءين ومتذمرين إزاء القوانين المفروضة على تجارتها من قبل النظام التجارى الفرنسى الحصرى، وعليه دفعهم ذلك إلى تقديم مطالبهم الخاصة بـــ"**الحرية**" كجزء من تحريض الطبقة المتوسطة الغنية فى "**موطنهم الأصلى**"، وذلك فى ربيع وصيف **1789**. كانت أخبار

اقتحام "**الباستيل**" قد تبعها تمرد مسلح على الحاكم الملكى – رغم أن متمردى المستعمرات لم يكن لديهم النية لتطبيق شعارات الثورة عن "**الحرية**" و"**المساواة**" على العبيد السود أو حتى على "**المولدين**" الأحرار.

كان "**البيض**" منقسمين بحدة رغم أنهم لم يكونوا يمثلون أكثر من 7% من السكان. **البيض** "**الصغار**"، الذين كان يمتلك الواحد منهم ثلاثة عبيد أو أربعة، كانوا يشعرون بنفس الأسى والمرارة لما يعانونه من امتهان وإذلال من قبل **البيض** "**الكبار**" من ملاك المزارع الكبيرة. تماما مثلما كانت تعانى الطبقة المتوسطة الفرنسية على يد الطبقة الأرستقراطية. ولما كان أصحاب المزارع حريصين على أن تكون أيديهم مطلقة فى اختيار من يتاجرون معهم، لن يتركوا "**البيض الصغار**" يمارسون سيطرة سياسية، الجماعتان (الكبار والصغار) استشاطا غضبا عندما شرعت "**الجمعية الوطنية الفرنسية**"– فى غمرة حماستها الثورية، حقوقات متساوية لكل الرجال الأحرار، بمن فى ذلك "**المولدون**" و"**السود**" الأحرار، رغم أنها تحاشت أى ذكر للعبودية؛ وسرعان ما كان هناك شبه حرب أهلية بين تحالفات متقلبة فى الجماعات الأربع التى تكون إجمالى عدد السكان الأحرار، وهى: **مؤيدو الحاكم، البيض الكبار، البيض الصغار، المولدون.**

كلهم، كانوا يتوقعون أن يواصل العبيد السود العمل، والمعاناة، وتلقى العقاب، والموت، وكأن شيئا لم يتغير. كلهم كانوا مخطئين... وإلى حد بعيد. استغل العبيد الفرصة للتمرد – إشعال النيران فى المزارع، قتل ملاّك العبيد، تكوين جماعات مسلحة لقتال ميليشيات البيض، نشر التمرد وتوسيع مداه، وإفراز قادة من بين صفوفهم مثل "**توسان لوفيرتير**– **Toussaint L'Ouverture**"، (توسان الفاتح)، الذى كان يناور بمهارة بين جماعات "البيض" المتنافسة والمولدين وجيش إسبانى غاز من نصف الجزيرة الآخر، وممثلين متوالين من "**الچيروند**" فى فرنسا؛ وفى الوقت الذى كان فيه الـ"**سان كيلوت**" يدفعون بـ"**اليعاقبة**" إلى السلطة فى فرنسا، رست قوة عسكرية بريطانية فى "سان دومينجو".

ما حدث بعد ذلك، كان له متضمنات أوسع كثيرا من مجرد مستقبل "سان دومينجو". كانت قطاعات مهمة من الطبقة الحاكمة البريطانية، المتأثرة بأفكار "**آدم سميث**"، قد أدركت أن زمن العبودية كان قد ولى. كانوا بالفعل قد فقدوا مزارع السكر فى أمريكا الشمالية، أما مزارعهم فى جزر الهند الغربية فكانت أقل أهمية من مزارع فرنسا. كانت حكومة "**وليم بت– William Pitt**" قد شجعت حملة "**وليم ويلبرفورس– William Wilberforce**" المناهضة للعبودية، ولكن احتمال الاستيلاء على "سان دومينجو"، أهم الاقتصادات التى تقوم على العبيد، جعلها تغير رأيها وبدأت تتقبل فكرة العبودية بحماسة، أما نجاح هذه المحاولة فسيكون من شأنه إعطاء قوة دفع جديدة للعبودية فى أرجاء العالم.

صعود الموجة الثورية فى فرنسا، الذى حمل "**اليعاقبة**" إلى السلطة، كان له كذلك متضمنات مهمة بالنسبة لتمرد العبيد. كان كثيرون من زعماء "**الچيروند**" خصوما ألداء للعبودية وأعضاء "**جمعية أصدقاء السود: Society of the Friends of the Blacks**" التى تأسست فى **1788**. كان معظمهم من الصحفيين أو المحامين المتأثرين بأفكار "**التنوير**"؛ ولكن أهم قواعدهم السياسية كانت مع البرجوازية التجارية فى الموانئ الفرنسية الغربية، وكان أولئك ضد كل ما يهدد مصالحهم. بعد أن روج "**الچيروند**" أفكار مناهضة العبودية، لم يكونوا مستعدين لممارستها. على النقيض من ذلك، فإن القوى الشعبية التى دفعت بـ"**اليعاقبة**" لم يكن لها مصلحة مادية فى العبودية، وربطت بين معاناة العبيد ومعاناتها. فى الوقت نفسه، كان زعماء "**اليعاقبة**" الذين ينتمون للطبقة المتوسطة، الذين كانوا مرعوبين من هزيمة عسكرية على يد تحالف يضم بريطانيا، كانوا يدركون فائدة تشجيع تمرد العبيد على الجزر البريطانية فى الكاريبى.

فى **4 فبراير 1794**، أصدر المؤتمر العام الذى كان يسيطر عليه "**اليعاقبة**"، قانونا بإلغاء العبودية فى كل الأراضى الفرنسية، عندما قبل رئيسه مبعوثين سود ومولدين، كانوا قد جاءوا من "سان دومينجو"، قبلة أخوية؛ وهكذا كان قد تشكل

تحالف بين ثورتين، كان من شأنه أن يبدد آمال "**بت– Pitt**" فى تعظيم حصة الرأسمالية البريطانية فى العبودية. تكبدت الحملة البريطانية المكونة من **60,000** جندي خسائر فادحة، وأكثر من خسائر جيش "**ولنجتون– Wellington**" فى شبه الجزيرة بعد عقد. مرة أخرى، تحول ميزان الحسابات المادية فى البرلمان البريطانى، وأعطى خصوم تجارة العبيد فرصة لجلسة استماع جديدة، وصوت على حظر التجارة فى **1807**.

من الأسف، أن ذلك لم يكن نهاية الأمر بالنسبة للعبيد السابقين فى "سان دومينجو". التحول إلى "**اليمين**" فى فرنسا بعد "**تيرميدور**"، منح نفوذا جديدا لقدامى تجار العبيد وحلفائهم فى التجارة؛ وعندما كان "**نابوليون**" يستعد لتتويج نفسه إمبراطورا، كان يخطط كذلك لإعادة فرض العبودية فى الإمبراطورية الاستعمارية. أرسل أسطولا يحمل قوة من **12,000** جندي للاستيلاء على "سان دومينجو" من قــوات "**توسان لوفيرتيــر**". كانت الحرب التى نشبت، بمثل ضــــراوة تلك ضد البريطانيين. فى مرحلة، بدا الجيش الفرنسى على وشك الانتصار بعد اختطاف "**توسان**"، الذى أخطأ بمحاولته مصالحة العدو، وموته فى أحد السجون الفرنسية. آل أمر المقاومة بعده لـــ"**ديزالين– Dessalines**"، أحد نوابه السابقين، ليهزم جيش "**نابوليون**"، مثلما كان "**توسان**" قد هزم الجيش البريطانى.

أصبحت "سان دومينجو"، دولة هايتى السوداء المستقلة. كانت دولة فقيرة – كانت **15** سنة من الحرب المتواصلة تقريبا، قد أحدثت بها الكثير من الدمار. الاقتصاد الذى كان يقوم على السكر، والذى كان قد أنتج كل تلك الثروة لصالح قلة، لم يكن بالإمكان استعادته دون عبودية تقريبا؛ ورغم أن "**كريستوف– Christophe**"، خليفة "**ديزالين**" حاول إعادة فرض ذلك فما كان الناس ليقبلوا به. ربما كانوا فقراء، ولكنهم كانوا أكثر حرية من أقرانهم السود فى "جامايكا" أو "كوبا" أو "البرازيل" أو "أمريكا الشمالية".

ثورات أمريكا اللاتينية الأولى

كانت حرية "هايتى" هى ما أغرى الفنزويلى "بوليفار – **Bolivar**" بزيارتها فى **1815**. كان "بوليفار" يدافع بشدة عن مبادئ الثورة منذ أن كان فى السادسة عشرة من العمر، والآن كان قد أصبح أحد زعماء حركة تمرد ثورية تتهدد الحكم الإسپانى فى ربوع أمريكا اللاتينية.

كانت أحداث أوروبا هى التى فجرت هذه الحركة، كما حدث فى "هايتى". كان "ناپليون" قد نصّب شقيقــه "جوزيف – **Joseph**" ملكا على إسپانيــا فى **1808** بعد تنازل الملك "البوربونى" الضعيف "**شارل الرابع – Charles IV**"، وكان ذلك قد أثار حركة تمرد شهدت انتفاضات فى "مدريد" وحرب عصابات فى المناطق الريفية، بالإضافة إلى معارك مرتبة كانت تقوم بها بقايا الجيش الإسپانى بدعم بريطانى. كان معظم الحركة النشطة للتمرد يعود للفلاحين المتدينين الذين كان يتزعمهم كهنة يخشون أى تهديد لممارسات النبلاء والكنيسة الإقطاعية، وكلهم إصرار على إعادة فرض ملكية مطلقة تحت "**فرديناند – Ferdinand**" ابن "شارل" – مع محاكم تفتيش؛ ولكن لفترة برز مجلس (**junta**) من برجوازية "كاد **Cádiz**" الليبرالية باعتباره البؤرة القومية للتمرد، رغم أن أفكاره كانت شيئا بغيضـ بالنسبة للقوى المنخرطة فى القتال فى معظم أجزاء البلاد.

كانت النتيجة، أن الإمبراطورية الإسپانية كلها، وليس إسپانيا فقط بقيت دون حكومة متماسكة لمدة ست سنوات؛ وفى الأمريكتين كان هناك فراغ قوة مفاجئ من "كاليفورنيا" إلى "كيپ هورن"؛ وعندما هبت قوى سياسية مختلفة لملء هذا الفراغ، كان لا بد من أن ينتهى الأمر بحروب طاحنة بينها.

على مدى الثلاثمائة عام السابقة، كان المستوطنون الإسپان الأصليون، مثل البريطانيين فى أمريكا الشمالية والفرنسيين فى "سان دومينجو"، كانوا قد شرعوا فى تنمية مصالح خاصة بهم، كان لا بد من أن تتصادم مع مصالح حكام الإمبراطورية؛ وكان يبدو أن الأزمة فى إسپانيا تتيح الفرصة لتوكيد تلك المصالح.

نواب الملك، الذين تعهدوا بالولاء للعرش الإسبانى، كانوا كلهم إصرار على مقاومة مثل تلك المطالب، وكان لديهم قوات تحت تصرفهم كما كان بإمكانهم اللجوء إلى الكنيسة من أجل المزيد من الدعم. كان هناك بالإضافة إلى ذلك أمر آخر فى صالحهم، وهو أن الانشقاقات داخل المجتمع الاستعمارى كانت أكثر قوة من تلك التى كانت فى أمريكا الشمالية. كانت مساحات واسعة من أراضى أمريكا اللاتينية تحت سيطرة ملاك كبار ممن فرضوا أشكالا إقطاعية لإخضاع الشعوب الأصلية، وفى الوقت نفسه كان فى المدن تجار يحققون ثرواتهم من التجارة مع إسپانيا أكثر مما هى مع مناطق أخرى من أمريكا اللاتينية، وطبقة متوسطة كانت ترى أن التاج وملاك الأراضى، على السواء، كانوا يعوقون النمو الاقتصادى، وكتلة من الحرفيين والعمال، وعبيد سود فى بعض المناطق.

هكــذا كان الوضع عندما شارك "بوليڤار" (الذى كان ينتمى هو نفسه لأسرة من كبار الملاك) فى أول عصيان مسلح فى "ڤنزويلا" ضد الحكم الإسپانى فى 1810، عندما كان الكاهن الثورى "**هيدالجو** – **Hidalgo**" يقود انتفاضة فى مدينة "جوادا لاچارا" المكسيكية، على بعد 2000 ميل. كانت الانتفاضات ناجحة فى بدايتها، ثم تم القضاء عليها. تم إعدام "**هيدالجو**"، واضطر "**بوليڤار**" للهرب بحياته. تكرر النموذج نفسه عندما قام "**بوليڤار**" بانتفاضة أخرى فى "كاراكاس".. لكى يلقى هزيمة مرة أخرى (ويسعى للحصول على مساعدة فى "هايتى")، بينما تسلم "**موريلوس**– **Morelos**" راية "**هيدالجو**"، ليتم إعدامه هو الآخر. نجح "**بوليڤار**" فى محاولته الثالثة – انطلق من "ڤنزويلا" عبر "نيڤا جرانادا– **Nueva Granada**" (كولومبيا الآن) إلى داخل "بوليڤيا"، ليلتقى بـ"**سان مارتن**– **San Martin**" محرر "الأرچنتين"، قبل أن ينطلق للانضمام إلى "أوهيجنز– **O'Higgins**"، محرر "شيلى"، لطرد التاج الإسپانى من "پيرو". فى الوقت نفسه، أجبرت حركة تمرد ثالثة فى المكسيك الإسپان على منح الاستقلال. إلا أن الانتصارات كانت مرة بالنسبة لأولئك الذين كانت قد حركتهم ودفعتهم مبادئ ومثل "بوليڤار" و"هيدالجو". كانوا قد اعتنقوا أفكار "الثورة الفرنسية"، ولم يكن هدفهم التخلص من التاج فحسب، ولكنهم كانوا

يستهدفون القضاء على الإقطاع وتحرير العبيد وإقامة جمهورية برجوازية كاملة. كان "هيدالجو"، حتى، قد مضى إلى ما هو أبعد عندما حث الناس على الثورة، مع حديث عن توزيع الأراضى، بينما أتبع "بوليڤار" انتصاراته بدعوة "مؤتمر قارى" فى "پنما" لتأسيس "ولايات متحدة" لأمريكا اللاتينية.

لم يكن كبار ملاك الأراضى الذين يسيطرون على القارة راغبين فى ذلك، كما أن مقاومتهم لمثل ذلك الخطاب الثورى هى ما أدى إلى هزائم "بوليڤار" الأولية وإعدام "هيدالجو"؛ ورغم أنهم كانوا يحتفون بخلفاء "بوليڤار" و"هيدالجو" فى النهاية باعتبارهم "أبطال تحرير"، كانوا فى الوقت نفسه لا بد من أن يضمنوا أن يتم الاستقـــلال بشروطهم. الإصلاح الزراعى لم يحدث، السلطـــة بقيت فى أيـــدى أوليجاركيات إقليمية، أما مشروعات تأسيس "جمهورية أمريكية لاتينية" واحدة فقد ولدت ميتة؛ وعلى الرغم من انتصاراته وتماثيله التى تزين كل مدينة فى "ڤزويلا"، مات "بوليڤار" محسورا خائب الأمل.

بقيت أمريكا اللاتينية، إلى حد كبير، كما كانت قبل الاستقلال – قارة تحتوى على عدد قليل من المدن الكولونيالية البارزة، التى تنافس بما فيها من فخامة وأبهة القرنين السابع عشر والثامن عشر الكثير من مدن أوروبا، محاطة بعدد كبير من المزارع الواسعة، تعمل عليها فئات أشبه بالرقيق. تحررت "دولها" من الحكم الإسبانى، ولكنها بقيت معتمدة، على نحو ما، على قوى أجنبية. "المكسيك" سيتم احتلالها من قبل الولايات المتحدة وفرنسا فى غضون القرن التاسع عشر، بينما ستمارس بريطانيا هيمنة كاملة على بلاد مثل "الأرچنتين" و"شيلى". فى كل دولة من دول أمريكا اللاتينية سوف تتآمر زمر أوليجاركية ضد بعضها بعضًا، وستقع انقلابات، وتقوم أحزاب متنافسة "ليبرالية" و"محافظة"، وستبقى بنى اجتماعيى.. على جانب منها ثروة وامتيازات وعلى الجانب الآخر كساد وفقر.

الهوامش

(1) G.W.F. Hegel, "The Philosophy of History", (New York, 1956), p.447.

(2) Quoted in H.G. Schenk, "Revolutionary Influences", p.100.

(3) G. Williams, "Artisans and sans-culottes", (London, 1981), p.58.

(4) G. Williams, "Artisans", pp 59, 62-66. "Planting the Liberty Tree", in E.P. Thompson's Classic "The Making of the English Working Class", ch 5, (New York, 1966).

حيث يحتوى الكتاب على وصف شامل لكل تلك التطورات.

(٥) حسب ما جاء فى: G. Williams, "Artisans..", p.78

(٦) للاطلاع على التفاصيل، انظر: E.P. Thompson's "The Making" pp 73-74

(٧) انظر:

J.D. Mackie, "A History of Scotland", (Harmondsworth, 1973), pp 311-313.

(8) T.Moore, "The Life and Death of Lord Edward Fitzgerald", vol.1 (London 1831), p.204.

(٩) حسب ما ذكر F. Campbell فى:

"The Dissenting Voice, Protestant Democracy in Ulster", (Belfast, 1991), p.51.

(10) F. Campbell, "The Dissenting Voice", p.98.

(١١) الرقم حسب ما جاء فى:

T. Gray, "The Orange Order", (London, 1972), p.69.

ويقدر T.Packenham عدد القتلى فى التمرد بنحو 70000:30000. انظر:

"The Year of Liberty", (London, 1987), p.392.

(12) F. Campbell, "The Dissenting Voice", p.98.

(13) C. Fitzgibbon, quoted in T.Gray "The orange order", p.68.

- ٤ -

تراجـــع العقـــل

اجتاحت الحماسة الثورية فى **1789** الكثير من الدوائر الثقافية المتأثرة بــ"التنوير"، إلا أن الشعور لم يكن عاما، إذ سرعان ما تعالت أصوات تستنكر ما كان يحدث باعتباره اعتداء على الحضارة. لم تكن شكواهم من "**الإرهاب**" الذى كان قد مضى عليه ثلاث سنوات. كان "**الحرس الوطنى– National Guard**" التابع لـــ"**لافاييت– La Fayette**" ما زال محكما قبضته على "**باريس**"، وكان الملك ما زال يعين الحكومات حتى وإن كانت مسئولة أمام "**الجمعية الوطنية**" وكان "**روبسپـــيير**" ما زال يستنكر عقوبة الإعدام. كان العداء موجها ضد ممارسة الجماهير لأى رأى فى شئون الدولة.

كانت "جماهير الغوغاء القذرة" تقوض أساس الحضارة، بحسب تعبير "**إدموند بيرك– Edmund Burke**" فى بريطانيا، فى نص أصبح ويظل – إنجيل الثورة المضادة:

> **مجد أوروبا انطفأ إلى الأبد... لم نشهد قط ذلك الولاء للطبقة والجنس، ذلك الخضوع وطاعة القلب التى بقيت حية فى القنانة نفسها، روح الحرية الرفيعة(١).**

لم يكن "**بيرك**" معروفا من قبل بتوجهات محافظة، إذ كان قد عارض السياسة البريطانية فى أمريكا وأدان بشدة سلوك الغزاة البريطانيين للبنغال؛ وكان "**توم پين– Tom Paine**"، بعد عودته إلى لندن من أمريكا، يعتبره صديقا، إلا إن مجرد الإشارة إلى تورط الجماهير فى الحياة السياسية كان أكثر مما يحتمل. استنكاره "**تأملات حول الثورة فى فرنسا– Reflections on the Revolution in France**"، صدر فى **1790**، وكان هجوما عنيفا يهدف إلى توحيد ملكية الأراضى والثروة المالية و"الطبقات

المهذبة"، ضد أى فكرة ترى أن من حق الحرفيين والفلاحين، ناهيك عن "الخدم" والعمال، أن يحكموا. كان ذلك يعنى رفض كل وأى تنازل للمبادئ الليبرالية. "**بيرك**"، الذى كان ذات يوم متعاطفا مع حظر العبودية، كان الآن يستنكر إلغاء استرقاق الزنوج باعتباره "من مخلفات الشرك الملعون لـ'**اليعقوبية**'"[٢]، وفيما بعد كتب مصرا على أن "**توم پين**" كان يستحق "دحض العدالة الجنائية"[٣].

صادف كتاب "**التأملات**" (**Reflections**) الذى أصدره "**بيرك**" نجاحا فوريا وانتشارا بين الطبقات العليا، إذ باع **50000** نسخة من إنجلترا وفى غضون عامين كان قد ترجم إلى عدة لغات. أعجب به "**چورج الثالث**"، و"**كاترينا العظمى**" تحمست له، وامتدحه كثيرا "**ستانيسلاف**" آخر ملوك بولندا. لم يكن لأى منهم، بالطبع، تجربة مع العبودية أو كان قد فعل شيئا قط لتبنى 'روح الحرية الرفيعة".

سرعان ما أصبحت كتابات "**بيرك**" فى إنجلترا، تقارن فى كل القارة بكتابات "**مايستر**- **Maistre**". لم يكن مصرا فقط على أن الحكام ينبغى أن يكونوا "مميزين عن باقى الناس بالميلاد أو الثروة، إذ إن كل الحكومات سوف تسقط بمجرد أن يفقد الناس احترامهم للسلطة"[٤]؛ بل إنه تمادى فى مجادلاته ليهاجم أساس "**التنوير**" ذاته. كتب يقول: "إن أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها نبيل، هى أن يهاجم **الثوابت** المسيحية"[٥].

لم يكن وحده فى التحذير من أن تحدى الآراء القديمة يمكن أن يؤدى إلى تحدى الطبقات المستغلة لسادتها؛ والآن كان "**جيبون**- **Gibbon**" يرى مكانا للأفكار المسيحية العبثية التى كان قد هاجمها بضراوة فى كتابه "**اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية**- **Decline and Fall of the Roman Empire**". كتب عن "خطر تعريض الخرافات القديمة لاحتقار الجماهير العمياء الجهلاء"[٦].

كانت أسس "**التنوير**" نفسها، وليس الثورة فحسب تحت هجوم شديد، وتعاظم ذلك عندما جعل تقدم الجيوش الثورية كل الرءوس المتوجة والأرستقراط فى أوروبا ترتجف. تحولوا إلى الأفكار الظلامية الغامضة كمتراس ضد انتشار إعمال العقل بين الجماهير ولجأوا إلى أقصى الإجراءات البوليسية القمعية ضد من كانوا يحاولون مواصلة تقليد "**التنوير**".

قوى مد اللاعقلانية (unreason) بسبب يأس الكثيرين ممن خابت آمالهم فى 1789 مع موجة **الإرهاب** الثانية، وزاد الطين بلة مع "تيرميدور" وتتويج "**نابوليون**". أصبحت السلبية، وربما الرجعية هى السمة العامة لحالتهم النفسية. فى **1797**، كتب "**كوليردج**– **Coleridge**": "الحكام، كلهم متشابهون في كل العصور وفى كل صور الحكم". الشاعر الألمانى "**هولدرلن**– **Hölderlin**" كان يرى أن الأمل فى عالم أفضل، كان شرا فى حد ذاته– "إن ما حول الدولة إلى جحيم، هم تحديدا أولئك الذين حاولوا تحويلها إلى جنة"[٧] حتى من رفضوا أن يخونوا آمال **1789**، كانوا بصفة عامة يتجنبون المواجهة المباشرة مع النظام القديم. كانت الساحة تزداد اتساعا أمام من ينشرون الأفكار الدينية الظلامية والأوهام الملكية.

وبينما كان "**هيوم**– **Hume**"، قبل **50** سنة، يستطيع أن يعبر، وبشكل علنى، عن أفكار شكوكية، تم طرد "**شيللى**– **Shelley**" من "أكسفورد" فى عمر الثامنة عشرة لدفاعه عن الإلحاد. كان "**ڤولتير**– **Voltaire**" قد فضح خرافات "**العهد القديم**– **Old Testament**" وما فيه من مجافاة للعقل، ولكن حتى أربعينيات القرن التاسع عشر لم يكن بإمكان أشخاص مثل "**ديڤيد شتراوس**– **David Strauss**" استئناف هجومهم على "**الكتاب المقدس**". "**بافون**– **Buffon**" و"**لامارك**– **Lamarck**" فى فرنسا، و"**إراسموس دارون**– **Erasmus Darwin**" فى إنجلترا، كانوا قد استطاعوا فى القرن الثامن عشر تقديم فكرة تطور الأنواع، ولكن الجو العام فى بريطانيا، حتى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، كان أن جعل "**تشارلز**– **Charles**"، **حفيد** "**إراسموس**"، يتأخر عشر سنوات قبل أن يكشف للعالم عن اعتقاده هو أيضا بذلك الأمر وأن لديه نظرية جديدة لكيفية حدوث ذلك[٨]. مفكرا التنوير الاسكتلنديان "**آدم سميث**– **Adam Smith**" و"**آدم فيرجسون**– **Adam Fergson**"، كانا قد طورا أفكارا عن تطور المجتمع البشرى من مرحلة الصيد والجمع إلى الحاضر، ولكن ذلك كان قد تم نسيانه من قبل من كانوا يكتفون بترديد عبارات من "**ثروة الأمم**"، بينما يرون المجتمع "**من عند الله**". كان الأمر يبدو وكأن هناك محاولة لتجميد عقل الناس على مدى ما يقرب من نصف قرن.

لم تكن "النقلة" من "**التنويــر**" إلى "**الظلامية**" شاملة. كانت هناك مـــا زالت، مظاهر تقدم كثيـــرة فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء – شجع عليهـــا انتشـــار الصناعة واحتياجات الحرب. صراع السياسات بين رجال الصناعة الساعين للربح، وأصحاب الأراضى الذين لا يهمهم سوى الإيجارات المرتفعة، هذا الصراع أدى إلى قيام "**ديفيد ريكاردو– David Ricardo**" فى إنجلترا، بتطوير فهم "**سميث**" للرأسمالية. الفيلسوف الألمانى "**هيجل– Hegel**"، قدم نظرة عامة عن تطور الفهم الإنسانى، كانت تنطوى على كثير من أفكار "**التنوير**" الثاقبة، رغم أن طرحه كان يفصل بين ذلك التطـــور وأى أساس مـــادى. "**وولتر سكوت– Walter Scott**" و"**أونوريـــه دى بلزاك– Honoré de Balzac**" و"**ستنـــدال– Stendhal**" و"**چين أوستن– Jane Austin**"، قدموا الرواية باعتبارها الأسلوب المميز للتعبير الأدبى عن "مآزق" و"أزمات" الطبقات المتوسطة فى العالم الرأسمالى الناشئ. كانت "**الرومانسية– Romanticism**" فى الأدب والموسيقى تحتفى بالمشاعر والعواطف أكثر منها بالعقل، وكان ذلك كثيرا ما يؤدى إلى تمجيد ماض "ذهبى" مزعوم، يغلفه الغموض، بينما كان يمكن أن يؤدى كذلك إلى تمجيد تقاليد المعارضة الشعبية للظلم والاستبداد، ولكن فى المجتمعات التى لم تكن قد تخلصت بعد من بقايا الإقطاع. عدد قليل من مفكرى "**اليوطوبيا– Utopia**" مثل "**سان سيمون– Saint-Simon**" و"**فورييه– Fourier**"؛ وفى بريطانيا "**روبرت أووين– Robert Owen**"، الرائد الصناعى الناجح، هؤلاء قدموا مخططات لتنظيم المجتمع على نحو أفضل– رغم أنهم لم يكونوا قادرين على الإشارة إلى أى قوة لترجمة تلك المخططات إلى واقع. كان الأمر يتطلب جيلا جديدا، ولد فى أواخر العقد الأولى، وأوائل العقد الثانى من القرن التاسع عشر، لكى يبنى على ميراث "**التنوير**" والسنوات الأولى للثورة؛ إلا أن العالم فى الوقت نفسه كان يتغير على نحو مثير برغم كل محاولات الأنظمة الملكية المستعادة فرض أساليب حياة القرن الثامن عشر مرة أخرى.

الهوامش

(1) Quoted in H.G. Schenk, "Revolutionary Influences", p.100.

(٢) المصدر السابق – p.98.

(3) Quoted in J.Keane, "Tom Paine" p. 323.

(4) Quoted in H.G. Schenk, "Revolutionary Influences", p. 98.

(٥) المصدر السابق – p.105.

(6) E. Gibbon, "Autobiography".

كما ورد في:

P. Gray, 'Voltair's Politics", (New Jersey, 1959), p.259.

(٧) انظر:

H.G. Schenk, "Revolutionary Influences".

حيث تجد اقتباسات عن كل من كوليردج– Coleridge و"هولدرلين– "Hölderlin p.100.

(٨) انظر:

A.Desmond and Moore, "Darwin", (London, 1992).

- ٥ -

الثـورة الصناعيــة

"الآن، تنجز الطاقة الميكانيكية والعمليات التى يشرف عليها نحو **2000** من الشباب والراشدين فى مؤسستى فى "نيولانارك" عملا، كان إنجاز مثله قبل **60** عاما يتطلب كل العاملين فى اسكتلندا"، هكذا كان يقول رجل الصناعة، والاشتراكى فيما بعد، "روبرت أوون- **Robert Owen**" فى **1815**(١).

ربما كان يبالغ بعض الشيء، ولكنه كان يلمس حقيقة مهمة. كانت هناك تغيرات فى أساليب إنتاج الناس للأشياء، على نحو غيـر مسبوق منذ عرفت مجتمعات الصيد والجمع والزراعة قبل عشرة آلاف سنة. كانت تلك التغيرات فى أول الأمر مركزة فى شمال إنجلترا والأراضى المنخفضة فى اسكتلندا، ومناطق من بلچيكا، إلا أنها سرعان ما أسهمت فى التطور الذى حدث فى كل مكان.

كانت تلك التغيرات تتضمن العديد من الابتكارات المترابطة: استخدام آلات مركبة، وصناعة أدوات من الصلب المقسى بدلا من الخشب أو النحاس سهل الانثناء أو الحديد الزهر سهل الكسر، وصهر الحديد فى الأفران التى تعمل بالفحم الحجرى وليس الفحم النباتى التى كان لا بد من تحريكها من أماكنها نتيجة قطع أشجار الغابات، واستخدام الفحم الحجرى لإنتاج مصدر جديد للطاقة المحركة للمعدات، عن طريق المحركات البخارية.

استخدام هذه العناصر مجتمعة: الآلات الجديدة، المعادن الجديدة، مصدر الطاقة، أدى إلى زيادة كبيرة فى المواد التى يمكن إنتاجها، كما اختصر الوقت اللازم لانتقال الناس ونقل البضائع من مكان لآخر.

في أواخر القرن الثامن عشر، كان الانتقال من "بوسطن" إلى "فيلادلفيا" يستغرق أسبوعين، وكان يمكن أن تبقى سفينة فى أحد الموانى أسبوعين، وربما أكثر، انتظارا لتغير اتجاه الريح، كما كانت المجاعات متكررة نتيجة لتعذر نقل المواد الغذائية من مكان لآخر. كانت المركبات التى تسير على عجل معروفة فى أوراسيا وأفريقيا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، إلا أن استخدامها كان مستحيلا على الطرق والأراضى الوعرة. كانت قوافل البغال وسيلة لنقل البضائع، أكثر أهمية من العربات. كان يتم وضع قطع من الحجر فى وسط الطرق الطينية لتسهيل حركة الخيول والبغال، ولكنها لم تكن تصلح لسير المركبات، فى الهند المغولية، كان معظم النقل البرى يعتمد على قطعان كبيرة من الثيران تحمل بالبضائع[٢].

والآن، كانت جيوش كبيرة من العمال تقوم بإنشاء القنوات وبناء الطرق الممهدة، باستخدام الأدوات المصنوعة من الصلب والرخيصة نسبيا، لربط المدن والبلدات الرئيسية ببعضها؛ واكتشف عمال المناجم إمكانية تسريع حركة نقل الفحم باستخدام عربات على عجلات مخروطة على نحو يمكنها من الحركة على قضبان، كانت تصنع فى البداية من الخشب، ثم فيما بعد من الحديد، كما تمكن المهندسون من استخدام المحرك البخارى لتزويد السفن وعربات القضبان والمصانع بالطاقة. فى 1830، انطلق أول قطار ركاب من "مانشستر" إلى "ليفربول"[٣]؛ وهكذا، فجأة، كان البشر يستطيعون التحرك بسرعة لم يكونوا يتصورونها. البضائع المصنوعة فى مدينة ما، أصبح بالإمكان أن تجدها فى مدينة أخرى فى غضون ساعات، بعد أن كان ذلك يتطلب أياما. أصبحت هناك الإمكانية لتحرك الجيوش بين عشية وضحاها من أقصى ركن فى دولة ما إلى الآخر.

كان هناك كذلك تغير متسارع فى الزراعة، مع القضاء النهائى على الطبقة الفلاحية فى بريطانيا من حلال المسيجات، والتبنى شبه العام لمحاصيل القرن السابق الجديدة وأشكال جديدة من الزراعة – اللفت، البطاطا، القمح بدلا من الشوفان والشعير، الأعشاب الجديدة، محراث أكثر كفاءة ودورة زراعية أفضل.

كان من آثار ذلك التغير أن زاد ناتج الغذاء، وفى الوقت نفسه جعل أعدادا غير مسبوقة من الناس تسعى للعمل بأجر سواء على المزارع الرأسمالية أو فى الصناعات الجديدة.

طبقة من نوع جديد

حدث تغير هائل فى ظروف عمل ومعيشة الملايين من الناس، وبدأوا يتزاحمون فى المدن والبلدات على نطاق غير مسبوق فى التاريخ؛ وحيث إن الصناعة كانت تقوم على الفحم الحجرى كوقود، وعلى الماء والهواء كمصادر للطاقة، كان معظمها – الصناعة – مقصورا على المناطق الحضرية. الفحم والبخار غيرا ذلك. بدأت المصانع الحديثة، بمداخنها العملاقة، تغلب على المنظر الطبيعى فى المنطقة المحيطة بـ"مانشستر" فى "لانكشاير" و"جلاسجو" فى "اسكتلندا"؛ وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت بريطانيا أعظم مجتمع حضرى – **urban** عرفته البشرية؛ ففى سنة **1750** كان هناك مدينتان فقط، يزيد تعداد السكان فى كل منهما عن **50,000** نسمة، هما "لندن" و"أدنبره"، وبحلول العام **1851** كان قد أصبح هناك **29** مدينة، وكان أغلبية الناس يعيشون فى مدن(٤).

لم يكن التحول إلى الإنتاج الصناعة الحديث فوريا؛ ومثلما هو الأمر فى دول العالم الثالث اليوم، كان نمو الصناعات الرئيسية مصحوبا بنمو هائل فى الصناعات الصغيرة التى تعتمد على "اليد العاملة الكادحة"– **sweated labour**–

ترسخت الثورة الصناعية فى إنجلترا فى البداية فى النسيج والتعدين؛ ولكن فى النسيج كان غزل القطن هو المركز فى المصانع التى تعتمد على عمالة النساء والأطفال بشكل أساسى، بينما كان يقوم بالنسج عمال الأنوال اليدوية فى المناطق الريفية. زادت أعدادهم زيادة هائلة، كما زادت أعداد المستخدمين فى الكثير من الحرف الحضرية ما قبل الصناعية، وكذلك كانت هناك زيادة كبيرة فى عمالة التعدين، والتى كانت توجد عادة فى القرى، وبخاصة القريبة من الأنهار والقنوات وخطوط السكك الحديدية.

تحـــولت حياة الناس أيضـــا مع زيادة اعتمادهم على علاقات نقديـــة- **cash relations** مع الطبقة الرأسماليـــة فى معيشتهم. العدد المتزايد من عـــمال المغازل اليدوية فى تسعينيات القرن الثامن عشر، تحول فى أربعينيـــات القرن التاسع إلى كتلة بائسة من البشر، لا تجد ما يقيم أودها، نتيجة منافسة المصانع الجديدة التى تستخدم الأنوال التى تعمل بالطاقة.

كان هناك دائما نقاش طويل بين مؤرخى الاقتصاد حول مسألة "مستوى المعيشة"- وما إذا كانت حياة الناس قد تدهورت على إثر إدخال الصناعة وحياة المدينة، إلا أن معظم الحديث كان على هامش القضية الأساسية. الناس انتقلوا إلى المدينة- كما ينتقلون إلى مدن العالم الثالث مثل "بومباى" أو "چاكرتا" اليوم- لأن ذلك كان يبدو البديل الوحيد لحياة البؤس فى الريف، إلا أن المدينة لم تكن لتستطيع أن توفر المستقبل الآمن المريح. قد يكون لدى الناس اليوم مهارات تمكنهم من بيع قوة عملهم، إلا أنهم قد يجدونها زائدة عن الحاجة فى اليوم التالى. كان التغير بطيئا فى العادة، إن كان مؤلما، فى الاقتصاد الريفى لأوائل القرن الثامن عشر، أما فى اقتصاد القرن التاسع عشر الحضرى فكان أكثر سرعة وتدميرا فى أحوال كثيرة. كان الإنتاج يتم من أجل الأسواق، وكان يمكن أن تتسع الأسواق وتتقلص بسرعة كبيرة؛ ففى أوقات الانتعاش كان يمكن أن يترك الناس حرفهم القديمة ومساكنهم فى القرى أمام إغراءات الأموال التى كان يبدو الحصول عليها سهلا فى المدينة؛ وفى أوقات الركود أو الكساد كانوا يجدون أنفسهم وقد أصبحوا معدمين، لا يجدون حتى طعام يومهم إن هم فقدوا أعمالهم.

كانت قطاعات من العمال الجدد تستطيع أن تكتسب مهارات تمكنها من موازنة وضعها فترة من الزمن، إلا أنهم غالبا كان عليهم أن يناضلوا بضراوة ضد محاولات مستخدميهم (أصحاب الأعمال) لزيادة ظروفهم سوءا، وخاصة عندما تصاب التجارة بالكساد أو توفر تكنولوچيات جديدة. كان هناك دائما قطاع كبير من سكان الحضر الذين يعيشون فى "فقر مدقع"- مرضى أو مسنون أو غير مهرة.

كانت قوة العمل الجديدة هي مصدر الثروة الهائلة، إلا أنها كانت ثروة لآخرين. حتى الإحصائيات التي تحاول أن تظهر ارتفاعا في مستويات معيشة معظم العاملين من السكان، لا تستطيع أن تدعى أن ذلك كان بما يتناسب مع ما حدث من تقدم في الإنتاج؛ وبينما كان على الطبقة العاملة أن تتماشى بدرجة ما فوق أو تحت حد الكفاف بقليل، كان الناس الذين قد تجدهم في رواية لـ"**چين أوستن- Jane Austin**" مثلا، يتناولون عشاءهم ونبيذهم ويخرجون للصيد ويطارحون بعضهم البعض الغرام ويشربون الشاى في أفخم الأماكن. في سنوات الجوع بعد **1815**، كان نحو **12%** من الناتج القومي يذهب كفائدة لأصحاب الدين القومي.

كان الذين يعيشون على عرق قوة العمل الجديدة، يرونها تمثل مشكلة مستمرة، إذ كيف يجعلونها تعمل كما يريدون؟ كان العمال الذين نشأوا في الريف قد اعتادوا إيقاع النصول، فترات قصيرة من العمل المكثف، تقطعها فترات أطول للراحة والاسترخاء. كان يمكن ألا يكتفوا بعطلة يوم "الأحد"، بل كان يمكن أن يستريحوا أيضا يوم "الإثنين" (الذى كان يعرف باثنين القديس في إنجلترا والإثنين الأزرق في ألمانيا). كان كسر هذه العادات هاجسا بالنسبة لأصحاب المصانع. كان لا بد من تشغيل الماكينات من شرق الشمس إلى غروبها، وإلى ما بعد ذلك في الليل بعد معرفة الإضاءة بالغاز. ساعات الحائط التي وضعت في المصانع كانت هناك تؤكد أن "الوقت من ذهب"[٥]. كان لا بد من أن تتغير الطبيعة البشرية ذاتها لكي لا يرى الناس غرابة في قضاء كل ساعات النهار في غرفة مغلقة، دون أن يروا الشمس والشجر أو يسمعوا صوت الطيور.

كانت طبقات أصحاب الأملاك تعتقد أن أي محاولة لتخفيف وطأة الفقر كان من شأنها أن تقوض النظام الجديد، وأن الفقراء إذا تمكنوا من الحصول على أى نوع من الدخل دون عمل، سيصبحون "عاطلين وكسالى ومحتالين ولا قيمة لهم"، وتنمو لديهم "روح الكسل والتمرد"[٦].

كان "**توماس مالتوس- Thomas Maltus**" قد "أثبت" ذلك مدللا على أن مستويات معيشة الفقراء لا يمكن تحسينها، إذ إنهم سوف يقومون بإنجاب المزيد

من الأطفال، لتصبح حياتهم أسوأ مما كانت عليه، كما قال، وكان "**چان- باپتست ساى- Jean-Baptiste Say**"، أحد مروجى أفكار "آدم سميث" قد "أثبتت" هو الآخر أن البطالة مستحيلة فى سوق حرة حقيقية، وإذا كان الناس لا يستطيعون أن يجدوا عملا، فذلك لأنهم يطلبون أجورا أعلى مما تستطيع السوق أن تتحمل؛ وأن مساعدة الفقراء بزعم حمياتهم، يشجع هذا الأسلوب الكارثى. كان الأسلوب الوحيد للتعامل مع الفقر هو جعل الفقير أكثر فقرا! بلغت الأمور إلى درجة أن العاطل القادر على العمل كان يمكن أن يقوم بأى شيء سوى أن يتقدم لطلب المساعدة. قانون إغاثة الفقراء المعدل الذى صدر فى بريطانيا فى **1834**، شرع لترسيخ تلك الظروف بقصر المساعدة على من كانوا مستعدين لتحديد إقامتهم فى إصلاحيات أقرب ما تكون إلى السجون – كان يطلق عليها تهكما "باستيلات".

لم تكن الحياة الجسمانية للقوى العاملة هى ما تغير مع التصنيع فحسب، إذ كان هناك كذلك تغير فى الذهنية. كانت الحياة فى تجمعات حضرية مزدحمة قد خلقت توجهات مختلفة عن تلك فى القرى المنعزلة، وكان يمكن أن يؤدى ذلك إلى الشعور بالوحدة واليأس إلى جانب الفقر؛ إلا أنه كان يمكن أن يؤدى أيضا إلى أحاسيس جديدة بالمجتمع الطبقى عندما يجد الناس أنفسهم يعيشون ويعملون بجانب أعداد غير مسبوقة من أناس آخرين، لهم نفس المشكلات ويعيشون فى نفس الظروف؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يجعل الناس أكثر وعيا بالعالم الأوسع، مما كان فى الريف. كان من المرجح أن يكون العمال أكثر قدرة على القراءة والكتابة من أسلافهم الفلاحين، وعن طريق القراءة والكتابة كانوا يعرفون عن الأماكن والأحداث البعيدة.

عالم العمل الجديد جاء معه بشكل جديد من الأسرة وبتغير جذرى فى وضع المرأة. كانت الزوجة فى الريف تقوم دائما بدور إنتاجى، إلا أنه كان عادة تابعا لزوجها الذى كان مسئولا عن معظم التعاملات مع المجتمع خارج نطاق الأسرة. على نحو مغاير، كانت النساء (والأطفال) بالمئات والآلاف يمثلن النسبة الأكبر فى المصانع. كانت الظروف شديدة القسوة، لدرجة أن الكثيرات كن يحلمن بأن يجدن

الرجل الذى يمكن أن يخلصهن من ذلك العبء الثقيل المزدوج، العمل المضنى ورعاية الأطفال. ولكن، من ناحية أخرى، كانت تلك هى المرة الأولى التى يكون للمرأة فيها نقود خاصة بها، ودرجة من الاستقلالية عن زوج أو حبيب. كانت "فتيات المصانع" فى "لانكشاير" معروفات بالاعتماد على أنفسهن، مثلما كانت "العاملات الفرنسيات" فى أحياء باريس الشرقية ومعروفات بتجرأهن على الشرطة وتحديهن للجنود. بإحداث تغير جذرى فى الإنتاج، كانت الرأسمالية قد بدأت، وعلى نحو جذرى أيضا، تغيير الاتجاهات التى كانت قد أبقت على اضطهاد النساء على مدى آلاف السنين.

فاعلون ومفعول بهم

لم تعان طبقة العمال الصناعيين الجديدة فحسب، بل سرعان ما كشفت عن قدرتها على الرد. كان تركز بعض الحرف فى المدن فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، قد انعكس فى الدور الذى قام المهنيون والعمال فى "الثورة الإنجليزية" و"عمال الميكانيك" فى نيويورك و"بنسلفانيا" فى "الثورة الأمريكية"، وفوق ذلك الـ"سان كيلوت" فى "الثورة الفرنسية". الآن، كان الناس قد بدأوا يتركزون على نطاق أوسع فى أماكن عمل جماعية هائلة الحجم على نحو غير مسبوق. هذه الأماكن أتاحت لهم إمكانيات للمقاومة، أكبر من تلك التى كانت لأى طبقة مستغلة فى السابق؛ كما كانت مقاومة تشجع على إنتاج أفكار مناهضة للمجتمع القائم برمته.

وفى **1796**، كان الداعية الثورى "چون تلويل– **John Thelwell**" قد أدرك ما يخبئه المستقبل:

> **احتكار وتكدس بشع لرأس المال فى أيد قليلة... تحمل على شناعتها بذور العلاج... أيا كان ما يحشد الناس معا... رغم أنه قد يولد بعض الرذائل، هو فى صالح نشر المعرفة، ومعزز للحرية**

الإنسانية فى آخر الأمر. من هنا، فإن كل مصنع أو مشغل كبير، هو مجتمع سياسى بشكل ما، لا يستطيع أى إجراء برلمانى أن يسكته ولا أى قاض أن يشتته[٧].

فى غضون عقدين كانت نبوءة "**تلويل**" قد تحققت. بدأت موجة جديدة من الدعوة والتحريض، وإن كانت على نحو متقطع، فى بريطانيا، قرب نهاية "**حروب نابوليون**". كان أن حققت هذه الموجة فى آخر الأمر أبعادا أكبر، وأن تستمر فترة أطول من أى موجة احتجاجية سابقة. هذه الموجة نبعت من تيارات مختلفة – صناع وحرفيو لندن الراديكاليون الذين كانوا ورثة حركة تسعينيات القرن الثامن عشر، "**اللوديت– Ludites**" الذين حطموا الماكينات التى أدى استخدامها إلى خفض أجورهم أو الاستغناء عنهم، الاتحادات العمالية، غير القانونية، للعمال المهرة وعمال غزل القطن وعمال المزارع (الذين تم إبعاد زعماء حركتهم التى عرفت بـ: "**شهداء تولپادل– Tolpuddle Martyrs**" إلى أستراليا). مر النضال بمراحل مختلفة – تحطيم الماكينات، تظاهرات جماهيرية مثل تلك التى دهمتها ميليشيات الطبقة العليا عند "بيترلو– **peterloo**" فى "مانشستر" فى **1819**، إضرابات كبيرة، تحريض على التصويت إلى جانب الطبقة المتوسطة فى **1930-32**، اعتداءات على الإصلاحيات بعد **1834**، احتجاجات ضد إنشاء قوات بوليسية لإحكام قبضتها على الأحياء السكنية للطبقة العاملة. هذه الصراعات أفرزت مجموعة متوالية من الزعامات التى كانت تقوم بالتنظيم والتحريض والدعاية، ثم بدأت فى بعض الأحيان تحويل بعض أفكار "**آدم سميث**" و"**ديڤيد ريكاردو**" لمناهضة الرأسمالية. كان للحركة أيضا صحفها الخاصة مثل "**Black Dwarf**" (القزم الأسود)، و "**Poor Man's Guardian**" (جارديان الفقير)– التى كان أصحابها عرضة للقبض عليهم باستمرار، لنقلها أخبار الاحتجاجات والتحريض، وتحدى سلطة الرأسماليين والإقطاعيين على السواء.

الميثاقيون

تجمعت هذه التيارات المختلفة في أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر لكي تنبثق عنها حركة "الميثاقيون"، وهنا ستكون أمام شيء غير مسبوق في التاريخ، حركة أناس كان كدحهم هو الذى حافظ على استمرار المجتمع، حركة منظمة من أسفل، ليست مجرد هبة أو انتفاضة مؤقتة. نحن أمام تنظيم دائم، له هياكله الديمقراطية الخاصة، سرعان ما سيصل توزيع صحيفته الرئيسية **"Northern Star"** (نجمة الشمال) – التى تأسست فى "ليدز" فى **1837**، إلى مستوى توزيع "التيمز – **Times**"، الصحيفة الرئيسية للطبقة الحاكمة: كانت تتم قراءة مقالات "نجمة الشمال" على من لا يعرفون القراءة، وذلك فى أماكن العمل والحانات فى كل المناطق الصناعية.

تتناول كتب التاريخ التى يتم تدريسها فى بريطانيا **حركة الميثاقيين** فى الغالب باعتبارها حركة ثانوية انتهت بالفشل، بيد أنها كانت أكبر حركة جماهيرية عرفتها بريطانيا فى القرن التاسع عشر. ألقت الرعب فى قلوب الطبقة الحاكمة ثلاث مرات، ففى **1838-39**، عقد مئات الألوف من العمال مؤتمرات جماهيرية كان يتم فيها مناقشة برنامج الحركة؛ عشرات الألوف بدعوا الاستعداد لانتفاضة شعبية عارمة؛ كان انزعاج الحكومة شديدا، ما جعلها ترسل قوات مسلحة إلى المناطق الصناعية، كما كانت هناك محاولات عصيان مسلح فى "نيوبورت" وجنوب "ويلز"[٨]. وفى **1842**، كان أن وقع أول إضراب عام فى التاريخ فى "لانكشاير – **Lancashire**" عندما تحرك العمال من مصنع لآخر يطفئون الأفران ويوسعون نطاق انتفاضتهم العاتية[٩]. وأخيرا فى **1848**، وعلى إثر هبوط صناعى فى بريطانيا، ومجاعة فى أيرلندا، وموجة من الثورات فى أوروبا، استعدت جماهير عمالية للمواجهة مرة أخرى، ولكن آمالهم خابت. تصدت الدولة بحزم، ووقفت معها الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة، وترددت قيادات الحركة "**الميثاقية**"، وتبددت سَوْرة الغضب التى كانت وراء تجمع مائة ألف من البشر فى "كنجنتون" وجنوب "لندن"؛ ولكن ليس قبل أن تحول الحكومة نصف "لندن" تقريبا إلى ثكنة عسكرية[١٠].

مثل كل حركة حية، كانت الحركة "**الميثاقية– Chartism**" تضم خليطا من جماعات مختلفة، تحمل أفكارا مختلفة. كان برنامجها الرسمى – بنود الميثاق – يستهدف إصلاحا ديمقراطيا واسع المدى، يقوم على الاقتراع العام للذكور وبرلمانات سنوية، أكثر منه على إعادة تنظيم اشتراكى للاقتصاد. كان زعماء الحركة منقسمين، بين مجندين لاستخدام "القوة الأخلاقية" لاستمالة الحكام القائمين وكسبهم، ومجندين لاستخدام "القوة المادية" للإطاحة بهم. حتى ذلك الفصيل الذى كان يحبذ "القوة المادية"، لم يكن لديه تصور واقعى لكيفية تحقيق هدفه؛ إلا أن "**الحركة الميثاقية**" كشفت عن شىء شديد الإثارة. لم تكن البرجوازية قد انتهت من معاركها بعد، لإزالة أنقاض النظام الإقطاعى فى معظم أوروبا. كانت تخلق إلى جواره طبقة جديدة مستغَلة قادرة على تحويل اللغة الثورة لـ"الثورة الفرنسية" ضد البرجوازية نفسها.

كان ذلك مهما بالنسبة للتاريخ العالمى، مثلما كانت "**الثورة الفرنسية**" و"**الثورة الصناعية**". كان نجاح بريطانيا فى التصنيع مشجعا للآخرين فى كل مكان لتقليدهم. كان هناك، بالفعل، عدد قليل من المصانع فى "فرنسا" وبعض مناطق "الجنوب الألمانى"، قبل **1789**، والآن كانت "جزر الصناعة" قد بدأت فى الظهور، ليس فى تلك الدول فحسب، ولكن كذلك فى "الشمال الإيطالى"، و"قطالونيا"، والولايات المتحدة الشمالية، وحتى فى "الأورال الروسى" وعلى "النيل". أينما كان يتصاعد دخان المصانع الجديدة، كانت هناك كذلك انفجارات غضب عفوى وتحد من أولئك الكادحين فى تلك المصانع. فى **1830**، خرجت الجماهير فى "باريس" إلى الشوارع، لأول مرة منذ **1795**، ولم يكن مستشارو الملك "**البوربونى**" "**شارل العاشر– Charles X**" يرون سوى أسلوب واحد لإيقاف الثورة – وهو إقناع الملك بأن يذهب إلى المنفى الاختيارى، والدفع بأحد أقاربه فى مكانه: "**لوى فيليب أمير أورليانز– Louis Philippe of Orleans**" – ملك البرجوازية؛ نجحت المناورة بيد أن بروز قوة الطبقة الدنيا كان كافيا لقيام موجة من الانتفاضات فى مناطق أخرى من أوروبا – فشلت كلها باستثناء تلك التى فصلت "بلجيكا" عن "هولندا" لتكوين دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية.

كان للشاعر والمؤرخ الفرنسى "**لامارتين**- **Lamartine**" تعليق يقول: "إن قضية البروليتاريا هى السبب الذى سيؤدى إلى انفجار رهيب فى مجتمع اليوم، فى حال فشل المجتمع والحكومات فى سبر أغوارها وحلها"[١١]. بعد **18** عاما، اتضحت صحة نبوءته عندما هزت الثورة أوروبا كلها، ونعم "**لامارتين**" نفسه بلحظة مجد قصيرة.

الهوامش

(١) كما ذكر في:

R.M. Hartwell, "Economic Change in England and Europe 1780-1830".

وذلك نقلا عن:

Cambridge New Modern History, vol. IX, p.42.

(٢) توحي هذه الحقائق بأن حضارة الأمريكتين ما قبل كولومبوس ربما لم تكن لا عقلانية أو أنها تخلفت لعدم استخدام العجلة، حيث لم تكن الطبيعة قد زودتهم بحيوانات تصلح لجر المركبات ذات العجل.

(٣) كان أول خط سكة حديد يمتد من Stockpork إلى Darlington (وبدأ العمل في 1825) وكانت معظم طاقته المحركة من محركات ثابتة.

(٤) الأرقام عن:

E.Hobsbawm, "Industry and Empire", (Harmondsworth, 1971), p.86.

(٥) للمزيد من التفاصيل عن تغير التوجهات، انظر:

E.P. Thompson, "Time, Work and Industrial Capitalism", in "Customs in Common", (London, 1992), pp. 352-403.

(٦) انظر:

D. McNally, "Against the Market", (London, 1993), p.101.

(7) J. Thelwall, "The Rights of Nature", (London, 1796), pp. 21-24.

نقلا عن: E.P. Thompson, "Making...", p.185

(٨) انظر على سبيل المثال:

D.Williams, "John Frost, A Study in Chartism" (New York, 1969).

(٩) انظر:

M. Jenkins, "The General Strike of 1842", (London, 1980),

وللاطلاع على تقرير معاصر انظر:

"The Trial of Fergus O'Connor and Fifty Eight Others", Manchester, 1843, reprinted New York 1970).

(١٠) للاطلاع على رواية كاملة انظر:

J. Saville, "1848", (Cambridge, 1987).

(١١) كما ورد في:

Cambridge New Modern History", vol IX, p.59.

-٦-

ميــلاد الماركسيــة

"شبح ينتاب أوروبا- **شبح الشيوعيـة**"، هكذا تبدأ مقدمة واحد من أكثر الكتيبات أهمية على الإطلاق، أكمله اثنان من الألمان المنفيين فى "باريس" فى أواخر **1847**. كان الكتيب يتنبأ بثورة وشيكة، وما كاد يجف حبر النسخ الأولى منه حتى انفجرت؛ وإن كان ذلك وحده لا يفسر ذلك التأثير البالغ للعمل الذى سرعان ما تمت ترجمته إلى كل اللغات الأوروبية. ما فتن القراء آنذاك، وما زال إلى اليوم، كان قدرته على أن يكشف عن نشوء المجتمع الصناعى الرأسمالى الجديد فى التاريخ الإنسانى. حاول أن يبين أنه كان مجتمعا انتقاليا مثل كل المجتمعات السابقة عليه وأن يفسر الصراعات الطبقية الواسعة التى تكتنفه حتى وإن لم يكن قد تم التخلص تماما من النظام الإقطاعى القديم.

كان مؤلفـــاه، "**فردريك أنجلــز- Frederick Angels**" و"**كارل مــــاركس- Karl Marx**"، يمتعان بقدرات هائلة، ولكنها لم تكن العبقرية الشخصية وحدها التى كانت تضمن أن يكون لهما مثل ذلك التأثير الكبير، مثلما لم تكن العبقرية الشخصية لـــ"**أفلاطون- Plato**"، أو "**أرسطو- Aristotle**"، أو "**كونفوشيوس- Confucius**" أو "**بـــودا- Buddha**"، أو "**شاول الطــرسوسى- Saul of Tarsus**" أو "**النبى محمد**"، أو "**فولتير- Voltaire**"، أو "**روسو- Rousseau**"، هى ما أكد مكانتهم فى التاريخ. كان "**أنجلز**" و"**ماركس**" يعيشان فى مكان وزمان اجتمعت فيهما كل تناقضات المرحلة، وكان متاحا لهما شىء لم يكن متاحا للآخرين: القدرة على فهم التراث الفكرى والتقدم العلمى، ما مكنهما من تفسير تلك التناقضات وليس اكتشافها فحسب.

كان كلاهما ينتمى لأسرة من الطبقة المتوسطة فى منطقة الراين البروسية. كان والد "**ماركس**" موظفا حكوميا غنيا، بروتستانتى الديانة، من سلالة وتنشئة يهودية. والد "**إنجلز**" كان أحد رجال الصناعة الناجحين، ولديه مصانع فى "الراين" و"مانشستر". فى "راين" ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، لم يكن مثل هذه الخلفيات الاجتماعية يؤدى بالضرورة إلى التطابق أو التماثل. كانت الرأسمالية هناك أكثر تقدما منها فى أى مكان آخر من ألمانيا، وكان الاحتلال الفرنسى، قبل سنوات قليلة، قد أزال بقايا المجتمع الإقطاعى، ولكنها كانت ما زالت سائدة فى النظام الملكى البروسى الذى كان يحكم المنطقة. حتى بين الطبقة المتوسطة، الأكثر قدما، كانت هناك رغبة فى "**إصلاحات**" يمكن أن تزيح هذا العبء عن كاهلهم، وكانت تلك الرغبة تترجم بين الجيل الأصغر سنا إلى روح راديكالية.

كانت ألمانيا، مثل معظم باقى أوروبا، قد مرت بفترة من الردة الفكرية فى العقود الأولى من القرن. "**هيجل– Hegel**"، أشهر فلاسفة الدولة، كان الآن يغلف إيمانه القديم بتقدم الروح الإنسانية عبر التاريخ، كان يغلفه بغطاء دينى غامض ويكيل التمجيد والإطراء للدولة البروسية (أو على الأقل لدستورها الطبقى، الصادر فى عشرينيات القرن التاسع عشر)؛ بيد أنه كانت هناك عودة لأفكار "**التنوير**"، وحتى لأفكار السنوات الأولى من "**الثورة الفرنسية**"، بين أبناء الجيل الذى التحق بالجامعات فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن. "**الهيجليون الشبان– Young Hegelians**" مثل "**برونو باور– Bruno Bauer**" قلبوا مفهوم "**هيجل**" أن كل شىء يتغير من خلال التناقض إلى نقد ليبرالى للمجتمع الألمانى القائم. "**ديفيد شتراوس– David Strauss**" وسع هجوم "**فولتير**" على "**العهد القديم– Old Testament**"، ليجعله محل شك. "**لودفيج فيورباخ– Ludwig Feuerbach**" اعتنق الفلسفة المادية التى كان "**د.هولباخ– d'Holbach**" و"**هلفيتيوس– Helvetius**" قد طرحاها قبل 80 سنة. "**كارل جرون– Karl Grun**" وجد تأييدا كبيرا لدعوته "الاشتراكية الصادقة" للمستنيرين من كل الطبقات للعمل معا من أجل مجتمع أفضل من الإقطاع والرأسمالية.

كان كل "**ماركس**" و"**إنجلز**" جــزءا لا يتجزأ من هذا الجيل، وهو يحاول أن يتوصل إلى تفاهم مع مجتمع محصور بين الماضى والحاضر. درسا "هيجل"، وتبنيا جدل "فيورباخ"، نقبا فى أفكار "**هلفيتوس**" و"**د.هولباخ**" وتابعا نقد "**شتراوس**" للدين؛ على أنهما فعلا ما هو أكثر من ذلك. واجها كذلك الرأسمالية الصناعية الجديدة التى كانت تقوم بإغاراتها الأولى المحدودة. كان والد "**إنجلز**" قد أرسله للمساعدة فى إدارة مصنعه فى "مانشستر"، وخبــر على نحو مباشر الصراع بين المستقبل المشرق الذى كانت تعد به الأفكار الليبرالية فى ألمانيا، والواقع المؤلم فى حياة العمال فى ثورة بريطانيا الصناعية – ووصف ذلك فى عمله بعنوان "**حالة الطبقة العاملة فى إنجلترا– The Condition of The Working Class in England**"؛ وكان قد التقى كذلك بعمال ممن كانوا يناضلون ضد ذلك الواقع. كان عندما وصل إلى "مانشستر" فى أعقاب إضراب 1842 العام، قد انضم إلى "**الحركة الميثاقية**"[١]، ما جعله على معرفة بالانتقادات "**الاشتراكية الطوباويــة– Utopian Socialist**" للرأسمالية، المتضمنة فى كتابات "**روبرت أون– Robert Owen**"، وبدراسة نقدية للاقتصاد السياسى، كانت مستخدمة لتبرير النظام القائم[٢].

بعــد حصوله علــى درجة الدكتــوراه فى "الفلسفــة الذريــة اليونانيــة– **Greek atomist philosophy**"، عمل "**ماركس**" محررا لصحيفة "راينش زيتونج– **Rheinische Zeitung**" الليبرالية، وكانت حديثة الظهور. آنذاك، كان "**ماركس**" فى الرابعة والعشرين من العمر. سرعان ما دخلت الصحيفة فى صدام مع الرقيب البروسى، فتم إيقافها بعد 6 أشهر، ليجد "**ماركس**" نفسه لأول مرة وجها لوجه مع "المسائل المادية"، كما شرح فيما بعد. كتب عن محاولات طبقة النبلاء اعتبار احتطاب الفلاحين فى الغابات "سرقة"، وبدأ يفكر فى معنى "**الملكية– property**" ومصدرها. تم إبعاده إلى "باريس" وهناك قرأ كتاب "**هيجل**": "**فلسفة الحق– Philosophy of Right**"، بدفاعه عن القمع الملكى باعتباره الوسيلة الوحيدة للم شمل مجتمع مفتت، ليصبح مقتنعا بأن دستورا ليبراليا، فحسب، لا يمكن أن يحقق الحرية الحقيقية للناس. بدأ "ماركس" دراسة جادة لعلماء الاقتصاد السياسى،

وبخاصة "سميث" و"ريكاردو"، ثم كتب ما خلصت إليه من طبيعة النظام الرأسمالى فى مخطوطة لم تنشر(٣).

الاغـــــتراب

لاحظ "ماركس" أن النظام الذى وصفه "سميث" و"ريكاردو" وأتباعهما كان يجعل حياة الناس تعتمد على عمليات "**السوق**"؛ ولكن السوق نفسها لم تكن سوى محصلة تفاعل منتجات عمل الناس؛ أى الناس بعبارة أخرى، أصبحوا سجناء نشاطهم السابق. كان "**فيورباخ**" قد وصف عبادة الناس لآلهة صنعوها بأيديهم، بأنها "**اغتراب– alienation**"، والآن كان "**ماركس**" يطبق المصطلح ذاته على "**السوق** الرأسمالية":

> **الشىء الذى تنتجه العمل، أى إنتاجه، يواجهه كقوة غريبة عنه، مستقلة عن المنتج. ناتج العمل هو عمل تجسد فى "شىء"... "تشييئ" العمل... (objectification of labour).. هذا التحول الذى يحدث للعمل يظهر فى الاقتصاد السياسى باعتباره فقدانا للواقع بالنسبة للعامل، "التشييئ" باعتباره فقدانا للشىء، أو العبودية له. كلما زاد إنتاج العامل، سيقل استهلاكه؛ وكلما زادت قيمة منتجاته، يصبح هو أقل قيمة وأقل شأنا... [النظام] يحل الآلة محل العمل البشرى، ولكنه يعيد قطاعا من العمال إلى شكل من العمل البربرى، ويحول القطاع الآخر إلى آلات... إنه ينتج ذكاء – ولكن غباء بالنسبة للعامل... صحيح أن العمل البشرى ينتج أشياء رائعة للأغنياء، ولكنه لا ينتج للعامل سوى الفقر. ينتج قصورا – ولكن زرائب للفقراء. ينتج جمالا، ولكن... قبحا وتشوها للعمال – العامل لا يشعر بنفسه إلا خارج العمل، وفى عمله يشعر أنه خارج نفسه. يشعر بأنه فى بيته أو وطنه عندما لا يعمل، وفى عمله لا يشعر بذلك(٤).**

كان الاستنتاج الذى توصل إليه "**ماركس**" أن العمال لن يستطيعوا التغلب على هذا الوضع اللا إنسانى، سوى بالسيطرة الجماعية على عملية الإنتاج، أى بـــ"**الشيوعية**". لم يكن التحرر الإنسانى يكمن فى مجرد "**ثورة سياسية**" تقضى على بقايا الإقطـــاع، كما كان يقول الديمقراطيون الليبراليون، وإنمـــا فى "**ثورة اجتماعية**"، تقيم مجتمعا "شيوعيا".

عمل "ماركس" و"إنجلز" معا لإعطاء "محتوى عملى" لأفكارهما الجديدة التى صاغاها، وذلك من خلال المشاركة فى تجمعات الاشتراكيين الألمان المبعدين فى "باريس" و"بروكسل"، وانتهى ذلك بانضمامهما إلى منظمة كانت تضم بعض الحرفيين المنفيين تحت اسم "**عصبة العادل– League of the Just**"(*)، التى تغير اسمها بعد وقت قصير إلى "**العصبة الشيوعية**"– وكلفتهما بكتابة "**البيان الشيوعى– The Communist Manifesto**" فى الوقت نفسه، كانا يقومان بتطوير أفكارهما. فى كتاب "**العائلة المقدسة– The Holy Family**"، وفى مخطوطة لم تنشر، هاجما "**الهيجليين اليساريين**"– ومعهم الفكرة الموروثة عن "التنوير"، وهى أن المجتمع يمكن تغييره، بمجرد، صراع العقل ضد الخرافة، واستخدما مادية "**فيورباخ**" لعمل ذلك، إلا أنهما مضيا إلى ما هو أبعد من ذلك. كان "فيورباخ" يرى فى الدين تعبيرا اغترابيا عن الإنسانية، ولكنه لم يسأل عن سبب ذلك الاغتراب. "**ماركس**" و"**إنجلز**" أرجعاه إلى الجهود المتوالة لأجيال من البشر فى سعيها لانتزاع مصدر عيش من الطبيعة، وكيف أدى ذلك إلى علاقات مختلفة بين الناس. كان "**ماركس**" و"**إنجلز**" مصرين على مادية "فيورباخ" كانت قد أهملت دور البشر فى تغيير العالم الخارجى مثلما يغيرهم. كانا يريان أن هذا التفاعل "الجدلى– **dialectical**" يسمح بتفسير مادى للتاريخ، ثم ربطا ذلك بنقدهما للاقتصاد السياسى لتقديم رؤية عامة للتاريخ والمجتمع فى "**البيان الشيوعى**".

(*) عصبة العادل: League of the Just يرى البعض، مثل المؤرخ الألمانى "دبليو. إس. هوبر" إن الجماعة المؤسسة لها كانت تطلق عليها عصبة العـــدل– League of Justice (أى Bundder Gerechtigkeit بالألمانية) وليس عصبة العادل (Bund der Gerechten)، ومن هنا كان شعارها "كل البشر إخوة". (المترجم)

لسنا فى معرض تفصيل هذه الرؤيا هنا – وخاصة أن هذا الكتاب محاولة لتفسير التاريخ على ذلك الأساس، بيد أن هناك بعض النقاط المهمة التى تحتاج إلى الفهم.

نظام العالم الجديد

كثيرا ما تقابل أفكار "**ماركس**" بالرفض لأنها كتبت قبل قرن ونصف القرن وعفا عليها الزمن، وخاصة من قبل أولئك الذين يستندون إلى قراءة تبسيطية لكتاب "**آدم سميث**": "**ثروة الأمم**" الذى صدر قبل أن يولد "**ماركس**" بأكثر من **40** عاما؛ إلا أن "**البيان الشيوعى**" الــذى كتب فى وقت كانت فيه الرأسماليــة الصناعية محصورة فى منطقة صغيرة من الحافة الغربية لأوراسيا، كان يطرح رؤية نبوئية لنظام رأسمالى يشمل العالم – أو ما يسمى اليوم بـــ"**العولمة– Globalisation**":

> **إن حاجة البرجوازية الدائمة لتوسيع سوق منتجاتها يجعلها تسعى دائما فى أرجاء الكرة الأرضية... لا بد من أن تعشش فى كل مكان.. وأن تستقر فى كل مكان... البرجوازية من خلال استغلالها للسوق العالمية تجعل للإنتاج والاستهلاك فى كل دولة طبيعة كوزموبوليتانية، ومن نكد الرجعيين أنها سحبت من تحت أقدام الصناعة الأرضية القومية التى تقف عليها... وبدلا من الانعزال المحلى والقومى القديم والاكتفاء الذاتى تقوم علاقات شاملة فى كل اتجاه ويكون اعتماد متبادل بين الدول.**
>
> **إن البرجوازية بتحسينها السريع لكل أدوات الإنتاج، وبواسطة وسائل الاتصال الكثيرة تجذب كل الدول... إلى الحضارة. الأسعار الرخيصة لسلعها هى المدفعية الثقيلة التى تدك بها كل الأسوار الصينية... إنها تضطر كل الدول، إن هى أرادت أن تنأى بنفسها عن الهلاك، إلى تبنى أسلوب الإنتاج البرجوازى... بكلمة واحدة... البرجوازية تخلق عالما على صورتها.**

وفى حال انتقاد مثل تلك الفقرات، فلن يكون ذلك لأنها قد عفا عليها الزمن، وإنما – بالأحرى– لأن العمليات التي وصفها "**ماركس**" كانت ما زالت فى حالة جنينية عندما كتب ذلك. عالم اليوم أكثر شبها بالصورة التى رسمها، من صورته فى **1847**.

تناول "**ماركس**" و"**إنجلز**" فكرة "**الاغتراب– alienation**" ليقدماها بلغة أكثر بساطة:

> **قوة العمل فى المجتمع البرجوازى، ما هى إلا وسيلة لزيادة العمل المتراكم... الماضى يحكم الحاضر... رأس المال مستقل وله ذاتيته، بينما الشخص الفاعل لا استقلالية له ولا ذاتية.**

وفى ذلك إدانة للمجتمع البرجوازى نفسه.

> **... فالمجتمع البرجوازى.... الذى استحضر بأسلوب أشبه السحر، مثل هذه الوسيلة الضخمة للإنتاج والتبادل، لم يعد يستطيع السيطرة على تلك القوة الجهنمية التى استحضرها من العالم السفلى... يكفى أن نتذكر الأزمات التجارية الكبرى التى تهدد وجود المجتمع البرجوازى برمته من حين لآخر... إنها تعود فى كل مرة على نحو أكثر خطرا... فى هذه الأزمات تنتشر وباء، كان يبدو ظهوره مستحيلا فى العصور السابقة... وباء فائض الإنتاج... يبدو الأمر وكأن هناك مجاعة... حرب إبادة شاملة قطعت كل سبل العيش.. ولماذا؟ لأن هناك فائض كبير فى وسائل العيش... صناعة أكثر من اللازم... تجارة أكثر من اللازم... ثم كيف تخرج البرجوازية من كل هذه الأزمات؟**
>
> **من ناحية، تخرج بتدمير كتلة من قوى الإنتاج، ومن ناحية أخرى بغزو أسواق جديدة والاستغلال الكامل للقديم منها... بعبارة أخرى... بتمهيد الطريق لأزمات أوسع وأكثر دمارا... مع نبذ وسائل تداركها.**

كان لدى "**ماركس**" و"**إنجلز**" المجال لتقديم فكرة عامة خاطفة، فحسب، عن أزمة الرأسمالية ومصيرها على المدى البعيد، فى "المانيفستو" **(البيان الشيوعى)**. كان معظم الفترة المتبقية من حياة "**ماركس**" مكرسا لشرح وتفصيل كيف أن منطق الرأسمالية، منطق عالم يقوم على مراكمة وتدوير عمل "**اغترابى**" يستنفد نفسه بنفسه(٥). كان "**ماركس**" يفعل ذلك من خلال قراءة دقيقة لنصوص الاقتصاد السياسى البرجوازى، ودراسة تجريبية واسعة للرأسمالية الصناعية الأولى فى العالم، رأسمالية بريطانيا.

لفت "**ماركس**" و"**إنجلز**" الانتباه إلى تناقض مهم بين الرأسمالية والأنماط السابقة من المجتمع الطبقى. كانت الطبقات الحاكمة السابقى تسعى لتقوية **النزعة المحافظة**– **conservatism**– لتقوية قبضتها، إلا أنه رغم كل محاولات الكثير من الرأسماليين اللجوء إلى ذلك كخيار سياسى وأيديولوچى، كان الثرى الاقتصادى لمجتمعاتهم يعترض طريقهم.

> **لا تستطيع البرجوازية البقاء دون القيام بتحديث جذرى لأدوات الإنتاج، ومن ثم لعلاقات الإنتاج ومعها بالتبعية كل العلاقات فى المجتمع... التثوير المستمر للإنتاج، الاضطراب المستمر فى كل الظروف الاجتماعية، الشعور الدائم باللايقين، القلق... ذلك كله من سمات الحقبة البرجوازية التى تميزها عن الحقب السابقة. كل شىء ثابت، علاقات سريعة التجمد، بكل ما يتبعها أهواء وآراء قديمة مهيبة، كل ذلك يتم إزاحته... كل الأشكال الجديدة يصيبها القدم قبل أن تتشكل... كل ما هو جامد يذوب ويتحول إلى هواء.. كل ما هو مقدس يدنس، ويضطر البشر(٦) فى آخر الأمر إلى أن يواجهوا، بحواس يقظة ظروف حياتهم الواقعية، وعلاقاتهم بأقرانهم.**

العمال والنظام الجديد

أكد "**المانيفستو**" **(البيان الشيوعى)** أمرا آخر بخصوص الرأسمالية، والطبقة العاملة الناشئة عنها:

بقدر ما تنمو البرجوازية، أى رأس المال، تنمو البروليتاريا، أى طبقة العمال الحديثة، الذين يعيشون فحسب ما داموا يجدون عملا، ويجدون عملا فحسب، ما دام عملهم يؤدى إلى نمو رأس المال. أولئك العمال المكرهون على بيع أنفسهم (قوة عملهم) قطعة قطعة، هم أنفسهم سلعة مثل أى سلعة تجارية أخرى... وهم عرضة دائما لكل صروف المنافسة وتقلبات السوق.

نتيجة لنمو الرأسمالية نفسها، تتكتل الطبقة العاملة لتصبح قوة تستطيع أن تخوض صراعا ضدها.

مع تقدم الصناعة، فإن "البروليتاريا" لا تزيد من حيث الكم فحسب، إنها تحتشد فى تكتلات أكبر، قوتها تنمو، كما ينمو كذلك وعيها بهذه القوة. تصبح مصالح وظروف البروليتاريا المعيشية أكثر تماثلا باستمرار، وبقدر ما تمحو الآلات الفوارق فى العمل. فى كل موقع تقريبا تنخفض الأجور إلى المستوى الأدنى ذاته... الأزمات التجارية لا تجعل الأجور تستقر على حال، تطور الآلات المضطرد والتحسن الذى يطرأ عليها، يجعل ظروفهم المعيشية أكثر اضطرابا.

من قلب هذه الأوضاع، تولد "تآلفات" – اتحادات عمالية – تبدأ فى تنظيم العمال ليصبحوا طبقة، حتى وإن:

تعرض ذلك باستمرار لقلاقل بسبب المنافسة بين العمال أنفسهم [...]، الشرط الأساسى لوجود الطبقة البرجوازية ولسيطرتها، هو تكوين وتعظيم رأس المال؛ شرط رأس المال هو العمل المأجور. تقدم الصناعة، الذى تمثل الطبقة البرجوازية دعامته الأساسية يجعل الائتلاف الثورى الناجم عن وحدة العمال، يحل محل تشرذمهم الناجم عن المنافسة بينهم؛ ومن هنا فإن تقدم الصناعة الحديثة يزيح من تحت أقدام البرجوازية الأساس الذى تعتمد عليه

فى الإنتاج والتملك. ما تفعله البرجوازية إذن هو أنها تنتج بيدها حفارى قبورها.

هذه المقاطع وغيرها من "**البيان الشيوعى**"، ومثل غيرها عن تطور الصناعة الكبير، كانت بمثابة إسقاط على توجهات التطور المستقبلية، أكثر منها وصفا دقيقا لأوروبا- ناهيك عن إفريقيا وآسيا والأمريكتين- فى **1847**، يعتمد على التجربة. فى فرنسا وألمانيا، كانت الطبقة العاملة الصناعية ما زالت تمثل نسبة صغيرة من عدد السكان، لم تكن تلك "الأكثرية الكبيرة التى تعمل لصالح الأكثرية الكبيرة" (كما يأتى وصفها فى موضع آخر)؛ وحتى فى ألمانيا فى **1870**، لم يكن عدد عمال المصانع يزيد عن **10%** تقريبا من قوة العمل كلها؛ وبالرغم من أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير فى بريطانيا فى **1848**، كانت هناك أعداد كبيرة تعمل بالزراعة أو فى الورش الصغيرة، أو خدما. ما كان "**ماركس**" و"**إنجلز**" يريانه بوضوح، هو أن هذه الطبقة سوف تنمو مع اتساع سيطرة رأس المال على الكرة الأرضية.

هذه الصورة تواجه انتقادات أحيانا لأنها كان تفترض أن النمو سيكون فى "**البروليتاريا**" النمطية فى الصناعات الكبيرة، وسوف أعود إلى هذه النقطة لاحقا، عند تناول تاريخ الربع الأخير من القرن العشرين، أما هنا فينبغى أن نقول إنه برغم احتمال أن يكون افتراضهم يعتمد على تجربة "**إنجلز**" فى "مانشستر" ومع "**الحركة الميثاقية**"، فإنه ليس ضمن منطقهم فى الجدال. إن نمو العمل المأجور بدلا من الإنتاج الزراعى أو الحرفى، لا يتطلب فى حد ذاته نمو شكل معين من العمل المأجور. كل ما ينطوى عليه ذلك بداهة، هو أن نسبة أكبر دائما من قوة العمل الاجتماعية سوف تعتمد فى معيشتها على بيع طاقتها على العمل (سيطلق عليها "**ماركس**" فيما بعد: "**قوة العمل- labour power**")؛ كما أن ظروف العمل والأجور سوف يحددها، من جانب، الدافع التنافسى لرأس المال، ومن جانب آخر، المدى الذى يمكن أن يصلوا إليه فى صراعهم ضد رأس المال؛ بالإضافة إلى أن لا فرق ما إذا كانوا يعملون فى مصانع أو مكاتب أو مراكز اتصال، وما إذا كانوا يرتدون

"الأفرول" أو الملابس الفاخرة أو "الجينز". إذا نظرنا إلى منطق "**ماركس**" و"**إنجلز**" من هذه الزاوية، فى جدالهما، وفى وقت كان يقال فيه للعمال على اختلاف فئاتهم، أن حياتهم المعيشية كانت متوقفة على نجاح الشركات أو الدول فى ساحة "منافسة عالمية"، إذا نظرنا إلى منطقهما فى هذا الضوء، يصبح من الصعب تخطئته أو الانتقاص منه.

فى نهاية "**المانيفستو**" (**البيان الشيوعى**) أقر "**ماركس**" و"**إنجلز**" – وإن جزئيا – بطبيعة الرأسمالية التى لم تكن قد تطورت على المستوى العالمى، فكتبا: "يوجه الشيوعيون اهتمامهم بشكل رئيسى إلى ألمانيا، لأن هذا البلد على أعتاب ثورة برجوازية"، مضيفين أن ذلك التحول "من المؤكد أنه" سيكون فى ظل ظروف للحضارة الأوروبية أكثر تقدما، ومع بروليتاريا أكثر تقدما بمراحل منها فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، وفرنسا فى القرن الثامن عشر"، وأن الثورة البرجوازية الألمانية ستكون "استهلالا لثورة بروليتارية تالية، مباشرة".

الهوامش

(١) بحسب ما جاء في:

G.Mayer, "Frederick Engels", (London, 1936) p.44.

(٢) للاطلاع على مدى اهتمام "إنجلز" وإعجابه بـ"أون" انظر:

G.Mayer, "Frederick Engels", p.45.

وللاطلاع على رأيه في تأثير الاقتصاد السياسي انظر:

"The Condition of the English Working Class" translated in K.Marx and F.Engels: "Collected Works", vol.4, (London, 1975), p.527.

وللاطلاع على أول انتقاد له بعد عام من وصوله إلى مانشستر، انظر:

Outlines of a Critique of Political Economy,

وذلك في:

K. Marks and F.Engels "Collected Works", vol.3, (London, 1975), p.418.

(٣) صدرت مؤخرا في طبعات متعددة تحت عناوين مختلفة مثل: "Paris Manuscripts" و"1844 Manuscripts" وأحيانا "The Early Writings".

(٤) جميع الاقتباسات عن:

K.Marx, 1844 Manuscripts in K.Marx and F.Engels:, Collected Works, vol.3.

(٥) هذا ما يفعله ماركس في الأجزاء الثلاثة من "رأس المال"، للمزيد عن أفكاره يمكن الرجوع إلى كتابي: (The Economics of the Madhouse" (London, 1955.

والفصل الأول من كتاب آخر لي بعنوان: "Explaining the Crisis", (London, 1999) وكتاب Callinicoss:

"The Revolutionary Ideas of Karl Marx", (London, 1999).

(٦) معظم الترجمات الإنجليزية تستخدم هنا كلمة "Man" وتتبعها بالضمير "he"، بينما يستخدم "ماركس" الكلمة الألمانية "Menschen" (وتعني humans أي البشر)، وليس "Mann".

-٧-

1848

أمضيت فترة ما بعد الظهيرة كلها فى التجوال فى باريس لأفاجأ بأمرين: أولا، الطبيعة الشعبية الشاملة والفريدة للثورة التى اندلعت مؤخرا وما أعطته من قدرة للناس العاديين - أو بعبارة أخرى، الطبقات التى تعمل بأيديها - على كل الطبقات الأخرى؛ وثانيا ذلك القدر الضئيل من الكره الذى أبداه منذ اللحظات الأولى للانتصار، أولئك الناس المتواضعون، الذين أصبحوا فجأة الأعوان الوحيدون للسلطة...

على مدى اليوم كله فى "باريس"، لم أر أحدا من عملاء السلطة السابقة، لم أر جنديا أو شرطيا واحدا، حتى "الحرس الوطنى" كان قد اختفى. الناس، فحسب، هم من كانوا يحملون السلاح، ويحرسون المنشآت العامة... ويراقبون.. ويأمرون، ويعاقبون؛ كان أمرا غير عادى، ومرعبا، أن ترى المدينة الضخمة بكاملها فى أيدى أولئك الذين لا يملكون شيئا[١].

كان ذلك ما كتبه المؤرخ "**أليكسس دى توكفى- Alexis de Tocqueville**" عن **25** فبراير **1848**. كان الملك الفرنسى "**لويس فيليپ- Louis Philippe**" قد تنازل لتوه عن العرش وولى هاربا من البلاد، وكانت مسيرة احتجاجية لطلاب جمهوريين وقطاعات من الطبقة المتوسطة قد اصطدمت بقوات الشرطة أمام وزارة الخارجية، مثيرة انتفاضة شعبية تلقائية، فى أفقر أحياء "پاريس" الشرقية، التى كانت مركز اضطرابات وتحريض الـ"**سان كيلوت**" فى الثورة التى كانت قد اندلعت قبل نصف قرن. اندفعت الجماهير التى كانت تهتف "**يحيا الإصلاح-**

Vive la réforme" من بين صفوف القوات واحتشدت داخل المبانى والقاعات. شكل سياسو المعارضة معا حكومة برئاسة "**لامارتين– Lamartine**"، ولكى يضمنوا تأييد الجماهيـــر، ضـــموا إليها أحد المصلحيـــن الاشتراكييـــن، "**لويس بلانـــك– Louis Blanc**"، ولأول مرة فى التاريخ عاملا يدويا، "**ألبرت– Albert**".

كانت الثورة فى فرنسا قنبلة تحت كل عرش فى أوروبا. كانت قد اندلعت حرب أهلية قصيرة فى "سويسرا" فى ديسمبر السابق، وانتفاضة فى "صقلية" فى يناير، والآن كانت الانتفاضات تتوالى فى "ڤيينا" و"ميلانو" و"ڤينيسيا" و"براغ" و"برلين"، وفى كل المدن الصناعية وعواصم الولايات فى كل معتمدية ألمانية تقريبا. فى كل مدينة، كانت الاحتجاجات بقيادة الطبقات المتوسطة الليبرالية تنتهى بحشود تتغلب على هجمات الجيش والشرطة، وتستولى على القصور والمبانى الحكومية؛ والآن كان السياسيون الرجعيون، مثل "**مترنخ– Metternich**"، مهندس "**الثورة المضادة**" فى **1814** و**1815**، كانو يفرون للنجاة بحياتهم. بقى الملوك والأرستقراط متوارين فى الخلفية، ولكنهم كانوا يحافظون على أوضاعهم بالتظاهر بالموافقة على دساتير ليبرالية. كان يبدو أن النزعة الاستبدادية قد انتهت فى كل مكان، وأن إصلاحات ديمقراطية ثورية قد تحققت – حق الاقتراع العام للذكور– حريـــة الصحافـــة، حق المحاكمة أمـــام القضـــاء، انتهاء المزايا الأرستقراطيـــة والمدفوعات الإقطاعية.

كان يبدو ذلك، ولكن الواقع لم يكن كذلك. بحلول الصيف كان الملوك والأرستقراط قد بدأوا يستعيدون الثقة بأنفسهم. بدأوا الهجوم بدلا من الانحناء أمام الحركات الديمقراطية، وفى أواخر الخريف، سحقوا الحركة فى مراكز رئيسية مثل "برلين" و"ڤيينا" و"ميلانو"، وبحلول صيف **1849**، كانت "**الثورة المضادة**" قد انتصرت مرة أخرى فى القارة كلها.

كانت ثورات يناير وفبراير قد انتصرت لأن الانتفاضات التى تضم صغار التجار، والحرفيين، والعمال كانت قد تغلبت على قوات الجيش والشرطة التى تضم

الموالين للعرش والطبقة الأرستقراطية، ولكن الحكومات والبرلمانات التى جاؤوا بها كانت مكونة فى الغالب من قطاعات من الطبقة المتوسطة أصحاب الأملاك؛ ولذلك كان البرلمان المنتخب لكل ألمانيا (بما فى ذلك النمسا الناطقة بالألمانية)، والذى اجتمع فى "فرانكفورت" فى مايو، كان يضم ما لا يقل عن **436** من مستخدمى الدولة (بقيادة موظفين إداريين وقضائيين) و**100** رجل أعمال وإقطاعى، و**100** محام، و**50** من رجال الدين[٢]. لم يكن مثل أولئك الناس على استعداد للمخاطرة بحياتهم، أو حتى بأعمالهم، والقيام بأى فعل ثورى ضد السلطات القديمة؛ والأكثر من ذلك أنهم كانوا يعتبرون الجماهير التى جاءت بهم إلى السلطة "غوغاء خارجين على القانون"، لا يختلفون فى بشاعتهم عن الطبقة الحاكمة القديمة.

كان الخوف نفسه ينتاب الحكومات والبرلمانات الجديدة، مثلما كان قد قيد "**المشيخيين**– **Presbyterians**"– فى "**الثورة الإنجليزية**"، و"**معتدلى**– **Moderates**"– نيويورك وبنسلفانيا فى "**الثورة الأمريكية**" و"**الجيروند**" فى "**الثورة الفرنسية**". هنا كان تأثيره أوسع مدى وأكثر عمقا. لم تبرز قوة ثورية من الطبقة الوسطى لتفرض إرادتها على الباقين، يمكن أن تقارن بقوة "**المستقلين**" أو "**اليعاقبة**" كما حدث من قبل. نمو الجزر (التجمعات) الصناعية عبر أوروبا الغربية، كان يعنى أن الطبقة الرأسمالية كانت أكبر وأقوى فى **1848**، مما كانت عليه فى زمن "**الثورة الفرنسية**". جنبا إلى جنب هذه الطبقة الرأسمالية، كانت تتنامى طبقة متوسطة من المثقفين، وأساتذة الجامعات، والمعلمين، وموظفى الخدمة المدنية، الذين كانوا يعتبرون إنجلترا نموذجهم الاقتصادى، والدولة القومية الموحدة التى أقامتها "**الثورة الفرنسية**"، نموذجهم السياسى؛ وفى "هنغاريا" و"بولندا"، كان هناك قطاعات، حتى، من طبقة النبلاء تدعو للاستقلال الوطنى عن النمسا وروسيا.

ولكن الوجه الآخر لنمو طبقة متوسطة ذات توجه دستورى، أو حتى جمهورى، كان نمو الطبقة العاملة. كان معظم الإنتاج ما زال مركزا فى ورش صغيرة حيث كان الحرفيون يستخدمون عددا قليلا من العمالة المؤقتة، أو فى بيوت الغزالين والنساجين الذين يعملون لحساب أحد تجار التوزيع، إلا أن الظروف كانت كلها عرضة لتأثير السوق الرأسمالية، ففى "باريس" مثلا:

"فى أقسام مهمة من الصناعات الحرفية، كانت السيطرة الفعلية على الإنتاج تنتقل إلى تجار، يقومون بتنظيم المبيعات ويتحكمون فى الائتمانات. العاملون فى تلك الصناعات الصغيرة، أو حتى كبار الحرفيين والصناع الذين كانوا يستخدمونهم، بالإضافة إلى عمال المصانع، كانوا يصبحون أكثر وعيا بوجود قوى خارجية تتحكم فى حياتهم، كلهم يسعى لكى يجعلهم أكثر كفاءة بأى ثمن. تلك القوى كانت، بعامة، متطابقة مع "الرأسمالية" أو "الإقطاع المالى"[٣].

فى "برلين"، و"فيينا" ومدن "الراين" الصناعية، كانت نفس الظروف تقريبا. زادت الأحوال سوءا، واتسع نطاق المعاناة بعد **1845**، وتجمعت المصائب حيث واكب فشل المحاصيل تقلبات فى اقتصاد السوق، ما أدى إلى أزمة اقتصادية كبرى امتدت من أيرلندا غربا - حيث كان ميلون من البشر يتضورون جوعا بسبب تصدير القمح لدفع الإيجارات- إلى بروسيا شرقا. أشعل الجوع وارتفاع الأسعار والبطالة موجة السخط التى تفجرت فى ثورة فى فبراير ومارس **1848**. انضم الحرفيون والعمال إلى الثورة ليغيروا طبيعة احتجاجات الشارع التى نظمها الدستوريون والجمهوريون من أبناء الطبقة المتوسطة؛ وفى مناطق مثل "بلاك فورست- **Black Forest**" (الغابة السوداء)، ثار الناس احتجاجا على الاستحقاقات الإقطاعية وضد الملاك الأرستقراط، كما لم يحدث منذ "**حرب الفلاحين- Peasant War**"، فى **1525**.

أحدث حجم السخط والنقمة حالة من الرعب بين صفوف الرأسماليين كبارا وصغارا، حيث لم تكن الدساتير الديمقراطية أو المزايا الإقطاعية هى كل ما يشغل العمال والفلاحين فحسب، وإنما كانوا يطالبون بمستويات معيشية وظروف حياة تتحدى الأرباح والملكية الرأسمالية. الليبراليون من ذوى الأملاك سوف يتحدون مع خصومهم التقليديين، والأرستقراط من ذوى الأملاك والموالون للنظام الملكى سوف يتحدون ضدهم.

كانت هناك بالفعل دلائل على ذلك فى ألمانيا والنمسا قبل أن يجف الدم الذى أريق فى صراع مارس. قصرت الحكومات الجديدة عضوية "**الحرس الوطنى**"

على أبناء الطبقة المتوسطة، لم تمس فئة الضباط فى الجيوش القديمة، تفاهمت مع بيروقراطية الدولة الملكية القديمة، وأمرت الفلاحين بالتوقف عن تمردهم على الاستحقاقات الإقطاعية. أمضى البرلما البروسى فى "برلين" وقته فى وضع اتفاق دستورى مع الملك البروسى؛ ولم يفعل البرلمان، الذى يفترض أنه كان برلمان كل ألمانيا، شيئا أكثر من النقاش حول نظمه وإجراءاته. كلا البرلمانيين لم يفعل شيئا تتجمع حوله طموحات الناس الثورية، أو لإيقاف رد فعل الأرستقراطية، الذى بدأ بإعادة تجميع قواتها وتسليحها.

معركـــة يـولـــيو

كانت "باريس" هى المكان الذى شهد نقطة التحول الحاسمة فى مجرى الأحداث. كان العمال والحرفيون الذين قاموا بالدور الحاسم فى الإطاحة بالنظام القديم فى شهر فبراير، لديهم الكثير من الشكاوى والمظالم التى تتجاوز برنامج الحكومة الليبرالى- الديمقراطى. كانوا، على وجه الخصوص، يريدون عملا بأجر يكفى للعيش.

لم يكونوا مجرد أعداد جماهيرية بلا قوام، فمنذ **1830**، وعلى مدى السنوات التالية، كانت النوادى التى تعهدت الإصلاح الاجتماعى (تحت قيادة شخصيات مثل "**لويس بلانك**")، والجمعيات السرية التى كانت تجمع بين المطالب الاجتماعية ونزعة ثورية يعقوبية (تحت قيادة شخصيات مثل "**أوجست بلانكى- August Blanqui**")، كانت قد اكتسبت أنصارا ومؤيدين. كانت الأفكار تناقش فى المقاهى وأماكن العمل. "كانت الصحف الجمهورية والاشتراكية التى تؤكد الحاجة لحكومة تمثيلية، باعتبارها السبيل لإنهاء الفقر وعدم الشعور بالأمان، كانت تلك الصحف تجد إقبالا متزايد، بينما كانت السنوات الأولى من أربعينيات القرن التاسع عشر تفسح المجال لأزمة هائلة"(٤).

لم تكن الحكومة التى تم تشكيلها فى خضم التظاهرات المسلحة فى **24** و**25** فبراير، لتستطيع بأى حال من أن تتجاهل مطالب الجماهير. وجدت نفسها "تحت

ضغط من الناس وأمام أعينهم" في مواجهة "مواكب ووفود، ومظاهرات"[٥] مستمرة؛ وعليه قررت تخفيض يوم العمل بمقدار ساعة ونصف الساعة ووعدت بتشغيل كل المواطنين. أنشأت "**ورش قومية**" لتوفير عمل للعاطلين، وشكل "**لويس بلانك**" بحكم موقعه وزيرا للعمل "لجنة عمالة" في قصر لكسمبورج، حيث أصبح ما بين **600** و**800** عضوا- من ممثلي أصحاب الأعمال وممثلي العمال وممثلي مختلف المدارس الاقتصادية" بمثابة "برلمان فعلي"[٦].

في أول الأمر لم تجرؤ الطبقات المالكة على الاعتراض على ذلك، ولكن اللهجة تغيرت بمجرد زوال آثار الصدمة المفاجئة لأحداث **24** و**25** فبراير. شرع رجال المال والصناعة والتجارة تحريض الرأى العام بين الطبقة المتوسطة ضد "الجمهورية الاجتماعية"، كما كانوا يعزون الأزمة الاقتصادية المتفاقمة للتنازلات التي تمت للعمال و"**الورش القومية**" (رغم أنها لم تكن أفضل كثيرا من الورش الإنجليزية).

الجمهوريون من الطبقة البرجوازية في الحكومة كانوا متفقين في هذا الرأى، وسارعوا لاسترضاء رجال المال بالاعتراف بديون النظام القديم، كما فرضوا ضريبة على الفلاحين في محاولة لضبط الموازنة. كانوا يتخذون كل ما يلزم من إجراءات لضمان أن تكون غالبية "**الحرس الوطني**" من ابناء الطبقات المتوسطة، وقاموا بتجنيد آلاف الشباب العاطلين في قوة مسلحة "**حرس متحرك- Gardes mobile**" (**درك**)، تحت سيطرتهم. كما دعوا لانتخاب "**جمعية تأسيسية- Constituent Assembly**"- لوضع دستور جديد، في آخر أبريل. كان ذلك لا يعطي وقتا للحرفيين والعمال في "باريس" لنشر رسالتهم خارج العاصمة، كما كان يؤكد أن الحملة الانتخابية بين الفلاحين ستكون تحت سيطرة ملاك الأراضي والمحامين والكهنة الذين كانوا يعتبرون **باريس** "**الحمراء**" هي المسئولة عن الضرائب الجديدة. كانت الهيمنة في الجمعية الجديدة لمؤيدين متنكرين للأسر الملكية المنافسة[٧]؛ وعلى الفور، صرفت الوزيرين الاشتراكيين من الخدمة.

ثم أعلنت الحكومة في **21** يونيو إغلاق "الورش القومية"، وخيرت العاطلين بين تشتيتهم في الأقاليم أو الالتحاق بالجيش.

كل المكاسب التى حصل عليها العمال والصناع فى فبراير، تم انتزاعها منهم، ولم يكن أمامهم سوى حمل السلاح مرة أخرى؛ وفى اليوم التالى أزالوا المتاريس فى شرق باريس، محاولين بكل إصرار التقدم نحو قلب العاصمة. تصدت لهم الحكومة الجمهورية بكل ما لديها من قوة عسكرية باطشة- نحو **30000** جنديا، وما بين **80000:60000** من أفراد "**الحرس الوطنى**" ونحو **25000** آخرين من الــدرك (**الحرس المتحــرك**)(٨). كانت كل تلك القــوات تحت قيادة الجنــرال "**كافايجناك**- **Cavaignac**". اشتعلت الحرب الأهلية فى أرجاء المدينة لمدة أربعة أيام، مع تحريض وتأليب الأحياء الغربية الغنية من المدينة ضد المناطق الشرقية الأكثر فقرا.

كان الجانب المؤيد لــ"الحكومة الجمهورية" يضم الملكيون من الأسرتين، ملاك الأراضى، التجار، أصحاب المصارف، المحامين، والطلاب الجمهوريين من أبناء الطبقة المتوسطة(٩).

وعلى الجانب الآخر كان هناك نحو **40000** من المتمردين "الذين يعملون بالحرف والصناعات الصغيرة فى المدينة – البناء، الأشغال المعدنية، الملابس، الأحذية، الأثاث، بجانب عمال من المصانع الحديثة مثل هندسة السكة الحديد والورش الجديدة، وعدد كبير من العمالة غير الماهرة، وعدد لا يستهان به من رجال الأعمال الصغار"(١٠). فى كل مركز من مراكز المقاومة، كانت الأغلبية من أبناء حرفة بعينها، سائقو عربات النقل فى مكان، عمال أحواض السفن فى مكان آخر، عمال النجارة فى مكان ثالث. لم يكن الرجال وحدهم هم الذين يقاتلون، كما أشار "**فردريك إنجلز**". كان من بين سبعة مدافعين بالقرب من متراس "شارع دى كليرى- **Rue de Clery**" فتاتان جميلتان من فقيرات "باريس"، قتلت رصاصة إحداهما بينما كانت تتقدم منفردة نحو "**الحرس الوطنى**" حاملة "الراية الحمراء"(١١).

تــم سحق الانتفاضـــة بأكثر الأساليب دموية. كتب الفنــان "**ميسونييه**- **Meissonier**" يقول:

عندما تم الاستيلاء على متراس شارع "دى لامارتيلير- Rue de la Martellerie"، أدركت كل أهوال مثل تلك الحرب- رأيت مدافعين يقتلون بالرصاص ويلقى بجثثهم من النوافذ... رأيت الأرض مغطاة بالجثث، ... غارقة فى الدماء(١٢).

عدد القتلى غير معروف، ولكن تم إلقاء القبض على **12000** شخص، كما تم ترحيل الآلاف إلى "غيانا الفرنسية".

عودة النظام القديم

شجعت هزيمة عمال "باريس" خصوم الثورة في كل مكان. قال "اليونكر- **Junker**" (النبيل) الألماني "**بسمارك- Bismarck**" أمام "**الجمعية الوطنية البروسية- Prussian National Assembly**": إنها كانت "واحدة من أسعد أحداث أوروبا كلها"(١٣)، وفى الممالك والمعتمديات الألمانية بدأت السلطات فى حل الأندية اليسارية والجمهورية واضطهاد الصحف وإلقاء القبض على المحرضين. فى إيطاليا أنزل النمساويون هزيمة كبيرة بجيش "بيدمونت- **Piedmont army**"، واستعادوا السيطرة على "ميلانو"، بينما أقام ملك "نابولى" حكما عسكريا. فرض الجنرال النمساوى "**فندشجرايتس- Windischgraetz**" حالة حصار فى "براغ" بعد قتال امتد خمسة أيام مع الطلبة والعمال من أبناء الطبقة المتوسطة التشيكية. احتل "فيينا" فى وجه مقاومة شعبية عنيفة فى أواخر أكتوبر، سقط فيها **2000** قتيلا، ثم انتقل للهجوم على "هنغاريا". بعد أسبوع، قام الملك البروسى بحل "**الجمعية التأسيسية- The Constituent Assembly**" فى "برلين". استجابت الأغلبية فى برلمان "فرانكفورت" لتلك الإجراءات المضادة للثورة بشكل مكشوف، بأن عرضت عليه إعلانه إمبراطورا على ألمانيا فى مارس- وهو العرض الذى رفضه قبل أن يرسل جيشه إلى جنوب المانيا لسحق تحركات ثورية أخرى.

فى أوائل **1849**، كانت آمال ربيع **1848** الكبرى قد تحولت إلى حالة من اليأس، إلا أن الثورة لم تكن قد ماتت بعد. كانت الاتحادات الديمقراطية وأندية

العمال ما زالت تحتفظ بأعداد كبيرة من الأعضاء النشطاء، أكثر من المنظمات المحافظة والمعتدلة؛ وشهد الربيع انتفاضات ناجحة في مناطق من "الراين" و"بلاتينيت" و"درسدن" و"بادن" و"فورتمبرج"، حيث كان الحكام يفرون، كما حدث في مارس السابق،ة بيد أنه كان هناك الكثيرون الذين كانوا ما زالوا ينتظرون أن يتقدم برلمان "فرانكفورت" الصفوف، ولكنه لم يكن مهيأ لذلك. لجأ الجيش الثوري الذي تشكل في الجنوب (كان "**فردريك إنجلز**" أحد مستشاريه) إلى الدفاع، وبعد هزيمته اضطر أمام تقدم الجيش البروسي إلى الفرار إلى سويسرا عبر الحدود؛ أما "الهنغاريون" بقيادة "**كوسوث– Kossuth**"، فلقوا هزيمة كبيرة في آخر الأمر، عندما تلقى الإمبراطور النمساوي مساعدة عسكرية من القيصر الروسي. احتل ملك نابولي صقلية في مايو، واضطر القوميون الثوريون الذين كانوا قد سيطروا على "روما" وطردوا "البابا" إلى التخلي عن المدينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر، من قبل القوات المسلحة للجمهورية الفرنسية.

وفي فرنسا، حيث كانت قد بدأت العملية الثورية كلها، وجد جمهوريو الطبقة المتوسطة، أنه لم يعد هناك من يحميهم ضد تقدم الملكيين، بعد هزيمة العمال؛ إلا أن الملكيين كانوا منقسمين بين ورثة "**البوربون– Bourbons**"، وورثة "**لويس فيليب– Louis Philippe**" وغير قادرين على الاتفاق على ملك يفرضونه على العرش. هذه الثغرة، استغلها "**لويس بونابارت– Louis Bonaparte**" (ابن أحد أخوة "**نابوليون**") ليتقدم، ويفوز بالرئاسة في أواخر **1848** بـــ**5.5** مليون صوتا– مقابل **400,000** للزعيم الجمهوري "**ليدرو رولا– Ledru Rollin**"، ابن الطبقة المتوسطة، و**40,000** للزعيـــم الثوري اليساري "**راسبيل– Raspail**"؛ وفـــي **1851** عندما استشعر أنه يمكن أن يخسر الانتخابات القادمة، قام بانقلاب، وفي العام التالي أعلن نفسه إمبراطورا.

في آخر العام، كان "**كارل ماركس**" قد توصل إلى أن:

> **التاريخ.... تـــاريخ كل البرجوازية الألمانيـــة، من مـــارس إلى ديسمبر... يبين بوضـــوح.... أن الثورة البرجوازية المحضة...**

مستحيلة فى ألمانيا... الممكــن، إما الثـورة المضادة الإقطاعية الاستبدادية، أو الثورة الجمهورية الاجتماعية[١٤].

برجوازية الباب الخلفى

لم تترك الثورات أوروبا دون تغيير، ففى ألمانيا والنمسا وضعت نهاية للمدفوعات الإقطاعية والقنانة، رغم أن ذلك تم على نحو حول طبقة "اليونكر" (النبلاء ملاك الأراضى) إلى طبقة رأسمالية زراعية، ولم يعد على الفلاحين بشيء يذكر. منح ملوك الولايات الألمانية شعوبهم دساتير، احتفظوا لأنفسهم فيها بسلطة تعيين الحكومات، ولكنها أتاحت فرصة التمثيل البرلمانى للطبقات الميسورة، وللعمال والفلاحين وإن بشكل محدود. كانت الأرض قد أصبحت ممهدة أمام تقدم رأسمالى، حتى وإن كان تقدما رأسماليا، تحت أنظمة ملكية كانت تمنع البرجوازية نفسها من ممارسة سيطرة مباشرة على الولاية.

بدأت ألمانيا ثورتها الصناعية الخاصة. نمت الصناعة بمعدل **4.8%** سنويا تقريبا، والسكة الحديد بنسبة **14%**. بلغ حجم الاستثمار فى الثلاثين سنة بعد **1850** أربعة أمثاله قبل ثلاثين سنة. إنتاج الفحم تضاعف أربع مرات فى بروسيا فى **25** سنة، إنتاج الحديد الخام تضاعف **14** مرة، وزاد إنتاج الصلب **54** ضعفا. زاد عدد الآلات التى تعمل بالبخار بنسبة **1,800%**. كان يعمل لدى "**ألفرد– كروب– Alfred Krupp**" فى **1836**، ما لا يزيد عن **60** عاملا، وفى **1873** كان العدد قد وصل إلى **16,000**؛ وبالرغم من أن التصنيع بدأ فى ألمانيا بعد **60** سنة من بريطانيا، سرعان ما لحقت بها[١٥]. كانت مناجم الفحم فى "الرور– **The Ruhr**" أكبر منها فى جنوب "ويلز"؛ كما طورت الصناعات الكيماوية فى ألمانيا الأصباغ المركبة حيث سبقت بريطانيا بوقت طويل.

شهدت تلك السنوات كذلك النمو المتسارع للصناعات الكبيرة فى فرنسا، وبمعدل أقل فى مناطق من الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية. كانت البرجوازية

عندما تتأمل أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، ربما تشعر بأنها رغم خسارتها في الصراع السياسي في **1848**، قد انتصرت في المعركة الاقتصادية. في فرنسا، وضعت ثقتها في "**لويس بونابارت**"، وفي ألمانيا غمرتهم البهجة عندما قام "**بسمارك– Bismarck**"، الذي كان يمارس سلطات شبه دكتاتورية في المملكة البروسية، بشن حروب ضد الدانمرك والنمسا وفرنسا، لكي يبني إمبراطورية ألمانية موحدة، لتكون أقوى دولة في أوروبا الغربية.

كانت البرجوازية الإيطالية والهنغارية قد تعافت هي الأخرى من آثار هزيمة الحركات القومية في **1848-49**. في البداية استمر التاج النمساوي يحكم "ميلانو" و"فينيسيا" و"بودابست"، بالإضافة إلى "براغ" و"كراكاو" و"زغرب". بيد أن الحركات الثورية لم تكن قد انتهت تماما، كانت الحماسة للوحدة القومية مستمرة بين قطاعات من الطبقة المتوسطة الإيطالية، ورغم أن عددا قليلا من طبقة الفلاحين وفقراء المدن كان لديهم مثل تلك المشاعر (مجرد **4** ٪ من السكان كانوا يتكلمون "التوسكانية" المحلية التي تطورت فيما بعد لتصبح اللغة الإيطالية)، كان هناك سخط شديد ضد ملك "نابولي" والحكام النمساويين في "لومبارديا". في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، حاول "**كافور– Cavor**"، وزير ملك "بيدمونت"، استغلال تلك المشاعر. عقد صفقات مع "**ماتزيني– Mazzini**"، الزعيم القومي الراديكالي، و"**غاريبالدي– Garibaldi**"، الثوري الجمهوري، من جهة، وحكومتي بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. رسا "**غاريبالدي**" على شواطئ صقلية بقوة قوامها **1000** من قوات "القمصان الحمراء" الثورية، لكي تقوم الجزيرة على ملك "نابولي"[١٦]، ثم تقدم شمالا. دفع ملك "بيدمونت" بجيش في اتجاه الشمال، لكي تسحق القوتان جيش "نابولي" الملكي بينهما، بينما كانت القوات الفرنسية تتكفل بانسحاب النمساويين من "لومبارديا". بعد ذلك أكمل "كافور" وملك "بيدمنت" مناورتهما بنزع سلاح قوات "غاريبالدي"، والزج به إلى المنفى، وكسب التأييد المتردد من قبل برجوازية الجنوب الإيطالي، التي باتت تدرك أن "الأمور لا بد من أن تتغير إن كان لهم أن يظلوا كما هم"[١٧]. أصبح ملوك "بيدمونت" ملوك إيطاليا

كلها – رغم أن الدولة المتحدة ظلت لفترة طويلة مجزأة بين شمال رأسمالى حديث وجنوب يزداد فقرا، حيث كان ملاك الأراضى مستمرين فى معاملة الفلاحين بأسلوب أقرب ما يكون لأساليب الإقطاع، مع انتشار عصابات السرقة وقطع الطرق.

اكتسبت هنغاريا الصفة القومية، بالمثل، نتيجة للمناورات التى كانت تجرى عند القمة وتستهدف دمج قوى التمرد الدنيا. فى أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، أعادت الملكية الهنغارية تنظيم نفسها عن صراعاتها مع فرنسا ثم بروسيا. أقامت هيكلين إداريين متوازيين، الأول يديره جهاز حكومى ناطق بالألمانية، مسئول جزئيا أمام برلمان فى "ڤيينا"، ويحكم "النمسا"، و"الأراضى التشيكية" و"المنطقة البولندية حول "كراكاو"، و"إقليم سلوڤينيا" الناطق بـ"السلاڤية". الهيكل الإدارى الثانى كان يديره جهاز نطق بـ"الهنغارية". مقيم فى "بودابست"، ويحكم "هنغاريا" و"سلوڤاكيا"، و"إقليم ترانسلڤانيا"، الناطق جزء منه بـ"الرومانية"، وأقاليم كرواتيا الناطقة بـ"الصربية- الكرواتية"، ثم "البوسنة" (على إثر الصراعات مع تركيا). الترتيب الذى تم على هذا النحو، مكنها من موازنة حكمها واستقراره لمدة نصف قرن.

حركتان قوميتان قديمتان فى أوروبا هما اللتان بقيتا قاصرتين تماما. كانت أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر فى أيرلندا، قد شهدت نهضة للحركة القومية التى ولدت إبان "**الثورة الفرنسية**"، وتم سحقها فى **1798**. كانت "**المجاعة الكبرى- The Great Famine**" التى حدثت فى تلك السنوات قد كشفت عن التكلفة الإنسانية المروعة للضرر الذى لحق بالاقتصاد الأيرلندى، بسبب تبعيته للطبقة الحاكمة البريطانية. مات قرابة المليون نسمة، ومليون آخرون أجبروا على الهجرة، وهبط عدد السكان إلى النصف تقريبا. حتى السياسى الدستورى الشهير "**دانييل أوكونيل- Daniel O'Connell**"، الذى كان قد أفنى عمره من أجل حقوق الأيرلنديين الكاثوليك فى إطار المملكة المتحدة، حتى هذا الرجل اضطر إلى إثارة قضية الاستقلال – بينما كان جيل جديد من راديكاليى الطبقة المتوسطة، يرى ضرورة المضى إلى ما هو أبعد من ذلك، القتال من أجل جمهورية. الانتفاضة التى قاموا

بها فى **1848** تم سحقها، ولكن منذ ذلك الحين، كان أن أصبحت "المسألة الأيرلندية" تحتل مكانة مركزية فى الحياة السياسية البريطانية.

الفشل فى حل القضية الأيرلندية فى طرف من أوروبا، كان متسقا مع النضال المستمر للقومية البولندية فى الطرف الآخر. لم تستسلم طبقة النبلاء البولندية وتوافق على تقسيم مملكة پولندا بين روسيا وپروسيا والنمسا، فى تسعينيات القرن الثامن عشر. كان النبلاء البولنديون ملاك أراض إقطاعيين، وكانوا يهيمنون على الطبقات الدنيا "البيلاروسية" و"الأوكرانية" و"اليهودية"، وليس على الطبقات البولندية فحسب. إلا أن قتالهم ضد القيصر الروسى أدخلهم فى صراع مع كل بنى الثورة المضادة، التى فرضت على أوروبا بعد **1814**، ثم بعد **1848**، لكى يجدوا هدفا مشتركا، فى آخر الأمر، مع الثوار والديمقراطيين فى كل أوروبا. كان "**الميثاقيون– Chartists**" البريطانيون، و**الجمهوريون** الفرنسيون، و**الشيوعيون** الألمان، كلهم كانوا يعتبرون النضال البولندى نضالهم – وكان يمكن أن تجد پولنديين منفيين، ينتمون إلى طبقة النبلاء، يحاربون فى إيطاليا وجنوب ألمانيا وهنغاريا وپاريس.

الهوامش

(١) كما ورد في:

R. Price (ed). "Documents on the French Revolution of 1848", (London, 1996), p.46-47.

(2) D. Blackbourn, "The Fontana History of Germany, 1780-1918" (London, 1997), p.147.

(3) R. Price "Documents", p.9.

(٤) المصدر السابق p.11.

(5) C.Pouthas, "The Revolution of 1848", p.394.

(٦) المصدر السابق p.394.

(7) R. Price, "Documents", p.17.

(٨) هذه هي الأرقام التي أعطاها "فردريك إنجلز" عندما كتب (في ذلك الوقت) في: Rheinische Zeitung, 2 July 1848, وكما وردت مترجمة في: K.Marx and F.Engles "Collected Works", vol.7, (London, 1977), p.161.

(٩) تتضمن رواية "فلوبير": "التربية العاطفية- Sentimental Education" وصفا لتوجهاتهم واجتماعات الأندية الثورية.

(10) R. Price (ed). "Documents...".

(11) E.Engels, "Neue Rheinische. 27 June 1848,

مترجمة في:

K.Marx and F.Engles "Collected Works", vol.7, (London, 1977), p.131.

(12) R. Price (ed), "Documents", p.20.

(13) F. Mehring, "Absolutism and Revolution in Germany, 1525-1848, (London, 1975), p.214.

(14) Neue Rheinische Zeitung, 31 December 1848

مترجمة في: Collected Works, vol.7

١٥- جميع الأرقام هنا عن:

D. Blackbourn, "Fontana History of Germany, p.180.

(١٦) التمرد الذى يظهر فى فيلم "The Leopard".

(١٧) الكلمات التى يستخدمها الأمير فى فيلم "The Leopard".

-٨-

الحرب الأهلية الأمريكية

فى **12** أبريل **1861**، فتح جنود متطوعون فى "**كارولينا الجنوبية**" النار على لقوات فيدرالية للولايات المتحدة فى "**فورت سمتر- Fort Sumter**" المواجهة لميناء "شارلستون". كان أولئك الجنود يعبرون، بأكثر الأساليب إثارة عن رفض الولايات الجنوبية المالكة للعبيد، قبول رئاسة "**أبراهام لنكولن- Abraham Lincoln**" و"**الحزب الجمهورى**" الذى كان قد تأسس حديثا.

حتى تلك اللحظة، لم يكن كثيرون يتوقعون أن يؤدى الخلاف إلى القتال. كان "**لنكولن**" قد تولى الرئاسة قبل شهر واحد، كما كان قد قال أكثر من مرة إن همه الوحيد هو الاحتفاظ بالمناطق المفتوحة حديثا فى "**الشمال الغربى**" لـ"**العمل الحر**" (**Free Labour**). لم يكن كرهه الشخصى للعبودية يعنى أنه كان يفضل حظرها فى الولايات "**الجنوبية**"؛ وفى مناظرة له فى **1858**، كان قد قال بإصرار: "لانية لدى أن أصطدم بمؤسسات العبودية فى الولايات الموجودة بها"[١]، كما كان قد كرر الأمر نفسه فى حملته الانتخابية فى **1861**[٢]. وبينما كانت الولايات "**الجنوبية**" ترتب للانفصال عن الولايات المتحدة، كان معظم جهد "**الكونجرس**" مكرسا للبحث عن حل وسط لعدم المساس بالعبودية فى "**الجنوب**". كان خصوم المؤيدين لإلغاء العبودية أقلية صغيرة فى "**الكونجرس**" وبين سكان الشمال بشكل عام، وكان من المعتاد أن تقوم جماعات عدائية بغض اجتماعاتهم، حتى فى "بوسطن"، التى كانت تعتبر معقلهم.

قبل ثلاثة أيام من قصف "**فورت سمتر**"، كان زعماء المؤيدين للإلغاء على اقتناع تام باستحالة قيام حرب أهلية، وبأن الحكومة سوف ترضخ لمطالب ولايات

العبيد. كتب "**فردريك دوجلاس– Frederick Douglass**"، وكان أحدَ السود المؤيدين للإلغاء: "أى حديث عن إخماد الخيانة والتمرد بالقوة لا جدوى ولا قيمة له، مثل كلمات تطلقها امرأة سكرى سقطت فى مصرف. لقد حركت العبودية حكومتنا"(٣). غير أن إطلاق النار فى "**فورت سمتر**" كان إيذانا بأكثر الحروب دموية فى تاريخ الولايات المتحدة – وأكثر تكلفة من حيث عدد القتلى الأمريكيين، من حرب الاستقلال، والحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحرب الكورية، وحرب فيتنام... مجتمعة.

الفجوة العصية على الإزالة

لم يكن الأمر مجرد سوء فهم. كان هناك صدام بين نهجين مختلفين تماما فى تنظيم المجتمع(٤).

كانت الولايات المتحدة قد خرجت من ثورتها ضد الحكم البريطانى بشكلين مختلفين من التنظيم الاقتصادى، كلاهما يلبى مطالب سوق عالمية متنامية. فى "**الشمال**"، كان السائد هو "**العمل الحر– Free labour**" لصغار الفلاحين والحرفيين وعمال الأجر فى المصانع والورش الصغيرة، أما فى "**الجنوب**" فكانت المهيمنة لأصحاب المزارع الكبيرة ملاك العبيد، رغم أن أغلبية السكان البيض كانوا من صغار المزارعين والصناع الذين لا يملكون عبيدا.

لم يكن التناقض بين مناطق العبودية والمناطق الحرة يبدو مسألة عصية على الحل بالنسبة للزعماء السياسيين الأوائل. كانت المناطق منفصلة عن بعضها البعض جغرافيا، بل إن "**جنوبيين**" مثل "**جيفرسون– Jefferson**" (مالك العبيد وإن على استحياء، والذى صاغ "إعلان الاستقلال" وأصبح رئيسا فى **1800**)، كانوا يرون أن العبودية فى طريقها إلى الانتهاء؛ وكان "**آدم سميث**" قد أثبت أن العمل "**الحر**" سيكون غالبا أكثر كفاءة وفائدة من العمل "**العبودى**".

إلا أن ذلك كان قبل زراعة القطن على نطاق واسع للوفاء بالاحتياجات المتواصلة لمصانع "**لانكشاير**". فى **1790** كان الجنوب ينتج **1000** طن من القطن سنويا، وفى **1860** كان الرقم قد بلغ مليون طنا. كانت مجموعات العبيد التى تعمل تحت مشرفين يحملون السياط، هى التى تقوم بالزراعة وجنى المحصول بصفة عامة، وفى **1860** كان هناك نحو **4** ملايين من العبيد الذين يقومون بذلك.

لم يكن العبيد فحسب هو ما يحتاج إليه أصحاب المزارع، كانوا يريدون المزيد من الأراضى لتلبية الطلب الأجنبى على القطن، وحصلوا على بعضها عندما قامت حكومة الولايات المتحدة بشراء "**فلوريدا**" من إسبانيا و"لويزيانا" من فرنسا، كما استولوا على الأرض الممنوحة لبعض الشعوب الهندية (التى كانت تعيش ظروفا بالغة القسوة على بعد الف ميل غربا)، كما نهبوا مساحات كبيرة عن طريق الحرب مع المكسيك. إلا أن ذلك كله لم يكن كافيا، إذا كانوا الآن يتطلعون إلى المساحة غير المأهولة بين "الميسيسيبى" و"الباسيفيكى"- وكانت أكبر من كل الولايات القائمة مجتمعة.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت الولايات "**الشمالية**" تمر بمرحلة تحول واسع. كان عدد سكانها قد زاد بنسبة كبيرة مع وصول موجات متوالية من المهاجرين من الأراضى الأوروبية التى ضربها الفقر، بحثا عن فرصة للعمل مزارعين أو عمالا بأجور جيدة. هذا النمو السكانى خلق بدوره سوقا متنامية للصناع والتجار. زاد إنتاج "نيوإنجلند" من المنسوجات من **4** ملايين ياردة فى **1817** إلى **308** ملايين ياردة فى **1837**؛ وبحلول العام **1860** كانت البلاد تحقق ثانى أكبر إنتاج صناعى فى العالم؛ بعد بريطانيا، ولكنه كان يلاحقه. كان سكان **الشمال** "الأحرار" ينظرون إلى اراضى الغرب باعتبارها الوسيلة التى تحقق أحلامهم فى ملكية الأراضى، بينما كان الرأسماليون (فى **الشمال** كذلك) ينظرون إليها باعتبارها مساحة هائلة واعدة بثروة كبيرة.

كان "للثورة التى حدثت فى مجال النقل" تأثير كبير. ربطت القنوات "نيويورك" بالبحيرات العظمى **"Great Lakes"** و**الغرب الأوسط "Midwest"**،

ومن ثم أصبح "**الغرب الأوسط**" متصلا بخليج المكسيك بقوارب بخارية تذرع جيئة وذهابا أنهار "أوهيو – **Ohio**"، و"الميسيسيبي" و"الميزوري– **Missouri**"؛ وفي **1860**، كان قد أصبح هناك **30,000** ميلا من خطوط السكة الحديد، أي أكثر مما كان في بقية العالم. في كل مكان، كانت المجتمعات التي مارست الزراعة في السابق كوسيلة للعيش، تصبح أكثر ارتباطا بالسوق، لتصبح عزلة الولايات عن بعضها و"**الشمال**" عن "**الجنوب**" شيئا من الماضي.

كانت مسألة الهيمنة على الأراضي غربي "الميسيسيبي" وما يتعلق بذلك من أمور أخرى، من المستحيل تجنبها إلى ما لا نهاية. كانت قطاعات مهمة من الرأسمالية الصناعية في "**الشمال**" تريد "تعريفة" لحماية منتجاتها وأسواقها من الرأسمالية البريطانية؛ غير أن اقتصاد القطن في الجنوب كان مرتبطا تماما بصناعة القطن البريطانية، ويسيئه أي تهديد للتجارة الحرة. لمصلحة من إذن ستعمل الحكومة الفيدرالية في سياستها الخارجية؟

كان أصحاب المزارع يحصلون تقريبا على كل ما يريدون على مدى نصف قرن تقريبا. دخلت "ميزوري" **(1820)** و"تكساس" **(**في أربعينيات القرن نفسه**)** "**الاتحاد**" باعتبارهما ولايات عبيد؛ وفي خمسينيات القرن التاسع عشر فرض الجنود الفيدراليون قانونا جديدا ضد العبيـــد الهاربين، يمكن من القبض أناس في المدن **الشمالية** مثل "بوسطن" وإعادتهم إلى "سادتهم" في "**الجنوب**". ثم كان أن قرر رئيس "**الحزب الديمقراطي**" و"**الكونجرس**" بقاء العبودية في "كانساس" والمناطق الغربية الأخرى في حال تصويت أغلبية المستوطنين البيض لذلك – وبعبارة أخرى، في حال استخدام مؤيدي العبودية في "**الشمال**" ثرواتهم لتأسيس قاعدة في تلك المناطق قبل وصول المستوطنين الأحرار من "**الشمال الشرقي**".

أحدث ذلك حالة من الغضب الشديد في حركة المؤيدين لإلغاء العبودية بين "**الإنسانيين**" البيض والسود "**الأحرار**" الذين وجدوا دعما، وإن كان محدودا، في "نيوإنجلند" حيث لم يكن هناك عبودية على أي مستوى، ما أثار حنق كل "**الشماليين**"– أيا كانت درجة إصابتهم بعدوى الأفكار العنصرية – المناضلين من أجل "**وطن حر**"،

وتقسيم أرض "**الغرب**" إلى مزارع صغيرة للمستوطنين الجدد. كلتا الجماعتين كانت تخشى قيام ملاك الأراضى بنهب منطقة "**الغرب الأمريكى**" كلها، بحكم سيطرتها على "**الرئاسة**" و"**الكونجرس**" و"**المحكمة العليا**". كان معنى ذلك القضاء على آمال من يريدون أن يعملوا بالزراعة، وأن يصبح رأس المال الصناعى تحت سيطرة عدد قليل من **الولايات الشمالية الشرقية**، وأن تصبح الحكومة كذلك تحت سيطرة ملاك المزارع فى المستقبل المنظور.

أصبحت "كانساس" مسرحا لحرب أهلية مريرة، ومحدودة، بين مستوطنى "العمل الحر" ومؤيدى العبودية عبر الحدود فى "ميزورى". كان هناك استقطاب للرأى عبر البلاد، ففى "**الشمال**" أدى ذلك إلى قيام حزب سياسى جديد، "**الحزب الجمهورى**"، كان "**أبراهام لنكولن**" مرشحه للرئاسة فى انتخابات **1860**.

كان مؤيدو الحزب ينتمون إلى طبقات مختلفة. قطاعات من كبار رجال الأعمال، فلاحون، حرفيون، عمال... جمع بينهم إصرار على الإبقاء على المناطق الغربية مكانا للعمل الحر. لم يكن يعنى ذلك معارضة عامة للعنصرية. كانت هناك "ركيزة" صلبة لمؤيدى إلغاء العبودية، كان من بين صفوفهم معجبون بـــ"**چون براون– John Brown**"، الذى كان قد أعدم فى ديسمبر **1859**، لتزعمه جماعة من السود والبيض فى الاستيلاء على مستودع أسلحة فيدرالى فى "هاربرز فيرى"– ڤرچينيا، بهدف تحرير العبيد المحليين، إلا أنه كان هناك أعداد كبيرة من المستثمرين فى قبول الأفكار العنصرية. كانت بعض ولايات "**العمل الحر**" تنكر على السود حق التصويت، بل إن بعضها كان ينكر عليهم مجرد العيش بها؛ وفى **1860** كانت "نيويورك"، التى كانت قد صوتت لصالح "**لنكولن**" بأغلبية واضحة، قد صوتت أيضا بنسبة **1:2** فى استفتاء، ضد منح السود حث التصويت مثل البيض.

كان نجاح "**الحزب الجمهورى**" فى "الشمال"، نابعا من قدرته على جعل العمل الحر، وليس العنصرية أو حتى العبودية، قضية مركزية. كان "**لنكولن**" يجسد هذا التوجـــه، وعلى هذا الأساس كان أن فاز بنسبة **54%** من الأصـــوات

فـــى الولايات **الشمالية**، وبنسبـــة **40%** من إجمالى الأصـــوات. نـــجح **"لنكولن"** فـــى الوصول إلى المنصب بسبب انشقاق بين الجناحين **الشمالى والجنوبى** فى **"الحزب الديمقراطى"** بخصوص قضية "كانساس".

وأيا كانت درجة اعتدال موقف **"لنكولن"**، كان ملاك المزارع يرون انتخابه خطرا عليهم مواجهته. كان مجتمعهم كله، فى نظرهم، على المحك، إن لم يتسع ستكون نهايته – ورئاسة **"لنكولن"** وضعت نهاية لاتساعه. كان البعض، أيضا، يخشى تقويض سيطرتهم على **"الجنوب"** ككل، إن لم يهبوا ضد ذلك، وخاصة أن ثلثى البيض لم يكونوا من ملاك العبيد وقد تجذبهم الأفكار التى تجد صدى قويا لها فى **"الشمال"**.

الولايات السبع، الأكثر إنتاجا للقطن فى الجنوب – حيث كان العبيد يمثلون نصف عدد السكان تقريبا – أعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة وبدأت تسلح نفسها، وفى أبريل بادرت بالهجوم على **"فورت سمتر"**. كانوا يعتقدون، عن حق، أن نشوب الأعمال العدائية سوف يحرك الولايات الأخرى المالكة للعبيد للانضمام إليهم، (وهو ما فعلته أربع ولايات من الولايات السبع)، ولكنهم كانوا يعتقدون كذلك، وعن خطأ هذه المرة، أن حكومة **"لنكولن"**– بما لديها من قوات لا يتجاوز عددها **16000** جنديا – سوف ترضخ لمطالبهم.

الطريق الطويل... المسدود

تبدأ الحرب الأهلية عادة بمناوشات على نطاق ضيق بين قوات غير نظامية، ثم تتصاعد لتصبح مواجهات كبيرة. لم تكن الحرب الأهلية الأمريكية استثناء.

بعد الهجوم على **"فورت سمتر"** مباشرة "اشتعل الشمال حماسة... وكانت كل قرية شمـــالية تعقـــد اجتماعات للحرب"[٥]، وتدافعت الولايات تـــقدم أفواجـــا من

الميليشيات للحكومة المركزية ومتطوعين للجيش الجديد. فجأة، وجد المؤيـدون إلغاء العبودية إقبالا جماهيريا واسعا على مؤتمراتهم، ونقل عن أحد زعمائهم قوله "الشمـال كله يـد واحدة"، "الكـل كان متحمسـا، الصغار والكبار، الرجال والنساء، الأولاد والبنات... كانت الظروف قد أصبحت مواتية لكى يزحف جيش تحرير على الولايات الفيدرالية"[٦]، كان هناك شعور أشبه بذلك فى الثورات، مع اهتمام مفاجئ بأفكار جديدة. الصحف التى نشرت بيانا لـ"**وندل فيليبس**- **Wendell Phillips**"، أحد زعماء حملة الإلغاء، وزعت أكثر من **200,000** نسخة[٧]. كان المتحدثون والخطباء، مثل "**فردريك دوجلاس**- **Frederick Douglass**" يلقون استقبالا حماسيا أينما حلوا[٨]. جماهير حاشدة، كان معظمها فى السابق لا يحبذ تورط النساء فى السياسة، كانت الآن تستمع مبهورة لأحاديث "**آنا دكنسون**- **Anna Dickinson**" المؤيدة للإلغاء، ذات الـ**19** عاما[٩].

إلا أن أسلوب إدارة "**الشمال**" للحرب على مدى **18** شهرا، كان يتناقض مع تلك الحالة شبه الثورية. كان "**لنكولن**" يرى، سواء صوابا أو خطأ، أن الأسلوب الوحيد لحشد "**الشمال**" كتلة متماسكة خلف الحرب هو "الانحناء" قليلا لاسترضاء الرأى المعتدل. هدأ من روع الديمقراطيين الشماليين، ومن كانوا لا يعترضون على العبودية ولكن يريدون دولة متحدة، وقادة الولايات الحدودية الثلاث- "ماريلاند" و"ديلاوير" و"كنتكى"- حيث كانت مستويات ملكية العبيد أقل، وكانت تلك الولايات قد اختارت البقاء ضمن "الاتحاد". عين "**لنكولن**" معتدلين فى مواقع رئيسية فى الحكومة. أعطى قيادة جيش الشمال (بعد هزيمته الكبيرة فى الصيف فى معركة "**بول رن**- **Bull Run**" لـ"**مكليلان**- **McClellan**" الديمقراطى، ومؤيد العبودية فى الجنوب. ألغى أمرا كان قد أصدره قائد الجبهة الغربية "فريمونت- **Fremont**" بتحرير كل العبيد فى "ميزورى"؛ بل إنه كان مع إعادة العبيد الفارين للالتحاق بالجيوش الاتحادية (المعروفة بعصابات التهريب) إلى سادتهم، شريطة ألا يكونوا متورطين فى أعمال عسكرية.

سرعان ما اتضح أن "سياسة معتدلة" لن تؤدى إلى الانتصار فى الحرب. انتهـــج "**مكليلان**" سياســـة حذرة أكثر من الـــلازم، ترتكز على بناء جيش كبيـــر فى منطقة "واشنطن"، ثم محاولة الاختراق إلى "ريتشموند– **Richmond**"، العاصمة الكونفدرالية القريبة. كان ذلك يتلاءم مع سياسة من كانوا يريدون إجبار الولايات الإنفصالية على العودة إلى "**الاتحاد**"، دون أن تغير نظامها الاجتماعى، ولكنها كسياسة عسكرية، كانت فاشلة تماما. ثمانية عشر شهرا فى الحرب، وخطوط القتال على حالها مثلما كانت فى البداية؛ باستثناء انتصارات "**شمالية**" على امتداد "**الميسيسيبى**"، وكان "الجنوب" لا يزال يسيطر على مساحة بحجم فرنسا. كانت الروح المعنوية تزداد تدهورا فى "**الشمال**"، مع شعور باستحالة النصر، حتى بين أشد المؤيدين(١٠).

إلا أن الشعور بأن مصير الحرب كان مجهولا، أضاف جمهورا جديدا للمطالبين بإلغاء العبودية، وكشف ذلك عن أن "**الجنوب**" كان يوجد به **4** ملايين من العبيد للقيام بما يحتاجه من عمل يدوى، ومن ثم يمكن أن يعبئ قطاعا كبيرا من السكان الذكور "**الأحرار**" للحرب. فى المقابل كان "**الشمال**" يواجه صعوبات متزايدة لاستكمال جيشه. كانوا يجادلون بأن "**لنكولن**" ينبغى عليه أن يضرب اقتصاد "**الجنوب**" بإعلان حرية للعبيد، وأن يدعم قوات "**الشمال**" بإدراج جنود من السود.

وفى حديث شهير له، كان "**وندل فيليبس**"، المؤيد لإلغاء العبودية، كان يسخر من "**لنكولن**":

> **لا أقول إن "مكليلان" خائن، إلا أننى أقول: إنه لو كان خائنا، لفعل تماما مثلما فعل. لا تخافوا على "ريتشموند"، فلن يستولى عليها "مكليـــلان". لو استمرت الحرب علـــى هذا المنوال، دون هدف منطقى، فسيكون ذلك هدرا للدم والمال، ..."لنكولن"... شخص من الدرجة الأولى... من الدرجة الثانية(١١).**

الثوريون المذبذبون

أثار حديث "**فيلبيس**" ضجة كبيرة وأدى إلى هجوم شديد عليه، إلا أنه كان يبلور شعورا متناميا بأن الأساليب الثورية فحسب هى التى يمكن أن تكون مجدية؛ وبالرغم من توجهات "**مكليلان**" المحافظة، كان قادة الجيش الثوريون قد بدأوا بالفعل اللجوء إلى بعض تلك الأســاليب، إذ كانوا يستقبلون العبيد الهاربين فى معسكراتهم ويستولون على ممتلكات "المتمردين"، بما فى ذلك العبيد، فى المناطق التى تحتلها جيوش "**الشمال**"؛ ثم، فى لحظة فارقة، قام "**لنكولن**" نفسه بعدة خطوات راديكالية – إذ حشد أول وحدة عسكرية من السود، وأعلن **حرية العبيد** فى كل الولايات التى كانت ما زالت فى حالة ثورة، وطرد "**مكليلان**".

كانت الأرض قد أصبحت ممهدة أمام نهج جديد يمكن أن يؤدى إلى الانتصار، وإن ليس قبل عامين آخرين. هزيمة جيش كونفدرالى فى "جتسبيرج" فى صيف **1863**، كانت قد تركت لـ"**الجنوب**" مساحة هائلة، وكان القادة العسكريون فى التحالف مثل "**جرانت**– **Grant**" و"**شيرمان**– **Sherman**" يرون أنه لا يمكن الاستيلاء عليها إلا بحرب شاملة، ليس ضد جيوشها فحسب، وإنما ضد البنية الاجتماعية التى تساندها. جاءت الهزيمة النهائية لتحالف الولايات الانفصالية – **The Confederacy**– بعد أن قامت قوات "**شيرمان**" بزحفها الشهير عبر "**جورچيا**"، تسرق وتنهب وتحرق المزارع وتحرر العبيد. كان التحول عن نهج "**مكليلان**" فى العام ونصف العام الأولين من الحرب، إلى نهج "**جرانت**" و"**شيرمان**" فى آخرها، كان تحولا كبيرا، مثل ذلك الذى حدث فى فرنسا، من التحول من نهج "**الچيروند**" إلى نهج "**اليعاقبة**". "**لنكولن**" نفسه كان مختلفا، فى شخصيته وأسلوبه عن "**روبسپيير**"، كما أن "**جرانت**" و"**شيرمان**" كانا عسكريين محترفين من ذوى الأفكار المحافظة. كانا يريان أن الثورة لا بد من أن تفرض على "**الجنوب**" إن كان للمجتمع الموجود فى "**الشمال**" أن يبقى.

أوضح "**كارل ماركس**" كيف كان "**لنكولن**" مدفوعا للقيام بتحركات ثورية، دون حتى أن يكون على دراية بها:

"لنكولن" نسيج وحده فى سجلات التاريخ، ليس دافع، ليس لديه حافز مثالى، لا صفات تاريخية معينة. يعطى أهم أقواله أكثر الأساليب ابتذالا. الآخرون يدعون أنهم "يقاتلون من أجل فكرة" عندما يكون الأمر بالنسبة لهم قتالا من أجل قدم مربع من الأرض. "لنكولن"، حتى عندما يكون مدفوعا بهدف، يتحدث عن قدم مربع... "لنكولن" ليس نتاج ثورة شعبية. هذا... الرجل المتوسط، حسن النية، وضعته على القمة تفاعلات قوى الاقتراع العام الغير واعية بالقضايا الكبرى المطروحة. إن العالم الجديد لم يحدث أن حقق انتصارا أعظم، مما هو بواسطة هذا الكشف عن أن الناس العاديين، من ذوى النوايا الحسنة، يستطيعون مع افتراض وجود التنظيم الاجتماعى والسياسى، أن يحققوا مآثر كبيرة، ما كان ليحققها سوى الأبطال فى العالم القديم[١٢].

إعادة البناء والخيانة

كان هناك، رغم ذلك، تناقض فى المجتمع البرجوازى القائم فى "الشمال"، بما فيه من عداءات طبقية عميقة، التى كانت تفرض تغيرا ثوريا على "الجنوب". ظهر ذلك بوضوح بعد الانتصار الشمالى مباشرة واغتيال "**لنكولن**"، فى ربيع **1865**. ظهر صدع كبير داخل المؤسسة السياسية. اتبع "**أندرو جونسون– Andrew Johnson**"، نائب "**لنكولن**" وخليفته سياسة مهادنة مع الولايات المهزومة. سعى من أجل السماح لها بالعودة إلى "**الاتحاد**"– وأن يكون لها وضع مؤثر فى "**الكونجرس**"– مع عدم حدوث تغيير فى بنيتها الاجتماعية، باستثناء الإلغاء الرسمى للعبودية؛ وحيث إن ملاك المزارع كانوا قد احتفظوا بثروة طائلة، وكان معظم العبيد السابقين لا يملكون أراض، كان لا بد من أن تكون النتيجة هى العودة الفعلية إلى الوضع السابق قبل الحرب.

على الفور، وجد "**جونسون**" نفسه فى مواجهة معارضة من السود ومؤيدى إلغاء العبودية فى "**الشمال**"، ومن الجمهوريين الراديكاليين فى "**الكونجرس**"، الذين

كانوا متأثرين بالشعور الديمقراطى الثورى، الذى ولدته الحرب، ومن بعض ضباط الجيش الذى يحتل "**الجنوب**". سرعان ما شملت المعارضة أيضا تيارا عاما من السياسيين الجمهوريين الذين لم يكونوا يريدون عودة ما يقرب من **100%** من الولايات الديمقراطية إلى "**الكونجرس**"، ورأسماليين صناعيين ممن كانوا ما زالوا مصممين على مجانسة الأراضى الغربية، ورجال الأعمال المتطلعين إلى الإثراء السريع، الذين كانوا قد هبطوا على "**الجنوب**" على أثر الجيوش "**الشمالية**"، (ممن يطلق عليهم "**ذوو الأخراج– Carpetbaggers**"). هذا التحالف، تحالف المعارضة، كان من القوة ليهزم خطط "**جونسون**" (كان قد بقى صوت واحد فقط لكى يتم توجيه اللوم له فى "**الكونجرس**" واتهامه بالتقصير) ويفوز فى الانتخابات الرئاسية للمرشح الجمهورى "**جرانت**" فى **1868**، ويفرض عملية "إعادة بناء" على "**الجنوب**" على مدى معظم سنوات العقد.

فى تلك السنوات. كانت الجيوش "**الشمالية**" تمنع المزارعين القدامى من السيطرة على الولاية أو الحكومة المحلية. الجمهوريون **الجنوبيون** أخذوا أماكنهم، السود وكذلك البيض، تم منح العبيد المحررين حق التصويت واستخدموه. أصبح السود يشغلون مناصب فى القضاء والإدارات الحكومية فى الولاية. كان هناك عشرون عضوا فى "**الكونجرس**" من الفيدراليين ونائبان من السود فى "**مجلس الشيوخ**". لأول مرة كان المشرعون **الجنوبيون** يتناولون قضية التعليم بجدية، فانتشرت شبكات المدارس للأطفال الفقراء، البيض والسود على السواء. عادت طبقة المزارعين **plantocrocy** للمقاومة فكانت تشجع جماعات "**الكوكلوكس– Ku Klux Klan**" على إرهاب السود الذين أفادوا من حقوقهم الجديدة، والبيض الذين كانوا يساعدونهم. كانت هناك عمليات قتل، مثل المذبحة التى قضى فيها **46** من السود واثنان من البيض المتعاطفين فى "ممفيتس– تينسى" فى مايو **1866**؛ إلا أنه مادام الجيش "**الشمالى**" يحتل "**الجنوب**"، لم يستطع الإرهاب القضاء على المكاسب التى كان السود مصرين على التمسك بها؛ وفى آخر الأمر، كان قد أصبح هناك **200,000** من السود فى جيش "**الاتحاد**"، وكانوا يعرفون كيف يقاتلون.

ولكن، لأنه كان على وجه التحديد جيش احتلال "**برجوازى**"، كان هناك شيء واحد لا يستطيع أن يقوم به – مصادرة الأراضى لمنح العبيد المحررين وسيلة لحياة مستقلـــة عن سادتهم. كان "**شيرمان**" قد قـــام لفترة قصيرة بمثل ذلك الإجراء، ووزع أراض علـــى **40,000** من العبيد السابقيـــن، ليعيد "**چونسون**" الأوضاع إلى ما كانت عليه؛ ومن الآن فصاعدا ستكون الأراضى الوحيدة المتاحة للعبيد السابقين، من تلك المملوكة للدولة، والتى كانت فى الغالب أقل جودة. كان معظمهم مضطرا إلى الاعتماد على الملاك السابقين، يعملون لديهم بأجر أو بالمشاركة فى الحصول. ما كانت طبقة عبيد مضطهدة، أصبحت فى معظمها طبقة فلاحين وعمال مضطهدة.

كان الأسوأ لا يزال فى الطريق. بحلول منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، كان رأسماليو "**الشمال**" يشعرون بأنهم قد حققوا هدفهم فى "**الجنوب**". كانت إعادة البناء الراديكالية قد منعت أى انبعاث لقوة فلاحية من أن يكون منافسا لقوتهم. كانت صناعاتهم تتمدد بسرعة يمكن أن تجعلها تتجاوز ما فى بريطانيا. كانت خطوط السكة الحديد الآن ممتدة حتى ساحل المحيط الهادى. لم يكن هناك أى احتمال لأن يهيمن "**الجنوب**" على المناطق الغربية، ولم يعودوا يرون ضرورة لجيش احتلال، حيث إن أيا كان من يدير أمور "**الشمال**"، سوف يديرها باعتباره شريكا أصغر لهم.

انسحاب جيش "**الشمال**"، أطلق يد منظمة "**كلان– Klan**" وغيرها من القوى العنصرية. الإرهاب العنصرى من جانب، والقوة الاقتصادية من الجانب الآخر، مكنت كبار ملاك الأراضى من إعادة تدعيم سيطرتهم السياسية. فى البداية، قيدوا، ثم ألغوا حق السود فى التصويت فى معظم "**الجنوب**" (وكذلك حق البيض الفقراء)، رسخوا التفرقة العنصرية بشكل رسمى فى كل مناحى الحياة، صنعوا مناخا عاما من العداء العنصرى، منع البيض الفقراء (معظم السكان البيض) من المشاركة فى النضال السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى، مع السود. ستؤدى المعاناة أحيانا إلى انتفاضات من قبـــل البيض الفقراء والتمرد على تلك الحواجز الأيديولوجية

العنصرية – مثل الحركة "الشعبوية- **populist**" فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، والانتفاضة النقابية فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين؛ إلا أن "**الأوليجاركية**" البيضاء كانت تعرف كيف تطلق الأحقاد العنصرية من عقالها وتكرس الفرقة. بعد **90** عاما من "**إعلان التحرر- Emancipation Proclamation**" فى يناير **1863**، كان السود ما زالوا محرومين من ممارسة حقوقهم المدنية – ولم يكن هناك أدنى اهتمام بالأمر من قبل الحكومة الفيدرالية فى واشنطن.

أفاد رأس المال **الشمالى** كثيرا من "**الحرب الأهلية**"، وكانت هناك فترة قصيرة كان يبدو فيها أن العبيد السابقين سيفيدون أيضا، ولكن بعد أن ساعدت الرأسمالية الصناعية الحديثة فى تدمير شكل من أشكال الاضطهاد، بدا أن من مصلحتها تماما تأسيس شكل آخر. أصبحت العنصرية جزءا لا يتجزأ من عملياتها، مثلما كان الوضع بالنسبة لملاك العبيد القدامى؛ أما الحزب الرئيسى لرأس المال الصناعى، "الحزب الجمهورى" فسرعان ما نسى شعاراته التى كانت مرفوعة فى ستينيات القرن التاسع عشر.

الهوامش

(١) فى حوار مع Douglas، كما ورد فى:
J.M. McPherson, "The Struggle for Equality", (New Jersy, 1992), p.312.

(٢) انظر على سبيل المثال حديثه فى 4 July 1861.
كما ورد فى: J.M. McPherson, Battle Cry of Freedom", (London, 1988) p.312

(٣) المصدر السابق p.46.

(٤) ذكر ماركس ذلك فى حينه، انظر مقاله لجريدة Die Presse (7 نوفمبر 1861).
التى تجدها مترجمة فى:
K. Marx and F.Engels "Collected Works", vol.19 (London, 1984), p.50.

(5) J.M. McPherson, "The Struggle...", p.47.

(٦) المصدر السابق – p.47.

(٧) المصدر السابق – p.51.

(٨) المصدر السابق – p.82.

(٩) المصدر السابق – p. 128-129.

(١٠) كتب "فردريك إنجلز" إلى "ماركس" (30 يوليو 1862) يقول: إنه كان يتوقع أن يلقى الشمال هزيمة منكرة، كما عبر عن شكوكه فى قدرته (الشمال) على "قمع التمرد". أما "ماركس"، فعلى العكس منه كان يقول "... على استعداد أن أراهن بحياتى... أولئك (فى الجنوب) سيكون وضعهم أسوأ... إنك متأثر بالوجه العسكرى للأمور... أكثر من اللازم (10 سبتمبر 1862).
انظر:
K. Marx and F.Engels "Collected Works", vol. 41 (Moscow, 1985), pp. 414-416.

(١١) انظر اقتباس "ماركس" فى مقاله لـــ:
"Die Presse", 22 August 1862. (Collected Works, vol.19, p.234-235.
كما تجد كذلك اقتباسات فى:
J.M. McPherson, "The Struggle...". P.113.

(١٢) مقال "ماركس" فى "Die Presse" (12 أكتوبر 1862). (Collected Works, vol.19, p.250.

- ٩ -

فتح الشرق وإخضاعه

كان ولا يزال لمفاتن الشرق وقع السحر فى نفوس الأوروبيين الغربيين فى **1776**، عندما نشر "**آدم سميث**" كتابه "**ثروة الأمم**". كانت المنسوجات والبورسلين والشاى من الهند والصين سلعا مرغوبة فى الغرب، كما كان مثقفون مثل "**ڤولتير**"[١] ينظرون إلى حضارات الشرق، باعتبارها، على أقل تقدير، على مستوى حضارات بريطانيا وفرنسا وألمانيا. كان "**آدم سميث**" يرى أن الصين "واحدة من أغنى... وأنشط... وأكثر الأمم ثقافة في العالم... رغم أنها قد تتوقف... فإنها لا تتراجع"[٢]. بعد قرن من الزمان كانت الصورة مختلفة تماما. الآن، كانت الكليشيهات العنصرية المطبقة على شعوب إفريقيا وأمريكا الشمالية، هى نفسها المستخدمة لوصف شعوب الهند والصين والشرق الأوسط[٣]. فى الفترة التى تخللت الموقفين، كانت **بريطانيا** قد استولت على كل الهند تقريبا لتصبح من ضمن مستعمراتها، وأذلت الصين فى حربين؛ كما كانت **فرنسا** قد احتلت الجزائر؛ واقتطعت **روسيا والنمسا- هنغاريا** أجزاء من **الإمبراطورية العثمانية**. كان تطور الرأسمالية، الذى قلب مجتمعات أوروبا الغربية والولايات المتحدة رأسا على عقب، كان يمكن الآن حكام تلك المجتمعات من انتزاع السيطرة على بقية العالم.

إمبراطورية بريطانيا الهندية

كانت الهند أولى الإمبراطوريات الكبرى التى وقعت فى أيد غربية، لم يحدث ذلك بين عشية وضحاها، نتيجة غزو عسكرى مباشر، كما أنه لم يكن، مجرد، نتيجة تفوق تكنولوجى.

لم يكن المعلقون الغربيون فى منتصف القرن التاسع عشر، بمن فيهم "**ماركس**"، محقين فى اعتقادهم أن الهند كانت تتسم بركود موغل فى القدم. لم يكن الأمر كذلك، فحتى بعد سقوط "**إمبراطورية المغول**"، كان هناك قدر من الاستمرارية فى النمو الاقتصادى مع "نمو ثروات التجار وأصحاب البنوك وجباة الضرائب"[٤]؛ إلا أن أولئك كانوا يعيشون فى ظل ست ممالك متحاربة، لم تكن أى منها تسمح لأى من تلك الفئات بأن يكون لها رأى حاسم فى سياساتها، أو حتى توفر أمانا حقيقيا لممتلكاتها. كان ذلك، هو ما فتح الباب على مصراعيه لتدخل "**شركة الهند الشرقية البريطانية– British East India Company**" بقواتها وأسلحتها. كان كثير من التجار يرونها قادرة على حماية مصالحهم أكثر من الحكام الهنود.

فى بداية القرن الثامن عشر، كانت "**الشركة**" لا تزال قوة هامشية فى شبه القارة. كانت تعتمد على الامتيازات الممنوحة لمراكزها التجارية على امتداد الساحل، من قبل الحكام الهنود؛ إلا أنها استطاعت، مع الوقت، ترسيخ علاقات قوية متنامية مع التجار الهنود الذين كانوا يبيعون لها المنسوجات وغيرها من السلع المجلوبة من داخل البلاد. ثم حدث فى خمسينيات القرن الثامن عشر أن ادعى أحد كبار المسئولين فى "**الشركة**"، "**روبرت كلايف**– **Robert Clive**"، حقه فى السلطة فى "**البنغال**" ضد أحد المنافسين، عندما هزم قوة فرنسية وسيطر على الإقليم – الذى كان أغنى جزء فى "**الإمبراطورية المغولية**". كانت "الشركة" تقوم بجمع الضرائب وتدير المصالح الحكومية، بينما كانت الشعارات والرموز الشكلية للمنصب فى يد "**نائب حاكم**– **Nlawab**" هندى. كانت بريطانيا قد اكتسبت بدايات إمبراطورية جديدة فى الهند، فى ذات الوقت الذى كانت تخسر فيه إمبراطوريتها القديمة فى أمريكا الشمالية، ولم يكلفها ذلك كثيرا. كانت الشركة تهدف إلى تغطية كل تكلفة ذلك من الضرائب التى تفرضها على السكان الهنود، اعتمادا على جيش، كان مكونا فى معظمه من قوات "**سپاهى**– **Sepoy**" هندية.

النجاح الذى تحقق فى "**البنغال**" أدى إلى نجاحات فى أماكن أخرى. وجد الحكام الهنود الآخرون فى "**الشركة**" حليفا مفيدا، واستخدموها لتدريب قواتهم

وتنظيم إداراتهم؛ ورحب التجار الهنود بنفوذها المتزايد حيث كانت تقوم بشراء كميات متزايدة من المنسوجات منهم، كما كانت تساعدهم فى حماية ممتلكاتهم من أطماع الحكام الهنود؛ بل إن "**الشركة**" رسخت سلطتها بأن خلقت طبقة جديدة كبيرة من مـــلاك الأراضى، من بين قطاعـــات من "**الزامنداريـــة- Zamindars**" (جباة الضرائب) القدامى.

لم يكن من الصعب على البريطانيين تدعيم وضعهم أكثر من ذلك، عند الضرورة، بالاستغناء عن الحكام المحليين المعاندين، لتحكم "**الشركة**" بشكل مباشر.

بحلول العام **1850**، كانت سياسة التخلص من بعض الحكام و"شراء" غيرهم، قد أدت إلى اتساع الهيمنة البريطانية عبر شبه القارة. تم إخضاع "**الماراثيين- The Marathas**" فى **1818**، و"**السند- Sind**" فى **1843**، و"**السيخ- Sikhs**" فى **1849**، و"الأوده- **Oudh**" فى **1856**. كان الممثلون البريطانيون يتباهون بأن أسلوب "**الشركة**" كان على نموذج المبدأ الرومانى "**فرق تسد- divide et impera**". باستخدام الرشوة أحيانا أخرى، كانت تؤلب حاكما على آخر، ومملكة على مملكة، وطبقة على طبقة، وطائفة على طائفة، ودين على آخر، كما كانت تجد لها أعوانا وحلفاء محليين اينما تحركت. مكنها ذلك من أن تخضع إمبراطورية، بها **200** مليون نسمة، و"جيش وطنى قوامه **200,000** جنديا، يقوده ضباط إنجليز... تحت سيطرة جيش إنجليزى لا يزيد عدده عن **40,000** جنديا"[٥].

انهمرت ثروة طائلة على وكلاء "**الشركة**" ومسئوليها. "**كلايف**"، غادر الهند وفى حوزته **234,000** جنيها استرلينيا، سلبا ونهبا؛ تعادل عدة ملايين بحساب هذه الأيام، أما "**وارن هيستنجز- Warren Hastings**" الحاكم العام، فكان مشهورا بتقاضى الرشاوى الكبيرة. كانت الثروة من إنتاج جماهير الفلاحين. كان مزارعو "**البنغال**" و"**بيهار**" يدفعون ضرائب تقدر بمليونى جنيه سنويا، وكانت "**الشركة**" تطلق على مسئوليها لقب "الجباة- **collectors**"، وتطبق أساليب الابتزاز نفسها التى كان "**المغول**" يمارسونها، ولكن على نحو أكثر كفاءة، وعواقب أكثر تدميرا.

كان الفقر الذى أصاب جماهير الشعب فى أواخر عهد "**المغول**" قد أصبح أكثر ضراوة، كما أدى فشل المحاصيل فى **1769**، وما تبعه من مجاعة وأوبئة إلى موت نحو مليون نسمة، والآن كانت المنطقة التى أذهلت الأوروبيين بثرواتها قبل نصف قرن فحسب، فى طريقها لأن تكون أكثر مناطق العالم فقرا.

لا شيء من ذلك كان يمكن أن يكون مبعث قلق لأى من **النواب- nawabs**، أو **الأمراء- Maharajas**، أو **التجار**، أو **الزامندارية- Zamindars**، الذين كانوا يأكلون على مائدة "**الشركة**". مع زيادتها سمنة، كانوا هم أيضا يزدادون سمنة، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن شراكتهم مع "**الشركة**" لم تكن شراكة بين أنداد، فى "**الشركة**" التى كانت ترفع حكاما محليين إلى عنان السماء، كانت تستطيع أن تتخلص منهم دون تردد. كان مركز السيطرة على "**الشركة**" موجود فى "لندن": إلا أن الكثيرين من التجار الهنود كان يمكن أن يفيدوا من العلاقات التجارية معها، وكان ذلك أوضح ما يكون فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر. فجأة، مكنتهم ميكنة مصانع القطن فى "لانكشاير" من إنتاج قماش بتكلفة أقل من الصناعة اليدوية فى الهند. وبدلا من الدور المهم الذى كانت تقوم به المنتجات الهندية فى الأسواق البريطانية، استولى القماش البريطانى على السوق الهندية، ما أدى إلى دمار جزء كبير من صناعة المنسوجات الهندية وتدمير حياة الملايين من عمال هذه الصناعة، ومن ثم أرباح التجار الهنود. دون حكومة منهم، لم يكن لديهم وسيلة لحماية مصالحهم، حيث كانت البلاد قد دخلت فى حالة من "التدهور التصنيعى"، وأزاحتهم الرأسماليون البريطانيون من المجالات المربحة مثل بناء السفن وأعمال البنوك. فى الوقت نفســـه كانت الشريحة الضئيلة من المسئــولين البريطانيين الأكثر تمتعا بالامتيازات، كانت قد أصبحت أكثر عجرفة، أكثر استأسادا، أكثر تشامخا، أكثر جشعا، وأكثر عنصرية.

ثم كان أن حصدوا عواقب ذلك كله فى **1857**. انقلبت قوات "**السباهى**" الهندية التابعة للشركة على الضباط بعد تجاهل المعتقدات الدينية للقوات وإصدار

الأوامر لهم باستخدام خرطوش تم تشحيمه بدهن بقرى (وهذا محرم تماما عند **الهندوس**) ودهن الجنزير (وهذا محرم تماما عند **المسلمين**). أصبحت القضية بؤرة للسخط فى ربوع الهند، ضد سلوك "السادة" البيض (**White Sahibs**). فى غضون أسابيع قليلة، كان الجنود المتمردون قد استولوا على منطقة كبيرة فى شمال الهند، وقتلوا كل من تمكنوا من الوصول إليه من الضباط والمسئولين البريطانيين، وحاصروا من بقى فى مراكز منعزلة محصنة. نسى "**الهندوس**" و"**السيخ**" أى عداء تجاه **المسلمين**، ونصبوا أحد ورثة "**المغول**" إمبراطورا فى العاصمة التاريخية لـ"دلهى– **Delhi**". دفعت حكومة مرتعدة بقوات بريطانية إلى شبه القارة، ونجح الضباط فى إقناع الجنود الهنود فى "مدارس" و"بومباى" بإخماد التمرد فى الشمال. بعد ذلك، كانت تستخدم أكثر الأساليب وحشية لردع أى محاولة للتمرد.

على الرغم من ذلك، ارتأت الحكومة أن القمع، فحسب، لا يمكن أن يشيع السلام فى الهند، وأن لا بد من قدر من السيطرة على جشع التجارة البريطانية، إن كان لا بد من الإبقاء على الدجاجة التى تبيض الذهب، وتأكيد سياسة "**فرق تسد**"– بمأسسة الانقسامات المجتمعية والدينية، حتى وإن كان ذلك يعنى التخلى عن محاولات جعل السلوك الاجتماعى الهندى متسقا مع المعايير البرجوازية. حل حكم مباشر من بريطانيا محل حكم "**شركة الهند الشرقية**"، وأعلنت "**الملكة فيكتوريا**" إمبراطورة على الهند، مع بذل كل جهد "لربط" الحكام المحليين الهنود وملاك الأراضى بالنظام الإمبراطورى.

ولكن، إذا كان قد تم تنظيم الإدارة، فإن إفقار الكتلة الجماهيرية استمر. ارتفعت نسبة عدد السكان الذين يعتمدون على الزراعة مصدرا للعيش من **50%** إلى **75%**[٦]، بينما كان **25%** من عائدات الضرائب يذهب للإنفاق على الجيش، ليظل الهنود فى الحضيض. كان نصيب كل من التعليم والصحة العامة والزراعة **1%** بالكاد[٧]. اجتاحت المجاعة البلاد. أكثر من مليون نسمة ماتوا فى ستينيات القرن التاسع عشر، وثلاثة ملايين ونصف المليون فى السبعينيات، وقرابة العشرة ملايين فى التسعينيات[٨].

فى الوقت نفسه كانت هناك مهن معينة تدفع رواتبها من الضرائب المفروضة على الفلاحين، وذلك لأبناء الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة البريطانية – فى الجيش ووظائف الخدمة المدنية التى أنشأت حديثا. كانوا يجيئون بزوجاتهم ويعيشون فى تجمعات عنصرية منعزلة، وصفها "**كپلنج– Kipling**" فى روايته "قصص عادية من التلال– **Plain Tales From the Hills**"، و"**فورستر– Forster**" فى روايته "الطريق إلى الهند– **Passage to India**" و"**أورويل– Orwell**" فى "أيام بورما– **Burmese Days**" و"**پول سكوت– Paul Scott**" فى "جوهرة فى التاج– **Jewel in the Crown**".

كان السادة (**Sahibs**) البريطانيون يحتقرون أولئك الذين يدعونهم بـ"الأهالى– **natives**"، إلا أنهم كانوا ما زالوا يعتمدون على البعض منهم فى السيطرة على الكتلة العريضة من السكان. كان النبلاء أن الأمراء– **rajahs or maharajahs**– قد بقوا فى قصورهم، التى أعيد بناؤها على أفخم طراز، مع زوجاتهم العديدات وخدمهم وخيولهم وأفيالهم وكلاب الصيد– وكانوا أحيانا يحكمون، حتى، اسميا (وخاصة فى "حيدر أباد")، بينما كانوا فى الواقع يتلقون الأوامر من "مستشارين" بريطانيين. فى المناطق الريفية فى الشمال، كان "الزامندارية" يعيشون حياة أقل ترفا، مهيمنين على الفلاحين، ويعتمدون على البريطانيين عند الحاجة. ثم كان هناك "**برهمانية– Brahmins**" القرية والكبار الذين يمكن أن يساعدوا البريطانيين فى جمع الضرائب و"الزامندارية" فى تحصيل الإيجارات. كلهم كانوا يستخدمون الانقسامات الدينية أو الطائفية لتقوية موقفهم فى التفاوض مع من هم أعلى منهم واستغلالهم لمن هم دونهم، لدرجة أن العلاقات بين الطوائف، بنهاية القرن التاسع عشر، كانت قد أصبحت أكثر تنظيما بصفة عامة، مما كانت عليه فى مطلع القرن. فى الوقت نفسه، كانت طبقة متوسطة جديدة قد بدأت تتشكل، كان أبناؤها يتطلعون لأن يصبحوا محامين أو موظفين فى الخدمة المدنية فى إطار الحكم البريطانى، إلا أن آمالهم كانت تتبدد باستمرار بسبب عقبات عنصرية.

إخضاع الصين

تجنبت الصين أن تستوعب، مثل الهند، فى إمبراطورية أوروبية، إلا أن مصير الكتلة الأكبر من شعبها لم يكن أفضل كثيرا.

كانت ثروة الصين مثيرة لطمع تجار الغرب منذ زمن "**ماركو بولو– Marco Polo**" فى القرن الثالث عشر. إلا أنهم كانوا أمام مشكلة، إذ بينما كانت الصين تنتج أشياء كثيرة يرغب فيها الأوروبيون، لم تكن أوروبا تنتج كثيرا مما يريده الصينيون. شرعت "**شركة الهند الشرقية البريطانية**" فى علاج هذا الأمر بتحويل مساحات شاسعة من الأراضى المفتوحة حديثا فى الهند لزراعة منتج يخلق لنفسه الطلب عليه – **الأفيون**. بحلول العام **1810**، كانت تبيع **350,000** كيلو جرام من المخدر سنويا عن طريق "كانتون– **Canton**"، وسرعان ما حولت فائض تجارة الصين التى عمرها قرون، إلى عجز؛ وعندما حاول المسئولون الصينيون إيقاف تدفق **الأفيون** دخلت بريطانيا حربا من أجل الحق فى خلق الإدمان.

كانت الإدارة الصينية تحكم إمبراطورية أقدم وأكثر سكانا من أى إمبراطورية فى العالم، ولم تكن البلاد قد تعرضت لأى غزو سوى من قبل بعض القبائل الرحل من الشمال. كان حكامها يتوقعون أن يكونوا قادرين بسهولة، على دحر أى خطر يأتى من البحر، على يد دولة على بعد أكثر من **7000** ميلا. لم يكونوا يدركون أن التقدم الاقتصادى فى الطرف الآخر من أوراسيا – التقدم الذى كان للابتكارات الصينية الهائلة فى القرون الماضية يد كبيرة فى تحققه – كان قد أدى إلى ظهور دولة أكثر قوة مما يمكن أن يتصور أحد.

كتب أحد كبار المسئولين مذكرة للإمبراطور، يتنبأ فيها بانتصار سهل:

> **البرابرة الإنجليز جنس تافه وبغيض، يعتمدون على سفنهم القوية ومدافعهم الضخمة، المسافات الطويلة التى سيقطعونها ستجعل وصول الإمدادات لهم أمرا مستحيلا، وبعد هزيمة واحدة... سوف تنهار معنويات جنودهم، ويخسرون المعركة[٩].**

ولكن، بعد ثلاث سنوات من القتال المتقطع والمفاوضات، كان الصينيون هم الذين خضعوا للشروط البريطانية – وفتحوا عددا من الموانئ لتجارة **الأفيون**، ويدفعون تعويضات، ويتخلون عن جزيرة "هونج كونج"، ويمنحون المزيد من الحقوق الإقليمية للرعايا البريطانيين، ولم يمر وقت طويل، قبل أن يقول البريطانيون إن كل تلك التنازلات لم تكن كافية. شنوا حربا ثانية فى **1857**، عندما قامت قوات قوامها **5000** جنديا بمحاصرة "كانتون– **Canton**" وفرض المزيد من التسهيلات أمام التجارة؛ بل إن ذلك لم يكن كافيا أيضا، فاشتركوا مع الفرنسيين فى الزحف على "بيچين– **Beijing**"، بقوة من **20000**، جنديا، وأحرقوا "قصر الصيف".

يختلف العلماء والباحثون الصينيون حول أسباب هذه الانتصارات البريطانية التى تحققت بسهولة، فبينما يعزوها البعض لتفوق الأسلحة والسفن الحربية، وهما من نتاج التقدم الصناعى[١٠]، يؤكد آخرون أن الضعف الداخلى لدولة "**المانشو–Manchu**" هو ما كان وراء ذلك، على اعتبار أن الفارق فى المستوى الاقتصادى بين الدولتين لم يكن قد أصبح كافيا لكى يفسر سر هذا الانتصار[١١]. إلا أنه ليس هناك ثمة اختلاف حول النتائج. أضعفت التنازلات التى حصلت عليها بريطانيا قدرة الدولة الصينية على السيطرة على التجارة، وإيقاف التدفق المتزايد للفضة التى كانت تستخدمها للعملة. حدث انهيار فى الصناعة والزراعة راح يتزايد، كما فتحت الهزيمة الباب أمام قوى أخرى لكى تطلب تنازلات مماثلة، حتى أصبح للدول الأوروبية مناطق امتيازات (هى فى الواقع مستعمرات صغيرة) على امتداد الساحل الصينى.

زاد حجم وعمق معاناة الطبقة الفلاحية فى ظل تدهور "**إمبراطورية المانشو**"، نتيجة لهذه الانتهاكات الأجنبية. أصبحت الأحوال لا تطاق وخاصة فى المناطق الجبلية الأقل خصبا على الحدود بين الأقاليم؛ ومثلما كانوا يفعلون فى الماضى فى مثل تلك الظروف، راح الفلاحون الصينيون ينخرطون فى النحل الدينية المنشقة وينتفضون ضد "سادتهم"، ليتبع ذلك ما يطلق عليه عادة تمرد الــ"**تاى– پنج– T'ai-p'ing**"، والواقع أنه كان هجوما ثوريا حقيقيا على سلطة الدولة.

بدأت الحركة بين الفلاحين والعمال وعدد قليل من المثقفين في جنوب الصين فى منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر. كان زعيمها "**هونج هسيو- شوآن**– **Hung Hsiu- chiuan**"، وكان معلما ينتمى إلى أسرة فُلاحية، تراءى له أنه شقيق المسيح، وأن الله يأمره بتحطيم شياطين الأرض وإقامة "**مملكة ربانية**" لـــ"**السلام العظيم**" (بالصينية: **تاى–پنج: T'ai-p'ing**). راح يبشر بعقيدة للمساواة بين الناس، وتقسيم عادل للأراضى، وملكية جماعية للسلع، وإلغاء التمايزات الاجتماعية القديمة بما فى ذلك تلك التى تجعل النساء خاضعات للرجال. كان أتباعه على درجة من الإيمان به ومن الانضباط، مكنتهم من اجتذاب المزيد من التأييد، وإلحاق الهزيمة بالجيوش التى تم تحريكها ضدهم؛ وبحلول العام **1853**، اكتسبت الحركة مليونين مؤيد، واستطاعوا أن يستحوذوا على العاصمة الإمبرالية السابقة "نانكنج **nanking**" وأدروا ما يمثل ٤٠% من مساحة البلاد لحسابهم.

ولكن الأفكار المساواتية المثالية لهذه الحركة لم تدم. حيث تصرف القائد الأعلى باعتباره حاكما امبراليا جديدا، حيث بدأ "**هونج Hung**" حياة من "الرفاهية الزائدة، والمعيشة المترفة، وأحاط نفسه بالعديد من المحظيات"[١٢]، بينما عانى الفلاحون الفقراء والوعى من دفع الضرائب، حتى لو كانت أقل من ذى قبل.

كانت قيادة "**تاى–پنج**" قد تخلت عن نماذجها المثالية، وقد اتبعت نمط التمردات الفلاحية السابقة فى الصين. فالفلاحون الأميون والأرض المتفرقة على مساحات شاسعة لم تكن قوية بشكل كاف لفرض السيطرة على الجيش وقياداته. واكتشفوا أن المواد المادية غير موجودة لتلبى أفكارهم الرؤيوية بشأن الوفرة من أجل الجميع. وكان الخيار السهل هو أن يسقطوا فى فخ الطريق التقليدى للحكم.

ولكن المرحلة الأخيرة من التمرد أسفر عن علامات لشىء جديد. القيادة الفاعلة لابن عم "هونج" بدأت برنامجا قطع صلته بالطرق التقليدية، بالرغم من عدم رجوعه للأفكار المساواتية. حيث دفع باتجاه "تحديث" اقتصاد الصين من خلال تبنى التقنيات الغربية – مثل افتتاح البنوك، وبناء السكك الحديدية، والسفن

البخارية، وتطوير التعدين وتشجيع العلوم والتكنولوجيا. وهذا يشير إلى أن تمرد التاى بينج كانت له قوة فى قطع الصلة بينهم وبين النمط السابق للثورات الفلاحية، حيث أزالوا العقبات الاجتماعية من طريق البلاد، ولكن هذه القوة لم تتطور بعد. وقد قام التجار الصينيون بتمويل الجيش الإمبراطورى، وبإمدادات من الأسلحة الحديثة من بريطانيا وفرنسا وبمساعدة قوات أجنبية... تحت قيادة "**الميجور جوردون– Major Gordon**" بالزحف على الـ"يانج تسى"، لتسقط "نانكنج" فى **1864**، ويقضى فى الحرب نحو مائة ألف شخص على الأقل[١٣].

كانت الدول الرأسمالية الغربية قد ساعدت على استقرار النظام ما قبل الرأسمال القديم فى الصين، ما جعله يستمر خمسين عاما أخرى، وبذلك كانت تساعد أيضا على تراجع الصين، بينما كانت أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية تحققان تقدما اقتصاديا.

المسألة الشرقية

كان النموذج شديد الشبه بما كان فى الإمبراطورية الشرقية العظيمة الثالثة، أى "**الإمبراطورية العثمانية**". كانت تلك الإمبراطورية المتعددة القوميات، تهيمن على مساحة هائلة على مدى **400** سنة – كل الشمال الأفريقى، مصر وما يعرف الآن بـ"السودان"، شبه الجزيرة العربية، فلسطين وسوريا والعراق، آسيا الصغرى، قطاع كبير من أوروبا يضم البلقان بالكامل، وهنغاريا وسلوفاكيا، أحيانا. كان يحكمها إمبراطور تركى مقره "اسطنبول"، وكانت هناك طبقة من ملاك الأراضى الأتراك فى آسيا الصغرى وأجزاء من البلقان؛ إلا أن جزءا كبيرا من الإمبراطورية كانت تديره الطبقات العليا من الشعوب المفتوحة غير التركية– يونانيون فى معظم البلقان، عرب فى الشرق الأوسط، ونسل حكام مصر من المماليك الذين كانوا قبل العثمانيين؛ وفى "اسطنبول"، كانت هناك أشكال مختلفة منة الإدارة الذاتية للجماعات الدينية المختلفة (مسيحيون أرثوذكس، ومسيحيون

سريان، ويهود... إلخ) وكانت كلها ضمن إطار حكم السلطان. حتى الجيش، لم يكن كله تركيا بشكل حصرى. كان الجزء الرئيسى منه مكونا من "**الانكشارية-Jannisaries**"، الذين كانوا فى الأصل أطفال أسر مسيحية فى البلقان، أخذوا عبيدا (أسرى) إلى "اسطنبول" ليتم تدريبهم ليكونوا مقاتلين على أعلى مستوى.

كانت ثروة الإمبراطورية، مثل ثروات مجتمعات ذلك الزمان، تأتى فى معظمها من الزراعة؛ إلا أن العثمانيين كانوا قد تاجروا لفترة طويلة مع كل من أوروبا والهند والصين. كانت تجارتهم مع أوروبا الغربية تتم عن طريق روسيا واسكانديناڤيا، عبر الأنهار المتصلة بـ"البحر الأسود" و"بحر قزوين"، وعن طريق الجنوب الأوروبى عبر التجارة مع "ڤينيسيا" و"جنوة"؛ أما التجارة مع الهند والصين فكانت عبر طرق برية، مثل "**طريق الحرير**" الذى كان يمتد شمالى أفغانستان وعبر موانئ على "البحر الأحمر" و"الخليج الفارسى". حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا، كان هناك تقدم، وإن بطيئا، فى كل من الزراعة (انتشار محاصيل جديدة مثل البن والقطن) والصناعات اليدوية.

من ناحية أخرى، كانت "**الإمبراطورية العثمانية**" واقعة تحت ضغط خارجى متزايد، منذ بدايات القرن التاسع عشر. كان "**نابوليون**" قد غزا مصر واحتلها إلى أن طردته قوات بريطانية، وفى **1830** كانت فرنسا قد استولت على الجزائر فى مواجهة مع مقاومة محلية شديدة. كانت القوات الروسية قد احتلت معظم القوقاز وساحل البحر الأسود، وكانت عيونها مصوبة نحو "اسطنبول" نفسها. كان "الصرب" قد ثاروا على الحكم التركى وأقاموا مملكة مستقلة فى **1815**، وكان اليونانيون قد أقاموا دولة فى عشرينيات القرن بمساعدة من بريطانيا وروسيا. كان القياصرة الروس يشجعون حركات مشابهة فى أماكن أخرى، ويطرحون أنفسهم "**حماة**" لجماعات عرقية ناطقة بلغات تشبه لغتهم وتنتمى إلى الملة الأرثوذكسية من المسيحية.

بدأ التقدم الروسى يخيف حكام أوروبا الغربية، حتى عندما كانوا ما زالوا يعولون على الجيوش الروسية لسحق الثورة فى بلادهم، كما فعلوا فى النمسا

وبروسيا. كانت رغبتهم فى الإبقاء على "**الإمبراطورية العثمانية**" حاجزا أمام التوسع الروسى مسيطرة على الدبلوماسية الأوروبية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى فى **1914**، وأصبح ذلك يعرف بـ"**المسألة الشرقية**".

كانت الحكومات البريطانية فى الصدارة فى هذه الجهود. دعم الحكام العثمانيين لم يمكنهم من لجم القوة الروسية فحسب، وهو ما كانوا يرونه خطرا يتهدد حكمهم فى شمال الهند، ولكنه كان يؤمّن فى ذات الوقت توفير العثمانيين الفرصة أمام البضائع البريطانية لكى تصل إلى أسواق الشرق الأوسط والبلقان.

ظهرت أهمية ذلك فى **مصر**. كانت السلطة فى البلاد (مع مناطق سوريا ولبنان وفلسطين المجاورة) قد انتقلت إلى "**محمد على**"، أحد "الباشاوات" من ذوى الأصول الألبانية، فى **1805**. كان يحكم باسم **السلطان العثمانى**، إلا أنه كان، فعليا، حاكما مستقلا حتى **1840**. رأى "**محمد على**" أن الصناعة كانت مفتاح القوة، فبدأ ثورة صناعية فى **مصر**. نظم احتكارات الدولة واشترى ماكينات حديثة للنسج من أوروبا، واستقدم أوروبيين مهرة لتعليم المصريين كيفية استخدامها. أنشأ "**محمد على**" كذلك افرانا للحديد والصلب، واستولى على الأراضى من أصحابها المماليك وزرع محاصيل للتصدير. كانت النتيجة أن كانت مصر فى أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر الخامسة من حيث عدد مغازل القطن بالنسبة للفرد فى العالم، وكان هناك نحو **70000** من العمال فى المصانع الحديثة[١٤].

إلا أن تجربة "**محمد على**" توقفت فجأة فى **1840**. أرسلت بريطانيا قواتها البحرية لمساعدة "**الإمبراطورية العثمانية**" لفرض سيطرتها على **مصر** فقصفت الموانئ المصرية على الساحل اللبنانى وأنزلت قوات فى سوريا، وأجبر "**محمد على**" على تقليص جيشه (الذى كان قد أمن سوقا لمصانع النسيج) وفك احتكاراته وقبول "**سياسة للتجارة الحرة**" فرضتها بريطانيا؛ وهناك اعتراف ساخر لـ"**لورد بالمرستون**- **Lord Palmerston**" يقول فيه "ربما كان إخضاع "**محمد على**" لبريطانيا خطأ وسلوكا مغرضا. كنا مغرضين بالفعل، حيث إن مصالح أوروبا الحيوية تتطلب ذلك"[١٥]. كان حكام أكثر القوى الصناعية الأوروبية تقدما سعداء

لفرض سياسات تمنعى تطور الرأسمالية الصناعية فى أماكن أخرى.

شهدت **مصر** فى العقود التالية لذلك تراجعا فى التصنيع مثلما حدث فى الصين والهند، ثم تعرضت للاحتلال من قوات بريطانية عندما عجز خلفاء "محمد على" عن تسديد الديون.

حاولت **مصر**، على الأقل، القيام بالتصنيع، كما كانت هناك بعض المحاولات الأخرى فى "**الإمبراطورية العثمانية**"، ولكن سهولة تدفق البضائع الرخيصة إلى أسواقها دون عوائق حكم على كل تلك المحاولات بالفشل. يصدق ذلك أيضا على محاولات "**الإمبراطورية الإيرانية**" التى كانت "محصورة" بين العثمانيين والهند البريطانية وروسيا القيصرية.

الهوامش

(١) انظر على سبيل المثال قصصه الطويلة الساخرة: "زاديج- Zadig" و"أميرة بابل- The Princess of Babylon".

(2) A. Smith, "The Wealth of Nations", (London, 1986), pp. 174-175.

(٣) "الزنوج- Niggers" هو المسمى الذى كانت تطلقه شخصيات قصص "كيلنج- Kippling" القصيرة على السكان الأصليين، أما "wogs" (وتعنى الأجانب الكريهون) - بالعامية الإنجليزية- فكانت مسمى إهانة يطلق على أهالى مستعمرات الإمبراطورية البريطانية.

(٤) انظر:

B. Stein, "A History of India", (Oxford, 1998), p.202,

الذى يتحدث عن تطور طبقة رأسمالية محلية فى الهند قبل "الاحتلال الرسمى"، وليس هناك ما يؤكد صحة ذلك، أعتقد أن ما يوصف هنا ليس أكثر من رأسمال تجارى ومالى مثل ذلك الذى كان فى أوروبا بدءا من منتصف مرحلة الإقطاع، أكثر منه رأسمالية صناعية أو تجارية، سوى فى صورتها الجنينية؛ كما يجادل بعض المؤرخين بأن حركات التمرد الدينية والفلاحية كان يمكن أن تفتح الطريق أمام تطور رأسمالى، وهناك من ينكر ذلك تماما. مرة أخرى، لا أستطيع أن أؤكد أو أنفى.

(5) K. Marx, "The Revolt in the Indian Army", New York Daily Tribune, 15 July 1857,

وذلك كما جاء فى:

K. Marx and F.Engles, Collected, vol.15 (Moscow, 1986), p.297.

(6) B. Stein, "A History...", p.248.

(٧) أرقام السنوات الأولى من الحكم الاستعمارى المباشر والسنوات التالية لتسعينيات القرن التاسع عشر نقلا عن المصدر السابق: pp. 257, 263.

(٨) الأرقام عن المصدر السابق p.262.

(9) A "Censor", "Memorial to the Emperor",

تجدها مترجمة فى:

F. Schurmann and O'Scholl, "Imperial China", (Hammondsworth, 1977), p.139.

(١٠) تلك هى تفسيرات كل من: المحررين وTsiang Ting-Fu وذلك فى:

F. Schurmann and O'Scholl, "Imperial China". pp. 126, 133, 139.

(١١) هذه هى الحجة التى يصر عليها:

J. Gernet, "A History of Chinese Civilisation", (Cambridge, 1996), pp.539-541.

(12) W. Franke, "The T'ai-p'ing Rebellion", extract in F. Schurmann and O.Scholl, "Imperial China", pp. 170, 183.

(١٣) المصدر كما ورت فى:

P.A. Kuhn, "The T'ai-P'ing Rebellion" in J.R. Fairbank (ed), "Cambridge History of China", vol.10 (Cambridge, 1978), p.309.

(14) J. Batou, "Muhammed Ali's Egypt, 1805-48", in J.Batu (ed) "Between Development and Underdevelopment", (Geneva, 1991), p.183-207.

يعارض بعض المؤرخين الاقتصاديين هذه الصورة عن التقدم، ومنهم على سبيل المثال: D.Landes فى كتابه:

"The Wealth and Poverty of Nations", (London, 1998)

ويشيرون إلى أوجه قصور، وتكلفة باهظة ورداءة نوعية الإنتاج، إلا أن مثل ذلك يمكن أن يقال عن بدايات التصنيع فى دول أخرى مثل اليابان فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، التى حققت فيما بعد نجاحا تنافسيا عالميا. أحد الفروق بينها وبين مصر أنها كانت أكثر انعزالا عن المنافسة العالمية المباشرة، كما كانت أكثر قدرة على تفادى الإملاءات الغربية المباشرة على سياساتها التجارية.

(١٥) كما ورد فى:

J. Batou, "Muhammed Ali's Egypt", p.205.

-١٠-

الاستثناء الياباني

جزء واحد لا غير من العالم غير الغربي هو الذى نجا من الركـود أو الاضمحلال الذى أصاب بقية آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ومعظم أوروبا الشرقية فى القرن التاسع عشر. هذا الجزء هو **اليابان**.

على مدى الألفية السابقة، كانت الحضارة الصينية، الأقدم بمراحل، هى المؤثرة بشكل كبير فى ما حدث فى البلاد من تطور، فى التكنولوچيا والأبجدية والأدب، إلى جانب واحد أحد أديانها الرئيسية. إلا أن اليابان كانت مختلفة عن الصين فى جانب مهم. لم يكن لديها قنوات أو أنظمة للرى مثل الصين، ولا دولة مركزية قوية. حتى سنة **1600** تقريبا، كان بها نظام اقتصادى وسياسى أشبه بذلك فى أوروبا العصور الوسطى. كان هناك "إمبراطور" ضعيف، أما السلطة الحقيقية فكانت فى يد أمراء إقليميين، يرأس كل منهم طبقة من الأرستقراط المسلحين، (الساموراى- **Samurai**)- المقابلة تقريبا لطبقة **الفرسان**- **Knights** فى أوروبا فى العصور الوسطى- كانت تقوم باستغلال الفلاحين بشكل مباشر وتجارب فى جيش أميرها ضد "ساموراى" آخرين.

فى مطلع القرن السابع عشر، نجح أحد أبناء أسرة من الأسر الإقطاعية المتنفذة (**توكوجاوا- Tokugawa**) فى أن يهزم ويخضع الآخرين. أصبح كبير الأسرة هو "**الشوجون- Shogun**"، وهو الحاكم الفعلى، بينما بقى الإمبراطور مجرد رئيس صورى. كان الأمراء الآخرون مجبرين على قضاء معظم وقتهم فى "**إيدو- Edo**" (طوكيو الآن)، عاصمة "**الشوجون**"، تاركين أسرهم هناك رهائـن لحسن سلوكهم. كان "**الشوجون**" يحظرون المدافـع التى لعبت دورا مدمرا فى

الحروب الكبيرة الأخيرة فى الفترة السابقة (رغم استمرار "الساموراى" وحملهم للأسلحة، (الحق الذى كان الفلاحون والحرفيون والتجار محرومين منه). حاول "**الشوجون**"، كذلك منعوا أى نفوذ خارجي يمكن أن يقوض حكمهم. منعوا كل التجارة الخارجية، ولم يسمحوا سوى للسفن الهولندية والصينية بدخول ميناء واحدة، تحت رقابة صارمة. منعوا كل الكتب الأجنبية، كما مارسوا إجراءات قمعية شديدة ضد آلاف من المتحولين إلى الكاثوليكية.

نجحت هذه الإجراءات فى وضع نهاية للحروب الدموية التى سادت معظم الفترة السابقة، إلا أن "**الشوجون**" لم يستطيعوا أن يوقفوا استمرار تغير المجتمع تحتهم. أدى تركز وجود الأمراء واسرهم فى "**إيدو**" إلى نمو تجارة الأرز اللازم لإطعامهم وذويهم، وزيادة كبيرة فى أعداد المشتغلين بالحرف والبيع والشراء. نمت المدن اليابانية لتصبح من بين الأكبر فى العالم. راحت طبقة التجار، رغم مكانتها الاجتماعية المتواضعة، تزداد أهمية، كما نمت ثقافة حضرية جديدة فى مجالات عدة مثل الشعر الشعبى والمسرحية والرواية، وكانت ثقافة مختلفة كثيرا عن ثقافة الدولة الرسمية؛ كما أدى تخفيف الحظر على الكتب الأجنبية بعد **1720** إلى ظهور اهتمام لدى بعض المثقفين بالأفكار الغربية، كما بدأت "مدرسة للدراسات الهولندية" تهتم بدراسة العلوم والهندسة الزراعية والفلك "**الكوبرنيكى**"– نسبة إلى **كوبرنيكوس**"؛ ومع زيادة أهمية النقود أصبح كثير من طبقة "**الساموراى**" فقراء فاضطروا لبيع أسلحتهم وامتهان الزراعة أو غيرها من الحرف لدفع ديونهم. فى الوقت نفسه كانت مجاعات متكررة تضرب المناطق الريفية. (مليون نسمة تقريبا ماتو فى **1732** من إجمالى عدد السكان البالغ **26** مليون نسمة، وفى **1775** مات نحو **200000** نسمة، ومئات الألوف فى ثمانينيات القرن)، كما كانت هناك انتفاضات فلاحية محلية كثيرة، فى أماكن مختلفة[1]. ظلت البنية الفوقية السياسية للـ"**توكوجاوا– Tokugawa**" سليمة ومتماسكة تماما، إلا أن القوى الاجتماعية تحتها كانت تتطور مع أوجه شبه بتلك فى أوروبا الغربية أثناء فترة "**النهضة**".

كانت تلك هى الصورة العامة فى **1853**، عندما وصل "**بيرى– Perry**"، أحد قيادات البحرية الأمريكية بالقرب من الشاطئ مع أربع سفن حربية، لكى يطلب من

الحكومة اليابانية فتح البلاد أمام التجارة الأجنبية. سادت حالة من الاضطراب فى صفوف الطبقة الحاكمة فى المجتمع بكاملها. نظرت حكومة الـ"توكوجاوا" فى أمر توازن القوة التسليحية ووجدت أن الأساليب القديمة لم تعد صالحة، وأنها لا بد من أن تقدم تنازلات إن كان لها أن تتجنب هزيمة مثل تلك التى كانت الصين قد لقيتها مؤخرا فى "**حروب الأفيون**"؛ بيد أنه كانت هناك قطاعات أخرى من الطبقة الحاكمة "تقدس" الأساليب القديمة، وترى أن أى تنازلات تعطى للأجانب خيانى للمثل العليا؛ وبين الفئتين كانت هناك جماعات من "**الساموراى**"– الأقل مرتبة – التى كونت اتحادا يتعهد بـ"إجلال وتوقير **الإمبراطور** ورد **البرابرة**"(٢)، بالوسائل النضالية والثورية. كانت مطالبهم، على أحد المستويات تقليدية إلى حد كبير – كانوا يريدون أن تعاد **للإمبراطور** سلطاته التى كان من سبقوه فى المنصب يمارسونها على مدى مئات السنين؛ بينما كان بعض "**الساموراى**" يدركون ضرورة إحداث تغييرات شاملة فى المجتمع اليابانى، إن كان له أن يكون ندا لقوة "البرابرة" الاقتصادية والعسكرية.

جاءت فرصتهم لتحقيق أهدافهم مع "**ثورة الميجى– Meiji Revolution**" فى أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، عندما هاجم اثنان من كبار أمراء الإقطاع "**الشوجــون التوكوجاوا**" بمساعـدة "الساموراى" وشـكلوا حكومة جديدة باسـم **الإمبراطور**.

كانت تلك "**ثورة**" من أعلى، كانت شعاراتها تقليدية ولم تتحسن أحوال الكتلة الرئيسية من الشعب مقدار ذرة من جراء التغيير، إلا أن من قادوا تلك الثورة كانوا يعرفون أن عليهم التوجه نحو الرأسمالية إن كان لهم أن يبقوا على شىء من الماضى. قضوا على سلطة الأمراء المنافسين، ما جعلهم يعتمدون على الدولة للحصول على امتيازاتهم، كما أزالوا كل الفوارق الطبقية القديمة بين "**الساموراى**" والفلاحين والتجار والصناع؛ والآن كانت كل الدخول التى كان ينعم بها "**الساموراى**" نتيجة استغلالهم للفلاحين، تذهب الآن للدولة؛ وكان على من يريد من "**الساموراى**" أن يحصل على أكثر من الحد الأدنى الذى يكفيه، كان عليه أن يجد

عملا مع الدولة أو شركة خاصة؛ أما الأكثر أهمية من ذلك هو أن الدولة شرعت فى إقامة صناعات جديدة تحت سيطرتها وكانت تدعم ذلك من حصيلة الضرائب، وبعد أن قويت شوكة تلك الصناعات وأصبحت تستطيع الاعتماد على نفسها، قامت بتسليمها لأسر تعمل بالتجارة أو البنوك ذات صلات وثيقة بالدولة.

كـــانت "**ثورة الميجى**" ذات أهمية مزدوجة بالنسبة للتطور المستقبلـــى للراسمالية، وليس فى اليابان فحسب، وإنما عالميا. أثبتت "**الثورة**" أن المبادرة فى فتح المجتمع أمام علاقات إنتاج رأسمالية كاملة، ليس شرطا أن تكون من قبل **البرجوازية**. ما حققته "**العناصر الوسيطـــة**" فى "**الثورة الإنجليزية**"، أو الشريحـــة "**اليعقوبية**" من **البرجوازية** فى "**الثورة الفرنسية**"، قامت به فى اليابان قطاعات من الطبقات القديمة المستغلة.

كما أثبتت كذلك أن الدولة يمكن أن تكون بديلا عن طبقة راسمالية غائبة، عندما يكون الأمر متعلقا ببناء صناعة وفرض الأشكال الجديدة من العمل الرأسمالى. ظهرت طبقة ناضجة من رجال الصناعة الرأسمالية، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن كانت الدولة قد نجحت فى بناء الصناعة عن طريق استغلال العمل المأجور فى مصانع حديثة. كان المسار اليابانى إلى الرأسمالية، أكثر من البريطانى أو الفرنسى، نموذجا أمام معظم العالم فى القرن التالى.

فى الوقت نفسه، استطاعت الرأسمالية اليابانية الحديثة الميلاد، أن تظهر قوتها بعد **27** سنة من "**ثورة الميجى**"، عندما شنت حربا خاصة بها على الصين. ضحية التدخلات الأجنبية تحولت إلى واحدة من دول الطغيان.

الهوامش

(1) M. Hane, "Modern Japan", (Boulder, 1992), p.52-53..

(٢) المصدر السابق – p.71.

-١١-

اقتحام السماء: كومونة باريس

مع بداية سبعينيات القرن التاسع عشر، كان النظام الرأسمالي الجديد يمضي قدما نحو الهيمنة العالمية. كان قد ساد في الولايات المتحدة ومعظم أوروبا الغربية وكانت تلك الكيانات بدورها هي التي تملي شروطها على باقي العالم. حتى القيصر الروسي كان مضطرا لإنهاء القنانة في 1861، رغم أنه أعطى نصف الأراضي للطبقة الإقطاعية القديمة وترك الطبقة الفلاحية تحت رحمتها. في كل مكان، كان العالم ينقلب رأسا على عقب.

إلا أن الأحداث في "باريس" كانت تشير إلى أن التحول لم يكن ليتوقف بمجرد أن تصبح الرأسمالية على القمة. كان "**ماركس**" و"**إنجلز**" قد كتبا في المانيفستو (**البيان الشيوعي**)، إن "البرجوازية تنتج حفاري قبورها"، وفي **18** مارس **1871**، اكتشفت البرجوازية الفرنسية كيف يمكن أن يصدق ذلك.

قبل أربع سنوات، كان "**لويس نابوليون- Louis Napoleon**"، قد عرض فخامة وأبهة إمبراطوريته أمام ملوك أوروبا في "معرض عظيم" أقيم في مبنى زجاجي هائل بيضوي الشكل، بطول **482** مترا، وقبة عالية "لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام آلة رفع"(١).

كان لديه ما يريد أن يحتفي به. كانت فرنسا قد حققت تقدما رأسماليا هائلا منذ أن أطاح الجمهورية في **1851**. كان الإنتاج الصناعي قد تضاعف مع نمو الصناعات الحديثة، والإنتاج اليدوي القديم قد هبط أكثر منه في أي وقت سابق، تحت سيطرة أصحاب رؤوس الأموال الذين كانوا يتعاملون مع العمال وكأنهم في مصنع.

إلا أن سلطة الإمبراطور الخاصة لم تكن فى أمان مثلما كان يبدو. كانت تعتمدعلى فعل توازنات. كان يؤلب الجماعات المتنافسة فى الطبقة الحاكمة على بعضها البعض، كما حاول تدعيم وضعه بمحاكاة أعمال "**نابوليون الأول**" البطولية بمغامـــرات عسكرية فى إيطاليا والمكسيـــك (حيث حاول فرض مرشح فرنسى، "**مكسميليان– Maximilian**" إمبراطورا)، ولكن لا شىء من ذلك كله كان يمكن أن يمنع تنامى المعارضة ضد حكمه. زاد سخط قطاعات من الطبقة البرجوازية بعد أن أضرت بهم المضاربات لتملأ جيوب زمرة من أصحاب الأموال القريبين من الإمبراطور؛ كما انقلبت مغامرة المكسيك إلى كارثة كبرى بإعدام "**مكسميليان**" بواسطة فرقة إعدام عسكرية. عمال "باريس"، الذين كانوا يتذكرون مذابح **1848**، أصبحوا يكرهون النظام بعد أن ارتفعت تكاليف المعيشة لتتجاوز الأجور. "**هاوسمان– Haussmann**"، أحد أبرز القيادات المحيطة بـــ"**لويس بونابارت**"، هو نفسه كان يلاحظ أن أكثر من نصف سكان "باريس" يعيشون فى "فقر على حافة العوز"، رغم أنهم كانوا يعملون **11** ساعة يوميا(٢). بحلول العام **1869**، كانت المعارضة الجمهورية تكتسح الانتخابات فى "باريس" وغيرها من المدن الكبيرة، ثم كان أن مكن "**لويس بونابرت**" القائد البروسى "**بسمارك– Bismarck**" من استفزازه لإعلان الحرب.

لقيت القوات الفرنسية هزيمة ساحقة في معركة "**سيدان– Sedan**"، فقد "**لويس بونابارت**" الثقة به تماما، وتنازل عن العرش، وآلت السلطة للمعارضة الجمهورية البرجوازية؛ ولكن سرعان ما كان الجيش البروسى يحاصر "باريس"، مع إصرار من "بسمارك" على شروط تأديبية كان من بينها تعويض مالى كبير وتسليم منطقة "الألزاس– اللورين" الفرنسية لـــ"بروسيا".

على مدى خمسة أشهر من الحصار عاشت "باريس" ظروفا بالغة الصعوبة. أكل الناس الكلاب والفئران، ودون وقود لتدفئة منازلهم، فى درجات حرارى تحت الصفر. كانت المعاناة شديدة الوطأة على العمال والصناع وأسرهم بسبب ارتفاع الأسعار، كما تحملوا كذلك عبء الدفاع عن المدينة(٣). تدفقوا بأعداد كبيرة على

"**الحرس الوطنى**" ليصل حجمه إلى **350,000** فردا، وبقيامهم بانتخاب ضباطهم، تغير طابع الطبقة الوسطى الذى كان غالبا عليه؛ وسرعان ما أصبحت مقاومتهم مبعث قلق للجمهوريين مثلما كانت للبروسيين. الآن كانت سلالة الـ"سان كيلوت" **(1792)** وأطفال المقاتلين **(فى 1848)** يحملون السلاح مرة أخرى. نشطت الأندية "الحمـــراء" والصحـــف الثورية لتذكـــر العمال والصناع بمعاملـــة الجمهوريـــين البرجوازيين لهم فى **1848**؛ وكما كتب "**كارل ماركس**": "باريس المسلحة، يعنى الثورة المسلحة".

كانت الحكومة الجمهورية قد نجحت فى إحباط محاولة أحد الأجنحة اليسارية الإطاحة بها فى **31** أكتوبر، كما نجحت فى دحر محاولة أخرى فـــى **22** يناير، مستعينة بقوات نظامية من "بريتانى- **Brittany**" لإطلاق النار على حشد من منطقة "بلفى- **Belleville**" العمالية. كانت تخشى ألا تنجح هذه المرة. كان "**فيڤر- Favre**"، نائب الرئيس، يرى "الحرب الأهلية على بعد ياردات قليلة، والمجاعة على بعد ساعات"[٤]، وأن ليس هناك سوى وسيلة واحدة لحماية حكومته؛ وفى ليلة **23** يناير، عبر الخطوط البروسية سرا ليناقش شروط استسلام فرنسا.

أحدثت الأخبار حالة من الغضب الشديد بين فقراء "باريس". كان ذلك يعنى أن معاناة الأشهر الخمسة ذهب هباء. دعت حكومة الجمهوريين إلى انتخابات عامة فى غضون ثمانية أيام للتصديق على قرار الاستسلام؛ وكما حدث فى **1848**، لم يكن لدى يسار "باريس" وقت للقيام بحملة فى الدوائر الريفية حيث كانت الكتلة الأكبر من الناخبين، وحيث كان للكهنة وملاك الأراضى الأغنياء القدرة على ممارسة نفوذ كبير على التصويت. من بين **675** نائبا، كان هناك **400** من أنصار الملكية. زاد السخط فى "باريس"، إذ بعد خيانة الحصار، كانت خيانة الجمهورية. ثم كانت خيانة ثالثة، وهى تعيين "**أوجست تيير- August Thiers**"، البالغ من العمر **71** عاما رئيسا للحكومة. الآن كان يزعم أنه "جمهورى معتدل"، وهو الذى كان قد صنع سمعته السيئة عندما سحق انتفاضة جمهورية فى **1834**.

حتى ذلك الحين، كانت جماهير "باريس" ما زالت محتفظة بأسلحتها، بينما كان قد تم حل الجيش النظامي بموجب شروط الاتفاق مع البروسيين، بل إن أعدادا كبيرة من الطبقات المتوسطة الميسورة استغلت الفرصة للرحيل عن "باريس"، تاركة "**الحرس الوطني**" ليصبح كيانا ينتمي للطبقة العاملة أكثر من أي وقت مضى.

كان "**تيير- Thiers**" على يقين من صدام حتمي مع جماهير "باريس". كان يعرف أنهم يسيطرون على أسلحة "**الحرس الوطني**"، بما في ذلك **200** مدفعا، فأرسل مجموعة من الجنود النظاميين للاستيلاء عليها من مرتفعات "مونمارتر- **Monmartre**". بينما كان الجنود ينتظرون الخيول لجر المدافع، بدأ بعض العامة يتجادلون معهم، وحسب رواية "**ليساجاري- Lissagary**": "لم تنتظر النساء... حتى يأتي الرجال... أحطن بالمدافع وهن يرددن: يا للعار! ماذا تفعلون؟"[٥]، وبينما الجنود واقفون لا يعرفون كيف يتصرفون، مرت مجموعة من "**الحرس الوطني**" قوامها نحو **300** فردا، وهم يقرعون الطبول يستنهضون الناس للمقاومة. وعندما تجمع أفراد "**الحرس الوطني**" والنساء والأطفال وأحاطوا بالجنود، أعطى "**لوكومت- Lecomte**"، أحد الجنرالات، أمرا ثلاث مرات بإطلاق الرصاص على المتجمهرين. "بقي جنوده بلا حراك، تقدم الحشد، كانت روح المودة والتآخي هي السائدة، وألقي القبض على "**لوكومت**" وضباطه"[٦].

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر **18** مارس، كان "**تيير- Thiers**" وحكومته قد فروا من العاصمة؛ والآن، كانت إحدى مدن العالم الكبرى في يد عمال مسلحين، وهذه المرة لن يسلموها لمجموعة من السياسيين الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة.

ضرب جديد من السلطة

في البداية، كانت الجماهير المسلحة تمارس السلطة من خلال قادة "**الحرس الوطني**" المنتخبين- "لجنته المركزية"، إلا أن أولئك كانوا مصرين على ألا يفعلوا

شيئا يمكن أن يفسر باعتباره توجها دكتاتورياء وعليه قاموا بتنظيم انتخابات لكيان جديد هو "**الكومونة- Commune**" بناء على تصويت عام للذكور فى كل موقع محلى؛ وعلى خلاف كل النواب البريطانيين العاديين، كان يمكن أن يقوم الناخبون باستدعائهم فى أى وقت، ولا يحصل أى منهم على أجر أكثر من الأجر المتوسط الذى يحصل عليه عامل ماهر؛ بل إن أولئك النواب المنتخبون لم يكونوا مسئولين عن إقرار قوانين لكى يطبقها موظفون فحسب، بل كان عليهم أيضا متابعة تنفيذ تلك القوانين.

وبالفعل، كما أشار "**كارل ماركس**" فى دفاعه عن "**الكومونة**"، بعنوان "**الحرب الأهلية فى فرنسا- The Civil Warin France**"، فإنهم قاموا بتفكيك الدولة القديمة لتحل محلها بنية جديدة خاصة بهم، أكثر ديمقراطية من سواها منذ ظهور المجتمع الطبقى:

> **بدلا من البت مرة، ظل ثلاث أو ست سنوات فى معرفة أى عضو من الطبقة الحاكمة سوف يسيء تمثيل الشعب فى البرلمان، أصبح على حق الاقتراع العام أن يخدم الشعب المنظم فى كومونات... التنظيم الكومونى كان سيعيد إلى الجسم الاجتماعى كل القوى التى كانت قد ابتلعتها، حتى ذلك الحين، الدولة، تلك الزائدة الطفيلية التى تعيش عالة على المجتمع وتعوق حركته الحرة...**
>
> **كان سرها الحقيقى هو أنها كانت، من حيث الجوهر، حكومة طبقة عاملة، نتاج نضال الطبقة المنتجة ضد الطبقة المالكة، الشكل السياسى الذى تم اكتشافه مؤخرا، الذى يمكن أن يتحقق فى ظله التحرير السياسى للعمل[٧].**

كما يشير "**ماركس**" إلـــى أن "**الكومونة**"، باعتبارها ممثلا لشعب المدينة العامل، شرعت فى تطبيق إجراءات لمصلحتهم – مثل حظر العمل الليلـــى فى

المخابز، وقيام أصحاب العمل بفرض غرامات على العاملين، وتسليم الاتحادات العمالية المحلات أو الورش التى يقوم اصحابها بإغلاقها، وتقديم معاشات للأرامل وتعليم مجانى لجميع الأطفال، والتوقف عن تحصيل الديون الناتجة عن الحصاد وطرد المستأجرين نتيجة لعدم تسديد الإيجارات، كما عبرت "**الكومونة**" عن نزعتها الدولية- **Internationalism**- بتفكيك بقايا النزعة العسكريـــة - **Militarism**، بأن قامت بتعيين عامل ألمانى وزيرا للعمل(٨).

لم تكن لديها فرصة للكشف عن الإجراءات الأخرى التى ينبغى أن تقوم بها حكومة عمالية، حيث شرعت الحكومة الجمهورية على الفور فى تنظيم قوات مسلحة لقمعها، مستعينة فى ذلك بـــ"عدوها" البروسى. **أقنعت** "**بسمارك**" بإطلاق سراح أسرى الحرب الفرنسيين الذين كان قد تم أسرهم فى الخريف السابق، من الذين لم يكونوا قد تأثروا بالأفكار التى اجتاحت "باريس"، ثم جمعت أولئك فى "فرساى" مع مجندين جدد من الريف تحت قيادة ضباط من ذوى الميول الملكية؛ وبنهاية أبريل كان "**تيير**" يحاصر "باريس" بجيش مهمته سحق "**الكومونة**"، مع موافقة من "**بسمارك**" على السماح له بالمرور عبر الخطوط البروسية. واجهت "**الكومونة**" ظروفا شديدة الصعوبة، كما واجهت مشكلة أخرى، وهى أن ممثليها المنتخبين بالرغم من ولائهم البطولى لقضيتهم، كان ينقصهم الوعى السياسى الذى يمكنهم من الرد على القوات التى كانت تتجمع ضدهم.

كان تياران سياسيان رئيسيان قد برزا داخل حركة العمال فى فرنسا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر. كان هناك أولا التيار المرتبط بـــ"**أوجست بلانكى**- **August Blanqui**". كان يفهم نضال العمال باعتباره صيغة أكثر راديكالية وأكثر وعيا من الناحية السياسية، من "**يعقوبية**" **1793**، كما كان يؤكد على دور أقلية تآمرية شديدة التنظيم تعمل لمصلحة الطبقة العاملة. كانت حياة "**بلانكى**" سلسلة من المحاولات البطولية للتمرد المسلح، بينما لم تكن الجماهير ناضجة لذلك، ثم كانت فترات طويلة أخرى له فى السجن، كان العمال يتصرفون أثناءها بدونه (بما فى

ذلك سجنه على يد الحكومة الجمهورية طوال فترة "**الكومونة**"). أما **التيار الثانى** فكان قد نشأ عن تعاليم وأفكار "**برودون- Proudhon**" الاجتماعية. كان هناك رد فعل ساخط من أتباعه ضد "**اليعقوبية**"، ورفض للفعل السياسى. كانوا يجادلون بأن العمال يستطيعون حل مشكلاتهم عن طريق "**التبادلية- mutualism**"- اتحادات تنشئ أعمالا تعاونية- بعيدا عن الدولة.

كان "**ماركس**" يرى أن كلا النهجين قاصر بدرجة خطرة. لم يكن لديه أدنى شك في ضرورة أن يتعلم العمال من تجربة "**الثورة الفرنسية العظيمة**"، ولكنه كان يعتقد أن عليهم الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. كان لا بد من "**فعل سياسى حاسم**" كما كان يقول "**البلانكيون**"، إلا أنه كان ينبغى أن يكون مستندا إلى **نشاط جماهيرى منظم**، وليس إلى أعمال بطولية تقوم بها جماعات صغيرة. كان لا بد من "**تنظيم اقتصادى للإنتاج**"، كما كان يقول "**البرودونيون**"، إلا أن ذلك لا يمكن أن يتم دون "**ثـــورة سياسية**". بيد أن "**ماركس**" لم يكن فى وضع يجعله مؤثرا فى أحداث "باريس". كان هناك أشخاص فى "**الكومونة**" مثل **البلانكى** "**ڤايان- Vaillant**"، مستعدون للتعاون مع "**ماركس**"، ولكن لم يكن هناك أحد يقبل أفكاره تماما. لم تكن "**اللجنة المركزية للحرس الوطنى**" ولا "**الكومونة**" مكونة من "**ماركسيين**"، وإنما من "**بلانكيين**" و"**برودونيين**"- وكان اتخاذ القرار فيهما يعانى من عجز وقصور فى كلا النهجين.

لم يكن لدى الحكومة الجمهورية قوات تحت تصرفها عندما فرت من "باريس" فى **18** مارس، وكان بإمكان "**الحرس الوطنى**" أن يزحف على "ڤرساى" فى ذلك الوقت ويشتت الموجود من القوات دون طلقة واحدة، ولكن النهج "**البرودونى**"، اللاسياسى، جعل "**الكومونة**" تضيع وقتها فى إصدار قرارات صغيرة، تاركة "**تيير**" طليقا يقوم بحشد قوات، وعندما كشف عن أهدافه العدوانية، وبدأ يقصف "باريس" فى **2** أبريل، دعت "**الكومونة**" للزحف على "ڤرساى". لم يكن هناك استعدادات جادة لذلك، فانطلق "**الحرس الوطنى**" دون تنظيم جيد، ودون السلاح اللازم للرد على مدفعية الجانب الآخر؛ وهكذا كان أن أهدوا القوات الضعيفة فى "ڤرساى" انتصارا مجانيا، وأضاعوا فرصة تشتيتهم بسهولة.

وفى "باريس" نفسها، وقعوا فى خطأ مماثل. كان كل ذهب الدولة موجودا فى أقبية "بنك فرنسا- **Bank of France**". كان يمكن أن تستولى عليه "**الكومونة**"، لتمنع تمويل "**تيير**" وتحكم سيطرتها على اقتصاد البلاد، ولكن لا النهج "البلانكى" ولا النهج "**البرودونى**" كان يسمح بمثل ذلك الاعتداء على "**حقوق الملكية**"؛ والنتيجة، أن كانت الأمور أسهل مما ينبغى بالنسبة لـ"**تيير**".

انتقام البرجوازية

استغل "**تيير**" الفرصة لبناء جيش هائل، وبدأ فى قصف المدينة بانتظام من بعض القلاع فى الضواحى، ملحقا الهزيمة بقوات تابعة للـ"كومونة" فى سلسلة من المناوشات، ثم اقتحم المدينة فى **21** مايو. خاب أمله فى انتصار سهل، لو أنه كان قد توقع ذلك. حارب عمال "باريس" من شارع إلى شارع، ومن مبنى إلى آخر، وبعد أسبوع من القتال كان أن تمكنت قوات "**تيير**" من طردهم من الجزء الغربى الغنى من المدينة عبر المركز إلى حصن "**الكومونة**" فى الشرق، وسحق المقاومة الأخيرة فى الصباح الباكر يوم "أحد العنصرة- **Whit Sunday**".

بعد هزيمة "**الكومونة**" سادت حالة من العنف الجماعى غير مسبوقة فى الأزمنة الحديثة، بل إن صحيفة "لوفيجارو- **Le Figaro**" البرجوازية كتبت متباهية "لم يحدث أن حانت مثل تلك الفرصة لمداواة "باريس" من "الغنغرينا" المعنوية التى استهلكتها على مدى الـ**25** سنة الأخيرة"[٩] قادة قوات فرساى المنتصرون استغلوا الفرصة.

كل من قاتل دفاعا عن "الكومونة" كان يتم قتله على الفور. فى الفترة ما بين صباح "أحد العنصرة" و"اثنين العنصرة" فحسب، أعدم **1900** شخص (أكثر ممن قتلوا فى "باريس" فى "**عهد الإرهاب**"، بين **1793-1794**). كانت الدوريات تجوب الشوارع، وتلتقط الأكثر فقرا من بين الناس بشكل عشوائى، وتحكم على الكثيرين منهم بالإعدام بعد محاكمات لا تستغرق أكثر من نصف الدقيقة... لمجرد أنه كان

يبدو عليهم أنهم "**كومونيون**"؛ وهناك رواية لأحد الكهنة، كان قد شهد إعدام 25 امرأة، كن متهمات بإلقاء ماء مغلى على قوات متقدمة، كما علقت جريدة "التيمز- **Times**" اللندنية على:

> "..... **قوانين الانتقام اللاإنسانية، التى كانت قوات فرساى تقوم بموجبها بضرب وتعذيب وقتل السجناء والنساء والأطفال.... لا مثيل فى التاريخ لما حدث.... الإعدامات الجماعية التى كان ينفذها الجنود فى فرساى... شىء فظيع.. يمرض الروح**"[١٠].

يقدر المؤرخون الفرنسيون اليوم العدد الإجمالى للقتلى بما يتراوح بين **20,000** و **30,000** قتيل[١١]. كان هناك أيضا نحو **40,000** من "**الكومونيين**" محتجزين فى سفن قديمة، مستخدمة كسجون، لمدة عام قبل تقديمهم للمحاكمة، حكم على خمسة آلاف منهم بالترحيل وعلى خمسة آلاف آخرين بعقوبات أقل.

كان من بين المرحلين "**لويز ميشيل- Louise Michel**". زعيمة النساء المقاتلات الشهيرة. قالت "**لويز**" أمام المحكمة: "لن أدافع عن نفسى، ولن يدافع عنى أحد، أنا أنتمى قلبا وقالبا للثورة الاجتماعية، وإن أبقيتم على حياتى، لن أكف عن طلب الثأر"[١٢]. كانت "**الكومونة**" قد أحجمت عن منح المرأة حق التصويت نتيجة تحاملات وانحيازات المرحلة، إلا أن نساء الطبقة العمالية كن يعرفن، بالرغم من ذلك، أن سحق **الكومونة**، يعنى سحقهن.

كان للقمع أثره الكبير على الطبقة العاملة فى "باريس"، وكما يعلق "**أليستير هورن- Alistair Horne**": "تغير وجه باريس على نحو غريب لعدة سنوات: نصف النقاشين، نصف عمال السمكرة والسباكة والأحذية كان قد اختفى"[١٣]. كان لا بد من أن ينقضى عقدان من الزمان قبل أن يظهر جيل جديد من العمال الفرنسيين، الذين يتذكرون قمع "**الكومونة**" على يد **الحكومة** "**الجمهورية**"، والذين لديهم الإصرار على استئناف النضال من أجل عالم أفضل.

كانت الكلمة الأخيرة عن "**الكومونة**" لـ"**ماركس**". كان يرى أنها تمثل أعظم تحد واجهه عالم رأس المال الجديد حتى ذلك الحين – وأعظم إلهام للطبقة الجديدة خلقها رأس المال... ولكن لتكون ضده. كتب إلى صديقه "**كجلمان– Kugelmann**" إن "**الكومونيين**" هبوا "**يقتحمون السماء**"[١٤]، وأنهم وفروا نقطة انطلاق جديدة، ذات أهمية عالمية"[١٥].

الهوامش

(1) T. Gautier, quoted in A.Horne, "The Fall of Paris", (London, 1968), p.26.

(2) A.Horne, "The Fall of Paris", p.53.

(٣) انظر على سبيل المثال قائمة الأسعار كما يوردها A.Horne في المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق p.328.

(5) P.O. Lissagary, "History of the Paris Commune", translated by E.Marx, (London, 1976), p.65.

(٦) المصدر السابق – p.65.

(7) K.Marx, "The Civil War in France", in K.Marx and Engles Collected Works, vol.22, (London, 1986), pp. 333-334.

(8) K.Marx, "The Civil War in France", p.339.

(٩) كما ورد في: A.Horne, "The Fall of Paris", p.551.

(10) The Times, 29 May and 1 June 1871

كما ورد في المصدر السابق.

(11) A.Horne, "The Fall of Paris", p.556.

(١٢) تجد وصفا لمحاولة Louise Michel في أماكن كثيرة، انظر مثلا:

P.O. Lissagary, "History of the Paris Commune", pp. 343-344.

(13) A.Horne, "The Fall of Paris", p. 363.

(١٤) رسالة "ماركس" إلى كجلمان– Kugelmann في 12 أبريل 1871، وذلك في:

K.Marx and Engles "On the Paris Commune", (Moscow, 1976), p.284.

(١٥) رسالة "ماركس" إلى "كجلمان" في 17 أبريل 1871. في المصدر السابق p.285.

مصادر للمزيد من الاطلاع

*** Eric Hobsbawm's:**

- "The Age of Revolution".

- "The Age of Capital".

وتجد فيهما نظرة على المسيرة الطويلة وخاصة بالنسبة لأوروبا، كما يقدم **Gernet** فكرة عامة مماثلة عن الصين، جديرة باستكمالها لها بمصنف **Franz Schurmann** و**O.Scholl** بعنوان **"Imperial China"**.

*** Edward Countryman's:**

- "The American Revolution".

وهو مرجع لا غنى له بالنسبة لحرب الاستقلال، مثلما هو كتاب **James McPherson** بعنوان **The Battle Cry of Freedom** بالنسبة للحرب الأهلية الأمريكية.

*** Albert Soboul's "The French Revolution",**

- Peter Kropotkin's "The Great French Revolution",

- Amdré Guerin's "Class Struggle in the First French Republic",

هذه الكتب الثلاثة تقدم ثلاث وجهات نظر مختلفة كلها جديرة بالاطلاع عليها.

*** C.L.R. James's "The Black Jacobins",**

وتجد به الرواية الكلاسيكية لتمرد العبيد في هايتي.

*** Edward Thompson's "The Making of the English Working Class"**

وهو يغطي الفترة من ثمانينيات القرن الثامن عشر إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بينما يكمل كتاب **Dorothy Thompson** بعنوان **"The Chartists"** القصة عبر الحركة "الميثاقية".

*** F. Engel's "The Conditions of the Working Class in England",**

حيث تجد فيه وصفا تفصيليــا لتأثير الثورة الصناعية على حياة العمال، كما أن كتــاب John Saville بعنوان "1848" يقدم دراسة مفصلة للصراعات فى كل من بريطانيا وأيرلندا فى ذلك العام.

* **Roger Price's "Documents on the French Revolution of 1848"**

- **Jonathan Sperber's "Rhineland Revolution- aries".**

* **Karl Marx's "Class Struggles in France" and "The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte",**

- **F.Engels, "Revolution and Counter-Revolution in Germany".**

وهى أعمال تحتوى على تحليلات رائدة فى هذا السياق، مع العلم بأن الكتاب الأخير سبق أن صدر باسم "ماركس" فى طبعات قديمة، وهذا خطأ.

* للمزيد عن "ماركس" و"إنجلز"، انظر:

- **Alex Callinocos, "The Revolutionary Ideas of K.Marx",**
- **Franz Mehring, "Karl Marx",**
- **Lissigaray, "The History of the Paris Commune",**
- **Jelinek, "The Paris Commune",**
- **Alistair Horne, "The Siege of Paris".**
- **Marx, "The Civil War in France"**

كلها كتب مفيدة، ويظل الأخير أكثرها تميزا.

المؤلف فى سطور:

كريس هارمان (١٩٤٢ـ ٢٠٠٩)

صحفى وناشط سياسى ومُنظّر ماركسي من بريطانيا، كان عضوا فى اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي فى بريطانيا، وتولى رئاسة تحرير مجلة العامل الاشتراكى، ثم مجلة الاشتراكية الأممية.

له عدد من المؤلفات؛ منها:

- Education, capitalism and the student revolt (1968)
- Russia: How the Revolution Was Lost (1967)
- Unemployment and how to fight it (with Dave Peers) (1971)
- The struggle in Ireland (1975)
- Why Labour fails (1979)
- New technology and the struggle for socialism (1979)
- The summer of 1981: a post-riot analysis (1981)
- Days of Hope: The General Strike of 1926 (with Duncan Hallas) (1981)
- Gramsci versus Reformism (1983)
- The Revolutionary Press (Summer, 1984)
- Explaining The Crisis: A Marxist Reappraisal (London, 1984)
- The Changing Working Class: Essays on Class Structure Today (with Alex Callinicos) (London: Bookmarks, 1987)
- Russia: from workers' state to state capitalism (with Peter Binns and Tony Cliff) (London, 1987)
- Class Struggles in Eastern Europe, 1945-1983 (London, 1988)
- The Fire Last Time: 1968 And After (London, 1988)
- The revolutionary paper (1991)

- In The Heat of the Struggle: 25 Years of Socialist Worker (editor) (with an introduction by Paul Foot) (1993)
- Economics Of The Madhouse: Capitalism and the Market Today (London, 1995)
- How Marxism Works (London, 1997)
- The Lost Revolution: Germany 1918-23 (London, 1997)
- Marxism and History: Two Essays (London, 1998)
- A People's History of the World (1999)
- The Prophet And The Proletariat: Islamic fundamentalism, class and revolution (London, 1999)
- The IMF, Globalisation and Resistance (2000)
- Revolution in the 21st Century (2007)
- Capitalism's New Crisis: What do socialists say? (2008)
- Zombie Capitalism: Global Crisis and the Relevance of Marx (London, 2009) ISBN 978-1-905192-53-3
- Selected Writings (2011)

المترجم فى سطور:

طلعت الشايب

- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية – كلية المعلمين – القاهرة (١٩٦٢).
- عمل فى التدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى مصر والكويت وقطر.
- عمل مترجما فى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى الفترة من ١٩٦٨: ١٩٧٤، حيث شارك فى ترجمة عدد كبير من المراجع والوثائق والمؤتمرات (من وإلى العربية والإنجليزية والروسية).
- عمل مستشارا ومنسقا للمشروع القومى للترجمة فى المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٣ – ٢٠٠٦) ومساعدا لمدير المركز القومى للترجمة (٢٠٠٦ – ٢٠١٠).
- المحرر الرئيسى لموسوعة الأعمال الكاملة للرئيس الماليزى السابق "مهاتير محمد"، الصادرة بالإنجليزية والعربية عن دار الكتاب المصرى – دار الكتاب اللبنانى (١٩٩٦)، ومترجم ثلاثة أعمال منها هى: "التحدى"، و"الإسلام والأمة الإسلامية"، و"خطة جديدة لآسيا".
- حصل على جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة لأحسن رواية مترجمة (١٩٩٧) وهى "البطء" لـ "ميلان كونديرا".
- حصل على جائزة اتحاد الكتاب للترجمة (٢٠٠٣).
- عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة فى المجلس الأعلى للثقافة، ولجنة الإنسانيات فى المركز القومى للترجمة، ومجلس تحرير مجلة "أدب ونقد"، ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية" (٢٠٠٢ – ٢٠١٠)، ومحرر سلسلة "ميراث الترجمة" (٢٠٠٦ – ٢٠١٠).

ترجم نحو أربعين عملا من بينها:

- حدود حرية التعبير (تجربة كُتّاب القصة والرواية فى مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات)، رسالة دكتوراه للمستعربة السويدية مارينا ستاج. (شرقيات – ١٩٩٥).
- المثقفون، تأليف: پول چونسون (شرقيات – ١٩٩٨).
- صدام الحضارات. تأليف: صامويل هنتنجتون (سطور – القاهرة ط. أولى ١٩٩٨، ط. ثانية ١٩٩٩– ط. ثالثة ٢٠١٥ (عن الهيئة العامة للكتاب).
- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى. تأليف: آرثر هيرمان (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٠، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- الحرب الباردة الثقافية: دور المخابرات المركزية الأمريكية فى عالم الفنون والآداب. تأليف: ف. س. سوندرز (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٢، ط. ثانية ٢٠٠٣، ط. ثالثة ٢٠٠٤، ط. رابعة ٢٠٠٩).
- فى طفولتى: الطفولة فى السيرة الذاتية العربية. رسالة دكتوراه للمستعرب السويدى تيتز روكى. (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٢، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- غياب السلام. تأليف: نيكولاس جويات (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥).
- الفنون والآداب تحت ضغط العولمة. تأليف: چووست سمايرز (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥، ط. ثانية: مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٩).
- الاستشراق الأمريكى: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥، (المركز القومى للترجمة ٢٠١٠).
- نحو فهم للعولمة الثقافية. تأليف: پول هوپر، (المركز القومى للترجمة – ٢٠١١).

ومن ترجماته فى الإبداع:

- البطء، رواية "ميلان كونديرا"، (شرقيات – ١٩٩٦)
- الملاك الصامت، رواية "هينريش بول"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧)
- فتاة عادة، رواية "آرثر ميللر" (شرقيات – ١٩٩٧)
- عاريا أمام الآلهة، رواية "شيف كومار"، (شرقيات – ١٩٩٨)
- الحرير، رواية "أليساندرو باريكو"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧، ط. ثانية ٢٠١٢)
- الخوف من المرايا، رواية "طارق على"، (المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٠)
- اتبعى قلبك، رواية "سوزانا تامارو" (شرقيات – ٢٠٠٠)
- بقايا اليوم، رواية "كازو إيشيجورو" (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠١، ط. ثانية ٢٠٠٩)

المقدم فى سطور:

أسامة الغزولى

صحفى ومترجم، بدأ مترجما للغة الروسية فى القوات الجوية، عمل محررا ومترجمًا بعدد من الصحف فى مصر وفرنسا وإنجلترا، من ترجماته "أثر الجماعة فى تنمية الشخصية الفردية" عن الروسية، وعن الإنجليزية "السينما والإيديولوجية وشباك التذاكر". وصدر له فى سلسلة عالم المعرفة التى تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى دولة الكويت ترجمة لكتاب "علم النفس السياسى"، و"الثقافة فى عصر العوالم الثلاثة".

وترجم لدى المركز القومى للترجمة عدة كتب منها: "أجساد ثقافية"، و"هلال وراء الغيوم"، و"قوة الحمقى"، و"أحلام عولمية".

التصحيح اللغوى: **مبروك يونس**

المشرف على إنتاج المطبوعات: **حسن كامل**